# موسوعة
# خزائن العلوم الإسلامية
## في ضوء القرآن والسنة

الفقير إلى مولاه
محمد بن إبراهيم بن عبد الله التويجري

الجزء التاسع

الطبعة الأولى
١٤٤٧هـ - ٢٠٢٦

دار اللؤلؤة
للنشر والتوزيع
الجيزة - مصر

# موسوعة

# خزائن العلوم الإسلامية

## في ضوء القرآن والسنة

للفقير إلى عفو ربه

محمد بن إبراهيم بن عبد الله التويجري

الطبعة الأولى

١٤٤٧هـ - ٢٠٢٦م

الجزء التاسع

دار اللؤلؤة

للنشر والتوزيع

المنصورة - مصر

كل الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولي

١٤٤٧هـ - ٢٠٢٦م

رقم الإيداع: ٣٠٨٥٢ / ٢٠٢١م

الترقيم الدولي: ٨-٢٧١-٩٩٧-٩٧٧-٩٧٨

جوال المؤلف

٠٥٠٨٠١٣٢٢٢

٠٥٠٤٩٥٣٣٣٢

بريد إلكتروني: mb_twj@hotmail.com

دار اللؤلؤة للنشر والتوزيع

@DarElollaa

Dar_Elollaa@hotmail.com

الأزهر : شارع محمد عبده خلف الجامع الأزهر .

01050144505 - 0225117747

المنصورة : عزبة عقل - بجوار جامعة الأزهر .

01007868983 - 0502357979

# موسوعة

# خزائن العلوم الإسلامية

# في ضوء القرآن والسنة


بسم الله الرحمن الرحيم

# موسوعة خزائن العلوم الإسلامية

# الجزء التاسع

## ويشتمل على المباحث التالية:

٥٧- خزائن نواقض الإسلام

٥٨- خزائن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

٥٩- خزائن أعداء الإنسان

٦٠- خزائن الجهاد في سبيل الله

٦١- خزائن الخوف والرجاء

٦٢- خزائن التوبة والاستغفار

قال الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٥] .

# موسوعة خزائن العلوم الإسلامية

## ٥٧-خزائن نواقض الإسلام

وتشتمل على ما يلي:

أولًا : الكفر

ثانيًا : الشرك

ثالثًا : النفاق

رابعًا : الردة

خامسًا : البدع

# موسوعة خزائن العلوم الإسلامية

## ٥٧-خزائن نواقض الإسلام

وتشتمل على ما يلي:

١- الخزانة الأولى

٢- الخزانة الثانية

٣- الخزانة الثالثة

٤- الخزانة الرابعة

٥- الخزانة الخامسة

٦- الخزانة السادسة

٧- الخزانة السابعة

٨- الخزانة الثامنة

٩- الخزانة التاسعة

١٠- الخزانة العاشرة

# ٥٧- خزائن نواقض الإسلام

## ١- الخزانة الأولى

## نواقض الإسلام

**الأول** : **الكفر** : وهو إنكار الخالق جل جلاله .

- أصول نواقض الإسلام :

نواقض الإسلام كثيرة ، ويجمعها خمسة أمور :

**الأول** : الكفر ، ويزول بالإسلام .

**الثاني** : الشرك ، ويزول بالتوحيد .

**الثالث** : النفاق ، ويزول بالإيمان .

**الرابع** : الردة ، وتزول بالتوبة .

**الخامس** : البدعة ، وتزول بالسنة .

قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الرعد:٢٥] .

فالكفر : هو إنكار الخالق سبحانه .

والفرق بين الكفر والشرك أن الإسلام والإيمان ، والنبي والرسول ، والكفر والشرك ، هذه ألفاظ مترادفة ، يطلق كل واحد منها على الآخر إذا انفرد ، وإذا اجتمعا في جملة صار لكل واحد معنى خاصًا به ، وقد أطلق الله الكفر على الشرك وعكسه في عامة آيات القرآن ، فإذا اجتمع الكفر والشرك في آية أو جملة ، فالمراد بالكفر جحود الخالق سبحانه وهو أعم ، وأغلظ ، وأعظم من الشرك .

والمراد بالشرك جعل شريك لله في ربوبيته أو إلوهيته أو أسمائه وصفاته .
قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥ ﴾[البينة: ٥] .
وقال الله تعالى : ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[الملك: ٦] .
وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ۝٧٢ ﴾[المائدة:٧٢] .
فالشرك والكفر إذا اقترنا معًا ، فهما بمعنى واحد وهو الكفر بالله تعالى ، وإذا اجتمعا في آية أو حديث أو جملة ، فالمراد بالكفر جحود الخالق سبحانه والمراد بالشرك جعل شريك لله من مخلوقاته ، وإشراكه معه في الخلق أو العبادة أو فيهما معًا ، فالكفر كله هضم للربوبية ، والشرك كله تنقص للألوهية ، وهذا وهذا أظلم الظلم ، وأقبح القبائح وأخطر الأعمال ، وأكبر الكبائر : ﴿ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ ﴾ [إبراهيم:١٠] .
وقال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ۝١٣ ﴾[لقمان:١٣] .

- **أركان الكفر :**

**أركان الكفر أربعة : الكبر ، والحسد ، والغضب ، والشهوة .**

فالكبر يمنع الإنسان من الانقياد للحق ، والحسد يمنعه من قبول النصيحة فيدعها ، والغضب يمنعه من العدل ، والشهوة تمنعه من التفرغ للعبادة .
فإذا انهدم ركن الكبر ، سهل على الإنسان الانقياد للحق ، وإذا انهدم ركن الحسد ، سهل عليه قبول النصح وبذله ، وإذا انهدم ركن الغضب ، سهل عليه العدل وإتباعه ، وإذا انهدم ركن الشهوة ، سهل عليه الصبر والعفاف

والتفرغ للعبادة : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾[البقرة:٣٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾[النساء:٥٤ -٥٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾[مريم:٥٩] .

- **أقسام الكفر :**

**الكفر ينقسم إلى قسمين :**

**القسم الأول** : كفر أكبر ، مخرج من الملة ، وهو خمسة أقسام :

**الأول** : كفر التكذيب .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾[العنكبوت:٦٨] .

**الثاني** : كفر الإباء والاستكبار مع التصديق .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾[البقرة:٣٤] .

**الثالث** : كفر الظن والشك ، والشك ضد اليقين، كما قال سبحانه : ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ ﴾[الكهف:٣٧-٣٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

[ الحجرات : ١٥ ] .

**الرابع** : كفر الإعراض .

قال الله تعالى : ﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ ﴾[الأحقاف:٣] .

**الخامس** : كفر النفاق .

قال الله تعالى عن المنافقين : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾[المنافقون: ٣] .

القسم الثاني : كفر أصغر ، لا يخرج من الملة ، وهو الكفر العملي كالذنوب التي سميت في القرآن والسنة كفرًا ، وهى لا تصل إلى حد الكفر الأكبر ، مثل كفر النعمة ، والحلف بغير الله ، وقتال المسلمين ونحو ذلك: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾[النحل:١١٢] .

وعن ابن مسعود ﷺ ، عن النبي ﷺ قال : « سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ » . متفق عليه[1] .

عَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ ، أَنَّ ابْنَ عُمَرَ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ : لَا وَالكَعْبَةِ ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : لَا يُحْلَفُ بِغَيْرِ اللهَّ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهَّ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهَّ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ » . أخرجه أبو داود والترمذي بسند صحيح[2] .

وقد جعل الله ﷻ مرتكب الكبيرة مؤمنًا ، وجعلهم أخوة جميعًا، فقال سبحانه : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٤٨)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١١٦/ ٦٤).

(٢) صحيح/ أخرجه أبي داود برقم: ( ٣٢٥١)، وأخرجه الترمذي برقم: ( ١٥٣٥ ).

عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾[الحجرات:٩] .

**والفرق بين الكفر الأكبر والأصغر كما يلي :**

**أولًا** : الكفر الأكبر يخرج من الملة ، ويحبط الأعمال ، وصاحبه مخلد في النار ، مباح الدم والمال ، ولا يجوز للمؤمن محبته وموالاته .

**ثانيًا** : الكفر الأصغر لا يخرج من الملة ، ولا يحبط الأعمال ، لكن ينقصها بحسبه ، ويعرض صاحبه للوعيد ، ولا يخلد صاحبه في النار ، فيعذبه ثم الله يخرج من النار ، وقد يتوب الله عليه فلا يدخله النار أصلًا .

والكفر الأصغر لا يبيح الدم والمال ، ولا يمنع الموالاة مطلقًا فيوالي بقدر ما فيه من الإيمان والتقوى ، ويبغض بقدر ما فيه من العصيان والفجور .

- **أسباب الكفر :**

**للكفر أسباب كثيرة أهمها :**

**الأول** : الجهل والضلال، وتقليد الأسلاف، وهذا كفر أكثر الأتباع والعوام : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾[لقمان: ٢١] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[الجاثية:٢٤] .

**الثاني** : الجحود والعناد ، والحسد والكبر ، وأغلب ما يقع هذا النوع فيمن له رئاسة علمية في قومه ، كالأحبار والرهبان من اليهود والنصارى ، أو له رئاسة سلطانية كفرعون وكسرى وقيصر ، أو له تجارة مالية في قومه كقارون ، فيخاف هذا على ماله ، وهذا على سلطانه وهذا على مكانته ، فيؤثر الكفر على الإيمان عمدًا: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا

مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾[البقرة:٨٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾[يونس:٧٥].

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[التوبة: ٣٤] .

وقال الله تعالى عن كفار مكة : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[النمل:١٤] .

**الثالث** : الإعراض عن الحق ، فلا ينظر فيه ، ولا يحبه ، ولا يبغضه ، ولا يواليه ، ولا يعاديه لأن قلبه متعلق بغيره كمحبة المال والشهوات ، ومحبة الدار والوطن ، والأهل والعشيرة والعادات : ﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الأحقاف:٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾[لقمان: ٢١] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾[الأعراف:١٧٩] .

- **جزاء الكفار** :

كل كافر يعيش في الدنيا في ظلمة ، وحيرة ، وقلق ، وضنك، وشقاء ، ونكد، لأنه حرم طمأنينة الإيمان ، فضل عن الصراط المستقيم : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾[الشعراء:٢١٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه:١٢٣-١٢٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾ [إبراهيم:١] .

والكفار في النار متفاوتون في العذاب ، بحسب غلظ كفرهم ، وغلظ الكفر الموجب للعذاب على ثلاث درجات :

**الأولى** : من جحد وجود رب العالمين بالكلية ، وعطل العالم عن الرب الخالق المدبر له ، وهؤلاء هم الدهرية الذين جحدوا الرب ، وإمامهم فرعون ، وهذا أغلظ أنواع الكفر ، وعذابه أشد العذاب يوم القيامة :﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الجاثية:٢٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر:٤٥-٤٦] .

**الثانية** : من كفر عنادًا عمدًا على بصيرة ، مثل من شهد قلبه أن الرسول حق فيما رآه من آيات صدقه ، ثم كفر عنادًا وبغيًا كالمنافقين وأمثالهم: ﴿ كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾[آل عمران:٨٦-٨٨] .

وقال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾[النساء:١٤٥] .

**الثالثة** : من سعى من الكفار ليطفئ نور الله ، وصد عباده عن دينه بما تصل إليه قدرته ، فهو كافر بصد غيره عن الحق ، فعذابه أشد العذاب :﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾[النحل:٨٨] .

هؤلاء أشد الكفار عذابًا يوم القيامة ، وعذابهم بحسب غلظ كفرهم وعنادهم وأذاهم .

**الرابعة** : من دون هؤلاء في الكفر، من جهلة الكفار وعوامهم ، الذين لم يغلظ كفرهم ، ولم يؤذوا المسلمين ، هؤلاء مع أولئك في النار ، لكن عذابهم أقل : ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾[البقرة:٢٥٧ ] .

وقال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [محمد:١٢] .

وعن ابن سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا ، يَنْتَعِلُ بِنَعْلَيْنِ مِنَ نَارٍ ، يَغْلِي دِمَاغُهُ مِنْ حَرَارَةِ نَعْلَيْهِ » . أخرجه مسلم[1] .

(١) أخرجه مسلم برقم: ( ٣٦١/ ٢١١ ).

# ٢- الخزانة الثانية

## نواقض الإسلام

**نواقض الإسلام كثيرة ، ويمكن حصرها في عشرة نواقض :**

**الأول : الشرك بالله :**

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾[النساء:٤٨] .

**الثاني** : من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم ، ويسألهم الشفاعة ، فهو كافر .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾[الزمر:٣٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[يونس:١٨].

**الثالث** : من لم يكفر المشركين ، أو شك في كفرهم ، أو صحح مذهبهم ، فهو كافر .

قال الله تعالى : ﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ

أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤﴾ ﴾[الممتحنة:٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٦] .

**الرابع** : من أعتقد أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه ، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه ، فهو كافر.

قال الله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾ ﴾[النساء:٦٥ ].

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[آل عمران:٨٥] .

**الخامس** : من أبغض شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ ، ولو عمل به ، كفر .

قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٩﴾ ﴾[محمد:٨-٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٢٨﴾ ﴾ [محمد: ٢٨] .

**السادس** : من استهزأ بشيء مما جاء به الرسول ﷺ ، كفر .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[التوبة:٦٥-٦٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾[النساء:١٤٠] .

**السابع** : من اعتقد أن بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ ، فهو كافر .

قال الله تعالى :﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾[الأنعام:١٥٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾[ النساء : ١١٥ ] .

**الثامن** : الإعراض عن دين الله تعالى ، لا يتعلمه ولا يعمل به.

قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[السجدة:٢٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾[الأعراف:١٧٩] .

**التاسع** : مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين.

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾[المائدة:٥١] .

وقال الله تعالى : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾[آل عمران:٢٨] .

**العاشر** : السحر ، ومنه الصرف والعطف فمن فعله أو رضي به ، كفر .

قال الله تعالى : ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

[البقرة:١٠٢].

وقال الله تعالى : ﴿ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾ [طه:٦٩] .

فهذه أعظم نواقض الإسلام ، وهى أخطر ما يكون ، وأكثر ما يكون وقوعًا : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٦] .

ولا فرق في جميع هذه النواقض بين الهازل ، والجاهل ، والخائف ، إلا المكره والإكراه يكون بالقول أو الفعل .

قال الله تعالى : ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [النحل:١٠٦] .

- **حكم التكفير :**

من عرف التوحيد ، ولم يعمل به، فهو كافر معاند كإبليس وفرعون وأمثالهما، فإن عمل بالتوحيد ظاهرًا ، وهو لم يعتقد بقلبه، فهو منافق ، والمنافق شر من الكافر الخالص ، وليس كل من فعل مكفراً يحكم بكفره ، لأنه لابد أن تثبت شروط التكفير في حقه ، وتنتفي موانعه .

ومن كفره الله ورسوله ، وأقامت عليه الحجة، فهو كافر ، ومن لا فلا ، فقد يكون الإنسان حديث عهد بالإسلام ، وقد يفعل مكفراً ولا يعلم أنه كفر وقد ينكر شيئًا متأولًا ، فإذا بين له ذلك رجع .

فالواجب أن يكون القصد بيان الحق ، وإزهاق الباطل ، مع الحكمة ، والإنصاف ، والدعاء ، والرحمة ، ليكون الدين كله لله : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ [ آل عمران : ٧٣ – ٧٤ ] .

وقال الله تعالى: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٩ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [ آل عمران : ١٥٩ ] .

ونفرق بين تكفير الفعل ، وتكفير الفاعل ؛ أن نقول من فعل كذا فهو كافر ومن قال كذا فهو كافر ، لكن الشخص المعين الذي قاله أو فعله لا نحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة بكفره ، ومن لا فلا ، فالمؤمن إذا كان يخاف الله ، لكن شك في قدرة الله على بعثه إذا مات بسبب جهله ، فالله يغفر له مع أنه اعتقد ما يكفر به .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ : « أَسْرَفَ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ ، فَلَمَّا حَضَرَهُ المَوْتُ أَوْصَى بَنِيهِ فَقَالَ : إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي ، ثُمَّ اسْحَقُونِي ، ثُمَّ اذْرُونِي فِي الرِّيحِ فِي الْبَحْرِ ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبُنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ بِهِ أَحَدًا ، قَالَ فَفَعَلُوا ذَلِكَ بِهِ ، فَقَالَ لِلْأَرْضِ : أَدِّي مَا

أَخَذْتِ ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ ، فَقَالَ لَهُ : مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ فَقَالَ : خَشْيَتُكَ ، يَا رَبِّ – أَوْ قَالَ مخَافَتُكَ – فَغَفَرَ لَهُ بِذَلِكَ » . متفق عليه[1] .

**الثاني** : من نواقض الإسلام الشرك :

**والشرك** : هو جعل شريك لله تعالى في ربوبيته أو ألوهيته أو فيهما معًا .

- **أساس الشرك** :

أساس الشرك وقاعدته التي بني عليها هو التعلق بغير الله تعالى ، فمن تعلق بغير الله ، وكله الله إلى ما تعلق به ، وعذبه به ، وخذله من جهة ما تعلق به ، ليتوب إلى ربه ، وصار مذمومًا لا حامد له ، مخذولًا لا ناصر له : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥١﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٠-٥١] .

وقال الله تعالى : ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومٗا مَّخْذُولٗا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الإسراء:٢٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٣] .

- **قبائح الشرك** :

**ذكر الله ﷻ أربع قبائح للشرك في أربع آيات** :

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [النساء:٤٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾ ﴾ [المائدة:٧٢] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٣٤٧٨)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٢٥/ ٢٧٥٦).

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾[النساء:١١٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾[الحج: ٣١] .

- **أقسام الشرك :**

**الشرك ينقسم إلى قسمين :**

**القسم الأول** : شرك يتعلق بذات الله وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وهو نوعان :

**أحدهما** : شرك التعطيل ، وهو جحد الرب ، وهو أقبح أنواع الشرك كقول فرعون : ﴿ قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾[الشعراء:٢٣] .

**الثاني** : شرك من جعل مع الله إلهًا آخر كقول النصارى : ﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ ﴾[المائدة:٧٣] .

وشرك عباد الأصنام والكواكب الذين جعلوها مع الله إلهًا آخر : ﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾[ المائدة : ٧٣ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [فصلت:٣٧].

## القسم الثاني : الشرك في العبادة :

وهذا الشرك دون الأول ، فإنه يصدر ممن يعتقد أن لا إله إلا الله ، وأنه لا يضر ولا ينفع إلا الله ، ولكنه لا يخلص لله في معاملته وعبادته وهذا حال أكثر الناس كما قال سبحانه :﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾[يوسف: ١٠٦] .

**والشرك في العبادة ينقسم إلى قسمين** : شرك أكبر وشرك أصغر .

فالشرك الأكبر هو صرف العبادة أو بعضها لغير الله كدعاء غير الله ، والذبح لغير الله ، والنذر لغير الله من الجن والشياطين وأهل القبور وغيرهم ، وكدعاء غير الله مما لا يقدر عليه إلا الله ، كسؤال غير الله الغنى والشفا ، ونزول الغيث ، وتفريج الكربات ونحو ذلك مما يقوله الجاهلون عند قبور الأولياء والصالحين أو عند الأصنام من أشجار وأحجار : ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾[المائدة:٧٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾[فاطر:١٣-١٤] .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « سَأَلْت رَسُولَ اللهَّ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهَّ ؟ قَالَ أَنْ تجْعَلَ للهَّ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَك ، قال : قُلْت إنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ ، قال :

قُلْت ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ : أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَك مخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَك ، قال : قُلْت ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ : أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِك » . متفق عليه[1] .

- **أنواع الشرك الأكبر :**

**الشرك الأكبر أنواع :**

**الأول** : شرك الخوف ، وهو أن يخاف الإنسان غير الله من وثن أو صنم أو طاغوت أو ميت أو غائب من جن أو إنس ، أن يضره أو يصيبه بمكروه .

وهذا الخوف من أجل مقامات الدين وأعظمها ، فمن صرفه لغير الله فقد أشرك بالله الشرك الأكبر: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [آل عمران:١٧٥] .

**الثاني**: الشرك في التوكل، وهو التوكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

والتوكل على الله في كل شيء من أعظم أنواع العبادة : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [التغابن:١٣] .

والتوكل على الله في كل شيء من أعظم أنواع العبادة التي يجب إخلاصها لله وحده لا شريك له ، فمن توكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ، كالتوكل على الموتى والغائبين وغيرهم ، في دفع المضار وتحصيل المنافع وجلب الأرزاق ، فقد أشرك بالله الشرك الأكبر:﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [المائدة:٢٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ [الطلاق:٣] .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٤٤٧٧)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٤١/ ٨٦).

**الثالث** : الشرك في المحبة ، وهو أن يحب أحدًا كحب الله ، فمحبة الله تستلزم كمال الذل والتعظيم لله ، وهذه المحبة خالصة لله وحده ، ولا يجوز أن يشرك معه فيها غيره ، فمن أحب شيئًا من دون الله كحب الله ، فقد جعل لله شريكًا في الحب والتعظيم : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [البقرة:١٦٥] .

**الرابع** : الشرك في الطاعة ، وهو أن يجعل لله شريكًا في الطاعة من العلماء والأمراء، والرؤساء والحكام، ويطيعهم في التشريع، والتحليل ، والتحريم، كما يطيع الله: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [التوبة:٣١] .

**الخامس** : شرك الدعوة ، وهو أن يدعو مع الله غيره كدعاء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله :﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٥] .

**السادس** : شرك النية والإرادة والقصد ، وهو أن ينوي بعمله غير وجه الله ، فمن أراد بأعماله غير وجه الله ، وطلب الجزاء منه ، فقد أشرك بالله في نيته وإرادته والشرك بالله في النيات والإرادات ، بحر لا ساحل له ، وقل من ينجو منه ، وقد وقع فيه أكثر الخلق، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف: ١١٠] .

ويتبع هذا الشرك ، الشرك في الأقوال والأعمال ، فالشرك بالله في الأقوال كالحلف بغير الله على وجه التعظيم له ، والشرك بالله في الأعمال كالسجود لغير الله ، والسجود للقبور ، والطواف عليها ، والطواف بغير بيته العتيق ونحو ذلك : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[هود:١٥-١٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف: ١١٠] .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي ، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ » .رواه مسلم[1] .

(١)أخرجه مسلم برقم: (٤٦/ ٢٩٨٥).

# ٣- الخزانة الثالثة

- **أقسام الشرك في العبادة :**

**الشرك في العبادة ينقسم إلى قسمين :**

**الأول** : الشرك الأكبر .

**الثاني** : الشرك الأصغر .

والشرك الأصغر ، هو ما سماه الله ورسوله شركًا ، ولم يصل إلى حد الشرك الأكبر ، وهو ينقص التوحيد ، ولا يخرج من الملة ، وهو وسيلة إلى الشرك الأكبر .

والشرك الأصغر نوعان :

**الأول** : شرك ظاهر على اللسان والجوارح ، وهو أقوال وأفعال ، فالأقوال كالحلف بغير الله ، وقول ما شاء الله وشئت ، أو توكلت على الله وعليك ، أو لولا الله وفلان ، أو هذا من بركات الله وبركات فلان ، والصواب أن يقال لولا الله ثم فلان .

أما الأفعال فمثل لبس الحلق والخيط لرفع البلاء ، وتعليق التمائم خوفًا من العين أو الشيطان ونحو ذلك .

فمن اعتقد أن هذه أسباب ترفع البلاء أو تدفعه ، فهذا شرك أصغر ، لأن الله لم يجعل هذه أسبابًا ، ومن اعتقد أنها تدفع أو ترفع البلاء بنفسها ، فهذا شرك أكبر، لأنه تعلق بغير الله ﷻ، ومن تعلق بشيء من دون الله فهو مشرك: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥١ ﴾ [الذاريات: ٥٠-٥١] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ ﴾[الأعراف:١٩١-١٩٢] .

وعن حذيفة ﷺ ، عن النبي ﷺ قال : « لَا تَقُولُوا : مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ فُلَانٌ ، وَلَكِنْ قُولُوا : مَا شَاءَ اللهُ ، ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ » . أخرجه أحمد وأبو داود بسند صحيح[1] .

**الثاني** : شرك خفي ، وهو شرك في الإرادات والنيات كالرياء والسمعة ، وهو في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل ، فمن نقصت محبته لله أحب غيره ، إذ لو كملت محبته لله ، لم يحب سواه ، كأن يعمل عملًا يريد به ثناء الناس عليه ، كأن يحسن صلاته ، أو يتصدق أمام الناس ، أو يصوم ، أو يذكر الله ، ليراه الناس ، أو يسمعوه ، أو يمدحوه ، وهذا بحر لا ساحل له وقل من ينجو منه وهو إذا خالط العمل أبطله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف: ١١٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[الزمر:٦٥-٦٦].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ » . أخرجه مسلم[2] .

---

(١)صحيح/ أخرجه أبي داود برقم: ( ٤٣١ )، وأخرجه أحمد برقم: ( ٢٣٣٤٧ ).

(٢)أخرجه مسلم برقم: (٤٦/ ٢٩٨٥).

• **أقسام الشرك الخفي :**

**الشرك الخفي ينقسم إلى قسمين :**

**الأول** : شرك خفي أكبر كالنفاق الأكبر ، وهو تسوية غير الله بالله في شيء من خصائص الله كالخلق والعبادة ونحوهما .

**الثاني** : شرك خفي أصغر ، وهو مراتب متفاوتة ، يعلمها علام الغيوب .

فالأول صاحبه مخلد في النار ، والثاني على خطر عظيم ، لكنه تحت المشيئة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [النساء:٤٨] .

• **حكم الشرك الأكبر :**

الشرك الأكبر لا يغفره الله إلا بالتوبة ، وصاحبه مخلد في النار ، وهو محبط لجميع الأعمال ، إذا مات صاحبه ولم يتب ، وهو مبيح للدم والمال :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [النساء:٤٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [ الزمر : ٦٥ – ٦٦ ] .

• **حكم الشرك الأصغر :**

الشرك الأصغر لا يخرج من الملة ، ولكنه ينقص التوحيد ، ولا يخلد صاحبه في النار ، بل يعذب بذنوبه ، ثم يخرج من النار ، وقد يتوب الله عليه فلا يدخل النار .

والشرك الأصغر لا يحبط جميع الأعمال ، وإنما يحبط العمل الذي خالطه ولا يبيح الدم والمال كالأكبر ، وحكم فاعله حكم عصاة الموحدين .

وقد يكون الأصغر أكبراً بحسب ما في قلب صاحبه ، فيجب على المسلم الحذر من الشرك مطلقًا : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾[الشعراء:٢١٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الإسراء:٢٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف: ١١٠] .

- **خطر الشرك :**

الشرك بالله ظلم عظيم ، لأنه اعتداء على حق الله الخاص به وهو التوحيد ، فالتوحيد أعدل العدل ، والشرك أظلم الظلم ، وأقبح القبائح ، لأنه تنقص لرب العالمين ، واستكبارًا عن طاعته ، وصرف خالص حقه لغيره ، وعدل غيره به ، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا ولعظيم خطر الشرك ، فإن من لقي الله مشركًا ، فإن الله لا يغفر له، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [النساء:٤٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾[ النساء : ١١٦ ] .

**ثانيًا** : الشرك بالله أعظم الذنوب ، فمن عبد غير الله فقد وضع العبادة في غير موضعها ، وصرفها لغير مستحقها وذلك ظلم عظيم كما قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾[لقمان:١٣] .

ذلك أن الشرك الأكبر مخرج من الملة ، محبط لجميع الأعمال ، مبيح للدم والمال ، موجب للهلاك والخسران ، وهو أكبر الكبائر ، وصاحبه محروم من الجنة ، مخلد من النار ، وهو خيبة ونجاسة وخسارة وهلاك : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾[ التوبة : ٢٨ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الزمر:٦٥-٦٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾[التوبة:٥ ] .

وقال الله تعالى : : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾[المائدة:٧٢] .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حَتّى يَقُولوا لا إِلهَ إِلاَّ اللهُ ، فَمَنْ قالَ لا إله إلا الله فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلاَّ بِحَقِّهِ ، وَحِسابُهُ عَلى الله » . متفق عليه[1] .

وعن أبي بكر ﷺ قال : قال النبي ﷺ : « أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ؟ » . ثَلَاثًا « الْإِشْرَاكُ بِالله ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ - أَوْ قَوْلُ الزُّورِ - وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ مُتَّكِئًا ، فَجَلَسَ فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا : لَيْتَهُ سَكَتَ » . متفق عليه[2] .

- **حكم الطاغوت :**

**الطاغوت هو** : كل ما تجاوز به العبد حده من معبودٍ ، أو متبوعٍ ، أو مطاع . فالمعبود كالأصنام والأوثان ، والمتبوع كالكهان وعلماء السوء ، والمطاع كالرؤساء والأمراء الخارجين عن طاعة الله ورسوله: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل:٣٦ ] .

- **عدد الطواغيت :**

**الطواغيت كثيرون ، ورؤوسهم خمسة :**

- إبليس أعاذنا الله منه
- ومن عُبد وهو راض
- ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه
- ومن أدعى شيئًا من علم الغيب

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٦٩٢٤)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٣٢/ ٢٠).

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٢٦٥٤)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٤٣/ ٨٧ ).

- ومن حكم بغير ما أنزل الله .

فيجب على المسلم إتباع ما أنزل الله ، والكفر بالطاغوت بأنواعه : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾[البقرة:٢٥٧ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ ﴾[النحل:٣٦ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾[الزمر:١٧-١٨].

- **أقوال وأفعال من الشرك أو ومن وسائله :**

كل ما ورد في القرآن الكريم من لفظ الشرك فالمراد به الشرك الأكبر ، أما الأصغر فقد ورد في السنة الصحيحة .

وهناك أقوالٌ وأفعالٌ مترددة بين الشرك الأكبر ، والشرك الأصغر ، بحسب ما يقوم بقلب فاعلها ، وما يصدر عنه ، وهي تنافي التوحيد ، أو تعكر صفاءه ، وقد حذر الشرع منها كلها .

**ومن تلك الأقوال والأفعال التي حذر الشرع منها ما يلي :**

**الأول** : تعليق التمائم على الأولاد لاتقاء العين:

والتمائم كل ما يُعلق على الأشخاص أو الأشياء ، وذلك شرك ، لأنه تعلقٌ بغير الله ﷻ: ﴿ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾[الذاريات: ٥٠-٥١] .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الرُّقَى ، وَالتَّمَائِمَ ، وَالتِّوَلَةَ مِنَ الشِّرْكِ » .أخرجه أحمد وأبو داود بسندٍ صحيح[1].

**الثاني** : لبس الحلقة والخيط ونحوهما ، بقصد رفع البلاء أو دفعه :

وذلك شرك ، لأنه تعلقٌ بغير الله: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[الزمر:٦٥-٦٦] .

**الثالث** : التبرك بالأشجار والأحجار ، والقبور والآثار ونحوها:

وذلك شرك ؛ لأنه تعلقٌ بغير الله في حصول البركة: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾[الشعراء:٢١٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الإسراء:٢٢] .

**الرابع** : التطير والتشاؤم ببعض الطيور ، أو الأشخاص ، أو البقاع ، أو الأشياء ونحو ذلك :

وذلك شرك ، لكونه تعلقٌ بغير الله باعتقاد حصول الضرر من مخلوقٍ لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًا ، وهو من إلقاء الشيطان ووسوسته ، وهو ينافي التوكل على الله :﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[التغابن:١٣] .

وعن أنس رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال : « لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ ، وَيُعْجِبُنِي الفَأْلُ الصَّالِحُ : الكَلِمَةُ الحَسَنَةُ » . متفقٌ عليه[2] .

---

(١)صحيح/ أخرجه أبي داود برقم: ( ٣٨٨٣ )، وأخرجه أحمد برقم: ( ٣٦١٥ ).

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٥٧٥٦)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٠٢/ ٢٢٢٠).

**الخامس** : السحر :

وهو كل ما خفي ولطف سببه ، وهو عبارة عن رقى وعزائم ، وكلامٌ يتكلم به، وأدوية، فيؤثر في القلوب والأبدان، فيمرض أو يقتل أو يفرق بين المرء وزوجه .

والسحر كفر ، لما فيه من التعلق بغير الله من الشياطين ، ولما فيه من أدعاء علم الغيب : ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [ البقرة : ١٠٢ ] .

**السادس** : الكهانة :

وهي ادعاء علم الغيب ، كالإخبار بما سيقع مستقبلًا في الأرض استنادًا إلى الشياطين ، والعراف الذي يدعي معرفة الأمور التي وقعت ، وذلك شرك ، لما فيها من التقرب إلى غير الله ، ودعوى مشاركة الله في علم الغيب الذي أختص به وحده ، فمن أتى الكاهن أو العراف لم تقبل له صلاةٌ أربعين يومًا ، فإن صدقه فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ .

عن بعض أزواج النبي ﷺ رضي الله عنهن عن النبي ﷺ قال : « مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً » . أخرجه مسلم[1] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ فِيمَا يَقُولُ ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ».أخرجه أحمد والحاكم بسندٍ صحيح[2].

**السابع** : التنجيم :

وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية ، على الأحوال الأرضية ، بواسطة النجوم ، كأوقات هبوب الرياح ، ومجيء المطر ، وحدوث الأمراض والوفيات ، ومجيء الحر والبرد ، وتغير الأسعار ونحو ذلك ، وذلك شرك ، لما فيه من نسبة الشريك لله في التنبؤ وفي علم الغيب .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنِ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنَ النُّجُومِ ، اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنْ السِحْرِ ، زَادَ مَا زَادَ ». أخرجه أحمد وأبو داود بسندٍ صحيح[3].

**الثامن** : الاستسقاء بالنجوم :

وهو نسبة نزول المطر إلى طلوع النجم أو غروبه ، كأن يقول : مُطرنا بنوء كذا وكذا فينسب نزول المطر إلى الكوكب لا إلى الله ، فهذا شرك ؛ لأن نزول المطر بيد الله لا بيد الكوكب ولا غيره .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ( ١٢٥/ ٢٢٣٠ ).

(٢)صحيح/ أخرجه الحاكم برقم: ( ١٥ )، وأخرجه أحمد برقم: ( ٩٥٣٦ ).

(٣)صحيح/ أخرجه أبو داود برقم: ( ٣٩٠٥)، وأخرجه أحمد برقم: ( ٢٨٤٠ ).

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[لقمان:٣٤] .

وعن زيد بن خالد الجنهي ﷺ أنه قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماءٍ كانت من الليلة ، فلما أنصرف أقبل على الناس فقال : « هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ » . قَالُوا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : « قَالَ : أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِفَضْلِ الله وَرَحْمَتِهِ ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا ، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ » . متفقٌ عليه[1] .

وعن أبي مالك الأشعري ﷺ أن النبي ﷺ قال : « أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ ، لَا يَتْرُكُونَهُنَّ : الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ ، وَالْاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ ، وَالنِّيَاحَةُ » . أخرجه مسلم[2] .

**التاسع** : نسبة النعم إلى غير الله:

فالنعم كلها من الله وحده ، ومن نسبها إلى غير الله فهو مشرك ، كمن ينسب نعمة حصول المال أو الشفاء إلى فلان أو فلان ، أو ينسب نعمة السير والسلامة في البر والبحر والجو إلى السائق والملاح والطيار ، أو ينسب نعمة حصول النعم ، ودفع النقم إلى جهود الحكومات أو الأفراد ، أو العالم ونحو ذلك ، فيجب نسبة جميع النعم إلى الله وحده لا شريك له ، وما يحصل على يدي بعض المخلوقين إنما هي أسبابٌ قد تثمر وقد لا تثمر ، وقد تقع وقد لا : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٨٤٦)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٢٥/ ٧١).
(٢)أخرجه مسلم برقم: ( ٢٩/ ٩٣٤).

تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[النحل:٥٣ -٥٥] .

**العاشر** : الذبح لغير الله ، كمن ذبح للجن أو الشياطين أو الأولياء ونحوهم : فهذا كله من الشرك ؛ لأن الذبح عبادة لا يجوز صرفها إلا لله وحده ، ومن ذبح لغير الله فذبيحته حرام ؛ لأنها مما أُهل لغير الله به ، ولأنها ذبيحة مرتد ، فلا يجوز أكلها ، ولو سمى الله عليها ، والعبد مأمورٌ أن يكون كل عمله لله وحده لا شريك له، كما قال سبحانه : ﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٦١-١٦٣ ] .

# ٤ - الخزانة الرابعة

- **حكم الإتيان إلى الكهان :**

**الإتيان إلى الكهان وأمثالهم له ثلاث حالات :**

**الحالة الأولى** : أن يأتي الإنسان إلى الكاهن فيسأله من غير أن يصدقه ، أو يستمع إليه من غير أن يصدقه عن طريق القنوات أو الأشرطة ونحوها .

فهذا حرام ، وعقوبته أنه لا تقبل له صلاةٌ أربعين يومًا .

عن بعض أزواج النبي ﷺ رضي الله عنهن عن النبي ﷺ قال : « مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً » . أخرجه مسلم[1] .

**الثانية** : أن يأتي الإنسان إلى الكاهن ، ويسأله فيصدقه بما يقول .

فهذا كفرٌ والعياذ بالله :﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [ الزمر ٦٥ – ٦٦ ] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ فِيمَا يَقُولُ ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ » . أخرجه أحمد والحاكم بسندٍ صحيح[2].

**الثالثة** : أن يأتي الإنسان إليه فيسأله ، ليبين للناس حاله ليحذروه .

فهذا لا بأس به كما فعل النبي ﷺ مع أبي صياد ، وهذا لمن له مقامٌ في العلم.

---

(١)أخرجه مسلم برقم: ( ١٢٥/ ٢٢٣٠).

(٢)صحيح/ أخرجه الحاكم برقم: ( ١٥)، وأخرجه أحمد برقم: ( ٩٥٣٦).

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن عمر أنطلق برهطٍ من أصحاب النبي ﷺ مع النبي ﷺ قبل بن صياد حتى وجدوه يعلب مع الغلمان عند أُطم بني مغالة ، وقد قارب يومئذ بن صياد يحتلم ، فلم يشعر بشيء حتى ضرب النبي ﷺ ظهره بيده ، ثم قال النبي ﷺ : « تَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللهَّ ؟ » . ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ ابْنُ صَيَّادٍ ، فَقَالَ : أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ الأُمِّيِّينَ ، فَقَالَ ابْنُ صَيَّادٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللهَّ ؟ فَرَفَضَهُ وَقَالَ : « آمَنْتُ بِاللهَّ وَبِرُسُلِهِ » . فَقَالَ لَهُ : « مَاذَا تَرَى ؟ » . قَالَ ابْنُ صَيَّادٍ : يَأْتِينِي صَادِقٌ وَكَاذِبٌ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « خُلِّطَ عَلَيْكَ الأَمْرُ » . ثُمَّ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: « إِنِّي قَدْ خَبَأْتُ لَكَ خَبِيئًا » . فَقَالَ ابْنُ صَيَّادٍ : هُوَ الدُّخُّ ، فَقَالَ : « اخْسَأْ ، فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ » . فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُّ عَنْهُ : دَعْنِي يَا رَسُولَ اللهَّ أَضْرِبْ عُنُقَهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « إِنْ يَكُنْهُ فَلَنْ تُسَلَّطَ عَلَيْهِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْهُ فَلاَ خَيْرَ لَكَ فِي قَتْلِهِ » . متفق عليه[1] .

- **فتنة السحرة والكهان :**

الإتيان إلى السحرة والعرافين والكهان من نواقض الإسلام ، وقد أبتلى الله ﷻ العباد ، فجعل عند هؤلاء الإصابة في بعض الأحيان ليغتر الناس بإصابتهم كل ذلك فتنةٌ وابتلاءٌ للعباد .

قال الله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٣٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [العنكبوت:٢-٣] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ١٣٥٤)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٨٥/ ٢٩٢٤).

وعن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنها سمعت النبي ﷺ يقول : « إِنَّ المَلاَئِكَةَ تَنْزِلُ فِي العَنَانِ : وَهُوَ السَّحَابُ ، فَتَذْكُرُ الأَمْرَ قُضِيَ فِي السَّمَاءِ ، فَتَسْتَرِقُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ فَتَسْمَعُهُ ، فَتُوحِيهِ إِلَى الكُهَّانِ ، فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ » . متفق عليه[1] .

- **حكم الاستغاثة بالأموات والغائبين :**

الاستغاثة بالأموات والغائبين هو دعاؤهم ، وكله من الشرك الذي حرمه الله ورسوله ، وهو من جنس عباد الأوثان ، الذين يعبدون الشيطان الذي دخل في الأوثان : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾[يس:٦٠-٦٢] .

يتصور لهم الشيطان بصورة المستغاث به ، ويخاطبهم مكاشفة ، ويقضي بعض حوائجهم ، فيدخل الشياطين في الأصنام ، وتكلم عابديها ، وتقضي بعض حاجاتهم ، فيظن الجاهل أن ذلك كرامة للشيخ .

وهذا من أعظم الأسباب التي عُبدت بها الأوثان والأصنام ، وأيضًا الكهان والسحرة تقترن بهم الشياطين ، لما فيهم من الكفر والفسوق والعصيان ، فتظهر منهم الأحوال الشيطانية وتقوى بحسب ذلك ، فيطيرون في الهواء ، ويخبرون بأمورٍ غائبة ، وتأتيهم الشياطين بالأموال والطعام ، فلهم من الأحوال الشيطانية نصيبٌ بحسب ما فيهم مما يرضي الشيطان من الكفر والمعاصي :﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ٣٢١٠، واللفظ له، ومسلم برقم: ١٢٢/ ٢٢٢٨.

ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾[الأحقاف:٥-٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾[الشعراء:٢٢١-٢٢٣] .

- **معبود المشركين :**

المشركون الذين وصفهم الله ورسوله بالشرك أصلهم صنفان :

قوم نوح ، وقوم إبراهيم ، فقوم نوح ﷺ كان أصل شركهم أرضي ، وذلك بالعكوف على قبور الصالحين ، ودعاء الله عندها ، ثم زين لهم الشيطان ذلك فصوروا تماثيلهم ، ثم أمرهم بعد زمن بعبادتها : ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا ﴾[ نوح : ٢٣ – ٢٥ ] .

وقوم إبراهيم ﷺ كان أصل شركهم سماوي ، بعبادة الكواكب والشمس والقمر ، فزين لهم الشيطان اتخاذها شفعاء عند الله ، ثم أمرهم بعبادتها .

فكل هؤلاء وهؤلاء مشركون ، وكل المشركين إنما يعبدون الجن والشياطين ، وهم يرونهم في صورة مخلوقٍ يُرى ، فإن الشياطين تخاطبهم وتعينهم على الأشياء ، وتتصور لهم بصور الآدميين فيرونهم بأعينهم .

والجن كالأنس فيهم المؤمن والكافر ، والشياطين يوالون وينفعون من فعل ما يحبون من الشرك والكفر ، والفسوق والعصيان : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[ سبأ :٤٠-٤١] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾[يس:٦٠-٦٢] .

- **حكم اتخاذ الوسائط بين الله وخلقه :**

**تستخدم الوسائط بين الملوك والناس على ثلاثة وجوه :**

**الأول** : إما لإخبارهم بما لا يعرفونه من أحوال الناس ، والله ﷻ ليس مثلهم ؛ لأنه سميعٌ بصير يعلم كل شيء فلا يحتاج لأحد : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ ﴾[ فاطر : ٣٨ ] .

وقال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾[ الشورى : ١١] .

**الثاني** : أن يكون الملك عاجزًا عن تدبير رعيته ، ودفع أعدائه ، فلضعفه وعجزه يتخذ أنصارًا يعينونه ، والله سبحانه هو الغني القوي ، وكل ما سواه فقير إليه ، فلا يحتاج إلى أحدٍ من الخلق يعينه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾[فاطر:١٥] .

**الثالث** : أن يكون الملك ليس مريدًا لنفع رعيته إلا بمحركٍ يحركه ، فإذا خاطبه سادة رعيته تحركت همته بنفع رعيته ، وقبل شفاعتهم لحاجته إليهم ، أو خوفه منهم ، أو لإحسانهم إليه ، والله ﷻ لا يرجو أحدًا ، ولا يخافه ، ولا يحتاج إلى أحد ، بل هو الغني سبحانه رب كل شيء ومليكه ، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، وما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فلا يحتاج ربنا إلى من يعلمه ؛ لأنه العليم بكل شيء ، ولا يحتاج إلى من يعينه ، لأنه قادر على كل شيء ، ولا يحتاج من يشفع عنده ليحسن إلى خلقه ، لأنه الغني الكريم الرحيم ، فمن أتخذ الوسائط من الأصنام والأوثان وغيرها بين

الله وخلقه فهو مشرك جاهل بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله :﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٨ ﴾[يونس:١٨].

وقال الله تعالى : ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤ ﴾[الأحقاف:٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٢٣ ﴾[سبأ:٢٢-٢٣] .

- **بطلان الشرك .**

الكفر والشرك هو الباطل كله ، وهو أظلم الظلم ولا يبقى على الكفر والشرك إلا جاهلٌ بنفسه ، وجاهلٌ بالله وأسمائه وصفاته ، وجاهلٌ بعظمة ملكه وسلطانه ، وجاهل بدينه وشرعه ، وجاهلٌ بوعده ووعيده ، فالتوحيد هو الحق كله ، والشرك هو الباطل كله .

قال الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤ ﴾ [فاطر:١٣-١٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [فاطر:٤٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الفرقان:٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ ﴾ [لقمان:٣٠] .

- **حكم إبقاء مواطن الشرك :**

يجب على المسلمين إحقاق الحق ، وإبطال الباطل ، ونشر التوحيد ، وإزالة الشرك ومظاهره ، وإظهار معالم الدين وسننه ، والقضاء على مظاهر الشرك ومواطنه، ولا يجوز للمسلمين إبقاء مواطن الشرك والأصنام ولا يومًا واحدًا متى قدروا على إبطالها وإزالتها، وقد أرسل النبي ﷺ الرسل والسرايا والأشخاص لتكسير الأصنام وهدمها ، وكل ما يُعبد من دون الله ليكون الدين كله لله، بل كسر ﷺ الأصنام التي في الكعبة بنفسه ﷺ .

عَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قَالَ : دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ يَوْمَ الفَتْحِ ، وَحَوْلَ البَيْتِ سِتُّونَ وَثَلاَثُ مِائَةِ نُصُبٍ فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ ، وَيَقُولُ : « جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ ، جَاءَ الحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ البَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ » . متفق عليه[1] .

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٤٢٨٧)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٨٧/ ١٧٨١).

- **حكم موافقة المشركين :**

**إظهار الموافقة للمشركين لها ثلاث حالات :**

**الأولى** : أن يوافقهم المسلم في الظاهر والباطن ، فهذا كافر سواء كان مكرهًا أو مختارًا : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الزمر:٦٥-٦٦] .

**الثاني** : أن يوافقهم في الباطن ، ويخالفهم في الظاهر ، فهذا منافقٌ أشد من الكافر: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ [النساء:١٤٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [التوبة: ٦٨] .

**الثالث** : أن يوافقهم في الظاهر ، دون الباطن ، وهذا له حالتان :

**الأولى** : أن يفعل ذلك لكونه في سلطانهم ، إذا ضربوه وهددوه بالقتل ، فهذا مكره يجوز له موافقتهم في الظاهر إذا كان قلبه مطمئنًا بالإيمان .

**الثاني** : أن يفعل ذلك وهو ليس ، سلطانهم ، وإنما حمله على ذلك الطمع في مالٍ أو رئاسة أو وطنٍ أو نحو ذلك ، فهذا مرتدٌ ، قد بدل نعمة الله كفرًا :﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [النحل:١٠٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾ [إبراهيم:٢٨-٢٩] .

- **أحكام المشرك :**

**المشرك له أحكام في الدنيا والآخرة :**

**أولًا : أحكام المشرك في الدنيا .**

أولًا : المشرك لا يقبل منه أي عملٍ مع الشرك .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الزمر:٦٥-٦٦] .

**ثانيًا** : المشرك لا تحل مناكحته .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ ﴾[البقرة:٢٢١] .

**ثالثًا** : المشرك حلال الدم والمال .

قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾[التوبة:٥ ] .

**رابعًا** : المشرك نجس لا يحل له دخول المسجد الحرام .

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾[التوبة:٢٨] .

**خامسًا** : المشرك لا يرث المسلم وعكسه .

عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ ، وَلَا يَرِثُ الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ » . متفق عليه[1] .

**سادسًا** : تحرم ذكاة المشرك ، وتسقط ولايته ، ويسقط حقه بالحضانة ؛ لأنه كافر ، ولا ولاية لكافرٍ على مسلم .

**سابعًا** : إذا مات المشرك على الشرك ، أو النفاق ، فإنه لا يُغسل ولا يُكفن ولا يُصلى عليه ، ولا يدعى له بالرحمة ، ولا يدفن في مقابر المسلمين ، ولا يُورث ؛ لأنه كافر: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [ التوبة : ٨٤ ] .

**ثانيًا** : أحكام المشرك في الآخرة :

**أولًا** : إذا مات المشرك على الشرك ، فإن الله لا يغفر له .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [النساء:٤٨] .

**ثانيًا** : إذا مات المشرك على الشرك ، فإنها تحرم عليه الجنة تحريمًا مؤبدًا .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ [المائدة:٧٢] .

**ثالثًا** : إذا مات المشرك على الشرك فمأواه جهنم خالدًا فيها أبدًا .

قال الله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [التوبة: ٦٨] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٦٧٦٤ )، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١/ ١٦١٤ ).

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ١٦٢ ﴾ [البقرة:١٦١-١٦٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ٦ ﴾ [ البينة : ٦ ] .

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال : « مَنْ مَاتَ وَهْوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ » . متفقٌ عليه[1] .

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٤٤٩٧ )، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٤٢/ ٨٦).

# ٥- الخزانة الخامسة

**الثالث من نواقض الإسلام : النفاق :**

**والنفاق هو** : إظهار الإسلام ، وإبطان الكفر ، سُمي بذلك ؛ لأن المنافق يدخل في الإسلام من باب ، ويخرج من بابٍ آخر .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [المائدة:٦١] .

وقال الله تعالى عن المنافقين : ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [البقرة:١٤-١٦] .

- **خطر النفاق :**

النفاق أشد وأخطر من الكفر ، وأهله في الدرك الأسفل من النار ؛ لعموم الابتلاء بهم ، وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله ، فهم منسبون إليه وإلى نصرته وموالاته ، وهم أشد أعدائه الذين يكيدون للإسلام وأهله من داخله.

قال الله تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [المنافقون: ١-٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ [النساء:١٤٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[التوبة:٦٧] .

- **أقسام النفاق :**

**النفاق ينقسم إلى قسمين :**

**الأول** : النفاق الأكبر :

وهو أن يظهر الإنسان الإسلام ، ويبطن الكفر ، ويسمى النفاق الاعتقادي ، وكل نفاقٍ ذكر في القرآن فهو من هذا النوع ، وهذا هو النفاق الذي كان على عهد رسول الله ﷺ ، ونزل القرآن بذم أهله وتكفيرهم ، وأخبر أنهم في الدرك الأسفل من النار ؛ لأنهم خارجون من ملة الإسلام .

وقد وصف الله أهله بصفات الشر كلها من الكفر بالله ، وعدم الإيمان ، والاستهزاء بالدين وأهله ، والسخرية بهم ، والصد عن سبيل الله ، وعداوة المؤمنين ، والكيد لهم ، وتفريق صفوفهم ، وتمزيق وحدتهم .

قال الله تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾[المنافقون: ١-٣] .

وقال الله تعالى عن المنافقين : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[التوبة:٦٥-٦٦] .

- **أنواع النفاق الأكبر :**

**النفاق الاعتقادي ثمانية أنواع :**

**الأول** : تكذيب الرسول ﷺ .

**الثاني** : تكذيب بعض ما جاء به الرسول ﷺ .

**الثالث** : بغض الرسول ﷺ .

**الرابع** : بغض ما جاء به الرسول ﷺ .

**الخامس** : كراهية انتصار دين الرسول ﷺ .

**السادس** : السرور بانخفاض دين الرسول ﷺ .

**السابع** : عدم اعتقاد وجوب تصديق الرسول ﷺ فيما أخبر به .

**الثامن** : عدم اعتقاد وجوب طاعته ﷺ فيما امر به .

وغير ذلك مما دل عليه الكتاب والسنة على أنه من النفاق الأكبر ، المخرج من ملة الإسلام ، الذي لا يكون صاحبه إلا عدوًا لله ورسوله .

فهذه الأنواع الثمانية ونحوها مما ورد في القرآن والسنة ، وصاحبها في الدرك الأسفل من النار : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف: ١١٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [التوبة:٦٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء:٦٥] .

وقال الله تعالى : ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة:٨٥] .

- **من صفات المنافقين في القرآن :**

بين الله ﷻ صفة هذا العدو من الناس ، وهم المنافقون ، في سورٍ وآياتٍ كثيرة ، بينها في سورة التوبة ، وفي سورة المنافقين ، وفي غيرها من السور والآيات ؛ وذلك لعظيم خطرهم ، وضررهم، وكيدهم للإسلام والمسلمين.

قال الله تعالى : ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة:٦٧] .

وقال الله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة:١٣-١٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾ [المنافقون:٢] .

وقال الله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ [المنافقون: ٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[التوبة:٥٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾[التوبة:٥٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[التوبة:٦٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾[التوبة:٦٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾[ النساء : ١٤٢ – ١٤٣ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ﴾[التوبة:٧٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾[التوبة:٧٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾[التوبة:٨٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[البقرة:٩-١٠] .

وغير ذلك من صفاتهم المذكورة في القرآن في سورة البقرة والتوبة والمنافقون وغيرهم .

**القسم الثاني من النفاق** : النفاق الأصغر .

**والنفاق الأصغر** : هو عمل شيء من أعمال المنافقين ، مع بقاء الإيمان بالقلب ، ويسمى النفاق العملي ، وقد بينه النبي ﷺ في سنته .

وهذا النفاق الأصغر لا يخرج من الملة ، لكنه وسيلة إلى النفاق الأكبر ، فصاحبه يكون فيه إيمان ونفاق ، وإذا كثر صار بسببه منافقًا خالصا .

- **أصول النفاق الأصغر** :

**أصول النفاق العملي خمسة** :

- إذا حدث كذب
- وإذا عاهد غدر
- وإذا وعد أخلف
- وإذا خاصم فجر
- وإذا اؤتمن خان .

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا : إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا

خَاصَمَ فَجَرَ » . متفق عليه[1] .

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاَثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ » . متفق عليه[2] .

• **الفرق بين النفاق الأكبر ، والنفاق الأصغر :**

**أهم الفروق بين النفاق الأكبر والأصغر ما يلي :**

**أولًا** : النفاق الأكبر يخرج من الملة ، والنفاق الأصغر لا يخرج من الملة .

**ثانيًا** : النفاق الأكبر صاحبه مخلد في النار ، إذا مات ولم يتب ، وصاحب النفاق الأصغر لا يخلد في النار .

**ثالثًا** : النفاق الأكبر لا يصدر من مؤمن ، والنفاق الأصغر قد يصدر من المؤمن .

**رابعًا** : النفاق الأكبر اختلاف السر والعلانية في النية ، والنفاق الأصغر اختلاف السر والعلانية في العمل .

**خامسًا** : النفاق الأكبر في الغالب لا يتوب صاحبه ، والنفاق الأصغر قد يتوب صاحبه ، فيتوب الله عليه : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾[النساء:١١٠ ] .

فعلينا أن نجتنب النفاق الأكبر والأصغر ، ففي ذلك السلامة والنجاة : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف: ١١٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾[ البينة : ٥ ] .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٣٤)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٠٦/ ٥٨).

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٢٦٨٢)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٠٧/ ٥٩ ).

- **وجود المنافقين :**

المنافقون موجودون في كل زمان ومكان ، ويكثر عددهم ، ويزيد ظهورهم عندما تظهر قوة الإسلام ، ولا يستطيعون مقاومته في الظاهر ، فيظهرون الدخول فيه لأجل مقاومته والكيد له في الباطن ، وتمزيق وحدة أهله ، كما حصل من المنافقين في عهد النبي ﷺ في المدينة .

وكذلك يظهرون الإسلام ، ويبطنون الكفر ، ليعيشوا مع المسلمين ، ويستظلوا بظل الإسلام ، ويأمنوا على دمائهم وأموالهم .

وهم يظهرون في كل زمان ومكان بثياب مختلفة من الرؤساء والأمراء ، والعلماء والعبّاد ، والتجار والأطباء ، وغيرهم .

ولعظيم خطرهم وضررهم هتك الله أستارهم ، وكشف أسرارهم في القرآن الكريم ، وجلى لعباده صفاتهم وأعمالهم ، ليحذروهم ، ويكونوا على بينة من أمرهم ، فهم أشد الأعداء خطرًا ، وأعظمهم مكرًا وكيدًا ، وأكثرهم تلبيسًا وخداعًا ، يظهرون ويختفون، ويكثرون ويقلون، والله عليم بما يعملون : ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ [محمد:٣٠] .

- **حكم المنافقين :**

**أولًا** : المنافقون الَّذِين يظهرون الإسلام، ويبطنون الكفر، وهم أهل النفاق الأكبر.

**في الدنيا** : لهم أحكام المسلمين .

**وفي الآخرة** : جميع أعمالهم باطلة ، وهم في الدرك الأسفل من النار .

فنأخذهم بظواهرهم ، ونكل سرائرهم إلى الله ﷻ ، جمعاً للكلمة ، وقطعاً للفتنة والفرقة ، ولعلهم يتوبون إلى الله .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ ﴾[ النساء : ١٤٥-١٤٦] .

وأعمال هؤلاء المنافقين كلها حابطة : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾ [محمد: ٢٨] .

**ثانيًا** : أهل النفاق الأصغر : فمن تاب في الدنيا تاب الله عليه ، ومن لم يتب فحكمه حكم أهل الكبائر ، وعصاة الموحدين ، يعذب بقدر ذنوبه ، ثم يخرج من النار ، وقد يعفو الله عنه فلا يدخله النار .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾[النساء:٤٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾[الزمر:٥٣] .

- **عقوبة المنافقين :**

قال الله تعالى :﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾[النساء:١٤٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾[التوبة: ٦٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾ [النساء:١٣٨-١٣٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ [الفتح:٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأحزاب:٧٢-٧٣] .

# ٦ - الخزانة السادسة

- **الرابع من نواقض الإسلام : الردة :**

والردة : هي الكفر بعد الإسلام ، والمرتد هو من كفر بعد إسلامه طوعا .

- **أقسام الردة :**

نواقض الإسلام هي الموجبة للردة ، والناقض إما قول ، أو فعل ، أو اعتقاد ، أو شك .

والردة تحصل بارتكاب ناقض من نواقض الإسلام على النحو التالي :

**القسم الأول : الردة بالاعتقاد : وتكون بما يلي :**

اعتقاد الشريك لله ، أو يعتقد بقلبه أن الله جل جلاله فقير أو ظالم ، أو يعتقد أنه لا رب ، ولا إله ، ولا بعث ، ولا حشر، ولا جنة ، ولا نار ، ولا ثواب ، ولا عقاب .

أو يعتقد بقلبه تكذيب الرسل، أو جحد الكتب المنزلة، أو أن محمدًا ﷺ ليس بصادق، أو أنه ليس بخاتم النبيين، أو يبغض شيئًا من الدين ولو عمل به.

أو يعتقد أنه يجوز أن يُدعى مع الله غيره من مَلَك ، أو نبي ، أو شجر ، أو حجر ، أو جن ، أو غير ذلك مما زينه الشيطان لكثير من بني آدم .

أو يعتقد أنه يجوز الحكم بغير ما أنزل الله .

أو يعتقد أن أركان الإسلام غير واجبة .

أو يعتقد أن الكفر والشرك ، والنفاق والظلم ، جائز لمن فعله .

أو يعتقد أن الربا والزنا والخمر والفواحش جائزة .

أو يعتقد أن الماء والخبز حرام ونحو ذلك مما ثبت قطعًا وجوبه ، أو حِله، أو حرمته ومثله لا يجهله .

فهذا كله كفر وردة عن الإسلام ، وهو أعظم أنواع الردة .

فمن اعتقد شيئًا من ذلك فهو كافر مرتد ، وأعماله كلها باطلة ، ومصيره إلى النار إن مات ولم يتب :﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة:٢١٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ [محمد:٢٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [ النساء : ٦٥ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [ النساء : ١١٥ ] .

**القسم الثاني** : الردة بالشك ، وتكون بما يلي :

الشك فيما سبق كله أو بعضه ، كمن شك في تحريم الشرك والظلم ، أو شك في تحريم الربا والزنا والخمر ، أو شك في وجوب الصلاة والزكاة ، أو شك في إباحة الماء والخبز ، أو شك في صحة كتب الله ، أو شك في

صدق رسله ، أو شك في دين الإسلام وصلاحيته لكل زمان ومكان ، والشك كأن يقول مثلًا : أنا لا أدري هل الله حق أم لا ؟ ولا أعلم هل الرسول حق أم لا ؟ ولا أعلم هل البعث سيقع أم لا ؟ ولا أدري هل الجنة والنار حق أم لا ؟ ولا أدري هل الرسول ﷺ خاتم النبيين أم لا ؟ .

أو يقول : أنا أشك في الصلاة هل هي واجبة أم لا ؟ أو أنا أشك في الربا هل هو حرام أم لا ؟ ونحو ذلك .

فهذه الشكوك كلها كفر أكبر ، وردة عن الإسلام .

فمن شك في شيء من ذلك فهو كافر مرتد ، وأعماله كلها باطلة ، ومصيره إلى جهنم يوم القيامة إن مات ولم يتب منه ، ومثله لا يعذر بجهله .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [ الحجرات : ١٥ ] .

أما الوسوسة العارضة والخطرت ، فإنها لا تضر إذا دفعها المسلم ، ولم يسكن إليها ، ولم تستقر في قلبه ، وعليه أن يستعيذ بالله ، وينتهي عما يدور في نفسه ، ويقول آمنت بالله ورسله : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ [ فصلت : ٣٦ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [التوبة:٤٥] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللهَ تجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا ، مَا لمْ يَتكَلَّمُوا ، أَوْ يَعْمَلُوا بِهِ » . متفق عليه[1] .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٦٦٦٤)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٢٠١/ ١٢٧ ).

وعن أبي هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ : « يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ : مَنْ خَلَقَ كَذَا ، مَنْ خَلَقَ كَذَا ، حَتَّى يَقُولَ : مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ » . متفق عليه[1] .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَالَ : هَذَا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ ، فَمَنْ خَلَقَ اللهَ ؟ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ، فَلْيَقُلْ : آمَنْتُ بِاللهِ » . أخرجه مسلم[2] .

**القسم الثالث : الردة بالقول : وتكون بما يلي :**

سب الله ، أو سب رسله، أو سب ملائكته، أو سب كتبه، أو دعاء غير الله، أو الاستعانة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، أو ادعاء النبوة، أو تصديق من يدعيها، أو الاستهزاء بالدين أو بشيء منه، أو سب الصحابة أو أحد منهم .

أو أنكر تحريم شيء من المحرمات الظاهرة كالربا والزنا والخمر ونحوها.

أو أنكر وجوب شيء من الواجبات الظاهرة كالصلاة والزكاة والصيام والحج ونحوها ومثله لا يجهله ، ونحو ذلك .

فمن قال هذه المقالات وأمثالها ، فهو كافر مرتد عن الإسلام ، وقد حبط عمله ، ومصيره إلى النار إذا مات ولم يتب :﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[الزمر:٦٥-٦٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾[الأنعام:٩٣] .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٣٢٧٦ ) ، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٢١٣/ ١٣٤).

(٢)أخرجه مسلم برقم: ( ٢١٢/ ١٣٤).

وقال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[يونس:١٧].

وقال الله تعالى : ﴿ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزمر:٣٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[التوبة:٦٥-٦٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾[الإسراء:٣٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَـٰذَا حَلَـٰلٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾[ النحل : ١١٦-١١٧ ] .

وقال النبي ﷺ: « مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» متفق عليه[1].

**القسم الرابع** : الردة بالفعل ، وتكون بما يلي :

السجود للأصنام من الأشجار والأحجار وغيرها ، والسجود على القبور ، والطواف عليها ، والذبح لغير الله ، والاستهانة بالمصحف ، والقعود عليه مستهينًا به ، والحكم بغير ما أنزل الله ، والسحر تعلمه وتعليمه ، ومظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين ، والإعراض عن دين الله لا يتعلمه ولا

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٣٤٦١)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٧٢/ ٣٠٠٤).

يعمل به ، واستباحة المحرمات ، وترك الصلاة ونحو ذلك : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور:٦٣] .

فمن فعل هذه الأمور وأمثالها فهو كافر مرتد عن الإسلام ، وقد حبط عمله ، ومصيره إلى النار إن مات ولم يتب منه:﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف: ١١٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾[الزمر:٦٥] .قال الله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[المائدة:٤٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾[المائدة:٥١] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ ﴾ [البقرة:١٠٢].

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ ». أخرجه مسلم(١) .

- **أعظم أقسام الردة :**

الردة تكون بالاعتقاد، وتكون بالشك، وتكون بالقول، وتكون بالفعل، وأعظمها وأخطرها ما جمع هذه المراتب كلها، وهو أشدها جرمًا، وأعظمها عقوبة .

---

(١)أخرجه مسلم برقم: ( ١٣٤/ ٨٢).

فمن اعتقد أو زعم أنه يجوز أن يعبد مع الله غيره من الأصنام ونحوها ، فهو كافر ، فإن نطق لسانه بذلك صار كافرًا بالقول والعقيدة جميعًا ، فإن عبد غير الله صار كافرًا بالقول والعمل والعقيدة جميعًا .

ومن ذلك ما يفعله عباد القبور من دعاء الأموات ، وطلب المدد منهم ، وما يقوله جهلة المسلمين عند قبر الرسول ﷺ كقولهم : يا رسول الله اشف مريضي ، يا رسول الله انصرنا على أعدائنا ، وبعضهم ينادي من مكان بعيد في بلاده ويقول : يا رسول الله أغثني يا رسول الله مدد ، مدد .

ورسول الله ﷺ بشر لا يعلم الغيب إلا ما علمه الله ، ولا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا إلا ما شاء الله ، فكيف يملك لغيره .

فهذا كله من الشرك الاعتقادي ، القولي، العملي نسأل الله السلامة والعافية:

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[الزمر:٦٥-٦٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۚ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾[الأعراف:١٨٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القصص:٥٠] .

- **ما يفعل بالمرتد :**

من ارتد عن دين الإسلام وهو بالغ عاقل دعي إليه ، ورُغِّب فيه ، وعُرضت عليه التوبة لعله يتوب ، فإن تاب فهو مسلم ، وإن لم يتب ، وأصر على كفره

وردته ، فإنه يقتل بالسيف كفرًا لا حدًا : ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩ ﴾[ المائدة : ٣٩ ] .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ ﴾[الحجرات:١١] .

وعن ابن عباس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ » . أخرجه البخاري[1] .

وعَنْ أَبِي مُوسَى : أَنَّ رَجُلًا أَسْلَمَ ثُمَّ تَهَوَّدَ ، فَأَتَى مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَهُوَ عِنْدَ أَبِي مُوسَى فَقَالَ : مَا لِهَذَا ؟ قَالَ : أَسْلَمَ ثُمَّ تَهَوَّدَ ، قَالَ : « لاَ أَجْلِسُ حَتَّى أَقْتُلَهُ ، قَضَاءُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ » . متفق عليه[2] .

- **صفة توبة المرتد :**

من كانت ردته بجحد شيء من الدين فتوبته مع الشهادتين إقراره بالمجحود به ، والتزامه جميع أحكام الإسلام : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥ ﴾[النساء:٦٥ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥ ﴾[البينة: ٥] .

- **أحكام المرتد :**

**للمرتد أحكام :**

**أولًا** : المرتد أغلظ كفرًا من الكافر الأصلي ؛ لأنه عرف الحق ثم تركه .

**ثانيًا** : الردة كفر مخرج من الملة ، ومحبط للأعمال ، وموجب للخلود في النار إن لم يتب قبل الموت .

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ( ٦٩٢٢).

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٧١٥٧)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٥/ ١٧٣٣ ).

**ثالثًا** : إذا قُتل المرتد أو مات ولم يتب ، فهو كافر لا يغسل ، ولا يكفن ، ولا يصلى عليه ، ولا يدفن في مقابر المسلمين ، ولا يدعى له ؛ لأنه كافر .

**رابعًا** : يفرّق بين المرتد وزوجته المسلمة ؛ لأنها لا تحل لكافر ، وإذا ارتدت الزوجة فارقها ؛ لأن المسلم لا يمسك بِعِصَم الكوافر ، وللمرتد مراجعة زوجته بعد التوبة ما دامت في العدة ، فإن خرجت من العدة ولم يراجعها ملكت نفسها ، فلا تحل له إلا برضاها بعقد ومهر جديدين .

**خامسًا** : يُمنع المرتد من التصرف في ماله في مدة استتابته ، فإن أسلم فهو له ، وإن أصر على ردته فماله فيء يصرف في مصالح المسلمين .

**سادسًا** : المرتد كافر لا يرث أقاربه المسلمين ، وهم لا يرثونه ؛ لأن الكافر لا يرث المسلم ، والمسلم لا يرث الكافر:﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾[البقرة:٢١٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ ﴾[النساء:١٣٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾[التوبة:٨٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ ﴾[البقرة:٢٢١] .

وعن أسامة بن زيد ﷺ أن النبي ﷺ قال : « لَا يَرِثُ المُسْلِمُ الْكَافِرَ ، وَلَا يَرِثُ الْكَافِرُ المُسْلِمَ » .متفق عليه[1] .

- **حكمة مشروعية قتل المرتد :**

الإسلام منهج كامل للحياة ، ونظام شامل لكل ما يحتاجه البشر ، موافق للفطرة والعقل ، قائم على الدليل والبرهان ، وهو أكبر النعم على الناس كما قال سبحانه : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[المائدة:٣] .

ومن دخل فيه ثم ارتد عنه فقد انحط إلى أسفل الدركات ، ورد ما رضيه الله لخلقه من الدين ، وخان الله ورسوله ، وكفر بنعمة الله ، فيجب قتله ؛ لأنه أنكر الحق ، ورد الخير ، الذي لا تستقيم الدنيا والآخرة إلا به : ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾[ النحل : ١٠٦ ] .

- **صفات المرتد :**

الإنسان متى فعل ناقضًا من نواقض الإسلام ، أو بدل الشرع المجمع عليه ، أو حلل الحرام المجمع عليه ، أو حرم الحلال المجمع عليه ، أو حكم بغير ما أنزل الله ، فهو كافر مرتد ، ولو كان يقر بالشهادتين ، فإن المنافقين يشهدون كذبًا هذه الشهادة ، ويصلون ويصومون ، ومع ذلك فهم في الدرك الأسفل من النار . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾[ النساء : ١٤٢-١٤٣] .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٦٧٦٤ )، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١/ ١٦١٤ ).

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ ﴾ [النساء:١٤٥-١٤٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [ النساء : ١١٥] .

اللهم إننا نعوذ بك من النفاق ، ومن شر المنافقين والمنافقات .

# حكم التكفير

**التكفير** : هو الحكم على الإنسان المسلم بالكفر ، والتكفير حق لله ، فلا يجوز أن نكفر أحدًا إلا من كفره الله ورسوله ، ومن كَفَّرَنا فلا نكفره ، فمن كذب على أحد ، أو زنى بأهله ، فليس لأحد أن يكذب عليه ، أو يزني بأهله ؛ لأن الكذب والزنا حرام لحق الله ﷻ ، وكذلك التكفير حق لله ، فلا نكفِّر إلا من كفَّر الله ورسوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ ﴾ [النساء:٩٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٨﴾ ﴾ [الحجرات:٦-٨] .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ يَا كَافِرُ ، فَقَدْ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا » . متفق عليه[1] .

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٦١٠٣)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٦٠ ).

• **أنواع التكفير :**

**التكفير له ثلاث صور :**

**الصورة الأولى** : تكفير بالعموم .

**الصورة الثانية** : تكفير أوصاف .

**الصورة الثالثة** : تكفير أشخاص .

**الصورة الأولى** : تكفير العموم : وهو تكفير الناس كلهم عالمهم وجاهلهم، والمتأول منهم وغير المتأول، ومن قامت عليه الحجة ومن لم تقم.

وهذا من أكبر الكبائر ، وهو طريقة أهل البدع والجهل بأحكام الله : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾[الإسراء:٣٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾[النحل:١١٦-١١٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾[ النساء : ١١٥] .

ويقول النبي ﷺ : « المُسْلِمُ مَنْ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ».متفق عليه[1].

**الثانية** : تكفير أوصاف :

كقول أهل العلم : من سب الله ورسوله كفر ، ومن كذّب بالبعث كفر ، ومن

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٤٨٤)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٦٥/ ٤١ ).

ترك الصلاة كفر ، ومن جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم كفر .

فهذا الفعل كفر مخرج من الملة ، والتكفير بالوصف المخرج من الملة مشروع ، أما فاعله فلا يكفر حتى تتوفر فيه الشروط ، وتنتفي الموانع: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[التوبة:٦٥-٦٦] .

**الثالثة** : تكفير الأشخاص : وهو تكفير الشخص الذي وقع في أمر مخرج من الإسلام ، فهذا لا يكفّر حتى تتوفر فيه الشروط ، وتنتفي الموانع .

- **شروط التكفير** :

**يشترط للتكفير شرطان** :

**الأول** : أن يقوم الدليل على أن هذا العمل مما يكفر به صاحبه .

**الثاني** : أن ينطبق الحكم على من فعل ذلك ، بأن يكون عالمًا بذلك ، قاصدًا له ، مختارًا له ، فإن قام به مانع من موانع التكفير ؛ كالجهل ، أو الخطأ ، أو الإكراه ، أو التأويل المعتبر، فلا يكفّر ، ولا يجوز أن نحكم على معين بالكفر إلا بعد قيام الحجة عليه، وإصراره على الكفر الذي وقع منه.

قال الله تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾** ﴾[ الأعراف : ٣٣ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾** ﴾[الحجرات:٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾** ﴾[ النساء : ١١٥ ].

# ٦- الخزانة السابعة

- **نواقض الإسلام خمسة :**

**الخامس** : البدعة .

**والبدعة** : هي كل ما أُحدث في الدين من غير دليل شرعي .

فكل ما فعله الإنسان على سبيل القربة إلى الله مما لم يكن له أصل في الشرع فهو بدعة ، كالاحتفال بالمولد النبوي ، والاحتفال بالإسراء والمعراج ونحو ذلك .

والبدع بريد الشرك ، وأول ما دخل الشرك على الناس هو بسبب الغلو في الأنبياء والصالحين .

- **خطر البدعة :**

البدعة هي الزيادة في الدين بعد كماله ، ومن طبيعة البدعة بأنواعها التمدد والتفجر والانتشار، تنتقل من شخص إلى شخص، ومن جماعة إلى جماعة، ومن بلد إلى بلد ، على سبيل العدوى والتقليد : ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾** ﴾[النساء:١١٥] .

وأكثر من يشيدها وينشرها علماء السوء القاصرة أفهامهم، والناقصة عقولهم وعلومهم وورعهم، مما يجعل العامة يغترون بهم ، ويقتدون بفعلهم ولو كان باطلًا مردودًا : ﴿ **لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۙ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾** ﴾[النحل:٢٥] .

وباستمرار فعل هؤلاء العلماء للبدع يستقر في نفوس العامة فضلها أو فرضها ، حتى تصبح دينًا يواظبون عليه ، ويتقربون إلى الله به ، تبدأ على سبيل الاستحسان ، ثم تقود إلى ما هو شرمنها من الشرك .

وأول من ابتدع بدعة المولد النبوي هم الفاطميون في مصر ، لما رأوا النصارى يعظمون مولد المسيح ، ويجعلون لهم عيدًا يعطلون به المتاجر والأعمال ، فاقتدوا بهم فابتدعوا بدعة تعظيم المولد النبوي مضاهاة للنصارى ، ثم اشتهرت وانتشرت بدعة المولد في البلدان بسبب الجهل والعدوى والتقليد الأعمى .

وقد نشأ عن هذه البدعة ما هو شر منها من الغلو ، والإطراء ، والنياحة ، وضرب الدفوف ، وشرب الخمور ، واختلاط الرجال بالنساء وغير ذلك من المحرمات والكبائر ، وما أحدث قوم بدعة إلا رُفع مثلها من السنَّة: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الأنعام:١٤٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف:٣٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القصص:٥٠] .

- **أسباب ظهور البدع :**

**لظهور البدع أسباب ، منها :**

**أولًا : الجهل بأحكام الدين :**

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾[الأعراف:١٧٩] .

**ثانيًا** : التشبه بالكفار :

قال الله تعالى : ﴿ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾[الأعراف:١٣٨-١٣٩] .

**ثالثًا** : تقليد الآباء فيما هم عليه من الضلال :

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾[لقمان: ٢١] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [البقرة:١٧٠] .

- **وجوه اجتماع البدع والمعاصي :**

البدع من جملة المعاصي، فكل منهما منهي عنه، فكل بدعة معصية، وليس كل معصية بدعة .

والبدع والمعاصي مؤذنة باندراس الشريعة، وذهاب السنة، وانتشار البدعة، فكلما قويت السنن ، ضعفت البدع والمعاصي، وكلما كثرت البدع والمعاصي ، ضعفت السنن ثم زالت : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [ النور : ٦٣ ] .

والبدع والمعاصي متفاوتة ، فكما أن المعاصي تنقسم إلى ما يكفر به الإنسان وما لا يكفر به ، وإلى كبائر وصغائر ، فكذلك البدع مثلها .

فهذه وجوه اجتماع البدعة والسنة ، والمسلم مأمور بتصديق أخبار القرآن ، والسنة ، وامتثال الأوامر ، واجتناب النواهي .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر:٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [ النساء : ١٣ - ١٤ ] .

- **الفرق بين البدع والمعاصي :**

**الفرق بين البدع والمعاصي يتبين من أمور :**

**الأول** : مستند النهي عن المعصية غالبًا هو الأدلة الخاصة من الكتاب والسنة ، أما البدع فمستند النهي عنها الأدلة الشرعية العامة .

**ثانيًا** : المعصية مخالفة المشروع في الدين إما بترك مأمور ، أو فعل محظور ، أما البدعة فهي مضاهية للمشروع ، تضاف إلى الدين ، وتُلحق به على أنها منه .

**ثالثًا** : المعصية جُرم عظيم ؛ لما فيها من عدم توقير الله ، وتجاوز حدوده ، بخلاف البدعة ؛ فإن صاحبها يرى أنه موقِّر لله ، معظم لدينه ، ممتثل لأمره .

**رابعًا** : صاحب المعصية يرى أنه مبتلى بها ، مقر بمخالفته لحكم الله ورسوله ، ويتمنى أن يتوب منها ، أما البدعة فهي جرم عظيم ؛ لما فيها من مجاوزة حدود الله بالتشريع ، ورمي الشرع بالنقص ، وأنه يكمله بهذه البدع : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [ فاطر : ٨ ] .

**خامسًا** : صاحب المعصية يحدِّث نفسه دائمًا بالتوبة من المعصية ، وصاحب البدعة لا يحدث نفسه بالتوبة من البدعة ، لكونه يرى عمله قربة إلى الله ، فالبدعة أحب إلى الشيطان من المعصية ؛ لأن المعصية يتاب منها ، والبدعة لا يتاب منها غالبًا ، وهذا ضلال مبين .

**سادسًا** : جنس البدعة أعظم من جنس المعصية ، ذلك أن فتنة المبتدع في أصل الدين ، وفتنة العاصي في الشهوات: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾[النور:٦٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النساء:١١٥] .

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ » . متفق عليه[1] .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٢٦٩٧)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٧/ ١٧١٨ ).

• **الأصول الجامعة للابتداع :**

**الأصل الأول** : التقرب إلى الله بما لم يشرع ، فمن تقرب إلى الله بما لم يشرعه الله ورسوله فقد ابتدع .

**الأصل الثاني** : الخروج على حكم الله ورسوله ، فمن أعطى غير شريعة الإسلام حق الانقياد والطاعة فقد ابتدع : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[الأعراف:٣٣] .

• **الذرائع المفضية إلى البدع :**

كل عمل ولو كان مشروعًا يفضي إلى الإحداث في الدين ، فهو ملحق بالبدعة إن لم يكن بدعة ، وكل ما أدى إلى الممنوع فهو ممنوع ، وكل ما أفضى إلى المحرم فهو محرم ، وقد نهى الله عن سب آلهة المشركين مع كونه من مقتضيات الإيمان بالله ؛ لأن ذلك ذريعة إلى أن يسبوا الله عَدْوًا بغير علم، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[الأنعام:١٠٨] .

وصلاة ركعتين قبل الجمعة جائز ، لكن إن أدى هذا إلى اعتقاد العامة أنها سنة راتبة للجمعة قبلها ، فهذا الاعتقاد بدعة ، يجب التنبيه عليه ، وعدم المداومة على تلك الصلاة .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ » . متفق عليه[1] .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٢٦٩٧)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٧/ ١٧١٨ ).

• **حكم سد الذرائع المفضية إلى البدع :**

ينبغي لأهل الإيمان خاصة العلماء المقتدى بهم سد الذرائع المفضية إلى البدع ، وذلك بترك الأمور الجائزة أو المستحبة إذا ترتب على فعلها بدعة ، كاعتقاد العوام ما ليس بفريضة فريضة ، وما ليس بسنة سنة ، وما ليس بمشروع أنه مشروع ، وهذا فساد عظيم في جسد الدين وروحه ، فظهور البدع ضرب من تبديل الشريعة ، وخروج على أحكامها .

ويعظم خطب البدع ، ويشتد خطرها إذا نشأ عليها الصغار ، وتعلق بها الكبار ، وأسلم عليها الكفار ، وتعلمها أهل البادية ، وحملها الناس من بلد إلى بلد .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾[الإسراء:٣٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾[النحل:١١٦-١١٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾[ النساء : ١١٥ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾[ الشورى : ٢١ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[النحل:٢٥] .

• **أقسام البدعة :**

البدعة خلاف السنة ، وهي اسم لكل ما ابتدع في الدين وغيره ، وهي كل قول أو فعل أو ترك تعبد به العبد لله تعالى ، وليس في الشرع ما يدل على مشروعيته .

**والبدعة تنقسم بحسب متعلقها إلى ثلاثة أقسام ؛ هي :**

**الأول** : البدعة الاعتقادية :

وهي اعتقاد خلاف ما أخبر الله ورسوله به ؛ كبدعة الممثلة والمعطلة ، وبدعة نفاة القدر ، وبدعة الاعتماد على العقل دون الوحي ، وكاعتقاد أن الأولياء يتصرفون في الكون ونحو ذلك .

**الثاني** : البدعة العملية :

وهي التعبد لله بغير ما شرع بإحداث عبادة لم تشرع ، أو الزيادة أو النقص في عبادة مشروعة ، أو الإتيان بالعبادة على صفة محدثة ، أو المواظبة على عبادة مشروعة في وقت معين لم يخصص .

**ومن صور هذه البدعة :**

البناء على القبور ، والدعاء عندها ، وبناء المساجد عليها ، وكذا الأعياد والاحتفالات المحدثة التي يتعبد بعض الناس لله بها ونحو ذلك .

**الثالث** : بدعة الترك :

وهي ترك المباح ، أو ترك ما طلب الله فعله تعبدًا ، كترك الزواج ، أو أكل اللحم ، أو الاختصاء طلبًا للتفرغ للعبادة:﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾** ﴾[ النساء : ١١٥ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [الشورى:٢١]

وعن أنس بن مالك ﷺ قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها ، فقالوا : وأين نحن من النبي ﷺ ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال أحدهم : أما أنا فإني أصلي الليل أبدا ، وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا ، فجاء رسول الله ﷺ فقال : « أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا ، أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي » . متفق عليه[1] .

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٥٠٦٣)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٥/ ١٤٠١) .

# ٨- الخزانة الثامنة

- **أسباب ظهور البدع :**
- **أسباب ظهور البدع في الأمة ما يلي :**

**الأول** : الجهل .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾[الإسراء:٣٦] .

وعن عبد الله بن عمرو قال: سمعت النبي ﷺ يقول: « إِنَّ اللهَ لَا يَنْتَزِعُ الْعِلْمَ مِنَ النَّاسِ انْتِزَاعًا، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعُلَمَاءَ ، فَيَرْفَعُ الْعِلْمَ مَعَهُمْ ، وَيُبْقِي فِي النَّاسِ رُءُوسًا جُهَّالًا ، يُفْتُونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَيَضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ ».متفق عليه[1] .

**الثاني** : إتباع الهوى .

قال الله تعالى : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾[ص:٢٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القصص:٥٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الجاثية:٢٣] .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ١٠٠)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٤/ )٢٦٧٣.

**الثالث** : التعلق بالشبهات .

قال الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ [آل عمران:٧] .

**الرابع** : التقليد والتعصب .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [ البقرة : ١٧٠ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [فاطر:٨].

وقال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأحزاب:٦٧-٦٨] .

**الخامس** : الاعتماد على العقل دون الشرع .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب:٣٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر:٧] .

**السادس** : سكوت العلماء ، وكتم العلم .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [البقرة:١٥٩-

. [١٦٠

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [البقرة:١٧٤-١٧٥] .

**السابع** : التشبه بالكفار ، وتقليدهم في شئون حياتهم .

قال الله تعالى : ﴿ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [الأعراف:١٣٨-١٤٠] .

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال : « لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍّ لَاتَّبَعْتُمُوهُمْ » . قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ ٱلْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ؟ قَالَ : « فَمَنْ » . متفق عليه[1] .

**الثامن** : الغلو .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾ [المائدة:٧٧] .

وقال النبي ﷺ : « إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ » . أخرجه أحمد وابن ماجة[2] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٣٤٥٦)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٦/ ٢٦٦٩).

(٢) صحيح/ أخرجه أحمد برقم: ( ١٨٥١ ) ، وابن ماجة برقم: ( ٣٠٢٩ ).

**التاسع** : الاعتماد على الأحاديث الضعيفة ، وترك الأحاديث الصحيحة .

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ » . متفق عليه[1] .

**العاشر** : مخالطة أهل الشر ومجالستهم .

قال الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنعام:٦٨] .

وعن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « مثل الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة ، ونافخ الكير : إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة » . متفق عليه[2] .

- **أخطر البدع العملية :**

**البدع كلها ضلالة ، وأخطرها وأكثرها وقوعًا ما يلي :**

**أولًا : التوسل البدعي .**

**والتوسل ينقسم إلى قسمين :**

**القسم الأول** : التوسل المشروع ، وهو التوسل إلى الله والتقرب إليه بفعل

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٢٦٩٧)، واللفظ له، ومسلم برقم: (١٧/ ١٧١٨ ).

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٥٥٣٤)، واللفظ له، ومسلم برقم: (١٤٦/ ٢٦٢٨).

المأمورات ، وترك المحرمات ، وأن يذكر الداعي في دعائه ما يرجوا أن يكون سببًا في قبول دعائه .

**وهذا التوسل المشروع أقسام :**

**الأول** : التوسل إلى الله تعالى بأسمائه وصفاته ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾[الأعراف:١٨٠] .

فيقول مثلًا : اللهم إني اسألك بأسمائك الحسنى أن تغفر لي ، أو يقول : اللهم يا رحمن ارحمني ، أو يقول : اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني ، ونحو ذلك من الأدعية المشروعة .

**الثاني** : الثناء على الله تعالى ، والصلاة على نبيه في بداية الدعاء .

قال الله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾[الفاتحة : ٢-٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾[الأنبياء:٨٧-٨٨] .

**الثالث** : أن يتوسل العبد بعبادته القلبية أو القولية أو العملية .

قال الله تعالى : ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾[آل عمران:٥٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [ المؤمنون : ١٠٩ ] .

**الرابع** : أن يتوسل إلى الله ﷻ بذكر حاله ، وأنه محتاج إلى رحمة الله وعونه ، كما قال سبحانه عن موسى ﷺ : ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾[القصص: ٢٤] .

ويدخل في هذا الاعتراف بالذنب ، وإظهار الحاجة إلى رحمة الله ومغفرته ، كما قال سبحانه عن آدم وزوجه : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾[الأعراف:٢٣] .

**الخامس** : التوسل بدعاء الصالحين رجاء أن يستجيب الله دعاءهم ، وذلك بأن يطلب من مسلم حي حاضر أن يدعو له ، كما قال الله عن طلب أبناء يعقوب الدعاء لهم من أبيهم: ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[يوسف : ٩٧-٩٨] .

وكما في قصة الأعرابي الذي طلب من النبي ﷺ أن يدعوا بنزول المطر .

وكما في طلب المرأة من النبي ﷺ أن يدعو الله لها بألا تنكشف ، وكما طلب عمر ﷺ من العباس أن يستسقي لهم .

فهذه التوسلات كلها صحيحة ؛ لأنه قد ثبت في النصوص الصحيحة ما يدل على مشروعيتها .

**القسم الثاني : التوسل الممنوع :**

التوسل جزء من الدعاء ، والدعاء عبادة من العبادات.

كما قال النبي ﷺ : « الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ ».أخرجه أبو داود وابن ماجة [1].

وكل توسل لم يرد في النصوص ما يدل على مشروعيته فهو توسل بدعي محرم : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾[النور:٦٣] .

**ومن التوسلات المحرمة ما يلي :**

**أولًا** : التوسل إلى الله تعالى بذات النبي ، أو عبد صالح ، أو الكعبة ، أو غيرها من الأشياء الفاضلة ؛ كأن يقول : اللهم إني أسألك بذات أبينا آدم ﷺ أن ترحمني .

**ثانيًا** : أن يتوسل بحق نبي أو عبد صالح أو الكعبة أو غيرها ، كأن يقول : اللهم إني أسألك بحق فلان أن تشفيني ونوى ذلك .

**ثالثًا** : أن يتوسل بجاه النبي ، أو عبد صالح ونحو ذلك ، فلا يجوز لمسلم أن يدعوا الله تعالى بشيء من هذه التوسلات .

**ثانيًا** : إقامة الاحتفالات والأعياد البدعية .

في الإسلام ثلاثة أعياد : عيد الفطر ، وعيد الأضحى ، وعيد الأسبوع يوم الجمعة ، وكل ما سوى هذه الأعياد فهو مبتدع ، فلا يجوز تخصيص شيء من الأزمنة سواء كان من الأيام أو الليالي أو الشهور أو السنين بعبادة لم يرد في الشرع تخصيصها ؛ لأن ذلك من البدع المحدثة .

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ » . متفق عليه[2] .

---

(١) صحيح/ أخرجه أبو داود برقم ( ١٤٧٩ ) ، وابن ماجة برقم( ٣٨٢٨ ) .

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٢٦٩٧)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٧/ ١٧١٨ ).

وقد أحدث كثير من المسلمين بسبب الجهل أعياداً واحتفالات وعبادات مختلفة في كثير من الأزمان والبلدان ، مع أنه لم يرد دليل صحيح على مشروعيتها ، وهذه الأزمنة ثلاثة أنواع :

**النوع الأول** : يوم لم تعظمه الشريعة أصلًا :

مثل أول يوم خميس من رجب ، وليلة الجمعة التي تليه ، فهذا اليوم يعظمه بعض الجهال بصيام يوم الخميس وقيام ليلة الجمعة ، ويصلون فيها صلاة يسمونها صلاة الرغائب ، وهذا كله من البدع المحرمة ، وتعظيم شهر رجب من عمل أهل الجاهلية : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور:٦٣] .

**النوع الثاني** : الأيام والليالي التي جاء الشرع بما يدل على فضلها :

كيوم عرفة ، ويوم الجمعة ، ويومي العيدين ، وليلة القدر ، ويوم عاشوراء ، وليلة النصف من شعبان ، فهذه الأوقات يستحب أن يفعل فيها من العبادات ما ورد الشرع به ، ولا يجوز إحداث عبادات فيها ليس لها أصل في الشرع ؛ كالتعريف في الأمصار في يوم عرفة ، وكصلاة الألفية ليلة النصف من شعبان ، وكالاحتفال يوم عاشوراء ، وكتخصيص ليلة القدر بعمرة ، أو بذكر خاص ، أو بصلاة خاصة ، تفعل كل عام .

**النوع الثالث** : الأيام والليالي التي حدثت فيها حوادث مهمة ، ولكن لم يأتي في الشرع ما يدل على فضلها ، أو على مشروعية التعبد لله فيها :

كليلة الإسراء والمعراج ، وليلة المولد النبوي ، مع أنه لم يثبت شيء من ذلك ، لا ليلة الإسراء والمعراج ، ولا ليلة المولد النبوي التي قطع العبيديون الملاحدة أنه ﷺ ولد في الثاني عشر من ربيع الأول ، وليس هناك ما يرجح هذا القول ، بل هذا الشهر أصيبت فيه الأمة الإسلامية بأعظم

مصيبة ، وهي وفاته ﷺ في ربيع الأول بلا خلاف، بل اختار العبيديون يوم الثاني عشر منه ، وأقاموا فيه احتفالًا وقت حكمهم لمصر ، من باب الفرح بولادته ﷺ ، مع أن هذا اليوم هو اليوم الذي توفي فيه النبي ﷺ .

وهؤلاء العبيديون من أعظم الحاقدين على الإسلام ، وعلى نبي الإسلام محمد ﷺ .

وقد ادعى بعضهم الألوهية ، وعلى رأسهم الحاكم بأمر الله العبيدي الذي يؤلهه الدروز إلى الآن .

ومنهم أو من اتباعهم القرامطة الذين قتلوا الحجاج في عرفات ، وعند الكعبة المشرفة في الحج ، وهدموا جزءًا من الكعبة ، وأخذوا الحجر الأسود ، ولم يعيدوه إلا بعد عدة سنوات .

والعبيديون حكام مصر أول من أقام المولد النبوي البدعي سنة ثلاثمائة وثلاث وستين هجرية ، اختاروا شهر ويوم وفاة النبي ﷺ احتفالًا وفرحًا بوفاته ﷺ ، وأظهروا للناس أنه للفرح بولادته ﷺ : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الصف:٨-٩] .

- **وقت حدوث البدع :**

**ظهرت في آخر خلافة النبوة بدعتان متقابلتان تقابل المغضوب عليهم والضالين :**

**الأولى** : بدعة الخوارج ، الذين يكفرون الخليفتين عثمان وعلي رضي الله عنهما ، ويكفرون من تولاهما ، ويفعلون بأهل الإيمان فعل اليهود بالنبيين والمرسلين .

**الثانية** : بدعة الروافض ، يغلون فيمن يستحق الولاية ، ويطرونه كالنصارى ، حتى وصفوا البشر بالإلوهية ، وألحقوا الأئمة بالمرسلين ، فضلوا كالنصارى : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾[ النساء : ١١٥ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ٧٢ ﴾[ المائدة : ٧٢ ] .

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ » . متفق عليه(١) .

**ثم حدثت بدعتان متقابلتان :**

**الأولى : بدعة القدرية:**

الذين عظموا أمر المعاصي ، وأوجبوا نفوذ الوعيد بجميع المذنبين ، ومنعوا شفاعة الشفعاء ، ورحمة أرحم الراحمين ، وعظموا أن الله قدرها ، أو شاءها ، وسلبوا الإيمان عمن اتصف بها : ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣ ﴾[ الزمر : ٥٣ ] .

**الثانية : بدعة المرجئة :**

الذين استخفوا بأمر الواجبات والمحرمات ، حتى استبعد بعضهم نفوذ الوعيد في أهل المعاصي ، وسووا بين الأبرار والفجار ، وبين الصالحين

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٢٦٩٧)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٧/ ١٧١٨ ).

والفاسقين : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾[النور:٦٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف:٣٣] .

**ثم لما فرغ الشيطان من هؤلاء وهؤلاء ، شرع في رب العالمين فحدثتا بدعتا الجهمية ، وهم فرقتان :**

**الأول** : النفاة :

وهؤلاء ينفون عن الله ما جاءت به الرسل من الصفات ، وهؤلاء هم المعطلة ، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا .

**الثانية** : الممثلة :

وهؤلاء يمثلون صفات الله بصفات المخلوق ، مضاهاة لليهود في تشبيه الرب بالمخلوق ، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾[ الأنعام : ١٥٩ ].

وثبت السلف الصالح على الصراط المستقيم الذي دعاهم ربهم إليه بقوله : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾[الأنعام:١٥٣] .

- **أقسام الفتن :**

من ترك السنة وقع في البدعة ، والفتن منها ما يكون من الشبهات ، ومنها ما يكون من الشهوات ، ففتن الشبهات كل فتنة مبنية على جهل ؛ كالبدع في

العقيدة ، والأقوال ، والأفعال ، والعبادات ، والمعاملات:﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾[الكهف:١٠٣-١٠٦] .

وأما فتن الشهوات فأن يعرف الإنسان أن هذا حرام ، ولكن نفسه تدعوه إليه فيفعله، كما قال سبحانه : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾[مريم:٥٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾[الأنعام:٤٤-٤٥] .

فهذا يعلم أن هذا واجب ، ولكن نفسه تدعوه إلى تركه كسلًا فيتركه .

فهذه فتنة الإرادة إما بترك واجب ، أو بفعل محرم : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾[النساء:١١٥] .

- **علامات أهل الزيغ :**

أهل الزيغ هم الذين يتبعون متشابه القرآن لتقرير مذهبهم الباطل ، وصرف الناس عن الحق بنقضه ، وقصدهم من ذلك أمران :

**الأول** : ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويل القرآن لصرف الناس إليهم ، وصرف الناس عن الدين ، فالفتنة أنهم يثيرون المتشابهات في الدين ، ليصير الناس بعضهم مخالف لبعض ، وذلك يفضي إلى الهرج والمرج ، والقتل

والتناحر ، وذلك أعظم فتنة : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ ﴾ [البروج:١٠] .

والمتمسك بالمتشابه ، والإعراض عن المحكم ، يزرع الباطل مكان الحق ، والبدعة مكان السنة ، فيصير مفتونًا بذلك الباطل ، والفتنة في الدين هي الضلال عن الهدى ، ولا فتنة أعظم من فتنة الدين : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنفال:٢٤-٢٥] .

**وأما غرضهم الثاني** : فهو تأويل القرآن حسب أهوائهم ، مما ليس في القرآن والسنة دليل عليه .

وأما الراسخون في العلم فهم الذين يعملون بمحكم القرآن ، ويؤمنون بمتشابهه ، فيعملون بمحكمه ، ويؤمنون بمتشابهه ، ويردون المتشابه إلى المحكم .

كما قال سبحانه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ [آل عمران:٧] .

# ٩- الخزانة التاسعة

## قواعد معرفة البدع

**جميع البدع سواء كانت قولًا ، أو فعلًا ، أو اعتقادًا ، تندرج تحت ثلاث قواعد كلية وهي :**

**القاعدة الأولى** : التقرب إلى الله بما لم يشرع .

**القاعدة الثانية** : الخروج على أحكام الدين .

**القاعدة الثالثة** : الذرائع المفضية إلى البدع .

**الأصل الأول** : التقرب إلى الله بعبادة لابد فيه من أمرين :

**الأول** : ثبوت أصل العبادة بدليل شرعي صحيح .

**الثاني** : اتباع الرسول ﷺ في كيفيتها .

**فمخالفة الأصل الأول تحصل بما يلي :**

أن تستند العبادة إلى حديث مكذوب ، أو إلى قول من ليس قوله حجة ، أو تكون العبادة مخالفة للسنة ، أو مخالفة لعمل السلف ، أو مخالفة لقواعد الشريعة .

فكل عبادة مبنية على حديث مكذوب فهي بدعة ؛ لأنها تشريع لم يأذن به الله جل جلاله .

وكل عبادة تستند إلى الرأي المجرد والهوى فهي بدعة ضلالة .

فالكتاب والسنة هما جهة العلم عن الله ، ومعرفة أحكام الله وشرعه ، فكل عبادة لا تستند إلى كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ فهي بدعة ضلالة : ﴿ أَمْ

لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ [الشورى:٢١]

وما ابتدع عالم رباني قط ، ولكن الناس استفتوا من ليس بعالم ، فضل ، وأضل ، وهدم .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ ؟ يقول : « إِنَّ اللهَ لَا يَنْتَزِعُ الْعِلْمَ مِنَ النَّاسِ انْتِزَاعًا ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعُلَمَاءَ فَيَرْفَعُ الْعِلْمَ مَعَهُمْ ، وَيُبْقِي فِي النَّاسِ رُءُوسًا جُهَّالًا ، يُفْتُونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَيَضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ » . متفق عليه[1] .

وإذا ترك الرسول ﷺ شيئًا مع وجود المقتضي له ، وانتفاء المانع منه ، ففعله بدعة ، كالتلفظ بالنية عند الدخول في الصلاة ، والأذان للعيدين ، وصلاة ركعتين عقب السعي بين الصفا والمروة في الحج أو العمرة : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [ الحشر : ٧ ] .

وترك النبي ﷺ فعل أمر من الأمور لا يخلو من ثلاث حالات :

**الأولى** : أن يتركه ﷺ لعدم وجود المقتضي له ، كتركه قتال مانعي الزكاة ، فهذا الترك لا يكون سنة .

**الثانية** : أن يترك ﷺ الفعل مع وجود المقتضي له لقيام مانع يمنعه من فعله ، كتركه ﷺ قيام رمضان جماعة ، خشية أن يكتب قيامه على الأمة فتعجز عنه ، فهذا الترك لا يكون سنة ، فلما زال المانع بموته ﷺ كان فعل ما تركه مشروعًا ، وعمل بسنته ، كما جمع عمر رضي الله عنه الناس على إمام واحد في صلاة

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ١٠٠)، واللفظ له، ومسلم برقم: (١٤/ ٢٦٧٣).

التراويح في رمضان .

**الثالثة** : أن يترك ﷺ الفعل مع وجود المقتضي له ، وانتفاء المانع منه ، فيكون ترك ذلك سنة ، كتركه ﷺ الأذان لغير الصلوات الخمس كصلاة التراويح وصلاة العيدين ونحوهما .

وكل عبادة ترك السلف فعلها مع وجود المقتضي ، وزوال المانع ، ففعلها بدعة ، كصلاة الرغائب ، والاحتفال بالمولد النبوي ، والاحتفال برأس السنة الهجرية ، والاحتفال بليلة الإسراء والمعراج ونحو ذلك .

فكل ما تركه النبي ﷺ من العبادات ، إن تركها الصحابة بعد وفاته ، فهذا دليل قاطع على أن فعلها بدعة ، وإن فعلها الصحابة بعد وفاته علمنا أنه تركها لأجل مانع كتركه صلاة التراويح جماعة خشية أن تفرض على الأمة .

فكل عبادة لم يتعبد بها أصحاب الرسول ﷺ الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، لا يجوز التعبد لله بها ، وكل عبادة اتفق على تركها رسول الله ﷺ وسلف الأمة من بعده ، فهي بلا شك بدعة ضلالة .

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ » . متفق عليه[1] .

وكل عبادة مخالفة لقواعد الشريعة ومقاصدها ، فهي بدعة ، وذلك مثل صلاة الرغائب .

فإن النوافل في الأصل فعلها في البيوت أولى من فعلها في المساجد ، وفعلها منفردًا أولى من فعلها جماعة إلا ما خصه الشرع ؛ كالتراويح ، وكذا الأذان لصلاة التطوع كالعيدين ، والاستسقاء ونحوهما ، فإن الأذان يشرع

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٢٦٩٧)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٧/ ١٧١٨ ).

للفرائض فقط دون النوافل : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾[الحشر:٧] .

وكل تقرب إلى الله بفعل شيء من العادات أو المعاملات لم يشرعه الله ورسوله ، فهو بدعة ، مثل التقرب إلى الله بالصمت الدائم ، أو القيام في الشمس ، أو اتخاذ لبس الصوف والمرقعات عبادة وطريقة إلى الله ، أو حرمان النفس من الأكل والشرب والجماع .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بينما النبي ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم ، فسأل عنه ؟ فقالوا : أبو إسرائيل ، نذر أن يقوم ولا يقعد ، ولا يستظل ، ولا يتكلم ، ويصوم ، فقال النبي ﷺ : « مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه » . أخرجه البخاريه[1] .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها ، فقالوا : وأين نحن من النبي ﷺ ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال أحدهم : أما أنا فإني أصلي الليل أبدا ، وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا ، فجاء رسول الله ﷺ فقال : « أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا ، أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي » . متفق عليه[2].

---

(١) أخرجه البخاري برقم( ٦٧٠٤ ) .

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٥٠٦٣)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٥/ ١٤٠١).

وكل تقرب إلى الله بفعل ما نهى الله ورسوله عنه ، فهو بدعة ، وذلك مثل من يتقرب إلى الله بمشابهة الكفار ، أو بسماع الملاهي ، والرقص ونحو ذلك ، وهذه بدعة من جهة أصلها ، ومن جهة وصفها ، فهي تقرب إلى الله بما لم يشرعه مما نهى عنه ، وهي خروج عن منهج الدين بموافقة أعداء الله ، وهي ذريعة إلى أن يعتقد فيها أنها من الدين إذا فعلها أهل العلم والدين ، وهذه هي أصول البدعة : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾[ النساء : ١١٥ ] .

وكل عبادة جاءت في الشرع على صفة مقيدة ، فتغيير هذه الصفة بدعة .

فكل عبادة لها زمان ، ومكان ، وجنس ، ومقدار ، وكيفية .

فالزمان ؛ كصلاة التراويح في رمضان ، وفعلها في غير رمضان بدعة .

والمكان ؛ كالاعتكاف في المسجد ، وجعل الاعتكاف في غير المسجد بدعة .

والجنس ؛ كالأضحية ببهيمة الأنعام ، والأضحية بما سواها كالفرس بدعة .

والمقدار ؛ كالصلوات المفروضة خمس ، وزيادة صلاة سادسة بدعة .

والكيفية ؛ كالوضوء الشرعي مرتبا ، والبدء بغسل الرجلين ثم اليدين بدعة : ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾[ الأعراف : ١٥٨ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾[الحشر:٧] .

وكل عبادة مطلقة ثبتت في الشرع بدليل عام ، فإن تقييدها بزمان ، أو مكان أو نحوهما بدعة ، وذلك كصلاة النوافل ، وصوم التطوع ونحوهما ؛ فالصوم في الجملة مندوب إليه ، لم يخصه الشرع بوقت دون وقت ، فإذا خص الإنسان صوم يوم بعينه كالأربعاء أو أيامًا من الشهر كالخامس والعاشر مثلًا ، أو خص الأيام الفاضلة بعبادة لم تشرع فيها خاصة كتخصيص يوم كذا بصدقة أو طعام أو صيام ، وتخصيص ليلة كذا كتخصيص ليلة النصف من شعبان بصلاة وقراءة قرآن ونحو ذلك ، فهذا كله وأمثاله بدعة ضلالة : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النساء:١١٥] .

- **حكم الغلو :**

الغلو في العبادة بالزيادة فيها على القدر المشروع بدعة ؛ كالتقرب إلى الله بقيام الليل كله دائمًا ، أو بصوم الدهر كله ، أو باعتزال النساء وترك الزواج ، ورمي الجمار في الحج بالأحجار الكبار ونحو ذلك ، والوسوسة في الوضوء والغسل ، والتعمق والتشدد في الوضوء والغسل والنظافة ونحو ذلك : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [ الأنعام : ١٥٣ ] .

**والغلو في الدين يقع في بابين :**

**الأول** : باب العبادات ، ويكون بجعل ما ليس بواجب ولا مستحب بمنزلة الواجب والمستحب ، كصيام الدهر ، وقيام الليل كله .

**الثاني** : باب المعاملات ، ويكون بجعل ما ليس بمحرم ولا مكروه بمنزلة المحرم والمكروه كترك الكسب ، والنكاح ، وأكل الطيبات .

**الأصل الثاني** : الخروج على منهج الدين في أصوله وأحكامه .

**ويندرج تحت هذا الأصل ست قواعد** :

**الأولى** : كل ما كان من الاعتقادات والآراء والعلوم معارضًا لنصوص الكتاب والسنة ، أو مخالفًا لإجماع سلف الأمة ، فهو بدعة .

**الثانية** : كل خصومة أو جدال أو مراء في الدين ، فهو بدعة ؛ كالسؤال عن المتشابهات ، مثل السؤال عن كيفية أسماء الله وصفاته ، وامتحان المسلمين بما ليس في الكتاب والسنة من المسائل ، والتعصب للآراء والأشخاص والمذاهب ، ونحو ذلك مما يوجب الفرقة ، ويوقع الشك في القلوب : ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾** ﴾[النساء:١١٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ **قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾** ﴾[المائدة:٧٧] .

**الثالثة** : إلزام المسلمين بفعل شيء ، وجعل ذلك كالشرع الذي لا يخالف ، بدعة ؛ كإلزام المسلمين بدفع الضرائب المختلفة ، وجعل ذلك كالدين الذي يعاقب على تركه ، وتقديم الجهال على العلماء ، وتولية المناصب العليا وغيرها من لا يصلح لها بطريق الوراثة ، وسنّ عقوبات على الجرائم التي لم يشرعها الله ولا رسوله ، فهذا وأمثاله كله خروج على منهج الدين ، وذلك بجعل هذه العادات ، والمعاملات ، والقوانين ، فرضًا محتومًا على الناس بمنزلة فرائض الدين : ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾** ﴾ [النساء :١١٥ ] .

**الرابعة** : الخروج على الأوضاع الدينية الثابتة بدعة ، كالحيل الباطلة التي يحصل بها تحليل المحرمات ، أو إسقاط الواجبات ، مثل استحلال الربا ببيع العينة ، ورد المطلقة ثلاثًا بنكاح التحليل ، وإسقاط فرض الزكاة بالهبة المستعارة .

وتغيير الحدود والمقدرات الشرعية بدعة ؛ كأحكام الجنايات والحدود ، وأنصبة المواريث ، ومقادير الزكاة ، ومقادير الكفارات ، ونحو ذلك مما قدره الشرع : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾[النساء:١٣-١٤] .

**الخامسة** : مشابهة الكفار فيما كان من خصائصهم من عبادة ، أو عادة ، بدعة ، فمخالفة الكفار أمر مقصود شرعًا ، ليكون الدين كله لله .

فاليهود عرفوا باستحلال المحرمات بالحيل الباطلة ، والنصارى عرفوا بالغلو والزيادة في الدين على الحد المشروع ، ومشابهتهم فيما أحدثوه في الدين مما ليس في دينهم بدعة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [آل عمران:١٠٠-١٠١] .

**السادسة** : كل فعل من أعمال الجاهلية لم يقره الإسلام ، فهو بدعة .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾[لقمان: ٢١] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٠] .

وعن أبي مالك الأشعري ﷺ أن النبي ﷺ قال : « أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ ، لَا يَتْرُكُونَهُنَّ : الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ ، وَالْاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ ، وَالنِّيَاحَةُ » . أخرجه مسلم[1] .

**الأصل الثالث** : الذرائع المفضية إلى البدعة .

والذرائع المفضية إلى البدعة تدخل فيما يلي :

الواجبات ، والمندوبات ، والمباحات ، والمكروهات ، والمحرمات ، **ويندرج تحت هذا خمس صور** :

**الصورة الأولى** : إذا فعل الإنسان ما هو مطلوب شرعًا على وجه يوهم خلاف المقصود ، فهو ملحق بالبدعة ، ويتضمن ذلك خمس صور :

**الأولى** : أن يوهم فعل النافلة المطلقة أنها سنة راتبة ، مثل إقامة النافلة جماعة في المسجد .

**الثانية** : أن يوهم فعل السنة أنها فريضة ، كالتزام قراءة سورة السجدة والإنسان ، في صلاة فجر كل يوم جمعة .

**الثالثة** : أن يوهم فعل العبادة الموسعة أنها مخصصة بزمان أو مكان .

**الرابعة** : أن يلتصق بالعمل المشروع عمل زائد حتى يصير وصفا لهذا العمل كقراءة القرآن في الطواف بالكعبة .

**الخامسة** : كل اجتماع راتب يتكرر بتكرر الأيام أو الأعوام غير الاجتماعات المشروعة كصلاة الجماعة ، والجمعة ، والعيدين ونحوها ؛ وذلك لما فيه من مضاهاة الاجتماعات المشروعة .

---

(١)أخرجه مسلم برقم: ( ٢٩/ ٩٣٤).

**الصورة الثانية** : إذا فعل المسلم ما هو جائز شرعًا على وجه يعتقد فيه أنه مطلوب شرعًا ، فهو ملحق بالبدعة ، وذلك مثل فرش المساجد وتبليطها ونحو ذلك .

**الثالثة** : إذا عمل بالمعصية العلماء الذين يقتدى بهم على وجه الخصوص ، وظهرت من جهتهم حتى اعتقدها العامة من الدين ، فهذا ملحق بالبدعة ، ومن هنا نستشنع زلة العالم .

**الرابعة** : إذا عمل بالمعصية عامة الناس ، ولم ينكرها العلماء القادرون ، حتى اعتقد العامة أن هذه المعصية مما لا بأس به ، فهذا ملحق بالبدعة ؛ كالتعامل بالربا ، واقتناء ما يحرم من الآلات اللهو والصور .

**الخامسة** : كل ما بني على المحدث فهو محدث مردود ، وكل ما بني على باطل فهو باطل ، فكل ما يترتب على فعل البدع المحدثة في الدين من الإتيان ببعض الأمور التعبدية أو العادية فهو ملحق بالبدعة ، مثل ما يحصل في الأعياد والاحتفالات المبتدعة من التوسع في الطعام واللباس واللعب ، فكل ذلك آثامه تابعة لذلك العيد المبتدع : ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾** ﴾[النساء:١١٥] .

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ ». متفق عليه[1].

- **حكم البدع** :

كل محدث في الدين بدعة ، وكل بدعة ضلالة محرمة مردودة ، وكل ضلالة

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٢٦٩٧)، واللفظ له، ومسلم برقم: (١٧/ ١٧١٨).

في النار ، وتحريم البدع متفاوت بحسب نوع البدعة .

فمن البدع ما هو كفر صراح كالطواف بالقبور ، ودعاء أصحاب القبور ، والاستغاثة بهم ، وتقديم الذبائح والنذور لهم : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [ المؤمنون : ١١٧ ] .

ومنها ما هو من وسائل الشرك كالبناء على القبور ، والصلاة عندها ، ودعاء الله عندها متوسلًا بأصحابها .

ومنها ما هو فسق اعتقادي كالبدع المخالفة للأدلة الشرعية .

ومنها ما هو معصية كبدعة التبتل ، والصيام قائمًا في الشمس ، والخصاء بقصد قطع شهوة الجماع .

ويجب على العلماء بيان السنن لتزول البدع ، والتحذير من البدع ، وأهل البدع ؛ لئلا يغتر بهم عموم المسلمين .

ويجب على ولاة أمور المسلمين منع البدع ، والأخذ على أيدي المبتدعة ، وردهم عن شرهم ؛ لئلا يفسدوا الدين ، ويقضوا على السنن : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [ النساء : ١١٥ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [ القصص : ٥٠ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور:٦٣] .

فالبدع كلها محرمة ، وقد غلّظ الشرع على مبتدعيها :﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا

شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ [الشورى:٢١]

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف:٣٣] .

وعن جابر أن النبي ﷺ قال : « خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار ». أخرجه أحمد والنسائي[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بينما النبي ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم ، فسأل عنه ؟ فقالوا : أبو إسرائيل ، نذر أن يقوم ولا يقعد ، ولا يستظل ، ولا يتكلم ، ويصوم ، فقال النبي ﷺ : « مُرْهُ فَلْيَتَكَلَّمْ وَلْيَسْتَظِلَّ وَلْيَقْعُدْ ، وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ » . أخرجه البخاري[2] .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها ، فقالوا : وأين نحن من النبي ﷺ ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال أحدهم : أما أنا فإني أصلي الليل أبدا ، وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا ، فجاء رسول الله ﷺ فقال: « أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ للَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي». متفق عليه[3].

---

(١) صحيح / أخرجه أحمد برقم ( ٣/ ٣١٠ ) ، والنسائي برقم ( ٣/ ١٨٨ ) .

(٢) أخرجه البخاري برقم: ( ٦٧٠٤ ).

(٣)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٥٠٦٣ )، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٥/ ١٤٠١ ).

وعن العرباض بن سارية ﷺ أن النبي ﷺ قال : « فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالْأُمُورَ الْمُحْدَثَاتِ ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ ». أخرجه أحمد وابن ماجة[1].

- **فقه البدعة :**

البدعة هي الشيء الذي يبتدعه الإنسان مما ليس له أصل في الشرع ، فكل من عبد الله بغير ما شرع سبحانه من اعتقاد ، أو قول ، أو فعل ، فهو مبتدع ، فإذا أحدث الإنسان عقيدة في أسماء الله وصفاته فهو مبتدع ، ومن قال قولًا لم يشرعه الله ورسوله فهو مبتدع ، ومن فعل فعلًا لم يشرعه الله ورسوله فهو مبتدع ، وللبدعة في دين الله محاذير كثيرة ، منها :

**أولًا** : أن كل محدثة في دين الله بدعة ، وكل بدعة ضلالة: ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[يونس: ٣٢].

**ثانيًا** : أن من ابتدع بدعة ، فقد خرج عن اتباع النبي ﷺ ، كما قال سبحانه : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾[ آل عمران : ٣١ ] .

**ثالثًا** : إن البدعة التي يتعبد الإنسان لله بها تنافي تحقيق شهادة أن محمدًا رسول الله ؛ لأن من حقق هذه الشهادة لم يخرج عن التعبد بما جاء به ﷺ ، وكل من قصر في الشريعة وزاد فيها فقد قصر في اتباعه إما بنقص أو زيادة ، والمطلوب اتباعه ﷺ بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، بلا زيادة ولا نقص: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾[الحشر:٧] .

---

(١) صحيح/ أخرجه أحمد برقم ( ١٧١٨٥ ) ، وابن ماجة برقم( ٤٢ ) .

وقال الله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[الأحزاب:٢١] .

**رابعًا** : أن البدعة تتضمن الطعن في رسول الله ﷺ ؛ لأن الرسول ﷺ إما أن يكون عالمًا بهذه البدعة ، ولكنه كتمها، أو يكون لم يعلم بها فيكون جاهلًا، وهذا ينافي شهادة أن محمدًا رسول الله : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [ النساء : ١١٥] .

**خامسًا** : أن مضمون البدعة يتضمن الطعن في الإسلام بأنه ناقص ، وأن المبتدع كمله بهذه البدعة ، والله ﷻ يقول : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾[المائدة:٣] .

**سادسًا** : أن البدعة تتضمن تفريق الأمة الإسلامية، فالمبتدع أن يبتدع ما شاء، ويتهم غيره ، فالذين يحتفلون بالمولد النبوي يقولون لمن لا يفعل هذه البدعة أنتم تبغضون الرسول ﷺ ، ولهذا لم تحتفلوا بمولده .

**سابعًا** : أن البدعة انتشرت في الأمة، فاضمحلت السنة، وعمل الناس بها كأنها سنة.

**ثامنًا** : أن المبتدع لا يحكم الكتاب والسنة ؛ لأنه يرجع إلى هواه لا إلى الشرع : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾[القصص:٥٠].

# ١٠- الخزانة العاشرة

- **أقسام السنة في الإسلام :**

**السنة في الإسلام تنقسم إلى قسمين :**

**القسم الأول** : سنة سيئة ، وهي البدعة .

**القسم الثاني** : سنة حسنة ، وهي نوعان :

**النوع الأول** : أن تكون السنة مشروعة ، ثم يترك العمل بها ، ثم يجددها من يجددها مثل قيام رمضان بإمام الذي كان موجودًا في عهد النبي ﷺ ، ثم تركه النبي ﷺ خشية أن يفرض جماعة على الأمة ، ثم رأى عمر رضي الله عنه أن يجمع الناس على إمام واحد ففعل ، وأحيا سنة كانت قد تركت ، فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده .

**النوع الثاني** : أن يكون الإنسان أول من يبادر إلى فعل الحسنة ، إذا علم بها ؛ كحال الرجل الذي بادر بالصدقة حتى تتابع الناس ووافقوه على ما فعل هذا له أجر المبادرة ، وأجر من اتبعه على فعلها .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى ، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا ، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا » . أخرجه مسلم[1] .

وعن جرير رضي الله عنه قال : كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار ، قال فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار أو العباءة متقلدي السيوف ، عامتهم من مضر ، بل كلهم من مضر ، فتمعر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة ، فدخل

(١) أخرجه مسلم برقم: ( ١٦/ ٢٦٧٤).

ثم خرج ، فأمر بلالًا ، فأذن وأقام ، فصلى ثم خطب فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء:١ ] .

والآية التي في الحشر : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحشر:١٨] .

تصدق رجل من دينار ، من درهمه ، من ثوبه ، من صاع بره ، من صاع تمره حتى قال : ولو بشق تمرة ، قال : فجاء رجل من الأنصار بصرّة كادت كفه تعجز عنها ، بل قد عجزت قال : ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب ، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهبة ، فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً ، فَلَهُ أَجْرُهَا ، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً ، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ » . أخرجه مسلم[1] .

**ومن البدع العظيمة ما أحدثه الجهال عند زيارة القبور .**

**وزيارة القبور على ثلاثة أقسام :**

**القسم الأول** : زيارة شرعية ، للسلام على الموتى ، والدعاء لهم ، وتذكر الموت ، واتباع سنة النبي ﷺ ، بشرط عدم شد الرحال لزيارته .

**القسم الثاني** : زيارة شركية ، كمن يزور الميت ليسأله قضاء حاجته ، فهؤلاء من جنس عبّاد الأصنام : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ

(١)أخرجه مسلم برقم: ( ٦٩/ ١٠١٧).

﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء:١١٥] .

وقال الله تعالى : ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [ المؤمنون : ١١٧ ] .

وقال الله تعالى : ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور:٦٣] .

وقال الله تعالى : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [الحشر:٧] .

**القسم الثالث** : زيارة بدعية ، وهي نوعان :

**النوع الأول** : من يظن أن الدعاء عند القبور مستجاب ، أو أنه أفضل من الدعاء في المسجد ، فهذا من المنكرات العظيمة .

**النوع الثاني** : من يسأل الله تعالى بالميت ؛ كمن يقول : أتوسل إليك بنبيك ، أو بحق الشيخ فلان ، فهذا من البدع المحدثة في الإسلام ، ولكنه لا يخرج من ملة الإسلام .

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ » .متفق عليه [1].

- **حكم طعن الصحابة :**

الصحابة رضي الله عنهم رباهم النبي ﷺ على الإيمان والتقوى وعبادة الله وحده لا شريك له ، فهم أبعد الناس عن الذنوب والبدع ؛ لاستغنائهم

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٢٦٩٧)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٧/ ١٧١٨ ).

بالعلم والإيمان بالله ، والتمسك بالعمل الصالح ، فالبدعة إنما يقع فيها الجهال بالسنة .

أما الشهوات من زينة وشرب خمر ونحو ذلك من الذنوب والمعاصي ، لا يقع فيها إلا من عنده شهوة يطلب قضاءها ، ومن قضى شهوته بما هو أحب إليه من طاعة الله ورسوله ، لم يبق عنده داعٍ إلى تلك الشهوات المحرمة .

فالقلب مفطور على الإسلام ، هو بفطرته لا يريد أن يعبد إلا الله ، وإذا حصل له ذلك اطمئن قلبه ، وحصل سروره وفرحه ، وحصلت لذته وسعادته بعبادة ربه وطاعته : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[الروم:٣٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ ﴾[ الرعد: ٢٨-٢٩ ] .

وإذا لم يحصل للقلب هذا لا يبقى طالبًا لما يعتز به ، فيقع في المحرمات من الصور ، وشرب الخمر ، وأخذ المال ، وسائر البدع ونحو ذلك ، ولهذا لما كانت امرأة العزيز مشركة ، طالبة للفاحشة، ويوسف ﷺ شاب غريب أعزب، فالداعي معه أقوى ، لكن معه من الإيمان والعلم ما صده عن ذلك ، ولهذا صرف الله عنه السوء والفحشاء كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[يوسف:٢٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلاَ يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلاَ يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ

يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلاَ يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ، يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ ». متفق عليه[1].

وأصحاب النبي ﷺ كلهم عدول ثقات ، وهم الذين نقلوا إلينا الشريعة والقرآن والسنة ، وهم الذين جاهدوا مع رسول الله ﷺ ، وهاجروا معه ، ونصروه ، واتبعوا النور الذي أنزل معه ، وقد زكاهم الله ﷻ بقوله : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [التوبة:١٠٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الفتح:١٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح:٢٩] .

ولم يرتد أحد من الصحابة رضي الله عنهم بعد وفاة النبي ﷺ إلا قومًا من الأعراب كانوا حديثي عهد بالإسلام ، فتنوا وارتدوا على أدبارهم ، ومنعوا الزكاة فقاتلهم أبو بكر والمسلمون ، وعاد أكثرهم إلى الإسلام ، أما الرافضة فيقولون حقدًا وحسداً وبغضًا ، جميع الصحابة مرتدون إلا علي بن أبي طالب وآل البيت ، وقلة من الصحابة كعمار فلم يرتدوا .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٦٧٧٢)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٠٠/ ٥٧).

**وهذا طعن عظيم يتضمن أربعة محاذير كبار ، وهي :**

١ – الطعن في الصحابة رضي الله عنهم .

٢ – الطعن في الشريعة .

٣– الطعن في النبي ﷺ .

٤ – الطعن في رب العالمين .

أما كونه طعنًا في الصحابة ، فهو تكذيب لهم في كل ما نقلوه إلينا من الشريعة ، والكاذب لا يقبل خبره ، بل هو ملعون ، ومصيره النار .

وأما كونه طعنًا في الشريعة ، فإن الذين نقلوها إلينا هم الصحابة رضي الله عنهم ، وإذا كانوا مرتدين والشريعة جاءت من طريقهم ، فإنها لا تقبل ؛ لأن الكافر والفاسق لا يقبل خبره .

وأما كونه طعنًا في رسول الله ﷺ ؛ لأن الطعن في الأصحاب طعن بالمصاحب ، وكل قرين يعاب ويمدح بقرينه ، فإذا كان قرينه سيئًا فطعن الصحابة بالكفر طعن بالرسول الذي علمهم .

وأما كونه طعنًا بالله رب العالمين ، كيف يجعل أفضل الرسالات وأعمها وأحسنها ، على يد هذا الرجل الذي هؤلاء أصحابه ، وأن يجعل أصحاب أفضل الأنبياء والرسل مرتدين ، وهذه فرية عظيمة على الصحابة رضي الله عنهم ، القصد منها هدم الإسلام ، قام بها الرافضة اتباع عبد الله بن سبأ اليهودي الذي أله عليًا ، بقصد إفساد دين المسلمين ، كما أفسد اليهودي بولس دين النصارى ، وكل منهما تظاهر بالدين وسيلة لإفساد الدين ، ونحن نحب جميع أصحاب النبي ﷺ ، آل البيت ، والخلفاء الراشدين ، وسائر الصحابة من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه .

ومن زكاهم الله ﷻ ، وهم المهاجرون والأنصار ، فليس لأحد أن يطعن فيهم ، وفي عدالتهم ، وفي أخلاقهم ، وفي إيمانهم : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾[التوبة:١٠٠] .

- **حكم الصوفية :**

ظهرت في العالم الإسلامي بدع كثيرة ، كما قال النبي ﷺ : « افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ ، وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ ، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، فَإِحْدَى وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ ، وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ ». أخرجه ابن ماجة وابن أبي عاصم[1].

وقد ظهرت في العالم الإسلامي بدعتان عظيمتان خطيرتان ، لهما أثر كبير على المسلمين في العالم الإسلامي ، وهما : بدعتا الرافضة والصوفية .

والصوفية لم تكن معروفة في القرون المفضلة الثلاثة الأولى ، فلا أساس لها في الكتاب والسنة ، بل هي بدعة عظيمة محدثة ، وأول من نقل عنه ذكر الأولياء ، ورجال الغيب ، ومساكنهم ، هو أبو بكر محمد بن علي الكتاني ، عاش في بداية القرن الرابع ، وهو أول من صنف الصوفية فقال :

النقباء ثلاثمائة ، وهم بالمغرب ، والنجباء سبعون ، وهم بمصر ، والبدلاء أربعون ، وهم بالشام ، والأخيار سبعة ، سياحون في الأرض ، والأوتاد أو

---

(١) صحيح/ أخرجه ابن ماجة برقم( ٣٩٩٢ ) ، وابن أبي عاصم برقم ( ٦٣ ) .

العُمُد أربعة في زوايا الأرض ، والغوث واحد ، ويسمى القطب ، ومسكنه في مكة ، فإذا عرضت الحاجة من أمر العامة ، ابتهل فيها النقباء، ثم النجباء، ثم الأبدال ، ثم الأخيار ، ثم العُمُد ، ثم أجيبوا ، وإلا ابتهل الغوث ، فلا يتم مسألته حتى تجاب دعوته هكذا زين لهم الشيطان : ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ٣٨﴾[النساء:٣٨] .

وقال الله تعالى عن الشيطان : ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ١١٨ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ١١٩ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ١٢٠ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ١٢١ ﴾[ النساء :١١٨ – ١٢١ ] .

ثم جاء بعده أبو طالب المكي ، ثم ابن العربي في القرن السابع ، ثم غيرهم من أئمة الصوفية ، وكلهم يزيد وينقص في هذه الألقاب والمراتب ، حسب هواه وخياله : ﴿ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٠ ﴾[ القصص : ٥٠] .

والصوفية ابتدعوا مملكة غيبية وهمية ، يجتمع فيها رجال الغيب ، ويقررون كل ما يجري في العالم ، وقد كان لهذه الفكرة السيئة أثر سيء في العالم الإسلامي ، حيث تعلق كثير من الناس بالغوث ، والقطب ، والأبدال ، وظنوا أن الشدة إذا نزلت بأهل الأرض رفعها الأدنى إلى الأعلى ، حتى ينتهي الأمر إلى الغوث ، فلا يرفع بصره ، حتى تنفرج تلك النازلة ؛ لأنهم يعتقدون أن في الغوث والقطب نوعًا من الربوبية والإلوهية ، وأن مدد أهل

الأرض من جهته ، وبواسطته يفيض الخير إلى سائر الخلق ، ينفع من يشاء ، ويضر من يشاء ، وأنه يعطي الملك لمن يشاء ، ويصرفه عمن يشاء ، ويفعل ما يشاء وهذا كله من أعظم الكذب ، والمحال ، والشرك ، والضلال ، والإلحاد : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٣ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ٦٤ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٦ ﴾[الزمر:٦٢-٦٦] .

والقطب عند الصوفية : هو الخليفة الأعظم عن الحق مطلقا في جميع الوجود ، ويسمى الغوث ، فحيثما كان الرب إلهًا كان هو خليفة الله في تصريف الحكم وتنفيذه ، فهو موضع نظر الله من العالم في كل زمان ومكان ، وهو يسري في جميع الكائنات سريان الروح في الجسد .

والقطب والغوث بمنزلة الرب والإله ، فلا يصل إلى الخلق شيء من الحق إلا بحكم القطب الذي يتولى إيصاله إلى محله ، فما أسمج هذا الكذب والبهتان والزور : ﴿ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩ ﴾[الأعراف:١٧٩] .

ومن علامات القطب عند الصوفية : أنه يكشف له عن الذات الإلهية ، ويحيط علمًا بصفات الله ، وعلم القطب لا حدود له ، ويحيط بمعرفة أحكام الشريعة ، وهو أكمل الخلق ، يبصر جميع العالم بجميع أجزاء بدنه إلا العين ، ولا يطيق رؤيته إلا الخواص ، يدور في الكون ، ويستقر بمكة وهو بجسده حيث شاء من الأرض ، يتصرف في الكون بما يشاء ، ولا

يجري في عالم المخلوقات شيء إلا بإذنه ، ونعوذ بالله من هذا البهتان والكذب ، والكفر والشرك : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[ يونس : ٣١ – ٣٢ ] .

فالصوفية خروج عن البشرية إلى عالم الربوبية ، وهي مستمدة من الشيعة ، فانتقلت فكرة القطب إلى الصوفية من الشيعة ، وهي فارسية الأصل ، فالإمام عند الشيعة ، والقطب عند الصوفية ، معناهما واحد ، وهو الذي يدبر شئون العالم العلوي ، والعالم السفلي ، وهذا القطب قدروه في الأذهان ولا حقيقة له في الأعيان ، كما قدر الشيعة المهدي المنتظر في الأذهان ، ولا حقيقة له في الأعيان ، وكقول النصارى في المسيح أنه هو الله ، أو ثالث ثلاثة ، فنسأل الله السلامة والعافية ، ونسأله الثبات على التوحيد والإيمان : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [ الكهف : ١١٠ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾[الذاريات: ٥٠-٥١] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾[ الشعراء : ٢١٣ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾[ الإسراء : ٢٢ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾[ النساء : ١١٥ ] .

- **أثر الرافضة والصوفية على العالم الإسلامي :**

أثر الصوفية والرافضة في مجال العقيدة أوقع كثيرًا من الناس في الشرك ، فالصوفية يرون أن الأولياء لهم التصرف المطلق في العالم العلوي والسفلي ، وأن القطب عند الصوفية هو الذي يدبر شأن الملك ، ومن جهته يكون مدد أهل الأرض ، وبواسطته يفيض الخير إلى سائر الخلق .

والإمام الغالب عند الرافضة ، هو الذي يدبر شئون العالم العلوي ، والعالم السفلي ، وهذه جناية خطيرة كبرى على التوحيد ، فهي محاولة خبيثة لتجريد الإله الحق سبحانه من خصائصه التي لا يشاركه فيها غيره من الخلق ، وهذا هو الشرك في الربوبية وهو أقبح أنواع الشرك : ﴿ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾[إبراهيم:١٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢ ﴾[الأنعام:١٠٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤ ﴾[ فاطر : ١٣-١٤] .

فالرافضة والصوفية حشرتان سامتان في جسد العالم الإسلامي ، غر بهما الشيطان كثيرًا من الناس ، وصرفهم بها عن التوحيد إلى الشرك ، وعن السنة إلى البدعة ، وعن طاعة الرحمن إلى طاعة الشيطان : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١ ﴾[النور:٢١] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [الشورى:٢١] .

فلله كم غر الشيطان هاتين الطائفتين ؟ ، وكم أحبط أعمالهما ؟ ، فما أخسرهما ؟

قال الله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يس:٦٠-٦٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الكهف:١٠٣- ١٠٦] .

وأولياء الله ﷻ ، هم المؤمنون المتقون ، من كانوا وحيث كانوا ، وفي أي زمان كانوا ، كما قال سبحانه : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يونس:٦٢-٦٤] .

وليس لأولياء الله ﷻ عدد محصور ، ولا لهم مكان معين من الأمكنة ، بل هم يزيدون وينقصون بحسب زيادة أهل الإيمان والتقوى .

والقطب والغوث عند الصوفية أعظم من الرسول ، بل هو شريك لله في الألوهية والعبودية ، نعوذ بالله من هذا الفهم ، وهذا محال في العقل والشرع ، وقد دل الكتاب والسنة على أن حوائج الخلق لا يقضيها إلا الله

بالدعاء المشروع بدون واسطة بين الله وخلقه : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾[البقرة:١٨٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾[غافر:٦٠] .

ومن اتخذ النبيين والملائكة أربابًا ، فهو كافر ، وتحديد مساكن الأبدال ، والنقباء ، والنجباء ، والأقطاب ، في الشام أو مصر أو الأقاليم السبعة ، كل ذلك لا أصل له ومن القول على الله بغير علم ، فإن خير الأمم من المهاجرين والأنصار كانوا بالمدينة النبوية ، ولما فتحت الأمصار كان في مصر من خير المسلمين من لا يحصيه إلا الله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[الأعراف:٣٣] .

والقطب والغوث ليس أعظم من الرسل ، فإن جميع الرسل كانوا يدعون الله وحده عند الشدائد ، فيجيب دعاءهم ، كما قال سبحانه : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾[الأنبياء:٨٧-٨٨] .

وقال نوح ﷺ حينما دعا على قومه : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾ [القمر:١٠ - ١٤] .

فالملك بيد واحد ، والخلق بيد واحد ، والأمر بيد واحد لا شريك له : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ﴾[الملك: ١] .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٦ ﴾ [آل عمران:٢٦] .

والله سبحانه لم يأمر مخلوقًا ليسأل مخلوقًا آخر ، بل أمرنا أن نتوجه إليه وحده في جميع حوائجنا : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝١٠٢ ﴾[الأنعام:١٠٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥١ ﴾[الذاريات: ٥٠-٥١] .

والقطب والغوث والنجباء ، لا أصل لهذه الأسماء في الكتاب والسنة ، فما أعظم تلاعب الشيطان بالعباد ، وما أشد عقوبة من افترى على الله الكذب : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٤٤ ﴾[الأنعام:١٤٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢١ ﴾ [الشورى:٢١]

فنسأل الله ﷻ أن يهدي ضال المسلمين ، وأن يريهم الحق حقًا ، ويرزقهم إتباعه ، ويريهم الباطل باطلا ، ويرزقهم اجتنابه .

# موسوعة خزائن العلوم الإسلامية

## ٥٨-خزائن الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر

وتشتمل على ما يلي:

١ - الخزانة الأولى

٢ - الخزانة الثانية

٣ - الخزانة الثالثة

٤ - الخزانة الرابعة

٥ - الخزانة الخامسة

# ٥٨- خزائن الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر

## ١- الخزانة الأولى

- **فقه الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر :**

**المعروف** : هو التوحيد والإيمان والطاعات وكل خير .

**والمنكر** : هو الشرك والكفر والنفاق والمعاصي وكل شر .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سهمان من سهام الإسلام ، وهما وظيفة الأنبياء والرسل ، وقد شرف الله بهما هذه الأمة ، فهم خير الأمم إذا قاموا بذلك : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران:١١٠ ] .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم أصول الدين، وهما وظيفة الأنبياء والرسل، وهما وظيفة هذه الأمة، فهما واجبان على كل مسلم ومسلمة كما قال الله ﷻ: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [آل عمران:١٠٤-١٠٥] .

والمسلم يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ لأن هذه وظيفته التي شرفه بها ربه ، وكلفه بها ، ووعده على ذلك الثواب العظيم ، والأجر الجزيل .

والمسلم يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر امتثالًا لأمر الله ورسوله إما رجاء الثواب الذي يحصل له عند القيام بهما ، وإما خوف العقاب على تركهما ، وتارةً الغضب لله على انتهاك محارمه ، وتارةً النصيحة للمؤمنين والرحمة لهم وإنقاذهم مما وقعوا فيه من التعرض لعقوبة الله ، وتارةً يحمل العبد على القيام بها إجلال الله وتعظيمه ومحبته ، وأنه أهلٌ أن يُطاع فلا يُعصى ، وأن يُذكر فلا يُنسى ، وأن يُشكر فلا يُكفر ، وتارةً لرؤية الشيطان يتلاعب بالعباد ، ويسوقهم إلى المعاصي والفواحش فيغار الإنسان عليهم : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [التوبة:٧١ ] .

أنا ثوابهم في الآخرة فكما قال سبحانه : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾ [التوبة:٧٢ ] .

والواجب شكر الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، والدعاء لهم ، وإكرامهم والوقوف معهم ، فمن نبهك على وجود عقربٍ في بدنك ، أو أهدى إليك هدية فعليك أن تشكره ، وترضى عنه ، وتدعو له ، لا أن تمتعض منه .

وعلى الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يصبر على إهانة الناس له ، فإن كانت إهانتهم تعود لكوني مشاركًا في الدعوة إلى الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فأحيل ذلك الشخص إلى مُنزل القرآن ، الذي استخدمني في هذه المهمة ، فهو عزيزٌ حكيم .

وإن كان كلامه من نوع تحقير وإهانة لشخصي بالذات ، فهذا أيضًا لا يخصني ، وإنما أنا كالأسير ، وإهانة الأسير تعود إلى مالكه ، فهو الذي يدافع عنه كما قال الرجل الصالح الناصح لقومه : ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾[غافر:٤٤-٤٥] .

**ويجب على من يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمور :**

**الأول** : العلم بالمعروف والمنكر ، والتمييز بينهما ، والعلم بحال المأمور ، وحال المنهي : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ [محمد:١٩] .

وَقَال النَّبِيَّ ﷺ : « مَنْ يُرِدْ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ » . متفقٌ عليه[1] .

**الثاني** : الرفق بالناس حال أدائهما ، فالله رفيق يحب الرفق في الأمر كله ، وما كان الرفق في شيءٍ إلا زانه ، ولا كان العنف في شيءٍ إلا شانه ، واللين يقطع أعظم مما يقطع السيف : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾[آل عمران:١٥٩] .

**الثالث** : الحلم والصبر على الأذى من الناس كما قال سبحانه ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ ﴾[المزمل:١٠]

وقال الله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[الروم:٦٠]

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٧١)، ومسلم برقم: (١٠٠/ ١٠٣٧)، واللفظ له.

وقال الله تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف:١٩٩] .

**فلابد من هذه الثلاثة :**

العلم قبل الأمر والنهي ، والرفق معه ، والصبر بعده ومعه .

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كلاهما لازم ، لكن الأمر بالمعروف قبل النهي عن المنكر ، والأمر بالمعروف هو الأصل ، وبه يستقيم الناس على الدين ، فإذا ركب الناس الفواحش ، وغشوا المحرمات ، وتركوا الطاعات ، وأقبلوا على المعاصي ، وجب تغيير هذه المنكرات كما قال النَّبِيَّ ﷺ : « مَنْ رَأى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ » . أخرجه مسلم(١) .

- **فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :**

**لتغيير المنكر ثلاث درجات :**

**الدرجة الأولى** : تغيير المنكر باليد ، وهذا خاص بولي الأمر ، أو من ينيبه عنه ، إذ جعل الله له القوة والسلطان والجاه ، وخضوع الرعية له .

وقد أمر الله ﷻ بطاعته فقال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾[النساء:٥٩].

فكل من مكنه الله في الأرض لزم عليه تغيير المنكر باليد ، وذلك يشمل حاكم الدولة ، والقاضي في محكمته ، والقائد في جيشه ، والمدير في مصلحته ، والأب في منزله كما قال النَّبِيَّ ﷺ : « كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٧٨/ ٤٩).

رَعِيَّتِهِ ، فَالْإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ». متفقٌ عليه[1] .

**الثانية** : تغيير المنكر باللسان ، وهذا خاص بالعلماء والدعاة ، ويكون بالقول الحسن ، والكلمة الطيبة ، والموعظة الحسنة ، يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله ، لا يخشى في الله لومة لائم : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾[النحل:١٢٥] .

**الثالثة** : تغيير المنكر بالقلب ، وهذا أضعف الإيمان ، وأخر المراتب ، وهو في الوقت نفسه مهم جدًا ؛ ولذا يجب على كل مسلم ومسلمة من العامة والخاصة ، ولا يسقط عن المكلف في كل زمان ومكان .

قال النَّبِيَّ ﷺ : « مَنْ رَأى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ » .أخرجه مسلم[2] .

**والإنكار بالقلب يكون كالتالي** :

بغض المعصية التي رآها أو سمعها ، التمني وهو أن يتمنى أن لو يستطيع أن يزيل هذا المنكر بيده أو لسانه ، والدعاء بأن يدعو الله أن يزيل هذا المنكر ، وأن يهدي قلب صاحبه إلى الصراط المستقيم .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٢٤٠٩)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٢٠/ ١٨٢٩).

(٢) أخرجه مسلم برقم: (٧٨/ ٤٩).

• **أحوال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :**

**للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أربعة أحوال :**

فتارةً يصلح الأمر، وتارةً يصلح النهي، وتارةً يصلح الأمر والنهي، وتارةً لا يصلح لا أمرٌ ولا نهي : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ [ آل عمران: ٧٣ – ٧٤ ] .

وقال الله ﷻ : ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٩ ] .

وأما من جهة النوع فيؤمر بالمعروف مطلقًا ، وينُهى عن المنكر مطلقًا ، وإذا اشتبه الأمر استبان المؤمن حتى يتبين له الحق : ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾ [ النساء: ٨٣ ] .

**والمنافع التي يجب على المسلم بذلها نوعان :**

منها ما هو حق المال كالزكاة الواجبة في الأموال لحاجة الفقراء والمساكين ونحوهم : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [ التوبة: ١٠٣ ] .

ومنها ما هو واجبٌ لحاجة عامة الناس إليها ، فإن بذل منافع البدن تجب عند الحاجة كتعليم العلم ، وإفتاء الناس ، وأداء الشهادة ، والحكم بينهم بالعدل ، والجهاد في سبيل الله ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وإنقاذ الإنسانية من مهلكةٍ ونحو ذلك : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟

﴿وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج:٧٧] .

وقال الله تعالى : ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة:٢]

وقد أمرنا الله ﷻ أن نأمر بالمعروف ونحبه ونرضاه ونحب أهله ، وأمرنا أن ننهى عن المنكر ونبغضه ونسخطه ونبغض أهله ونجاهدهم .

ففي المخلوقات والصفات والأعمال ما نبغضه ونسخطه ونكرهه ، وفيها ما نحبه ونرضاه ، وكل ذلك بقضاء الله وقدره : ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [التغابن:١١]

وقال الله تعالى : ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [التوبة:٦٢] .

وإذا كان الله ﷻ يبغض السيئ منها ويكرهه وهو المقدر لها ، فكيف لا يكرهها من أمره الله أن يكرهها ويبغضها ، وقد أمر الله عباده بكل ما يحبه ويرضيه ، ونهاهم عما يبغضه ويسخطه كما قال سبحانه : ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [ آل عمران: ٣٢ ] .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقتضي سلطةً تأمر وتنهى، والأمر والنهي غير الدعوة، فالدعوة بيان، والأمر والنهي سلطان، وقد جمع الله بينهما في قوله سبحانه:﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران:١٠٤-١٠٥].

**والإصلاح درجات تبدأ :**

**أولًا** : بإصلاح النفس وتزكيتها بالأخلاق العالية ؛ لتكون زهرةً فواحة بالروائح الطيبة ، من لم يقترب منها تأثر برائحتها الزكية الطيبة : ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾** ﴾[الشمس:٧-١٠] .

**ثانيًا** : ثم إصلاح المجتمع ، حتى تنتقل هذه الأخلاق الكريمة إلى المجتمع فردًا فردًا ، فتدخل البيوت ، وتتجمل بها الأسر ، وتتزين بها القبائل : ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾[البقرة:١٣٨] .

**ثالثًا** : ثم إصلاح الدولة ؛ ليكون حكامها ووزراؤها ، وعمالها ، وتجارها هم نواة هذا المجتمع الذي آمن بالله ورسوله ، وامتثل أوامر الله ورسوله في كل حال : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾[ص:٢٦] .

فإصلاح أحوال المملكة لا يتم إلا بعد إصلاح النفس ، ثم إصلاح المجتمع ، وقد ربى النبي ﷺ النفوس في مكة ، فلما آمنت واستعدت للطاعة نزلت الأحكام وقامت الولاية في المدينة .

وقد بعث الله ﷻ هذه الأمة كما بعث الأنبياء بالدعوة إلى الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتبشير والإنذار ، والتعليم والتوجيه كما قال سبحانه : ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ** ﴾[آل عمران:١١٠ ] .

وكثيرًا ما يقع ثناء الناس على البناء والأصباغ دون الأساس ؛ لأنه لا يُرى ، ولا قيمة للبناء لولا الأساس .

وكذلك كثيرًا ما يُثني الناس على العالم أو الداعية ، وينسون الأنبياء والرسل الذين هم سبب الهداية ، بل ينسون ربهم الذي أرسل إليهم الرسل ، وأنزل عليهم الكتب ، وهداهم صراطه المستقيم ، فلا يذكرونه ولا يحمدونه : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [ الجاثية: ٣٦ – ٣٧ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٠٢-١٠٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأحزاب:٤١-٤٣] .

وإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبين على كل مسلمٍ ومسلمة ، فهل للعاصي أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ؟ .

والله يقول : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقرة:٤٤] .

ويقول ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الصف:٢-٣] .

والجواب : نعم .

**فإن المسلم مأمورٌ بشيئين :**

**أحدهما** : فعل الطاعات ، وترك المعاصي .

**والثاني** : أمر غيره بفعل الطاعات ، وترك المعاصي كما قال سبحانه : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾[الحشر:٧] .

وكمال العبد بالقيام بهما معًا ، والإخلال بأحد الأمرين لا يقتضي الإخلال بالآخر .

ومعنى الآيتين تنبيه وتحذير للمسلمين لعدم الجمع بينهما فعل المحرم ، ونهي الناس عنه ، فهذا لا يليق بالعامل ، فضلًا عن المسلم ، فضلًا عن العالم أو الداعي إلى الله ﷻ .

ومن آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التعريف ، فإن الجاهل يُقدم على الشيء لا يظنه منكرًا فإذا عرف أقلع عنه ، فيجب تعريفه بلطف .

ومنها ستر العيوب والقبائح كما قال النَّبِيَّ ﷺ : « وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا ، سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ » . أخرجه مسلم[1] .

**وفي الجهر بذكر العيوب والسيئات مفسدتان كبيرتان :**

**الأولى** : أن ذلك يجلب العداوة والبغضاء بين من يجهرون بالسوء ، ومن يُنسب إليهم هذا السوء ، وقد يفضي إلى جحد الحقوق ، وسفك الدماء .

**الثانية** : أن الجهر بالسوء بين الناس يؤثر في نفوس السامعين ، فيقتدي بعضهم ببعض ، فيجهر بالسوء مثله ، أو يقلد فاعل السوء في عمله ، والجهر بالسوء مباح للمظلوم للضرورة كما قال سبحانه : ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾[النساء:١٤٨] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٣٨/ ٢٦٩٩).

# ٢- الخزانة الثانية

- **فقه الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر :**

**المعروف قسمان :**

١- ظاهرٌ كالصلاة والزكاة ونحوهما .

٢- وباطنٌ كالإيمان والتوحيد ونحوهما .

- **والمنكر قسمان :**

١- ظاهرٌ كالقتل والزنا والفواحش .

٢- وباطنٌ كالشرك والكبر والنفاق .

- **وإنكار المنكر له أربع حالات :**

**الأولى** : أن يزول ويخلفه ضده .

**الثانية** : أن يقل وإن لم يزُل بجملته .

**الثالثة** : أن يزول ويخلفه مثله .

**الرابعة** : أن يزول ويخلفه ما هو شرٌ منه .

فالأوليان مشروعتان ، والثالثة موضع اجتهاد ، والرابعة محرمة .

وقد أمر النَّبِيَّ ﷺ : بإنكار المنكر ، وتغيير المنكر ؛ ليحصل بذلك من المعروف ما يحبه الله ورسوله .

فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه ، وأبغض إلى الله ورسوله منه ، فإنه لا يسوغ إنكاره ، وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله ، وهذا كالإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم ، فإن ذلك أساس كل شر وفتنة إلى أخر الدهر : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ

أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [ النحل: ١٢٥ ] .

وقد استأذن الصحابة رسول الله ﷺ في قتال الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها ، وقالوا : أفلا نقاتلهم ؟ فقال ﷺ : « لا ، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاةَ ، لا مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاةَ » . أخرجه مسلم[1] .

وقال ﷺ : « مَنْ رَأى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ ، إِلا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً » . متفقٌ عليه[2] .

ومن تأمل ما جرى على الإسلام من الفتن الصغار والكبار رآها من إضاعة هذا الأصل العظيم ، وعدم الصبر على منكر ، فطلب إزالته بالقوة فتولد منه ما هو أكبر منه .

وقد كان رسول الله ﷺ يرى بمكة أكثر المنكرات ، وألوان الشرك في أول بعثته ، ولم يستطع تغييرها بيده مع بغضه لها والله يأمره بالصبر حتى يظهر الله أمره كما قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الحجر:٨٥] .

وقال ﷻ : ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[الروم:٦٠] .

بل لما فتح مكة ، وصارت دار إسلام عزم على تغيير البيت ورده على قواعد إبراهيم ، ومنعه من ذلك مع قدرته عليه خشية وقوع ما هو أعظم منه من عدم احتمال قريش لذلك ؛ لقرب عهدهم بالجاهلية .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٦٦/ ١٨٥٥).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٧٠٥٤)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٥٥/ ١٨٤٩).

قال النبي ﷺ : « يا عائشة : لَوْلا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ ؛ لأَمَرْتُ بِالْبَيْتِ فَهُدِمَ ، فَأَدْخَلْتُ فِيهِ مَا أَخْرِجَ مِنْهُ ، وَأَلْزَقْتُهُ بِالأَرْضِ ، وَجَعَلْتُ لَهُ بَابَيْنِ بَابًا شَرْقِيًّا وَبَابًا غَربيًا ، فَبَلَغْتُ بِهِ أَسَاسَ إِبْرَاهِيمَ » . متفقٌ عليه[1] .

ولهذا لم يأذن في الإنكار على الأمراء باليد ، لما يترتب عليه من وقوع ما هو أعظم منه من سفك الدماء ، واضطراب الأمن ، كما قد حصل ويحصل الآن في بلاد المسلمين .

فإذا رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشطرنج كان إنكارك عليهم من عدم الفقه والبصيرة ، إلا إذا نقلتهم منه إلى ما هو أحب إلى الله ورسوله ﷺ كالرماية وسباق الخيل ونحوهما .

وإذا رأيت الكفار المقاتلين يشربون الخمر فلا تنكر عليهم ؛ لأن الله ﷻ إنما حرم الخمر ؛ لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية ، وأخذ الأموال ، وهكذا : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥ ﴾ [ النحل: ١٢٥ ] .

فاللهم إرزقنا الحكمة : ﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩ ﴾ [البقرة:٢٦٩ ] .

وقد وقع بسبب الجهل به غلط عظيمٌ على الشريعة، أوجب الحرج والمشقة، وحصول الفتن ، وتكليف ما لا سبيل إليه ، وما يُعلم أن الشريعة لا تأتي به .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفة الأنبياء والرسل ، ووظيفة هذه الأمة ، والقيام بها من أشرف الأعمال ، فلا بد لمن يقوم بها من العلم ؛ لئلا

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (١٥٨٦)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٤٠٢/ ١٣٣٣).

يقع فيما حرم الله ، ويوقع عباد الله فيما حرم الله ، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إفتاءُ عملي بدون سؤال ، تثيره أحوال الناس وفشو المعاصي بينهم .

ولا بد من سلطةٍ في الأرض ، وجماعةٌ تدعو إلى الخير ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، فالدعوة إلى الله تعود بالناس إلى خالقهم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صيانةٌ للمؤمنين ؛ لئلا يقعوا فيما حرم الله ، وليقبلوا على ما يحبه الله ويعرفونه ويدعون إليه كما قال سبحانه : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾[آل عمران: ١٠٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾[العصر:١-٣].

إن منهج الله في الأرض ودينه الذي أرسل به رسله ، وأنزل به كتبه ، يتكون من إيمانٍ وعمل ، وبناء وتكوين ، وأمر ونهي ، وليس مجرد وعظٍ وإرشاد وبيانٍ فقط ، فهذا شطر .

والشطر الآخر الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ؛ لتستقيم الحياة البشرية على منهج الله ، وتُصان حياة الجماعة الخيرة من أن يعبث بها كل ذي هوى ، وكل ذي شهوة ، وكل ذي مصلحة : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[ فصلت: ٣٣].

والدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر تكليفٌ ليس بالهين ولا باليسير إذا نظرنا إلى طبيعته وما يتطلبه من جهدٍ وصبرٍ وبذل ، وإلى اصطدامه بشهوات الناس ونزواتهم ، ومصالح بعضهم ومنافعهم وغرور بعضهم وكبريائهم .

ولهذا أمر الله ﷻ بالصبر على هذا الجهد العظيم ، فقال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾[آل عمران:٢٠٠] .

وقال ﷻ : ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴿٣﴾ ﴾[العصر:١-٣].

فالناس فيهم الجاهل الغافل ، وفيهم الجبار الغاشم ، وفيهم الحاكم المتسلط ، وفيهم الهابط الذي يكره الصعود ، وفيهم المسترخي الذي يكره الاشتداد ، وفيهم المنحل الذي يكره الجد ، وفيهم الظالم الذي يكره العدل ، وفيهم المنحرف الذي يكره الاستقامة ، وفيهم من يكره المعروف ، وفيهم من يحب المنكر ويفعله وينشره ويدافع عنه .

ولا يمكن أن تفلح الأمة ، بل لا تفلح البشرية قاطبة إلا أن يسود فيها المنهج الإلهي ، وأن يكون المعروف معروفًا ، والمنكر منكرًا محاربًا ، وهذا ما يقتضي سلطةً للخير وللمعروف تأمر وتنهى وتُطاع .

ومن ثم فلابد من جماعةٍ تتلاقى على الإيمان بالله ، والأخوة في الله؛ لتقوم على هذا الأمر العسير الشاق بقوة الإيمان والتقوى، ثم بقوة الحب والإلفة ، وهؤلاء هم المفلحون كما قال سبحانه: ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٤] .

والله ﷻ بقدر ما كلف هذه الأمة بهذا الواجب العظيم ، أكرمها في نفس الوقت ، ورفع مكانها ومقامها ، وأفردها بمكان خاص لا تبلغ إليه أمة أخرى، كما قال سبحانه : ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ

وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾[آل عمران:١١٠ ] .

فهذه الأمة أخرجها الله للناس ؛ لتكون طليعة ، ولتكون لها القيادة بما أنها خير أمة ، والله يريد أن تكون القيادة والإمامة للخير لا للشر في هذه الأرض إلى أن تقوم الساعة ، ومن ثَم فهي تمثل حياة الأنبياء والرسل ولا ينبغي لها أن تتلقى من غيرها من أمم الجاهلية ، إنما يجب عليها أن تُعطي هذه الأمم مما لديها ، وأن يكون لديها دائمًا ما تعطيه من الاعتقاد الصحيح ، والفكر الصحيح ، والنظام الصحيح ، والعلم الصحيح ، والعمل الصحيح ، والخُلق المليح : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾[إبراهيم:٥٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال:٢- ٤ ].

فهذا الواجب العظيم ، وهذا التشريف الكبير ، يحتم عليها أن تكون في الطليعة دائمًا وفي مركز القيادة دائمًا ، وفي منبر التوجيه والإرشاد دائمًا ، وفي الصف الأول دائمًا : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾[ آل عمران: ١١٠ ] .

وأول متطلبات هذا المكان العظيم أن تدعو الناس إلى خالقهم ، وأن تقوم على صيانة حياة البشرية من الشر والفساد ، وأن تكون لها القوة التي تمكنها من الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فهي خير أمةٍ أخرجت للناس

بعملها في حفظ الحياة البشرية من المنكر ، وإقامتها على المعروف ، مع الإيمان الذي يحدد المعروف والمنكر ؛ لتتحقق الصورة الحسنة التي يحب الله أن تكون الحياة عليها ، ويتحقق مراد الله من خلقه ، وتحصل للبشرية السعادة في الدنيا والآخرة : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[ الأحقاف: ١٣ -١٤ ] .

وعلى الأمة المسلمة أن تتضامن فيما بينها ، وأن تتعاون على البر والتقوى ، وأن تتواصى بالحق ، وأن تهتدي بهدي الله الذي جعل منها أمةً مستقلةً منفصلة عن الأمم غيرها ، ولا يضرها بعد ذلك أن يضل الناس حولها ما دامت قائمة على الدين والهدى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[الأنعام:٨٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾[المائدة:١٠٥].

وليس معنى هذا أن تتخلى الأمة المسلمة عن تكاليفها في دعوة الناس كلهم إلى الهدى ، والهدى هو دينها وشريعتها : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾[الأنعام: ١٥٣] .

فإذا هي أقامت نظامها في الأرض ، بقي عليها أن تدعو الناس كافة إليه ، وأن تحاول هدايتهم إليه : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾[ إبراهيم: ٥٢ ] .

وبقي عليها أن تباشر القوامة على الناس كافة ؛ لتقيم العدل بينهم ، ولتحول بينهم وبين الضلال والجاهلية التي منها أخرجتهم : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ

﴿ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحجرات:١٧] .

وكون الأمة المسلمة مسئولةٌ عن نفسها أمام الله لا يضيرها من ضل إذا اهتدت ، وذلك لا يعني أنها غير محاسبة على التقصير في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما بينها أولًا ، ثم في الأرض جميعًا .

وأول المعروف وأعظمه الإسلام لله ، وتحكيم شرعه في كل شيء ، وأول المنكر وأعظمه الكفر بالله ، وتحكيم غير شرعه في خلقه .

فعلى المسلم أن يدري ويعلم أن هذا الدين لا يقوم إلا بجهدٍ وجهاد ، ولا يصلح إلا بعلمٍ وعملٍ ونصح : ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾ [ الحج : ٧٨ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٩] .

لابد لهذا الدين من أهلٍ يبذلون جهدهم لرد الناس إليه ، وإقامتهم عليه ، وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ولتقرير إلوهية الله في الأرض ، ولإقامة شريعة الله في الأرض ، وإقامة الناس عليها : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [إبراهيم:٥٢] .

لابد من جهدٍ بالحسنى حتى تنتشر الهداية في البشرية ، وجهدٌ بالقوة حين تكون القوة الباغية في طريق الناس هي التي تصدهم عن الهدى ، وتعطل

دين الله أن يُعمل به ، وبذلك تبرأ ذمة المؤمنين ، وينال الظالمون جزاءهم : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾[ الأنفال: ٣٩ – ٤٠ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [المائدة:١٠٥] .

والمؤمن يفرح دائمًا بالإيمان بالله وطاعته وعبادته، كما قال سبحانه : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[يونس:٥٨] .

وهو كذلك مستعدٌ دائمًا لتنبيه الغافل ، وتذكير الناسي ، وهداية الضال ، ونصح من زل ، في كل زمانٍ ومكان ، وعلى أي حال حسب استطاعته ، فماذا يبقى من الشر والفساد إذا كان كل مسلم يؤدي هذه الوظيفة :﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾[الأنعام: ١٥٣] .

وقال النبي ﷺ : « مَنْ رَأى مِنكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لمَ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لمَ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ » . أخرجه مسلم[1] .

**إن كمال كل شيءٍ بأمرين :**

**الأول** : أن يبلغ في تلك الصفة شأوًا بعيدًا .

**الثاني** : أن تستحكم فيه تلك الصفة لحدٍ يجعله يؤثر في غيره، ويطبعه بطابع نفسه.

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٧٨/ ٤٩).

فالثلج مثلًا كماله الأول ببرودته في ذاته، وكماله الثاني أن يبرد غيره ، والنار كمالها الأول بشدة حرارتها في ذاتها ، وكمالها الثاني بإحراق غيرها .

فكذلك الكمال الأول للرجل الصالح أن يبلغ قمة الصلاح في حد ذاته ، وكماله الثاني أن يكون مصلحًا لغيره بتأثيره فيه :﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣ ﴾[العصر:١-٣].

فكماله الأول بالإيمان والعمل الصالح ، وكماله الثاني بالتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر .

فالمؤمن إذا كان راسخًا في إيمانه ، كاملًا في طاعته للحق ، فهو على الكمال الأول من حيث اتصافه بصفة الإيمان .

فإذا قويت فيه تلك الصفة واستحكمت لدرجة أنه بدأ يدعو غيره إلى الحق ، ويهيب به إلى اتباعه ، والسير في طاعة الله من خلال سلوكه المثالي ، وأخلاقه الكريمة ، فإنه يرقى إلى الكمال الثاني بإصلاح غيره : ﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٦١ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝١٦٣ ﴾[ الأنعام : ١٦١-١٦٣ ] .

**فللإيمان كمالان :**

**أولهما** : أن يكون المؤمن في حد ذاته متقيًا لله ، خاشعًا له ، مطيعًا لأحكامه وأوامره إلى أخر أنفاس حياته ، معتصمًا بحبله المتين بكل ما له من قوة، كما قال سبحانه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۝١٠٢ ﴾[آل عمران:١٠٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٧٧ ﴾ [الحج:٧٧] .

**الثاني** : أن يكون المؤمن داعيًا إلى الخير ، آمرًا بالمعروف ، ناهيًا عن المنكر ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤ ﴾ [ آل عمران : ١٠٤ ] .

**وهذا النوع من الكمال على مراتب متفاوتة :**

فالشمعة والمصباح ، والقمر والشمس ، كل هذه أدوات تنوير وإضاءة ، فالشمعة لا تنير إلا حجرة صغيرة ، بينما المصباح ينير بيتًا كبيرًا ، ويضيء القمر الأرض وما حولها ، وتضيء الشمس عالمًا كبيرًا .

والمعروف اسمٌ جامع لكل ما عُرف من طاعة الله ، والتقرب إليه ، والإحسان إلى الناس ، وكل ما ندب إليه الشرع مما يحبه الله ويرضاه .

والمنكر كل ما قبحه الشرع وحرمه ونهى عنه من الأقوال والأعمال ، والأعيان ، والأخلاق ، وغيرها مما يُغضب الله ويسخطه : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢ ﴾ [المائدة:٢]

قال الله تعالى : ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٧١ ﴾ [ التوبة: ٧١ ] .

# ٣- الخزانة الثالثة

- **فقه الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر :**

إن من حق المسلم على أخيه أن ينصحه ويهديه إلى مصالح دنياه وآخرته ، وينقذه من مضارها ؛ ولهذا كانت الأنبياء والرسل أولياء المؤمنين ؛ لسعيهم في مصالح آخرتهم وهدايتهم إليها : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[الأنبياء:٩٠] .

وإبليس وذريته أعداء المؤمنين ؛ لسعيهم في إفساد إيمان الناس ، وأعمالهم وإضلالهم عن ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾[الأحزاب:٤٥ -٤٨] .

وقال الله ﷻ عن الشيطان : ﴿ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ ﴾[النساء:١١٩-٢٢١] .

ولا يسقط الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، عن أحدٍ من المسلمين ، ولو كان لا يفيد في ظنه ، بل يجب عليه الأمر والنهي ، والهداية والقبول بيد الله : ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [المائدة:٩٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ ﴾[ النور: ٤٦ ] .

ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر من كان عالمًا بما يأمر به وبما ينهى عنه ، وذلك يختلف باختلاف الناس والأشياء والأحوال .

فإن كان من الواجبات الظاهرة كالصلاة والصيام ، والمحرمات المشهورة كالزنا والخمر ونحوهما ، فكل المسلمين علماء بذلك .

وإن كان من دقائق الأقوال والأفعال والأحكام لم يكن للعوام مدخلٌ فيه وليس لهم إنكاره ، بل ذلك للعلماء الربانيون، ثم العلماء إنما ينكرون ما أُجمع عليه ، أما المختلف فيه مما لم يرد فيه دليلٌ صحيحٌ فلا إنكار فيه: ﴿ كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[آل عمران:٧٩] .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وظيفة كل مسلم ومسلمة كما قال سبحانه : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [التوبة:٧١ ] .

والمسلم يدعو إلى الله ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر في كل حال وفي كل زمان وفي كل مكان ، وفي إقامته وسفره ، وفي بيته وسوقه كما قال سبحانه : ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[ يوسف: ١٠٨ ] .

وقال النبي ﷺ : « إِيَّاكُمْ وَالجُلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ ». فَقالوا : مَا لَنَا بُدٌّ ، إِنَّمَا هِيَ مجَالِسُنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا . قال : « فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلا المُجَالِسَ ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا » . . قالوا : وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ ؟ قال : « غَضُّ الْبَصَرِ ، وَكَفُّ الأَذَى ، وَرَدُّ السَّلامِ ، وَأَمْرٌ بِالمَعْرُوفِ ، وَنَهْيٌ عَنِ المُنْكَرِ » . متفقٌ عليه[1] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٢٤٦٥)، واللفظ له، ومسلم برقم: (١١٤/ ٢١٢١).

والمسلم إذا أمر بالمعروف شد ظهر المؤمن ، وذكره بما يجب عليه ، وأحبه الناس ودعوا له ، وإذا نهى عن المنكر أرغم أنف المنافق ، وذكر الغافل ، وانبعث له من المؤمنين من يؤازره ويعينه .

ومن أراد أن يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، فليوطن نفسه على الصبر على الأذى ، وليثق بالثواب من الله تعالى ، وليتيقن أن الله معه ، فمتى شعر بذلك لم يجد مس الأذى ، واشتغل بإصلاح نفسه وإصلاح غيره ، وهذا عمل الأنبياء والرسل وأتباعهم : ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان:١٧] .

- **حكمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :**

**الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له حكمٌ ثلاث :**

**الأولى** : رجاء انتفاع المأمور بما يُوعظ به كما قال ﷻ : ﴿ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الذاريات:٥٥] .

**الثانية** : الخروج من عهدة التقصير الذي يُسبب العقوبة .

قال الله تعالى : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [ المائدة: ٧٨ – ٨٠ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [الأعراف:١٦٤] .

**الثالثة** : إقامة الحجة على الناس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نيابةً عن رسول الله ﷺ، كما قال سبحانه : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾[النساء:١٦٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾[الإسراء:١٥] .

والناس يختلفون في قبول الإيمان والعمل بالأحكام ، وعند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابد من مراعاة ذلك .

**فالناس أربعة أقسام** :

**الأول** : قوي الإيمان ، عالمٌ بالأحكام .

فهذا ليس له عذر ، فإذا وقعت منه معصية يُنكر عليه بقوة ، ويعامل معاملةً أشد ؛ لئلا يكون قدوة لغيره في المعصية ، كما اعتزل النبي ﷺ الثلاثة الذين خُلفوا في غزوة تبوك خمسين ليلة ، وأمر الناس بهجرهم لما تركوا الخروج لغزوة تبوك مع كمال إيمانهم وعلمهم .

**الثاني** : القوي الإيمان ، جاهلٌ بالأحكام .

فهذا يُدعى مباشرةً ببيان الحكم الشرعي ، وبيان خطر اقتراف المعاصي ، وإزالة المنكر الذي وقع فيه .

عَنْ عبْدِ الله ابْنِ عَبَّاسٍ : « أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ رَأى خَاتمًا مِنْ ذَهَبٍ في يَدِ رَجُلٍ ، فَنَزَعَهُ فَطَرَحَهُ وَقَالَ : « يَعْمَدُ أَحَدُكُمْ إلى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فيجْعَلُهَا في يَدِهِ » . ، فَقيلَ لِلرَّجُلِ ، بَعْدَمَا ذَهَبَ رَسُولُ الله ﷺ : خُذْ خَاتمَكَ انْتَفِعْ بِهِ قَالَ لا ، وَاللهِ ! لا آخُذُهُ أَبَدًا ، وَقَدْ طَرَحَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ » . أخرجه مسلم[1] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٥٢/ ٢٠٩٠).

**الثالث** : ضعيف الإيمان ، عالمٌ بالأحكام .

فهذا يُدعى بالرفق واللين ، بالحكمة والموعظة الحسنة ؛ ليزيد إيمانه فيطيع ربه ، ويتوب من معصيته .

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ : « إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله ، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا ، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ ، قَالُوا : مَهْ مَهْ ، فَقَالَ : ادْنُهْ . فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا ، قَالَ : فَجَلَسَ ، قَالَ : أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ ؟. قَالَ : لَا ، وَالله جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ ، قَالَ : وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ . ، قَالَ : أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ ؟ . قَالَ : لَا ، وَالله يَا رَسُولَ الله جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ ، قَالَ : وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ . ، قَالَ : أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ ؟ . قَالَ : لَا وَالله ، جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ ، قَالَ : وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ . ، قَالَ : أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ ؟ . قَالَ : لَا ، وَالله جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ ، قَالَ : وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ . ، قَالَ : أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ ؟ . قَالَ : لَا وَالله جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ ، قَالَ : وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ . ، قَالَ : فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ : اللَّهمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ . قال : فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ » . أخرجه أحمد والطبراني بسندٍ صحيح[1] .

**الرابع** : ضعيف الإيمان ، جاهلٌ بالأحكام .

فهذا نصبر عليه ، ونرفق به ، ونعرفه بعظمة من يعصيه ، ونعلمه الحكم بالرفق واللطف ، ولا نوبخه ولا نزجره ولا نعنفه ، كما فعل النبي ﷺ مع الأعرابي الذي بال في المسجد .

فإن الأحكام الشرعية لا تلزم إلا بعد العلم بها ، والقدرة على فعلها .

---

(١) صحيح/ أخرجه أحمد برقم: (٢٢٢٦٥)، والطبراني برقم: (٧٦٧٩).

عن أنس ﷺ قال : « بَيْنَمَا نَحْنُ فِي المَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ ، فَقَامَ يَبُولُ فِي المَسْجِدِ ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ : مَهْ مَهْ . قال : قال رَسُولُ الله ﷺ : لا تُزْرِمُوهُ ، دَعُوهُ . فَتَرَكُوهُ حَتَّى بَالَ ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ : إِنَّ هَذِهِ المَسَاجِدَ لا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلا الْقَذَرِ ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ الله ﷻ ، وَالصَّلاةِ ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ » . أَوْ كَمَا قال رَسُولُ الله ﷺ قال : فَأَمَرَ رَجُلًا مِنَ الْقَوْمِ ، فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ ، فَشَنَّهُ عَلَيْهِ » . متفقٌ عليه[1] .

فالمعاصي آفاتٌ تصيب القلوب والجوارح ، ولإزالتها لابد من تخليةٍ وتحلية ، ببيان عظمة الله ، وعظمة كتابه وعظمة أوامره ، وعظمة اليوم الآخر : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ [محمد:١٩] .

وقال الله ﷻ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق:١٢].

وقال الله ﷻ : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة:١٥-١٧ ] .

وبيان خطر المعاصي والسيئات على النفس ، وعلى المجتمع ، وعلى الأمة ، وبيان فضل الطاعات والفضائل وحسن التحلي بها ، وبيان خطر

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٢١٦)، و مسلم برقم: (١٠٠/ ٢٨٥)، واللفظ له.

المعاصي والرذائل وقبح التلوث بها : ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٨﴾ ﴾ [ المائدة : ٩٨ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾[الحجر: ٤٩ – ٥٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النساء:١١٥] .

فهل نقوم بوظيفة الأنبياء والمرسلين ، ونبتعد عن وظيفة الشياطين والملحدين كما قال سبحانه : ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [آل عمران:١٠٤-١٠٥] .

اللهم فقهنا في الدين ، واجعلنا هداة مهتدين : ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [ آل عمران : ٥٣ ] .

# ٤- الخزانة الرابعة

- **فقه النصيحة**

الواجب على المسلمين كافة التعاون على البر والتقوى ، وأن ينصح بعضهم بعضًا؛ لأنهم كالجسد الواحد ، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا.

قال الله تعالى عن نوح ﷺ : ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦١ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٢ ﴾ [الأعراف:٦١-٦٢] .

وقال الله تعالى عن هود ﷺ : ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٧ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ٦٨ ﴾ [الأعراف:٦٧-٦٨] .

وقال النبي ﷺ : « مَثَلُ المُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ ، مَثَلُ الجَسَدِ ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى » . متفقٌ عليه[1] .

- **والنصيحة التي ينبغي لكل مسلم أن يؤديها خمسة أنواع :**

فالنصيحة إما أن تكون لله ، أو لكتابه ، أو لرسوله ، أو لأئمة المسلمين ، أو لعامتهم .

قال النبي ﷺ : « الدِّينُ النَّصِيحَةُ » . . قُلْنَا : لِمَنْ ؟ قال : « للهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ » . أخرجه مسلم[2] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٥٦٦٥)، ومسلم برقم: (٦٦/ ٢٥٨٦)، واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم برقم: (٩٥/ ٥٥).

- **فالنصيحة لله :**

هي وصف الله جل جلاله بما هو أهله ، والخضوع له ظاهرًا وباطنًا ، والرغبة في محابه بفعل الطاعات ، والرهبة من مساخطه بترك المعاصي ، وبذل الجهد في رد العاصين إليه ، وتقديم حقه على حق غيره :﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ٦٢ ﴾[التوبة:٦٢] .

- **والنصيحة لكتابه :**

الإيمان بأن القرآن كلام الله لا يقدر على مثله أحد ، وتعظيمه ، وتلاوته حق تلاوته ، والتصديق بما فيه ، وحفظ حدوده ، والعمل بموجبه ، ونشر علومه ، والدفاع عنه ، والدعوة إليه : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٢ ﴾[ إبراهيم: ٥٢ ] .

- **والنصيحة لرسوله ﷺ :**

تكون بالتصديق برسالته ، والإيمان بجميع ما جاء به ، وطاعته في أمره ونهيه ، ونصرته حيًا وميتًا ، وإعظام حقه ، وتوقيره ، وإحياء سُنتَّه ، وبعث دعوته ، ونشر شريعته ، ومعاداة من عاداه وموالاة من والاه ، والتخلق بأخلاقه ، والتأدب بآدابه ، ومحبته ومحبة أهل بيته وأصحابه ، والدفاع عن سُنتَّه : ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١ ﴾[الأحزاب:٢١] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٨ ﴾[الأعراف:١٥٨] .

- **والنصيحة لأئمة المسلمين :**

تكون بمعاونتهم على الحق ، وطاعتهم فيه ، وأمرهم به ، وتنبيههم وتذكيرهم برفقٍ ولطف بما نسوه ، وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين ، وترك الخروج عليهم ما لم يفعلوا كفرًا بواحًا ، وتأليف قلوب الناس لطاعتهم في غير معصية الله ، والصلاة خلفهم ، والجهاد معهم ، وأن لا يغروا بالثناء الكاذب عليهم ، وأن يدعى لهم بالصلاح ، وهذا بناءً على أن المراد بالأئمة الخلفاء : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩ ﴾[النساء:٥٩].

وإن فُسر الأئمة بالعلماء ، فتكون النصيحة لهم بقبول ما رووه ، وتقليدهم في الأحكام ، وإحسان الظن بهم ، ونصحهم فيما أخطأوا فيه ، وتوقيرهم وإكرامهم ، والتأدب في حسن التلقي عنهم .

- **والنصيحة لعامة المسلمين:**

تكون بإرشادهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم، وكف الأذى عنهم، وستر عوراتهم، وجلب المنافع لهم، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، والرفق بهم، والشفقة عليهم، والرحمة لهم ، وتوقير كبيرهم، ورحمة صغيرهم، وتعليمهم أمور دينهم، وتخولهم بالموعظة الحسنة، والإحسان إليهم ، وعدم غشهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه من الخير، ويكره لهم ما يكره لنفسه .

قال النبي ﷺ: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه». متفقٌ عليه[1].

والنصيحة إنما تكون لمن في قلبه بعض حياة يحس بها ، فهو مريضٌ غافلٌ أو مغفولٌ عنه .

فأما من مات قلبه ، وعظمت فتنته ، فقد سد على نفسه طريق النصيحة : ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [المائدة:٤١] .

النصيحة حقٌ وواجبٌ للمسلم على المسلم ، لما فيها من الخير والبركات .

قال النبي ﷺ : « حَقُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ سِتٌّ » . . قِيلَ : مَا هُنَّ ؟ يَا رَسُولَ الله ! قال : « إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللهَ فَشَمِّتْهُ ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ » . أخرجه مسلم[2] .

والنصيحة تكون من الفرد إلى الفرد ، ومن الفرد إلى المجتمع ، ومن المجتمع إلى الفرد ، ومن الراعي للرعية ، ومن الرعية للراعي ، ومن الأعلى إلى الأدنى ، ومن الأدنى إلى الأعلى ، ومن نبيٍ لقومه كما سبق ، ومن نبيٍ إلى نبي كما نصح موسى أخاه هارون ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٢] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (١٣)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٧١/ ٤٥).

(٢) أخرجه مسلم برقم: (٥/ ٢١٦٢).

وموسى ﷺ يعلم أن هارون نبيٌ مرسل من ربه معه ، ولكن المسلم للمسلم ناصح ، وقد تلقى هارون النصيحة ، ولم تثقل على نفسه ، فالنصيحة إنما تثقل على نفوس الأشرار ؛ لأنها تقيدهم بما يريدون أن ينطلقوا منه ، وتثقل على نفوس المتكبرين الصغار ، الذين يحسون في النصيحة تنقصًا لأقدارهم .

إن الصغير حقًا هو الذي يبعد عنه يدك التي تمتد لتسانده ليظهر أنه كبير .

إن تمكين منهج الله ليسود في الأرض ليس بمجرد الوعظ والإرشاد والبيان فقط ، بل هذا شطر .

والشطر الآخر القيام بسلطة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ لتحقيق المعروف ، ونفي المنكر من حياة البشرية كما قال سبحانه : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٤] .

والنصيحة هي الدعاء إلى ما فيه الصلاح ، والنهي عما فيه الفساد ، وإخلاص المحبة للغير بإظهار ما فيه صلاحه ، وأنصح الناس لك من خاف الله فيك ، وخاف عليك .

وأول النصح أن ينصح الإنسان نفسه بحملها على طاعة الله واجتناب معصيته ، ومن غش نفسه فقلما ينصح غيره : ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [القصص:٢٠] .

وحقٌ على من استُنصح أن يبذل غاية النصح ، وإن كان في ذلك شيء يضره ، فلا يترك المعلوم للمظنون والله حافظه ، كما قال سبحانه : ﴿ وَجَآءَ

رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾[القصص:٢٠] .

والتواصي بالحق والصبر واجب على كل مسلم ومسلمة ، فصلاح أمر المسلم بالإيمان والعمل الصالح ، وصلاح أمر الأمة كلها بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر ، ويتم ذلك بأداء الطاعات ، وترك المحرمات ، وتحمل البلايا والأذى في كل حال ، وهذا سبيل الفلاح والنجاة في الدنيا والآخرة كما قال سبحانه : ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾[العصر:١-٣].

ويجب على الأمة عامة ، وعلى حملة الكتاب والسُنَّة خاصة ، نُصح الأمة فيما ينفعها ، وتحذيرها مما يضرها ، فإن الكتاب لا ينطق حتى يُنطق به ، والسُنَّة لا تعمل حتى يعمل بها ، ولا يليق بالعاقل أن يقول ما لا يفعل : ﴿كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾[آل عمران:٧٩] .

وقال الله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾﴾[الحج:٧٧] .

ولا ينبغي للطبيب أن يداوي المرضى بما يشفيهم ويمرضه ، فإنه إذا مرض اشتغل بمرضه عن مداواتهم ، ولكن ينبغي أن يلتمس لنفسه الصحة ليقوى بها على علاج المرضى ، وخير الناس أنفعهم للناس : ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾[الزمر:٩].

وقال الله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾[الصف:٢-٣ ] .

وقد أمر الله ﷻ المؤمنين والمؤمنات بالتعاون عل البر والتقوى ، وعدم التعاون على الإثم والعدوان فقال سبحانه : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢ ﴾ [المائدة:٢]

فالبِر فعل الخير ، والتقوى اتقاء الشر .

فالتعاون على البِر أن تساعد الناس على ما فيه الخير ، وتُيسر لهم الأمر سواءً كان هذا مما يتعلق بك ، أو مما يتعلق بغيرك .

وأما التعاون على التقوى ، فأن تحذر الناس من الشر ، وأن تمنعهم منه ما استطعت ، وتشير على من أراد فعل الشر بتركه .

والتعاون على الإثم والعدوان، تعاون على الإثم وفعل المعصية ، وإشهارها بين الناس ، ودعوة الناس إليها ، والعدوان هو الاعتداء ظلمًا على الغير .

فاتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، واتقوا الله الذي إليه تحشرون : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧ ﴾[الحشر:٧] .

- **شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :**

يُشترط لمن يقوم بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثلاثة شروط :

**الأول** : أن يكون الآمر أو الناهي عالمًا أن هذا معروف ، فيفعله ويأمر به ، وهذا مُنكر فيجتنبه وينهى : ﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦ ﴾[الإسراء:٣٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧ ﴾[النحل:١١٦-١١٧] .

**الثاني** : أن يعلم بوقوع المنكر من الشخص المدعو أو بتركه للمعروف ، فإن كان لا يعلم فإنه يرجم الناس بالغيب وهو محرم : ﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الحجر:٦-٨].

**الثالث** : ألا يترتب على إنكار المنكر ما هو أنكر منه ، ففي هذه الحال نسكت حتى يأتي اليوم الذي نتمكن فيه من النهي عن المنكر ، ليتحول إلى معروف : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام:١٠٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ [ آل عمران: ٧٣ – ٧٤ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٩ ] .

فسب آلهة المشركين مطلوبٌ شرعًا ، لكن إن كان يؤدي إلى ما هو أعظم وأنكر منه من سب الله ، فإنه يُنهى عنه ؛ لئلا يسبوا الله : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٨] .

- **ومن آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :**

لا من شروطه أن يكون الإنسان أول فاعلٌ للمعروف ، وأول منتهٍ عن المنكر كما قال سبحانه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الصف:٢-٣ ] .

**رابعًا** : أن يقصد بالأمر بالمعروف والأمر عن المنكر إقامة شرع الله ، وإصلاح عباد الله ، لا الانتقام ، ولا الانتصار لنفسه : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف: ١١٠] .

وقال ﷻ : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾[البينة: ٥] .

وتغيير المنكر يكون من كل ذي سلطة قادرة كالأمير مع رعيته ، والرجل في أهل بيته ، والمعلم مع طلابه ، والمرأة في بيتها على أولادها .

فهذا له السلطة أن يغير بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقبله كما قال النَّبِيَّ ﷺ : « مَنْ رَأى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ » . أخرجه مسلم[1] .

أما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو واجبٌ بكل حال ؛ لأنه ليس فيه تغيير ، بل فيه أمرٌ بالخير ، ونهيٌ عن الشر ، وبذلك يتحقق الخير ، ويزول الشر : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾[آل عمران: ١٠٤] .

وأفضل الجهاد كلمة حق عند سلطانٍ جائر ، فلكل سلطان بطانتان ، بطانة السوء ، وبطانة الخير .

فبطانة السوء تنظر ماذا يريد السلطان ، وماذا يحب من الشهوات ، فتزينه له ولو كان باطلًا ، تفعل ذلك مداهنةً للسلطان ، وطلبًا لحطام الدنيا .

وبطانة الخير تنظر ماذا يُرضي الله ﷻ ، وتدل الحاكم عليه ، وترغبه فيه .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٧٨/ ٤٩).

- **والكلام عند السلطان له أربعة أحوال :**

**أولًا** : كلمة حق عند سلطانٍ عادل ، وهذه سهلة .

**ثانيًا** : كلمة حق عند سلطانٍ جائر ، وهذه أفضل الجهاد .

**ثالثًا** : كلمة باطل عند سلطانٍ عادل ، وهذه خطيرة ؛ لأنك قد تفتن السلطان بهذا الباطل .

**رابعًا** : كلمة باطل عند سلطانٍ جائر ، وهذه أقبح ما يكون .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « أَفْضَلُ الجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ أَوْ أَمِيرٍ جَائِرٍ » . أخرجه أبو داود وابن ماجة بسندٍ صحيح[1] .

(١) صحيح/ أخرجه أبو داود برقم:٤٣٤٤، وابن ماجة برقم:٤٠١١.

# ٥- الخزانة الخامسة

- **فقه النعم :**

جميع النعم الظاهرة والباطنة من الله وحده : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[ النحل: ٥٣ ] .

**والدين أعظم نعمة أنعم بها الله على البشرية :**

قال الله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[المائدة:٣] .

- **والتحدث بنعم الله نوعان :**

١-تحديثٌ باللسان .

٢- تحديثٌ بالأركان .

**فالتحديث باللسان :**

كأن تقول : الحمد لله أنعم الله علي بنعمٍ كثيرة ، كنت فقيرًا فأغناني الله ، كنت جاهلًا فعلمني الله ، كنت ضالًا فهداني الله وهكذا .

قال الله تعالى : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾[الضحى: ١ – ١١]

- **والتحديث بالأركان :**

بأن تُرى أثر نعمة الله عليك بين الناس ، فتلبس لبس الأغنياء لا لباس الفقراء ، وتركب كذلك ، وتسكن كذلك ، وتأكل كذلك ؛ لأن هذا من التحديث بنعم الله عليك ، والله ﷻ يحب أن يرى أثر نعمته على عبده : ﴿

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف: ٣٢] .

وإذا أعطاك الله علمًا تُحدث به الناس وتنفعهم به ؛ لأن هذا من التحدث بنعم الله وشكرها .

قال الله تعالى : ﴿كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران:٧٩ ] .

وقال ﷻ : ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١]

والأصل أن المؤمن الذي يُخالط الناس ، ويصبر على آذاهم افضل من المؤمن الذي لا يُخالط الناس ولا يصبر على آذاهم ، ولكن قد تحدث أمور تكن العزلة فيها خير من الاختلاط بالناس وغير ذلك ، عند فساد الناس والزمان .

وإذا خاف الإنسان على نفسه فتنة كأن يُطالب بالانحراف عن دينه ، أو يدعو إلى بدعة ، أو يُفتي بمحرم ، أو يرى الفسوق الكثير ، أو يخشى على نفسه من الوقوع في الفواحش ونحو ذلك ، فهذا العزلة أفضل له ؛ ولهذا أُمر المسلم أن يهاجر من بلد الشرك إلى بلد الإسلام ، ومن بلد الفسوق إلى بلد الاستقامة ، عندما يتغير الناس والزمان والأحوال:﴿ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾ [الذاريات: ٥٠-٥١] .

وقال الله تعالى : ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء:١٤٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنعام:٦٨] .

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ : « قِيلَ : يَا رَسُولَ اللهَّ أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ : مُؤْمِنٌ يجُاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهَّ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ ، قَالُوا : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ : مُؤْمِنٌ فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ يَتَّقِي اللهَّ ، وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ » . متفقٌ عليه[1] .

و عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ أنه قَالَ : « قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ : يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ المُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنْ الْفِتَنِ » . أخرجه البخاري[2] .

وينبغي للمسلم استقبال النصح والوعظ ، وحسن الإصغاء للواعظ والعالم ؛ ليستفيد منه ، فلا يتكلم في المجلس ؛ لئلا يشوش على غيره ، وأن يُقبِل بوجهه إلى المتكلم ؛ ليعلم أنه مهتمٌ بكلامه ، فإن تكلم بمحرم فلا تصغي إليه ، فإن نصحته ولم يُطع فقم واتركه:﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾ [النساء:١٤٠] .

وينبغي للمؤمن الناصح لإخوانه المؤمنين أن ينقل كلام المنافق إلى ولي الأمر ؛ ليتخذ فيه ما ينبغي اتخاذه ، ويكف عن الناس شره ، وينقل كلام المُفسد أوالمبتدع ؛ حتى لا يتمادى في فساده أو بدعته ، قطعًا لدابر الشر

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٢٧٨٦ )، واللفظ له، ومسلم برقم (١٢٢/ ١٨٨٨).
(٢) أخرجه البخاري برقم: (٧٠٨٨).

والفساد عن الأمة ؛ ليقضِ ولي الأمر على الشر والفساد قبل أن يستشري ، قال الله تعالى : ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢﴾ [المائدة:٢]

**وليعلم المؤمن أنه ما أفسد الدين والدنيا إلا أربعة :**

نصف متكلم .. ونصف فقيه .. ونصف لغوي .. ونصف طبيب .

فنصف المتكلم يُفسد الدين ؛ لأنه لو عرف حقيقة علم الكلام والشرع لرجع إلى الحق : ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾[الإسراء:٣٦] .

ونصف الفقيه يُفسد البلدان ؛ لأنه يُفتي ويقضي بغير حق ، فيعطي حق هذا لهذا ، ويُفتي أحيانًا بما لا يعلم : ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧﴾[النحل:١١٦-١١٧] .

ونصف لغوي؛ لأنه يُفسد اللسان؛ لأنه يتكلم وهو لا يعرف فيفسد اللسان بلحنه.

ونصف طبيب؛ لأنه يُفسد الأبدان، فربما يصف دواءً يكون داءً، فيُهلك المريض .

فيجب على الإنسان أن يقول لما لا يعلم : لا أعلم ، ولا يقضي بجهل ، ولا يتكلف ما لا يعلم : ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ٨٦﴾ [ص:٨٦] .

وعَنْ عُمَرَ ﷺ قَالَ : « نُهِينَا عَنِ التَّكَلُّفِ » . أخرجه البخاري[1] .

---

(١) أخرجه البخاري برقم: (٧٢٩٣).

• **أقسام النصيحة :**

النصيحة هي مخاطبة الإنسان سرًا بينك وبينه ، فإذا نصحته سرًا أثرت في نفسه وعلم أنك ناصح ، لكن إذا تكلمت عليه أمام الناس فإنه قد تأخذه العزة بالإثم ، فلا يقبل النصيحة ، وقد يظن أنك إنما تريد الانتقام منه أو توبيخه أو الحط من منزلته بين الناس ، فلا يقبل النصيحة : ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾ [البقرة:٢٦٩ ] .

وَعَنْ تمَيْم الدَّارِيِّ ﷺ : « أَنَّ النبي ﷺ قَالَ : الدِّيْنُ النَّصِيْحَةُ قُلْنَا : لمِنْ يَارَسُولَ الله ؟ قَالَ : للهِ ، ولكتابه ، ولِرَسُوْلِهِ، وَلأَئِمَّةِ المُسْلِمِيْنَ، وَعَامَّتِهِمْ ». أخرجه مسلم[1] .

• **والنصيحة تنقسم إلى خمسة أقسام :**

**الأول** : النصيحة لله ، وتكون بالإخلاص لله في كل عمل ، والتعبد له محبةً وتعظيمًا له ، ودوام ذكره لربه بقلبه ولسانه وجوارحه ، وأن يغار لله إذا انتهكت محارمه ، وأن يذب عن دين الله الذي شرعه لعباده ، وأن يدعو الناس إلى الله ، ويعلمهم شرعه : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥ ﴾[البينة: ٥] .

**الثاني** : النصيحة لكتابه ، وتكون بتصديق كل ما جاء في كتب الله المُنزلة ، والتصديق والعمل بما جاء في أعظمها وهو القرآن ، والدفاع عنه ممن حرفه تحريفًا لفظيًا أو معنويًا ، أو زاد فيه أو نقص منه ، وتفسير معناه للمسلمين ، والإيمان بأنه كلام الله حقًا اللفظ والمعنى ، واحترام القرآن العظيم ، فلا

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٩٥/ ٥٥).

يمسه إلا المطهرون ، ولا يضعه في مكانٍ يُمتهن فيه ، وأن يصدق أخباره ويمتثل أوامره ، ويجتنب نواهيه ، ويدعو الناس إلى اتباعه : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [إبراهيم:٥٢] .

**الثالث** : النصيحة لرسول ﷺ ، وتكون بالإيمان برسالته ، وأن الله أرسله رحمةً للعالمين كلهم ، والتصديق بكل ما جاء به والعمل به ، والصدق في اتباعه بلا زيادةٍ ولا نقص ، وعدم اتباع غيره ، وتعليم سُنَّته للناس ، والذب عن شريعته ، وحمايتها من أن يُنقصها أحد أو يزيد فيها أحد ما ليس منها كالبدع ، واحترام أصحابه ومحبتهم وتعظيمهم ، فهم القوم الذين اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ، وهم خير القرون : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[الأحزاب:٢١] .

**الرابع** : النصيحة لأئمة المسلمين ، والإمام هو من يُقتدى به ، ويؤتمر بأمره وينقسم إلى قسمين :

إمامٌ في الدين .. وإمامٌ في السلطة .

فالإمامة في الدين بيد العلماء الذين يقودون الناس إلى كتاب الله ويهدونهم إليه : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾[الفرقان:٧٤] .

والنصيحة لهؤلاء تكون بتلقي العلم منهم بكل وسيلة؛ لأنهم الواسطة بين الرسول ﷺ وأمته، وحُسن الأدب معهم ، وعدم تتبع عوراتهم وزلاتهم وما يخطئون فيه لما فيه من الفتنة والاستهانة بالعلم الشرعي، والدفاع عن عوراتهم وزلاتهم وسترها ، وتنبيه العالم إذا أخطأ ؛ لأن زلة العالم من أعظم الزلات ، وإذا زل العالم زل بزلته أعلم .

أما أئمة السلطة فهم الأمراء ، والأمراء في الغالب أكثر خطئًا من العلماء إلا ما شاء الله ؛ لكثرة الأمور والمشاكل المعقدة التي تُعرض عليهم ؛ ولأنه لسلطته قد تأخذه العزة بالإثم ، فيريد أن يفرض سلطته على الصواب والخطأ .

والنصيحة لهم تكون بأن نبذل لهم النصيحة ما استطعنا ، بالمشافهة أو الكتابة أو الاتصال بمن يستطيع الاتصال بهم إذا كنا لا نستطيع الاتصال بهم مباشرة ، وأن نكف عن مساوئهم ولا ننشرها بين الناس ؛ لأن نشر مساوئ ولاة الأمر فيه عدوانٌ شخصيٌ عليهم ، وعدوانٌ على الأمة جميعًا ؛ لأن الأمة إذا حقدت على الولاة عصتهم ونبذتهم ، فيحصل الشر بسبب ذلك .

فيجب علينا نصح جميع ولاة الأمور ، سواءً كانوا أئمة العلم والبيان وهم العلماء ، أو كانوا أئمة القوة والسلطان وهم الأمراء الذين ينفذون شريعة الله في عباد الله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩ ﴾[النساء:٥٩].

**الخامس** : النصيحة لعامة المسلمين ، تكون بأن نحب لهم ما نحب لأنفسنا ، وأن نرشدهم إلى الحق ، وأن نهديهم إلى الحق إذا ضلوا عنه ، ونذكرهم به إذا نسوه ، وأن نجعلهم لنا بمنزلة الإخوة : ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾[الحجرات:١٠].

قال الله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢ ﴾ [المائدة:٢] .

# موسوعة خزائن العلوم الإسلامية

## ٦٠-خزائن أعداء الإنسان

### ويشتمل على ما يلي:

**العدو الأول** : النفس .

**العدو الثاني** : الشيطان .

**العدو الثالث** : الدنيا .

**العدو الرابع** : المنافقون .

**العدو الخامس** : الكفار والمشركون .

**العدو السادس** : أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

# موسوعة خزائن العلوم الإسلامية

## ٦٠-خزائن أعداء الإنسان

### القسم الأول

ويشتمل على ما يلي:

١- الخزانة الأولى
٢- الخزانة الثانية
٣- الخزانة الثالثة
٤- الخزانة الرابعة
٥- الخزانة الخامسة
٦- الخزانة السادسة
٧- الخزانة السابعة
٨- الخزانة الثامنة
٩- الخزانة التاسعة
١٠- الخزانة العاشرة

# ٦٠- خزائن أعداء الإنسان

# القسم الأول

## ١- الخزانة الأولى

- **أعداء الإنسان كما بينهم الله ﷻ في كتابه الكريم ستة :**

**العدو الأول** : النفس . **العدو الثاني** : الشيطان .

**العدو الثالث** : الدنيا . **العدو الرابع** : المنافقون .

**العدو الخامس** : الكفار والمشركون .

**العدو السادس** : أهل الكتاب من اليهود والنصارى .

- **أقسام المخلوقات من حيث العمل :**

**الله ﷻ خلق خلقه من حيث العمل أربعة أقسام :**

**الأول** : من يعملون بالطاعات ، دون المعاصي ، وهم الملائكة .

**الثاني** : من يعملون بالمعاصي ، دون الطاعات ، وهم الشياطين .

**الثالث** : من لهم طاعات ومعاصي ، وهم الإنس والجن .

**الرابع** : من ليس لهم طاعات ولا معاصي ، وهم الحيوانات وبقية المخلوقات .

فالملائكة عقول بلا شهوات ، والحيوانات شهوات بلا عقول ، والإنس والجن لهم شهوات وعقول ، والشياطين شرور وفتن .

والله ﷻ لما اصطفى الإنسان بين سائر المخلوقات ، وكرمه على غيره ، وتحمل الأمانة ، واستعد لفعل الأوامر ، واجتناب النواهي ؛ ابتلاه ﷻ بما

يبين صدقه من كذبه ، ويثبت إيمانه من كفره ؛ فأهبطه الله الأرض ، وأنزل عليه الوحي ، وأرسل إليه الرسل ، فأمره بتصديق الأخبار ، وتطبيق الأحكام ، وأمره بالطاعات ؛ ونهاه عن المعاصي ، وسلط عليه الأعداء ، وابتلاه بالسراء والضراء ، وأمره بجهاد أعدائه ، والصبر على أذاهم ، والله ينصره : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾[العنكبوت:٦٩] .

وأعداء الإنسان كثيرون وقد كشفهم الله له ، ليتقي شرهم ، ويأخذ حذره منهم ، ولا يغتر بخداعهم ؛ ولبسهم الحق بالباطل ، وأعظم هؤلاء الأعداء وأشدهم خطرًا ستة وهم :

النفس ، والشيطان ، والدنيا ، والمنافقون ، والكفار ، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى .

ولكل عدو من هؤلاء علامات ، ولهم أعمال ، ولهم ضحايا من البشر ، وهم يعملون ليل نهار ، ويستخدمون كل وسيلة لصد الناس عن عبادة ربهم ؛ وإشغالهم بما يبعدهم عنه ، وبما يوجب سخطه وغضبه ، ويحرمهم من الوصول إلى رضوانه وجنته : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾[ فاطر :٥- ٦ ] .

فلابد للإنسان أن يعبد ربه ، ويعمل بشرعه ، ولا يغفل عن جهاد أعدائه الذين يصدونه عن طاعة ربه ومولاه ، ويحرمونه من الوصول إلى جنته والفوز برضاه .

وقبل جهاد الأعداء لابد من معرفتهم ، ومعرفة أسلحتهم أولًا ، ثم الشروع في جهادهم ، وإبطال كيدهم ، وكسر شوكتهم ، ودفع شرورهم .

وأعظم هؤلاء الأعداء وأشدهم ملازمة للإنسان هي نفسه التي بين جنبيه .

# العدو الأول : النفس

• **فقه النفوس** :

النفوس البشرية فيها خير أصيل ، والشر والسوء دخيل ؛ فإذا صادفت هذه النفس من يذكرها الله فإنها فيها استعدادًا للاستقامة على طريق الهدى ؛ وإن لم تجد من يذكرها مالت إلى طريق الفجور .

قال الله تعالي : ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾** ﴾ [ الشمس:٧-١٠] .

وكل إنسان له نفس واحدة ؛ ولكن لهذه النفس صفات وأحوال تختلف من شخص لآخر ؛ ومن وقت لآخر .

• **وصفات النفس ثلاث** :

**إحداها : النفس الأمارة بالسوء** : وهي التي يغلب عليها إتباع هواها وشهواتها ، وفعل الذنوب والمعاصي، كما قال سبحانه : ﴿ **وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾** ﴾[يوسف:٥٣] .

**الثانية النفس اللوامة** : وهي التي تذنب وتتوب ؛ وتفعل الخير والشر ؛ لكنها إذا فعلت الذنب تابت وأنابت، وسميت لوامة لأنها تلوم صاحبها على فعل الذنوب ، وتلومه على التقصير في إمتثال أوامر الله عز وجل، كما قال سبحانه : ﴿ **لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾** ﴾ [ القيامة:١-٢] .

**الثالثة النفس المطمئنة** : وهي التي تحب الخير والحسنات ، وتريدها وتفعلها ، وتبغض الشر والسيئات وتكرهها ؛ قد اطمأنت إلى مولاها وإلى قضائه وقدره ، وإلى دينه وشرعه ، وإلى جزائه وثوابه ، وصار لها ذلك خلقًا وعادة وملكة ، فصارت بذلك راضية مرضية، كما قال سبحانه : ﴿

يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾[الفجر:٢٧-٣٠] .

والنفوس لا تطمئن أبداً إلا بالإيمان بالله وبذكر الله كما قال سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ ﴾[ الرعد: ٢٨-٢٩ ] .

وينبغي للعبد ألا يطمئن إلى نفسه ، فإن الشر لا يجيء إلا منها ، ولا يشتغل بلوم الناس ، ولكن يرجع إلى الذنوب فيتوب منها ، ويستعيذ بالله من شر نفسه ، وسيئات عمله ، ويسأل الله أن يعينه على طاعته ، ويحول بينه وبين معصيته ، وبذلك يحصل له الخير ويندفع عنه الشر .

والذنوب من لوازم النفس ، وأعظمها جحود الخالق ، والشرك به ، وطلب النفس أن تكون شريكة لله سبحانه ، أو إلهًا من دونه ، وكل هذين وقع من فرعون وإبليس ، كل واحد منهم يطلب أن يعبد ويطاع من دون الله ، وهذا الذي في فرعون وإبليس غاية الظلم والجهل ، وفى نفوس سائر الإنس والجن ، شعبة من هذا وهذا ، والله ﷻ إن لم يعن العبد ويهده وإلا وقع فيما وقع فيه فرعون وإبليس بحسب الإمكان : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾[النساء:٨٣] .

وإذا هدى الله العبد أعانه على طاعته ، وترك معصيته ؛ فلم يصبه شر في الدنيا ولا في الآخرة ، والعبد محتاج للهدى كل لحظة ، وهو إلى الهدى أحوج منه إلى الأكل والشرب ؛ والهداية من الهادي وحده ، ولهذا أمر الله خلقه بطلب الهداية منه أكثر من أربعين مرة في كل ركعة من ركعات الصلاة في الفرائض والرواتب بقوله : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾[ الفاتحة : ٦ – ٧ ] .

وأحوال النفوس متفاوتة ومتعددة ، والنفوس مشحونة بحب العلو والرياسة ، وكل نفس تريد أن تطاع وتعلو بحسب الإمكان ، فتجد الإنسان يوالى من يوافقه على هواه ، ويعادي من يخالفه في هواه ، وإنما معبوده ما يهواه ويريده ويحبه ؛ فمن وافق هواه كان وليًا ، وإن كان كافرًا ، وإن لم يوافقه كان عدوًا وإن كان من المتقين ، وهذه حال فرعون : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [ القصص : ٤ ] .

● **فقه النفوس :**

النفوس مشحونة بحب العلو والرياسة ، وكل نفس تريد أن تطاع وتعلو بحسب الإمكان ، كل واحد من وهؤلاء خاصة الأشراف وذوي المكانة والرياسة ، يريد أن يطاع أمره بحسب إمكانه كفرعون ، وهم وإن أقروا بالله ، فإذا جاءهم من يدعوهم إلى عبادة الله المتضمنة ترك طاعتهم عادوه ، كما عادى فرعون رسول الله موسى ﷺ، كما قال سبحانه : ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ النازعات :١٧- ٢٦ ] .

وإن كان مسلمًا طلب أن يطاع في أغراضه وما يهوى ؛ وإن كان فيها ما هو ذنب ومعصية لله، ويكون مع من أطاعه أحب إليه، وأعز عنده ممن أطاع الله، وخالف هواه ؛ وهذه شعبة من حال فرعون وسائر المكذبين للرسل قالوا : سنطيعكم في بعض الأمر : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ محمد : ٢٦ ] .

وإن كان عالمًا أو شيخًا أحب من يعظمه دون من يعظم نظيره ، وربما أبغض غيره حسد وبغيًا ، كما فعلت اليهود مع محمد وعيسى عليهما الصلاة والسلام ؛ ولهذا أخبر الله عنهم بمثل ما أخبر به عن فرعون ، وسلط عليهم من انتقم منهم .

والأنبياء والرسل دينهم واحد وهو الإسلام كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [ آل عمران : ١٩ ] .

وشرائعهم مختلفة: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[المائدة:٤٨] .

وهؤلاء الرسل يؤمن بعضهم ببعض و يصدق بعضهم بعضًا : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٨٥] .

ومن كان من المطاعين من الأمراء والعلماء تبعًا للأنبياء والرسل ، أمر بما أمروه به ، ودعا إليه ، وأحب من دعا إلى مثل ما دعا ، فإن الله يحب ذلك الشخص ، ومن كره أن يكون له نظير يدعو إلى ذلك ، فهذا يطلب أن يكون هو المطاع المعبود ، وله نصيب من حال فرعون الذي قال : ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾[ النازعات : ٢٤ ] .

ومن طلب أن يطاع مع الله ، هذا يريد من الناس أن يتخذوه من دون الله نداً : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾[البقرة:١٦٥] .

ومن الناس من يحسن إلى غيره ، ليمن عليه ، أو ليجزيه بطاعته له ، وتعظيمه إياه ، أو أي نفع آخر : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾[ الزمر :٢- ٣ ] .

فالمتبع للرسل يأمر الناس بما أمرتهم به الرسل ، ليكون الدين كله لله لا له ؛ فإذا أمر غيره بمثل ذلك أحبه وأعانه وسربه ، وإذا أحسن إلى الناس فإنما يحسن إليهم ابتغاء وجه ربه الأعلى ويعلم أن الله قد من عليه بأن جعله مؤمنًا محسنًا : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [ الحجرات : ١٧ ] .

- **أقسام الناس :**

**الناس ثلاثة أقسام :**

- عبد محض
- وحر محض
- ومكاتب قد أدى بعض كتابته .

**فالعبد المحض** : هو عبد المال والطين ، الذي قد استعبدته نفسه وشهوته ، وملكته وقهرته ؛ فانقاد لها انقياد العبد لسيده الحاكم عليه : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الأعراف:١٧٩] .

**والحر المحض** : هو الذي قهر شهوته، وملك نفسه فانقادت معه، وذلت له، ودخلت تحت رقه وحكمه، فهي مملوكة عنده، يأمرها بما شاء مما يرضى ربه ويمنعها مما يسخط ربه : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [ الشمس:٧-١٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأعلى:١٤-١٥] .

**والمكاتب** : من عقد له سبب الحرية ، وهو يسعى في كمالها ، فهو عبد من وجه ، حرمن وجه آخر ؛ فهو عبد ما بقي عليه درهم ، فكذا المسلم عبدٌ لنفسه ما بقي عليه حظ من حظوظ نفسه ؛ فالحر من تخلص من رق المال والطين ، وفاز بعبودية رب العالمين ، فاجتمعت له العبودية والحرية : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [ الأنفال : ٢- ٤ ].

**ويتم إصلاح النفوس البشرية بأمرين :**

تكوين القلب .. وتكوين الجسم .

وتكوين القلب ، هو بذل الجهد لترسيخ الإيمان والتوحيد واليقين على ذات الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فيه : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾[العنكبوت: ٦٩] .

أما تكوين الجسم ، فهو استغلاله في السبل التي جاء بها النبي ﷺ من السنن والأحكام والآداب ، ويتم ذلك بالتعلم والتذكير وتزكية النفس بالأخلاق الحميدة ، وإخلاص العمل لله ، وإبلاغ الناس دين الله ليكون الدين كله لله : ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [البقرة:١-٥] .

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [ السجدة : ١٥- ١٧ ] .

- **أقسام النفوس :**

**النفوس وما تحب تنقسم إلى ثلاث أقسام :**

**الأول** : نفس سماوية علوية ، ومحبتها منصرفة إلى معرفة الله ، ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله، ومعرفه عظمة ملكه وسلطانه، ومعرفة دينه وشرعه، وفعل الفضائل والطاعات ، واجتناب الرذائل والمعاصي ، وهذه النفس مشغوفة بما يقربها من الرفيق الأعلى ، وذلك قوتها وغذاؤها وشفاؤها ودواؤها : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فصلت:٣٠-٣٢ ] .

**الثانية** : نفس غضبية ، ومحبتها منصرفة إلى القهر والبغي ، والعلو في الأرض ، والكبر ، والرئاسة على الناس بالباطل ، فلذتها في ذلك وشغفها به كحلال فرعون : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [ القصص : ٤ ] .

**الثالثة** : نفس حيوانية شهوانية ، فهذه النفس محبتها منصرفة إلى المآكل والمشارب ، والمنكح والملبس والمركب ، ونحو ذلك من الشهوات والملاذ : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾ ﴾ [محمد:١٢] .

وقال الله تعالى:﴿ أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان:٤٤] .

وربما جمعت بين الأمرين العلو والفساد كما قال سبحانه عن فرعون : ﴿ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾[القصص:٤] .

والحب في هذا العالم دائرًا بين هذه النفوس الثلاث ، وكل واحدة من هذه النفوس ترى أن ما هي فيه أولى بالإيثار ، وأن ما سواه غبن وفوات حظ .

والنفس السماوية العلوية بينها وبين الملائكة والرفيق الأعلى مناسبة طبيعية بها ، مالت إلى أوصافهم وأخلاقهم وأعمالهم ؛ فالملائكة أولياء هذا النوع في الدنيا والآخرة ، فالملك يتولى من يناسبه بالنصح والإرشاد ، والتثبيت والتعليم ، وإلقاء الصواب على لسانه ، ودفع عدوه عنه ، والاستغفار له إذا أذنب ، وتذكيره إذا نسي ، وتسليته إذا حزن ، وإيقاظه للصلاة إذا نام عنها ، وتحذيره من الدنيا إذا ركن إليها وهكذا : ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾[غافر:٧] .

والشياطين أولياء النوع الثاني ، يخرجونهم من النور إلى الظلمات كما قال سبحانه : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ

كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾[البقرة:٢٥٧ ] .

وهؤلاء بينهم وبين الشياطين مناسبة طبيعية ، بها مالت إلى أوصافهم وأخلاقهم وأعمالهم ، الشياطين تتولاهم فتؤزهم إلى المعاصي أزا كما قال سبحانه : ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ﴿٨٣﴾﴾[مريم:٨٣] .

وتزين لهم الشياطين القبائح والمعاصي ، وتسهلها عليهم ، وتثقل عليهم الطاعات ، وتثبطهم عنها ، وتلقي على ألسنتهم ألوان القبيح من الكلام ، ويبيتون معهم حيث باتوا ، ويأكلون معهم حيث أكلوا ويشاركونهم في أموالهم وأولادهم ونسائهم ، ويأكلون ويشربون معهم ، ويجلسون معهم ، وينامون معهم ، فهؤلاء حياتهم مطابقة لحياة الشياطين : ﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾[ الزخرف : ٣٦ – ٣٧ ] .

وقال الله تعالى:﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴿٣٨﴾﴾[النساء:٣٨ ] .

وقال الله تعالى عن الشيطان : ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ﴿١٢١﴾﴾[ النساء :١١٨ – ١٢١ ] .

وأما النوع الثالث فهم أشباه الحيوان ، ونفوسهم أرضية سفلية ، لا تبالي بغير شهواتها ، ولا تريد سواها ، فهي مشغوفة بها ، مشغولة بها عن مراد ربها ، ملازمة لها إلى حين أجلها : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا ٥٩ ﴾[مريم:٥٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢ ﴾[محمد:١٢] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩ ﴾[ الأعراف : ١٧٩ ] .

# ٢- الخزانة الثانية

## فقه النفوس :

- **النفوس ثلاث :**

**الأولى** : نفس سماوية علوية ، ومحبتها منصرفة إلى معرفة الله ، والعمل بشرعه ، والدعوة إلى الله ، وتعليم شرع الله ، والإحسان إلى خلقه .

**الثانية** : نفس سبعية غضبية ، ومحبتها منصرفة إلى القهر ، والبغى ، والعلو فى الأرض .

**الثالثة** : نفس حيوانية شهوانية : وهذه النفس محبتها منصرفة إلى المآكل ، والمشارب ، والمناكح والملابس ، والمساكن والمراكب ونحوها من الشهوات .

وأعظم هذه النفوس وأسعدها في الدنيا والآخرة هي النفس العلوية السماوية التي تؤمن بالله ، وتعمل بشرعه .

وكمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع ، والعلم الصالح ، وهما الهدى ودين الحق ، وبتكميله لغيره في هذين الأمرين كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾[الإنسان:٢-٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾[ العصر:١- ٣ ] .

فكل أحد في هذه الدنيا خاسر إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان ، وقوته العملية بالعمل الصالح ، وكمل غيره بالتواصي بالحق ، والصبر عليه ،

وهاتان القوتان لا تتعطلان في القلب ، فإن استعمل قوته العلمية في معرفة الحق ، والعملية في العمل به ، وإلا استعملها في معرفة ما يليق به ويناسبه ويشتهيه من الباطل : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾[الإنسان:٢-٣] .

والإنسان من حيث هو إنسان خاسر إلا من رحمه الله ، فهداه ، ووفقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه ، وأمر غيره به : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾[ فصلت : ٣٣ ] .

فالإنسان من حيث هو إنسان ظلوم جهول ، كفور كنود ، يئوس قنوط ، عجول قتور ، عارٍ من كل خير من العمل الصالح ، وإنما الله سبحانه هو الذي يكمله بذلك ، ويعطيه إياه ؛ فكل علم وعدل وخير ، فيه فمن ربه لا من نفسه ولا فلاح له إلا بتزكية الله له بالإيمان والعمل الصالح : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾[النساء:٤٩] .

وقال الله تعالى : ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾[ الحجرات : ١٧ ] .

وقال الله تعالى فى الحديث القدسى : « يَا عِبَادِي : كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ » . أخرجه مسلم[1] .

فالكمال التام للإنسان أن يكون الشخص كاملًا في نفسه ، مكملًا لغيره ، **وكماله بإصلاح قوتيه :**

العلمية والعملية ، فصلاح القوة العلمية بالإيمان ، وصلاح القوه العملية بعمل الصالحات ، وتكميل غيره بتعليمه له ، وصبره عليه ، وتوصيته بالصبر

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٥٥/ ٢٥٧٧).

على العلم والعمل ، وهذا نهاية الكمال وهو ما توج الله به هذه الأمة ، ودرجة أهلها أعلى الدرجات في الدنيا والآخرة كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ٧٤ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ٧٥ ﴾[طه:٧٤-٧٥] .

والإنسان قد يقوم بما يجب عليه فى نفسه ، ولا يأمر غيره به ، فهذا قد ربح الإيمان ، والعمل الصالح ، فى حق نفسه ، وخسر ربح التواصى بالحق ، والتواصى بالصبر فى حق غيره ، فصار فى خسر ، ولكنه لا يكونوا من الذين خسروا أنفسهم وأهليهم ، فمطلق الخسارة شيء ، والخسارة المطلقة شيء آخر ، ومن ربح بسلعة ، وخسر فى أخرى ، فهو ذو ربح ، وذو خسر ، فهذا نوع خسر بالنسبة لمن حصل الربح كله ، فهو ناج كما قال سبحانه : ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٦ ﴾[ التين : ٤ – ٦ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٣٣ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ٣٤ ﴾[ فاطر :٣٢- ٣٤ ] .

وقد استثنى الله ﷻ من الإنسان الذي هو فى خسر ، كل من كمل مراتب الكمال الإنسانى بإصلاح نفسه ، وإصلاح غيره ، والإحسان إلى نفسه ، والإحسان إلى غيره بالإيمان والعمل الصالح ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر ، فهؤلاء الكُمَّل فى درجة السابقين ، ومن دونهم فى درجة أصحاب اليمين ، ولكل درجات مما عملوا : ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ

إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾[الأنفال:٢- ٤ ].

وقال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[ فاطر :٣٢- ٣٤ ] .

النفس في الأصل خلقت جاهلة ظالمة كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾[ الأحزاب : ٧٢ ] .

فالنفس لجهلها تظن أن شفاءها في إتباع هواها ، ولظلمها لا تقبل من الطبيب الناصح ، يوضع لها الداء موضع الدواء فتقبله ، ويوضع لها الدواء موضع الداء فترده ، فيتولد لها من إيثارها للداء ، واجتنابها للدواء ، أنواع من الأسقام والعلل التي تعيي الأطباء ، ويتعذر معها الشفاء : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾[الحج:٤٦]

وقد سميت النفس نفسًا إما من الشيء النفيس ، لنفاستها وشرفها ، وإما من تنفس الشيء إذا خرج ، ولكثرة خروجها ودخولها فى البدن سميت نفساً .

- **وفي النفس ثلاثة دواعٍ متجاذبة :**

**أحدها** : داع يدعوها إلى الاتصاف بأخلاق الشياطين من الكبر ، والحسد ، والعلو ، والبغي ، والغش ، والكذب .

**الثانى** : داع يدعوها إلى الاتصاف بأخلاق الحيوان من الحرص والبخل والشهوة والطمع .

**الثالث** : داع يدعوها إلى الاتصاف بأخلاق الملائكة من الطاعة ، والعبادة ، والإحسان ، والنصح ، والعلم ، والبر ، والتسبيح ، والاستغفار ، والتقديس ونحو ذلك .

والنفس فيها استعداد للخير والشر ، وهي بحسب المذكر ولمن سبق وغلب منقادة مطاوعة : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [ الشمس:٧-١٠ ] .

فترى من الناس من هو شيطان يركض بكل شر وفساد ، ومن الناس من هو كالحيوان ليس له هم إلا قضاء شهوته ، ومنهم كالملائكة عبادة لله ، وطاعة له وتسبيحٌ واستغفار فى ليله ونهاره .

- **قوة النفس :**

**النفس الإنسانية لها قوتان :**

**إحداهما : القوة النظرية** ، وكمالها فى معرفة الأشياء ، وأعلى المعارف معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله ومعرفة خزائنه ومعرفه دينه وشرعه ومعرفة وعده ووعيده : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ [ محمد : ١٩ ] .

**الثانية : القوة العملية** ، وكمالها في معرفه الخيرات ، والطاعات ، وأنواع العبادات ، وأعلاها عبادة الله بالأعمال الصالحة ، على طريقة الرسول ﷺ كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الكهف:١٠٧-١٠٨] .

فقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ إشارة إلى كمال القوة النظرية بمعرفة الله ، وقوله : ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ إشارة إلى كمال القوة العملية بعبادة الله ، وإنما تكمل الثانية بكمال الأولى .

والنفس في علاجها كالبدن في علاجه فكما أن البدن لا يخلق كاملًا ، وإنما يكمل بالتربية بالغذاء ، فكذلك النفس تخلق ناقصة ، قابلة للكمال : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [ الأنفال : ٢ – ٤ ] .

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحج:٧٧] .

وإنما تكمل النفس بالتزكية ، وتهذيب الأخلاق ، والتغذية بالعلم .

وكما أن العلة الموجبة لمرض البدن لا تعالج إلا بضدها ، إن كانت بالحرارة تعالج بالبرودة ، وإن كانت بالبرودة فبالحرارة ، فكذلك الأخلاق الرذيلة التى هى مرض القلب علاجها بدصها ، فيعالج مرض الجهل بالعلم ، ومرض البخل بالسخاء ، ومرض الكبر بالتواضع وهكذا .

وكما أنه لابد من احتمال مرارة الدواء ، والصبر عن المشتهيات لصالح البدن ، فكذلك لابد من احتمال مرارة المجاهدة ، والصبر على مداواة مرض القلب حتى يزكو .

والقلوب جوالة ؛ منها ما يطوف مع البهائم حول الحش ، ومنها ما يطوف مع الملائكة حول العرش : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ

وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾[فاطر:١٩-٢٢] .

والله ﷻ جعل فى النفس حباً لما ينفعها ، وبغضًا لما يضرها ، فلا تفعل النفس مع حضور عقلها ما تجزم بأنه يضرها ضررًا راجحًا ، والبلاء مركب من شيئين ؛ من تزيين الشيطان ، ومن جهل النفس : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [ الأنعام : ١٣٧ ] .

فإن الشيطان يزين لها السيئات ، ويريها إياها في صور المنافع واللذات والطيبات ، ويغفلها عن مطالعتها لمضرتها ، فيتولد من هذا التزيين ، وهذا الإغفال ، وهذا الإنسان إرادة وشهوة ، ثم يمدها بأنواع التزيين ، فلا يزال يقوى حتى يصير عزمًا جازمًا يقترن به الفعل ، كما زين للأبوين الأكل من الشجرة كما قال سبحانه في تزين الشيطان للشر : ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأنعام:٤٣] .

وقال سبحانه فى تزيين الخير : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ ﴾[ الحجرات : ٧ – ٨ ] .

وقال الله عن آدم وزوجه : ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ

وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[الأعراف:٢٢-٢٣].

وقال سبحانه في تزيين النوعين : ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾[الأنعام:١٠٨] .

وتزيين الخير والهدى بواسطة الملائكة ، والرسل ، والمؤمنين ، وتزيين الشر والضلال بواسطة شياطين الإنس والجن ، وتزين الشر والضلال إنما يغتر به الجاهل ، لأنه يلبس له الباطل والضار والمؤذي بصورة الحق النافع .

وكما أن للأبدان آفات ، فكذلك للنفوس آفات ، وترك مداواة ذلك مؤذن بالهلاك : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٧﴾﴾[الحشر:٧] .

- **آفات النفوس :**

النفوس تصيبها الآفات والأمراض كما تصيب الأبدان ، فآفات الأبدان سببها آفات النفوس ، وكل علةٍ فى الخارج ، سببها علةٌ فى الداخل ، وكل حُسْن فى الجوارح ، سببه حُسْن فى القلوب ، وكل فساد فى الجوارح ، سببه فساد في القلوب .

قال النبي ﷺ : « ألا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، ألا وَهِيَ الْقَلْبُ » . متفقٌ عليه[1] .

وآفات النفوس كثيرةٌ جدًا ، وكل داءٍ له دواء ، وعلاج آفات النفوس وأمراضها وأسقامها إلى الأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله بالعلم الإلهي ، والوحي الرباني الذي فيه شفاء من كل داء من أدواء النفوس : ﴿وَنَزَّلۡنَا

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٥٢)، واللفظ له، ومسلم برقم: (١٠٧/ ١٥٩٩).

عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل:٨٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٨٢﴾ ﴾[الإسراء:٨٢] .

**ومن أهم الآفات التي تصيب النفوس :**

آفة الكفر ، وآفة الشرك ، وآفة الجهل ، آفة الكبر ، وآفة الابتداع ، وآفة البغي ، وآفة الجفاء ، وآفة البخل ، وآفة الشح ، وآفة الطمع ، وآفة الجبن ، وآفة الجزع ، وآفة الجحود ، وآفة الإسراف ، وآفة النفاق ، وآفة الخداع ، وآفة الخيانة ، وآفة الطغيان ، وآفة العجلة ، وآفة الغش ، وآفة الغدر ، وآفة الغل ، وآفة القسوة ، وآفة القنوط ، وآفة الفسوق ، وآفة المكر ، وآفة الكيد ، وآفة المن ، وآفة الغيبة ، وآفة النميمة ، وآفة الظلم ، وآفة الكذب ، وغير ذلك من الصفات والآفات التي تصيب النفوس : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ ﴾[ يوسف : ٥٣ ] .

والله ﷻ فطر الناس على التوحيد ، والإيمان بالله : ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[الروم:٣٠] .

فكلما انحرف الناس عن الفطرة ، أرسل الله إليهم رسولًا يردهم إلى التوحيد والإيمان بالله ، والعمل بشرعه ، وعلاج ما أصابهم من الآفات بسبب الكفر والشرك والإعراض عن دين الله كما قال سبحانه : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ

﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۗ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾[البقرة:٢١٣] .

فأعظم الأمراض التي تصيب البشرية هي مرض الكفر والشرك بالله ، والشفاء منه بالإيمان والتوحيد ، الذي أرسل الله به رسله ، وأنزل به كتبه : ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾[إبراهيم:١] .

وقال الله تعالى : ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾[المائدة:١٥-١٦] .

ومن مات على الكفر فلا حظَّ له في الآخرة كما قال سبحانه : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾[التوبة: ٦٨] .

وقال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾[النساء:٤٨] .

والشرك جَعْلُ شريك لله تعالى، وهو من أعظم الأدواء ، وصاحبه مخلد في النار إذا مات ولم يتب منه، كما قال سبحانه : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾[البينة: ٦] .

وقال الله تعالى:﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾[المائدة:٧٢] .

والجهل آفة تزول بالعلم الإلهي الذي جاءت به الرسل ، وبه يعرف الإنسان ربه ، والطريق الموصل إليه ، وما للإنسان بعد القدوم عليه : ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ

إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ [محمد:١٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [آل عمران:٧٩ ] .

و البدع آفة تزول بمعرفة السنن والأحكام الشرعية الواردة في الكتاب والسنة : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النساء:١١٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر:٧] .

وهكذا باقي الآفات والأمراض : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [ النحل : ٨٩ ] .

وهذه الآفات تصيب الناس بسبب كفرهم وشركهم ، وعدوانهم ، وضعف إيمانهم ؛ عقوبة لهم :﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [النساء:٦٦-٧٠] .

والآفات درجات ، والناس فيها متفاوتون ؛ فسالمٌ ومستقلٌ ومستكثر ، ومُبتلى ومُعافى : ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [العنكبوت:٢-٣] .

# ٢- الخزانة الثالثة

## آفات النفوس

- **آفة الغفلة :**

الغفلة أشد ما يفسد القلوب ، فالقلب الغافل قلبٌ معطلٌ عن وظيفته ، معطلٌ عن الالتقاط أو التأثر ، والاستجابة ، تمر به دلائل التوحيد و الإيمان والهدى ، أو يمر بها ، دون أن يحسها أو يدركها أو يتأثر بها .

ومن ثم كان الإنذار هو أليق شيء بالغفلة ، وتذكير الغافلين بما ينفعهم ليفعلوه ، ونهيهم عما يضرهم ليجتنبوه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾[الأعراف:١٧٩] .

والإنذار قد ينفع ويوقظ الغافلين المستغرقين في الغفلة ، كما قال سبحانه : ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾[يس:٦] .

والإنذار لا ينفع قلبًا غير مهيأ للإيمان ، مشغول عنه ، محال بينه وبينه بالسدود والأغلال والأغشية ، فالإنذار لا يخلق القلوب ، إنما يوقظ القلوب الحية المستعدة للتلقي : ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾[يس:١١] .

فهذا الصنف من الناس هو الذي يستحق التبشير بعد انتفاعه بالإنذار ، فبشره بمغفرةٍ وأجرٍ كريم ، المغفرة عما يقع فيه من الخطايا غير مصر ، والأجر الكريم على خشية الرحمن بالغيب ، وإتباعه لما أنزل الرحمن من الذكر ، وهما متلازمان في القلب ، فما تحل خشية الله في قلب ، إلا ويتبعها العمل

بما أنزل الله ، والاستقامة على النهج الذي أراد : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾[الملك:١٢] .

فعلينا أن نعيش في بيئة الذاكرين لربهم ، المستقيمين على منهجه ، ونصبر على ذلك ؛ لننال الأجر والثواب من الله ، ونحذر من أهل الأهواء والغفلة كما قال سبحانه : ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾[الكهف:٢٨]

وعلينا أن نخرج من بيئة الذاكرين إلى بيئة الغافلين ؛ لنجتهد بالدعوة إلى الله على الغافلين ونأتي بهم إلى بيئة الإيمان ، ليتذكروا ويعودوا إلى قومهم مذكرين بالله : ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤﴾[آل عمران:١٠٤] .

وما وقع أحدٌ في المعاصي إلا بسبب الغفلة عن الله ، وعن اليوم الآخر ، وعن أوامر الله ﷻ ، وما أكثر الغافلين ، وما أشد عقوبتهم : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨﴾[يونس:٧-٨] .

- **آفة الهوى :**

**قسَّم الله تبارك وتعالى أمر الناس إلى قسمين لا ثالث لهما :**

إما الاستجابة لله والرسول ﷺ ، وإما إتباع الهوى : ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٠﴾[القصص:٥٠] .

فكل ما لم يأت به الرسول ﷺ فهو من الهوى ، ومن اتبع أحدهما لم يمكنه اتباع الآخر ، فهما ضدان لا يجتمعان أبدًا : ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾[الأنعام:٧١] .

والشيطان يطيف بالعبد من أين يدخل عليه ، فلا يجد له مدخلاً ، ولا إليه طريقاً ، إلا من هواه ، والذي يخالف هواه يَفْرَقُ الشيطان من ظله : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾[ الحجر : ٤٢ ] .

وإنما تحصل مخالفة الهوى بالرغبة إلى الله ، والرغبة في ثوابه ، والخوف من عقابه ، والخشية من حجابه ، ووجود حلاوة الشفاء في مخالفة الهوى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾[ الملك : ١٢ ] .

والهوى شارع النار الأكبر ، ولذلك حذر الله نبيه ﷺ من إتباع الهوى كما قال سبحانه : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾[ الجاثية : ١٨ - ١٩ ] .

وما أطاع أحد هواه قط إلا وجد في نفسه الذل ، ولا يغتر أحد بصولة أهل الهوى وكبرهم ، فهم أذل الناس بواطناً ، قد جمعوا بين رذيلتي الكبر والذل : وكل عاقل يأنف أن يكون تحت قهر عدوه ، فالشيطان إذا رأى من الإنسان ضعف عزيمة وهمة ، وميلاً إلى هواه ، طمع فيه وصرعه ، وألجمه بلجام الهوى ، وساقه حيث أراد إلى موارد الهلاك : ﴿ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ ﴾[النساء:٣٨ ] .

وقال الله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان:٤٣-٤٤] .

وكل من بلغته الحجة ، ثم اتبع هواه ، فإن الله يرفع عنه ولايته ونصرته كما قال سبحانه : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [البقرة:١٢٠] .

وقد شبه الله ﷻ إتباع الهوى بأخس الحيوانات ، فشبههم بالكلب تارة، كما قال سبحانه : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٦].

وشبههم بالحمر تارة كما قال سبحانه : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ ﴾ [المدثر:٤٩-٥١] .

ومن اتبع هواه طبع الله على قلبه كما قال سبحانه : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾ [محمد:١٦] .

- **علاج إتباع الهوى :**

**الحق في الهدى ، والباطل في الهوى ، وعلاج إتباع الهوى بسبعة أمور :**

**أحدها** : التفكر في أن الإنسان لم يُخلق للهوى ، وإنما خُلق لعبادة الله ، والنظر في العواقب ، والعمل للأجل ، فلو كان نيل المشتهي فضيلة لما

بُخس الإنسان منه ، ونقص عن حظ البهائم : ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [ الجاثية : ٢٢ ].

وفي توفير حظ الإنسان من العقل ، وبخس حظه من الهوى ، دليل على فضل هذا وذاك .

**الثاني** : التفكر في فائدة مخالفة الهوى ، من اكتساب الذكر الجميل في الدنيا ، وسلامة النفس والعرض ، والأجر في الآخرة : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ [ النازعات :٣٤-٣٩ ] .

**الثالث** : التفكر في حقيقة ما يناله بإتباعه هواه من اللذات والشهوات ، فإن العقل سيخبره أنه ليس بشيء ، ولكن عين الهوى عمياء : ﴿ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القصص:٥٠ ] .

**الرابع** : التدبر لما يحصل له من عز الغلبة إن ملك نفسه ، وذل القهر إن غلبته ، فمن غلب هواه عز ، ومن غلبه هواه ذل : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [ المنافقون : ٨ ] .

**الخامس** : التفكر في عواقب الهوى ، فكم فوت من فضيلة ، وكم أوقع في رذيلة ، مع الإثم .

**السادس** : تصور العاقل لانقضاء غرضه من هواه ، فسيرى أن ما حصل له من الأذى ، يربو على إتباع الهوى أضعافاً مضاعفة .

**السابع** : تصور عاقبة ذلك في حق غيره ، فعندئذ سيرى ما يعلم به عيب نفسه إن هو وقف في ذلك المقام ، وارتكس في هذه الآثام : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [الأنعام:١١٩].

فما أسفه عقول البشر حين يتبعون أهواءهم بعد بلوغهم هدى ربهم ، ورسالة ربهم : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النجم:٢٣].

فليتبع العبد هدى ربه ، ويحذر من هوى نفسه ، وهوى غيره ، ففي طاعة ربه سعادته ونجاته : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [البقرة:١٢٠] .

- **آفة الكبر :**

الله تبارك وتعالى وحده هو الكبير الذي له الكبرياء في السموات والأرض ، وله الأسماء الحسنى والصفات العلا ، والأفعال الحميدة ، والمثل الأعلى ، وله الجلال والجمال والكمال ، وله الملك كله ، وله العزة كلها : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الجاثية:٣٦-٣٧] .

ومن استكبر من الخلق فليس له ذلك ؛ لأن الكبرياء لله وحده لا شريك له ، والعبد مخلوقٌ ضعيفٌ عاجزٌ فقير ، لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً إلا ما مَلَّكه الله إياه : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ ﴾ [ الرعد : ٩ ].

والكبر بطر الحق ، وغَمْطُ الناس بازدرائهم واحتقارهم .

**وآفة الكبر في الناس على ثلاث درجات :**

**الأولى** : أن يكون الكبر مستقرًا في قلب الإنسان منهم ، فهو يرى نفسه خيرًا منهم إلا أنه يجتهد ويتواضع ، فهذا في قلبه شجرة الكبر مغروسة إلا أنه قد قطع أغصانها بإخفائه الكبر .

**الثانية** : أن يظهر ذلك بأفعاله من الترفع في المجالس ، والتقدم على الأقران ، فتراه يصعر خده للناس ويحتقرهم .

**الثالثة** : أن يُظهر الكبر بلسانه كالدعاوى ، والمفاخرة ، وتزكية النفس ، والتكبر بالنسب ، والمال ، والعلم ، والجمال ، والقوة ، وكثرة الأتباع ، ونحو ذلك من الحالات والآفات .

فالتكبر بالمال أكثر ما يجري بين الملوك والتجار ، والتكبر بالجمال أكثر ما يجري بين النساء ، والتكبر بالعلم أكثر ما يجري بين المرائين ، والتكبر بالنسب أكثر ما يجري بين الناقصين الجاهلين ، والتكبر بكثرة الأتباع أكثر ما يجري بين الملوك بكثرة الجنود ، وبين العلماء بكثرة الطلاب والمستفيدين.

**ومن صفات المتكبر:**

استكباره عن الحق ، واحتقار الناس ، وحبه قيام الناس له ، وجلوسه في صدور المجالس ، ومشيه متبختراً ، وأنه لا يمشي غالبًا إلا ومعه أحد يمشي خلفه ، ولا يزور أحداً تكبراً على الناس ، ويستنكف جلوس أحد إلى جانبه ، ولا يتعاطى في بيته شغلًا ونحو ذلك : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾[ غافر :٦٠ ] .

• **علاج آفة الكبر :**

**الكبر من المهلكات ، ويعالج بأمرين :**

**الأول** : استئصال شجرته من القلب ، ووسيلة ذلك أن يعرف الإنسان ربه بأسمائه وصفاته وأفعاله ، ويعرف نفسه بالضعف والعجز ، الفقر والحاجة .

**الثاني** : من تكبر بالنسب ، فليعلم أن هذا تعزز بكمال غيره ، ومن اعتراه الكبر بالجمال ، فلينظر إلى باطنه وأقذاره نظر العقلاء ، ومن اعتراه الكبر بالقوة ، فليعلم أنه لو آلمه عِرْق عاد أعجز من كل عاجز ، ومن تكبر بسبب المال ، فليعلم أن اليهود أغنى منه ، وهم شر خلق الله ، وقد غضب الله عليهم ولعنهم ، ومن تكبر بسبب العلم ، فليعلم أن حجة الله على العالم أكثر من الجاهل .

فالكبر ذنب إبليس اللعين : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [البقرة:٣٤] .

• **أقسام الكبر :**

**الكبر باعتبار المتكبر عليه ثلاثة أقسام :**

**الأول** : التكبر على الله : وهو أفحش أنواع الكبر ، ولا مثار له إلا الجهل المحض ، والطغيان ، وهو يصدر من كل من ادعى الربوبية كفرعون وغيره ، وقد توعد الله هؤلاء بقوله : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر:٦٠ ] .

**الثاني** : التكبر على رسل الله : من حيث تعزز النفس ، وترفعها عن الانقياد لبشر مثل سائر الناس ، وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار ، فيبقى في ظلمة الجهل بكبره ، فيمتنع عن الانقياد ، وهو ظان أنه محق فيه : ﴿

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٢١﴾ [الفرقان:٢١] .

**الثالث** : التكبر على الخلق : وذلك بأن يستعظم نفسه ، ويحقر غيره ، فتأبى نفسه الانقياد لهم، وتدعوها إلى الترفع عليهم، فيزدريهم ويستصغرهم، ويأنف من مساواتهم .

وهذا وإن كان دون الأول والثاني ، لكنه عظيم من وجهين :

**أحدهما** : أن الكبر والعز والعظمة والعلو لا يليق إلا بالملك القادر ، أما العبد فهو مملوكٌ ضعيفٌ فقير عاجزٌ محتاج كما قال سبحانه في الحديث القدسي : « الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ » . أخرجه أبو داود وابن ماجة بسندٍ صحيح[1] .

**الثاني** : أن ذلك يدعو العبد إلى مخالفة الله في أوامره ؛ لأن المتكبر إذا سمع الحق من عبد من عباد الله استنكف عن قبوله .

فكل من رد الحق وهو يعرفه ، وأنف أن يخضع لله ، ويتواضع له بطاعته ، واتباع رسله ، فقد تكبر عن الحق فيما بينه وبين الله تعالى ورسله .

- **أسباب الكبر** :

أسباب الكبر و بواعثه المهيجة لها أربعة:

العجب .. والحقد .. والحسد .. والرياء .

فالكبر خلق باطن ، وما يظهر على الجوارح من الأخلاق والأفعال التي تدل على الكبر ، فهي ثمرة ونتيجة للكبر الباطني ، الذي هو عبارة عن استعظام النفس ، ورؤية قدرها فوق قدر الغير .

---

(١) صحيح/ أخرجه أبو داود برقم: (٤٠٩٠)، وابن ماجة برقم: ( ٤١٧٤).

وهذا الباطن له موجب واحد ، وهو العجب الذي يتعلق بالمتكبر ، فإنه إذا أعجب بنفسه وبعلمه وبعمله أو بشيء من الأسباب استعظم واستكبر .

**أما الكبر الظاهر فأسبابه ثلاثة:**

سبب في المتكبر : وهو العجب .

وسبب في المتكبر عليه : وهو الحقد والحسد .

وسبب في غيرهما وهو الرياء .

والعجب يورث الكبر الباطن ، والكبر يثمر التكبر الظاهر في الأقوال والأعمال والأحوال .

والحقد يحمل على التكبر من غير عُجب ، كالذي يتكبر على من يرى أنه مثله أو فوقه ، ولكنه غضب عليه لسبب ، فأورثه الغضب حقداً عليه ، فهو لذلك لا يتواضع له ، بل يتكبر عليه ، ويرد الحق إن جاء من جهته ، ويأنف منه إن نصحه ، نعوذ بالله من الكبر والمستكبرين .

فالواجب على المسلم أن لا يتكبر على أحدٍ من خلق الله ، فإن رأى جاهلاً قال : هذا عصى الله بجهل ، وأنا عصيته بعلم ، فهو أعذر مني .

وإن نظر إلى كبير قال : هذا أطاع الله قبلي ، فكيف أكون مثله ؟ .

وإن نظر إلى صغير قال : إني عصيت الله قبله ، فكيف أكون مثله ؟ وهكذا .

وعذاب الهون هو الجزاء العدل على الاستكبار في الأرض ، وجزاء على الفسوق عن منهج الله كما قال سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأحقاف:٢٠] .

• **آفة الكذب :**

لا أظلم ولا أشد ظلماً ممن كَذَب على الله ، إما بنسبته إلى ما لا يليق بجلاله ، أو بادعاء النبوة ، أو الإخبار بأن الله قال كذا ، أو أخبر بكذا ، أو حكم بكذا ، وهو كاذب ، أو جاءه الحق المؤيد بالبينات فكذبه ، ومن كان جامعاً بين الكذب على الله ، والتكذيب بالحق ، كان ظلماً على ظلم ، فما أشد عقوبة : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزمر:٣٢] .

وليس هناك أظلم ممن كذب على الله ، فزعم أن له بناتًا ، أو له شركاء ، أو قال إنه فقير ، أو قال يد الله مغلولة ، أو قال إن الله ثالث ثلاثة ، أو قال إن الله هو المسيح بن مريم ، أو كذب الرسل ونحو ذلك : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[يونس:١٧].

والكذب من أعظم آفات النفس ، ويوم القيامة تكون وجوه المكذبين مسودة من الخزي ، ومن الكمد ، ومن لفح النار كما قال سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾[الزمر:٦٠] .

وليس هناك أعظم ظلماً وعناداً ممن كَذَب على الله أو كذب بآياته التي جاءت بها الرسل ، فهذا أظلم الناس ، والظالم لا يفلح أبداً كما قال سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[الأنعام:٢١] .

والكذب من قبائح الذنوب ، وفواحش العيوب ، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً كما قال النبي ﷺ : « إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ صِدِّيقًا ، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَإِنَّ لرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ كَذَّابًا » . متفقٌ عليه[1] .

والكذب على رسول الله ﷺ من الكبائر العظيمة التي لا يقاومها شيء ، ويدخل في هذا فتوى العالم بما لا يتحققه من المسائل .

قال النبي ﷺ : « مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » . متفقٌ عليه[2] .

والكذب : هو الإخبار بالشيء على خلاف ما هو عليه ، وهو من سيء الأخلاق ، والكذب من صفات المنافقين كما قال النبي ﷺ : « آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاثٌ ، إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ».متفقٌ عليه[3].

**ومن آفات النفس :**

- **آفة اللسان :**

الله ﷻ خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وعلَّمه البيان ، وأفاض على قلبه خزائن العلوم فأكمله ، ثم أمده بلسان يترجم به عما حواه قلبه وعقله . واللسان من نعم الله العظيمة ، فهو صغير جرمه ، عظيم نفعه ، وعظيم جُرمه ، رحب الميدان ، له في الخير مجال رحب ، وله في الشر مجال رحب ، فاحفظ لسانك ، ولا تدنسه بما لا يرضي مولاك .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٠٩٤ )، ومسلم برقم: (١٠٣/ ٢٦٠٧)، واللفظ له.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (١٢٩١ ) ، ومسلم برقم: (٣/ ٣)، واللفظ له.

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٢٦٨٢ )، ومسلم برقم: (١٠٧/ ٥٩)، واللفظ له.

فمن أطلق عذبة اللسان ، وأهمله مرخي العنان ، سلك به الشيطان في كل ميدان ، وساقه إلى شفا جرف هار ، إلى أن يضطره إلى البوار ، وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم .

ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع ، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة : ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [النساء:١١٤] .

وأعصى الأعضاء خطراً على الإنسان اللسان ، لأنه لا تعب في إطلاقه ، ولا مؤنة في تحريكه ، وأكثر الأخطار والشرور من طريقه : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء:٣٦] .

فخطر اللسان عظيم ، ولا نجاة من خطره إلا بالصمت ، فلذلك مدح الشرع الصمت ، وحث عليه كما قال النبي ﷺ : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بالله وَالْيَوْم الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بالله وَالْيَوْم الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ » . . قَالَ : وَمَا جَائِزَتُهُ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ ، وَالضِّيَافَةُ ثَلاثَةُ أَيَّام ، فَمَا كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ عَلَيْهِ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْراً أَوْ لِيَصْمُتْ » . متفقٌ عليه[1] .

وقال النبي ﷺ : « مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لحَيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ » . أخرجه البخاري[2] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٠١٩)، واللفظ له، ومسلم برقم: (١٤/ ٤٨).

(٢) أخرجه البخاري برقم: (٦٤٧٤).

فليحذر العبد أن يقول على الله بلسانه ما ليس له به علم : ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [النحل:١١٦-١١٧] .

- **أهم آفات اللسان :**

**الآفة الأولى** : الكلام فيما لا يعني ، فمن عرف قدر زمانه ، وأنه رأس ماله ، حبس لسانه عن الكلام فيما لا يعنيه ، واشتغل بذكر ربه والطاعات وأعمال البر المختلفة ، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه .

**الآفة الثانية** : الخوض في الباطل ، وهو الكلام في المعاصي كذكر مجالس اللهو والخمر ، وأحوال الفساق ، ونحو ذلك من الجدال والمراء الذي ينتهي غالباً بالشقاق والخلاف والخصام .

**الآفة الثالثة** : التقعر في الكلام بالتشدق ، وتكلف السجع ، ليُظهر الإنسان نفسه ، ويُعجب الناس بحلاوة كلامه ، فيفقد الإخلاص .

قال النبي ﷺ : « إِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مجَلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ وَالمُتَفَيْهِقُونَ ، قَالُوا يَا رَسُولَ الله قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ فَمَا المُتَفَيْهِقُونَ ، قَالَ المُتَكَبِّرُونَ » . أخرجه الترمذي[1] .

**الآفة الرابعة**: الفحش في الكلام، والسب والبذاء ونحو ذلك مما هو مذموم.

والفحش : هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة ، وأكثر ما يكون ذلك في ألفاظ الجماع وما يتعلق به .

وليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ، ولا الفاحش ولا البذيء .

---

(١) صحيح/ أخرجه الترمذي برقم: (٢٠١٨).

**الآفة الخامسة** : الإكثار من المزاح .

أما اليسير منه فلا بأس به إذا كان حقاً وصدقاً ، وكان مع الصبيان والنساء الكبار ، ومن يحتاج إلى تأديبه من ضعفاء الرجال .

وكثرة المزاح تسقط الوقار ، وتسبب الضغائن والأحقاد ، وكان رسول الله ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقاً .

**الآفة السادسة** : السخرية والاستهزاء :

والسخرية الاحتقار والاستهانة بالناس ، والتنبيه على العيوب والنقائص على وجهٍ يُضْحَك منه بالقول ، أو الفعل ، أو الإشارة ، أو الإيماء .

والضحك على الناس ، والسخرية بهم ، من جملة الذنوب والكبائر التي حرمها الله كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ ﴾ [الحجرات:١١] .

**الآفة السابعة** : إفشاء السر ، وإخلاف الوعد ، والكذب في القول واليمين ، وكل ذلك منهي عنه إلا ما رُخص فيه من الكذب في الحرب ، والإصلاح بين الناس ، وعلى الزوجة ليراضيها لمصلحة راجحة ، وتُباح المعاريض عند الحاجة إليها .

**الآفة الثامنة** : الغيبة .

والغيبة : ذكرك أخاك الغائب بما يكره .

والغيبة محرمة ، والمستمع للغيبة شريك فيها إلا أن ينكر بلسانه ، فإن خاف فبقلبه ، وإن قدر على القيام ، أو قطع الكلام بكلام آخر ، لزمه ذلك .

**الآفة التاسعة** : النميمة .

والنميمة : هي كشف ما يُكره كشفه من الأقوال والأعمال .

وتطلق غالباً على قول إنسان في آخر، مثل أن يقول: قال فيك فلان كذا وكذا .

والقتات: هو النمام وقد قال النبى ﷺ: « لا يَدْخُلُ الجْنَّةَ نَمَّامٌ » . متفق عليه[1] .

**الآفة العاشرة** : كلام ذي الوجهين .

وهو الذي يثنى على الواحد فى وجهه ، ويذمه عند الآخرين .

قال النبى ﷺ : « إِنَّ شَرَّ النَّاسِ ذُو الْوَجْهَيْنِ ، الَّذِي يَأْتِي هَؤُلاءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلاءِ بِوَجْهٍ » . متفق عليه[2] .

**الآفة الحادية عشرة** : المدح ، وله آفات ، منها ما يتعلق بالمادح ، فقد يقول ما لا يتحققه ، وقد يبالغ في المدح ، فينتهي إلى الكذب ، وقد يمدح من ينبغى أن يُذم .

وأما الممدوح ، فإنّ مَدْحه يسبب له الكبر والإعجاب وهما مهلكان .

**الآفة الثانية عشرة**: الخطأ في فحوى الكلام عن الدين: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [النحل :١١٦ – ١١٧ ] .

**الآفة الثالثة عشرة** : الغناء ، وهو ما يفسد القلوب ، وقد غَرَّ به الشيطان خلقاً كثيراً من العوام والعلماء والزهاد ، حتى ظنوه قربة إلى الله .

**الآفة الرابعة عشرة** : اللعن : إما لحيوان أو جماد أو إنسان وكل ذلك مذموم شرعاً .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٥٧٠٩)، ومسلم برقم: (١٦٨/ ١٠٥)، واللفظ له.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٧١٧٩) ، واللفظ له، ومسلم برقم: (٩٩/ ٢٥٢٦).

# ٤ - الخزانة الرابعة

## آفات النفوس

- **آفة الرياء :**

الله ﷻ أغنى الأغنياء عن الشرك ، فلا يقبل من الأعمال إلا ما كمل وخلص من شوائب الشرك والرياء : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾[ البينة : ٥ ] .

والرياء حرام ، والمرائي عند الله ممقوت ، لأنه صرف عمله لغير الله ﷻ .

والرياء من أعظم آفات النفس ، وأشد غوائلها ، وهو من صفات المنافقين : ﴿ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾ ﴾[ النساء : ١٤٢ ] .

وأكثر ما يُبتلى بالرياء العلماء، والعباد، والأغنياء، والمجاهدون، والمشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة .

فإن هؤلاء مهما قهروا أنفسهم وجاهدوها ، وفطموها عن الشهوات ، وصانوها عن الشبهات ، وحملوها على أصناف العبادات إلا عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة ، فطلبت الاستراحة إلى التظاهر بالخير ، وإظهار العلم والعمل ، فسارعت إلى إظهار الطاعة ، وتوصلت إلى اطلاع الخلق ، ولم تقنع باطلاع الخالق ، وفرحت بحمد الناس ، ولم تقنع بحمد الله وحده : ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾[الماعون:٤-٧] .

وقال الله ﷻ : « أنا أغْنى الشُّركاء عن الشِّركِ ، مَنْ عَمِل عَمَلا أشرك فيه مَعي غيري تركتهُ وشِرْكَهُ » . أخرجه مسلم[1] .

فالرياء هو الداء الدفين، وهو أعظم شبكة للشياطين، لإفساد أعمال المؤمنين.

وحد الرياء : ترك الإخلاص في العمل بإرادة العامل بعبادته غير وجه الله تعالى ، كأن يقصد اطلاع الناس على عبادته وعمله ، فيحصل له منهم نحو مال أو جاه أو ثناء : ﴿ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ ﴾ [الزمر:٢- ٣] .

**وللمرائي أربع علامات :**

- يكسل إذا كان وحده
- ويزيد في العمل إذا أثني عليه
- وينشط إذا كان فى الناس
- ويُنقص العمل إذا ذُم .

والرياء مشتق من الرؤية ، والسمعة مشتقة من السماع، والرياء أصله طلب المنزلة في قلوب الناس بإيرائهم خصال الخير، إلا أن الجاه والمنزلة تُطلب في القلب بأعمال سوى العبادات ، وتطلب بالعبادات .

واسم الرياء مخصوص بحكم العادة ، بطلب المنزلة في القلوب بالعبادة وإظهارها .

فحد الرياء : هو إرادة العباد بطاعة الله .

فالمرائي هو العابد ، والمرائَى هو الناس المطلوب رؤيتهم للظفر بالمنزلة في قلوبهم، والمراءى به هو الخصال والأعمال التي قصد المرائي إظهارها ، والرياء هو قصد إظهار ذلك .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٤٦/ ٢٩٨٥).

والمراءى به كثير ، وتجمعه ستة أشياء ، وهي مجامع ما يتزين به العبد للناس، وهي : البدن والزي، والقول والعمل، والأتباع والأشياء الخارجية .

**الأول** : الرياء في الدين بالبدن بإظهار النحول ، والتقشف ، والصفار ، ليوهم بذلك شدة الاجتهاد .

و **الثاني** : الرياء بالهيئة والزي من أنواع الملابس .

**الثالث** : الرياء بالقول ، ويكون بالوعظ والتذكير ، والنطق بالحكمة ، وحفظ الأخبار والآثار ، إظهاراً لغزارة العلم ، والانتصار في المحاورات .

**الرابع** : الرياء بالعمل كمراءاة المصلي بطول القيام ، ومد الظهر ، وطول السجود والركوع ، وإطراق الرأس ، ليراه الناس .

وكذلك بالصوم والصدقة ونحو ذلك من الأعمال الصالحة .

**الخامس** : المراءاة بالأصحاب والزائرين كالذي يتكلف أن يستزير عالمًا من العلماء ، ليقال إن فلاناً قد زار فلاناً ، أو عابداً من العباد ، ليقال أن أهل الدين يتبركون بزيارته .

**السادس** : المراءة بالأشياء، كمن يتظاهر بالفقر وهو غني، ليعطي ونحو ذلك .

فالرياء أنواع وكلها مذمومة كما قال النبي ﷺ : « مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ « متفقٌ عليه[1] .

**و يحصل علاج الرياء بأمرين :**

**أحدهما** : قلع عروقه وأصوله التي منها انشعابه .

**الثاني** : دفع ما يخطر منه في الحال .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٦٤٩٩)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٤٧/ ٢٩٨٦).

**فأما قلع عروقه وأصوله** : فأصل الرياء حب المنزلة والجاه ، وهو يرجع إلى ثلاثة أصول وهي :

لذة المحمدة ، والفرار من ألم الذم ، والطمع فيما في أيدي الناس .

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : « الرَّجُلُ يُقَاتِلُ حَمِيَّةً ، وَيُقَاتِلُ شَجَاعَةً ، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً ، فَأَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ الله ؟ قَالَ : مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ الْعُلْيَا ، فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله ». متفق عليه[1].

فإذا علم العبد أن الرياء ضار في الدنيا والآخرة ، سهل عليه قطع الرغبة عنه ، فإنه إذا علم مضرة الرياء ، وما يفوته من صلاح قلبه ، وما يحرم منه من التوفيق في الحال ، وفي الآخرة من المنزلة عند الله ، فعلمه بذلك يُسهل عليه تركه ، ويبعث فيه الرغبة في الإخلاص .

وأما الطمع بما في أيديهم ، فبأن يعلم أن الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء ، وأن الخلق كلهم مضطرون إلى الله ، فلا رزاق إلا هو ، ومن طمع في الخلق لم يخل من الذل والخيبة ، وإن وصل إلى المراد لم يخل عن المنَّة والمهانة ، فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب ؟: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥ ﴾ [ البينة : ٥ ] .

والرياء فعل الخير ، لإرادة الخير ، بطلب المنزلة في قلوب الناس بإيرائهم خصال الخير ، وإرادة العباد بطاعة الله ، فجمعوا بين التعب ، وحرمان الأجر، وحصول الإثم .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ١٢٣)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٥٠/ ١٩٠٤).

- **والفرق بين الرياء والسمعة :**

أن الرياء يكون في الفعل ؛ لأن المرائي يري الناس أنه يفعل ولا يفعل بالنية ، والسمعة تكون في القول .

**والفرق بين الرياء والنفاق :**

أن الأصل في الرياء الإظهار ، والأصل في النفاق الإخفاء .

وقد يلتقي الأمران الرياء والنفاق الأصغر في عمل المنافق ، بإظهار مجرد الطاعة كما قال سبحانه في المنافقين : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾ [النساء:١٤٢] .

- **حكم الرياء :**

الرياء من الكبائر ، بل هو الكبيرة الثانية بعد الشرك بالله ؛ لما فيه من الاستهزاء بالحق تعالى ، وتقديم المخلوق عليه ، ولما فيه من التلبيس على الخلق ، لإيهام المرائي لهم أنه مخلص مطيع لله وهو بخلاف ذلك .

ولهذا أطلق على الرياء الشرك الأصغر ، فهو كل عبادة يراد بها غير وجه الله تعالى ، فهو من أكبر الكبائر المهلكة ، والرياء درجات .

فالرياء بما عمله الإنسان كبيرة ، والرياء بما لم يعمله أكبر : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الماعون:٤-٧] .

- **آفة الحسد :**

أصل الحسد العداوة ، وأصل العداوة التزاحم على غرض واحد ، والغرض الواحد لا يجمع متباعدين ، بل لا يجمع إلا متناسبين كالتجار والصناع ، والزراع ، والمدرسين ، والعلماء ، والأمراء ونحوهم .

**وأهم أسباب الحسد :**

إما العداوة والبغضاء ، فإن آذاه إنسان أبغضه وغضب عليه ، وأحب ضرره ، وأما التعزز ، فإذا نال الإنسان منصبًا ترفع على غيره ، فيحسده ذلك الغير ، ويتمنى زوال ذلك المنصب عنه ، أو يكون في طبيعة يستخدم غيره ، فيريد زوال النعمة عنه ليستخدمه: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [النساء:٥٤ -٥٥] .

والحسد أبوابه كثيرة وزوال الحسد بأمرين ؛ بالعلم والعمل .

أما العلم ، فهو أن تعلم أن الحسد ضرر عليك في الدين والدنيا ، وليس على المحسود ضرر ، بل ينتفع به في الدين والدنيا .

أما ضرره عليك في الدين ، فإنك بالحسد كرهت حكم الله ، ونازعته في قسمة الرزق بين عباده وشاركت إبليس وسائر الكفرة في محبتهم للبلايا للمؤمنين وستنال العقاب العظيم عليه يوم القيامة .

وضرره عليك في الدنيا أنك بالحسد تتعذب ، وتكون في الغم والكدر كلما رأيت نعمة على من تحسده وهذا ينهك بدنك ، ويُنغص عليك لذة المطعم والمشرب ، والمحسود لا ضرر عليه في دينه ودنياه ، فما قدر الله كائن لا محالة ، وهو مأجور في حال السراء والضراء .

وأما أن المحسود ينتفع به في الدين ، فهو أنه مظلوم من جهتك ، لاسيما إذا أخرجت الحسد إلى القول أو الفعل بالغيبة ، وذكر مساوئه ، فهذه هدايا يهديها الله إليه من حسناتك : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾ [الفلق:١-٥] .

وحسد الحاسد يدل على اختصاص المحسود بفضل الله ونعمه ، فهو مُذكر له بنعم الله ، فليحمد الله .

أما العمل النافع الذي يزول به الحسد فهو أن يأتي بالأعمال المضادة لمقتضيات الحسد ، فإن حمله الحسد على ذمه مدحه ، وإن حمله على التكبر عليه تواضع له ، وإن حمله على إيذائه أحسن إليه ، وإن حمله على الدعاء عليه دعا له وهكذا : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [ فصلت :٣٤- ٣٥ ] .

- **مراتب الحسد :**

**الحسد ثلاث مراتب :**

**أحدها** : أن يحسد غيره على ما أعطاه الله من النعم ، ويتمنى زوال ذلك عنه، ويترتب على ذلك الحسد مقتضاه من الأذى في القلب واللسان والجوارح وهذا أعظم أنواع الحسد ، لما فيه من الإعتراض على قسمة الله .

**الثاني** : تمني استصحاب عدم النعمة ، فهو يكره أن يُحدث الله لعبده نعمة ويحب أن يبقى على حاله، من جهل أو فقر أو ضعف أو شتات قلبه عن الله ، فهو يتمنى دوام ما هو فيه من نقص وعيب ، فهذا كله حسد على شيء غير مقدر ، والأول حسد على شيء مقدر ، وكلاهما حاسد عدو نعم الله ، وعدو عباده ، ممقوت عند الله ، وعند الناس ، لا يسود أبدًا ، فإن الناس لا يسودون عليهم إلا من يريد الإحسان إليهم .

**الثالثة** : حسد الغبطة ، وهو تمني أن يكون له مثل حال المحسود من غير تمني زوال النعمة عنه ، وهذا لا بأس به ، ولا يُعاب صاحبه ، وهو محمود يتمنى ما فيه خير من النعم ليستعين بها على طاعة الله ، وينفع بها الناس وأعمال صالحة يكسب بها الأجر ، وينال عليها الثواب في الآخرة وهذا قريب من المنافسة في الخيرات فقد قال الله تعالى : ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المطففين:٢٦] .

وقد قال النبي ﷺ : « لا حسدَ إلَّا في اثنتين : رجلٌ آتاه اللهُ مالًا ؛ فسلَّطَه على هَلَكَتِه في الحقِّ ، ورجلٌ آتاه اللهُ الحِكمةَ ؛ فهو يَقضي بها ويُعلِّمُها » . متفق عليه[1] .

فهذا حسد غبطة ، الحامل لصاحبه عليه شرف نفسه ، وحبه خصال الخير ، والتشبه بأهلها ، والدخول في جملتهم .

والحسد المذموم من نتائج الحقد ، والحقد من نتائج الغضب ، والحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، ويسبب العداوة والبغضاء ، وقطع صلة الأرحام ، والفرقة بين الناس كما قال ﷺ : « إيَّاكم والظَّن ، فإنَّ الظَّن أكذب الحديث ، ولا تحسَّسوا ، ولا تجسَّسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، ولا تباغضوا ، وكونوا عباد الله إخوانًا » . متفق عليه[2] .

واليهود أسحر الناس ، وأحسدهم للناس : كما قال الله عنهم : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [البقرة:١٠٩].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٧٣)، ومسلم برقم: (٢٦٨/ ٨١٦)، واللفظ له.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٦٠٦٤)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٢٨/ ٢٥٦٣).

والفرق بين الغبطة والحسد ؛ أن الغبطة تمني المرء أن يكون له مثل الذي لغيره من غير إرادة إذهاب ما لغيره من الخير ، وهي من صفات المؤمنين .
أما الحسد ، فهو إرادة زوال النعمة عن الغير ، وهي من صفات المنافقين والكفار ، وشر الحاسد مؤلم ومؤذي وموجع .

- **وسائل دفع الحسد :**

**يندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب :**

**الأول** : التعوذ بالله من شر الحاسد ، والتحصن به ، واللجوء إليه سبحانه.

**الثاني** : تقوى الله ﷻ ، فمن اتقى الله تولى حفظه ، ولم يكله إلى غيره .

**الثالث** : تجديد التوبة إلى الله من الذنوب التي سلطت عليه أعداءه ، فما نزل بلاء إلا بذنب ، ولا رُفع إلا بتوبة .

**الرابع** : التوكل على الله : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق:٣] .

**الخامس** : فراغ القلب من الاشتغال به ، والفكر فيه ، فلا يلتفت إليه ، ولا يخافه وبذلك يندفع عنه شره .

**السادس** : الإقبال على الله بكليته ، والإخلاص له ، وجعل المحبة لله ، ورضاه ، والإنابة إليه ، في محل خواطر نفسه حتى تقهرها وتُذيبها بالكلية .

**السابع** : الصبر على عدوه ، وألا يقاتله ، ولا يشكوه ، وألا يحُدث نفسه بأذاه أصلاً ، فما نُصر على حاسده وعدوه كمثل الصابر عليه : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [ الشورى : ٤٣ ] .

**الثامن** : الصدقة والإحسان إليه ما أمكنه ، فإن لذلك تأثيرًا عجيبًا في دفع البلاء ، ودفع العين ، ودفع شر الحاسد .

**التاسع** : إطفاء نار الحاسد والباغي والمؤذي بالإحسان إليه ، وكلما ازداد أذى وشرًا ، وبغيًا وحسدًا ، ازددت إليه إحسانا ، وإكراماً ، وعليه شفقة ، وهذا من أعظم الأسباب ، وأصعبها على النفس ولا يوفق لها إلا من عظم حظه من الله كما قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت:٣٤-٣٥] .

**العاشر** : تجريد التوحيد ، والتحول عن الفكر بالأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم ، والعلم بأن هذه أسباب بمنزلة حركات الرياح ، وهي بيد محركها وفاطرها وباريها ، ولا تضر ولا تنفع إلا بإذن الله كما قال سبحانه : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [يونس: ١٠٧] .

وهذا السبب جامع لما سبق كله ، وعليه مدار كل شيء : ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [ غافر : ٦٥ ].

- **آفة الغضب** :

**الغضب** : هو غليان دم القلب طلبًا للانتقام .

وقوة الغضب محلها القلب ، وإنما تتوجه هذه القوة عند ثورانها إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها ، وإلى التشفي والانتقام بعد وقوعها ، والانتقام قوت هذه القوة وشهوتها ، وفيه لذتها ولا تسكن إلا به .

والغضب شعلة نار من نار الله الموقدة ، وهي مستكنة في الفؤاد ، ويستخرجها الكبر الدفين في قلب كل جبار عنيد ، كاستخراج الحجر النار من الحديد ، والشيطان يكون أقدر على ابن آدم حين يغضب : ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ٣٧ ﴾[ الشورى : ٣٦ – ٣٧ ] .

ومن نتائج الغضب ، الحقد والحسد ، وبهما هلك من هلك ، وفسد من فسد ، والحلم مفتاح كل خير ، والغضب مفتاح كل شر ، ويُسير صاحبه إلى ذلة الاعتذار .

وقد خلق الله سبحانه طبيعة الغضب من النار ، وغرزها في الإنسان ، فمهما صُد عن غرض من أغراضه وحوائجه اشتعلت نار الغضب ، وثارت ثورانًا يغلي به دم القلب ، ثم ينتشر في العروق ، ثم يمتد إلى أعالي البدن كما ترتفع النار ، وكما يرتفع الماء الذي يغلي في القدر ، فلذلك ينصب إلى الوجه ، فيحمر الوجه والعين ، والبشرة لصفائها ، تحكي ما وراءها من حمرة الدم ، فنعوذ بالله من الغضب ومن أسبابه .

- **درجات الغضب :**

**الناس في الغضب على ثلاث درجات :**

تفريط ، وإفراط ، واعتدال .

**أما التفريط** : فيفقد هذه القوة أو ضعفها ، وذلك مذموم ، فمن فقد قوة الغضب والحمية أصلاً فهو ناقص جدًا ، وقد وصف الله رسوله والمؤمنين معه بالشدة والحمية كما قال سبحانه : ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ ﴾[الفتح:٢٩] .

**وأما الإفراط** : فهو أن تغلب صفة الغضب ، حتى تخرج العبد عن سياسة الدين وطاعته ، ولا يبقى للمرء معها بصيرة ونظر ، وإذا اشتدت نار الغضب وقويت أعمت صاحبها ، وأصمته عن كل موعظة ، فإذا وعظه أحد لم يسمع له ، بل زاده ذلك غضبًا ، فينطفئ نور العقل من دخان الغضب ، ومن آثار هذا الغضب في الظاهر تغير اللون ، وشدة الرعدة في الأطراف ، واضطراب الحركة والكلام ، وخروج الأفعال والحركات عن المعتاد ، حتى يظهر الزبد على الأشداق ، وتحمر الأحداق .

وقبح باطن الغضبان أعظم من قبح ظاهره ، فإن الظاهر عنوان الباطن ، وإنما قبحت صورة الباطن أولاً ، ثم انتشر قبحها على الظاهر ثانيًا ، وظهر في اللسان انطلاقه بالشتم والفحش من الكلام الذي يستحي منه ذو العقل الرشيد .

وأما أثر الغضب على الأعضاء فالضرب والتهيب ، والتمزيق والقتل والجرح ، عند التمكن من غير مبالاة ، فإن هرب منه المغضوب عليه ، أو عجز عن التشفي منه ، رجع الغضب على صاحبه ، فمزق ثوبه، ولطم نفسه ، أو سقط على الأرض ، أو كسر ما باليد ونحو ذلك مما هو واقع .

وأما أثره في القلب على المغضوب عليه فالحقد عليه ، والحسد له ، وإظهار السوء والشماتة بالمساوئ والحزن بالسرور ، والعزم على إفشاء السر ، وهتك السر وغير ذلك من القبائح فهذه مضار الغضب المفرط .

وأما مضار الحمية الضعيفة ، فقلة الأنفة مما ينوح منه من التعرض للمحارم والزوجة ، واحتمال الذل من الأخساء ، وعدم الغيرة على الحرام .

**وأما الاعتدال** : فالمحمود من الغضب هوالغضب الذي ينتظر إشارة العقل والدين ، فينبعث حيث تجب الحمية ، وينطفئ حيث يجب الحلم .

وحفظه على حد الاعتدال ، هو الاستقامة التي كلف الله بها عباده ، وهو الوسط بين الطرفين : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾ [هود:١١٢] .

فمن مال غضبه إلى الفتور ، حتى أحس من نفسه بضعف الغيرة ، وخسة النفس ، واحتمال الذل في غير محله ، فينبغي أن يعالج نفسه حتى يقوى غضبه .

ومن رقى غضبه إلى الإفراط ، حتى جره إلى التهور ، واقتحام الفواحش ، فينبغي أن يعالج نفسه ، لينقص من ثورة الغضب ، ويقف على الوسط الحق بين الطرفين ، وهو الصراط المستقيم وهو أدق من الشعرة ، وأحد من السيف ، فإن عجز عنه ، فليطلب القرب منه كما قال النبي ﷺ : « ليس الشَّديد بالصُّرَعة، إنَّما الشَّديد الذي يملك نفسه عند الغَضَب ».متفق عليه[1].

والأسباب المهيجة للغضب في النفس ، هي الزهو والعُجب ، والمزاح والهزل ، والهُزء والتعيير ، والمماراة والغدر ، وشدة الحرص على فضول المال والجاه ونحو ذلك من الأخلاق الرديئة المذمومة شرعًا ، ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب ، وتُزال هذه الأسباب بأضدادها .

فيُميت الإنسان الزهو بالتواضع ، والعُجب بمعرفة ما في النفس من النقص ، والفخر بأنك من جنس عبدك ، وتُزيل المزاح بالتشاور بالمهمات الدينية التي تستوعب العمر ، وتنفع العبد .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٦١١٤)، واللفظ له، ومسلم برقم: (١٠٧/ ٢٦٠٩).

وأما الهزل فتُزيله بالجد في طلب الفضائل ، والأخلاق الحسنة ، والعلوم الدينية النافعة التي تبلغك إلى سعادة الآخرة .

وأما الهُزء فتُزيله بالترفع عن إيذاء الناس، وبصيانة النفس عن أن يُستهزئ بك.

والتعيير يُزال بالحذر من القول القبيح ، وصيانة النفس عن مر الجواب .

وأما شدة الحرص فتُزال بالقناعة بقدر الضرورة ، طلبًا لعز الاستغناء ، والترفع عن ذل الحاجة .

وإذا عرف الإنسان غوائل هذه الأخلاق الرديئة بعدت النفس ونفرت عن قبحها ، فإذا واظب على مباشرة أضدادها مدة مديدة ، صارت بالعادة مألوفة هينة على النفس ، فإذا انمحت عن النفس ، فقد زكت وتطهرت من هذه الرذائل ، وتخلصت من الغضب الذي يتولد منها : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [ الشمس:٧-١٠] .

- **علاج الغضب :**

**إذا هاج الغضب فعلاجه بأمرين : العلم والعمل :**

**أما العلم : فيكون بمعرفة ستة أمور :**

**الأول** : أن يعلم ما في كظم الغيظ ، والعفو ، والحلم ، والصبر ، من الأجر والثواب ، والإلفة والمودة : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [ الأعراف : ١٩٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤].

**الثاني** : أن يخوف العبد نفسه بعقاب الله ، فيقول : قدرة الله عليّ أعظم من قدرتي على هذا الإنسان ، فلو أمضيت غضبي عليه ، لم آمن أن يُمضي الله غضبه عليّ يوم القيامة ، أحوج ما أكون إلى العفو هناك .

**الثالث** : أن يحذر النفس عاقبة العذاب والانتقام ، وتشمر العدو لمقابلته ، والسعي في أذاه ، ويخوف نفسه بعواقب الغضب في الدنيا ، وما يجر إليه من مصائب في الآخرة .

**الرابع** : أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب ، بينما يتذكر صورة غيره عند الغضب .

**الخامس** : أن يتفكر في السبب الذي يدعوه للانتقام ، ويمنعه من كظم الغيظ، فيرده ولا يبالي ، كأن يقول له الشيطان : إن عدم الانتقام يحُمل منك على العجز ، وتصير حقيرًا في أعين الناس ، فيقول لنفسه التأنى فيه من الاحتمال الآن ، ولا تأنى فيه من الخزي يوم القيامة ، إذا أخذ هذا بيدك ، وانتقم منك ، وتحذرين من أن تصغري في أعين الناس ، ولا تحذرين من أن تصغري عند الله والملائكة والنبيين .

**السادسة** : أن يعلم أن غضب الله عليه يوشك أن يكون أعظم من غضبه ، لأنه خالف مراده الله منه .

**وأما العمل** : فأن تقول بلسانك : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

استب رجلان عند النبي ﷺ فجعل أحدهما يغضب ، ويحمر وجهه ، فنظر النبي ﷺ فقال : « إني لَأعلمُ كلمةً لو قالها لذهب ذا عنه : أعوذُ بالله من الشيطانِ الرجيمِ » . متفق عليه[1] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦١١٥)، ومسلم برقم: ( ١١٠/ ٢٦١٠)، واللفظ له.

فإن لم يذهب بذلك ، فاجلس إن كنت قائمًا ، واضطجع إن كنت جالسًا ، لأن سبب الغضب الحرارة ، وسبب الحرارة الحركة ، والقائم والقاعد متهيئ للانتقام ، وإن لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل ، فإن النار لا يطفئها إلا الماء ، والسكوت عند الغضب مما يزيل أثر الشر عنه كظم الغيظ كذلك .

اللهم أت نفوسنا تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها ، اللهم إنا نسألك نفوسًا مطمئنة ، تؤمن بلقائك ، وترضى بقضائك ، وتصبر على بلائك .

# ٥- الخزانة الخامسة

## العدو الثاني : الشيطان

- **فقه عداوة الشيطان :**

لعن الله الشيطان وطرده ، بسبب أنه عصى أمر ربه ، حين أمره بالسجود لآدم ﷺ ، فأبى واستكبر وكان من الكافرين كما قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [البقرة:٣٤] .

فحقت عليه لعنه الله إلى يوم الدين كما قال سبحانه : ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الحجر:٣٤-٣٥].

ووعد الله الشيطان وذريته وأتباعه بنار جهنم يوم القيامة كما قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الحجر:٤٣-٤٤] .

ولما علم الشيطان أن ما حصل له من الطرد ، واللعن ، والإغواء ، والعذاب بجهنم ، كله بسبب آدم ، أعلن حربًا صريحة على آدم وذريته من جميع الجهات ، وفي جميع الأوقات ، وفي جميع الأماكن ، وبكل الطاقات ، وبشتى الوسائل ، مصرًا على ملاحقة الإنسان ذكرًا كان أو أنثي ، في كل لحظه ، وفي كل حال : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأعراف:١٦ -١٨ ] .

واختار هذا اللعين أن يزاول هذا الكيد للإنسان على المدى الطويل ، واختار هذا على أن يضرع إلى الله أن يغفر له خطيئته في معصيته عيانًا ، وقد سمع أمره مواجهة : ﴿ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٨ ﴾[الأعراف:١٨] .

فما أعظم عداوة الشيطان للإنسان ، وأصالتها ، وضراوتها ، واستمرارها ، فعلينا أن نقابل عداوته لنا ، بعداوتنا له : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦ ﴾[فاطر:٦].

إن الشيطان سيقعد للبشرية على صراط الله المستقيم ، لا يمكنهم من سلوكه، وسيأتيهم من كل جهة ، ليصرفهم عن هداه ، وهو إنما يأتيهم من ناحية نقطة الضعف فيهم ، ومداخل الشهوة الجاذبة كما قال لآدم ﷺ من قبل : ﴿ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ١٢٠ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١ ﴾[طه:١٢٠-١٢١] .

فالشيطان عدو للإنسان ، أما وقد نزل آدم ﷺ والشيطان إلى الأرض ، فالحرب بينهما قائمة ، والمعركة مع الشيطان هي المعركة الكبرى ، إنها المعركة مع الهوى ، بإتباع الهدى، والمعركة مع الشهوات باستعلاء الإرادة ، والمعركة مع الشر والفساد في الأرض ، الذي يقود الشيطان أولياءه إليه ، بإتباع شريعة الله المصلحة للأرض ومن فيها ، والمعركة مع النفس والحياة الواقعية ، فالشيطان وراءهما جميعًا ، والطواغيت التي تقوم في الأرض لتخضع الناس لحاكميتها وشرعها ونظمها ، وتستبعد حاكمية الله وشرعه ، إنما هي شياطين الإنس التي توحي لها شياطين الجن ، والمعركة معها هي المعركة مع الشيطان نفسه كما قال سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا

شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾[الأنعام:١١٢].

فالمعركة الكبرى الطويلة الضارية ، تتركز مع الشيطان ذاته ، ومع ذريته ، ومع أوليائه ومع جنوده ، وهي حرب طويلة المدى ، لابد أن يخوضها المسلم مع الشيطان ، وقد استعد لها الشيطان بخيله ورجله كما قال سبحانه له : ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [الإسراء:٦٤] .

والله حافظ عباده وأولياءه من كيده كما قال سبحانه للشيطان : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾[الإسراء:٦٥]

ويشعر المسلم وهو يخوض هذه المعارك مع هواه ، وشهواته ، وهو يخوضها كذلك مع أولياء الشيطان من الطواغيت في الأرض وأتباعهم وأجنادهم ، وهو يخوضها مع الشر والفساد والانحلال الذي ينشئونه في الأرض من حولهم ، يشعر وهو يخوض هذه المعارك العظيمة كلها ، أنه إنما يخوض معركة واحدة ، جدية صارمة ضارية ، لأن عدوه فيها مصرٌ ماض في طريقه ، وأن الجهاد من ثم ماض إلى يوم القيامة في كل صوره ومجالاته ، جهاد النفس ، وجهاد الشيطان ، وجهاد الكفار فمكرم ومهان ، ورابح وخاسر ، ومنتصر ومهزوم .

فلا يقعد المسلم عن جهاد عدوه الشيطان ، فهو ماض في إغوائه وإضلاله ، وساعٍ في جر الناس إلى جهنم بكل ما يغضب الله من كفر وشرك ، وبدعة ومعصية : ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ

فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ ﴾[النساء:١١٨-٢٢١] .

والمشركون إنما يعبدون صورة الأوثان والأصنام ، وفي الحقيقة إنما يعبدون الشيطان الذي زينها لهم ، وغرهم بها ، وهو عدوهم الذي يريد إهلاكهم بكل ما يقدر إليه : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾[يس:٦٠-٦٢] .

وكما أبعده الله من رحمته ولعنه ، فهو يسعى في إبعاد العباد من رحمة الله ، وجرهم إلى عقوبة الله كما قال سبحانه عنه : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾[فاطر:٦].

- **فقه عداوة الشيطان للإنسان :**

الشيطان عدو مبين للإنسان ، وقد وقع ما ظنه الشيطان بالناس ، فتبعوه كلهم إلا القليل كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[سبأ:٢٠] .

فأضلهم الشيطان عن العلم الإلهي ، والعمل الصالح ، وزين لهم ما هم فيه من الضلال ، ومناهم أن ينالوا ما ناله المهتدون ، وهذا هو الغرور بعينه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾

[ فاطر :٥- ٦ ] .

وهذه زيادة إلى شر ، حيث زين لهم ما هم فيه من الضلال ، فعملوا أعمال أهل النار الموجبة للعقوبة ، وحسبوا أنها موجبة للجنة كما غر اليهود

والنصارى حين أعرضوا عن دينهم : ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١ ﴾[البقرة:١١١ ] .

وكما غر الكفار فكفروا : ﴿ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥ ﴾[سبأ:٣٥] .

فما أخسر هؤلاء وهؤلاء حين أطاعوا الشيطان ، وعصوا الرحمن : ﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ١٠٥ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ١٠٦ ﴾[الكهف:١٠٣-١٠٦] .

ومن الإضلال ما زينه الشيطان لبعض الناس ، حتى حرموا ما أحل الله ، وأحلو ما حرم الله ، من الاعتقادات الفاسدة ، والأحكام الجائرة مما هو من أكبر الضلال .

ومن ذلك ما غراهم به الشيطان من تغيير خلقة الرحمن الحسنة ، بالوشم والوشر والنمص ونحو ذلك ، وذلك يتضمن التسخط من خلقته ، والقدح في حكمته سبحانه ، واعتقاد أن ما يصنعون بأيديهم ، أحسن من خلقة الرحمن وعدم الرضا بتقديره .

وكذلك ما غرتهم الشياطين بتغيير خلق الله بتغيير الخلق الباطن ، فالله تعالى خلق عباده حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن هذا الخلق الجميل وزينت لهم الشرك والكفر ، والشر والإثم ، والفسوق والعصيان كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩ ﴾[البقرة:١٦٨-١٦٩] .

فالشيطان يعد أولياءه الفقر إذا أنفقوا في سبيل الله ، ويخوفهم إذا جاهدوا بالقتل وغيره ويخوفهم من طاعة الله بحصول الأذى لهم ليكسلوا عن فعل الخير ، ويمنيهم الأماني الباطلة : ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾[النساء:١٢٠] .

وما أكثر من غرهم الشيطان ، فصاروا من إتباع إبليس وحزبه : ﴿أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾[النساء: ٢٢١] .

وقد حذر الله ﷻ بني آدم عامة أن يستسلموا للشيطان ، فيما يتخذونه في أنفسهم من مناهج وشرائع ، فيسلمهم إلى الفتنة والبلاء كما فعل مع أبويهم من قبل ، إذ نزع عنهما لباسهما ، وأخرجهما من الجنة ، فالعري والتكشف عمل من أعمال الشيطان في بني آدم ، وهو طرف من المعركة الطويلة التي لا تهدأ بين الإنسان وعدوه الشيطان ، فلا يدع بنو آدم لعدوهم الشيطان أن يفتنهم، وأن ينتصر عليهم، وأن يملأ منهم جهنم في نهاية المطاف :﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡ ۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾[الأعراف: ٢٧-٢٨] .

وزيادة في التحذير منه ينبههم ربهم أن الشيطان يراهم هو وقبيله من حيث لا يرونهم ، وإذا اجتهدوا وعقدوا العزم على فتنتهم بوسائله الخفية ، وكيده الخفي ، فعلى المؤمنين الحذر ، حتى لا يأخذهم علي غرة ، ومعرفة الثغور التي يدخل منها وسدها في وجهه .

وقد قدر الله أن يكون هو ولي الذين آمنوا ، وقدر كذلك أن يجعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ، ويا ويل ، ويا خسارة ، من كان عدوه وليه ، إنه يسيطر عليه ، ويقوده حيث شاء : ﴿ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [النساء:٣٨ ] .

فلا إله إلا الله ، كم أضل الشيطان وجنوده من الخلق : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾ [البقرة : ٢٥٧ ] .

وقد طلب الشيطان من ربه أن ينظره إلى يوم القيامة ، لا ليندم علي معصيته وخطيئته أمام الخالق العظيم ، من الامتناع عن السجود لآدم ، ومخالفة أمر الله ، ولا ليتوب إلى الله ، ويرجع ويكفر عن إثمه الجسيم ، ولكن لينتقم من آدم وذريته ، جزاء ما لعنه الله ، وطرده من هداه ، إنه يربط لعنة الله بآدم ، ولا يربطها بعصيانه لله في تبجح نكير : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الحجر:٣٦-٣٨].

فلما أنظره الله ، أعلن خليقة الحقد ، وخليقة الشر ، وخليقة العداوة ، على البشرية في الأرض وحدد عدته فيها ، وهي تزيين القبيح وتجميله ، والإغراء بزينته المصطنعة على ارتكابه : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحجر:٣٩-٤٠].

وهكذا لا يقترف الإنسان الشر إلا وعليه مسحة من الشيطان تزينه وتجمله ، وتظهره في غير حقيقته ورذائه ، وتغري بارتكابه ، فليفطن المسلمون إلى عدة الشيطان ، وليحذروا كلما وجدوا في أمرٍه تزيينًا ، وكلما وجدوا في نفوسهم اشتياهًا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ

ٱلشَّيۡطَٰنِۚ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾﴾[النور:٢١] .

شرط الشيطان أن يغوي الناس أجمعين إلا عباد الله المخلصين : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾[الحجر:٣٩-٤٠].

وقد شرط هذا الشرط ، لأنه يدرك أن لا سبيل إلا سواه ، لأن سنة الله أن يستخلص لنفسه من يخلص له نفسه وأن يحميه ويرعاه ، ومن ثم كان الجواب : ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾[الحجر:٤١-٤٢].

هذه سنة الله التي لا تتبدل ، المؤمنون لا سبيل لك عليهم ، ولا تملك أن تزين لهم ، لأنك عنهم محصور ، ولأنهم منك في حماية الله ، ومداخلك إلى نفوسهم مغلقة ، إنما سلطانك على من اتبعك من الغاوين الضالين ، فالشيطان لا يتلقف إلا الشاردين ، كما يتلقف الذئب الشارد من الغنم .

وأما عاقبة الغاوين فهي معلنة في الساحة منذ البدء ، وأن جهنم هي موعدهم أجمعين لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم : ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾[ الحجر :٤١- ٤٤ ] .

إن حسد إبليس لآدم ﷺ يجعله يذكر الطين ، ويغفل نفخة الله في هذا الطين كما قال سبحانه : ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ﴿٦١﴾﴾[الإسراء:٦١] .

ويُعرض إبليس بضعف هذا المخلوق ، واستعداده لإغوائه بلا حياء ، فيقول : ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾[الإسراء:٦٢] .

ويغفل الشيطان عن استعداد الإنسان للخير والهداية ، واستعداده للشر والغواية ، وعن حالته التي يكون فيها متصلاً بالله القوي الذي يستمد منه القوة ، العزيز الذي يستمد منه العزة ، فيرتفع ويسمو ويعتصم من الشر والغواية ، ويغفل عن أن هذه هي مزية هذا المخلوق الذي ترفعه على ذوي الطبيعة المفردة التي لا تعرف إلا طريقًا واحدًا تسلكه بلا إرادة كالملائكة ، ويشاء الله ﷻ أن يطلق لرسول الشر و الغواية الزمام ، يحاول محاولته مع بني آدم امتحانًا وابتلاءً : ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ ﴾[الإسراء:٦٣] .

اذهب وحاول محاولاتك ، اذهب مأذونًا لك في إغوائهم ، فهم مزودون بالعقل والإرادة ، يملكون أن يتبعوك ، ويملكون أن يعرضوا عنك ويعصوك، فمن تبعك منهم مغلبا جانب الغواية في نفسه على جانب الهداية، معرضا عن نداء الرحمن إلى نداء الشيطان ، غافلا عن آيات الله في الكون ، وآيات الله المصاحبة للرسالات ، فإن جهنم جزاؤكم أنت وتابعك ، واستخدم في إضلالهم جميع وسائل الغواية والإضلال للاستيلاء على القلوب والعقول والمشاعر .

وعدهم بما يغريهم بما تريد من المعاصي ، كالوعد بالإفلات من العقوبة والقصاص ، والوعد بالغنى من الأسباب الحرام ، والوعد بالغلبة والفوز بالوسائل القذرة والخسيسة ، والوعد بالعفو والمغفرة بعد الذنب والخطيئة ، فالشيطان يزين للإنسان المعصية ، وهو يلوح له بسعة الرحمة

الإلهية ، وشمول العفو والمغفرة ، ولكن هناك من لا سلطان لك عليهم ، لأنهم مزودون بحصانة تمنعهم منك ، ومن خيلك ورجلك كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾[الحجر: ٤٢].

فمتى اتصل القلب بالله ﷻ ، واتجه إليه بالعبادة وحده لا شريك له ، وارتبط بالعروة الوثقى ، فلا سلطان حينئذ للشيطان عليه ، وكفى بربك وكيلا ، يعصم وينصر ويبطل كيد الشيطان : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾ [لقمان:٢١] .

وانطلق الشيطان ينفذ وعيده ، ويستزل عبيده ، ولكنه لا يجرؤ على عباد الرحمن : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[سبأ:٢٠] .

حقًا إن وعد الله حق ، وإنه لآتٍ لا ريب فيه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾[فاطر:٥-٦] .

إن الحياة تغر وتخدع : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾[لقمان:٣٣] .

وإن الشيطان يغر ويخدع ، فلا تمكنوه من أنفسكم ، والشيطان قد أعلن عن عداوته للبشرية من أول يوم فليتخذوه عدوا ، ولا يركنوا إليه ، ولا يقبلوا منه نصيحة ، ولا يتبعوا خطاه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ [البقرة:٢٠٨] .

فالعاقل لا يتبع خطى عدوه وهو يعقل ، والشيطان لا يدعوكم إلى الخير ، ولا ينتهي بكم إلى نجاة ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ، فهل يليق بالعاقل أن يجيب دعوة الداعي إلى عذاب السعير .

إن الإنسان حين يستحضر المعركة الخالدة مع الشيطان ، فإنه يتحفز بكل قواه، وبكل يقظته ، دفاعًا عن النفس ، وحماية للذات ونصحًا للأمة ، يتحفز لدفع الغواية والإضلال والإغراء ويستيقظ لمداخل الشيطان إلى نفسه .

ويتوجس من كل هاجسة ، ويسرع ليعرضها على ميزان الله وشرعه .

إن القرآن ينشئ في القلب حالة التعبئة الشعورية ضد الشر ودواعيه وأبوابه ، وضد هواتفه المنتشرة ، وضد هواتفه المستترة في النفس ، وأسبابه الظاهرة للعيان ، حالة الاستعداد الدائم للمعركة التي لا تهدأ لحظه ، ولا تضع أوزارها في هذه الأرض أبدًا ، وها هي عاقبة الكافرين الذين لبوا دعوة الشيطان ، وحالة المؤمنين الذين طاردوه : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٩ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾[ يونس :٧-١٠ ] .

# ٦- الخزانة السادسة

- **فقه عداوة الشيطان :**

إن طبيعة الغواية ، وحقيقة عمل الشيطان ، والباب الذي يُفتح فيجيء منه الشر والفساد كله ، هو أن يرى الإنسان عمله القبيح حسنًا : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [فاطر:٨].

هذا هو مفتاح الشر كله ، أن يزين الشيطان للإنسان سوء عمله فيراه حسنًا ، أن يُعجب بنفسه ، وبكل ما يصدر عنها ، ألا يفتش في عمله ، ليرى مواضع الخطأ والنقص فيه ، لأنه واثق أنه لا يخطئ ومتأكد دائمًا أنه على صواب ، فيُعجب بكل ما يصدر عنه ، مفتون بكل ما يتعلق بذاته ، لا يخطر على باله أن يراجع نفسه في شيء ، ولا أن يحاسبها على أمر ، ولا يُطيق أن يراجعه أحد في عمل يعمله ، أو في رأي يراه ، أو في خلق يتخلق به ، نعوذ بالله من الغرور .

هذا هو البلاء العظيم الذي يصبه الشيطان على الإنسان ، ويُغرقه به ، وهذا هو المقود الذي يقوده منه إلى الضلال ، ثم إلى البوار : ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴿٣٨﴾ ﴾ [النساء:٣٨ ] .

إن الذي يكتب الله له الهدى والخير ، يضع في قلبه الحساسية والحذر ، فلا يأمن مكر الله ، ولا يأمن تقلب القلب ، ولا يأمن الخطأ والزلل ، ولا يأمن النقص والعجز : ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأعراف:٩٩] .

فالمؤمن دائم التفتيش في عمله ، دائم الحساب لنفسه ، دائم الحذر من الشيطان ، دائم التطلع لعون الله وتوفيقه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ ﴾ [الحشر:١٨] .

إن كلٍ أحد يُزين له الشيطان سوء عمله فيراه حسنًا ، مثال للإنسان الضال الهالك البائر الصائر إلى شر المصير : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢ ﴾ [محمد:١٢] .

ومفتاح هذا كله هو هذا التزيين ، وهذا الغرور ، وهذا الستار الذي يُعمي قلبه وعينه ، فلا يرى مخاطر الطريق ، ولا يحُسن عمله ، لأنه مطمئن إلى حسن عمله وهو سوء ، ولا يُصلح خطأً ، لأنه واثق أنه لا يخطئ .

أفهذا يُرجى له صلاح ومتاب ، أفهذا كمن يصلح نفسه ، ويراقب ربه ، أفهذا يستوي مع المؤمنين الأتقياء : ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦٢ هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٦٣ ﴾ [آل عمران:١٦٢-١٦٣]

وقال الله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ١٨ ﴾ [السجدة:١٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبّٗا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيّٗا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٢ ﴾ [الملك:٢٢] .

والله سبحانه له الخلق والأمر وحده ، يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، ومثل هذا قد كتب الله عليه الضلالة ، وهو مستحق لها بما زين له الشيطان من سوء عمله ، وبما فتح عليه هذا الباب الذي لا يعود منه ضال ،

وبمطاوعته للشيطان وتسليم نفسه له : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[الزخرف: ٣٧]

إن طبيعة الضلال من رؤية العمل حسناً وهو سوء ، وطبيعة الهدى بالحذر والمحاسبة والتقوى ، ومادام الأمر كذلك ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، فالهدى والضلال ليسا من أمر البشر ، إنما هو من أمر الله وحده ، والقلوب من بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ، وهو مقلب القلوب والأبصار ، يعلم من يستحق الكرامة فيكرمه ، ومن يستحق الإهانة فيذله : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾[فاطر:٨].

وهذه حالة يعانيها الدعاة كلما أخلصوا بدعوتهم ، وأدركوا قيمتها وجمالها ، وما فيها من خير ، ورأوا الناس في الوقت ذاته يصدون عنها ويعرضون ، ولا يرون ما فيها من الخير والجمال ، ولا يستمتعون بما فيها من الحق والكمال والآداب ، وما أجمل أن يدرك الدعاة هذه الحقيقة التي وصى الله بها رسوله ﷺ ، فليبلغوا دعوتهم ، باذلين فيها أقصى جهدهم ، ثم لا يأسوا ولا يحزنوا بعد ذلك على من لم يقدر الله له الصلاح والفلاح ، فالله أعلم حيث يجعل رسالته وهدايته : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾[فاطر:٨].

يقسم لهم الهدى والضلال وفق علمه ، والله يعلم هذه الحقيقة قبل أن تكون منهم ، ولكنه لا يحاسبهم على ما يكون منهم إلا بعد أن يكون : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾[فصلت:٤٦] .

والشيطان لا يبذل جهده لمن باع نفسه للمعصية ، وانطلق يخالف كل ما أمر الله به ، ويتمرغ في الكفر ، والظلم ، والمحرمات ، فالنفس الأمارة بالسوء

ليست محتاجة للإغواء ، لأنها تأمر صاحبها بالسوء : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣ ﴾[ يوسف : ٥٣ ] .

ولذلك فإن إبليس لا يذهب إلى الخانات ، وأماكن اللهو والفجور ، ومستنقعات الزنا والرذيلة والفساد ، فهذه الأماكن كل من يذهب إليها ذاهب إلى معصية ، وليس في حاجة إلى إغواء ، لأنه قد اختار هذا الطريق العفن ، الموصل إلى غضب الله وعذابه ، ولكن إبليس يذهب إلى بيوت الإيمان ، وبيئات الطاعة ، وأماكن العبادة ، وساحات الفضيلة ، وهم من سار على الصراط المستقيم عابدًا وداعيًا ، ومعلمًا ومربيًا ، ومحسنًا ومتصدقًا ، وناصحًا ومرشدًا ومجاهدًا .

هؤلاء الذين يبذل معهم إبليس كل جهده ، وكل حيله ، وكل مكره ، وكل كيده ، وكل إغوائه ، ليصرفهم عن عبادة الله كما قال الله عنه : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧ ﴾[الأعراف:١٦ -١٧ ] .

وقال النبي ﷺ : « إنَّ الشَّيطانَ قعَدَ لابنِ آدَمَ بأطرُقِه ، فقعد له بِطَريقِ الإسلامِ ، فقال له : أتُسلِمُ وتَذَرُ دِينَك ، ودينَ آبائِك ، وآباءِ أبيك ؟ ! فعصاه ، فأسلَمَ ، ثمَّ قعَدَ له بطريقِ الهجرةِ ، فقال : أتُهاجِرُ وتَذَرُ أرضَك ، وسماءَك ؟ ! وإنَّما مَثَلُ المُهاجِرِ كمَثَلِ الفَرَسِ في الطِّوَلِ ، فعَصَاه فهاجَرَ ، قال : ثمَّ قعَدَ له بِطَريقِ الجِهادِ ، فقال : هو جَهْدُ النَّفسِ والمالِ ، فتُقاتِلُ فتُقتَلُ ، فتُنكَحُ المرأةُ ، ويُقسَمُ المالُ ، فعصاه فجاهَدَ ، فقال رسولُ الله ﷺ : فمَن فعَلَ ذلك ، كان حقًّا على الله ﷻ أن يُدخِلَه الجنَّةَ ، ومن قُتِلَ كانَ حَقًّا على اللهِ ﷻ أن يُدخِلَه الجنَّةَ ، وإنَ غَرِقَ كان حقًّا على اللهِ أن يُدخِلَه الجنَّةَ ،

أو وَقَصَتْه دابَّةٌ كان حقًّا على اللهِ أن يُدخِلَه الجنَّةَ ».أخرجه أحمد والنسائي بسند صحيح[1].

- **فقه عداوة الشيطان للإنسان :**

الشيطان عدو مبين للإنسان ، لا يقعد لبني آدم على الطريق المعوج ، لأن الطريق المعوج لا يحتاج إلى جهد ، ولأنه بطبيعته يتبع الشيطان ، ومن هنا فإن إبليس يغوي أهل الطاعة ، لا أهل الشر والفساد بأن يزين للمسلمين المعاصي والفواحش ويغريهم بمد أيديهم إلى المال الحرام ، أو بترك الواجب ، أو فعل المحرم ونحو ذلك مما حرمه الله ، والله سبحانه اختار للإنسان طريق الخير والحياة الكريمة في الأرض ، ورسمه له وبينه ، ورغبه فيه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٧٧ ﴾[الحج:٧٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣ ﴾[الأنعام:١٥٣] .

ولكن الشيطان يأتي للإنسان ، ويزين طريق الباطل ، ويحاول أن يصور له أن فيه خيرًا ، فإذا سقط الإنسان في الشر هرب إبليس ، ونال الإنسان العقوبة ، فجميع الجرائم يزين الشيطان للإنسان أنه سيفلت منها ، ويظل يوسوس له ويقنعه حتى يقتنع ، ثم بعد ذلك ينكشف أمره فيهرب الشيطان ، ويترك الإنسان يواجه مصيره ، كما غرَّ الكفار في غزوة بدر كما قال سبحانه : ﴿ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ

(١) صحيح/ أخرجه أحمد برقم: ( ١٦٠٠٠)، والنسائي برقم: (٣١٣٤).

﴿مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال:٤٨].

وكما دخل إبليس من ناحية الغفلة لآدم ، دخل كذلك من ناحية الغفلة لأبناء آدم يريد أن يغويهم ويضلهم ، فهناك عداوة سابقة بين إبليس وآدم ﷺ ، وإبليس طُرد من الجنة بسبب آدم ﷺ ، وطُرد من رحمة الله بسبب معصية عدم السجود لآدم ، فهو عدو لآدم وذريته إلى يوم القيامة : ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر:٦].

وطلب إبليس من الله سبحانه أن يمهله إلى يوم البعث ، لينتقم من آدم وذريته، بإبعادهم عن الصراط المستقيم ، وإغرائهم بكل معصية تكون سببًا لدخولهم النار ، فالشيطان يشم ابن آدم ، ويأته من الباب الذي يسهل دخوله منه عليه ، فإذا وجد الإنسان متشددًا في جهة ، أتاه من الجهة التي هو فيها ضعيف ، فإذا كان الإنسان متشددًا في الصلاة يحافظ عليها ويؤديها في أوقاتها ، ويواظب على فرائضها ونوافلها ، جاءه إبليس من ناحية المال ، ويوسوس له حتى لا يخرج الزكاة ، ويقتر ويأكل حقوق الناس ، مُدخلاً السرور على نفسه بأن هذه الطريقة تزيد ما عنده ، وتجعله غنيًا آمنًا مطمئنًا : ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾﴾ [ النساء : ٣٨ ] .

والصدقة لا تنقص المال ، بل تزيده وتضع البركة فيه ، وتجعله يزداد وينمو ، والمال مال الله ينتقل من يد إلى يد ، وحينما يحين الأجل يتركه الإنسان ويمضي ، وللشيطان خطوات في هذا ، فيمنعه من الصدقات أولاً ، ثم يمنعه من الزكاة ثانيًا ، ثم يُغريه بأكل الأموال المتشابهة ، ثم يغريه بأكل المال الحرام ، ونهب أموال الناس ، ثم يُغريه بالتوسع في الشهوات ، ثم يُدخله المحرمات ، ثم يهون عليه ارتكاب الكبائر ، ثم تبدأ المعاصي تزيد

شيئًا فشيئًا ، حتى تغطي القلب كله ، وتمنعه من ذكر الله ، وامتثال أوامره ولا يتركه الشيطان حتى يخُرجه من الإسلام : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾ ﴾ [ النور : ٢١ ] .

وإن وجد الشيطان في المؤمن تشددًا من ناحية الصلاة والزكاة ، ووجد ضعفًا من ناحية النساء أتاه من ناحية هذا الضعف ، فيظل يزين له امرأة خليعة أو صالحة ، ويزينها في نظره ، ويغريه بسماع صوتها ، ورؤية جمالها ، ويوسوس له ولها ، حتى يسقط في الحرام ، ومتى سقط في الزنا سقط في الكبائر .

فإن كان العبد قويًا في هذه النواحي كلها ، جاء إبليس يزين له مجالس الخمر، ومجالس السوء والغيبة والنميمة وهكذا حتى يظفر به .

فليحذر العبد من خطوات الشيطان التي تهلكه وتجره إلى نار جهنم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾ ﴾[النور:٢١] .

وهناك فرق بين معصية يوحي بها الشيطان ، ومعصية تصر عليها النفس .

فإذا حدثتك نفسك بمعصية ، وأصرت عليها ، فاعلم أن النفس هي التي قادتك إلى هذا اللون من المعصية ، لأن النفس تريد من صاحبها أن يحقق لها رغباتها وشهواتها ، والنفس أمارة بالسوء : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ ﴾[يوسف:٥٣] .

أما إبليس فليس على هذا المنوال ، فإبليس يريد من المؤمن أن يكون عاصيًا بأي شكل من أشكال المعصية ، لا يهمه نوع معين من العصيان في ذلك ،

فإذا طرق الشيطان لك بابًا ، ووجدك فيه متشددًا متمسكًا لا تُصغي إليه ، انطلق يطرق بابًا آخر ، يجدك فيه مُصغيًا إليه ، قابلاً منه ، وهكذا ينتقل من باب إلى باب ، حتى تسقط في قبضته ، وتستمع إليه ، وتستجيب لأمره .

وكل عبادة الأصنام والأوثان والقبور ، وكل معصية تقع من الإنسان ، فإنما هي عبادة للشيطان ، لأنه هو الذي أمر بها الإنسان ، وزينها له ، وغرَّه بها ، فأطاعه الإنسان ، وعصى ربه الذي حذره منه كما قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾[يس:٦٠-٦٢] .

ومن عصى الرحمن ، وأطاع الشيطان ، فليُبشر بالعقوبة والعذاب الأليم : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾[البقرة:٢٥٧ ] .

- **فقه تسليط الشيطان على الإنسان :**

الناس فريقان :

أولياء الرحمن ، وأولياء الشيطان ، ولهؤلاء صفات ، ولهؤلاء صفات .

والله ﷻ إنما يسلط الشيطان على الذين يتولونه ، والذين هم به مشركون ، فلما تولوه من دون الله ، وأشركوا بالله ، عوقبوا على ذلك بتسليطه عليهم : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾[النحل:٩٨-١٠٠] .

وهذه عقوبة خلو القلب ، وفراغه من الإيمان ، والإخلاص ، والإنابة العاصمة من ضدها ، وإخلاص الدين يمنع من سلطان الشيطان ، وإخلاص القلب لله مانع له من فعل ما نهى الله عنه ، وإلهام البر والتقوى ثمرة الإخلاص ، وإلهام الفجور عقوبة خلوه من الإخلاص : ﴿ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ ﴾ [ الزمر :٢- ٣ ] .

**ولله سبحانه عقوبتان :**

**إحداهما** : جعل العبد خاطئًا مُذنبًا لا يحس بألم العقوبة ومضرتها ، لموافقتها شهوته وإرادته ، وهي في الحقيقة من أعظم العقوبات .

**الثانية** : العقوبات المؤلمة بعد فعل السيئات، كما قال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ۝٤٤ ﴾[الأنعام:٤٤] .

فالعقوبة الأولى : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ ﴾[الأنعام:٤٤] .

والعقوبة الثانية : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ۝٤٤ ﴾[الأنعام:٤٤] .

فالعقوبة الثانية ترتبت على الأولى ، لكن العقوبة الأولى موافقة لهوى العبد وإرادته ، فلهذا لا يشعر بها ، والثانية مخالفة لما يحبه ويلتذ به ، ولذلك يتألم بها .

والله سبحانه حكيم عليم ، إنما وضع العقوبة في محلها الأولى بها ، الذي لا يليق بها غيره ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، ومن يستحق الكرامة ، ومن يستحق الإهانة ، والإخلاص لله ، والمحبة له ، والإنابة إليه ، محض منته وفضله على عباده ، وهو من أعظم الخير الذي في يده ، فالخير كله في يديه ، لا يقدر أحد أن يأخذ من الخير إلا ما أعطاه الله ، ولا يتقي من الشر إلا

ما وقاه الله : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[النحل:٥٣] .

فمن لم يخلق الله ذلك في قلبه ، ولم يوفقه له ، ولا سبيل له إليه بنفسه ، فلا يكن منعه منه ظلمًا ، قيل لا يكون منه سبحانه ذلك ظلمًا أبدًا ، وإنما يكون المانع ظالمًا إذا منع غيره حقًا لذلك الغير عليه ، وهذا هو الذي حرمه الرب على نفسه كما قال سبحانه : « يا عبادي إنِّي حرَّمتُ الظلمَ على نفسي وجعلتُهُ بينكُمُ محرمًا فلا تَظَالموا » . أخرجه مسلم[1] .

وأما إذا منع غيره مما ليس حقًا له ، بل هو محض فضله ومنته عليه لم يكن ظالمًا بمنعه كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾[النساء:٤٠] .

والشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهم بالخير ، أو يدخل فيه ، فهو يشتد عليه حينئذ ، ليقطعه عنه ، ويحرمه من ثوابه ، ورضوان ربه ، وكلما كان الفعل أنفع للعبد ، وأحب لله تعالى ، كرهه الشيطان له أكثر ، فالشيطان واقف للإنسان على طريق كل خير ، ولاسيما عند قراءة القرآن، ومناجاة الله، والقيام بين يديه : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾[ فاطر : ٦ ] .

وقال النبي ﷺ : « إنَّ عِفريتًا مِن الجِنِّ تفَلَّتَ عليَّ البارحةَ ، أو كلمةً نحوها ، ليقطَعَ علي الصَّلاةَ ، فأمكَنَني الله منه ، وأردتُ أن أربطَه إلى ساريةٍ من سواري المَسجِد ، حتى تُصبِحوا وتنظُروا إليه كُلُّكم ، فذكَرْتُ قولَ أخي سليمان : رَبِّ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي » . متفق عليه[2] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٥٥/ ٢٥٧٧).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٤٤٩)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٥٤١).

وقد أمر الله سبحانه العبد أن يحارب عدوه الذي يقطع عليه الطريق ، ويستعيذ بالله تعالى منه ، ويواصل سيره في طاعة ربه كما قال سبحانه : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [النحل:٩٨-٩٩] .

فليس للشيطان طريق ولا سلطان يتسلط به على الذين آمنوا ، لا من جهة الحجة ، ولا من جهة القدرة ، إنما سلطان الشيطان على أهل الشرك ، وعلى من تولاه بالإغواء والإضلال ، وتمكنه منهم بحيث يؤزهم إلى الكفر والشرك ويرغبهم فيه ، ولا يدعهم يتركونه كما قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾ [مريم:٨٣] .

ولكن ليس للشيطان عليهم سلطان حجة وبرهان ، وإنما استجابوا له بمجرد دعوته إياهم ، لما وافقت دعوته أهواءهم وأغراضهم ، فهم الذين أعانوا على أنفسهم ، ومكنوا عدوهم من سلطانه عليهم بموافقته ومتابعته ، فلما أعطوا له أيديهم ، واستسلموا له ، سُلط عليهم عقوبة لهم ، وسنة الله تبارك وتعالى ألا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلًا كما قال سبحانه : ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾ [النساء:١٤١] .

وهذا هو الأصل ، ولكن المؤمنين يصدر منهم من المعاصي والمخالفات التي تضاد الإيمان ، ما يصير به الكافرين عليهم سبيلا ، بحسب تلك المخالفات ، فهم الذين يتسببون إلى جعل السبيل عليهم كما تسببوا إليه يوم أحد بمعصية الرسول ﷺ من قبل الرماة ومخالفته ، فأصابهم ما أصابهم ، واستزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا .

والله سبحانه لم يجعل للشيطان على العبد سلطانًا ، حتى جعل العبد إليه سبيلاً إليه في طاعته ، والشرك به ، وموالاته ، فجعل الله حينئذ للشيطان على الإنسان تسلطًا وقهرًا ، واحدة بواحدة : ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾[ الأحزاب :٦٢ ] .

فالتوحيد وفروعه ، والإيمان وشعبه ، من التوكل والإخلاص واليقين ، يمنع سلطان الشيطان على الإنسان ، والشرك وفروعه ، من البدع والمعاصي ، والمنكرات والفواحش يوجب سلطانه عليه كما قال سبحانه : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾[النحل:٩٨-١٠٠] .

والجميع بقضاء من أزمة الأمور بيده ، ومردها إليه ، وله الحجة البالغة سبحانه فيما قضى وقدَّر ، وفيما حكم وشرع : ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾[الملك:١] .

# ٧- الخزانة السابعة

- **فقه تسليط الشيطان على الإنسان:**

**الإرسال في القرآن نوعان :**

**الأول** : إرسال كوني قدري .

**الثاني** : إرسال ديني شرعي .

فالإرسال الكوني ، كما يرسل الله الرياح ، ويرسل المياه على الأرض ، ويرسل الصواعق ، فيصيب بها من يشاء ، وإرسال الشياطين على الكافرين كما قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾ [مريم:٨٣] .

فهذا الإرسال كوني قدري كإرسال الرياح ، فهو إرسال تسليط ، فلما كفروا عاقبهم الله بتسليط الشياطين عليهم ، فأُرسلوا عليهم ، وقيدوهم بكفرهم كما قال سبحانه : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [فصلت: ٢٥] .

فقيض الله لهؤلاء الكفار ، بسبب كفرهم وجحدهم الحق ، قرناء من الشياطين ، يزينون لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ، فالدنيا زخرفوها بأعينهم ، ودعوهم إلى لذاتها ، وأغروهم بشهواتها المحرمة ، حتى افتتنوا فأقدموا على معاصي الله ، وسلكوا ما شاءوا من محاربة الله ورسوله وأوليائه ، والآخرة بعدوها عليهم ، وأنسوهم ذكرها ، ووسوسوا لهم بعدم وقوعها ، فترحل خوفها من قلوبهم ، فقادتهم الشياطين بشهوات الدنيا، وشغلتهم بها، حتى غفلوا عن الآخرة ووقعوا في الكفر والشرك ، والبدع والمعاصي ،

وجر غيرهم إليها كما قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾[مريم:٨٣] .

وهذا التسليط من الله للشياطين على الكافرين والمكذبين والعصاة ، بسبب جحودهم الحق ، وإعراضهم عن ذكر الله وآياته كما قال سبحانه : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[الزخرف:٣٦-٣٧] .

أما الإرسال الشرعي فكما أرسل الله رسله للبشر بالدين الحق ، يدعونهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والكفر بما سواه كما قال سبحانه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[التوبة:٣٣] .

**فالإرسال نوعان :**

**الأول** : إرسال ديني ، يحبه الله ويرضاه كإرسال الرسل والأنبياء إلى عباده .

**الثاني** : إرسال كوني وهو نوعان :

نوع يحبه الله ويرضاه ، كإرسال الملائكة ، لتدبير أمور خلقه .

ونوع لا يحبه ، بل يسخطه ، كإرسال الشياطين على الكفار ، لما أعرضوا عن دين الله .

وكل عبد عاجز عن جلب المنافع الدينية والدنيوية ، ولذلك شُرع له أن يذكر الله على كل أحيانه ، ويستعين به في جميع أحواله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾[ الأحزاب :٤١- ٤٢ ] .

فيذكر اسم الله في كل عمل خاص ، عند تلاوة القرآن الذي فيه منافع الدنيا والآخرة ، فيقول بسم الله الرحمن الرحيم عند قراءة كل سورة بعد أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، وكذلك العبد عاجز عن دفع جميع

المضار الدينية والدنيوية، وأعظم ما يسبب هذه المضار الشيطان ، لحسده للإنسان ، ولهذا شُرع للعبد أن يستعيذ بالله منه ، فإنه منبع الشرور والآثام ، خاصةً في تلاوة القرآن الذي فيه كل خير ونعمة للإنسان كما قال سبحانه : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [النحل:٩٨] .

فلا قادر على دفع المضار الدينية والدنيوية إلا الله وحده : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف:٥٤ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [ الأنعام :١٧- ١٨ ] .

فليستعذ العبد بربه ، وليستعذ بالله من كل شر وشيطان .

والجن الإنس كل منهم يستمتع بالآخر ، فاستمتاع الجن بالإنس طاعتهم لهم فيما يأمرونهم به من الكفر والفسوق والعصيان ، فهذا أكثر أغراض الجن من الإنس .

واستمتاع الإنس بالجن أنهم أعانوهم على معصية الله تعالى والشرك به بكل ما يقدرون عليه من التحسين ، والتزيين ، وقضاء الحوائج ، واستخدامهم بالسحر والعزائم وغيرها ، فأطاعهم الإنس فيما يرضيهم من الشرك والفواحش والفجور ، وأطاعهم الجن فيما يرضيهم من التأثيرات والإخبار ببعض المغيبات .

فتمتع كل الفريقين بالآخر ، شياطين الجن ، وشياطين الإنس ، فالفاسق يستمتع بالشيطان بإعانته على أسباب فسوقه ، والشيطان يستمتع به في قبوله منه ، وطاعته له ، ويُسر بذلك ، فالمشرك يستمتع به الشيطان في شركه به ،

وعبادته له ، ويستمتع هو بالشيطان في قضاء حوائجه ، وإعانته له ، فكل من الثقلين ممتحن بالآخر ، ومبتلى به .

فما أعظم إضلال الشياطين لبني آدم ، وما أكثر ما أفسدوه منهم ، وسوف يسأل الله جميع الثقلين من الإنس والجن من ضل ، منهم ومن أضل ، عما عملوا واقترفوا من الآثام والفواحش كما قال سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [الأنعام:١٢٨] .

فلما بلغوا الأجل : وهو يتناول أجل الموت ، وأجل البعث ، قال الله لهم : ﴿ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ [الأنعام:١٢٨] .

فانقضى زمن التمتع ، انقضى أجله ، وبقي زمن العقوبة ، وانقضى زمن الشرك والكفر ، وبقي زمن العذاب والعقوبة : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النحل:٦٣] .

# فقه خطوات الشيطان :

خطوات الشيطان وطرقه التي يدعو الناس إليها ، يدخل فيها سائر المعاصي المتعلقة بالقلب واللسان والجوارح ، فالشيطان يأمر بكل ما تستفحشه العقول والشرائع ، من الذنوب العظيمة ، والكبائر المهلكة ، وكل ما تنكره العقول ولا تعرفه ، من المعاصي والفواحش والآثام .

ولولا فضل الله ورحمته على العباد ما تطهر أحد من اتباع خطوات الشيطان ، لأن الشيطان يسعى هو وجنده في الدعوة إليها ، والنفس ميالة إلى السوء ، أمارة به ، والنقص مستولٍ على العباد من جميع الجهات ، فلو خَلُوا من هذه الدواعي ما زكى أحد بالتطهر من الذنوب والسيئات ، وإنما بفعل الحسنات ، ولكن الله بفضله ورحمته يزكي من يعلم أنه يتزكى بالتزكية، كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١ ﴾[النور:٢١] .

وقد أمر الله المؤمنين أن يدخلوا في السلم كافة ، ويعملوا بجميع شرائع الإسلام ، ولا يتركوا منها شيئًا ، فيفعل المسلم كل ما قدر عليه من الأعمال الصالحة ، وما يعجز عنه من الأعمال ينويه ، فيدركه بنيته ، لأن الأعمال بالنيات ، ولا يمكن الدخول في السلم كافة إلا بإتباع شريعة الرحمن ومخالفة طرق الشيطان في العمل بمعاصي الله ، فالشيطان يأمر بكل سوء وفاحشة ، وبكل منكر وضرر ، وبكل محرم وقبيح : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ ﴾[البقرة:٢٠٨] .

والسبل التي يسلكها الإنسان أربعة ؛ اليمين ، والشمال ، والأمام ، والخلف ، وأي سبيل سلك الإنسان من هذه السبل ، وجد الشيطان عليها راصدًا له .

فإن سلكها الإنسان في طاعة ، وجد الشيطان عليها ، يثبطه عنها ، ويبطئه ، ويعوقه .

وإن سلكها في معصية ، وجده عليها حاملًا له ، خادمًا ، ومُزينًا ، ومُعينًا كما قال سبحانه عن الشيطان : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧ ﴾[الأعراف:١٦ -١٧ ] .

فالشيطان يضل الناس ، ويغويهم ، ويستعمل لتحقيق مراده منهم هذه الجهات الأربع ، فبقي للإنسان جهتان ؛ الفوق والتحت ، لا يقدر عليهم الشيطان .

فإذا رفع الإنسان يديه إلى الله في الدعاء على سبيل الخضوع ، أو وضع جبهته على الأرض ساجدًا لله على سبيل الخشوع والخضوع ، غُفرت ذنوبه ، لأن الباب مفتوح ، والدعاء مسموع ، والتوجه إلى الله حاصل .

فالعلو جهة الربوبية ، والسجود جهة العبودية والذلة لرب البرية ، والشيطان لا يستطيع أن يدخل في هاتين الجهتين : ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ١٠٠ ﴾[النحل:٩٩-١٠٠] .

وخطوات الشيطان في إفساد الدين ، والأخلاق ، والعباد ، كثيرة جدًا ، وأخطرها وأشدها ما كان مُزينًا للناس بصورة الحق .

ومن ذلك أن الله ﷻ أمر بإخلاص الدين لله وحده لا شريك له ، ونهى عن الشرك بالله ، ثم أظهر الشيطان للمسلمين الإخلاص في صورة تنقص الصالحين ، والتقصير في حقهم ، وأظهر لهم الشرك بالله في صورة محبة الصالحين ، وأتباعهم .

ومنها أن الله سبحانه أمر بالاجتماع في الدين ، ونهى عن التفرق فيه ، ثم أظهر الشيطان للأمة أن الافتراق في أصول الدين وفروعه ، هو العلم والفقه في الدين ، فتحول العلم الشرعي إلى خلاف وجدل ، فرق الأمة إلى شيع وأحزاب ومذاهب متناحرة ، حتى صار الأمر بالاجتماع في الدين مستحيلاً لا يقوله إلا أحمق أو مجنون : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ١٥٩ ﴾ [الأنعام:١٥٩] .

ومنه أن الله سبحانه أمر بالسمع والطاعة لمن تأمر علينا ، ولو كان عبدًا حبشيًا إلا في معصية الله ، ثم صار هذا الأصل بسبب كيد الشيطان لا يُعرف عند كثير ممن يدعي العلم ، فكيف العمل به ؟ .

ومنه أن العلم الشرعي ، وهو ما جاء عن الله ورسوله ﷺ ، ثم أظهر الشيطان للأمة أن العلم والفقه في الدين هو البدع ، ومعرفة الخلاف ، وأصول الجدل ، وصار العلم الذي فرضه الله على الخلق ومدحه ، لا يتفوه به إلا منافق أو جاهل بزعمهم ، وصار من أنكره وعاداه ، وجدَّ في التحذير منه ، هو الفقيه العالم .

ومنها ترك القرآن والسنة ، وإتباع الهوى والآراء المختلفة بحجة أن القرآن والسنة لا يعرفهما إلا العالم المجتهد المطلق، والمجتهد هو الموصوف بكذا وكذا مما يتعذر وجوده .

ومنها أن الله ﷻ ذكر أنه أنزل القرآن ، ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور ، فزين لهم الشيطان أن الأمر ضد ذلك ، وأنهم ما تأخروا إلا بسبب التمسك بالقرآن : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل:٨٩ ] .

وذكر سبحانه أن الإيمان سبب للعلو والعز في الدنيا والآخرة : ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٩] .

فأظهر الشيطان للناس أن العلو والرفعة والشرف ، بتعلم علم اليهود والنصارى ، فأقبلوا على ذلك ، وجفا أكثرهم كتاب ربه ، وسنة نبيه ﷺ كما هو حاصل في كل مكان وزمان : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [ آل عمران : ١٠٠- ١٠١ ] .

وأنزل الله القرآن عربيًا ، لعلهم يفهمونه ، فزين لهم الشيطان ضد ذلك ، فأقبلوا على تعلم الكتب الأعجمية ، لظنهم سهولتها ، وصعوبة فهم القرآن.

ومنها أن الله ذكر أن الأمة لو عملت بالدين الحق، لصلحت دنياها وأخراها ، فزين لهم الشيطان ضد ذلك .

وذكر سبحانه أنه أنزل القرآن تفصيلاً لكل شيء ، وأنه من يتق الله يجعل له مخرجًا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، فأظهر لهم الشيطان الأمر بخلاف ذلك .

وذكر الله أن تزوج الفقير سبب لغناه ، وأن صلة الرحم ، وإخراج الزكاة ، سبب لزيادة المال وكثرته ، فظن الأكثر أن الأمر بخلاف ذلك ، وتُركت الزكاة خوفًا من نقصه وغير ذلك مما زينه الشيطان ، وأضل به العباد مما عمَّ

وطمَّ :﴿ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٠ ﴾ [سبأ:٢٠] .

وكيد الشيطان خفيٌ ماكر ، فكم اصطاد به من الرجال ، والنساء ، والعلماء ، والأغنياء ، والخاصة ، والعامة؟ :﴿ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ٦٢ ﴾[يس:٦٠-٦٢] .

- **الأبواب التي يدخل منها الشيطان على الإنسان :**

المداخل التي يأتي الشيطان من قبلها للإنسان ثلاثة :

باب الشهوة ، وباب الغضب ، وباب الهوى .

فالشهوة بهيمية، وبها يصير الإنسان ظالمًا لنفسه، ومن نتائجها الحرص والبخل.

والغضب سبعية ، وهي آفة أعظم من الشهوة وأشد خطرًا ، وبالغضب يصير الإنسان ظالمًا لنفسه ، وظالما لغيره ، ومن نتائجه العجب والكبر .

والهوى شيطانية ، وهو آفة أعظم من الشهوة ، وأعظم من الغضب ، وبالهوى يكون الإنسان ظالما لنفسه ، وظالما لغيره من المخلوقات ، ويتعدى ظلمه إلى خالقه ، بجحد حقه بالكفر والشرك والمعاصي ، ومن نتائجه الكفر والبدعة والمعصية .

وأكثر ذنوب الخلق بهيمية ، لعجزهم عن غيرها ، ومنها يدخلون إلى بقية الأقسام :﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣ ﴾[يوسف:١٠٣] .

وقال الله تعالى :﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَۚ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢ ﴾[هود:١١٢] .

وجميع الشرور في العالم إنما سببها الشيطان ، فهو يجتهد على بني آدم بكل ما يستطيع من وسائل ، ليخرجهم من الحق إلى الباطل ، ومن الإيمان إلى الكفر ، ومن التوحيد إلى الشرك ، ومن النور إلى الظلمات ، ومن السنة إلى البدعة ومن الطاعات إلى المعاصي : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾[مريم:٨٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾[البقرة:٢٥٧ ] .

- **شرور الشيطان :**

للشيطان خطوات وطرق ووسائل ، يسلكها لإضلال الناس عن الهدى ، وللشيطان شرور كثيرة ، ولكن ينحصر شره في **سبع خطوات** ، ولا يزال بابن آدم حتى يوقعه بواحدة أو أكثر .

**وهي كما يلي :**

**الشر الأول** : شر الكفر والشرك ، ومعاداة الله ورسوله ، فلا يزال الشيطان يراود الإنسان ، حتى يخرجه من الإيمان إلى الكفر ، ومن التوحيد إلى الشرك، وهذه أعظم شروره وأكبرها وأخطرها فإن عجز عنه نقله إلى ما بعده.

وهو **الشر الثاني** : وهو شر البدعة التي هي باب الكفر والشرك ، فإن يأس منه نقله إلى ما بعده .

وهو **الشر الثالث** : شر الكبائر على اختلاف أنواعها ، فإن عجز عنه نقله إلى ما دونه.

وهو **الشر الرابع** : شر الصغائر من الذنوب التي ربما اجتمعت على الإنسان فأهلكته ، فإن عجز عنه نقله إلى ما دونه .

وهو **الشر الخامس** : وهو إشغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب ، عن الطاعات الشرعية ، فإن عجز عنه نقله إلى ما دون ذلك .

وهو **الشر السادس** : وهو إشغاله بالعمل المفضول ، عن العمل الفاضل ، كإشغاله بالنوافل ، حتى تفوت الفرائض ، وبتوزيع المال ، حتى تفوت صلاة الجماعة ، فإن أعجزه العبد في كل ما سبق نقله إلى آخر ما يقدر عليه .

وهو **الشر السابع** : بأن يسلط عليه حزبه من شياطين الإنس والجن ، بأنواع الأذى ، والتكفير ، والتضليل ، والتبديع ، والتفسيق ، والتحذير منه ، وقصد إخماده ، ليشوش عليه قلبه ، ويشغل بحربه فكره ، وليمنع الناس من الانتفاع به ، فحينئذ يلزم المسلم أن يلبس لامة الحرب ، ولا يضعها عنه إلى الموت ، ومتى وضعها أُسرع أو أُصيب ، فلا يزال في جهاد حتى يلقى الله بثواب المجاهدين : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩ ﴾ [العنكبوت:٦٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥ ﴾ [ الحجرات :١٥ ] .

والشيطان يريد الإنسان عدو مبين ، وهو الآن يُسير الأمة ، ويخطو بها ، للتوسع في الحلال والمباحات والشهوات ، والحرام حد المباحات ، فلا يزال الشيطان بالإنسان حتى ينقله من المباحات إلى المحرمات ، لتكميل شهواته .

والكفر حد المحرمات ، فلا يزال الشيطان بالإنسان حتى ينقله من المحرمات إلى الكفر ، لتكميل شهواته ، وإضاعة أوامر الله : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا

ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنعام:٤٤-٤٥] .

فهذه خطوات الشيطان ، التوسع في المباحات، ثم الدخول في المحرمات ، ثم الكفر ، وترك أوامر الله من أجل تكميل الشهوات ، ثم الدعوة إلى الكفر والمعاصي كما يفعل الشيطان ، فليحذر العبد من كيد الشيطان ومكره : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [البقرة:١٦٨-١٦٩] .

# ٨- الخزانة الثامنة

## فقه خطوات الشيطان :

قلب الإنسان كالحصن ، والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن ، ويملكه ، ويستولي عليه ، ويُقيم فيه ، ويطرد من فيه ، ولا يمكن حفظ الحصن إلا بحراسة أبوابه ، ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يعرفها ، وأبواب الشيطان ومداخله التي يدخل منها إلى القلب صفات العبد .

فمن أبوابه العظيمة التي يُهلك بها الناس باب الحسد والحرص ، فإن الشيطان يحسن عند الحريص كل ما يوصله إلى شهوته ، وإن كان فاحشًا أو منكرًا أو حرامًا : ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ ﴾ [ النساء :١١٧-١٢١ ] .

ومنها باب الغضب والشهوة والحدة ، فالغضب يحرف العقل ، والشهوة بحر يركض فيه الشيطان ، وإذا ضعف جند العقل ، هجم الشيطان ، فلعب بالإنسان وزجه فيما حرم الله .

ومنها حب التزين الثيابي ، والأثاثي ، والمساكن ، والمراتب ، فلا يزال الشيطان بالإنسان ، حتى يحصر عمره وأوقاته في التشييد والتزيين .

ومنها باب الشبع ، فالشبع يقوي الشهوة ، ويشغل عن الطاعة .

ومنها باب الطمع ، فإن من طمع في الشخص ، طمع في الثناء عليه بما ليس فيه ، وداهنه فلم يأمره بالمعروف ، ولم ينهه عن المنكر .

ومنها باب العجلة ، وترك التثبت ، ليقع المسلم في الأخطاء والآثام والمحرمات .

ومنها حب المال ، وحب المال إذا تمكن من القلب أفسده ، وحمله على طلب المال من غير وجهه ، وأخرجه إلى البخل ، وخوف الفقر ، فمنع الحقوق اللازمة .

ومنها سوء الظن بالمسلمين ، فإن من حكم على مسلم بسوء ظنه احتقره ، وأطلق فيه لسانه ، ورأى نفسه خيرًا منه .

وسوء الظن يدل على خبث الظانّ ، لأن المؤمن يطلب المعاذير للمؤمن ، والمنافق يبحث عن عيوبه ، وعلى المسلم أن يحترس من مواضع التهم ، لئلا يُساء بها الظن .

وعلاج هذه الآفات يكون بسد المداخل والأبواب التي يدخل منها دخان الشيطان وغباره ، وتطهير القلب عن الصفات المذمومة بالتوبة والاستغفار كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ ﴾[البقرة:٢٠٨] .

وقال سبحانه : ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٦٨ ﴾[البقرة:٢٦٨] .

وإذا غلب على الإنسان هواه ، استسلم للشيطان وجنوده ، فقادوه حيث شاءوا ، **وله معهم حالتان** :

**إحداهما** : أن يكون من جندهم وأتباعهم ، وهذه حال العاجز الضعيف .

**الثانية** : أن يصير الشيطان من جنده ، وهذه حال الفاجر القوي المتسلط الداعية المتبوع المبتدع ، فيصير إبليس وجنده من أعوانه وأتباعه .

وهؤلاء هم الذين غلبت عليهم شقوتهم ، واشتروا الحياة الدنيا بالآخرة .

وهذه الحالة هي حالة جهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء ، وعمل أصحابها المكر ، والكذب ، والخداع ، والغرور ، والتسويف بالعمل ، وطول الأمل ، وإيثار العاجل على الآجل : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [البقرة:١٦] .

**وهؤلاء أئمة جنود الشيطان ، وهم أنواع شتى :**

فمنهم المحارب لله ورسوله ، الساعي في إبطال ما جاء به الرسول ﷺ ، يصد عن سبيل الله ، ويبغيها عوجًا .

ومنهم المقبل على دنياه وشهواته فقط .

ومنهم المنافق الذي يأكل بالكفر وبالإسلام .

ومنهم الماجن الذي قطع أنفاسه بالمجون واللهو واللعب ، إلى غير ذلك من أصناف المرتدين الذين اتبعوا شهواتهم ، فسلط الله عليهم من كان حقهم أن يتسلطوا عليه ، وهو الشيطان ، وجعلهم تحت قهره وتصرفه وسلطانه ، يُسخرهم حيث شاء ، ويسخر منهم ، ويزعجهم إلى كل معصية وفاحشة وشر : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾ [مريم:٨٣] .

وشياطين الإنس والجن منهم من يختار الكفر ، والشرك ، والمعاصي ، وإبليس وجنوده من الشياطين يشتهون الشر ، ويتلذذون به ، ويطلبونه ، ويحرصون عليه بمقتضى خبث أنفسهم ، وإن كان موجبًا لعذابهم وعذاب من يغوونه .

والإنسان إذا فسدت نفسه أو مزاجه يشتهي ما يضره ، ويلتذ به ، بل يعشق ذلك عشقًا يُفسد عقله ، ودينه ، وخلقه ، وبدنه ، وماله .

والشيطان هو نفسه خبيث ، فيتقرب إليه السحرة والكهان ، بما يحبه من الكفر والشرك والمعاصي ، وصار ذلك كله كالرشوة له ، فيقضي بعض أغراضه ، كمن يعطي غيره مالاً ليقتل له من يريد قتله أو يعينه على فاحشة أو سرقة : ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ٣٨﴾[النساء:٣٨] .

- **فقه كيد الشيطان للإنسان :**

الشيطان للإنسان عدو مبين ، فأيما سبيل سلكه الإنسان يمين أو شمال ، أمام أو خلف ، إلا وجد الشيطان عليه راصدًا له ، فإن سلكه في طاعة قطعه أعاقه ، وإن سلكه في معصية جملها وزينها له : ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ١٢٠﴾[النساء:١٢٠] .

وكيد الشيطان ضعيف ، وهو لا يضر إلا الضعيف : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾[النساء:٧٦] .

والشيطان كما أخرج آدم وزوجه من الجنة ، يريد أن يفتن ذريته كذلك بأنواع الفتن ، ويخرجهم من التوحيد إلى الشرك ، ومن الإيمان إلى الكفر ، ومن الطاعات إلى المعاصي ، ومن السنن إلى البدع ، وبذلك ينقلهم من أعمال أهل الجنة إلى أعمال النار، ويخرجهم من الجنة إلى النار كما أخرج أبويهم، وأغراهم بمعصية الله ، فليحذر العبد من فتنته كما أمره ربه : ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا

يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [ الأعراف :٢٧- ٢٨ ] .

فالشيطان للإنسان عدو مبين ، وقد كشف الله لنا عن هذه العداوة ، فهو يريد إضلال بني آدم وإهلاكهم ، وقد غرَّ أكثرهم ، فزين لهم عبادة الأصنام والأوثان ، والكواكب ، والأحجار ، والأشجار وغيرها ، وهم في الحقيقة إنما يعبدون الشيطان الذي زينها لهم ، وأمرهم بعبادتها : ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ ﴾ [ النساء :١١٧- ١٢١ ] .

وكما أن الشيطان عدو للإنسان ، فيجب على الإنسان أن يتخذه عدواً ، يجاهده ، ويخالفه ، ولا يطيعه أو يغتر به كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ [فاطر:٥-٦] .

وقد وعد الله ﷻ عباده المؤمنين على طاعته ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، بالمغفرة والرضوان ، أما الشيطان فوعده للناس أن يأمرهم بالشر ، ويخوفهم من فعل الخير ، وهذان الأمران جماع ما يطلبه الشيطان من الإنسان ، فإنه إذا خوف الإنسان من فعل الخير تركه ، وإذا أمره بالفحشاء وزينها له أرتكبها : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٨] .

والشيطان بمكره وكيده وتلبيسه يتلطف في دعوة الناس إلى الباطل ، ويأتيهم بصورة ناصح لهم ، مشفق عليهم ، فيشم قلب أبن أدم لينظر ماذا يحب ، وماذا يكره ، وماذا يريد ، وماذا يشتهي ، فيضع في قلبه كل سعى في رده عن الدين بالكلية ، ويضع فيه قوة سعى في حمله على مجاوزة الحق ، والزيادة على ما شرعه الله ورسوله ، ليقع في الظلم والعدوان .

وإن رأى في قلبه حب الشهوات ، شغله بالشهوات والزينات عن السنن والواجبات .

والشيطان في كل يوم ، بل في كل لحظة ، يصطاد كثيرًا من بني آدم ، ويرغبهم ويوقعهم في ألوان الفساد واللهو ، والزنا والسرقة ، والسكر والفواحش ، والظلم وسفك الدماء ، وذلك بالوسوسة والتزين ، والغرور والإغواء ، ولا يزال حتى تم له ما أراد ، وتبعه أكثر الناس كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[سبأ:٢٠] .

ونية الشيطان في الفساد والإضلال عالمية لجميع الناس ، في كل زمان ، وفي كل مكان ، فلا زال هو وجنوده وذريته يعد الناس ، ويمنيهم ، ويشاركهم في الأموال والأولاد ، ويجتهد عليهم جميعًا ليفسدهم : ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ ﴾[ النساء :١٢٠- ١٢١ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[ ص :٨٢- ٨٣ ] .

ونية النبي ﷺ وفكره لجميع البشرية ، كيف يؤمنون بالله ، ويعملون بالحق في الدنيا ، ويدخلون الجنة في الآخرة ، وفكر الشيطان وجهده على جميع البشرية ، كيف يكفرون بالله ، ويعملون بالباطل في الدنيا ، ويدخلون النار

في الآخرة : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾[ فاطر : ٦ ] .

وقد كاد الشيطان نفسه قبل كيده للأبوين ، وكاد ذرية نفسه ، وذرية آدم ، فكان مشئومًا على نفسه ، وعلى ذريته ، وعلى أوليائه من الجن والإنس .

أما كيده لنفسه ، فإن الله سبحانه لما أمر بالسجود لآدم ﷺ ، كان في امتثال أمره وطاعته سعادته وفلاحه ، وعزه ونجاته ، فسولت له نفسه الجاهلة الظالمة أن في سجوده لآدم تصغيراً لنفسه ، وتعظيماً لغيره : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ ﴾[الإسراء:٦١] .

فلما قام بنفسه هذا الهوس ، وهذا الخبث ، وقارنه الحسد لآدم لما خصه الله به من أنواع الكرامات دونه ، فإن الله خلق آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسكنه جنته ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه أسماء كل شيء ، فعند ذلك بلغ الحسد من عدو الله كل مبلغ ، فلما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم سجدوا كلهم إلا إبليس أبى وقال : ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [ص:٧٦] .

فعصى الشيطان الرب المعبود ، وجمع بين الجهل والظلم، والكبر والحسد، والكفر والمعصية ، فطرده الله ولعنه : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾[البقرة:٣٤] .

فأهان نفسه من حيث أراد تعظيمها ، ووضعها من حيث أراد رفعتها ، وأذلها من حيث أراد عزها ، وألمها من حيث أراد لذتها ، وفعل بنفسه ما لو اجتهد أعظم أعدائه في مضرته لم يبلغ ذلك منه ، فكيف يسمع منه العاقل ، ويقبل منه ، ويواليه ، ويطيعه : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ

مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف:٥٠] .

وأما كيده للأبوين آدم ﷺ ، وزوجه حواء ، فلم يزل يخدعهما ويعدهما ويمنيهما الخلود في الجنة ، حتى أقسم لهما أنه ناصح لهما ، فأطمئنا إلى قوله وأجاباه إلى ما طلب منهما ، فجرى عليهما من المحنة والخروج من الجنة ما جرى ، وذلك بمكره وكيده الذي جرى به القلم ، وسبق به القدر ، ولكل جزاؤه .

ورد الله سبحانه كيد الشيطان عليه ، وتدارك الأبوين برحمته ومغفرته فأعادهما إلى الجنة على أحسن الأحوال وأجملها ، وعاد عاقبة أمره عليه : ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [البقرة:٣٧].

وقال الله تعالى لإبليس : ﴿ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [ ص :٧٧- ٧٨ ] .

وأما كيد الشيطان لذرية أدم فلا يزال الشيطان بمكره وكيده يسوق الناس إلى المعاصي والمنكرات ، والفواحش والآثام ، ويفتح أسواق الباطل في كل مكان وزمان : ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ﴿١٢١﴾ ﴾ [النساء:١١٨-٢٢١] .

ومن كيد الشيطان للإنسان أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه ، فلا يجاهدونهم ، ولا يأمرونهم بالمعروف ، ولينهونهم عن المنكر ، وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾[آل عمران:١٧٥] .

ومن كيد الشيطان أنه يورد الإنسان الموارد التي يخيل إليه فيها أن فيها منفعته ومسرته ، ثم يصدره المصادر التي فيها عطبه ، ويتخلى عنه، ويسلمه، ويشمت به ، ويضحك منه ، كما فعل بالمشركين يوم بدر كما قال سبحانه : ﴿ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنفال:٤٨].

ومن كيده أنه يأمر الإنسان ، ويزين له السرقة والزنا والقتل والكفر ، ثم يتبرأ منه ، ويسلمه ، ويشمت به : ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾[الحشر:١٦] .

ثم يتبرأ الشيطان من جميع أوليائه في النار ، ويقول لهم : ﴿إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾ ﴾[ إبراهيم :٢٢].

أوردهم كل الموارد المهلكة، وتبرأ منهم كل البراءة، في وقت لا ينفع فيه الندم :

ومن مكائد الشيطان العظيمة أنه يسحر العقل حتى يكيده ، ولا يسلم من سحره إلا من شاء الله ، فيزين للعقل الفعل الذي يضره ، حتى يخيل إليه أنه من أنفع الأشياء له ، وينفر المسلم من الفعل الذي هو أنفع الأشياء له ، حتى يخيل له أنه يضره .

فسبحان الله ، كم فتن الشيطان بهذا السحر من إنسان ، وكم حال به بين القلب والإسلام والإحسان؟، وكم جلى الباطل ، وأبرزه في سورة حسنة؟ وكم شنع الحق ، وأخرجه في سورة مستهجنة؟ :

فهو الذي سحر العقول ، وألقى أربابها في الأهواء والبدع والظلالات ، وسلك بهم سبل الظلال ، وزين لهم عبادة الأصنام ، وقطيعة الأرحام ، ونكاح الأمهات ، ووأد البنات .

وهو الذي حسن الشرك والفسوق والعصيان لأدم وذريته ، فهو صاحب الأبوين حين أخرجهما من الجنة ، وصاحب قابيل حين قتل أخاه هابيل ، وصاحب قوم نوح حين أغرقوا ، وصاحب قوم عاد حين أهلكوا بالريح العقيم ، وصاحب قوم صالح حين أهلكوا بالصيحة .

وصاحب قوم لوط حين قلبت عليهم ديارهم ، ثم رجموا بالحجارة ، وصاحب فرعون وقومه حين أغرقوا ، وصاحب قريش حين هزموا وهلكوا في يوم بدر ، وهو صاحب كل هالك ومفتون إلى يوم القيامة .

ومن مكائد الشيطان العجيبة ، أنه يشام النفس حتى يعلم أي القوتين تغلب عليها ؛ قوة الإقدام والشجاعة ، أم قوة الإحجام والمهانة ، فإن رأى الغالب على النفس المهانة والإحجام أخذ في أضعاف همته ، وتثبيطه عن فعل المأمور به ، ويثقله عليه، ثم يهون عليه تركه حتى يتركه جملة، أو يقصر فيه ، ويتهاون به .

وإن رأى الغالب عليه قوة الإقدام ، وعلو الهمة ، أخذ يقلل عنده المأمور به ، ويوهمه أنه لا يكفيه ، وأنه يحتاج معه إلى مبالغة وزيادة ، فيقصر بالأول ويتجاوز بالثاني ، ليبعد العبد عن سلوك الصراط المستقيم ، ويسلك به صراط الجحيم : ﴿ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ٣٨ ﴾[النساء:٣٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ ﴾[البقرة:٢٠٨] .

وقال الله تعالى عن الشيطان : ﴿ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾[البقرة: ١٦٩] .

- **نزغات الشيطان :**

ما أمر الله ﷻ بأمر شرعي إلا وللشيطان فيه نزغتان ؛ إما إلى تفريط وتقصير ، وإما إلى مجاوزة وعلو ، ولا يبالي الشيطان بأيهما ظفر ، وقد هلك أكثر الناس في هذين الواديين ، وادي التقصير والتفريط ، ووادي المجاوزة والغلو ، وقليل منهم من يثبت على الصراط المستقيم الذي عليه الرسول ﷺ وأصحابه وأتباعه .

فاللهم ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾[ الفاتحة:٦-٧].

فقصر الشيطان بقوم في حق الأنبياء وورثتهم حتى قتلوهم ، وتجاوز بآخرين حتى عبدوهم .

وقصر بقوم حتى منعهم من طلب العلم الذي ينفعهم ، وتجاوز بآخرين حتى جعلوا العلم وحده هو غايتهم دون العمل به .

وقصر الشيطان بقوم في خلطة الناس حتى اعتزلوهم في الطاعات كالجمعة والجماعات ، والعلم والجهاد ، وتجاوز بآخرين حتى خالطوهم في الظلم والمعاصي والآثام .

وقصر بقوم عن الإتيان بواجبات الطهارة، وتجاوز بآخرين إلى حد الوسواس.

وقصر بقوم عن إخراج الزكاة ، وتجاوز بآخرين حتى أخرجوا جميع ما يملكون ، وصاروا كلاً على الناس .

وقصر بقوم عن تناول ما يحتاجون من الطعام والشراب واللباس حتى أضروا بأبدانهم وقلوبهم ، وتجاوز بآخرين حتى أخذوا فوق حاجتهم فأضروا بقلوبهم وأبدانهم .

وقصر بقوم حتى امتنعوا من ذبح شاة ليأكلوها ، وتجاوز بآخرين حتى جرأهم على سفك دماء الأنفس المعصومة .

وقصر بقوم حتى أطعمهم من العشب ونبات البرية دون غذاء بني آدم ، وتجاوز بآخرين حتى أطعمهم الحرام الخالص .

وقصر بقوم حتى زين لهم ترك سنة الرسول ﷺ في النكاح فرغبوا عنه بالكلية، وتجاوز بآخرين حتى ارتكبوا الزنا والفواحش وما قدروا عليه من الحرام .

وقصر بقوم حتى جفوا العلماء والشيوخ من أهل الدين والصلاح ، وأعرضوا عنهم ، وتجاوز بآخرين حتى عبدوهم مع الله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [ الزخرف :٣٦- ٣٧ ] .

وقصر بقوم حتى منعهم من قبول أقوال أهل العلم ، وتجاوز بآخرين حتى جعلوا الحلال ما حللوه والحرام ما حرموه ، وقصر بقم حتى قالوا إيمان أفسق الناس وأتقاهم كإيمان جبريل وميكائيل ، وتجاوز بآخرين حتى أخرجوا الناس من الإسلام بالكبيرة الواحدة .

وقصر الشيطان بقوم حتى عادوا أهل بيت رسول الله ﷺ، وقاتلوهم واستحلوا دمائهم ، وتجاوز بآخرين حتى ادعوا فيهم خصائص النبوة ، وربما ادعوا فيهم الإلهية : ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [ الإسراء :٥٣ ] .

وقصر باليهود حتى كذبوا بالمسيح ، ورموه هو وأمه بما برأهم الله منه ، وتجاوز بالنصارى حتى جعلوه ابن الله ، وجعلوه إلهًا يُعبد مع الله .

وقصر بقوم حتى أهملوا أعمال القلوب ، ولم يلتفتوا إليها ، وعدوها فضلاً ، وتجاوز بآخرين حتى قصروا نظرهم وعملهم عليها ، ولم يلتفتوا إلى كثير من أعمال الجوارح .

فلا إله إلا الله كم فتن الشيطان بهذا الكيد والمكر من خلق الله! : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يس:٦٠-٦٢] .

ومن مكائد الشيطان أنه يأمر الغني ، وصاحب الجاه ، أن يلقوا المساكين والضعفاء ، وذوي الحاجات بوجه عبوس ، لئلا يطمعوا فيهم ، ويتجرؤوا عليهم ، وتسقط هيبتهم من قلوبهم ، فيحرمهم بذلك من محبتهم ، وصالح أدعيتهم ، ومن كيده أنه يغري الناس بتقبيل يد العالم أو الزاهد، والتمسح به، والثناء عليه وسؤاله الدعاء حتى يرى نفسه ، ويعجبه شأنها ، فيفرح بذلك ، ويقع في قلبه حتى يظنه حقًا، وذلك الهلاك كله، وهو شر من أرباب الكبائر.

ومن كيده الذي بلغ به من الجهال ما بلغ الوسواس الذي كادهم به في أمر الطهارة والصلاة عند عقد النية ، حتى ألقاهم في الآصار والأغلال ، وأخرجهم من السنة إلى البدعة ، وخيل لبعضهم أنما جاءت به السنة لا يكفي حتى يضم إليه غيره ، فجمع لهم بكيده العظيم ، ومكره الخبيث ، بين هذا الظن الفاسد ، والتعب الجاري ببطلان الأجر أو نقصه .

ومن أعظم مكائد الشيطان التي كاد بها أكثر الناس ، وأوحاه إلى حزبه وأوليائه من الفتنة بالقبور ، حتى آل الأمر إلى أن عُبد أربابها من دون الله ، وعُبدت قبورهم ، واتخُذت أوثانًا ، وصُورت صور أربابها فيها ، ثم جُعلت الصور أجسامًا لها ظل ، ثم جُعلت أصنامًا ، وعُبدت مع الله تعالى ، يُطاف عليها ، ويُصلى عندها ، وتُسكب عندها العبرات ، وتُشكى إليها الحاجات وتحُلق عندها الرؤوس ، وتُذبح القرابين ، ويُسأل الميت فيها قضاء الحاجات ، وكشف الكربات ، وتُشد إليها الرحال من جميع الجهات ، فلله كم أضل الشيطان من بني آدم : ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾[الأنعام:٤٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾[المائدة:٧٦] .

ومن أعظم مكايده ما نصبه للناس ، ليعبدوه من دون الله من شجر، أو حجر، أو عين ، أو قبر أو غير ذلك ، والأزلام للتكهن وطلب علم ما إستأثر الله بعلمه ، فالأزلام للعلم ، والأنصاب للعمل ، فلا إله إلا الله كم خادع الشيطان بهذا العمل من البشر ، وأنساهم العهد والميثاق : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾[يس:٦٠-٦٢] .

ومن أعظم كيد الشيطان ومكره ، أنه ينصب لأهل الشرك قبرًا معظمًا يعظمه الناس ، ثم يجعله وثنًا يعبد من دون الله ، ثم يوحي لأوليائهن أن من نهى عن عبادته واتخاذه عيدًا ، فقد تنقصه ، وهضم حقه ، فيسعى الجاهلون في قتله وعقوبته وتكفيره ، فسبحان الله العظيم كم شيد الشيطان من القبور التي تعبد

من دون الله في العالم؟، وكم أغرى الشيطان بها كثيرًا من الناس حتى عبدوه من دون الله من خلالها؟

فوا أسفاه على النفوس والعقول التي انقادت لعدوها وعبدته من دون الله : ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنعام:٧١] .

ومن مكائد عدو الله ومصائده ، ما كاد به من قل نصيبه من العلم والعمل والدين ، وصاد به قلوب الجاهلين والمبطلين ، من سماع المكاء والتصدية والغناء ، والعزف على الآلات المحرمة ، الذي يصد به القلوب عن القرآن ، ويجعلها عاكفة عن الفسوق والعصيان : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [فاطر:٨].

وسماع الغنى والعزف من الرجال محرم ، أما سماعه من المرأة الأجنبية فهو أشد حرمة ، وأعظم فتنة : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾ [لقمان:٦-٧] .

ومن مكائد الشيطان التي كاد بها الإسلام وأهله ، الحيل والمكر والخداع الذي يتضمن تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله، وإسقاط ما فرضه الله، ومضادته في أمره ونهيه : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [البقرة:٨-١٠] .

ومن مكائده ومصائده ، ما فتن به عشاق الصور ، تلك البلية العظمى التي استعبدت القلوب لغير خالقها ، وملكت القلوب لمن يسومها سوء العذاب من عشاقها ، ودعت إلى موالاة كل شيطان مريد ، فأوسعت القلوب محنة ، وملأتها فتنة ، وحالت بينها وبين رشدها ومولاها .

ومحبة الصور المحرمة من موجبات الشرك ، وكلما كان العبد أقرب إلى الشرك ، وأبعد من الإخلاص ، كانت محبته بعشق الصور أشد ، فما أعظم تلاعب الشيطان بأكثر الخلق : ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النساء:١٢٠] .

فما أشد فتنته حيث أخرج لهم أنواع الكفر ، والفسوق ، والعصيان ، في كل قالب .

ومن أعظم مكائده ومصائده ، ما كاد به المشركين في عبادة الأصنام ، وتلاعب بكل قوم على قدر عقولهم ، فطائفة دعاهم إلى عبادة الأصنام من جهة تعظيم الموتى الذين صوروا تلك الصور على الأصنام على صورهم كما فعل بقوم نوح ، فأطاعوه وعبدو .

وإما جهلًا ، وإما عنادًا لأهل التوحيد ، فمنهم عباد الشمس ، وعباد القمر ، وعباد البقر ، وعباد الحجر ، وعباد الماء ، وعباد النبات ، وعباد النار ، وعباد النور ، وعباد الظلام : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [ الأعراف :١٩٤- ١٩٥ ] .

اتخذوا تلك الأصنام ، ليصلون عندها، ويطوفون بها، ويسألونها الحاجات، ويقربون لها القرابين ، ويقضون عندها الأوقات ، ويشدون إليها الرحال .

وزين لهم الشيطان ، وأوقع في نفوسهم ، أن هذه الأصنام تدبر أمر العالم العلوي والسفلي ، تدخل فيها الشياطين ، وتكلمهم وتخبرهم ببعض المغيبات ، وتدلهم على بعض ما يخفى عليهم ، وهم لا يرون الشياطين ، فيظنون أن الصنم نفسه هو المتكلم :﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٢٨ ﴾[الأعراف: ٢٧-٢٨] .

فإذا سمع العابد الخطاب والكلام من الصنم ، اتخذه إلهًا من دون الله ، وأضل الشيطان بمكره وكيده وتلاعبه ببني آدم ، أكثر أهل الأرض ، فهم مفتونون بعبادة الشيطان عن طريق الأصنام والأوثان ، ولم يتخلص منهم إلا الحنفاء الموحدون كما قال سبحانه :﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ٤٢ ﴾[الحجر: ٤٢].

# ٩- الخزانة التاسعة

## فقه كيد الشيطان لبني آدم :

الأمم التي أهلكها الله بأنواع الهلاك كلهم كانوا يعبدون الأصنام والأوثان التي زين الشيطان لهم عبادتها ، وأصل عبادة الأوثان والأصنام تشبيه المخلوق بالخالق في الإلهية ، حتى عبدوه من دون الله ، وجعلوه ندًا وعدلًا لله يعبدونه ، ويسألونه كما يسألون الله جل جلاله .

وزين الشيطان لقوم عبادة الملائكة ، فعبدوهم من دون الله ، ولم تكن عبادتهم في الحقيقة لهم ، ولكن كانت للشياطين الذين أمروهم وزينوا لهم ، فعبدوا أقبح خلق الله ، وحقهم باللعنة والطرد والذم وهم الشياطين : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سبأ:٤٠-٤١] .

فسبحان الله ما أعظم غفلة العباد ، وما أشد مكر الشيطان وكيده ، حتى جعل طوائف من بني آدم تعبد الأحياء الأموات ، والأنبياء والملائكة ، والإنس والجن ، والنبات والحيوان ، والنور والنار ، والجبال والتراب ، والكواكب والنجوم ، والمياه والفروج : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الزخرف:٣٦-٣٧] .

فما أخطر كيد الشيطان للإنسان كم أضل من العباد ، وكم أفسد من الأفراد والأمم والشعوب .

قال الله تعالى: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦٣ ﴾[النحل:٦٣] .

وأه لعبدة الأصنام والأوثان ، ماذا يعبدن من دون الله ، وماذا تملك لهم هذه الأصنام والأوثان : ﴿ إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١٧ ﴾[العنكبوت:١٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤ ﴾ [فاطر:١٣-١٤] .

وعباد الأصنام والأوثان ، وإن تألفوا وتحابوا عليها في الدنيا ، فهم يوم القيامة يكفر بعضهم ببعض ، ويلعن بعضهم بعض ، ويتبرأ كل من العابد والمعبود من الآخر كما قال سبحانه : ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٥ ﴾ [العنكبوت:٢٥] .

ومن كيد الشيطان للإنسان ، دفعه إلى إظهار كماله ، وعدم الاعتراف بتقصيره ، كي يسد عليه طريق الاستغفار والاستعاذة ، مثيرًا فيه أنانية النفس ، لتدافع عن ذاتها، فلا تستغفر الله، ولا تستعيذ به ، فتكون أضحوكة للشيطان.

ومن اتهم نفسه رأى عيوبها وتقصيرها ، ومن اعترف بتقصير نفسه استغفر ربه : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣ ﴾[يوسف:٥٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [ النساء :١١٠ ] .

ومن مكائد الشيطان العظيمة ، أنه يحجب بسيئة واحدة للمؤمن جميع حسناته ، وبذلك تفسد الحياة ، فإن الإنسان ينسى بتلقين الشيطان وبما يكمن في جبلته من الظلم ، مئات من حسنات أخيه المؤمن ، لأجل سيئة واحدة بدرت منه جهلاً أو نسيانًا ، فيبدأ بسبب الشيطان بمعاداته ، ويدخل في الآثام ، ومن مكائد الشيطان للناس ، أنه في أعمال الشر والفساد يزين للناس الصبر ، ويجعله حلوًا ، وفي أعمال الخير والإصلاح والدعوة والعبادة يجعل الصبر صعبًا مرًا .

ومن مكائده لابن آدم الحزن ، لأن الحزن يضعف القلب ، ويوهن العزم ، ويضر الإرادة ، ولا شيء أحب للشيطان من حزن المؤمن كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [المجادلة:١٠] .

فالحزن مرض من أمراض القلب ، يمنعه من نهوضه وسيره وتشميره .

وثواب الصبر عليه كثواب المصائب التي يبتلى بها العبد بغير اختياره كالمرض والألم ونحوها ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الزمر:١٠] .

ومن مكائد الشيطان ، أنه يريد من الإنسان الإسراف والتبذير في أموره كلها. فإن رآه مائلاً إلى الرحمة ، زين له الرحمة حتى لا يبغض ما أبغضه الله ، ولا يغار مما يغار الله منه .

وإن رآه مائلاً للشدة ، زين له الشدة في غير ذات الله ، حتى يترك من الإحسان والبر ، واللين والرحمة ، ما يأمره به الله ورسوله ، ويتعدى في الشدة ، فيزيد في الذم والبغض والعقاب على ما يحبه الله ورسوله .

**وبالإسراف والتبذير تحصل للعبد عقوبتان :**

**الأولى** : أن الله لا يحبه ، لأنه مسرف كما قال سبحانه : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ ﴾ [الأعراف:٣١] .

**الثانية** : أنه يصير أخًا للشيطان كما قال سبحانه : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ٢٦ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ٢٧ ﴾ [ الإسراء : ٢٦-٢٧ ] .

هذه هي أعظم مكائد الشيطان وشروره في الدنيا ، وفساده الذي أوقعه ومازال يوقعه ببني آدم في الدنيا .

أما في الآخرة فالأمر أعظم وأشد ، فإن الشيطان إذا قضي الأمر ، ودخل أهل الجنة الجنة ، ودخل أهل النار النار ، وقف خطيبًا في أهل النار لتتبرأ منهم قائلًا لهم : إن الله وعدكم وعد الحق على ألسنة رسله فلم تطيعوه ، فلو أطعتموه لأدركتم الفوز العظيم ، ووعدتكم الخير كذبًا ، فلن يحصل لكم ما منيتكم به من الآمال الباطلة ، وما كان عليكم من سلطان وحجة حين دعوتكم إلى مرادي، وزينته لكم، فاستجبتم لي إتباعًا لأهوائكم وشهواتكم .

فإذا كان هذا الأمر بهذه الصورة ، فلا تلوموني ، ولوموا أنفسكم ، فأنتم السبب ، وعليكم تحمل العقاب الذي وصلتم إليه ، وما أنا بمصرخكم ومغيثكم من العذاب والشدة التي أنتم فيها ، وما أنتم بمصرخي، ولا نافعي، فكل له قسط من العذاب ، وأنا الآن كفرت بما أشركتموني من قبل ،

وتبرأت من جعلكم لي شريكًا مع الله ، فلست شريكًا لله، ولا تجب طاعتي، وقد وصلت وإياكم إلى ما يعاقب به كل ظالم في نار الجحيم .

والظالمون لأنفسهم بطاعة الشيطان لهم عذاب أليم ، وهم فيه خالدون أبدا ، فيا لها من عقوبة ، وما أشدها من حسرة ، إذا سمعها أولياء الشيطان منه في سواء الجحيم ، حين يخطب فيهم كما قال سبحانه : ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢ ﴾[إبراهيم:٢٢] .

والمؤمن الذي نور الله بصيرته بنور الإيمان والتوحيد ، لا يسلط عليه الشيطان ، وكلما قرب منه أحرقه نور الإيمان والتوحيد .

أما أصحاب الأحوال الشيطانية فيحسبهم الجاهل أولياء للرحمن ، وإنما هم من أولياء الشيطان الذين أطاعوه في الشرك ، ومعصية الله ، والخروج عما بعث الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، فأطاعوه في أن خدمهم في إخبارهم ببعض المغيبات ، واغتر به من قل حظه من العلم والإيمان .

فهو عدو الله ورسوله وأوليائه ، وأحسن الظن بمن خرج عن سبيل الله وسنته ، وأساء الظن بمن اتبع سنة الرسول ﷺ ، وما جاء به .

فما أعظم تلاعب الشيطان بالمشركين ، حتى عبدوه وأطاعوه ، واتخذوه وذريته أولياء من دون الله ، وسيجزي الله الشيطان وأتباعه نار جهنم يوم القيامة كما قال سبحانه : ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ

لَنَآ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [الأنعام:١٢٨] .

فالفاسق يستمتع بالشيطان بإعانته له على أسباب فسوقه ، من الشهوات المحرمة ، والشيطان يستمتع به في قبوله منه ، وطاعته له ، فيسره ذلك ، ويفرح به ، فالمشرك يستمتع به الشيطان بشركه به ، وعبادته له ، ويستمتع هو بالشيطان في قضاء حوائجه ، وإعانته له ، وجزاء هذا الاستمتاع المحرم الخلود في نار جهنم ، فإنه وإن انقضى زمن التمتع ، فقد بقي زمن العقوبة ، والعذاب الأليم على ذلك : ﴿ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الزمر: ١٥]

وقال الله تعالى : ﴿ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ﴿١٢١﴾ ﴾ [النساء:١٢٠-٢٢١] .

- **فقه إفساد الشيطان لبني آدم :**

الشيطان أخبر الله ﷻ أنه عدو مبين لجميع بني آدم ، فهو يغريهم ، ويزين لهم، كل ما يضرهم ويشقيهم في دنياهم وأخراهم ، ولحسده وبغضه لهم فهو يريد أن يجرهم جميعًا معه إلى النار ، على مستوى الأفراد والأسر ، والمجتمعات والشعوب ، والأمم والأجيال والقرون .

وقد حذر الله بني آدم من إتباعه وطاعته ، ولكن أكثرهم تبعوه وأطاعوه بما زين لهم من سبل الباطل ، ومراكب الشهوات والشبهات ، وأضل منهم جبلًا كثيرًا ، وأرداهم إلى النار كفارًا فجارا ، فما أعظم خسارة البشرية بمعصية الرحمن ، وطاعة الشيطان : ﴿ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ

فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ ﴾ [ النساء :١١٧-١٢١ ] .

وما أعظم غفلتهم حيث لا يتعظ اللاحق بالسابق ، ولا الحاضر بالماضي ، ولا الناجي بالهالك : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يس:٦٠-٦٢] .

فلا بد للإنسان من معرفة كيد الشيطان ومكره ، ليتقي شره ، ويسلم من مكره وكيده ، ويحذر من طاعته وتزيينه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ [البقرة:٢٠٨] .

فمن مكر الشيطان وكيده ، وما زينه للمشركين من عبادة الأنوار والنيران التي يوقدونها ويعبدونها من دون الله ، وهم المجوس .

ومن مكر الشيطان وكيده ، تلاعبه بالصابئة، وهم أمة كبيرة من الأمم الكبار ، وهؤلاء كانوا قوم إبراهيم الخليل ﷺ وأهل دعواته ، وهم قسمان ؛ صابئة حنفاء ، وصابئة مشركون ، والمشركون منهم يعظمون الكواكب السبعة ، زين لهم الشيطان عبادتها ، وبنوا لها هياكل مخصوصة ، وهي المتعبدات الكبار كالكنائس للنصارى ، والبيع لليهود .

فلهم هيكل للشمس ، وهيكل للقمر ، وهيكل للزهرة، وغيرها من الهياكل، صوروها واتخذوها ، واتخذوا لها أصنامًا تخصها ، يعبدونها من دون الله ، ويقربون لها القرابين .

وأصل مذهب الصابئة أنهم يأخذون بمحاسن ديانات العالم ومذاهبهم ، الحنفاء منهم شاركوا أهل الإسلام في الحنيفية ، والمشركون منهم شاركوا عباد الأصنام ، وسوف يجزي الله الجميع ، ويسألهم عما عملوا من خير أو شر كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحج:١٧] .

والصابئة يقرون بإله للعالم خالقًا حكيمًا ، مقدسًا عن العيوب والنقائص ، فالموحدون منهم عبدوه ، والمشركون قالوا لا سبيل لنا إلى الوصول إلى جلاله إلا بالوسائط ، وهي الكواكب التي جعلوا لها هياكل في الأرض ، التي زينها لهم الشيطان : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [البقرة:٦٢] .

ومن مكر الشيطان وكيده ، تلاعبه بالدهرية الذين زين لهم الشيطان ، فقالوا العالم دائم ، لم يزل ولا يزال ولا يتغير : ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الجاثية:٢٤] .

وقالوا : هذا العالم هو الممسك للأجزاء التي فيه ، وجحدوا النبوات .

فداء التعطيل ، وداء الشرك ، وداء جحد النبوات ، وداء مخالفة الرسل ، أصل كل بلاء في العالم ، ومنبع كل شر ، وأساس كل باطل ، وقد سرت هذه الشهور في قرون البشرية إلا من رحم الله .

ومن مكر الشيطان وكيده ، تلاعبه باليهود حيث دعاهم إلى الشرك في حياة نبيهم موسى ﷺ ، كما قال سبحانه : ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ

قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف:١٣٨] .

فأي جهل فوق هذا لذا قال لهم موسى ﷺ : ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف:١٣٩-١٤٠] .

فما أجهلهم ، فقد طلبوا من مخلوق أن يجعل لهم إلهًا مخلوقًا ، فما أسفه عقولهم ، وكيف يكون الإله مجعولاً ، فإن الإله الحق هو الجاعل والخالق لكل ما سواه : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [ الأنعام :١٠٢- ١٠٣ ] .

والمخلوق مربوب مخلوق ، فيستحيل أن يكون إلهًا : ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل:١٧] .

ومن تلاعب الشيطان بهم ، أن زين لهم عبادة العجل من دون الله تعالى، وقد شاهدوا ما نزل بالمشركين والكفار من العقوبة، وشاهدوا صانعه يصنعه ، ويسويه ، ويصليه بالنار ، ويدقه بالمطرقة ، فأي سفه للعقول فوق هذا .

ومن عجيب أمرهم أنهم لم يكتفوا بجعله إلههم ، حتى جعلوه إله موسى ، فنسبوا موسى رسول الله إلى الشرك ، وعبادة غير الله ، بل عبادة أبلد الحيوانات ، وهو العجل وجعلوه إله كليم الرحمن ، بل حتى جعلوا موسى ﷺ ضالاً مخطئًا إلهه ذهب يطلبه ، وإلهه ها هنا ، وهذا من أقبح تلاعب الشيطان بهم كما قالوا لموسى ﷺ : ﴿ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا

جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾[طه:٨٧-٨٩] .

فتعلقوا به ، وأحبوه أشد الحب ، وأُشربوا في قلوبهم العجل : ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾[طه:٩٠-٩١] .

ومن تلاعب الشيطان باليهود ، أن زين لهم حتى قالوا لنبيهم موسى ﷺ أشنع القول ، فنزلت بهم العقوبة فوراً : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾[البقرة:٥٥] .

وزين لهم الشيطان أن واجهوا نبيهم ﷺ لما دعاهم إلى القتال بأشنع الكلام ، حيث قالوا : ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾[المائدة: ٢٤] .

فعاقبهم الله بالتيه في الأرض : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۗ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾[ المائدة : ٢٦ ] .

ومرة يعرض عليهم العمل بالتوراة ، فيمتنعون من ذلك حتى رفع الله فوقهم الجبل كأنه ظلة، كما قال سبحانه: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾[البقرة:٦٣-٦٤] .

ومرة يقال لهم : ﴿ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾[الأعراف:١٦١] .

فأزلهم الشيطان لأشنع القول والعمل ، فقالوا مستهزئين بأمر الله حنطة في شعيرة ، فبدلوا القول والفعل ، فماذا فعل الله بهم : ﴿ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ

ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾[الأعراف:١٦٢] .

ومن تلاعب الشيطان باليهود ، أنهم كانوا في البرية ، قد ظلل الله عليهم الغمام ، وأنزل عليهم المن والسلوى فملوا ذلك ، وزهدوا في أحسن الأطعمة وأشرفها ، واستهانوا بأوامر الله ، فجزاهم الله من جنس عملهم ، وضرب عليهم الذلة والمسكنة كما قال سبحانه : ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾: [البقرة:٦١] .

ومن تلاعب الشيطان باليهود ، أن الله سبحانه أنجاهم من فرعون وسلطانه وظلمه ، وفرق بهم البحر ، وأراهم الآيات والعجائب ، ونصرهم وآواهم ، وآتاهم ما لم يؤتِ أحدًا من العالمين ، ثم أمرهم بدخول القرية التي كتب الله لهم ، وبشرهم بها ، فأبوا طاعته ، وامتثال أمره وقابلوا هذا الأمر والبشارة بقولهم لنبيهم : ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: ٢٤] .

فسبحان من عظم حلمه على من عصاه، حيث يقابل أمره بمثل هذه المقابلة، ويواجه رسوله ﷺبمثل هذا الخطاب ، وهو يحلم عنهم ، ولا يعاجلهم بالعقوبة ، بل وسعهم حلمه وكرمه ، فظللهم بالغمام ، وأنزل عليهم المن والسلوى من السماء : ﴿ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾[البقرة:٥٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [البقرة:٥٧] .

ومن تلاعب الشيطان باليهود ، أن الله أمرهم أن يذبحوا بقرة ، فيضربوا القتيل ببعضها ، فتعنتوا وأكثروا الأسئلة عن البقرة، فشددوا فشدد الله عليهم، وقالوا لموسى ﷺ : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾: [البقرة:٦٧] .

وهذا من غاية جهلهم بالله ورسوله ، فإنها لما تعينت لهم ، توقفوا في الامتثال ، وما كادوا يفعلون .

ومن أقبح جهلهم وظلمهم قولهم لنبيهم موسى ﷺ : ﴿ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾[البقرة:٧١ ] .

ومن تلاعب الشيطان بهم ، أن زين لهم استحلال محارم الله بأدنى الحيل ، وتلاعبوا بدينه ، وخادعوه ، ومسخوا دينه بالاحتيال ، فمسخهم الله قردة وخنازير على استحلالهم محارم الله كما قال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾[الأعراف:١٦٦] .

ومن تلاعب الشيطان بهم ، أنهم لما حرمت عليهم الشحوم بسبب عدوانهم ومعاصيهم ، جمدوها وأذابوها ، ثم باعوها ، وأكلوا ثمنها .

ومن تلاعبه بهم ، أنه أمرهم ، وزين لهم اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد .

ومن أعظم مكر الشيطان بهم ، وكيده لهم ، أن زين لهم قتل الأنبياء الذين لا تنال الهداية إلا على أيديهم ، وزين لهم المعاصي التي توجب غضب الله ولعنته : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ

كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾: [البقرة:٦١] .

ومن تلاعب الشيطان باليهود ، أن زين لهم قتل الأنبياء ، والاستهزاء بهم ، ورد ما جاءوا به ، وأمرهم باتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله كما قال سبحانه : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [ التوبة :٣١ ] .

فحرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فأطاعوهم ، وتلك عبادتهم إياهم ، وهذا من أعظم تلاعب الشيطان بالإنسان أن يقتله أو يقاتل من هداه الله على يديه ، ويتخذ من لم تضمن له عصمته ندًا لله يحرم عليه، ويحلل له ، حسب هواه كما قال سبحانه : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾[آل عمران:١١٢ ] .

ومن تلاعب الشيطان باليهود ، ما كان منهم في شأن زكريا ويحيى عليهم الصلاة والسلام ، حتى قتلوهما ، ثم سلط الله عليهم من يعاقبهم .

ومن مكر الشيطان وكيده وتلاعبه باليهود، ما كان منهم في شأن المسيح ﷺ ، ورمي أمه بالعظائم ، وهم يعلمون أنه رسول الله ، فكفروا به بغيًا وعنادًا ، وراموا قتله وصلبه فصانه الله تعالى من ذلك ، ورفعه إليه ، وطهره منهم ، فأوقعوا القتل والصلب على شبهه منهم ، وهم يظنون أنه هو ، فبئس القوم الذين يقتلون أنبياء الله ، ويفتخرون بقتلهم وصلبهم : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾[النساء:١٥٧-١٥٨] .

ولم يزل أمر اليهود بعد تكذيبهم بالمسيح، وكفرهم به في تفانٍ ونقص وذلة، إلى أن قطعهم الله في الأرض أمما ، ومزقهم كل ممزق ، وسلبهم عزهم وملكهم ، فلم يقم لهم بعد ذلك قائمة ، إلى أن بعث الله تعالى محمدًا ﷺ ، فكفروا به ، وكذبوه ، وحاربوه ، وقاتلوه ، فأتم الله عليهم غضبه ، ودمرهم غاية التدمير ، وألزمهم ذلاً لا يرفع عنهم إلى أن ينزل أخوه المسيح ابن مريم من السماء ، ويطهر الأرض منهم ، ومن عباد الصليب : ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ [البقرة:٩٠] .

فالغضب الأول من الله بسبب كفرهم بالمسيح ﷺ، والغضب الثاني بسبب كفرهم بمحمد ﷺ .

ومن تلاعب الشيطان باليهود ، أنهم يزعمون أن الأحبار والرهبان إذا أحلوا لهم الشيء صار حلالاً ، وإذا حرموه صار حراماً ، وإن كان نص التوراة بخلافه ، وحجروا على الرب سبحانه أن ينسخ ما يريد من شريعته ، وجوزوا ذلك لأحبارهم وعلمائهم ، كما تكبر إبليس أن يسجد لآدم ، ورأى أن ذلك يغظ منه ، ثم رضي أن يكون قوادًا لكل عاص وفاسق ومجرم ، وكما أبى عباد الأصنام أن يكون المرسل إليهم بشرا ، ثم رضوا أن يكون إلههم ومعبودهم حجرًا : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [ الحج :٤٦ ] .

وكما نزهت النصارى بطارقتهم وأساقفتهم عن الصاحبة والولد ، ولم يتحاشوا أن ينسبوا إلى الله الصاحبة والولد ، وهو سبحانه الواحد الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص:١-٤] .

وقال الله تعالى : ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾ [الجن:٣] .

ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة الغضبية ، أنهم إذا رأوا الأمر أو النهي شاقًا عليهم ، طلبوا التخلص منه بوجوه الحيل ، فإن أعيتهم الحيل ، قالوا هذا كان علينا لما كان لنا الملك والرياسة، ولما سلب الله اليهود ملكهم وعزهم، وأذلهم بسبب كفرهم ، ومعاصيهم ، وقطعهم في الأرض أمما ، انتقلوا من التدمير والإفساد بالقدرة والسلطان ، إلى التدبير والإفساد بالمكر والدهاء ، والخيانة والخداع .

ومن تلاعب الشيطان بهم ، أن جعلهم ينتظرن قائمًا من آل داوود النبي ، يزعمون أنه إذا حرك شفتيه بالدعاء مات جميع الأمم ، وأن هذا المنتظر بزعمهم هو المسيح الذي وُعدوا به ، وهم في الحقيقة إنما ينتظرون مسيح الضلالة الدجال ، فهم أكثر أتباعه ، وإلا فمسيح الهدى عيسى بن مريم ﷺ يقتلهم ولا يبقي منهم أحدًا ، لأنهم كفروا بالله ، وقتلوا الأنبياء ، وأعرضوا عن دين الله ، والمسلمون ينتظرون نزول المسيح عيسى بن مريم ﷺ من السماء ، فهو الذي يكسر الصليب ، ويقتل أعدائه من اليهود ، وعبَّاده من النصارى ، ويضع الجزية ويدعوا إلى الإسلام .

قال النبي ﷺ : « والذي نفسي بيدِه ، ليُوشِكن أن ينزلَ فيكم ابنُ مريمَ حكمًا عدلًا ، فيكسرَ الصليبَ ، ويقتلَ الخنزيرَ ، ويضعَ الجزيةَ ، ويَفيضَ المالُ حتى لا يقبلَه أحدٌ ، حتى تكونَ السجدةُ الواحدةُ خيرًا من الدنيا وما فيها » . متفق عليه[1] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٣٤٤٨)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٢٤٢/ ١٥٥).

# ١٠- الخزانة العاشرة

## فقه تلاعب الشيطان بأهل الأديان :

ومن تلاعب الشيطان باليهود ، أن نسبوا إلى الله ما لا يليق به فقالوا كما قال سبحانه : ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [آل عمران:١٨١-١٨٢] .

وقولهم، كما قال سبحانه : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [المائدة:٦٤].

وقالوا إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم تعب فاستراح في اليوم السابع ، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا فقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [ق:٣٨] .

سبحانه وتعالى عما يقولون علوًا كبيرًا .

ومن تلاعب الشيطان باليهود ، أنهم يرمون أنبياء الله ورسله بالقبائح ، ويقدحون في نبوتهم ، ويؤذونهم ، ويقتلونهم ، وآذوا نبيهم موسى ﷺ بما برأه الله منه كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأحزاب:٦٩] .

ومن قدحهم في الأنبياء ، وكذبهم على الله ، ما تقشعر له الأبدان ، فقد اتهموا عيسى بن مريم بأنه ساحر ، وأنه ولد بغية ، ونسبوا أمه إلى الفجور ، ونسبوا لوطًا ﷺ إلى أنه وطئ ابنتيه وأولاده وهو سكران من الخمر ، ونسبوا يوسف ﷺ إلى أنه حل دكة سراويله ، ودكة سراويل سيدته ، وأنه قعد منها مقعد الرجل من امرأته ، والله يقول : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ يوسف:٢٤] .

ومنهم من يزعم أن عيسى ﷺ كان من العلماء ، يداوي المرضى بالأدوية ، ويزعمون أن المسلمين أولاد زنا ، وأن شريعة محمد ﷺ متلقاه من أحبار اليهود ، وهذا الضلال ليس بمستنكر على أمة قدحت في معبودها وإلهها ، ونسبته إلى ما لا يليق بعظمته وجلاله ، ونسبت أنبياءه إلى ما لا يليق بهم ورمتهم بالعظائم والسواد أن ينسبوا محمد ﷺ إلى ذلك ، وعداواتهم له ، ومحاربتهم إياه ، وتكذيبهم له ، وتكفيرهم له ، كل ذلك أشهر من أن يذكر ، وذلك لما تحمله قلوبهم من الكفر والحسد : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [ البقرة :١٠٩ ] .

وقد خلق الله لكل باطل وبهت حملة ، كما خلق للحق حملة ، وليس وراء بهت اليهود بهت : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [المائدة:١٣] .

ثم استمر الأمر على عهد موسى ، كليم الرحمن ، على التوحيد إلى أن توفي موسى ﷺ ، ودخل الداخل على بني إسرائيل ، وأقبلوا على علوم الكفار وقدموها على نصوص التوراة ، فسلط الله عليهم من أزال ملكهم ، وشردهم من أوطانهم ، ومزقهم كل ممزق ، وتلك سنة الله في عباده حين أعرضوا عن الوحي ، وتعوضوا عنه بكلام الكفار والملاحدة : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنعام:٤٤-٤٥] .

وكذلك النصارى لما عرضوا عن دين الله ، سلط الله بعضهم على بعض كما قال سبحانه : ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[المائدة:١٤] .

وكما سلط الله النصارى على بلاد العرب، لما ظهرت فيها الفلسفة والمنطق، واشتغل المسلمون بذلك ، وهجروا كتاب ربهم ، فاستولت النصارى على بلادهم ، وصاروا هم رعية لهم .

وكذلك لما ظهر هذا الأمر في بلاد المشرق ، سلط الله عليهم عساكر التتار ، فأبادوا أكثر أهلها ، واستولوا عليها ، وأهانوا أهلها : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[ هود :١٠٢ ] .

وكذلك في المائة الرابعة لما اشتغلوا بالعراق بالفلسفة ، وعلوم أهل الباطل والإلحاد ، سلط الله عليهم القرامطة الباطنية .

فهزموا عسكر الخليفة عدة مرات ، واستولوا على حجاج بيت الله الحرام ، واستعرضوهم قتلًا وأسرًا ، واشتدت شوكتهم ، واستقر ملكهم في مصر والشام ، والحجاز واليمن وغيرها .

فهذا الداء لما دخل في بني إسرائيل ، كان سببًا في دمارهم ، وزوال ملكهم ، فليحذر من هذا الشر ، لئلا يصيبنا ما أصابهم ، ويحل بنا ما حل بهم .

ثم بعث الله سبحانه بعد موسى ﷺ عبده ورسوله وكلمته المسيح عيسى بن مريم ﷺ : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ [ الصف : ٦ ] .

فجدد لهم الدين ، وبين لهم معالمه ، ودعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له والبراءة من تلك الأحداث والآراء الباطلة ، فعادوه ، وكذبوه ، ورموه هو وأمه بالعظائم ، وراموا قتله ، فحفظه الله منهم ، ورفعه إليه ، وأقام الله للمسيح أنصارًا دعوا إلى دينه وشريعته ، حتى ظهر دينه على من خالفه ، ودخل فيه الملوك ، وانتشرت دعوته ، واستقام الأمر على السداد بعده نحو ثلاثمائة سنة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الصف:١٤] .

ثم أخذ دين المسيح في التبديل والتغيير ، حتى تناسخ واضمحل ، ولم يبق بأيدي النصارى منه شيء ، بل ركبوا دينًا بين دين المسيح ، ودين الفلاسفة عباد الأصنام ، وبقى معهم بقايا من دين المسيح كالختان ، والاغتسال من الجنابة ، وتعظيم السبت ، وتحريم الخنزير ، وتحريم ما حرمت التوراة إلا ما أحل لهم من الصيام : ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا

مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۖ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾[ المائدة : ١٤ ] .

ولما أخذ دين المسيح في التغيير ، والتحريف ، والتبديل ، وظهر الفساد ، وعم البلاء ، اجتمعت النصارى عدة اجتماعات في أزمنة مختلفة ، ثم يتفرقون على الاختلاف والتلاعن ، وقول الزور والباطل .

فمرة قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم ، ومرة قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ، ومرة قالوا : المسيح ابن الله ، إله حق من إله حق ، ومرة قالوا الإله واحد في ثلاثة ، وثلاثة في واحد ، وهم في ذلك حيارى تائهون ضالون مضلون ، لا يثبت لهم قدم ، ولا يستقر لهم قول في إلههم ، بل كل منهم قد اتخذ إلهه هواه ، وصرح بالكفر والتبري ممن اتبع سواه.

قال الله تعالى : ﴿ لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٤﴾ ﴾[المائدة:٧٢-٧٤] .

وقال الله تعالى : ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾[المائدة:٧٧] .

فانظر كيف أوصل الشيطان هذه الأمة الضالة إلى الكفر والشرك ، والضلال والكذب : ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [المائدة:٧٤-٧٥] .

لقد ارتكبت النصارى في حق نبي الله عيسى ﷺ محذورين عظيمين كبيرين:

أحدهما الغلو في المخلوق ، حتى جعلوه شريك الخالق ، وجزءًا منه ، وإلهًا أخر معه ، وأنفوا أن يكون عبدًا له .

الثاني تنقص الخالق ، وسبه ، ورميه بالعظائم ، وأنه نزل من كرسيه ، ودخل في فرج امرأة ، ثم خرج من حيث دخل رضيعًا يمص الثدي ويبكي ، ويجوع ويأكل ويشرب ، ويبول ويتغوط : ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [المائدة:٧٤-٧٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة:١٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ [المائدة:٧٢] .

ثم صار المسيح إلى أن لطمت اليهود خديه ، وربطوا يديه ، وبصقوا في وجهه ، وصلبوه جهرًا ، وسمروا يديه ورجليه ، وجرعوه أعظم الآلام ، وهو الإله الحق المعبود ، المسجود له .

فسبحان الله ، ما أعظم هذا البهتان والكذب والافتراء على الله ورسله ، ولعمر الله إن هذه مسبة لله سبحانه ، ما سبه بها أحد من البشر قبلهم ولا بعدهم : ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾ ﴾[مريم:٩٠-٩٥] .

فما أشنع هذا الكلام الذي نسبوا فيه الإله الحق ، إلى ما يأنف أقل الناس أن يفعله بعبده ، وكذبوا على الله ﷻ في كونه تاب على آدم ، وغفر له خطيئته ، ونسبوه إلى أقبح الظلم ، حيث زعموا أنه سجن أنبياءه ورسله وأولياءه في نار الجحيم ، بسبب خطيئة أبيهم آدم ، ونسبوه إلى غاية السفه ، حيث خلصهم من العذاب بتمكينه أعدائه من نفسه ، حتى قتلوه ، وصلبوه ، وأراقوا دمه ، ونسبوه إلى غاية العجز ، حيث عجز أن يخلصهم بقدرته من غير هذه الحيلة .

ونسبوه إلى غاية النقص، حيث سلط أعداءه على نفسه وابنه ففعلوا به ما فعلوا .

فسبحان الله ، كم أضل الشيطان من الأمم عن دينها بمثل هذا البهتان والكذب ، وهل يقول بهذا عاقل سوي ، إنه لا يعلم أمة من الأمم سبت ربها ومعبودها وإلهها ، بما سبت به هذه الأمة ، فهم عار على بني آدم ، مفسدون للعقول والشرائع : ﴿ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[ سبأ :٢٠ ] .

وأما شريعة النصارى ودينهم ، فقد تلاعب بهم الشيطان فليسوا متمسكين بشيء من شريعة المسيح ﷺ ولا دينه البتة ، فابتدعوا ، وحرفوا ، وبدلوا ، وكتموا ، وضلوا ، وأضلوا ، وضلوا عن سواء السبيل : ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٦٣﴾ ﴾[النحل:٦٣] .

فابتدعوا الصلاة إلى المشرق ، مطلع الشمس ، مع علمهم أن المسيح لم يصلي إلى المشرق أصلًا ، بل كان يصلي إلى قبلة بيت المقدس ، وهي قبلة الأنبياء قبله .

ومن كيد الشيطان ومكره بهم ، أن طوائف منهم ، وهم الروم وغيرهم لا يرون الاستنجاء بالماء ، فيبول أحدهم ويتغوط ، ويقوم بأثر البول والغائط إلى صلاته بتلك الرائحة الكريهة ، فيستقبل المشرق ، ويصلب على وجهه ، ويحدث من يليه بأنواع الحديث كذبًا كان أو فجورا ، ويخبره بسعر الخمر والخنزير ونحو ذلك ، ولا يضر ذلك صلاته ولا يبطلها .

ومواجهة رب العالمين بهذه العبادة قبيح جدًا ، وصاحبها إلى استحقاقه غضب الله وعقابه أقرب منه إلى رضاه وثوابه : ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٤﴾ ﴾[ المائدة :٧٤ ] .

ومن تلاعب الشيطان بالنصارى ، ما ابتدعوه من تعظيم الصليب بعد المسيح بزمان ، ولا ذكر له في الإنجيل ، وإنما ذكر في التوراة باللعن لمن تعلق به .

فزينه الشيطان لهذه الأمة الضالة، فاتخذته معبودًا يسجدون له، ويحلفون به، ولو كان لهم أدنى مسكة من عقل ، لكان ينبغي لهم أن يلعنوا الصليب من أجل معبودهم وإلههم حين صلب عليه ، وأن يحرقوه حيث وجدوه ، ويغمروه بالنجاشة ، فإنه صلب عليه إلههم ومعبودهم بزعمهم ، وأهين

عليه وفضح ، هذا لو صح زعمهم أن المسيح صلب ، وأنى يصح هذا وقد أعلن الله نجاته وسلامته ، ورفعه إليه : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾[النساء:١٥٧-١٥٨] .

فبأي وجه يستحق الصليب هذا التعظيم منهم ، لولا أن القوم أضل من الأنعام ، وإن كانوا يقصدون بتعظيمه التشنيع على اليهود ، وتنفير الناس عنهم ، وإغرائهم بهم ، فقد حصل لهم ما هو أعظم من ذلك ، فقد نفروا به الأمم عن النصرانية ، وعن المسيح ودينه ، أعظم تنفير، وكأنهم إنما عظموه، لأنه ثبت لصلبه إلههم ، ولم ينشق ولم ينكسر من هيبته لما حمل عليه ، فما أقبح الجهل والسفه ، وما أشد ضلال وجرم أولئك : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[المائدة:١٤] .

فأي إله هذا الذي يصلب ، ويبصق في وجهه ، وأي صليب يعظم ويذكر ، وهو مكان الخزي والعار الذي صلب عليه الإله : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾[الحج:٤٦] .

ومن مكر الشيطان وتلاعبه بالنصارى ، أن زين لهم صيامًا لم يأت به المسيح كالصوم الذي وضعوه لملوكهم وعظمائهم ، فلهم صيام الحواريين ، وصيام لمريم ، وصيام للميلاد ، وتركهم أكل اللحم في صيامهم وغير ذلك مما أدخلوه في دين المسيح ، فالمسيح يعلمون أنه كان يأكل اللحم ، ولم يمنعهم منه في صوم ولا فطر .

وأكثر صومهم لا أصل له في شرع المسيح ، بل هو مختلق مبتدع .

فسبحان الله كم تلاعب الشيطان بهذه الأمة الضالة كل التلاعب ، وكم دعاهم فأجابوه ، وكم استخفهم فأطاعوه ، فتلاعب بهم في شأن المعبود جل جلاله حتى قالوا فيه ما لم يقله أحد من العالمين : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الأعراف:١٧٩] .

وتلاعب بهم الشيطان في أمر المسيح ، وتلاعب بهم في أمه مريم ، وتلاعب بهم في شأن الصليب وعبادته ، وتلاعب بهم في تصوير الصور في الكنائس وعبادتها ، فلا تكاد تجد كنيسة من كنائس النصارى إلا وفيها صورة مريم ، وصورة المسيح مصلوبًا ، وصورة جرجس وبطرس وغيرهم ، وأكثرهم يسجدون للصور ويدعونها من دون الله تعالى .

ومن تلاعب الشيطان بهم في أعيادهم ، أنهم وضعوا أعيادًا موضوعة مختلقة.

كعيد ميكائيل ، وعيد الصليب ، وعيد الفصح وعيد الميلاد وغيرها .

وأما تلاعب الشيطان بهم في صلاتهم، فصلاة كثير منهم بالنجاسة والجنابة، والمسيح بريء منهم ، ومن هذه الصلاة .

والله سبحانه أجل وأعلى من أن يُتقرب إليه بمثل هذه الصلاة .

ومنها الصلاة إلى المشرق ، وتصليبهم على وجوههم في الصلاة ، والمسيح ﷺ بريء من كل ذلك ، فصلاة مفتاحها النجاسة ، وتحريمها التصليب على الوجه ، وقبلتها المشرق وشعارها الشرك ، كيف يخفى على العاقل أنها لا تأتي بها شريعة من الشرائع البتة : ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ

ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [آل عمران:١٦٢-١٦٣].

لما علمت الرهبان والأساقفة ، أن مثل هذا الدين الذي تنفر عنه العقول أعظم نفرة وذلك لما فيه من التغيير والتبديل والتحريف شيدوه بالحيل والصور في الحيطان ، وطلاء جدران الكنائس بالذهب ، وبالأعياد المحدثة ونحو ذلك مما يروج على السفهاء وضعفاء العقول والبصائر .

وساعدهم على ذلك ما عليه اليهود من القسوة والغلظة ، والكيد والمكر ، والكذب والبهتان ، وما عليه كثير من المسلمين من الظلم والفواحش ، والفجور والبدع والغلو في المخلوق ، واعتقاد كثير من الجهال أن هؤلاء خواص المسلمين وصالحيهم ، فتركب من هذا وأمثاله تمسك القوم بما هم عليه ، ورويتهم له أنه خير من كثير مما عليه المنتسبون للإسلام من البدع ، والشرك ، والفجور والفواحش .

فانظر كيف تلاعب الشيطان بهذه الأمة ، في أصول الدين وفروعه ، فجمعت بين الشرك ، وعيب الإله ، وتنقصه ، وتنقص نبيهم وعيبه ، ومفارقة دينه بالكلية ، إنهم لم يتمسكوا بشيء مما كان عليه المسيح لا في صلاتهم ، ولا في صيامهم ، ولا في أعيادهم ، ولا في سائر عباداتهم ، بل هم في كل ذلك طبالون ، أدخلوا في الشريعة ما ليس منها ، وتركوا ما جاءت به ، وقالوا أساس الدين واحد في ثلاثة ، وثلاثة في واحد ، أو الثلاثة واحد ، والواحد ثلاثة .

فوا عجبًا لأمة تضيع أوقاتها في مثل هذا الهراء ، وهذا السخف ، وهذا الضلال والمحال : ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٦﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي

﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾[الصف:٦-٨] .

ولم يقنعهم هذا القول في رب السموات والأرض ، حتى اتفقوا بأسرهم على أن اليهود أخذوه وساقوه بينهم دليلًا ، ثم صلبوه وطعنوه بالحربة حتى مات ، ثم دفنوه وأقام تحت التراب ثلاثة أيام ، ثم قام من قبره إلى السماء .

فأين عقول هؤلاء ، كيف كان حال هذا العالم العلوي والسفلي في هذه الأيام الثلاثة ، ومن كان يدبر أمر السموات والأرض وما فيهما بتلك الأيام ، ومن الذي خلق الرب سبحانه في تلك المدة ، ومن الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض ، والإله مدفون في قبره ، وكيف تمكن المخلوق من قتل الإله وصلبه ودفنه .

ثم أي قبر يسع إله السموات والأرض، وهو الملك القدوس الكبير المتعال، وكيف يتحمل هذا الإله الذنوب والخطايا عن البشر ، فليفعلوا ما شاءوا ، وكيف تستقر حياة الناس بلا أمر ولا نهي ولا ثواب ولا عقاب : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾[ الأعراف :١٧٩ ] .

سبحانك هذا بهتان عظيم : ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾[مريم:٨٩-٩٣] .

فهل يليق بعاقل أن يسمع لهؤلاء ، وهل يليق بأمة حرفت دينها ، وافترت على الله الكذب أن يقتدي العاقل بها ، أو يدخل في دينها ، وكيف يقتدي الإنسان ويهتدي بأمة حرفت وبدلت كتاب الله وشرعه ، ولعنها الله ، وغضب عليها : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾[ المائدة : ٧٨ – ٨٠ ] .

فلما حصل من أهل الكتاب ، اليهود والنصارى ، ما حصل من التحريف والتبديل ، والنسيان والكذب ، والابتداع والظلم ، والكتمان ، والحكم بغير ما أنزل الله ، والبهتان والكبر ، والضلال والغلو ، والكفر والاستهزاء ، وقتل الأنبياء ، وسفك الدماء بغير حق ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وتنقص الرب ، وتعطيل شرعه ، وقول الزور والبهتان في الأنبياء ، والصد عن سبيل الله ، لما حصل ذلك وغيره من أهل الكتاب ضل الناس عن طريق الهدى ، وعاشوا في شقاء وعناء ، فبعث الله العزيز الرحيم محمدًا ﷺ رسولاً للعالمين، ورحمة للبشرية أجمعين ، يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم : ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[الأعراف:١٥٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ

ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾ ﴾ [ المائدة :١٥- ١٦ ] .

وأكمل الله به للبشرية دينها ، وأتم نعمته عليها كما قال سبحانه : ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣﴾ ﴾ [ المائدة : ٣ ] .

فدين النبي ﷺ أفضل الأديان ، وكتابه أعظم الكتب ، وشريعته أيسر الشرائع ، وأمته أفضل الأمم ، وهو أفضل الأنبياء والمرسلين ، والذين كملت نعم الله عليهم هم المؤمنون به ، الذين جمعوا بين معرفة الحق في ذاته ، والخير لأجل العمل به ، وهم المرادون بقوله سبحانه : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ [ الفاتحة:٦-٧].

فإن اختل قيد العمل فهم الفسقة ، وهم المغضوب عليهم ممن أخطأ في الأعمال الظاهرة كاليهود والفساق ، وإن اختل قيد العلم فهم الظالمون ممن أخطأ من الاعتقاد من النصارى وأهل البدع ، ومن أنعم الله عليه امتنع أن يكون من المغضوب عليهم أو من الضالين كما قال سبحانه : ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ [ الفاتحة : ٦- ٧ ] .

وأهم المهمات للعبد أن يستنير قلبه بمعرفة الربوبية ، ثم بمعرفة العبودية ، لأنه إنما خلق لرعاية هذا العهد ، وهو عبادة الله ﷻ ، ولا يتم ذلك إلا بالعلم والعمل : ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ [ محمد : ١٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٥٣] .

- **ما يعتصم به العبد من الشيطان :**

الشيطان عدو للإنسان ، وقد أشهر سلاحه ، وأعلن عداوته للإنسان من أول يوم ، وقعد على جميع الجهات التي يمر بها الإنسان ، ليضل الناس عن الصراط المستقيم ، ويغريهم بالكبائر والمنكرات ، والفواحش والمعاصي ؛ ليحرمهم من الجنة ، ويوبقهم في النار كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ [فاطر:٦].

وإذا علم العبد بعداوة الشيطان ، فعليه أن يستعد له ، ويواجهه ، ويقف له ، ويتحصن منه ، لئلا يضره ويهلكه .

وقد أخبرنا الذي علَّمنا بعداوة الشيطان ، وهو الله تعالى ، كيف نتحصن من الشيطان ونتقيه ونحترس من شره ؟ وشَرَعَ لنا رسوله ﷺ من الأدعية والأذكار ، ما فيه الشفاء والرحمة ، والهدى والعصمة ، من جميع شرور شياطين الجن والإنس ، ومن ذلك :

**أولًا** : الاستعاذة بالله العظيم كما قال سبحانه : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ [فصلت: ٣٦] .

**ثانياً** : التسمية ، فالتسمية حرزٌ من الشيطان ، وعصمة من مخالتطه الإنسان في طعامه ، وشرابه ، وجماعه ، ودخوله بيته ، وسائر أحواله .

قال النبي ﷺ: « إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَه ، فَذَكَرَ الله عِنْدَ دُخُولِه وَعِنْدَ طَعَامِه ، قَالَ الشَّيْطَان : لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاء ، وإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرْ الله عِنْدَ دُخُولِه ، قَالَ الشَّيْطَان : أَدْرَكْتُمُ المَبِيت ، وإِذَا لَمْ يَذْكُرْ الله عِنْدَ طَعَامِهْ ، قَالَ : أَدْرَكتُم المَبِيتَ والْعَشَاء ».أخرجه مسلم(١) .

وقال النبي ﷺ : « لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَرَادَ أَنْ يَأْتِي أَهْلَه ، فَقَالَ : بِسْمِ الله ، اللَّهم جَنِّبْنَا الشَّيْطَان ، وَجَنِّبْ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا ، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِك لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ أَبَدًا » . متفق عليه(٢) .

**ثالثاً** : قراءة المعوذتين : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ ﴾ [الفلق:١] . و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ ﴾ [الناس: ١] .

وذلك عند النوم ، وعند المرض ، وعند شدة الرياح ، وشدة الظلمة ، وأدبار الصلوات الخمس ونحو ذلك .

**رابعاً** : قراءة آية الكرسي عند النوم ، وأدبار الصلوات الخمس .

**خامساً** : قراءة الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة ، فمن قرأهما في ليلة كفتاه : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢٨٦ ﴾ [البقرة:٢٨٥-٢٨٦] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (١٠٣/ ٢٠١٥).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٣١٠٩ )، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٤٣٤).

**سادساً** : قراءة سورة البقرة .

قال النبي ﷺ : « لَا تجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ ، إِنَّ الّشَيْطَان يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الذِي تُقْرَأ فِيهِ سُورَةُ البَقَرَة » . أخرجه مسلم[1] .

**سابعاً** : كثرة ذكر الله تعالى بتلاوة القرآن ، والتسبيح ، والتحميد ، والتكبير ، والتهليل ونحوها ، كما قال النبي ﷺ : « مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا الله ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِير ، فِي يَوْم مَائَةَ مَرَّة كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَاب ، وَكُتِبَتْ لَهُ مَائَةُ حَسَنَة ، وَمحِيَتْ عَنْهُ مَائَةُ سَيِّئَة ، وَكَانَت لَهُ حِرْزًا مِنَ الّشَيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكْ حَتَّى يُمْسِي ، وَلَمْ يَأْتِي أَحَدٌ بِأَفْضَلِ مِمَّا جَاءَ بِه إِلَّا رَجُلٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْه » . متفق عليه[2] .

**ثامناً** : الدعاء عند الخروج من المنزل ، كما قال النبي ﷺ : « إِذَا خَرَجَ الّرَجُلْ مِنْ بَيْتِه فَلْيَقُلْ : بِسْمِ الله تَوَكَلْتُ عَلَى الله ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَةَ إِلَّا بِاللهّ ، قَالَ : يُقَالُ حِينَئِذٍ : هُدِيتَ وَكُفِيتَ وَوُقِيتَ ، فَتَتَنَحَّى لَهُ الّشَيَاطِينُ ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آَخَر : كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ » . أخرجه أبو داود والترمذي بسند صحيح[3].

**تاسعاً** : الدعاء إذا نزل منزلًا .

قال النبي ﷺ : « إِذَا نَزَلَ أَحَدُكُمْ مَنْزِلًا فَلْيَقُلْ : أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَامَات مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ، فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّهُ شَيءٌ حَتَّى يَرْتحِلَ مِنْه » . أخرجه مسلم[4] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٢١٢/ ٧٨٠).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٤٠٣)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٢٨/ ٢٦٩١).

(٣) صحيح/ أخرجه أبو داود برقم: (٥٠٩٥)، والترمذي برقم: (٣٤٢٦).

(٤) أخرجه مسلم برقم: (٥٥/ ٢٧٠٨).

**عاشراً**: كظم التثاؤب ، وضع اليد على الفم .

قال النبي ﷺ : « إِذَا تَثَاوَبَ أَحَدُكُمْ ، فَلْيُمْسِكْ بِيَدِهِ على فمه ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْخُلْ ». أخرجه مسلم[1].

**الحادي عشر**: الآذان ، ودعاء دخول المسجد ، والخروج منه .

كان النبي ﷺ إذا دخل المسجد قال : « أَعُوذُ بِاللهِ الْعَظِيمِ وبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم ، قَالَ : أَقَط ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ ، قَالَ الشَّيْطَانُ : حُفِظَ مِنِّي سَائِرَ الْيَوْمِ ». أخرجه مسلم[2].

**الثاني عشر**: الوضوء والصلاة ، ولاسيما عند الغضب والشهوة ، وتجنب فضول النظر والكلام ، واجتناب مساكن الجن والشياطين كالأماكن الخربة والنجسة كالحشوش ، والمزابل ، والأماكن الخالية من الإنس كالصحاري ، وشواطئ البحار البعيدة ، ومرابض الإبل ونحوها .

**الثالث عشر**: تطهير البيوت من الصور ، والتماثيل ، والكلاب ، والأجراس .

قال النبي ﷺ : « لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فيهِ تمَاثِيلُ أَوْ تَصَاوِيرُ ». أخرجه مسلم[3].

**الرابع عشر**: أمر الله ﷻ بالاستعاذة من كل شر في أي مخلوق قام به الشر ، من حيوان أو غيره ، إنسيًا ، أو جنيًا ، أو هامةً ، أو دابةً ، أو ريحًا ، أو صاعقة ، ومن أي نوع كان من أنواع البلاء فقال سبحانه : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ [ الفلق :١- ٥ ] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٥٧/ ٢٩٩٥).

(٢) صحيح/ أخرجه أبو داود برقم: (٤٦٦).

(٣) أخرجه مسلم برقم: (١٠٢/ ٢١١٢).

فالاستعاذة من شر ما خلق ، تعم شر كل مخلوق به شر ، وكل شر في الدنيا والآخرة ، وشر شياطين الإنس والجن ، وشر السباع والهوام ، وشر النار والهواء والماء وغير ذلك .

قال النبي ﷺ : « مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ : أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَامَات مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ، لمْ يَضُرُّهُ شَيءٌ حَتَّى يَرْتحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ ». أخرجه مسلم[1].

ومن هنا حسُنت الاستعاذة برب الفلق في ما جاء في هذه السورة من أنواع الشرور : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾ [الفلق:١-٥] .

ولهذا استعاذ من شر الغاسق الذي هو الظلمة ، ومحل الشرور والظلام ، بعد الاستعاذة برب الفلق الذي هو الصبح والنور الذي يطود جيش الظلام ، وعسكر المفسدين في الأرض بالليل ، من جن ، أو إنس ، أو حيوان ، فيأوي كل خبيث ، وكل مفسد ، وكل لص ، وكل قاطع طريق إلى سربٍ أو كِن أو غار ، وتأوي الهوام إلى جحورها ، والشياطين التي انتشرت بالليل إلى أمكنتها ومحالها ، فأمر الله ﷻ عباده أن يستعيذوا برب النور والصبح ، الذي يقهر الظلمة ويزيلها ، ويكشف ويقهر عسكرها وجيشها الظالم ؛ والكفر والشرك كله ظلمة ، ومآله إلى الظلمات ، ومستقره في القلوب المظلمة ، والمقترن بها الأرواح المظلمة .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٥٤/ ٢٧٠٨).

والإيمان كله نور ، ومآله إلى نور ، ومستقره في القلوب المستنيرة ، والمقترن بأهلها الأرواح المستنيرة المضيئة المشرقة ، وهم الملائكة .

والله ﷻ بعث رسله ليخرجوا عباده من الظلمات إلى النور كما قال سبحانه : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾[البقرة:٢٥٧ ] .

واللص إذا رأى السراج يوقد في البيت لا يقرب منه ، وإذا أنار الله قلب العبد بالإيمان ، وأوقد سراج المعرفة في قلبه ، فلا يمكن أن يقرب منه الشيطان : ﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾[ النحل : ٩٨-١٠٠] .

# موسوعة خزائن العلوم الإسلامية

## ٦٠-خزائن أعداء الإنسان

## القسم الثاني

ويشتمل على ما يلي:

١- الخزانة الأولى
٢- الخزانة الثانية
٣- الخزانة الثالثة
٤- الخزانة الرابعة
٥- الخزانة الخامسة
٦- الخزانة السادسة
٧- الخزانة السابعة
٨- الخزانة الثامنة
٩- الخزانة التاسعة
١٠- الخزانة العاشرة

# ٦٠-خزائن أعداء الإنسان

# القسم الثاني

## ١- الخزانة الأولى

## العدو الثالث : الدنيا .

- **فقه حقيقة الدنيا :**

الله تبارك وتعالى خالق كل شيء ، خلق الدنيا والآخرة ، وجعل الأولى دار الإيمان والعمل ، وجعل الآخرة دار الثواب والعقاب .

والدنيا المذمومة هي كل ما شغل عن طاعة الله ورسوله ، وقد عرف الله ﷻ أولياءه بغوائل الدنيا وآفاتها ، وكشف لهم عن عيوبها وعوراتها، ليحذروها، ولا يركنوا إليها ، ولا يغتروا بزينتها : ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٤] .

وقد خلقها الله في صورة جميلة مليحة ، تستميل الناس بجمالها ، وتغرهم بزينتها ، وتخدعهم بشهواتها ، امتحانًا وابتلاءً ليعلم الله من يقدم أوامر الله على شهوات نفسه كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾ [الكهف:٧-٨] .

والدنيا شحيحة بإقبالها ، وإذا أقبلت لم يؤمن شرها ووبالها ، وآفاتها على التوالي راشقة ، وكل مغرور بها إلى الذل مصيره ، لا يخلو صفوها عن

شوائب الخدر ، ولا ينفك سرورها عن المنغصات ، سلامتها تعقِب السقم ، ونعيمها لا يثمر غالبًا إلا الحسرة والندم ؛ فهي خداعة ، مكارة ، بينما أصحابها منها في نعيم وسرور ، إذ ولت عنهم صاروا كأنهم أضغاث أحلام : ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس:٢٤] .

فالدنيا عدوة لله ، وعدوة لأولياء الله ، وعدوة لأعداء الله .

أما عداوتها لله ، فإنها قطعت الطريق على عباد الله ، ولذلك لم ينظر الله إليها منذ خلقها ، ولو كانت تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء ، ولكنها محل الابتلاء والاختبار .

وأما عداوتها لأولياء الله سبحانه ، فإنها تزينت لهم بزينتها ، وغرتهم بزهرتها ونضارتها ، وملكت قلوبهم بجمالها وشهواتها ، وبساتينها وقصورها ، حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾ [ فاطر : ٥ ] .

وأما عداوتها لأعداء الله ، فإنها استدرجتهم بمكرها وكيدها ، وصادتهم بشبكتها حتى وثقوا بها ، فاجتنوا منها حسرة تقطع الأكباد ، ثم حرمتهم السعادة أبد الآباد ، فهم على فراقها يتحسرون ، ومن مكايدها يستغيثون ، وفي طلبها يتعبون : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾[البقرة:٨٦] .

ومن هوان الدنيا على الله ، أنه لا يعصى إلا فيها ، ولا يُنال ما عنده إلا بتركها ، وكما يأكل المريض الطعام فلا يلتذ به من شدة الوجع ، كذلك

صاحب الدنيا لا يتلذذ بالعبادة ، ولا يجد حلاوتها ، مادام حب الدنيا في قلبه ، والدنيا المذمومة المأمور باجتنابها ، هي القاطعة للعبد عن سلوك الصراط المستقيم ، الموصل إلى الله ، وإلى رضاه ، وإلى الجنة .

**وما في هذه الحياة الدنيا ينقسم إلى ثلاثة أقسام :**

**القسم الأول** : ما يصحب العبد في الآخرة ، وتبقى معه ثمرته بعد الموت ، وهو شيئان :

العلم .. والعمل الصالح .

فالعلم هو العلم بالله ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، والعلم بدينه وشرعه ، والعلم بثوابه وعقابه : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ [ محمد : ١٩ ] .

والعمل الصالح هو امتثال أوامر الله في جميع الأحوال ، وعبادة الله وحده لا شريك له : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [ الحج : ٧٧ ] .

**الثاني** : كل ما فيه حظ عاجل ، ولا ثمرة له في الآخرة أصلًا ، كالتلذذ بأنواع بالمعاصي كلها ، والتنعم بالمباحات الزائدة على قدر الحاجة ، والتنعم والترفه بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسومة، والأنعام ، والحرث ، والغلمان ، والجواري ، والقصور ، والدور ، ورفيع الثياب ، ولذائذ الأطعمة ونحوها من ألوان المتاع الذي تحبه النفوس كما قال سبحانه : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ [ آل عمران : ١٤ ] .

فحظ العبد من هذا كله هي الدنيا المذمومة ، باستثناء ما يحتاجه من المباح الذي يستعين به على طاعة ربه : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ ﴾ [ الأعراف :٣١ ] .

**الثالث** : كل حظ في العاجل ، معين على أعمال الآخرة ، كقدر القوت من الطعام ، والحاجة من اللباس والسكن والمركب ، وكل ما لابد منه ، ليتأتى للإنسان البقاء والصحة التي يتوصل بها إلى العلم والعمل الصالح : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢ ﴾ [البقرة:١٧٢] .

فهذا ليس من الدنيا ، فهو كالقسم الأول ، لأنه معين على القسم الأول ، ووسيلة إليه ، فمهما تناوله العبد على قصد الاستعانة به على العلم والعمل ، لم يكن به متناولًا للدنيا ، ولم يصر به من أبناء الدنيا .

وإن كان باعثه الحظ العاجل ، دون الاستعانة به على العلم والعمل إلتحق بالقسم الثاني ، وصار من جملة الدنيا .

فالأول محمود ، والثاني مذموم ، والثالث حسب نية صاحبه .

وكل شيء في الدنيا يزول ولا يبقى مع العبد عند الموت إلا أربع صفات : إيمان القلب ، وأنسه بذكر الله ، وحبه لربه ، وعمله الصالح .

قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ٢٩ ﴾ [ الرعد: ٢٨-٢٩ ] .

وهذه الصفات هي المنجيات المسعدات بعد الموت ، فقوة الإيمان تفطم العبد عن شهوات الدنيا ، وتنشطه للعمل الصالح الذي ينال به شهوات

الآخرة ، وتملأ قلبه بالأنس بالله ، ولذة مناجاته ، ومحبته ، ونسيانه ما سواه .

وليس الموت هو النهاية ، إنما هو فراق لمحاب الدنيا ، وقدوم على الله تعالى ، فالقدر الذي لابد منه للحياة إذا أخذه العبد من الدنيا للآخرة ، لم يكن من أبناء الدنيا ، وكانت الدنيا في حقه مزرعة للآخرة ، وإن أخذه لحظ نفسه ، وعلى قصد التنعم ، صار من أبناء الدنيا ، والراغبين في حظوظها .

**والرغبة في حظوظ الدنيا قسمان :**

**الأول** : ما يُعرض صاحبه لعذاب الآخرة ، ويسمى ذلك حرامًا .

**الثاني** : ما يحول بين العبد ، وبين الدرجات العلى ، ويُعرضه لطول الحساب ، ويسمى ذلك حلالًا .

فالدنيا حلالها حساب ، وحرامها عذاب ، ومن نوقش الحساب هلك .

عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبي ﷺ قال : « مَنْ نُوقِشَ الحِْسَابَ عُذِّبَ ، قَالَتْ : قُلْتُ أَلَيْسَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى فَسَوْفَ يحُاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ؟ قَالَ : ذَلِكِ الْعَرْضُ » . متفق عليه[1] .

والدنيا قليلها وكثيرها ، وحلالها وحرامها ، كل ذلك مذموم إلا ما أعان على تقوى الله وطاعته مما أمر الله ورسوله به ، وكل من كانت معرفته أقوى كان حذره من نعيم الدنيا أشد ، ولهذا زوى الله كل ما يشغل عن الآخرة من اللذات والشهوات ، عن الأنبياء والمرسلين ، والأولياء والمتقين ، ليتفرغوا للأعمال الصالحة ، وسلط عليهم البلاء والمحن ، كل ذلك امتنانًا عليهم ،

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٥٣٦)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٧٩/ ٢٨٧٦).

ليتوفر من الآخرة حظهم ، ويعظم أجرهم ، كما يمنع الوالد ولده من لذة الفواكه ، ويلزمه الدواء الكريه المذاق ، شفقةً عليه ، وحبًا له ، لا بخلًا عليه.

سُئل النبي ﷺ أي الناس أشد بلاءً ؟ ، فقال : « الأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاؤُهُ ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي علىٰ الأرض ما عليه خطيئة » . أخرجه الترمذي[1].

وقال الله تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأعلى: ١٦ – ١٩]

- **فقه حقيقة الدنيا :**

الدنيا مَرْكَبُ الآخرة ، وبها تُقطع المسافة إلى الآخرة ، والبدن مركب النفس ، وبه تقطع مسافة العمر ، فتعهد البدن بما تبقى به قوته على سلوك الطريق بالعلم والعمل ، هو من الآخرة لا من الدنيا ، فهذه حقيقة الدنيا في حق الإنسان .

وأما حقيقة الدنيا في نفسها ، فالدنيا عبارة عن أعيان موجودة ، وللإنسان فيها حظ ، وله في إصلاحها شغل ، وقد جمع الله الأعيان التي يُعبَّر عنها بالدنيا في قوله سبحانه : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٤] .

---

(١) صحيح / أخرجه الترمذي برقم( ٢٣٩٨ ) .

**فهذه هي أعيان الدنيا السبع ، ولها مع العبد علاقتان :**

**الأولى** : علاقة الأعيان مع القلب ، وهو حبه لها ، وحظه منها ، وانصراف همه إليها ، حتى يصير قلبه كالعبد أو المحب المستهتر بالدنيا ، ويدخل في هذا جميع صفات القلب الباطنة كالكبر ، والرياء ، والعُجب ، وحب الثناء ، وحب التكاثر ، وحب التفاخر ، وهذه هي الدنيا الباطنة .

وأما الدنيا الظاهرة فهي الأعيان المذكورة .

**الثانية** : علاقة الأعيان مع البدن ، وهو اشتغاله بإصلاح هذه الأعيان ، لتصلح حظوظه ، وحظوظ غيره ، وهي جملة الصناعات والحرف التي يشتغل بها الخلق .

والخلق إنما نسوا أنفسهم ، ومآبهم ، ومنقلبهم بالدنيا لهاتين العلاقتين : علاقة القلب بحب الدنيا ، وعلاقة البدن بالشغل فيها ، ولو عرف العبد نفسه ، وعرف ربه ، وعرف حكمة الدنيا وسرها ، وعرف حكمة الآخرة ونعيمها ، علم أن هذه الأعيان التي تسمى دنيا لم تُخلق إلا لعلف الدابة التي يسير بها إلى الله تعالى ، والدابة البدن ، فإنه لا يبقى ليعمل إلا بمطعمٍ ، ومشرب ، وملبس ، ومسكن ، كما لا يبقى ولا يسير الجمل إلا بعلفٍ وماء ، والحاج البصير لا يهمه من أمر الجمل إلا القدر الذي يقوى به على المشي ، فيتعهده ، وقلبه معلق بالكعبة والحج ، فكذلك البصير في السفر إلى الآخرة ، لا يشتغل بتعهد البدن ، بل يشتغل بالعمل الموصل إلى الله ، مع العناية بالبدن الذي لا يتم العمل إلا بسلامته : ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾** ﴾[الأعراف:٣٢] .

والمؤمن يستعين بما أعطاه الله في هذه الدنيا من الرزق على العمل للآخرة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [البقرة:١٧٢] .

وقد اختلف الناس اختلافًا كبيرًا في الإقبال على الدنيا ، والتجافي عنها ، وأوسط الأمور ، وأحبها إلى الله ، ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ، وهو ألا يترك الدنيا بالكُلية ، ولا يقمع الشهوات بالكُلية ، فيأخذ من الدنيا قدر الزاد ، ويقمع من الشهوات ما يخرج عن طاعة الشرع ، وعن العقل ، ولا يتبع كل شهوة ، ولا يترك كل شهوة ، بل يتبع العدل ، ولا يترك كل شيء من الدنيا ، ولا يطلب كل شيء من الدنيا ، بل يعلم مقصود كل ما خلق من الدنيا ، ويحفظه على حد مقصوده ، فيأخذ من القوت ما يقوى به البدن على العبادة ، ومن السكن ما يحفظ من اللصوص ، ويكن من الحر والبرد ، ومن الكسوة ما يستر العورة ، ويحفظ الإنسان من الحر والبرد ، حتى إذا فرغ القلب من شغل الدنيا وحاجاته ، أقبل على طاعة مولاه بكل همته ، واشتغل بالذكر والفكر والعمل الصالح طول العمر .

وتلك سيرة أهل القرن الأول ، فإنهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا بل للدين ، وما كانوا يترهبون ويهجرون الدنيا بالكلية ، وما كان لهم في الأمور تفريط ولا إفراط ، بل كان أمرهم بين ذلك قوامًا ، وذلك هو العدل الوسط بين الطرفين وأحب الأمور إلى الله : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان:٦٧] .

وطلب الدنيا كظل الإنسان ، لا يمكن أن يدركه ، ولو مشى الدهر كله ، فالعاقل إنما يأخذ منها بقدر الحاجة ، فإن ابتُلي بسعة المال أنفقه فيما يرضي الله ، وأخذ منه بقدر حاجته ، واستعان به على طاعة ربه : ﴿ إِنَّمَا

ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾

[الأنفال:٢- ٤ ].

والدنيا هي وما فيها ليست دارًا للعباد ، وإنما أسكنهم الله فيها ، واستخلفهم فيها ، إلى أجل مسمى ، لينظر كيف يعملون ، وابتلاهم بما فيها من الشهوات ، ليعلم من يقدم أوامر ربه على شهوات نفسه ، ومن يطيع الرحمن ممن يطيع الشيطان ، ومن يشتغل بجمع الحسنات ممن يشتغل بالاستكثار من الأموال والسيئات ، ومن يعمر أخراه ممن يعمر دنياه ، وممن يتبع الهُدى ممن يتبع الهوى كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾[الكهف:٧] .

وقال سبحانه : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾

[القصص:٥٠] .

والجمع بين تحصيل الأسباب التي تحصل بها لذات الدنيا ، والأسباب التي تحصل بها لذات الآخرة ، ممتنع غير ممكن ، والله ﷻ مكن الإنسان من تحصيل أيهما شاء أو أراد ، فمن اشتغل بتحصيل أحدهما فلابد أن يفوت الآخر ، والعاقل يقدم العمل للآخرة على العمل للدنيا ، ويؤثر الباقية على الفانية : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾[الأعلى: ١٦ – ١٩]

وقال ﷻ : ﴿ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ ﴾[الضحى:٤] .

والجاهل يؤثر الدنيا على الآخرة ، والفانية على الباقية ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، ويعلم من يستحق الكرامة ممن يستحق الإهانة : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾[الإسراء:١٨-٢٢] .

فالحياة الدنيا جُبِلت على الكد والنكد ، والبلاء والكبد ، والضنك والتعب .

وقد أقسم الله ﷻ الذي خلق كل شيء ، وعلم كل شيء ، بالبلد الأمين ، ورسوله الذي حلَّ فيه ، وبكل ما خلق ، أن هذه الحياة الدنيا لا تصفو لأحد ، وأنها في الغالب شقاء وتعب ومجاهدة كما قال سبحانه : ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ ﴾ [البلد: ١ – ٤]

فعلينا أن نأخذ من الدنيا بقدر الحاجة ، ونعطي للدين بقدر الطاقة : ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ ﴾ [الحج:٧٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [ القصص : ٧٧ ] .

# ٢- الخزانة الثانية

- **فقه الفتن :**

الدنيا دار الابتلاء والفتن : ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾[العنكبوت:٢-٣] .

والفتنة في كتاب الله ﷻ تطلق ويُراد بها الامتحان والابتلاء ، سواءً خلُصِ صاحبه من الافتتان ، أو حصل له افتتان كما قال سبحانه : ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَاۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾[الأعراف:١٥٥] .

وتطلق الفتنة على ما هو أعم من ذلك كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾[التغابن:١٥] .

ففي الأموال والأولاد شغل عن الآخرة ، فلا نطيعهم في معصية الله ، والإنسان مفتون بولده ، لأنه ربما عصى الله بسببه ، وربما تناول الحرام لأجله إلا من عصمه الله .

والقصد من الفتنة امتحان العباد ، هل يصبرون فيقومون بما أمرهم الله به ، فيثيبهم مولاهم ، أم لا يصبرون فيستحقون العقوبة ؟ .

وقد فتن الله العباد فتنة عامة ، وامتحن بعضهم ببعض كما قال سبحانه : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾[ الفرقان :٢٠] .

فامتحن الله ﷻ الرسل بالمرسل إليهم ، ودعوتهم إلى الحق ، والصبر على آذاهم ، وامتحن المرسل إليهم بالرسل ، هل يطيعونهم ، ويرضونهم ، ويصدقونهم ويجاهدون معهم ، أم يكفرون بهم ، ويقاتلونهم ؟ .

وامتحن العلماء بالجهَّال ، هل يعلمونهم ، وينصحونهم ، ويصبرون على تعليمهم وتربيتهم ، أم يضجرون منهم ، ويتركونهم في غيهم وضلالهم ؟ .

وامتحن الجهَّال بالعلماء ، هل يطيعونهم ، ويهتدون بعلمهم ، أم يعرضون عنهم ، ويتركون مجالسهم ؟ .

وامتحن الملوك بالرعية، وامتحن الرعية بالملوك، وامتحن الأغنياء بالفقراء، وامتحن الفقراء بالأغنياء، وامتحن سبحانه الأقوياء بالضعفاء، وامتحن الضعفاء بالأقوياء، وامتحن الرجل بزوجته، وامتحن الزوجة بزوجها، وامتحن الرجل بأولاده، وامتحن الأولاد بأبيهم، وامتحن الرجال بالنساء ، وامتحن النساء بالرجال ، وامتحن المؤمنين بالكفار ، وامتحن الكفار بالمؤمنين ، وامتحن الآمرين بالمعروف بمن يأمرونهم ، وامتحن المأمورين بهم ، ولذلك كان فقراء المسلمين وضعفائهم من أتباع الرسل فتنة لأغنياء الكفار ورؤسائهم ، امتنعوا عن الإيمان بسببهم مع معرفتهم بصدق الرسل ، فتنة كما قال سبحانه : ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ٥٣﴾[الأنعام:٥٣] .

فالفتنة كير القلوب ، ومحك الإيمان ، وبها يتبين الصادق من الكاذب ، والمؤمن من المنافق ، والطيب من الخبيث ، فمن صبر عليها كانت رحمة في حقه ، ونجا بصبره من فتنة أعظم منها ، ومن لم يصبر عليها وقع في فتنة أشد منها : ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣﴾[العنكبوت:٣] .

فالفتنة لابد منها في الدنيا ، ليعلم الله الصادق من الكاذب ، وكذلك لابد منها في الآخرة ، لكل من سقط في الفتنة ، كما قال سبحانه عن الكفار والعصاة : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الذاريات:١٣-١٤] .

والكافر مفتون بالمؤمن في الدنيا ، كما أن المؤمن مفتون بالكافر ، ولذلك سأل المؤمنون ربهم ألا يجعلهم فتنة للذين كفروا ، كما قال سبحانه عن المؤمنين : ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ [الممتحنة: ٤ – ٥]

وقال أصحاب موسى ﷺ : ﴿ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [يونس:٨٥-٨٦].

أي لا تعذبنا بأيديهم ، ولا بعذاب من عندك ، فيقولون : لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم بهذا ، ولا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على الحق ، فيفتنوا بذلك فيهلكوا، ولا تقتر علينا الرزق، وتبسطه عليهم، فيكون ذلك فتنة لهم .

والإنسان في هذه الدنيا محل الفتنة ، فهو مفتون لا محالة ، إما بالخير وإما بالشر ، فهو مفتون بشهواته ، ونفسه الأمارة بالسوء ، وشيطانه المُغوُي المُزين له ، وقرناء السوء ، وما يراه ، وما يشاهده ، وما يسمعه ، وغير ذلك مما يعجز صبره عنه من الأموال والأولاد والشهوات كما قال سبحانه : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٣٥] .

• **أنواع الفتنة :**

**الفتنة نوعان :**

فتنة الشهوات .. وفتنة الشبهات .

وقد تجتمعان للعبد ، وقد ينفرد بأحدهما .

**النوع الأول : فتنة الشبهات**

ففتنة الشبهات من ضعف البصيرة، وقلة العلم، لا سيما مع وجود فساد القصد ، وحصول الهوى ، فهنالك الفتنة العظمى ، فهذا من الذين قال الله فيهم : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النجم:٢٣].

وهذه الفتنة أعظم الفتنتين ، ومآلها إلى الكفر والنفاق ، وهي فتنة المنافقين ، وفتنة أهل البدع ، على حسب مراتبهم ، وهذه الفتنة تنشأ من عدة أسباب :

تارة تنشأ من فهم فاسد ، وتارة من نقل كاذب ، وتارة من حق خَفِيَ على الرجل فلم يظفر به ، وتارة من غرض فاسد ، وتارة من هوى متبع ، ولا ينجي من هذه الفتنة إلا تجريد إتباع الرسول ﷺ ، وتحكيمه في كل شيء ، في أصول الدين وفروعه ، وظاهره وباطنه ، وعقائده وأحكامه : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء:٦٥ ] .

فيتلقى العبد عنه حقائق الإيمان ، وشرائع الإسلام ، كما يتلقى عنه وجوب الصلوات ، وأوقاتها ، وأعدادها ، ووجوب الوضوء والغُسل من الجنابة ، ومقادير الزكاة ، وغيرها من أحكام الدين : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ

عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف:١١٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴿٢١﴾ ﴾ [ الأحزاب : ٢١ ] .

فلا يجعل الرسول ﷺ رسولًا في شيء دون شيء من أمور الدين ، بل هو رسول في كل شيء تحتاج إليه الأمة في العلم والعمل ، لا يتلقى إلا عنه ، ولا يُؤخذ إلا منه ، فالهدى كله دائر على أقواله وأفعاله وأخلاقه ، وكل ما خرج عنها فهو ضلال كما قال سبحانه : ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٨] .

**والشبهات تأتي من أحد شخصين :**

إما عدو حاقد على الإسلام والمسلمين .

وإما إنسان جاهل قذف الشيطان في قلبه ما جعل الحق يلتبس عليه .

فالأول أخطر النوعين وأخبثهم ، وكلاهما خبيث ، يؤثر على ضعاف النفوس والهمج الرعاع ، ويحدث بلبلة في أفكارهم ، وتصرفاتهم ، ولهذا يجب كشف هذه الشبهات الباطلة ، لئلا تصد الناس عن دين الله .

**لكن يجب في فتنه الشبهات أمران :**

**الأول** : ألا يتصدى لرد الشبهات ، وكشف زيفها ، إلا عالم متمكن من معرفة الحق والباطل بالأدلة الشرعية ، حتى يحسن ويحكم إغلاق هذه الثغرات ، ويزيل هذه الشبهات، وهذه لا يستطيعه إلا العلماء الراسخون : ﴿ كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [آل عمران:٧٩].

**الثاني** : ينبغي على طالب العلم ألا يشغل كل وقته بهذه الشبهات وردها ؛ لأن الأعداء يريدون إشغال العلماء وأهل الإسلام عن الإسلام ، والعمل به ،

وتعليمه ، والدعوة إليه ، فيقذفون اليوم بشبهة وغدًا بشبهة ، فتكثر الردود ، وتتنوع الإجابات ، وتختلف الفتاوى ، فيحصل الشك ، ويقع الجدل ، وإذا بالعلماء بعد مدة لا يستطيعون ولا يتفرغون لنشر الإسلام ، ولا يجدون فرصة لتعليم الناس أحكام دينهم .

وقد جاء البلاء من عدم الفقه بدين الله من صنفين من الناس :

من اناس يتصدرون لرد الشبهات بلا علم .

أو أناس يتصدون للشبهات حتى تضيع أوقاتهم فيها .

وحينئذٍ يحقق أعداء الإسلام ما يريدون بإقحام العامة ، ليقولوا ما شاءوا بلا علم ، وإشغال العلماء عن الواجبات والأصول ، وضبط العلم وفقهه ، وتعليمه الناس .

فالاشتغال بالشبهات ودراستها له قيمة في الدين ، وهو من الحق الذي يزال به الباطل ، لكن الاشتغال به أكثر من اللازم ، تضيع به حقوق وواجبات كبرى أكد عليها الشرع ، وألزم بها عباده ، ومن ذلك الدعوة إلى الله كما قال سبحانه : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [ يوسف : ١٠٨ ] .

وتعليم شرع الله : ﴿ كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [ آل عمران :٧٩ ] .

وليس المراد قفل باب الرد على الشبهات ، فإنه من الدين ، وإنما عدم المبالغة فيه ، وعدم فتح الباب لكل أحد لأن يقول ما شاء ، وإنما ذلك للعلماء الراسخين في العلم ، وكل ما نرى من الكذب والإفتراء ، والصخب واللغط ، والشبهات والتلبيسات ، كلها منتهية مقطوع دابرها ، ودابر أهلها ،

ودابر من دافع عنها عاجلًا أو آجلًا : ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء:٨١] .

أما الحق فهو باقٍ ما بقي الزمان ، وتعاقب الليل والنهار ، لأن الله تكفل بحفظه ، وحيثما حلَّ الحق والإيمان ، كان هناك الأمن والطمأنينة في الدنيا والآخرة : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ الرعد :٢٨- ٢٩ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام:٨٢] .

فالشريعة ليس فيها خلط ، ولا شبه ، ولا أهواء ، ولا ظلم كما قال سبحانه : ﴿ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأنعام:٥٧] .

فالحق والعدل في أبهى صوره ، وأجمل حُلله ، في الإسلام لا في غيره كما قال سبحانه : ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الإسراء:١٠٥] .

وكذلك وكلما جاءت شبهة زادت ولي الله تمسكًا بالحق ، وزهدًا في الباطل : ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الزخرف:٤٣] .

**النوع الثاني : فتنة الشهوات .**

وقد جمع الله بين الفتنتين في قوله سبحانه : ﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى

خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾[التوبة:٦٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾[ آل عمران :١٤ ] .

وأصل كل فتنة إنما هو من تقديم الرأي على الشرع ، والهوى على العقل ، فالأول أصل فتنة الشبهات ، والثاني أصل فتنة الشهوات ، وفتنة الشبهات تُدفع باليقين ، وفتنة الشهوات تُدفع بالصبر .

قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾[السجدة:٢٤] .

وجمع الله بينهما في قوله سبحانه : ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر:١-٣].

أي تواصوا بالحق الذي يدفع الشبهات ، وبالصبر الذي يكف عن الشهوات ، فبكمال العقل والصبر تُدفع فتنة الشهوات ، وبكمال البصيرة واليقين تدفع فتنة الشبهات .

وإذا سلِم العبد من فتنة الشبهات والشهوات ، حصلت له الإمامة في الدين ، وحصلت له أعظم غايتين مطلوبتين ، بهما سعادته وفلاحه وكماله ، وهما : الهدى والرحمة كما قال سبحانه : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾[يونس:٥٧].

والشيطان في كل يوم، بل في كل لحظة، يبعث ويوجه ويحرك آلاف الأفراد، والجماعات ، لعمارة الدنيا ، والإفساد في الأرض ، وإثارة الشبهات ،

والاستمتاع بالشهوات والمحرمات ، وغشيان الفواحش والآثام، ومزاولة السرقات، والزنا، وشرب الخمور، وأكل أموال الناس بالباطل، وظلم الناس، وإيذاء المسلمين ، ولا يفتر عن ذلك ليلًا ونهارًا، وأوقع في فتنة الشهوات ما لا يحصى من البشر من مسلم وكافر، فأعرضوا عن أوامر الله، واشتغلوا بتكميل شهواتهم من المطاعم والمشارب والملابس والمساكن والمراكب والمناكح : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا ﴿٥٩﴾ ﴾ [مريم:٥٩] .

وكذلك الشيطان يوجه ويحرك آلافاً من العلماء ، والدعاة ، وطلبة العلم ، ويزين لهم الإنتصار للنفس لا للدين ، ويستعملهم في الجدل والمراء ، ويغمسهم في السُمعة والرياء ، ويزين لهم الفتاوى الشاذة ، ويحسن لهم أكل الدنيا بالدين ، والازدحام على أبواب المناصب ، وبذل الجهود من أجلها ، لنفع الدين من خلالها ، وهيهات أن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها بالهدى ، والرحمة ، والشفقة ، والتواضع ، والعدل ، والإحسان ، والبر ، والتقوى ، وغير ذلك من شعب الإيمان ، ومحاسن الأخلاق : ﴿ فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الزخرف:٤٣] .

وكل ما اوجب فتنة وفرقة فليس من الدين ، سواء كان قولًا أو فعلًا ، ولا تقع الفتنة إلا من ترك ما أمر الله به ، فالله سبحانه أمر بالحق ، وأمر بالصبر ، والفتنة إما من ترك الحق ، وإما من ترك الصبر ، فالمظلوم إذا صبر واتقى كانت العاقبة له كما قال سبحانه : ﴿ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [آل عمران:١٢٠] .

وقد أمر الله ﷻ بالصبر على البلاء ، والصبر على أذى أهل الكتاب والمشركين ؛ تنبيهًا على الصبر على أذى المؤمنين بعضهم على بعض كما قال سبحانه : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [آل عمران:١٨٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران:٢٠٠] .

وقد أمرنا الله ﷻ بالعدل مع الكفار ، فكيف إذا كان البغض فاسق أو مبتدع متأول من أهل الإيمان ، فاتقوا الله أيها المؤمنون : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة:٨] .

والكفر والفسوق والعصيان ، سبب لكل شر وعدوان ، فقد يذنب الرجل أو الطائفة ، ويسكت آخرون عن الأمر والنهي ، فيكون ذلك من ذنوبهم ، وينكر عليهم آخرون إنكارًا منهيًا عنه ، فيكون ذلك من ذنوبهم ، فيحصل بسبب ذلك التفرق والاختلاف والشر ، وهذا من أعظم الفتن قديمًا وحديثًا ، إذ الإنسان ظلوم جهول كفَّار ، ومن تدبروا الفتن الواقعة ، رأى أسبابها ذلك ، ورأى أن ما وقع بين علماء الأمة وأمرائها ، ومن دخل في ذلك من ملوكها ، ومشايخها ، ومن تبعهم من العامة ، هذا أصلها ، ومنه تُفجَّر براكينها : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [ النحل : ٩٠ ].

• **أقسام الفتن :**

**الفتن أقسام :**

**الأولى** : فتنة الرجل في نفسه ، بأن يقسو قلبه ، فلا يجد حلاوة الطاعة ، ولا لذة المناجاة ، وهذه هي أعظم فتنة : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣ ﴾ [ يوسف : ٥٣ ] .

**الثانية** : فتنة الرجل في أهله ، وهي فساد تدبير المنزل ، وقد تولى ذلك الشيطان وذريته كما قال النبي ﷺ : « إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى المَاءِ ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً ، يجِيءُ أَحَدُهُمْ ، فَيَقُولُ : فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا ، فَيَقُولُ : مَا صَنَعْتَ شَيْئًا ، قَالَ : ثُمَّ يجِيءُ أَحَدُهُمْ ، فَيَقُولُ : مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ ، قَالَ : فَيُدْنِيهِ مِنْهُ ، وَيَقُولُ : نِعْمَ أَنْتَ ». أخرجه مسلم[1].

**الثالثة** : فتنة تموج كموج البحر ، وهي فساد تدبير المدينة ، وطمع الناس في الخلافة والولاية من غير حق كما قال النبي ﷺ : « إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ المُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ » . أخرجه مسلم[2] .

**الرابعة** : فتنة مليِّة بأن يموت الصالحون، ويسند الأمر إلى غير أهله ونحو ذلك . قال النبي ﷺ : « سَتَكُونُ فِتَنٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ الْقَائِمِ وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ المَاشِي وَالمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنْ السَّاعِي ومَنْ يُشرِفَ لهَا تَسْتَشْرِفْهُ وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ » . متفق عليه[3] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٦٧/ ٢٨١٣).

(٢) أخرجه مسلم برقم: (٦٥/ ٢٨١٢).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٧٠٨١)، واللفظ له، ومسلم برقم: (١٠/ ٢٨٨٦).

والفتن إذا جاءت كان ضررها على أهل الإيمان أكثر من غيرهم كاللصوص إذا دخلوا بلدًا ، فأول من يخاف منهم أصحاب الأموال ، يتسلحون للدفاع عن أموالهم ، أما غيرهم فلا يهتمون ، لأنه ليس عندهم ما يخافون عليه ، وكذلك أهل الإيمان والأعمال الصالحة ، إذا جاءت الفتن تسلحوا وتحصنوا بالإيمان ، والأذكار ، والدعاء والعبادة ، فذلك حصنهم من أعدائهم ، أما من ليس عنده إيمان وأعمال فلا يبالي ، لأن حياته لم تقم على الإيمان والأعمال الصالحة ، فليس عندهم ما يخافوا عليه ، كالفقير الذي ليس عنده مال يخاف عليه من اللصوص .

والفتنة تطلق على العذاب وسببه ، ولهذا سمى الله الكفر فتنة كما قال سبحانه ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾[النور:٦٣] .

فالكفار فتنوا أولًا بأسباب الدنيا وزينتها ، ثم فتنوا بإرسال رسل الله إليهم ، ثم فتنوا بمخالفتهم وتكذيبهم ، ثم فتنوا بعذاب الدنيا : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾[الشعراء:٢١٣] .

ثم فتنوا بعذاب القبر ، ثم يفتنون في موقف القيامة، ثم إذا حشروا إلى النار ، وأوقفوا عليها ، وعرضوا عليها وذلك من أعظم فتنتهم : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾[الأحقاف:٣٤] .

ثم تحصل لهم في النهاية الفتنة الكبرى التي أنستهم جميع الفتن قبلها ، وهي دخول النار ، وتعذيبهم بها ، وخلودهم فيها : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[الذاريات:١٣-١٤] .

وقد حذر الله عباده المؤمنين من فتنة الأموال ، والأزواج ، والأولاد ، التي تشغلهم عن طاعة الله كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ ﴾ [المنافقون:٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥ ﴾ [ التغابن :١٤- ١٥ ] .

وأظلم الظلم الشرك بالله ، ونبذ شريعة الله في الحياة ، وإتباع شرع غيره : ﴿ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣ ﴾ [النور:٦٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥ ﴾ [ النساء :١١٥ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ٤٩ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٥٠ ﴾ [المائدة:٤٩-٥٠] .

فالأمة التي تسمح لفريق منها بالظلم في صورة من صوره ، ولا تقف في وجه الظالمين ، ولا تأخذ الطريق على المفسدين ، هي أمة تستحق أن تؤخذ بجريرة الظالمين المفسدين كما قال سبحانه : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ ﴾ [المائدة:٧٨-٧٩] .

فالإسلام منهج كامل لابد من إقامته في حياة الناس ، ولابد من حراسته ، والدفاع عنه ، ولابد من إبلاغه للبشرية كلها : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ ﴾[البقرة:٢٠٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٢ ﴾[إبراهيم:٥٢] .

فالإسلام لا يسمح أن يقعد القاعدون ، والظلم والفساد والمنكر ، يشيع في الأرض ، فضلًا عن أن يروا دين الله لا يُتبع ، بل أن يروا إلوهية الله تُنكر ، وتقوم ألوهية العبيد مكانها ، وهم ساكتون ، ثم هم بعد ذلك يرجون أن يخرجهم الله من الفتنة ، لأنهم في ذاتهم صالحون طيبون ، إن هذا خلاف سنة الله الجارية ، فليستجيبوا لله في كل ما أمرهم الله به ، ويستعينوا به وحده ، ويتوكلوا عليه وحده ، وإلا أصابتهم فتنة تدع الحليم حيران : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥ ﴾ [الأنفال: ٢٤-٢٥] .

ولما كانت مقاومة الظلم والفساد والمفسدين ، تكلف الناس أنفسهم وأموالهم ، فإن الله يُذكر العصبة المسلمة ، ويطمئنهم بتأييده ونصره ورزقه لمن استجاب لله والرسول فيقول : ﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٢٦ ﴾[الأنفال:٢٦] .

إن جوهرة الإيمان وقاعدته أزكى من كل شيء ، وإن قيمة هذه الأرض لمن الزهادة والرخص ، بحيث لو شاء الله لأغدقها إغداقًا على الكافرين به ، لولا أن تكون فتنة للناس ، تصدهم عن الإيمان بالله ، ولولا خوف الفتنة على المؤمنين لبذلت الدنيا للكفار هكذا رخيصةً بلا تعب ، لهوانها على الله كما قال سبحانه : ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾[الزخرف:٣٣-٣٥] .

إن عرض الدنيا من مال ، وزينة ، ومتاع ، ليفتن أكثر الناس ، وأشد الفتنة حين يرونه في أيدي الفجَّار والكفار ، ويرون أيدي الأبرار منه خالية ، أو يرون هؤلاء في عسر ومشقة ، وأولئك في قوة وثروة وسطوة ، والله ﷻ يعلم وقع هذه الفتنة في قلوب الناس ، ولكنه يكشف لهم عن زهادة هذه القيم وهوانها عليه ، ويكشف لهم عن نفاسة ما يدخره للمؤمنين في الآخرة ، والمؤمن يطمئن لاختيار الله للأبرار والفجار ، وما في الدنيا كله متاع ، وما في الآخرة أفضل وأعظم وأبقى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[التوبة:٧٢] .

ألا ما أعظم الفتن ، وما أشد خطرها على الأمة ! .

قال النبي ﷺ : « يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ ، وَيَنْقُصُ الْعَمَلُ ، وَيُلْقَى الشُّحُّ ، وَتَظْهَرُ الْفِتَنُ ، وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَيُّمَ هُوَ ؟ ، قَالَ : الْقَتْلُ الْقَتْلُ » .متفق عليه[1] .

ومكان ظهور الفتن من المشرق .

عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أن الرسول ﷺ قال وهو مستقبل المشرق : « أَلَا إِنَّ الْفِتْنَةَ هَا هُنَا ، مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ » . متفق عليه[2] .

وجماع معنى الفتنة الابتلاء ، والامتحان ، والاختبار .

والفتنة هي ما يبين به حال الإنسان من الخير والشر ، والصدق والكذب : ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾[ العنكبوت :٢- ٣] .

والفرق بين الفتنة ، والابتلاء ، والاختبار .

أن الفتنة أشد الاختبار وأبلغه ، وتكون في الخير والشر .

أما الفرق بين الابتلاء ، والاختبار ، فهو أن الابتلاء لا يكون إلا بتحمل المكاره والمشاق ، والاختبار يكون بالخير والشر ، والسراء والضراء ، وقد يكون الإبتلاء باستخراج ما عند المبتلى من الطاعة والمعصية ، والاختبار وقوع الخبر بحاله في ذلك.

**والفتنة نوعان :**

١- فتنة من الله . ٢- وفتنة من العبد .

فالفتنة من الله كالبلية والمصائب التي تصيب الناس ، وغير ذلك من الأفعال المؤلمة ، فهذا كله يقع من الله على عباده على وجه الحكمة كما قال

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٠٣٧ )، واللفظ له، ومسلم برقم: (١١/ ١٥٧).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٧٠٩٣)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٤٥/ ٢٩٠٥).

سبحانه : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧] .

ومتى كان هذا من الإنسان بغير أمر الله كالقتل والتعذيب ، فهو بضد ذلك ، ولهذا يذم الله الإنسان بأنواع الفتنة في كل مكان كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ ﴾ [البروج:١٠] .

وهذه الدنيا مملوءة بالفتن المضلة :

فتنة الأموال ، وفتنة الشهوات ، وفتنة النساء، وفتنة الأولاد، وفتنة الشبهات.

قال النبي ﷺ : « إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ ، وَإِنَّ اللهَّ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا ، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ؟ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا ، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، كَانَتْ فِي النِّسَاءِ » .أخرجه مسلم(١) .

وهذه الفتن العظيمة المختلفة تهجم على العبد ، وتغريه بحسنها وجمالها ، وتخدعه بعاجل لذاتها ، فيقع في شراكها فيهلك ، فعليه بالمبادرة إلى الإيمان والأعمال الصالحة ، ليحفظ نفسه منها كما قال النبي ﷺ : « بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا ، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا ». أخرجه مسلم(٢) .

اللهم احفظنا، وجميع المسلمين والمسلمات، من الفتن ما ظهر منها وما بطن .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٩٩/ ٢٧٤٢).

(٢) أخرجه مسلم برقم: (١٨٦/ ١١٨).

# ٣- الخزانة الثالثة

## فتنة الأموال والشهوات :

**خلق الله ﷻ الإنسان مركبًا من ثلاثة أشياء :**

جسدًا ماديًا .. و نفسًا حيوانيًا .. وروحًا ملكيًا : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ [ التين :٤- ٦ ] .

فجسد الإنسان يخلقه الله في بطن الأم ، ثم يخرج إلى الدنيا ، وفي نفس الإنسان بحار الشهوات ، وفي روح الإنسان بحار الطاعات ، والجسد للغالب منهما ، والشهوات والطاعات ليس لها حد ، والنفس تريد تكميل الشهوات كلها في الدنيا .

والله ﷻ جعل الدنيا محل تكميل الأوامر والطاعات ، وجعل الآخرة محل تكميل الشهوات ، فمن أكمل طاعة الله في الدنيا ، أكمل الله شهواته في الآخرة ، فالذي يريد تكميل الشهوات في الدنيا إنما يطلب المحال ؛ لأن الله جعل الدنيا ليست محلًا لتكميل الشهوات ، وفي الدنيا طريقان :

طريق إلى الجنة .. وطريق إلى النار : ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [ الإسراء :١٨- ٢١] .

فالإيمان والعمل الصالح الطريق الوحيد إلى الجنة ، والكفر والمعاصي الطريق الوحيد إلى النار : ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ ﴾[الحج:٥٦ -٥٧] .

فالذي يريد تكميل الشهوات عليه أن يبحث عن طريق الجنة ، وهو الدين ، ولا يضع قدمه في طريق النار ، وأوامر الله ﷻ كلها في مقابل شهوات النفس ، فالإنسان إما أن يترك الشهوات بسبب الطاعات ، أو يترك الطاعات بسبب الشهوات كما قال سبحانه : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾[مريم:٥٩] .

ولا يمكن الجمع بينهما ، كما لا يمكن الجمع بين الماء والنار ، لكن على العبد أن يفعل الأوامر ، ويأخذ من الشهوات بقدر الحاجة ، فالطاعات من الرب ، والشهوات من النفس ، والنفس أمارة بالسوء ، فالإنسان إما أن يكون عبدًا للرب ، أو عبدًا للنفس ، والشيطان زين للناس أن الشهوات ضرورة ، فاتبع أكثر الناس الشهوات ، فتركوا أوامر الله .

والله تبارك وتعالى خالق كل شيء ، خالق الخلق ، واسع الرزق ، أنعم على العالمين بأنواع الأرزاق ، وأصناف الأموال ، وابتلاهم فيها بتقلب الأحوال ، فهم بين العسر واليسر، والغنى والفقر، والطمع واليأس، والقناعة والحرص، والبخل والجود ، والتبذير والتقتير : ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾[ العنكبوت :٢- ٣ ] .

كل ذلك ليبلوهم أيهم أحسن عملًا ، وينظر من يؤثر الإيمان والأعمال الصالحة على الأموال والشهوات ، ويرى من يؤثر الآخرة على الدنيا كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾ [الكهف:٧] .

وفتن الدنيا كثيرة الأنواع ، وواسعة الأرجاء ، ويجمعها كل ما كان للإنسان فيه حظ عاجل أشغل عن طاعة الله ورسوله ، والأموال أعظمها فتنة ، وأطمها محنة ، وأعظم فتنة فيها أنه لا غنى لأحد عنها ، وإذا وجدت فلا سلامة منها ، وإذا فُقد المال حصُل منه الفقر الذي يكاد أن يكون كفرًا ، وإذا وُجد حصل فيه الطغيان الذي لا تكون عاقبة أمره إلا خُسرًا كما قال سبحانه : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق:٦-٧] .

والأموال بوجه عام لا تخلو من الفوائد والآفات ، وفوائدها من المنجيات ، وآفاتها من المهلكات ، وتمييز خيرها من شرها لا يدركه إلا أهل البصائر في الدين من العلماء الأبرار ، فالدنيا فتنها كثيرة ، والمال بعض أجزاء الدنيا ، والجاه بعضها ، وإتباع شهوة البطن والفرج بعضها ، وأكل الحرام بعضها ، ونحو ذلك : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ ﴾ [ آل عمران : ١٤ ] .

**والغنى والفقر حالتان يبتلى بهما العباد في الدنيا ، فللفقير حالتان :**

القناعة .. والحرص .

**فالقناعة محمودة ، والحرص مذموم ، وللحريص حالتان :**

طمع فيما في أيدي الناس .. وتشمر للعمل .

**والطمع شر الحالين ، وللغني حالتان :**

إمساك بحكم البخل والشح .. وإنفاق بحكم الجود والكرم .

**فالأولى مذمومة ، والأخرى محمودة ، وللمنفق حالتان :**

تبذير .. واقتصاد .

والمحمود هو الاقتصاد كما قال سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان:٦٧] .

والمذموم التبذير كما قال سبحانه : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴿٢٧﴾ ﴾[الإسراء:٢٦-٢٧] .

وقد خلق الله سبحانه الأموال لمصالح العباد ، والمال لا يذم لذاته ، بل يقع الذم لمعنى من الآدمي ، وذلك المعنى إما شدة حرصه ، أو أخذه من غير حِلِّه ، أو حبسه عن حقه ، أو إخراجه في غير وجهه ، أو المفاخرة به ، والتكبر على الخلق بسببه .

فالمال لا يذم لذاته ، بل ينبغي أن يمدح ، لأنه سبب للتوصل إلى مصالح الدين والدنيا ، وهو سبب لأعمال خيرية كثيرة نافعة ، وقد سماه الله تعالى خيرًا ، وهو قِوام الآدمي ، لكن الواجب فيه أخذه من حله ، ووضعه في حله ، فلابد من معرفة فوائده وغوائله ، ليحترز العبد من شره ، ويستكثر من خيره : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾[ البقرة :٢٦٢ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [ البقرة :٢٦١ ] .

• **فوائد المال** :

**فوائد المال تنقسم إلى قسمين** :

فوائد دنيوية .. وفوائد دينية .

فالفوائد الدنيوية الخلق يعرفونها ، ولذلك تهالكوا في طلبها .

وأما الفوائد الدينية فتنحصر في ثلاثة أنواع :

**أحدها** : أن ينفق المال على نفسه وأهله ؛ إما في عبادة كالحج والجهاد في سبيل الله ، وإما في الاستعانة به على العبادة كالمطعم والملبس والمسكن ونحوها من ضرورات المعيشة ، فإن هذه الحاجات إذا لم تتيسر ، لم يتفرغ القلب للدين ، والتوجه في العبادة ، وما لا يُتوصل إلى حسن العبادة وكمالها إلا به فهو عبادة ، فأخذ الكفاية من الدنيا للاستعانة به على الدين من الفوائد الدينية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [ البقرة : ١٧٢ ] .

**الثاني** : ما يصرفه الغني للناس من الأموال كالصدقات والزكوات للفقراء والمساكين ونحوهم ، والمروءة ببذل الأموال للأغنياء والأشراف ، وإلى العلماء والدعاة ، في ضيافة أو هدية أو إعانة ، ونحو ذلك مما يكتسب به العبد الإخوان والأصدقاء ، ووقاية عرضه كبذل المال لقطع ألسنة السفهاء ، وكف شرهم ، وما يعطيه أجرًا على الاستخدام ، فإن الأعمال التي يحتاج إليها الإنسان لمصالحه كثيرة ، ولو تولاها بنفسه لضاعت أوقاته : ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾ ﴾ [ الأنفال :٢– ٤ ] .

**الثالث** : ما لا يصرفه الإنسان إلى معين ، لكن يحصل به خيرًا عامًا كبناء المساجد ، والأوقاف ، والوصايا ونحوها كالإنفاق في سبيل الله على الدعاة والمجاهدين في سبيل الله ، ويضاف إلى ذلك الخلاص من ذل السؤال وحقارة الفقر ، والاستغناء عما في أيدي الغير : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ ﴾ [ آل عمران :١٣٣- ١٣٤ ] .

**آفات المال :**

**غوائل المال وآفاته قسمان كذلك :**

- آفات دينية .
- وآفات دنيوية .

**أما الآفات الدينية فثلاث :**

**الأولى** : أن المال يجر للمعاصي غالبًا ، لأن من استشعر القدرة على المعصية قويت دواعيه إليها كما قال سبحانه : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧ ﴾ [العلق:٦-٧] .

والمال نوع من القدرة ، يحرك داعية الإنسان إلى المعاصي ، والاستكثار من الشهوات ، فصاحب القدرة إن اقتحم ما يشتهيه هلك ، وإن صبر لقي شدة في معاناة الصبر مع القدرة ، وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء ، ومن العصمة ألا تجد : ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢ ﴾ [ هود : ١١٢ ] .

**الثانية** : أن المال يحرك الإنسان للتنعم في المباحات ، حتى تصير له عادة وإلفًا فلا يصبر عنها ، وربما لا يقدر على استدامتها ، فيهم بكسب فيه شبهة ، فيقتحم الشبهات ، ويترقى إلى الكذب والنفاق ، ثم يدخل في المحرمات من الغش والكذب ، لتكميل شهواته ، ثم يترقى إلى الكبائر كما قال سبحانه : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا ﴿٥٩﴾ ﴾[مريم:٥٩] .

**الثالثة** : أن يلهيه ماله عن ذكر الله ﷻ وعبادته ، وهذا هو الداء العضال الذي لا ينفك عنه أحد ، فإن أصل العبادات ذكر الله ﷻ ، والتفكر في جلاله وعظمته ، وذلك يستدعي قلبًا فارغًا يناجي ربه ، لا يشغله شيء عنه ، وصاحب الضيعة ، يصبح ويمسي متفكرًا في أحوال ضيعته ، وصاحب التجارة يمسي ويصبح متفكرًا في أحوال تجارته ، وفي الخوف على ماله ، هذا سوى ما يقاسيه أرباب الأموال في الدنيا من الخوف والحزن ، والهم والغم ، والعناء والتعب ، في متاع يفنى ، وخير من ذلك لو كان الجهد في أرباح تبقى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾[ آل عمران :١٤- ١٥ ] .

وقال النبي ﷺ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا وَقَنَّعَهُ الله بما آتاه». أخرجه مسلم[1].

وقال الرسول ﷺ : « اللّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ محُمَّدٍ قُوتاً » .متفق عليه[2].

والسنة فيمن وجد المال أن يستعمله في السخاء ، والإيثار ، واصطناع المعروف ، ومن فقد المال أن يستعمل القناعة ، والاقتصاد في المعيشة .

وإذا تيسر للإنسان في الحال ما يكفيه ، فلا يضطرب لأجل المستقبل ، وإذا انسد عنه باب كان ينتظر منه الرزق ، فلا ينبغي أن يضطرب قلبه ، فلا ينقص رزقه الذي قدره الله له أبداً : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣ ﴾[ الطلاق : ٢ – ٣ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦ ﴾[ هود : ٦ ] .

وقال النبي ﷺ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، اتَّقُوا اللهَ ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ ، فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا ، وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا ، فَاتَّقُوا اللهَ ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ ، خُذُوا مَا حَلَّ ، وَدَعُوا مَا حَرُمَ ».أخرجه ابن ماجه بسند صحيح[3].

- **المال النافع :**

**المال لا ينفع صاحبه إلا إذا توفرت فيه ثلاثة شروط :**

**الأول** : أن يكون حلالًا .

**الثاني** : أن لا يشغل عن ذكر الله ، وطاعة الله ورسوله .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (١٢٥/ ١٠٥٤).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٠٩٥)، ومسلم برقم: (١٢٦/ ١٠٥٥)، واللفظ له.

(٣) صحيح/ أخرجه ابن ماجة برقم: (٢١٤٤).

**الثالث** : أن يؤدي حق الله فيه من زكاة ونحوها .

والمربي هو الله سبحانه ، والرزاق هو الله وحده ، فالتاجر يجلس في متجره لينفذ أوامر الله في التجارة ، لا بنية أن المتجر يربيني أو يرزقني ، لأن الرزاق والمربي هو الله وحده ، والمتجر سبب للربح أو الخسارة ، وقد أمرنا الله بالكسب كما أمرنا بالصلاة فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الجمعة:٩-١٠ ] .

فالتاجر في امتحان في تجارته ، هل يلتزم بأوامر الله ورسوله في تجارته ؟ هل ينفذ أوامر الله في أمواله كسبًا وإنفاقًا ؟ هل يميز بين الحلال والحرام في تجارته ؟ هل يحسن في تجارته ؟ هل يغش في تجارته ؟ هل يقينه على ربه أم على جهده ؟ وهكذا فهو يجرب إيمانه ، فهل ينفذ أوامر الله أم يتبع الهوى ، فيأخذ ما حل وحرم ؟ .

فمن كانت تجارته وفق أوامر الله ، بارك الله في تجارته وصارت تجارته عبادة ، فبعد الإيمان تأتي حركات المسلم وأعماله ، كلها على طريقة الرسول ﷺ عبادةً ودعوة ، ومعاملةً ، وتجارة ، وجهاداً وغير ذلك : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣ ] .

لكن المسلم يعمل في الكسب بجوارحه ، وقلبه معلق بالله والدار الآخرة ، والمقصود من التجارة الإفادة لجميع الإنسانية بتوفير ما يحتاجه الناس من الحلال الطيب ، وتنفيذ أوامر الله في التجارة ، بأخذها من الحلال وإنفاقها في وجوه الخير النافعة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه : ﴿

وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾ [ المائدة :٢ ] .

**لكسب المال طريقان :**

**الأول** : طريق لعامة الناس مؤمنهم وكافرهم ، وهو طلب الرزق بالأسباب المشروعة في سائر البلاد كما قال سبحانه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الملك:١٥] .

**الثاني** : طريق الخاصة ، وهم المؤمنون المتقون ، الذين يجتهدون في دين الله ، وليس عندهم وقت أن يشتغلوا بالأسباب الكسبية ، فهؤلاء عليهم أن يختاروا طريق الإيمان والتقوى ، فيحصلوا على خمسة أشياء :

**الأول** : حصول البركات كما قال سبحانه : ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأعراف:٩٦] .

**الثاني** : سهولة الحصول على الرزق كما قال سبحانه : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴿٣﴾ ﴾ [الطلاق:٢-٣] .

**الثالث** : تيسير الأمور ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴿٤﴾ ﴾ [الطلاق:٤] .

**الرابع** : تكفير السيئات ، وعظمة الأمور كما قال سبحانه : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴿٥﴾ ﴾ [الطلاق: ٥] .

**الخامس** : دخول الجنة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي

ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤].

**والمال له أربع مراحل :**

**الأولى** : مرحلة جمعه ، والحصول عليه إما عن طريق الكسب والعمل ، وإما عن طريق الهدية ، أو الوصية ، أو الميراث ونحو ذلك .

**الثانية** : مرحلة حفظه بعد حصوله .

**الثالثة** : مرحلة الاستفادة منه في الأكل ، والشرب ، واللباس ، وقضاء الحاجات ونحو ذلك .

**الرابعة** : مرحلة الإنفاق منه في سبيل الله ، وهي أعلاها : ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات:١٥] .

**وأهل الأموال ثلاثة أصناف :**

محسنون .. وظالمون .. وأهل العدل .

فالمحسنون هم المتصدقون ، والظالمون هم أهل الربا ، وأهل العدل هم المتبايعون حسب السنة ، وقد ذكر الله أحكام الناس في الأموال ، **وبيّن أنها ثلاثة :**

**عدل .. وإحسان .. وظلم .**

فالعدل البيع ، والإحسان الصدقة ، والظلم الربا ، فمدح الله سبحانه المتصدقين ، وذكر ثوابهم ، وهم : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة:٢٧٤] .

وذم المرابين ، وذكر عقابهم فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١ ﴾ [آل عمران: ١٣٠-١٣١] .

وأباح البيع والتداين إلى أجل مسمى كما قال سبحانه : ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥ ﴾ [البقرة: ٢٧٥] .

وكما أن للصلاة والصيام والزكاة والحج وغيرها أحكامًا وأصولًا ، فكذلك لكسب المال أصول ، والإنفاق له أصول .

**وإنفاق المال في عهد النبي ﷺ كان على النحو التالي :**

**الأول** : الإنفاق في سبيل الله ، لإعلاء كلمة الله ، كما أنفق الرسول ﷺ ، وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم : ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨٨ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٨٩ ﴾ [ التوبة :٨٨-٨٩ ] .

**الثاني** : الإنفاق لإكمال أركان الإسلام كالزكاة ، وبذل المال للحج ونحوهما : ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٧١ ﴾ [ التوبة :٧١ ] .

**الثالث** : الإنفاق لقضاء حاجات الناس ، ومواساة الفقراء والمساكين كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠ ﴾ [ التوبة : ٦٠ ] .

**الرابع** : الإنفاق على حاجات النفس والأهل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [ البقرة :١٧٢].

وبسبب تغير الترتيب للجهد والمال ، صار الجهد للدنيا لا للدين ، وصار إنفاق المال للشهوات ، فقلت الطاعات ، وزادت المعاصي والمنكرات ، وقل دخول الناس في الإسلام ، بل بدأ الناس يخرجون من الدين ، وبقي من الدين صورة الأعمال ، فهان على الكفار استباحة ديار المسلمين ، والتحكم في حياتهم ، ونهب ثرواتهم ، وإشغالهم بالألعاب والشهوات عن الإيمان والعبادات : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٠١﴾ ﴾ [ آل عمران :١٠٠- ١٠١ ] .

وقد جعل الله سبحانه الدنيا دار كسب ، تارةً للمعاش ، وتارةً للمعاد ، والتجارة لا تراد لذاتها ، بل للاستغناء عن الناس ، وإعفاف الأهل ، ومواساة المحتاجين، وإفاضة الفضل على الإخوان، والإنفاق في سبيل الله . أما إن كان المقصود نفس المال وجمعه والتفاخر به ، فهو مذموم .

**والكسب المحمود ما جمع أمورًا أربعة ، وهي :**

- الصحة ..
- والعدل ..
- والإحسان ..
- والنفقة على الدين ..

**أما الصحة في البيع** ، فمنها ما يتعلق بالسلعة وصاحبها ، فلا يشتري من مجنون ولا صغير ، ولا يشتري ولا يبيع ما لا يقدر على تسليمه حسًا كالطير

في الهواء ، ولا شرعًا كالمرهون ونحو ذلك ، وأن يكون البيع بإيجابٍ وقبول ومعاطاة ونحو ذلك .

**وأما العدل** ، فيجتنب البائع والمشتري ما يتضرر به أحدهما كالاحتكار ، والغش ، والنجش، ولا يثني البائع على السلعة بما ليس فيها، أو يكتم بعض عيوبها، ويرجح الوزن، وتحقيقه أن يرجح إذا أعطى، وينقص إذا أخذ.

**أما الإحسان في المعاملة** فقد أمر الله بالعدل والإحسان ، ومن الإحسان المسامحة في البيع ، وألا يغبنه في الربح بما لا يتغابن به عادة .

وإذا أراد البائع استيفاء الثمن أو الدين فيحسن تارةً بالمسامحة ، وتارةً بحط البعض ، وتارةً بالإمهال ، وتارةً بالتساهل ، ومن الإحسان إقالة المستقيل .

**أما نفقة التاجر على دينه** ، فلا ينبغي للتاجر أن يشغله معاشه عن معاده ، **بل يراعي دينه ، ويتم ذلك بأمور** :

**الأول** : حسن النية في التجارة ، فينوي بها الاستعفاف عن السؤال ، وكف الطمع عن الناس ، وكفاية العيال ، والإفاضة على الإخوان ، والإحسان للفقراء بالصدقات ، وامتثال أوامر الله في التجارة ، ليحصل له الأجر ، ويكون من جملة المجاهدين العابدين : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [ الحجرات :١٥ ] .

**الثاني** : ألا يمنعه سوق الدنيا ، عن سوق الآخرة ، وسوق الآخرة المساجد ، وطلب العلم وتعليمه ، والدعوة إلى الله ، وأنواع العبادة ، وأعمال البر المختلفة ، فيقسم الأوقات حسب حاله ، ويرجح سوق الآخرة : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [ الأنعام :١٦٢- ١٦٣ ] .

**الثالث** : أن يلازم ذكر الله تعالى في السوق ، ويشتغل بالتسبيح والتهليل ، وغض البصر ، وحفظ اللسان ، والذكر ، والفكر ، والتذكير ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠ ﴾ [ الجمعة : ١٠ ] .

**الرابع** : ألا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة ، فلا يكون أول من يدخل السوق ، ولا آخر من يخرج منه .

**الخامس** : ألا يقتصر على اجتناب الحرام ، بل يتوقى مواقع الشبهات ، ومواضع الريب .

**السادس** : أن يقصد بتجارته وصناعته ونحوهما القيام بفرض من فروض الكفايات التي يحتاجها المسلمون ، ليؤجر على ذلك ، فالأعمال بالنيات .

# ٤ - الخزانة الرابعة

## فتنة الأموال والشهوات :

**شركاء الإنسان في المال ثلاثة :**

**الأول** : القدر، فهو لا يستأمرك أو يستأذنك أن يذهب به عنك بهلاك أو موت .

**الثاني** : الوارث ، ينتظر أن تموت وتدفن ، ثم يستاقه ، وأنت ذميم .

**الثالث** : أنت ، فقدمه لما ينفعك ، فستسأل عن مدخله ومخرجه كما قال النبي ﷺ : « **لَا تَزُولَا قَدَمَا عبدٍ يومَ القيامةِ حتَّى يُسأَلَ عَن عُمُرِه فيما أفناهُ ، وعن شبابه فيما أبلاهُ ، وعن مالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وفيما أنفقَهُ ، وعن عِلمِهِ ماذا عَمِلَ بِه** » .أخرجه الترمذي[1] .

والله ﷻ خلق الخلائق ، من طير ، وحيوان ، وإنس ، وجان ، وغيرهم وكتب أرزاقهم ، وآجالهم ، وآثارهم ، وهم جميعًا يأكلون من رزق الله : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [ الزخرف : ٣٢ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الروم :٤٠ ] .

---

(١) صحيح/ أخرجه الترمذي برقم: (٢٤١٧).

والله ﷻ يرزق أحيانًا بالأسباب ، وأحيانًا بدون الأسباب ، وأحيانًا بضد الأسباب ، كما رزق مريم طعامًا بلا شجر ، وولدًا بلا ذكر ، وفجَّر الماء لموسى وقومه من الحجر .

وكل مخلوق كتب الله له مقدار رزقه ، ونوعية رزقه ، وزمان رزقه ، ومكان رزقه : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾ [هود:٦] .

ولكل مخلوق رزقه الذي ينتظره ، فلا يمكن أن يأخذ أحد منه شيئًا ، وهو يطلبه ، وإن لم يطلبه فالرزق يعرف عنوانك ، وأنت لا تعرف عنوانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [ الذاريات : ٥٨ ] .

- **أبواب الرزق :**

**بنو آدم يحصلون على أرزاقهم من خمسة أبواب :**

**الباب الأول** : باب المجاهدة والكد والتعب ، وذلك بالبيع والشراء ، والتجارة ، والصناعة والزراعة ونحو ذلك من أبواب الرزق ، وهذا الباب مفتوح لعموم الناس : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ [ الملك :١٥ ] .

**الباب الثاني** : باب الحقوق والواجبات كالوصية ، والميراث ، والزكاة ، والصدقات ، والهبة ، والهدية ، والأوقاف ونحو ذلك : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [ التوبة :٦٠ ] .

**الثالث** : باب الذل والهوان ، كمن يسأل الناس ، ويتذلل لهم ليعطوه .

**الباب الرابع** : باب المعاصي والمحرمات كمن يأكل الربا ، ويسرق الأموال ، ويقطع الطريق ، ويغصب الأموال ، أو يغش في المعاملات ، أو يأكل أموال الناس بالباطل ، أو يأخذها بطريق الميسر أو القمار، أو يحتكر المال ، أو يأخذ الرشوة ونحو ذلك من الوسائل المحرمة .

فهذا وما قبله قد كتب الله له رزقه، ولكنه لم يصبر ، واستعجل وأخذه بطريق الذل أو الحرام.

**الخامس** : باب الإيمان والتقوى والصلاح ، وهذا العبد يحصل على رزقه بالإيمان والأعمال الصالحة كالاستغفار ، وصلة الرحم ، وحسن الخلق ، والتقوى ، والتوكل على الله ، والإنفاق في سبيل الله ، والإحسان إلى الخلق ، والهجرة في سبيل الله ونحو ذلك كما قال سبحانه : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف:٩٦] .

وقال الله تعالى عن نوح ﷺ : ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح:١٠ -١٢] .

وهذا الباب خاص بالمؤمنين من الرسل وأتباعهم : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [ الطلاق :٢- ٣ ] .

فالأول مباح مأمور به ، والثاني من الإحسان والحقوق ، وهو مشروع ومأمور به ، والثالث أخس الأبواب وأدناها ، والرابع أخطرها وأعظمها ،

وأشدها جرمًا ، والخامس مأمور به ، وهو طريق الأنبياء وأتباعهم ، وهو أعلاها وأشرفها ، وأزكاها وأعظمها بركة .

فسبحان الملك العظيم الذي بيده الخلق والأمر والرزق وحده : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [ يونس : ٣١- ٣٢ ].

- **فتنة الأموال والشهوات** :

كسب المال مباح بل مأمور به ، وإنما المذموم كسبه من غير وجهه ، وصرفه في غير وجهه ، ومنع الحق الواجب فيه .

والوسائل لها أحكام المقاصد ، فالذي يجعل الدين مقصد حياته ، ثم يستخدم الوسائل المشروعة لهذا المقصد ، فهذا كله خير ، فالأموال والتجارة خير ، لأنها من الوسائل التي جعلها الله نصرة للدين ، فأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وابن عوف ، وطلحة ، والزبير وغيرهم رضي الله عنهم ، كل هؤلاء تجار وقد استخدموا تجارتهم للدين ، فيؤجرون في الكسب الحلال ، ويؤجرون في الإنفاق في سبيل الله ، ويؤجرون في امتثال أوامر الله في تجارتهم ، ويؤجرون في حسن الأخلاق في معاملاتهم ، فتكون معاملاتهم سببًا لدخول الناس في الإسلام ، لما يرونه من عدل الإسلام ، وسماحته .

والصحابة رضي الله عنهم كلهم أهل عمل وتجارة ، وأقلهم ليس لديه عمل كأهل الصُفة ونحوهم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [ الجمعة :٩- ١٠ ] .

لكن المنهي عنه إن تشغل العبد تجارته عن ذكر ربه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ ﴾ [ المنافقون : ٩ ] .

وإذا جاء المال للإنسان بغير سؤال ، فينبغي أن يلاحظ فيه ثلاثة أمور :

نفس المال .. وغرض المعطي .. وغرضه في الأخذ .

أما نفس المال فينبغي أن يكون خاليًا من المحرمات والشبهات كلها .

وأما غرض المعطي ، فإن كان طلبًا للمحبة بالهدية ، فلا بأس من قبولها إن لم تكن رشوة ، وإن كان غرض المعطي الثواب وهو الزكاة والصدقة ، فعليه أن ينظر في صفات نفسه ، هل هو مستحق أم لا ؟ وإن كان غرض المعطي الشهرة والرياء والسُمعة ، فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد بردها .

وأما غرضه في الأخذ ، فإن كان مستغنيًا عنه لم يأخذه ، وإن كان محتاجًا إليه ، وقد سلم من الشبهة ، فالأفضل له الأخذ ، لقول النبي ﷺ لعمر رضي الله عنه : « *خُذْهُ وَمَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا المَالِ ، وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلَا سَائِلٍ فَخُذْهُ ، وَمَا لَا فَلَا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ* » . متفق عليه[1].

**والله ﷻ جعل في المال حقوقًا ، وهذه الحقوق نوعان :**

حقوق واجبة .. وحقوق مستحبة .

فالحقوق الواجبة كالزكاة المفروضة ، والنفقات الواجبة على من تلزمه نفقته من الأهل والبهائم وغيرهم .

والحقوق المستحبة كمكافأة المهدي ، والصدقات ، والهدايا ، وما وقى به عرضه ونحو ذلك .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٧١٦٣)، ومسلم برقم: (١١٠/ ١٠٤٥)، واللفظ له.

فالجواد حكيم يضع العطاء مواضعه ، ويتوخى بماله أداء هذه الحقوق على وجه الكمال ، طيبةً بذلك نفسه ، راضيةً ، مؤملةً للخلف في الدنيا ، والثواب في العقبى : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [ سبأ : ٣٩ ] .

أما المسرف المبذر ، فقد يصادف عطاؤه موضعه ، وكثيرًا لا يصادفه ، فإنه يبسط يده في ماله بحكم هواه وشهوته جزافًا ، لا على تقدير ولا مراعاة مصلحة وإن اتفقت له : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [ الإسراء :٢٦- ٢٧ ] .

**فالأول** : بمنزلة من بذر حبًا في أرض خصبة ، فأنبتت من كل زوج بهيج .

**والثاني** : بمنزلة من بذر حبه في أرض سبخة .

والله سبحانه هو الجواد على الإطلاق ، بل كل جود في العالم العلوي والسفلي بالنسبة إلى جوده أقل من قطرة في بحار الدنيا ، وهو من جوده ، ومع هذا فالله إنما ينزل الرزق بقدر ما يشاء ، وجوده لا يناقض حكمته ، ويضع العطاء مواضعه وإن خفي على أكثر الناس أن تلك مواضعه ، فالله أعلم حيث يجعل رسالته ، وأعلم حيث يضع فضله ، وأعلم حيث يضع هداه وتوفيقه ، وأي المحال أولى به : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ [البقرة:٢١٦] .

فما أعظم حكمة الله في عطائه ومنعه : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [ الإسراء :٣٠ ] .

والله سبحانه هو الرزاق ، الذي عند خزائن الأرزاق كلها : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾[الحجر:٢١] .

فالله هو الرزاق الذي يرزق من يشاء من عباده ، ويحث على الإنفاق في سبيل الله ، فيبدأ عبده بالحظ والتأليف والترغيب ، لا بالفرض والتكليف ، ويشعره بأن الله يضاعف له أجر ما أنفق ، يضاعف من رزقه الذي لا يعلم أحد حدوده ، ويضاعف من رحمته التي لا يعلم أحد مداها ، ويطمئنه أنه في إنفاقه لا يعطي بل يأخذ ، وأن ماله لا ينقص ، بل يزيد كلما أنفق ، كما تعطي الحبة إذا أودعها في الأرض سبعمائة حبة كما قال سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾[البقرة: ٢٦٢] .

والمن والأذى يحيل الإنفاق سمًا ونارًا ، يمحق الإنفاق ، ويمزق الشمل ، ويثير السخائم والأحقاد ، والمن عنصر كريه لئيم ، النفس البشرية لا تمن بما أعطت إلا رغبةً في الاستعلاء ، أو رغبةً في إذلال الآخر ، أو رغبةً في لفت أنظار الناس ، فالمن يحيل الصدقة أذىً للواهب وللآخذ على حد سواء ، أذىً للواهب بما يثيره في نفسه من كبر وخيلاء ، ورغبة في رؤية أخيه ذليلًا له ، كسيرًا لديه ، ربما يملأ قلبه بالنفاق والرياء والبعد من الله ، وهو أذى للآخذ بما يثيره في نفسه من انكسار وانهزام ، ومن رد فعلٍ بالحقد والانتقام ، ومن هنا يبطل الثواب والأجر بالمن والأذى كما قال سبحانه : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا

يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾ [ البقرة : ٢٦٣ – ٢٦٤ ] .

والإسلام لا يريد بالإنفاق مجرد سد خلة الفقير ، وملء بطن الجائع ، وتلافي حاجة المعوز فقط ، بل أراد فوق ذلك تهذيب نفس المعطي ، وتزكيتها ، وتطهيرها من الشح والحرص والبخل ، واستجاشة مشاعر الإنسان تجاه أخيه الفقير المحتاج ، وتذكيرًا له بنعمة الله عليه ، وعهده معه في هذه النعمة أن يأكل منها في غير إسراف ولا مخيلة ، وأن ينفق منها في سبيل الله في غير منع ولا مَن : ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[الأعراف:٣١] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [ البقرة : ١٩٥ ] .

والمال مال الله ، والرزق الذي في خزائن الأغنياء إنما هو رزق الله ، وهذه حقيقة لا يجادل فيها إلا جاهل بأسباب الرزق القريبة والبعيدة ، فالذي خلق الإنسان ، خلقه وساق رزقه إليه ، فإذا أعطى الواجد شيئًا ، فإنما يعطي من مال الله ، وإذا فعل حسنة ، فإنما هي قرض لله ، يضاعفه له أضعافًا كثيرة ، وليس الفقير الآخذ إلا أداة وسببًا لينال المعطي الواهب أضعاف ما أعطى من مال الله : ﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [التغابن:١٧] .

والصدقة ليس تفضلًا من المانح على الآخذ ، إنما هي قرض لله ، والله غني عن الصدقة المؤذية ، والصدقة التي يتبعها أذى ، لا ضرورة لها ، وأحسن منها كلمة طيبة تضمد الجراح ، ومغفرة تغسل أحقاد النفوس ، وتحل محلها الإخاء والمحبة .

فالقول المعروف والمغفرة في هذه الحالة يؤديان الوظيفة الأولى للصدقة ، من تهذيب النفوس ، وتأليف القلوب : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ ﴾ [ البقرة : ٢٦٣ ] .

• **صفة الإنفاق :**

**المنفقون قسمان :**

**الأول** : من أنفق ماله رياءً ، فهذا لا يثمر خيرًا ، ولا يعقب مثوبة ، وحظ صاحبه منه التعب في كسبه ، والحسرة على فوته ، والعذاب على فعله وإنفاقه : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [ النساء :٣٨ ].

**الثاني** : من أنفق ماله ابتغاء مرضاة الله ، فهذا يثمر خيرًا ، ويعقب مثوبة ، وحظ صاحبه منه الأجر في كسبه ، ومضاعفة أجره وماله ، وتطهير نفسه وماله ، والفوز بالجنة : ﴿ **لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾** ﴾ [ النساء : ١١٤ ] .

والله جل جلاله طيب لا يقبل إلا طيبًا ، فينبغي أن يكون الجود بأفضل الموجود ، فلا يكون بالدون والرديء الذي تعافه النفوس ، والله غني عن الخبيث الذي يخرجه ضعيف الإيمان واليقين : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾** ﴾ [البقرة:٢٦٧ ] .

والأموال فيها خير من وجه ، وفيها شر من وجه ، وهي كالحية يأخذها الراقي فيستخرج منها الترياق ، ويأخذها الغافل فيقتله سمها من حيث لا

يدري ، ولا يخلو أحد من سم المال إلا بالمحافظة على خمس وظائف :
**الأولى** : أن يعرف الإنسان مقصود المال ، وأنه لماذا خلق ، فلا يحفظ إلا قدر الحاجة ، ولا يعطيه من أراد فوق ما يستحقه .
**الثانية** : أن يراعي جهة دخل المال ، فيجتنب الحرام المحض ، وما الغالب عليه الحرام ، ويجتنب الجهات والمعاملات المكروهة القادحة في المروءة كالهدية التي فيها شوائب الرشوة ، وكسبها ، الذي فيه الذلة ، وهتك المروءة ونحو ذلك .
**الثالثة** : في المقدار الذي يكتسبه ، فلا يستكثر منه ولا يستقل ، بل القدر الواجب ، ومعياره الحاجة ، والحاجة مطعم وملبس ، ومسكن ومركب ، يميل فيها إلى جانب القلة ، وإن جاوز ذلك وقع تدريجيًا في هاوية التعلق بغير الله ، ومن تعلق بغير الله وكل إليه ، وعذب به .
**الرابعة** : أن يراعي العبد جهة المخرج ، ويقتصد في الإنفاق غير مبذر ولا مقتر ، فيضع ما اكتسبه من حله في حقه ، ولا يضعه في غير حقه .
**الخامسة** : أن يصلح نيته في الأخذ ، والترك ، والإنفاق ، والإمساك ، فيأخذ ما يأخذ ، ليستعين به على العبادة ، ويترك ما يترك زهدًا فيه ، واستحقارًا له ، فإذا فعل ذلك لم يضره وجود المال .
وكذلك ينبغي أن تكون نيته في كل ما يحفظه من قميص ، وفراش ، وآنية ، ينوي به الاستعانة على العبادة ، لأن كل ذلك مما يحتاج إليه في الدين ، وما فضل عن الحاجة ينبغي أن يقصد به أن ينتفع به عبد من عباد الله ، ولا يمنعه منه عند حاجته ، فمن فعل ذلك فهو الذي اخذ من حية المال جوهرها وترياقها ، واتقى سمها ، فلا تضره كثرة الأموال : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي

ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [ آل عمران : ١٣٣- ١٣٤ ] .

ولكن لا يتأتى ذلك إلا لمن رسخ في الدين قدمه وعظم الله في قلبه .

ومن أخذ حية المال مستحسنًا صورتها وشكلها ، ومستلينًا جلدها ، قتلته في الحال ، إلا أن قتيل الحية يدري أنه قتيل ، وقتيل المال قد لا يعرف أنه قتيل ، وتلك الفتنة الكبرى التي قلما يصحو منها أحد : ﴿ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [التوبة:٥٥ ] .

فالأصل في المال إنفاقه في الواجبات والمستحبات، وفي كل ما يرضي الله، طلبًا للأجر ، وتخلصًا من كل شاغل عن الله كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المنافقون:٩-١١] .

- **فتنه الأهل والأولاد**

النفوس مجبولة على محبه الأزواج والأولاد ، وقد نصح الله عباده أن توجب لهم هذه المحبة الإنقياد لمطالب الأزواج والأولاد التي فيها محظور شرعي ، ورغبهم في امتثال أوامره ، وتقديم مرضاته ، لما عنده من الأجر العظيم والمحبة الغالية ، وان يؤثروا الآخرة الباقية على الدنيا الفانية : ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ ﴾ [ التغابن : ١٥ ] .

ورغبهم في العفو والصفح والمغفرة ، والحد من الغلظة والقسوة في معاملتهم ، ففي ذلك من المصالح ما لا يمكن حصره ، فمن عفا عفا الله عنه ومن صفح صفح الله عنه ، ومن غفر غفر الله له : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾[التغابن:١٤ -١٥] .

وإن من الأزواج والأولاد ما يكون صديقًا معينًا على الطاعة ، ومنهم ما يكون عدوًا معينًا على المعصية ، فالأزواج والأولاد قد يكونون مشغلة وملهاه عن ذكر الله ، كما أنهم قد يكونون دافعًا للتقصير في تبعات الإيمان اتقاء للمتاعب التي تحيط بهم .

فلو قام المؤمن بواجبه للقي ما يلقاه المجاهد في سبيل الله ، والمجاهد في سبيل الله يتعرض لآلام كثيرة ، كما يتعرض هو وأهله للعنت ، وقد يحتمل العنت في نفسه ، ولا يحتمله في زوجته وأولاده ، فيبخل ويجبن ، ليوفر لهم الأمن والقرار والمتاع والمال ، فيكونون عدوًا له ، لأنهم صدوه عن الخير ، وعوقوه عن تحقيق غاية وجود الإنسان العليا ، كما أنهم قد يقفون له في الطريق ، ليمنعوه من النهوض بواجبه ، اتقاء لما يصيبهم من جرائه ، أو لأنهم يكونون في طريقٍ غير طريقه، ويعجز هو عن المفاصلة بينه وبينهم، والتجرد لله ، فيفتنوه ونحو ذلك من صور العداوة المتفاوتة .

فالله يريد من عبده أن يكون له ، والأزواج والأولاد يريدونه لهم ، والله ﷻ يوقظ قلوب المؤمنون ، ويحذرهم من تسلسل هذه المشاعر ، وضغط هذه المؤثرات ، فالأموال والأولاد فتنه كما قال سبحانه : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾[الأنفال:٢٨] .

**والفتنه هاهنا لها معنيان :**

**الأول** : أن الله يفتنكم بالأموال والأولاد ويختبركم كما يفتن الصائغ الذهب بالنار ، ليخلصه من الشوائب .

**الثاني** : إن هذه الأموال والأولاد فتنه لكم توقعكم بفتنتها في المخالفة والمعصية ، فاحذروا هذه الفتنه لا تجرفكم وتبعدكم عن الله .

ثم يبشر الله عباده المؤمنين بعد التحذير من فتنه الأموال والأولاد بالأجر العظيم ، ويهتف للذين آمنوا بتقوى الله في حدود الطاقة والاستطاعة وبالسمع والطاعة بقوله سبحانه : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [التغابن:١٦] .

فالطاعة في الأمر ليس لها حدود ، يفعل العبد منها ما يستطاع ، أما النهى فلا تجزئة فيه ، فيحذر منه كله ، ويتركه جملة : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [ الحشر: ٧ ] .

وقال النبي ﷺ : « ذروني مَا تَرَكْتُكُمْ ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَثْرَةُ سُؤَالِهِمْ ، وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ ، فإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشيء فَائْتُوا منه ما استطعتم ، وإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فدعوه ». متفق عليه[1].

إن الأموال والأولاد قد تكون نعمة يسبغها الله على عبد من عباده ، حين يوفقه إلى الشكر على النعمة ، والإصلاح بها في الأرض ، وبذلها في سبيل الله ومرضاته ، والإحسان بها إلى خلقه ، فكلما انفق احتسب وشعر أنه قدم لنفسه ذخرًا ، وكلما أصيب في ماله أو بنيه احتسب الأجر ، فإن السكينة

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري برقم ( ٧٢٨٨ ) ، ومسلم برقم(٤١٢/ ١٣٣٧ ) .

تغمره ، والأمل في الله يعوض عنه : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٤ ﴾[البقرة:٢٧٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١١ ﴾[ التغابن : ١١ ] .

وقد تكون الأموال والأولاد نقمة ، يصيب الله به عبدًا من عباده ، لأنه يعلم من أمره الفساد و الدخن ، فإذا القلق على الأموال والأولاد يحول حياته جحيمًا ، وإذا الحرص عليها يؤرقه ، ويتلف أعصابه ، فإذا هو ينفق المال حين ينفقه فيما يتلفه ويعود عليه بالأذى والشر ، وإذا هو يشقى كذلك بأبنائه إذا مرضوا ، ويشقى بهم إذا صحوا ، وكم من الناس يعذبون بأولادهم لسبب من الأسباب : ﴿ فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٥٥ ﴾[التوبة:٥٥ ] .

فعلى المسلمين ألا يقيموا وزنًا لأموال وأولاد المنافقين ، لأن الإعجاب بها نوع من التكريم الشعوري لهم ، وهم لا يستحقونه ، لا في الظاهر ولا في الشعور ، إنما هو الاحتقار لهم ولما يملكون .

وكثره الأموال والأولاد لا تقرب من الله زلفى ، ولا تدني إليه ، وإنما الذي يقرب منه زلفى الإيمان بما جاءت به الرسل ، والعمل الصالح الذي هو من لوازم الإيمان كما قال سبحانه : ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧ ﴾ [سبأ:٣٧] .

والكفار يستحقون النار بكفرهم ، ولا تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئًا كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ ﴾ [آل عمران:١٠] .

وقد ابتلى الله ﷻ بني آدم بالشهوات ، وزين لهم حب الشهوات الدنيوية فتعلقت بها نفوسهم ، ومالت إليهم قلوبهم ، وانقسموا إلى قسمين :

قسم جعلوها مقصد الحياة ، فصارت أفكارهم وأعمالهم لها ، فشغلتهم عما خلقوا لأجله من عباده الله ﷻ ، والدعوة إلى دينه ، وصحبوها صحبة البهائم السائمة ، يتمتعون بلذاتها ، ويتمرغون في أوحالها ، ولا يبالون بأي وجه حصلوها ، ولا فيما أنفقوها ، فهؤلاء كانت لهم زادًا إلى دار الشقاء والعناء والعذاب : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٤] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ [ فاطر :٥- ٦ ] .

**والقسم الثاني** : عرفوا المقصود منها ، وأن الله جعلها ابتلاءً وامتحانًا لعباده ، ليعلم من يقدم طاعة الله ومرضاته على لذاته وشهواته ، فجعلوها وسيله للدار الآخرة .

يستعينون بها على مرضات الله وطاعته ، قد صحبوها بأبدانهم ، وفارقوها بقلوبهم ، وعلموا أنها متاع ، فأنفقوها في وجوه البر والإحسان ، فهؤلاء صارت لهم زادًا إلى ربهم ، ووسيلة إلى ورضوانه ، والفوز بجنته : ﴿ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا

ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ [آل عمران:١٥] .

والإنسان إذا اتبع هواه ، وارتكب المعاصي ، دخل قلبه بكل معصية يتعاطاها ظلمًا ، وإذا كان كذلك افتتن وزال عنه نور الإيمان .

والقلب كالكوز ، فإذا انصب ما فيه ، لم يدخله شيء بعد ذلك كما قال الله ﷺ « تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالحَصِيرِ عُودًا عُودًا فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مجُخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ ». أخرجه مسلم[1].

اللهم إن نسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وإذا أردت بعبادك فتنة فخذنا إليك غير مفتونين .

(١) أخرجه مسلم برقم: (٢٣١/ ١٤٤).

# ٥- الخزانة الخامسة

## العدو الرابع : المنافقون

**النفاق** : هو إظهار الخير ، وإبطان الشر ، وإظهار الإيمان ، وإبطان الكفر .

**والنفاق قسمان** :

**الأول** : النفاق الأكبر ، وهو النفاق الإعتقادي ، بأن يظهر صاحبه الإسلام ، ويبطن الكفر ، وجميع ما ذكر في القران فالمقصود به النفاق الأكبر ، وصاحبه في الدرك الأسفل من النار كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾[النساء:١٤٥] .

**الثاني** : النفاق الأصغر ، وهو النفاق في الأعمال ونحوها ، وصاحبه لا يخرج من ملة الإسلام ، لكنه عاصٍ ، وله علامات .

قال النبي ﷺ « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا : إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ ». متفق عليه[1].

والنفاق لم يكن موجودًا قبل هجره الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة ، وبعد أن هاجر ، ولما كانت غزوة بدر ، ونصر الله المؤمنين على الكفار ، وأظهرهم وأعزهم ذل من في المدينة ممن لم يسلم ، فأظهر بعضهم الإسلام خوفًا ومخادعةً ، ولتحقن دماؤهم ، وتسلم أموالهم ، وتحفظ مكانتهم ، وليسهل عليهم كيد المسلمين ، وتمزيق وحدتهم ، والمكر بهم وخداعهم ، فكانوا بين أظهر المسلمين ، في الظاهر أنهم منهم ، وفي الحقيقة أنهم ليسوا منهم ، بل هم شر أعدائهم ، فنال المسلمون منهم شراً عظيماً وبلاء

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٣٤)، واللفظ له، ومسلم برقم: (١٠٦/ ٥٨).

مستطيراً ، ومن لطف الله تعالى بالمؤمنين أن كشف أحوالهم ، وجلى صفاتهم ، لئلا يغتر بهم المؤمنون ، وينجوا من كثير من فجورهم .

- **أعظم صفات المنافقين :**

**من أعظم صفات المنافقين :**

**الصفة الأولى : الكذب :**

فهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم كما قال الله عنهم : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [البقرة:٨-٩] .

**الثانية** : الخداع :

فهم يظهرون الإسلام ، ويبطنون الكفر ، مخادعة لله ولعباده المؤمنين ، ولكنهم في الحقيقة لا يخدعون إلا أنفسهم : ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [البقرة:٩] .

**الثالثة** : الشك والتردد :

ففي قلوبهم الشك والشبهات والنفاق كما قال الله تعالى : ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٠] .

**الرابعة** : الإفساد في الأرض :

فلا أعظم فساداً ممن كفر بآيات الله ، وصد عن سبيل الله ، وخادع الله وأولياءه ، ووالى المحاربين لله ورسوله ، وعمل بالكفر والمعاصي ، وزعم مع ذلك أن هذا إصلاح ، وأي فساد فوق هذا الفساد : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [البقرة:١١-١٢] .

**الخامسة** : تسفيه الناس :

فهم يزعمون أن الصحابة والمؤمنين سفهاء ، وأن سفههم أوجب لهم الإيمان ، وترك الأوطان ، ومعادة الكفار ، والتعرض للقتل ، والفقر ، والحرمان من الشهوات : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[البقرة:١٣] .

**السادسة** : الاستهزاء بالمؤمنين :

فهم إذا اجتمعوا بالمؤمنين أظهروا لهم أنهم معهم ، وإذا خلوا إلى شياطينهم وكبرائهم قالوا: إنا معكم في الحقيقة، وإنما نحن مستهزئون بالمؤمنين ، فهذه حالهم : ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [البقرة:١٤-١٥] .

فهذه أهم صفاتهم القبيحة ، والعلامات المميزة لهم ، فلله ما أخسرهم ، وما أعظم ضلالهم : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾[البقرة:١٦] .

فالمنافقون رغبوا في الضلالة ، رغبة المشتري بالسلعة ، التي من رغبته فيها يبذل فيها الأثمان النفيسة ، فالهدى غاية الصلاح ، والضلالة غاية الشر والفساد ، وهؤلاء المنافقون بذلوا الهدى رغبة منهم في الضلالة ، فهذه تجارتهم ، فبئس التجارة ، وبئس الصفقة صفقتهم ، فما أسفه وما أضل من بذل الهدى في مقابلة الضلالة ، واختار السفاهة ، واختار الشقاء على السعادة ، ورغب في سافل الأمور عن أعاليها ، فهل مثل هذا رابح في تجارته ؟

كلا بل هو خاسر فيها أعظم خسارة ، حيث لا أمل في الربح هناك : ﴿ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾[الزمر: ١٥]

فهؤلاء المنافقون عاشوا بين المؤمنين ، وهم غير مؤمنين ، لكنهم انتفعوا بنور الإيمان ، وحقنت بذلك دماؤهم وسلمت أموالهم ، وحصل لهم نوع من الأمن في الدنيا ، فبينما هم على ذلك ، إذ هجم عليهم الموت ، فسلبهم الانتفاع بذلك النور ، وحصل لهم كل هم وغم وعذاب ، وحصل لهم ظلمة القبر ، وظلمة الكفر ، وظلمة النفاق ، وظلمة المعاصي على اختلاف أنواعها ، وبعد ذلك ظلمة النار : ﴿ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[البقرة:١٧-١٨] .

فهم صم عن سماع الحق والخير ، وبكم عن النطق به ، وعمي عن رؤية الحق ، فهم لا يرجعون ، لأنهم تركوا الحق بعد أن عرفو .

والمنافقون إن سمعوا القران ، وأوامره ، ونواهيه ، ووعده ، ووعيده ، جعلوا أصابعهم في آذانهم ، وأعرضوا عن أمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، فيروعهم وعيده ، ويزعجهم وعوده ، فهم يعرضون عنها غاية ما يمكنهم ، ويكرهونها كراهة صاحب الصيب الذي يسمع الرعد ، فيجعل أصابعه في أذنيه ، خشيه الموت كما قال سبحانه : ﴿ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾[البقرة:١٩] .

هكذا حال المنافقين إذا سمعوا القران وأوامره ونواهيه .

**السابعة** : ومن صفات المنافقين :

أنهم يحبون التحاكم إلى الطاغوت ، وهو كل من حكم بغير شرع الله ، ولا يرغبون في الانقياد للشرع وتحكيمه في أي أمر من الأمور : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ ﴾[النساء:٦٠] .

فإذا دعوا إلى حكم الله ورسوله صدوا وأعرضوا ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ ﴾ [النساء:٦١] .

**الثامنة** : ومن صفاتهم محبتهم لكفر المؤمنين ، وحسدهم لهم : ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [النساء:٨٩] .

**التاسعة** : ومن صفاتهم اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين كما قال سبحانه : ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾ [النساء:١٣٨-١٣٩] .

**العاشرة** : ومن صفاتهم المخادعة لله وأوليائه ، والمراءاة في الأعمال كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾[النساء:١٤٢] .

**الحادية عشرة** : ومن صفاتهم عدم الرغبة في الخروج للجهاد في سبيل الله كما قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[التوبة:٤٦] .

**الثانية عشرة** : ومن صفاتهم الكيد للإسلام وأهله ، وإعمال الحيل في إبطال الدعوة إلى الله ، وخذلان المؤمنين ، وفتنتهم عن دينهم ، كما قال سبحانه : ﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[التوبة:٤٨] .

**الثالثة عشرة** : ومن صفاتهم أنهم مبغضون للدين وأهله كما قال سبحانه : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[التوبة:٥٠] .

**الرابعة عشرة** : ومن صفاتهم كراهية الإنفاق في سبيل الله ، وإذا أنفقوا أنفقوا من غير انشراح صدر ، لعدم إيمانهم : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾[التوبة:٥٤] .

**الخامسة عشرة** : ومن صفاتهم الجبن والخوف من الدوائر ، ومن المسلمين ، فيخافون إن أظهروا حالهم من المؤمنين ، ويخافون أن يتبرأ المؤمنون منهم ، فيتخطفهم الأعداء من كل جانب ، لذلك يقسمون للمؤمنين أنهم منهم كما قال سبحانه : ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[التوبة:٥٦-٥٧] .

**السادسة عشرة** : ومن صفاتهم عيب المسلمين وانتقادهم ، وفرحهم بمصيبة المؤمنين كما قال سبحانه : ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن

تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [التوبة:٥٨] .

**السابعة عشرة** : ومن صفاتهم كثرة الحلف والاعتذار للمؤمنين ، ليرضوا عنهم كما قال سبحانه : ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [التوبة:٦٢] .

**الثامنة عشرة** : ومن صفاتهم عدم الرغبة في القرآن ، وحلق العلم ، لأن ذلك يكشف ما في قلوبهم كما قال سبحانه : ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [التوبة:٦٤] .

وقد فضح الله في القرآن مخازي المنافقين ، وهتك أستارهم ، لينكشف أمرهم ، ويحتاط المسلمين لكيدهم ومكرهم ، إلا أن الله لم يعين أشخاصًا لفائدتين :

**إحداهما** : أن الله ستار يحب الستر على عباده ، ولعلهم يتوبون من نفاقهم .

**الثانية** : أن الذم على من اتصف بذلك الوصف من المنافقين في ذلك الوقت إلى يوم القيامة ، فكان ذكر الوصف أعم وأنسب وأخوف ، فلكل منافق في أي مكان ، وفي أي زمان الخوف والخزي والخذلان ، واللعن في الدنيا والآخرة . كما قال سبحانه : ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾ [ الأحزاب : ٦٠-٦١] .

ولهم أشد العذاب يوم القيامة كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء:١٤٥] .

فهل يطمع المنافقون برحمة الله ومغفرته بعد كفرهم بالله ورسوله ؟ هيهات فالكافر لا ينفعه الاستغفار ولا العمل ما دام مات كافرًا : ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾[التوبة:٨٠] .

فليتمتع المنافقون في هذه الدنيا الفانية ، ويفرحوا بلذاتها ، ويلهوا بألعابها ، فسيبكون كثيرًا في نار جهنم جزاء كفرهم ونفاقهم ، وعدم الانقياد لأوامر ربهم : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[التوبة: ٨٢] .

وليتقلب الكفار في البلاد بأنواع التجارات ، والمكاسب ، واللذات ، وأنواع العز والغلبة في بعض الأوقات ، فذلك كله متاع قليل ، ليس له ثبوت ولا بقاء ، فليتمتعوا به قليلًا ، ويعذبون عليه طويلًا يوم القيامة : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾[آل عمران:١٩٦-١٩٧] .

فهذه أعظم صفات المنافقين في القرآن كما في سورة البقرة والتوبة والنساء والمنافقون وغيرها من السور .

- **فقه عداوة المنافقين :**

المنافقون هم أعداء الدين حقا ، وهم الذين صدوا عن سبيل الله بأنفسهم ، وصدوا غيرهم ممن يخفى عليه حالهم ؛ فقد أظهروا الإيمان ، وأبطلوا الكفر ، وأقسموا على ذلك ، وأوهموا الناس صدقهم : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾[المنافقون:٢] .

وهؤلاء المنافقون إذا رأيتهم تعجبك أجسامهم من روائها ونضارتها ، ومن حسن منطقهم تستلذ بسماعه ، فأجسامهم وأقوالهم معجبة ، ولكن ليس

وراء ذلك من الأخلاق الفاضلة والهدي الصالح شيء ، بل هم كأنهم خُشبٌ مسندة ، لا منفعة فيها ، ولا أمان منها إلا الضرر المحض كما قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [ المنافقون:٤ ] .

فلجبنهم وخوفهم وضعف قلوبهم وريبهم يخافون من أي صيحة ، فهؤلاء هم العدو في الحقيقة ؛ إن عدوًا بارز أهون من العدو الذي لا يشعر به الإنسان ، وهو مخادعٌ ماكر ، يزعم أنه ولي ، ويأخذ الأسرار ، وهو العدو المبين .

وما أعظم فساد المنافقين ، فإنهم يكفرون بآيات الله ، ويصدون عن سبيل الله ، ويخادعون الله وأولياءه ، ويوالون المحاربين لله ورسوله ، ويفسدون في الأرض ، ويزعمون أنهم مصلحون : ﴿ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [البقرة:١٢] .

والمنافقون والمنافقات في كل زمان ، وفي كل مكان ، تختلف أقوالهم وأفعالهم ، ولكنها ترجع إلى طبعٍ واحد ، وتنبع من معينٍ واحد ، فهم من طينةٍ واحدة ، وطبيعةٍ واحدة : ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [التوبة:٦٧] .

قلوبهم مشتملة على سوء الطوية ، ولؤم السريرة ، والغمز والدس ، والضعف عن المواجهة ، والجبن عند المصارحة .

أما عن سلوكهم فهو الأمر بالمنكر ، والنهي عن المعروف ، والبخل بالمال إلا أن يبذلوه رئاء الناس ، نسوا الله ، فلا يحسبون إلا حساب الناس ، واحتساب المصلحة ، فنسيهم الله ، فلا وزن لهم ولا اعتبار في الدنيا

والآخرة ، فهم فاسقون خارجون عن ملة الإسلام فما هو جزاؤهم ؟ : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾[التوبة: ٦٨] .

والصلاة على الميت المنافق ، والقيام على قبره تكريم له ، والمؤمنون يجب الا يبذلوا هذا التكريم لهذه الفئة الضالة الماكرة كما قال سبحانه للنبي ﷺ : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾[التوبة:٨٤] .

فهذا التكريم لا يستحقه من يتخلف عن الصف في ساحة الجهاد ؛ لتبقى للتكريم قيمته ، ولتظل قيمة الرجال منوطةٌ بما يبذلون في سبيل الله ، وبما يصبرون على البذل ، ويثبتون على الجهد ، ويخلصون أعمالهم لله ﷻ ، وكما لا يُقبل هؤلاء المنافقون للعودة في صفوف الجهاد ، كذلك لا يستحقون أي تكريم من المؤمنين : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾[التوبة:٨٣-٨٤] .

وعلى المؤمنين ألا يقيموا كذلك وزنًا لأموال المنافقين وأولادهم ؛ لأن الإعجاب بهما نوع من التكريم المعنوي لهم ، وهم لا يستحقونه لا في الظاهر ولا في الباطن ، إنما هو الاحتقار لهم ، ولما يملكون من أموالٍ وبنين : ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾[التوبة:٨٥] .

وقد قرر الله عز وجل الأحكام النهائية بين المسلمين والمشركين ، ثم بين المسلمين وأهل الكتاب ، ثم بين المسلمين والمنافقين .

المنافقون فسقوا عن دين الله ، والله لا يرضى عن القوم الفاسقين ، إنهم رجسٌ خبيثٌ يلوث الأرواح ، ودنسٌ قذر يؤذي المشاعر ، وهم كالجثة المنتنة وسط الأحياء تؤذي وتعدي : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾[التوبة:٩٥] .

فلهذا استحقوا بكفرهم وفسقهم ، وجرمهم وكيدهم ، الدرك الأسفل من النار كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ۖ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾[النساء:١٤٥] .

لكن من تاب منهم صادقاً قبل الله توبته : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ۖ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ ﴾[ النساء :١٤٥- ١٤٦ ] .

وليس للمنافقين عملٌ بين المسلمين إلا نشر الباطل ، ومحاربة الحق ، والتشكيك في الإسلام ، وهم متحركون بباطلهم ، ولا بد لهم من مكان يجتمعون فيه ؛ ليُحكموا خطط الدس ، والتشكيك، والكيد للإسلام وأهله، وتمزيق وحدة المسلمين ، والكيد لهم ، والأضرار بهم ، والتعاون مع أعداء هذا الدين على الكيد له تحت ستار الدين : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ ۖ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾[آل عمران:١١٩-١٢٠] .

• **فقه عداوة المنافقين للمسلمين :**

انشأ المنافقون في المدينة أول معقلٍ لهم جوار مسجد قباء ، وهو مسجد الضرار ؛ لتنفيذ كيدهم ومكرهم ، وكشف الله هذا المكان الذي سموه باسم الدين ؛ ليخدعوا المغفلين ، وليضربوا من خلاله الإسلام والمسلمين كما قال سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ ﴾[التوبة: ١٠٧] .

وقد نهى الله ورسوله ﷺ عن الصلاة فيه ، فأمر النبي ﷺ بإحراقه وهدمه ، فأُحرق وهُدم ، وبطل كيد المنافقين ، وقال الله لرسوله : ﴿ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨ ﴾[التوبة:١٠٨ ] .

والعمل وإن كان ظاهره الصلاح ، فإن مداره على النية الخالصة لله ، فالمساجد التي أُسست على التقوى خيرٌ من المساجد التي بُنيت على النفاق والإضرار بالمسلمين : ﴿ أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٩ ﴾[التوبة:١٠٩] .

وهذا المسجد الذي بناه المنافقون ، واتخذوه ، ليكون مكيدةً للإسلام والمسلمين ، والإضرار بالمسلمين ، والكفر بالله ، وستر المتآمرين على المؤمنين والكائدين لهم في الظلام ، والتعاون مع أعداء هذا الدين على الكيد له تحت ستار الدين ، وباسم الدين ، هذا المسجد ما يزال يتخذ في كل زمان ومكان في صور شتى ، تلاءم ارتقاء الوسائل الخبيثة التي يتخذها

أعداء هذا الدين ، تتخذ في صورة نشاطٍ ظاهره نشر للإسلام ، وباطنه لسحق الإسلام ، أو تشويهه وتميعيه وخنقه .

وتتخذ كذلك في صورة أوضاع ترفع لافتة الدين عليها ؛ لتترس وراءها ، ولترمي هذا الدين وتذبحه بالخفاء بالسكين .

وتتخذ كذلك في صورة تشكيلاتٍ وتنظيمات ، وكتب وبحوث ، تتحدث عن الإسلام؛ لتخدر القلقين على الإسلام، الذين يرون الإسلام يُذبح ويمحق .

فتخدرهم تلك ، وتطمئنهم أن الإسلام بخير ، لا خوف عليه ولا قلق ، فالمساجد مفتوحة ، والشعائر قائمة ، ولو كانت الأسواق ملعونة ، والأخلاق محروقة ، والأحكام مفقودة .

وتتخذ كذلك في صورٍ شتى كثيرة، وتكشف خمارها، وتكشر عن أنيابها ، كل من سنحت له فرصة : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [ الصف : ٨ ] .

وقد انتشرت مساجد الضرار كثيراً في بلاد المسلمين، وفي بلاد الكفار، ولا يزال الإسلام يُحارب من خلالها ، وقد جلبت على المسلمين كل شرٍ وفتنةٍ وبلاء ، وعم بلاؤها المدن والقرى ، والرجال والنساء ، ولخطر مساجد الضرار الكثيرة ، فالواجب على علماء الأمة ودعاتها ، كشف هذه المعاقل، وإنزال اللافتات الخادعة عنها ، وبيان حقيقتها للناس ، وما تخفيه وراءها من كيدٍ ومكر ، ولنا أسوة على كشف مسجد الضرار في عهد النبي ﷺ ، والذي اتخذه المنافقون لضرب الإسلام وأهله ، ومركزًا يجتمع فيه دعاة الباطل والضلال ؛ للكيد للإسلام وأهله .

فلابد لتماسك المجتمع المسلم ووحدته ، من هدم كل مسجد ضرار يقام إلى جوار مسجد التقوى ، ويراد به ما أُريد بمسجد التقوى ، وأن تُكشف كل محاولة خادعة تخُفي وراءها نيةٌ خبيثة .

وبين مسجد التقوى وأعماله ، ومسجد الضرار وإعماله ، فرقٌ كبير ، هذا يؤدي إلى النار ، وذاك يؤدي إلى الجنة ، فمسجد التقوى مبنيٌ بأمر الله ، موصلٌ إلى رضوانه ، ومسجد الضرار مبنيٌ بأمر الشيطان ، موصلٌ إلى النار : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [ التوبة : ١٠٩ ] .

والمنافقون في كل مكانٍ وزمان ، يعتمدون على إتقانهم مهارة النفاق ، وعلى خفايا أمرهم في الغالب ، وعلى ستر عداوتهم وحسدهم في الغالب ، ولكن الله لهم بالمرصاد ، يكشف أستارهم ، ويفضح كيدهم ومكرهم : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ محمد : ٢٩ – ٣٠ ] .

والله سبحانه يعلم حقائق النفوس ومعادنها ، ويطلع على خفاياها ، ويعلم ما يكون من أمرها ، علمه بما هو كائنٌ فعلا : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ [آل عمران:٥ – ٦] .

والإبتلاء بالسراء والضراء، وبالنعماء والبأساء، وبالسعة والضيق ، وبالفرج والكرب ، كل ذلك يكشف ما هو مخبوءٌ من معادن النفوس ، وما هو

مجهولٌ من أمرها حتى لأصحابها : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾ [ محمد :٣١ ] .

هكذا تتم حكمة الله في الابتلاء، ومع هذا فإن المؤمن يرجو إلا يتعرض لبلاء الله وامتحانه، ويتطلع إلى عافيته ورحمته ، فإن أصابه بلاءٌ بعدها صبر له ، وهو مدرك كل ما وراءه من حكمة، مستسلمٌ لمشيئة ربه، متطلعٌ إلى رحمته وعافيته بعد الابتلاء : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [ التغابن : ١١] .

والقرءان يصور القرابة بين المنافقين والذين كفروا من أهل الكتاب بقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ ﴾[الحشر:١١] .

والله الخبير بالقلوب يقرر غير ما يقررون ، ويؤكد غير ما يؤكدون : ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[التوبة: ١٠٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[الحشر:١٢] .

والمنافقون لجهلهم بالله ، وقلة فقههم ، يَرهبون المؤمنين اشد مما يرهبون الله العزيز الجبار ، ولو خافوا الله ما خافوا أحدًا من خلقه : ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[الحشر:١٣] .

والمنافقون أجبن الناس ، وأخوفهم ؛ ولرهبتهم من المؤمنين لا يقاتلونهم مكاشفة قال الله تعالى عنهم : ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[ الحشر : ١٤ ] .

فهم متفرقون ، متنازعون ، مختلفون ، بأسهم بينهم شديد ، بخلاف المؤمنين الذين تتضامن أجيالهم ، وتجمعهم عصارة الإيمان من وراء فواصل الزمان ، والمكان ، والجنس ، والعشيرة ، والوطن : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [ التوبة : ٧١ ] .

المؤمنون إخوة ، والنبي ﷺ جمع الصحابة رضي الله عنهم على الدين ، فتحابوا عليه ، ولو جمعهم على الدنيا لتقاتلوا عليها ، والكفار والمنافقون وإن كانوا في الظاهر مجتمعين ، إلا أن قلوبهم شتى ؛ لأنهم اجتمعوا على ما يفرق الأمة ، وهو الكفر والأموال والشهوات ، والمظاهر قد تخدع ، فنرى تضامن أهل الكتاب فيما بينهم ، كما نرى تجمع المنافقين أحيانًا في معسكرٍ واحد ، ولكن هذا كله مظهرٌ خارجي خادع : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[الحشر:١٤].

وبين الحين والحين ينكشف هذا الستار الخادع ، وينكشف الحال عن نزاعٍ داخل المعسكر الواحد ، وما صدق المؤمنون مرة ، وتجمعت قلوبهم على الله حقا ، إلا وانكشف العدو أمامهم عن هذه الاختلافات ، وما صبر المؤمنون وثبتوا ، إلا وشهدوا مظهر التماسك بين أهل الباطل ينفسخ وينهار ، وينكشف عن الخلاف الحاد ، والشقاق ، والكيد ، والدس في القلوب المتنافرة .

وما ينال المنافقون والذين كفروا من أهل الكتاب من المسلمين إلا عندما تتفرق قلوب المسلمين ، وحينئذ لا يمثلون حقيقة المؤمنين .

والله سبحانه يعرف المؤمنين بأحوال هؤلاء المنافقين ؛ ليهون من شأنهم أمام المؤمنين ، ويتبرع من نفوس المؤمنين هيبة هؤلاء الأعداء ورهبتهم : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [ آل عمران : ١٧٥ ] .

ومتى أخذ المؤمنون بكتاب ربهم مأخذ الجد ، هان عليهم أمر عدوهم ، وعدو الله ، مهما كان ، وتجمعت قلوبهم في الصف الواحد صف الإيمان الذي لا تقف له قوة في الأرض .

والمنافقون فيهم خبث الطبع ، وخسة المشاعر : ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [المنافقون:٧] .

إنها خطة التجويع التي يبدو أن خصوم الحق والإيمان يتواصون بها في كل زمانٍ ومكان ، على حرب العقيدة ، وأهل الدين ، وسحق الإسلام ؛ ذلك أنهم لخسة مشاعرهم ، يحسبون لقمة العيش هي كل شيءٍ في الحياة ، كما هي في حسهم ، فيحاربون بها المؤمنين ، إنها خطة قريش ، وهي تخاطب بني هاشم في الشِعب في مكة في أول الإسلام ؛ لينفضوا عن نصرة رسول الله ﷺ ، ويسلموه للمشركين ، وهي خطة المنافقين ، وهم يقاطعون من عند رسول الله ؛ لينفض أصحاب رسول الله ﷺ عنه، تحت وطأة الضيق والجوع.

وهي خطة غيرهم ممن يحاربون الدعاة إلى الله في بلاد المسلمين بالحصار والتجويع ، ومحاولة سد أسباب العمل والارتزاق ، وهكذا يتوافق على هذه الوسيلة الخسيسة ، كل خصوم الإيمان من قديم الزمان إلى هذا الزمان ناسين أن الله غني ، وعنده خزائن كل شيء : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا

﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾ [البقرة:٢١٢] .

وقال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾ [المنافقون:٧] .

ومن خزائن السموات والأرض يرتزق هؤلاء الذين يريدون أن يتحكموا في أرزاق المؤمنين ، فليسوا هم الذين يخلقون رزق أنفسهم ، فما اجهلهم ، واقل فقههم ، وهم يحاولون قطع الرزق عن الآخرين ، والرزق كله بيد الله وحده لا شريك له : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود:٦] .

فالله جل جلاله يثبت المؤمنين ، ويقوي قلوبهم على مواجهة هذه الخطة اللئيمة ، والوسيلة الخسيسة التي يلجأ إليها أعداء الله في حربهم للمسلمين ، ويطمئنهم أن خزائن الله في السموات والأرض ، هي خزائن الأرزاق للجميع ، فكلٌ سيصل إليه رزقه ، والذي يعطي أعداءه لا ينسى أولياءه ، فقد شاء العزيز الرحيم إلا يأخذ حتى أعداءه من عباده ، بالتجويع ، وقطع الأرزاق : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ [الحج:٦٥] .

وقد علم الله سبحانه أن الناس مؤمنهم وكافرهم ، لا يرزقون أنفسهم قليلًا ولا كثيرًا ، لو قطع عنهم الأرزاق ، وهو أكرم أن يكل عباده ولو كانوا أعداءه إلى ما يعجزون عنه البته : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر:٤٥] .

التجويع خطةٌ لا يفكر فيها ، ولا يدعو إليها ، ولا يقوم بها ، إلا أخس الأخساء ، وألأم اللؤماء .

ولعظيم خطر المنافقين على المسلمين كشف الله في القرآن صفاتهم ، وبيّن عوراتهم ، وفضحهم حتى لا يخفى أمرهم على أحد ، كما بيّن الله ﷻ ذلك في سورة البقرة والنساء والتوبة وغيرها من السور ، فبيّن سبحانه أنهم هم السفهاء المفسدون في الأرض ، المخادعون لله ورسوله والمؤمنين ، والمستهزئون المغبونون في اشترائهم الضلالة بالهدى ، وأنهم صمٌ بكمٌ عميٌ فهم لا يرجعون ، وأنهم مرضى القلوب ، وأنهم أهل الحيرة والكسل عند العبادة ، وأهل التردد والتذبذب بين المؤمنين والكفار .

وأنهم أهل الرياء مع قلة ذكر الله ، وكثرة الحلف باسم الله تعالى كذبًا وباطلا ، وأنهم أهل الجبن والبخل ، لا يفقهون ما ينفعهم ، ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وأنهم يكيدون للإسلام والمسلمين ، وأنهم يكرهون ظهور أمر الله ، وأنهم يحزنون إذا حصل للمسلمين خير ونصر ، ويفرحون بما يحصل لهم من المحنة والابتلاء ، وأنهم يتربصون الدوائر بالمسلمين ، ويكرهون الإنفاق في سبيل الله ومرضاته ، وأنهم يعيبون المؤمنين ، ويرمونهم بما ليس فيهم ، ويرمون الأغنياء عند الصدقة بالرياء ، ويلمزون المتصدقين الفقراء .

وهم عبيد الدنيا ، إن يعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا سخطوا ، يؤذون الله ورسوله ، ويسخرون من المؤمنين ، وأنهم يكرهون الجهاد في سبيل الله ، ويفرحون إذا تخلفوا عن نصرة الدين ، ويتحايلون على تعطيل فرائض الله ، وأنهم يتركون ما أوجب الله عليهم مع قدرتهم عليه، وأنهم أحلف الناس بالله، قد اتخذوا أيمانهم جُنة تقيهم من إنكار المسلمين عليهم ، وأنهم رجس فهم أخبث بني ادم ، وأقذرهم ، وأرذلهم ، وبأنهم فاسقون ، وأنهم مضرة على المؤمنين ، يقصدون التفريق بينهم ، ويوالون من حاد الله ورسوله ، ومن

حارب الله ورسوله ، وأنهم يتشبهون بالمؤمنين في أعمالهم وأقوالهم ، ليتوصلوا منها للإضرار بهم ، وتفريق كلمتهم ، وأنهم أحسن الناس أجسامًا ، تعجب الرائي أجسامهم ، والسامع منطقهم ، فإذا جاوزت أجسامهم ومنطقهم رأيت خُشبًا مسندة ، لا إيمان ولا فقه ، ولا علم ولا صدق .

وإذا عرضت عليهم التوبة والاستغفار أبوا ، وزعموا أنه لا حاجة بهم إليها ، يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف ، ويتولون الكفار ، ويبغضون المؤمنين .

قد استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ، فهم حزب الشيطان الذين يوادون من حاد الله ورسوله ، وأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [ آل عمران : ١١٨ ] .

إذا حدث أحدهم كذب ، وإذا عهد غدر ، وإذا خاصم فجر ، وإذا اؤتمن خان ، وإذا وعد أخلف ، يؤخرون الصلاة عن وقتها ، فإذا أدوها نقروها عجلة وإسراعا ، وترك حضورها جماعة ، أشحةً على المؤمنين بالخير ، وأجبن الناس عند الخوف ، فإذا ذهب الخوف ، وجاء الأمن سلقوا المؤمنين بألسنةٍ حداد .

وهم أشد الناس تقلبًا ، لا يثبتون على حال ، بينما ترى بعضهم صالحًا تعجبك أحوالهم إذ انقلبوا إلى ضد ذلك ، معرضون عن الدين ، معارضون له ، يكتمون الحق ، ويلبسون على أهله ، يرمون المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ؛ بأنهم أهل فتن ، مفسدون في الأرض ، وأهل بدعٍ وضلال ، وإذا رأوهم زاهدين في الدنيا ، راغبين في

الآخرة ، متمسكين بطاعة الله ورسوله ، رموهم بما ينفر الناس عنهم ، وإن رأوا معهم حقًا ألبسوه لباس الباطل ، وأخرجوه لضعفاء العقول في قالبٍ شنيع؛ لينفروهم عنه، وإذا كان معهم باطل ألبسوه لباس الحق ؛ ليقبل منهم.

حالهم تروج على أكثر الناس ، لعدم بصيرتهم بالدين ، وليس أضر على الدين من هذا الضرب من الناس ، وإنما يفسد الدين من قبلهم ، فكم قطعوا على السالكين إلى الله طرق الهدى ، وسلكوا بهم سبل الردى ، صحبتهم توجب العار والشنار ، ومودتهم توجب غضب الجبار ، ودخول النار ، فحذاري حذاري منهم : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [ المنافقون:٤ ] .

فهذه النبتة الخبيثة ، والحشرة السامة ، والبذرة الفاسدة التي تنخر في جسد الأمة الإسلامية ، لابد من اجتثاثها ، وقطع عروقها ، قبل أن تكبر ، وتنتشر جذورها وسمومها في ارض الله ، وتهلك الحرث والنسل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ﴾ [التحريم:٩] .

فما أعظم خطر المنافقين ، وما أشد عقوبتهم : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ هِيَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [ التوبة : ٦٨ ] .

فاللهم أرنا الحق حقًا، وارزقنا إتباعه، وارنا الباطل باطلًا، وارزقنا اجتنابه ، اللهم أهدنا ، وأهدِ بنا ، واجعلنا سببًا لمن اهتدى .

اللهم يا مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك ، واستعمل جوارحنا في عبادتك ، واشغل ألسنتنا بذكرك ، يا رب العالمين .

# ٦- الخزانة السادسة

## العدو الخامس : الكفار والمشركون

الكافر من جحد الرب ، والمشرك من أشرك به غيره من الخلق ، ويطلق كل منهما على الأخر .

والله ﷻ كشف في القرآن الكريم أباطيل الكفار ، وبين بطلانها بالأدلة الحسية ، والبراهين العقلية ، حتى ظهر الحق ، وزهق الباطل .

**وأباطيل الكفار ثلاثة أنواع :**

**الأول** : ذكر الله بما لا يليق به كقولهم أن الملائكة بناته ، وأن له ولدًا وشريكًا ، وأنه ثالث ثلاثة ، ووصفه بما لا يليق به ونحو ذلك : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [ الصف : ٧ ] .

**الثاني** : ذكر رسول الله ﷺ بأنه ساحر وكاهن ، وشاعر ومجنون ، وإنكار نبوته ﷺ ونحو ذلك .

**الثالث** : إنكار البعث ، واليوم الآخر ، والجنة والنار ، وإنكار الثواب والعقاب : ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ [ التغابن : ٧ ] .

واليهود والكفار والمشركون أعظم الناس معاداة للإسلام والمسلمين ، وأكثرهم سعيًا في إيصال الضرر إليهم ، وذلك لشدة بغضهم لهم بغيًا وحسدًا ، وعنادًا وكفرًا : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا

نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[المائدة:٨٢] .

وهؤلاء الكفار والمشركون لا يؤمنون غالباً ، فلا تفيدهم الدعوة إلا لإقامة الحجة عليهم : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾[البقرة:٦] .

وبسبب كفرهم وجحودهم ، ومعاندتهم بعد ما تبين لهم الحق ، طبع الله على قلوبهم بطابع ، لا يدخلها الإيمان ، ولا ينفذ فيها ، فلا يَعُون ما ينفعهم ، ولا يسمعون ما يفيدهم ، وجعل الله على أبصارهم غشاوة تمنعها من النظر الذي ينفعهم : ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٧﴾ ﴾[البقرة: ٧] .

لهم عقاب عاجل في الدنيا ، أما العقاب الآجل ، فهو عذاب النار ، وسخط الجبار ، وذلك عذابٌ مستمرٌ دائم : ﴿ لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٣٤﴾ ﴾[الرعد:٣٤] .

وطبيعة المعرضين عن الهدى واحدة ، وحجتهم كذلك مكرورة على مر الأجيال والقرون والدهور : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزخرف:٢٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾[ البقرة : ١٧٠ ] .

فليس قصد هؤلاء المشركين الضالين بتقليد آبائهم إتباع الحق والهدى ، وانما هو تعصب محض ، يراد به نصرة ما معهم من الباطل ، وإتباع الهوى ولهذا كل رسول يقول لمن عارضه بهذه الشبهة الباطلة : ﴿ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُمۡ بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [ الزخرف : ٢٤ ] .

فتغلق قلوب هؤلاء على هذه المحاكاة ، وتطمس عقولهم ، دون التدبر لأي جديد ، ولو كان أهدى ، ولو كان أجدى ، ولو كان يصدع بالدليل والبرهان القاطع ، فعلم بهذا أنهم ما أرادوا إتباع الحق والهدى ، وإنما أرادوا إتباع الباطل والهوى : ﴿ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [ الأعراف : ١٧٩ ] .

فإذا تمسكوا بما عليه آباؤهم من الضلال ، ولم يستجيبوا للرسول ، فلا يكون الا التدمير والتنكيل لهذه الفئة التي لا تريد أن تفتح عينها لترى ، أو تفتح قلبها لتحس ، أو تفتح عقلها لتستبين : ﴿ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُمۡ بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الزخرف:٢٤-٢٥] .

وقد جاء النبي ﷺ بدعوة الحق، كما قال سبحانه : ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [فصلت:٦-٧] .

وواجه النبي ﷺ بدعوة التوحيد الكفار والمشركين من أول يوم ، وأمره ربه سبحانه أن يقول لهم : ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ [الكافرون:١-٦] .

فالإيمان ضد الكفر ، والتوحيد ضد الشرك ، فلا يجتمعان أبدًا في قلب عبد كما قال سبحانه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾ [التغابن:٢] .

ولما كان الكفار والمشركون في مكة وغيرها يعبدون الأصنام والأوثان من دون الله ، جاء القرآن في عامة نصوصه ينكر على الكفار كفرهم بالله ، وينكر على المشركين شركهم بالله ، ويسخر من عقول عباد الأصنام والأوثان ، ويسفه أحلامهم ، ويكشف لهم عن حقارة هذه الأصنام وعجزها ، وأنها لا تملك لنفسها ولا لغيرها نفعًا ولا ضرًا ، ولا حياة ولا موتًا ولا نشورًا ، فكيف يعبدونها من دون الله ؟ : ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾ [المائدة:٧٦] .

وقال سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأحقاف:٥-٦] .

وقال الله ﷻ : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَـٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الأنبياء:٩٨-١٠٠] .

وقال جل جلاله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الحج:٧٣-٧٤].

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾[ الأعراف :١٩٤- ١٩٥ ] .

فواجه الكفار والمشركون هذه الدعوة بإثارة الشبه حول حامل رايتها ، وهو القرآن ، ليشككوا الناس فيه ، وفي صحته وخبريته ، وسلكوا في سبيل تحقيق ذلك مسالك متعددة ، فلم يستطيعوا ، لأن الله هو الذي أنزله : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[التوبة:٣٣-٣٢] .

- **فقه عداوة الكفار والمشركين .**

واجه الكفار والمشركون هذه الدعوة الإسلامية بإثارة الشبه حول حامل رايتها ، وهو القرآن الكريم ، ليشككوا الناس فيه ، وفي صحته ، وسلكوا في سبيل تحقيق ذلك مسالك متعددة .

فقالوا : ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[الأحقاف:١٧] .

وقالوا : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾[المدثر:٢٤-٢٥] .

وقالوا : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾[الفرقان:٤-٥] .

والله سبحانه يؤكد لهم ، ويقسم بما يُرى وما لا يُرى ، أن هذا القرآن كتاب رب العالمين ، تنزيل من رب العالمين ، جاء به رسول كريم كما قال سبحانه : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا

هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الحاقة:٣٨-٤٣] .

وظل هؤلاء الكفار والمشركون يسخرون من هذا الدين الذي جاء به رسول الله ﷺ ، ويواجهون رسول الله بما يكره لعله أن يرجع عما جاء به . فقالوا ساخرين : ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الحجر:٦-٧].

وقالوا : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الأنعام:٨] .

ثم زادوا في التهكم والسخرية فقالوا : ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال:٣٢] .

وقالوا : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ ﴾ [سبأ:٧-٨] .

وقالوا : ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٤] .

واستمروا على كفرهم وعنادهم وكبريائهم كما قال الله عنهم : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأنفال:٣١].

فما أعظم جحود هؤلاء الكفار ، وما أشد إثمهم ، وما أعظم عقوبتهم : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾[الجاثية: ٧-١٠] .

ويل لكل أفاك أثيم ، أهذا القرآن الذي فيه تبيان كل شيء ، وتفصيل كل شيء ، وفيه الهدى والشفاء ، يمكن أن يكون قول ساحر ، أو شاعر ، أو كاهن ، أو مجنون ، أو كذاب ؟ : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾[النحل:٨٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنبياء:١٠] .

ولما بلغ الكفار هذا الحد من الاستهتار والاستخفاف والاستكبار ، تعين كسر شوكتهم ، ورد باطلهم في أفواههم ، ودمغهم بالحق المبين ، الذي لا يبقي بعده أي شبهة كما قال سبحانه : ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾[الإسراء:٨١] .

فطالبهم الله ﷻ و تحداهم الله أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، فلم يستطيعوا ولن يستطيعوا كما قال سبحانه : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾[الإسراء:٨٨] .

ثم تحداهم الله ﷻ أن يأتوا بعشر سور مثله فلم يستطيعوا ولن يستطيعوا كما قال سبحانه : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[ هود : ١٣] .

ثم تحداهم لا بالقرآن كله ، ولا بعشر سور مثله ، بل بسورة مثله ، فلم يستطيعوا ولن يستطيعوا كما قال سبحانه : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾[يونس:٣٨] .

ولما يئس الكفار والمشركون عن معارضة القرآن بأي وجه ، غيروا خطتهم في محاربة الحق ، ودفاعهم عن الباطل ، فراحوا يطالبون النبي ﷺ بالمعجزات المادية الحسية كالتي كانت للأنبياء قبله ، كما قال سبحانه : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [طه:١٣٣] .

وقال سبحانه : ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾[الإسراء:٩٠-٩٣] .

فلا إله إلا الله ، ما أعظم حلم الله على من كفر به .

ولما ألحوا في المطالبة ، والله سبحانه لم يجبهم رحمة بهم ، إذ لو جاءتهم الآيات فلم يؤمنوا هلكوا ، والله يعلم أنهم لا يؤمنون ، ولو رأوا الآيات كما قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾[ الأنعام : ١١١ ] .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[الحجر:١٤-١٥] .

وليس معنى هذا أن محمدًا ﷺ لم يكن معه آيات ومعجزات ، فقد كان له معجزات ، ولكنها ما كانت مقرونة بالتحدي ، كراهية أن لا يؤمن بعدها من طلبها فيهلك كما هلكت الأمم التي طلبت الآيات .

ولما ألح المشركون في طلب الآيات : ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾[الأنعام:١٠٩] .

والكفار لكفرهم ، والمشركون لشركهم ، في غفلة عن آيات الله الكبرى ، في السموات والأرض ، والجبال والبحار والنبات والحيوان : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ [ق:٦ -٨] .

فبين الله ﷻ لهم أن أكبر آية ومعجزة جاء بها محمد ﷺ هي القرآن ، وهي آية عقلية باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فتكفيهم كما قال سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[العنكبوت:٥١] .

وقال النبي ﷺ : « مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْياً أَوْحَاهُ الله إِلَيَّ ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ». متفقٌ عليه[1].

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٤٩٨١)، واللفظ له، ومسلم برقم: (١٥٢).

ثم زادوا في التهكم والسخرية من البعث بعد الموت : ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾ ﴾ [الإسراء:٤٩-٥١] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [ السجدة : ١٠-١١] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الجاثية:٢٤] .

# ٧- الخزانة السابعة

- **فقه عداوة الكفار والمشركين :**

لما بين الله ﷻ للكفار والمشركين أن أعظم معجزة وآية جاء بها نبينا محمد ﷺ هي القرآن أقروا بذلك ، ثم أقروا بالقرآن إلا أن الذي منعهم من إتباعه أن يأتي به بشر كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [الإسراء:٩٤-٩٥] .

فسبحان الله ما أعظم حلمه ، وما أعظم عداوة الشيطان للإنسان وما أصبر الرسل على أقوامهم : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [ البقرة : ١٤٣ ].

ثم صدهم عنه أنه لم يأت به رجل شريف عظيم ، ذو جاه وسلطان ، بل جاء به رجل بسيط فقير : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف:٣١-٣٢] .

وسخروا من الرسول ﷺ ، ومن طريقة حياته : ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا

﴿ ٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ٨ ﴾[الفرقان:٧-٨] .

ثم تورطوا تورطًا آخر ، يدل على حمقهم وسفههم ، فأقروا بأن القرآن هدى ، لكنهم خافوا إن اتبعوه أن يُتخطفوا من أرضهم كما قال سبحانه : ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧ ﴾ [القصص:٥٧]

فإذا أَمَّنكم ورزقكم وأنت كافرون ، فهل يتخلى عنكم وأنتم مؤمنون : ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤ ﴾[قريش:١-٤].

ثم حاولوا بعد عجزهم عما سبق ، أن يخنقوا دعوة التوحيد لا إله إلا الله بصرف الناس عنها ، وتنفيرهم منها : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۙ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥ ﴾[النحل:٢٤-٢٥] .

والإعراض عن القرآن ، وصد الناس عنه ، واللغو عند سماعه كما قال سبحانه : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٧ ﴾ [فصلت: ٢٦-٢٧] .

وبعد حرب ضروس ذاق فيها المشركون مرارة الهمّ والغمّ والحزن ، ومرارة القتل والأسر والهزيمة ، على أيدي من استضعفوهم بالأمس ، ناداهم الله بقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ

﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾[البقرة:٢١-٢٤] .

إن الكفار والمشركين لا يدينون لله وحده بالعبادة ، وهم كذلك لا يعترفون برسالة رسوله ، ويواجهون بالجحود والكفر خالقهم ورازقهم .

والإسلام وإن كان له مع هؤلاء عهود أمر الله بالوفاء بها ، فهي عهود مرحلية لمواجهة الواقع ، والذي يقضي بأن يدع من يسالمونه ابتداءً من المشركين ليتفرغ لمن يهاجمونه ، وأن يوادَع من يريدون موادعته في فترة من الفترات ، وأن يعاهَد من يريدون معاهدته في مرحلة من المراحل ، فإنه لا يغفل لحظة عن هدفه النهائي ، الذي يستهدف ابتداءً أن لا يكون في الأرض شرك بالله ، وأن تكون العبودية لله وحده لا شريك له كما قال سبحانه : ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾[البقرة:١٩٣] .

كما أنه لا يغفل أن هذه العهود مع المشركين موقوتة من جانب أنفسهم ، وأنهم لا بدَّ مهاجموه ومحاربوه ذات يوم .

وأنهم لن يتركوه وهم يستيقنون من هدفه ، ولن يأمنوه على أنفسهم إلا ريثما يستعدون له ، ويستديرون لمواجهته، كما قال الله عنهم : ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾[البقرة:٢١٧] .

والله ﷻ يريد من عباده أن يعبدوه وحده لا شريك له ، وهم الذين كفروا ، وصدوا عن سبيل الله ، وآذوا المسلمين ، وفتنوهم عن دينهم ، فما أعظم جرمهم؟ : ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الفتح : ٢٥] .

فكيف يكون لهؤلاء المشركين عهد عند الله ، وعند رسوله : ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [التوبة:٧ ] .

وكيف يكون للمشركين عهد عند الله ، وعند رسوله ، وهم أيها المسلمون لا يعاهدونكم إلا في حال عجزهم عن التغلب عليكم ؟ ولو ظهروا عليكم وغلبوكم ، لفعلوا بكم الأفاعيل ، من غير مراعاة لعهدٍ قائم بينكم وبينهم ، ومن غير ذمة يرعونها لكم ، وهم لشدة ما يكنونه لكم من البغضاء ، يتجاوزون كل حد في التنكيل بكم ، ولو أنهم قدروا عليكم مهما يكن بينكم وبينهم من عهود قائمة ، فليس الذي يمنعهم من التنكيل بكم أن بينكم وبينهم عهودٍ ، إنما الذي يمنعهم أنهم لا يقدرون عليكم ولا يغلبونكم .

فإذا تمكن هؤلاء الكفار منكم ، أنزلوا بكم أقسى العقوبات ؛ لما في قلوبهم من الحقد عليكم .

وإذا كانوا اليوم وأنتم أقوياء ، يُرضونكم بأفواههم بالقول اللين ، والتظاهر بالوفاء بالعهد ، فإن قلوبهم تنغل وتغلي عليكم بالحقد ، وتأبى أن تقيم على العهد ، فما بهم من وفاء لكم ولا ود ، فاحذروهم فقلوبهم مملوءة

بالحقد عليكم : ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [التوبة:٨ ] .

وبسبب فسقهم عن دين الله ، وخروجهم عن هداه ، آثروا على آيات الله ثمناً قليلاً من عرض هذه الحياة الدنيا يخافون فوته .

وقد كانوا يخافون أن يفوت عليهم الإسلام شيئًا من مصالحهم ، أو يكلفهم شيئًا من أموالهم ، فصدوا عن سبيل الله : ﴿ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [التوبة:٩ ] .

فما أخسرهم ، وما أشد عقوبتهم : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[الأنفال:٣٦].

وإن جميع الكفار والمشركين من كانوا ، وحيث كانوا ، لا يضمرون حقدًا وحسدًا للإنسان ذاته ، إنما يوجهون حقدهم وانتقامهم لهذه الصفة التي عليها البشر ، لكل مسلم ، لكل مؤمن ، للإيمان ذاته كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ ﴾[ البروج: ٨-٩]

فالإيمان هو سبب النقمة ، فهم يحقدون على المسلمين ويحسدونهم ، ولا يرعون في مؤمن عهدًا ، ولا يتورعون من منكر : ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [التوبة:١٠ ] .

إن المسلمين يواجهون أعداء يتربصون بهم ، ولا يقعد هؤلاء الأعداء عن الفتك بالمسلمين بلا شفقة ولا رحمة ، وهم قائمون بذلك ما قدروا على ذلك ؛ لا يقعدهم عهد معقود ، ولا ذمة مرعية ، ولا تحرج من مذمة ، ولا إبقاء على صلة .

هذا منهج الكفار مع المسلمين في كل زمانٍ ومكان ، وهو معلوم وواقع مشهود ، لا ينحرفون عنه إلا لطارئ زائل ، ثم يعود فيأخذ طريقه المرسوم في العدوان : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾[البقرة:٢١٧] .

وهؤلاء الكفار إن آمنوا بالله ، وعملوا بأحكام دينه ، فهم إخواننا ، وإن نكثوا لما بايعوا عليه من الإيمان ، وطعنوا في دين المسلمين ، فهم إذاً أئمة الكفر ، لا أيمان لهم ولا عهود ، وعندئذ يكون القتال لهم ، لعلهم أن يتوبوا إلى ربهم ، أو يتقوا شرهم : ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [التوبة:١٢] .

إن قوة الجيش الإسلامي ، ومظهره وغلبته في الجهاد ، قد تَرُدّ قلوباً كثيرة إلى الصواب ، وتريهم الحق الغالب فيعرفونه ، ويعلمون أنه إنما غلب ، لأنه الحق ، ولأن وراءه قوة الله ، فيقودهم هذا كله إلى التوبة والهدى ، لا كرهاً وقهراً ، ولكن اقتناعاً بالقلب ، بعد رؤية واضحة للحق الغالب ، وقد وقع ذلك ، وما زال يقع : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾[الصف:٤] .

فالمعركة مع الكفار والمشركين طويلة الأمد ، ولم تكن بين المسلمين والمشركين بقدر ما كانت بين الإسلام وأهل الكتاب من اليهود والنصارى . وإذا كان الإسلام لم يبدأ برسالة محمد ﷺ ، وإنما ختم بهذه الرسالة ، فما هو موقف الكفار والمشركين من كل رسول ، ومن كل رسالة : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[ آل عمران : ١٩] .

وماذا فعل الله بهم جزاء كفرهم وعدوانهم للرسل ؟ وماذا صنع المشركون مع نوح وهود وصالح ، ومع إبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم ؟ .

وماذا فعلوا بالمؤمنين بهم في زمانهم ؟ ثم ماذا صنع الكفار والمشركون مع محمدٍ ﷺ ؟

وماذا فعلوا مع المؤمنين به كذلك إلى يومنا هذا ؟ .

إنهم لم يَرْقُبوا فيهم إلاً ولا ذمة متى ظهروا عليهم ، وتمكنوا منهم .

وماذا صنع المشركون التتار بالمسلمين في بغداد ؟ .

إنها مأساة دامية عظيمة اقترفها الوثنيون التتار في حق المسلمين ، فقد سفكوا دماء المسلمين ، حتى صارت الجثث كالتلول ، وأنتنت البلد من جيفهم ، وتلوث الهواء ، فحصل بسببه الوباء ، وسرى في الهواء إلى الشام ، ومات خلق كثير من تغير الجو ، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء ، والطعن والطاعون والمذلة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٤-٢٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ الشورى : ٣٠ ] .

وما حصل من الوثنيين الهنود عند إنفصال باكستان في الوقت الحاضر ، لا يقل شناعةً ولا بشاعةً عما وقع من التتار في ذلك الزمان البعيد .

وأهل الكفر والشرك في كل زمانٍ ومكان يرثون العداوة للمسلمين ممن سبقهم ، ويحاربون المسلمين بكل ما يقدرون عليه .

ثم ماذا فعل خلفاء التتار في الصين الشيوعية وروسيا الشيوعية بالمسلمين هناك ؟.

لقد أبادوا من المسلمين في خلال ربع قرن بضعة وعشرين مليوناً من المسلمين والمسلمات .

وما تزال عمليات الإبادة ماضيةٌ في الطريق ، وذلك عبر وسائل التعذيب الجهنمية التي تقشعر لهولها الأبدان ، وتنفطر القلوب .

وما زالت هذه المذابح العظيمة تتكرر في صور شتى حتى الآن في كثير من بلاد الإسلام ، وبلاد الكفار ، كما هو حاصلٌ في زماننا هذا ، ولولا أن الله تكفل بحفظ دينه وكتابه ، والعصبة المؤمنة التي تحمله وتحكمه ، وتعمل بموجبه ، لم تجد أثرًا لمسلم ولا مسلمة : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [ الذاريات : ٦٠ ] .

كذلك فعلت يوغوسلافيا الشيوعية بالمسلمين فيها ما تقشعر له الأبدان ، فقد قتلت وأبادت منهم أكثر من مليون مسلم ، ومن أعظم صور الإبادة والتعذيب الوحشي إلقاء المسلمين رجالًا ونساءً أحياء في مفارم اللحوم ، ليخرجوا من الناحية الأخرى عجينة من اللحم والعظام والدماء : ﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [ المنافقون:٤ ] .

ولا تزال الحرب قائمة بين المسلمين والمشركين : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾ [البقرة:٢١٧] .

وهذا ينبه المسلمين أن الموجود من الدين صورته لا حقيقته : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الأنفال:٢- ٤ ].

وكلما ابتعد المسلمون عن دينهم ، سلط الله عليهم من يذلهم ويؤدبهم حيث كانوا ، ومن كانوا كما قال سبحانه : ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾[الفرقان:١٩] .

فهل فوق هذا من عقوبة ، وهل رأيت وحشيةً فوق هذه الوحشية ؟ . إنه ليس عند الكفار للمسلمين إلا هذه العداوة ، وهذه القسوة ، وهذه الإبادة متى استطاعوا إلى ذلك سبيلًا : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[ المائدة : ٨٢ ] .

نسأل الله ﷻ أن يقيمنا على حياة القرن الأول ، حيث ربى النبي ﷺ أصحابه على رحمة الخلق ، والشفقة عليهم ، والصبر على أذاهم ، والاستعانة بالله ، والتوكل عليه : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾[ غافر :٥١- ٥٢ ] .

وقد بين الله ﷻ الأهداف النهائية للكفار والمشركين تجاه الإسلام والمسلمين إلى يوم الدين ، فقال سبحانه : ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ

فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [النساء:٨٩] .

وقال ﷻ : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾ [البقرة:٢١٧] .

وقال سبحانه : ﴿ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ ﴾ [النساء:١٠٢] .

وقال سبحانه : ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الممتحنة:٢] .

وقال سبحانه : ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [التوبة:١٠ ] .

فهذا وصف الله لهم :

عداوة مستمرة ، وإبادة بلا رحمة ، وطبيعة دائمة في حرب الإسلام والمسلمين بلا هوادة ، لا حالةً مؤقتةً عارضة ، إنه العداء العنيد ، والكيد المستمر ، والحرب الدائمة التي لم تفتر على مدار التاريخ ، وإنفاق الأموال، وبذل الطاقات ، لضرب الإسلام في أي مكان وفي أي زمان : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [ الأنفال : ٣٦ – ٣٧ ] .

# ٨- الخزانة الثامنة

- **فقه عداوة الكفار والمشركين :**

إن الجاهلية بكل ما فيها من أحزاب الكفر ، لا ترضى عن الإسلام أن يكون له كيان مستقل ، ولا تطيق أن يكون له وجود تراه ، وهي لا تسالم الإسلام حتى لو سالمها ، فكما لا يجتمع النور والظلام ، كذلك لا يجتمع الحق والباطل في مكان ، لأن الإسلام إذا تميز بدولة ورجال ونظام أخافها ، وهذا ما لا تطيقه الجاهلية ، لذلك لا يطلب الكفار من الرسل مجرد أن يكفوا عن دعوتهم فحسب ، بل يطلبون منهم أن يعودوا في ملتهم ، وأن يندمجوا في المجتمع الجاهلي معهم ، وأن يذوبوا فيه ، فلا يكون لهم كيان مستقل ، وهذا ما تأباه طبيعة هذا الدين العظيم لأهله ، وما يرفضه الرسل ويأبونه ، فما ينبغي للمسلم أن يعود إلى الظلام بعد النور الذي أكرمه الله به كما قال سبحانه : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ [إبراهيم:١٣-١٤] .

وهذا دأب الطاغوت في كل مكان ، وفي كل زمان ، إذا أحس بهزيمته أمام العقيدة ، خرج شاهراً سيفه بالقوة المادية الغليظة ، وعندما تسفر القوة المادية الغاشمة عن وجهها الصلد، لا يبقى مجالٌ لدعوة، ولا مجالٌ لحجة ، وحينئذ يجب قتالهم : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [ البقرة :١٩٠ ] .

ولا يسلم الله الرسل وأتباعهم إلى الجاهلية ، فالتجمع الجاهلي لا يسمح لعنصر مسلم أن يعمل من داخله ، إلا أن يكون عمل المسلم وجهده لحساب التجمع الجاهلي ، ولتوطيد جاهليته .

والذين يخيل إليهم أنهم قادرون على العمل لدينهم من خلال التسرب في المجتمع الجاهلي ، والتميع في تشكيلاته وأجهزته ، هم ناس يجهلون أن كل فرد في المجتمع يعمل لحساب هذا المجتمع الشاذ .

لذلك لا يرتضي الرسل الكرام العودة في ملة قومهم بعد إذ نجاهم الله منها كما قال سبحانه : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [ الأعراف : ٨٨ – ٨٩ ] .

وهنا وبعد هذا التهديد من الكفار ، وبعد الثبات على الدين من المؤمنين ، ينزل عذاب الله ، ويحيط بالكافرين بضربة مدمرة قاضية ، لا تقف لها قوة البشر المهازيل وإن كانوا طغاة متجبرين : ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ [إبراهيم:١٣-١٤] .

ولا يفصل الله بين المؤمنين والكفار ، إلا بعد مفاصلة المؤمنين للكفار ، ورفضهم أن يعودوا لملة قومهم ، وبعد أن يصروا على تميزهم بدينهم ، وبعد أن يفاصلوا قومهم على أساس العقيدة ، ويتمايز الفريقان عقيدة ومنهجاً ، وبعد أن تبذل القوة المؤمنة كل طاقة تمكنها .

عندئذ يأتي وعد الله بالنصر على الأعداء ، ويدمر الطواغيت الذين كانوا يهددون المؤمنين ، ويمكّن للمؤمنين في الأرض ، فتقف القوة الصغيرة الهزيلة ، قوة الطغاة الظالمين في صف ، ويقف المؤمنون المتواضعون ، ومعهم قوة الله في صف : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [ آل عمران : ١٢٣ ] .

فإذا دعا كلاهما بالنصر والفتح ، كانت العاقبة كما يجب أن تكون : ﴿ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [إبراهيم:١٥-١٧] .

ولما كان التجمع الإسلامي إنما يأكل كل يوم من جسم التجمع الجاهلي في أول الأمر ، وهو في دور التكوين ، ثم بعد ذلك لا بدّ له من مواجهة التجمع الجاهلي لتسلم القيادة منه ، وإخراج الناس كافة من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٧ ] .

ومن أجل هذا كانت مواجهة الجاهلية واحدة لدعوة الرسل الكرام ، إنها مواجهة الدفاع عن النفس في وجه الاجتياح الجاهلي ، ومواجهة الدفاع عن الربوبية التي اغتصبها العباد ، وهي من حق الله وحده .

لذلك واجهت الجاهلية الإسلام في معركة حياة أو موت ، ومعركة بقاء أو زوال ، لا هوادة فيها ، وأعداء هذا الدين من الكفار والمشركين يصفون القرآن الذي يعالج النفوس والعقول والقلوب ، ويعالج أوضاع الحياة ، وسلوك الناس، وعلاقات المجتمع، وأحوال البشر في الماضي والحاضر

والمستقبل، ويبين قصص الأولين، وعاقبة المؤمنين والكافرين ، يصفونه بأنه أساطير الأولين والأساطير : هي الحكايات الوهمية الحافلة بالخرافة : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[النحل:٢٤-٢٥] .

إن استكبارهم يمنعهم من الخضوع للحق ، والبرهان سيؤدي بهم إلى حمل ذنوبهم ، وشطر من ذنوب الذين يضلونهم بهذا القول ، ويصدونهم عن الإيمان والقرآن ، ويضاعف العذاب للكفار بما كفروا ، وحملوا غيرهم على الكفر ، وصدوهم عن سبيل الله كما قال سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [النحل:٨٨] .

فالكفر فساد ، والحمل عليه إفساد ، وهؤلاء قد ارتكبوا جريمة كفرهم ، وجريمة صد غيرهم عن الهدى ، فضوعف لهم العذاب جزاءً وفاقًا ، وذلك شأن عام مع جميع الأقوا : ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[النحل:٢٥] .

إن الطغاة المتسلطين يهددون بالعذاب الغليظ ، ويسلطونه على الأجسام والأبدان ، حين يعجزون عن قهر القلوب والأرواح على ما يريدون ، كما قال فرعون للسحرة لما آمنوا : ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾[طه:٧١] .

إنه الاستعلاء بالقوة الغاشمة ، قوة الوحوش في الغابة ، القوة التي تمزق الأحشاء والأوصال ، ولا تفرق بين إنسان يقرع بالحجة القاهرة ، وحيوان

يقرع بالناب : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [ الصف : ٨ ] .

إن كفار مكة يظنون أن الدين كالتجارة ، فهم على استعدادٍ للتخلي عن كثيرٍ من تصوراتهم في مقابل أن يتخلي النبي ﷺ عن بعض ما يدعوهم إليه ، وربه ينهاه عن ذلك بقوله : ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [ القلم:٨-٩] .

فهي المساومة إذًا ؛ كما يفعلون في التجارة ، وفرق كبير بين العقيدة والتجارة ، فصاحب العقيدة الإيمانية لا يتخلى عن شيء منها أبدًا ، فهم يريدون من النبي ﷺ أن يترك سب آلهتهم ، وتسفيه عبادتهم أو يتابعهم في شيء مما هم عليه ، ليتابعوه في دينه ، ولكن الرسول ﷺ كان حاسمًا في موقفه من دينه ، لا يداهن فيه ولا يلين ، وهو فيما عدا الدين ألين الخلق جانبًا ، وأحسنهم معاملة ، وأبرهم بعشيره ، وأحرصهم على اليسر : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٥٩] .

فأما الدين فهو الدين ، وهو فيه عند توجيه ربه : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ [الكافرون:١-٦] .

وقوله ﷻ : ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الفرقان:٥٢] .

ولم يساوم ﷺ في دينه ، وهو في أحرج المواقف في مكة ، وهو محاصراً في دعوته ، وأصحابه القلائل يتخطفون ، ويعذبون ، ويؤذون في الله أشد الإيذاء ، وهم صابرون محتسبون ، ولم ينطق بكلمةٍ واحدة ، ينبغي أن تقال في وجوه الأقوياء المتجبرين ، تأليفًا لقلوبهم ، أو دفعًا لأذاهم .

وساوموه على أن يعبد ما يعبدون ، وهم يعبدون ما يعبد ، فحسم الله هذه المساومة المضحكة بقوله : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ [الكافرون:١-٦] .

ولقد واجه الملأ من قريش رسول الله ﷺ بكل أذى ، بالقول وبالفعل ، وعرضوا عليه عروضًا مغرية ، لعله أن يقبلها ، ويترك ما جاء به من الدين والحق .

واتهموه تارةً بالسحر ، وتارةً بالكذب ، وتارةً بالشعر ، وتارةً بالكهانة ، وتارةً بالجنون ، ولكنه لم يبالي بالعروض ، وصبر على السَّبِّ والأذى ، ومضى يدعو إلى الله ، حتى أظهر الله دينه ، وجاء الحق وزهق الباطل : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[الروم:٦٠] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾[الطور:٤٨] .

والله سبحانه يأمر رسوله ﷺ بأداء الرسالة للبشرية ، وينهاه عن طاعة أحد من هؤلاء الملأ المكذبين ، ويصفوه بالصفات المزرية المنفرة ، وهو الوليد بن المغيرة ، أحد كبار طغاة قريش ، له مواقف مشهورة وكثيرة في الكيد لرسول الله ﷺ ولدينه ، وتهديد أصحابه ، والوقوف في وجه الدعوة إلى الله ، والصَّدِ عن سبيل الله ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ

بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [ المنافقون:١٠-١٥ ] .

وما أقبح ما يجزي إنسان نعمة الله عليه بالمال ، والبنين ، استهزاءً بآياته ، وسخريةً من رسوله ، واعتداءً على دينه ، وكفرًا بالله ونعمه ، وما جزاء هذا الصنف العنيد المستكبر الأثيم ؟

قال الله تعالى: ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ القلم:١٦] .

إنها القاصبة ، والعلامات المخزية التي يستاهلها عدو الإسلام ، وعدو الرسول ﷺ ، هذه الهامات الشامخة ، والكبرياء المنفوخة .

إن الله العزيز الجبار ، القوي القهار ، يقول لرسوله الكريم ﷺ خَلِّي بيني وبين هؤلاء الكفار المكذبين المغترين بالمال والبنين ، والجاه والسلطان ، فالحرب معي ، لا معك ، ولا مع المؤمنين ، وهذا المخلوق عبدي ، وأنا سأتولى أمره ، وذرني لحربه فأنا به كفيل ، فسأملي لهم ، واجعل هذه النعمة فخهم : ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القلم: ٤٤-٤٥] .

والله يمهل ولا يهمل ، ويملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، وشأن المكذبين وأهل الأرض أجمعين ، أهون وأصغر من أن يدبر الله لهم هذا التدبير ، ولكنه سبحانه يحذرهم نفسه ، ليدركوا أنفسهم قبل فوات الأمان ، وليعلموا أن الأمان الظاهر الذي يدعه لهم ، هو الفخ الذي يقعون فيه وهم فارون ، وإن إمهالهم على الظلم ، والبغي ، والإعراض ، والضلال ، هو استدراج لهم إلى أسوأ مصير ، وإنه تدبير من الله ليحملوا أوزارهم كاملة ، ويأتوا إلى الموقف مثقلين بالذنوب ، مستحقين للخزي والرهق والتعذيب :

﴿ فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[التوبة:٥٥ ] .

إن حجج الإسلام وأحكامه بينةٌ ، عادلة ، دافعة ، تدفع جميع حجج طوائف الكفر ، ولذلك فهم لا يملكون إلا الإيذاء والقتل ، لأن الإنسان حين يفقد حجته يلجأ إلى العنف ، وإلى قوته ، وطالما هو يملك الحجة ، فيستطيع أن يجادل ويخاصم ، ولا يلجأ إلى العنف أبدًا مادام قوياً بحجته وبرهانه ، ولا يلجأ إلى العنف إلا ضعيف الحجة ، ولذلك قال أصحاب القرية لرسلهم : ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ ﴾[يس:١٨] .

إن مواكب الكفر ورجاله ، لا يملكون أي حجة ، أمام دين الله العظيم ، وأمام حملة رسالته ، ولكنهم خشية على شهواتهم ، وحرصًا على أموالهم ، وخوفًا على الجاه والسلطان الذي اغتصبوه ظلمًا وعدوانًا ، وحتى لا يتساووا مع الناس في الحقوق والواجبات ، هم يلجئون دائمًا إلى الإيذاء والعنف والقتل في مواجهة مواكب الإيمان ، ويحاربونهم بكل وسيلة مشروعة وغير مشروعة ، مادام أنهم قد فقدوا المنطق والبرهان ، وضاعت حجتهم ، ولكن الله لهم بالمرصاد : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾[إبراهيم:١٣-١٤] .

وهؤلاء الكفار ليس لهم قيمة ، ولا قوة ، ولا قدرة ، وهم أقل من أن ينزل الله عليهم قوة من السماء ، لتقضي عليهم ، فهم لا يساوون شيئًا ، وهو سبحانه إن تركهم في غيِهم في الدنيا ، فليس معنى ذلك أنه غير قادر

عليهم ، وليس مرجعه أنهم معجزون في الأرض ، أو يساوون شيئًا أمام قدرة الله ، بل مرجعه إلى أن الله خلق الإنسان ، وأعطاه حرية الاختيار في أن يؤمن أو لا يؤمن .

ومشيئة الله سبحانه أن يترك الكافر يجادل ويكابر ، وينذره ويرسل إليه الرسل ، ومواكب الإيمان ، لا لأنه لا يقدر عليه ، ولكن لأن الله جعله مختارًا ، وله يومٌ يأتي فيه أجله أو ينتهي عمره ، فهو لا يساوي عند الله شيئًا ، والله قادر أن يسلبه الحياة في أي لحظة ، كما قال سبحانه عن صاحب ياسين : ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ الرعد: ٢٨-٣٠ ] .

فالله ﷻ خلق العباد ، وقَدَّرَ الآجال والأرزاق ، وابتلاهم بالأعمال ، فمنهم المؤمن والكافر ، والمطيع والعاصي : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾[التغابن:٢] .

ولولا هذه الآجال ، وهذا الابتلاء ، لعاجلهم الله بالعقوبة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ ﴾[الشورى:١٤] .

ألا ما أشنع الكفر وأقبحه ، ولذلك تَوَعَّدَ الله أهله بأشد العقوبات ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [البقرة:١٦١-١٦٢] .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ١٠ ﴾ [آل عمران:١٠] .

وقال سبحانه : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٢ ﴾ [آل عمران:١٢]

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٩١ ﴾ [آل عمران:٩١]

وقال سبحانه : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧ ﴾ [آل عمران:١٩٦-١٩٧] .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ٥٦ ﴾ [النساء:٥٦] .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ١٦٩ ﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩] .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٣٦ ﴾ [المائدة:٣٦] .

وإذا كانت هذه عقوبات الله للكفار ، وليس لأحدٍ بها طاقة ، فليعد الكافر إلى ربه ويتوب إليه : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٨ ﴾ : [الأنفال:٣٨] .

وجميع أعمال الكفار غير مقبولة عند الله، لأنها مبنية على الكفر والتكذيب، لكن ما كان لله منها يجازون به في الدنيا بنعمة الصحة ، والمال، والولد ونحو ذلك ، أما في الآخرة فلا نصيب لهم من أعمالهم ، لأنها فقدت الأساس وهو الإيمان مهما كانت أعمالهم صالحة : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٨ ﴾[إبراهيم:١٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩ ﴾[ النور : ٣٩ ] .

وقال النبي ﷺ : « إِنَّ اللهَّ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا ، وَيُجْزَى بِهَا فِي الْآخِرَةِ ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا للهَّ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا » . أخرجه مسلم(١) .

وقد أبعد الله الكفار في الدنيا والآخرة من رحمته ، وكفى بذلك عقابًا : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ٦٥ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ٦٦ ﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٦] .

والله سبحانه لا يغفر لمن أشرك به أحدًا من خلقه ، ويغفر ما دون ذلك من الذنوب والمعاصي لمن يشاء ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨ ﴾ [النساء:٤٨] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٥٦/ ٢٨٠٨).

• **أنواع الكفر** :

الكفر ضد الإيمان ، وجميع الكفار أعداء للمؤمنين.

**والكفر على أربعة أقسام** :

كفر إنكار .. وكفر جحود .. وكفر عناد .. كفر نفاق .

وكل من لقي ربه بذلك ، أو بشيء من ذلك ، فهو كافر ، لا يغفر الله له ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾[ النساء :١١٦ ] .

**فأما كفر الإنكار** : فهو أن يكفر الإنسان بقلبه ولسانه ، ولا يعرف ما يُذكر له من التوحيد ، كما قال سبحانه : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٧﴾ ﴾[ البقرة :٦- ٧ ] .

**وأما كفر الجحود** : فأن يعرف بقلبه ، ولا يُقر بلسانه ، هذا كافر جاحد ، ككفر إبليس ، كما قال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾[البقرة:٨٩] .

وقال ﷻ : ﴿ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[الأنعام:٣٣] .

**وأما كفر العناد** : فهو أن يعرف بقلبه ، ويُقر بلسانه ، ويأبى أن يقبل ، ككفر أبي طالب .

**وأما كفر النفاق** : بأن يكفر بقلبه ، ويُقر بلسانه ، وهؤلاء أخطر الكفار على الإسلام وأهله ، وأشدهم عقوبةً يوم القيامة ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾[النساء:١٤٥] .

والكفار لغلظ كفرهم ، وكفرهم بالله وآياته وشرعه ، لهم عذابٌ في الحياة الدنيا ، الشقاء والنكد والضنك ، ويوم القيامة يحشرون على وجوههم إلى جهنم عميًا لا يبصرون ، وبكمًا لا يتكلمون ، وصمًا لا يسمعون ، كما قال سبحانه عنهم : ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ﴾[الإسراء:٩٧-٩٨] .

وقال سبحانه عن الكفار : ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ﴾[الرعد:٣٤] .

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَجُلًا ، قَالَ : يَا رَسُولَ اللهَّ ، كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قَالَ : « أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى رِجْلَيْهِ فِي الدُّنْيَا ، قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ». متفق عليه[1].

ألا ما أعظم الكفر ، والشرك ، والنفاق ، إن الشرك لما كان أظلم الظلم ، وأقبح القبائح ، وأنكر المنكرات ، كان أبغض الأشياء إلى الله وأكرهها له ، وأشدها مقتًا لديه ، رَتَّبَ الله عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ، ما لم يرتبها على ذنب سواه ، وأخبر أنه لا يغفره ، وأن أهله نَجس ، ومنعهم من قربان حرمه ، وجعلهم أعداءه وأعداء ملائكته ، ورسله ، والمؤمنين ، وأباح لأهل الإسلام أموالهم ، ونسائهم ، وأولادهم .

لأن الشرك هضمٌ لحق الربوبية ، وتنقصٌ لعظمة الإلهية ، وسوء ظن برب العالمين ، لهذا فعقوبة أهله : ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٤٧٦٠)، ومسلم برقم: (٥٤/ ٢٨٠٦)، واللفظ له.

وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ [ الفتح : ٦ ] .

نسأل الله السلامة والعافية : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان:١٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [التوبة:٢٨] .

ونسأله سبحانه الثبات على الحق : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ [آل عمران:٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [آل عمران:١٤٧] .

وقال الله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [آل عمران:٥٣] .

# ٩- الخزانة التاسعة

## العدو السادس : اليهود والنصارى

- **فقه عداوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى :**

أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، بلغ بهم الحسد أنهم وَدُّوا لو يردون المؤمنين عن الإيمان ، وقد سعوا في ذلك واعملوا المكائد ، فأمر الله المؤمنين بمقابلة من أساء إلينا منهم غاية الإساءة بالعفو عنهم ، والصفح ، حتى يأتي الله بأمره كما قال سبحانه : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [ البقرة : ١٠٩ ] .

ثم بعد ذلك آتى الله بأمره المؤمنين بجهادهم ، فشفى الله أنفس المؤمنين منهم ، فقتلوا من قتلوا واسْتَرَقُّوا من اسْتَرَقُّوا ، واَجْلَوا من اَجْلَوا كما قال سبحانه : ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [التوبة:٢٩] .

والمشركون واليهود والنصارى ، كلهم أعداء للإسلام والمسلمين ، لكن المشركين واليهود أعظم الناس معاداة للإسلام والمسلمين ، وأكثرهم سعيًا لإيصال الضرر إليهم ، وذلك لشدة بغضهم لهم بغيًا ، وحسدًا ، وعنادًا ، وكفرًا : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟

وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ [ المائدة :٨٢ ] .

والنصارى أقرب الخلق للمسلمين ، وإلى ولايتهم ومحبتهم ، من اليهود والمشركين ، وذلك لأن فيهم علماء زاهدين ، وعُبَّادًا في الصوامع ، والعلم مع الزهد والعبادة يُلَطِّف القلب ويرققه ، ويزيل عنه ما فيه من الجفاء والغلظة ، فلذلك لا توجد فيهم غلظة اليهود ، ولا شدة المشركين ، وليس فيهم تَكَبُّر ولا عتوٍ عن الانقياد للحق ، وذلك موجب لقربهم من المسلمين ومحبتهم ، والمتواضع أقرب إلى الخير من المستكبر ، وهم إذا سمعوا ما أنزل الله إلى الرسول من القرآن أَثَّر ذلك في قلوبهم ، وخشعوا له ، بسبب ما سمعوا من الحق الذي تيقنوه كما قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ [المائدة:٨٣] .

وقد نهى الله ﷻ عباده المؤمنين عن تولي الكفار واليهود والنصارى ، لأن هؤلاء أعداء المسلمين ، يتناصرون فيما بينهم ، ويتعاونون على ضرب الإسلام والمسلمين في كل زمان ومكان ، فكيف يتولاهم المسلم ؟ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ [المائدة:٥١] .

وقد بيَّن الله ﷻ أحوال اليهود والنصارى ، وأظهر صفاتهم ، وكشف شرورهم ، ومكايدهم ، ليحذرهم المسلم ، ولا يركن إليهم ، فهم أعداء الله حقًا .

- **صفات اليهود والنصارى :**

بيَّن الله سبحانه بياناً شافيًا ما عليه اليهود والنصارى ، من الكفر ، والظلم ، والكيد ، والمكر ، والغش ، واللَّبس ، والصَّدِّ عن سبيل الله ، والإفساد في

الأرض ، وغير ذلك من الصفات التي أوجبت لعنة الله لهم ، وغضبه عليهم ، وتمزيقهم كل ممزق ، وضرب الذلة والمسكنة عليهم ، وذلك بعد نبذهم كتاب الله وراء ظهورهم ، وإتباعهم أهوائهم ، وما تتلوه الشياطين عليهم ، ومن ذلك الكذب والافتراء ، كما قال سبحانه : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[البقرة:٧٩] .

وقال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾[آل عمران:٧٨] .

ومنها كتمان ما أنزل الله من الحق ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾[آل عمران:١٨٧] .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ ﴾[البقرة:١٧٤] .

ومنها تحريف كتب الله كما قال سبحانه : ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾[النساء:٤٦] .

ومنها نقض العهد والميثاق كما قال سبحانه : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ

وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾[المائدة:١٣-١٤] .

وقال سبحانه : ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[البقرة:١٠٠] .

ومنها الغرور والكذب كما قال سبحانه : ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[البقرة:١٠٠] .

وقال سبحانه : ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾[البقرة:١١١].

وقال سبحانه : ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾[المائدة:١٨ ] .

ومنها وصف الله بما لا يليق بجلاله كما قال سبحانه عن اليهود : ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ﴾[المائدة:٦٤].

وقال سبحانه : ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾[التوبة:٣٠] .

وقال سبحانه : ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ

﴿ ١٨١ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ١٨٢ ﴾ [آل عمران:١٨١-١٨٢] .

ومنها الكفر بالله ﷻ كما قال سبحانه : ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ٨٨ ﴾ [البقرة:٨٨] .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ١٥١ ﴾ [النساء:١٥٠-١٥١] .

وقال سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ٧٢ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٣ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٧٤ ﴾ [المائدة:٧٢-٧٤] .

ومنها الكفر بما أنزل الله من كتب كما قال سبحانه : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٨٩ ﴾ [البقرة:٨٩] .

وقال سبحانه : ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ٩٠ ﴾ [البقرة:٩٠] .

ومنها تكذيب الرسل ، وقتلهم كما قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾[المائدة:٧٠]

وقال سبحانه : ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾[البقرة:٨٧] .

وقال سبحانه : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾: [البقرة:٦١] .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ ﴾[البقرة:١٠١-١٠٢ ] .

والكفار، والمشركون، واليهود، والنصارى، كلهم أعداء للإسلام والمسلمين، لكن اليهود والمشركين أعظم الناس معاداةً للإسلام والمسلمين، وأكثرهم سعيًا لإيصال الضرر إليهم، وذلك لشدة بغضهم لهم ، بغيًا ، وحسدًا ، وعنادًا ، وكفرًا كما قال سبحانه : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[المائدة:٨٢ ] .

فالنصارى أقرب الخلق إلى المسلمين ، وإلى ولايتهم ومحبتهم ، من اليهود : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ

كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾[البقرة:١٠٩].

وقد نهانا الله ﷻ عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾[المائدة:٥١] .

وقال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾[آل عمران:١٠٠-١٠١] .

**والناس في سماع الحق أربعة أقسام :**

**القسم الأول** : وهو أعلاها ؛ من سمع الحق ، وقَبِلَه ، وانقاد له ، وهم المؤمنون كما قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾[المائدة:٨٣-٨٤] .

**الثاني** : من امتنع عن سماع الحق ، وأعرض عنه ، وهم الكفار كما قال سبحانه : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[فصلت: ٢٦] .

**الثالث** : من سمع الحق ، ولم يفقه المعنى كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[الأنفال:٢٢-٢٣] .

فهؤلاء ، والقسم الثاني ، لم يعلم الله في قلوبهم خيرًا ، فيسمعهم سماع فقهٍ وقبول ، فهؤلاء وأمثالهم في النار : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [ الأعراف : ١٧٩ ] .

**الرابع** : من سمع الحق وفقهه ، لكنه لم يقبله ، كاليهود الذين قال الله فيهم : ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ [النساء:٤٦] .

فهؤلاء كالقسم الثاني ، والقسم الثالث ، عرفوا الحق ولم يقبلوه ، فكانوا مغضوبًا عليهم ، ملعونين ، وهذا جزاء من عرف الحق ولم يتبعه .

ومن صفات أهل الكتاب ، الإيمان ببعض الكتب ، والكفر ببعض كما قال سبحانه عن أهل الكتاب : ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة:٨٥] .

ومن صفات أهل الكتاب ، عدم الانقياد للهدى كما قال سبحانه : ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [البقرة:١٤٥].

ومنها الصَّدِّ عن سبيل الله كما قال سبحانه : ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران:٧٢] .

ومن صفات أهل الكتاب كما قال سبحانه : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾ [ النساء : ١٦٠ – ١٦١ ] .

وقال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ [التوبة: ٣٤] .

ومن صفاتهم عبادة غير الله كما قال سبحانه : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [ التوبة : ٣١ ] .

وقال سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾ [المائدة:١١٦ ] .

ومنها إيذاء المؤمنين ، كما قال سبحانه : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [آل عمران:١٨٦] .

ومنها الإيمان بالباطل ، والدعوة إليه ، كما قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾[النساء:٥١] .

وقال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النساء:٤٤] .

وقال سبحانه : ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾[البقرة:١٣٥ ] .

ومن صفات أهل الكتاب التضليل والحسد كما قال سبحانه : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾[البقرة:١١٣ ] .

وقال سبحانه : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾[النساء:٥٤ -٥٥] .

وقال سبحانه : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾[البقرة:١٠٩].

فهذه هي بعض صفات أهل الكتاب ، وهذه أخلاقهم ، وإلى هذا الحد وصلت أحوالهم ، وتردَّت أوضاعهم ، فبيَّن الله تبارك وتعالى أنهم بهذه الحال ليسوا على شيء ، حتى يعودوا إلى دينهم ، ويؤمنون بربهم ، ويعملوا بأحكام دينهم ، والدين الذي جاء به محمد ﷺ : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ

كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [المائدة:٦٨] .

- **فقه عداوة أهل الكتاب :**

الله ﷻ رؤوف بالعباد ، يذكر أهل الكتاب بأعمالهم السيئة ، ويلوح لهم بالتوبة والاستغفار ، ويستعطف قلوبهم بالإيمان بالله وحده ، والإيمان برسله ، والإيمان بكتبه، ويناديهم باسم الكتاب الذي فيه الهدى والنور تارة، ويناديهم باسم النبي يعقوب الذي ينتسبون إليه تارة .

لعل القلوب القاسية تلين ، والأرض المقفرة أن تنبت ، والعداوة التي تأصلت فيهم أن تزول كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأعراف:٤٠-٤٢] .

ويذكرهم سبحانه بنعمه العظيمه فيقول : ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [البقرة:٤٧-٤٨] .

ويأمرهم باستعمال عقولهم فيما ينفعهم فيقول لهم : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [ البقرة : ٤٤ ] .

وقال سبحانه : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ

﴿ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [آل عمران:٦٤-٦٥ ] .

وقال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [آل عمران: ٧١ ] .

وقال سبحانه : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [آل عمران:٩٨-٩٩ ] .

وقال سبحانه مخبرًا عن الرسول الذي أرسله الله رحمةً للعالمين : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [ المائدة :١٥- ١٦ ] .

وقال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [المائدة:١٩] .

ويستميل قلوبهم إلى الهدى فيقول : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ ﴾ [المائدة:٦٥] .

ويرغبهم في التوبة فيقول : ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [المائدة:٧٤] .

ويدعوهم الله إلى التوحيد ، واجتناب الشرك فيقول لهم : ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾[المائدة:٧٦] .

وقال سبحانه : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾[المائدة:٧٧] .

- **أقسام أهل الكتاب :**

**أهل الكتاب قسمان :**

**مؤمنون وكفار .**

فالمؤمنون كما قال الله عنهم : ﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾[آل عمران:١١٣-١١٤] .

والكفار كما قال الله عنهم : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[المائدة:٧٨-٧٩] .

وأهل الكتاب كلهم إذا لم يؤمنوا برسالة محمد ﷺ بعد بعثته ، ويعملوا بأحكام الإسلام ، فهم كفار مستحقون للعقوبة في الدنيا والآخرة ، وأعمالهم غير مقبولة كما قال سبحانه : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[آل عمران:٨٥] .

وقال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [النساء:٤٧] .

إن أعداء هذا الدين من اليهود والنصارى وغيرهم ، يعلمون أن تجمع المسلمين على أساس العقيدة سر من أسرار قوة هذا الدين .

ولما كانوا بصدد هدم ذلك المجتمع المسلم ، أو إضعافه إلى الحد الذي يسهل عليهم السيطرة عليه ، وشفاءً لما في صدورهم من هذا الدين وأهله ، واستغلال ديارهم وأموالهم ، لم يفتهم أن يوهنوا من القاعدة التي يقوم عليها ، وأن يقيموا لأهله المجتمعين على إله واحد ، أصنامًا تُعبد من دون الله ، تارة اسمها الوطن ، وتارة اسمها القوم ، وتارة اسمها الجنس ، وتارة اسمها المال ، وغير ذلك من الأصنام التي تتصارع فيما بينها داخل المجتمع الإسلامي الواحد ، القائم على أساس العقيدة ، المنظم بأحكام الشريعة ، إلى أن وهنت القاعدة الأساسية تحت المطارق المتوالية .

وأخبث المعسكرات التي عملت ، وما زالت تعمل ، في تخريب القواعد الأساسية التي يقوم عليها التجمع الإسلامي الفريد ، كان هو المعسكر اليهودي الخبيث ، الذي جرب سلاح القومية في تحطيم التجمع النصراني ، وتحويله إلى قوميات سياسية ، ذات كنائس قومية فارغة من العبودية .

وبذلك حطموا الحصار النصراني حول الجنس اليهودي ، ثم ثنوا بتحطيم الحصار الإسلامي حول الجنس اليهودي : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [ الصف : ٨] .

وكذلك فعل الصليبيون الوثنيون مع المجتمع الإسلامي ، فقد أثاروا النعرات الجنسية ، والقومية ، والوطنية ، بين الأجناس الملتحمة في المجتمع الإسلامي ، وأصبح العالم الإسلامي مسرحًا للقتل ، والتشريد ، والفرقة ، والردة والاختلاف .

وما كان الإسلام ليخلص الناس من الأصنام الحجرية ، ثم يرضى لهم بعد ذلك بأصنام الجنسيات ، والقوميات ، والأوطان وأمثالها : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [ آل عمران: ٨٥] .

وأهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين انحرفوا عن شريعة الله ، يحاربون الإسلام ، ويعادون المسلمين ، في كل زمان ومكان .

وهم من أجل ذلك يوجهون إليه جهودًا لا تكل ، وحملات لا تنقطع ، ويستخدمون في تحريفه عن وجهته كل الوسائل ، وكل الأجهزة ، وكل التجارب ، وهم يسحقون سحقاً وحشياً كل من يدعو إليه ، ليكون منهج حياة كما كان في عهد النبي ﷺ ، وذلك عن طريق الأوضاع التي يقيمونها ويكفلونها في جميع بقاع الأرض .

وهم يسلطون المحترفين من علماء هذا الدين عليه ، يحرفون الكلم عن مواضعه ويحلون ما حرم الله ، ويميعون ما شرعه ، ويخدعون كثيراً من أهل العلم ليستنبطوا لهم الأدلة التي تبارك وتزكي ما هم عليه من انحراف وفساد، ويشترون كثيراً من الأنفس الرخيصة التي احترفت العلم ، ويهيئون لها الفرصة ويخدعونها بالأموال والمناصب ، لتقول ما تشاء ، وتفعل ما تشاء ، وتنفذ كل ما يريدون ، باسم سماحة الدين ، ولو كان يغضب رب العالمين ، ويهدم الدين ، ويضطهد من أجله خيار المؤمنين : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا

﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة:٧٩] .

وهم كذلك يصورون الإسلام الذي يحكم الحياة في عصر الجمل ، أنه قد مضى ، ولا تمكن إعادته ، ويشيدون بعظمة هذا الماضي ورجاله ، ليخدروا مشاعر المسلمين ثم يقولون لهم :

إن الإسلام اليوم يجب أن يعيش في نفوس أهله عقيدة وعبادة ، لا شريعة ونظاماً ، وحسبهم فقط أن يفخروا بمجدهم السابق .

وقالوا : الدين لله ، والوطن للجميع ، فمكان الدين في المساجد ، ومسرح الحياة يموج بالحريات والفواحش والمنكرات الإبليسية : ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة:٨٥] .

- **فقه عداوة أهل الكتاب :**

أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، يحاولون في كل مكانٍ ، وفي كل زمان ، تغيير طبيعة المجتمعات ، وتغيير طبيعة هذا الدين ، حتى لا يجد هذا الدين قلوباً تصلح للهداية به .

فحولوا كثيراً من المجتمعات البشرية إلى قطيع غارق في وحل الزنا والفاحشة والفجور ، يتقلب في الشهوات ، ويرتع في سوق الرذيلة ، مشغول بلقمة العيش ، حتى لا يجدها إلا بالكد والتعب والجهد ، حتى لا يفيق بعد اللقمة والفاحشة ، ليستمع إلى هدى ، أو يفيء إلى دين : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ﴾ [البقرة : ١٠٩] .

وجندوا لها القوى ، لتحصد كل نبتة تقف في طريقها ، باسم حرية الإنسان ، وحقوق الإنسان .

فيا له من تخطيط ماكر خبيث ، وما أجدر أهله بلعنة الله وغضبه : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [المائدة:٥٩] .

وما يفعله أهل الكتاب بالمسلمين كله شر ، فماذا ينتظرهم من الشر والعقوبة : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾ [المائدة:٦٠] .

وماذا جنى اليهود والنصارى من نقضهم الميثاق ، وتخليهم عن دينهم ، وصدهم عن سبيل الله ، وكفرهم بما جاء به محمد ﷺ : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [المائدة:٦٤].

وقال سبحانه : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [المائدة:٧٨] .

هكذا تحولت حياة اليهود والنصارى، بعد ما نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، كفرٌ وظلم ، وعداوةٌ وبغض ، وكذب وحسد ، وأكل لأموال الناس بالباطل ، وصد عن سبيل الله ، وقتل للأنبياء والأولياء ، وسفك للدماء ، وجمع للأموال بكل وسيلة محرمة ، وتمرغ في الشهوات ، وإفسادٌ في الأرض ، وإشعالٌ للحروب ، واستذلالٌ للأمم ، وغير ذلك مما زينه الشيطان لهم : ﴿

وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾[البقرة:٢١٧] .

ولكن طبيعة هذا الدين ما تزال صامدة لهذه المعركة الضارية ، والأمة المسلمة القائمة بهذا الحق على قلة العدد ، وضعف العدة ، ما تزال بفضل الله صامدة لعمليات القمع والوحشية التي يصبها أعداء الإسلام في صحن الإسلام ليل نهار : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾[ الحج :٤٠-٤١] .

والله غالب على أمره ، محيط بخلقه : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ ﴾[الأعراف:١٨٢] .

فهؤلاء المكذبون الظالمون ، يستدرجهم الله من حيث لا يعلمون ، وهم لا يؤمنون بأن كيد الله متين ، إنهم يتولى بعضهم بعضاً ، ويرون قوة أوليائهم ظاهرة في الأرض ، وينسون قوة الله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ ﴾[ هود : ٦٦ ].

إنها سنة الله مع المكذبين ، ومع الظالمين ، ومع المجرمين ، ومع المفسدين. يرخى لهم العنان ، ويملي لهم في العصيان ، ويذرهم في الطغيان ، ويتركهم في الفساد ، استدراجاً لهم في طريق الهلكة ، وإمعاناً في الكيد لهم ، ولكنهم غافلون ، والعاقبة للمتقين الذين يهدون بالحق وبه يعدلو : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾[الأنعام:٤٤-٤٥] .

والله تبارك وتعالى أنزل كتابه بالحق والهدى ، لتهتدى به البشرية إلى يوم القيامة ، إلى ما يسندها في الدنيا والآخرة : كما قال سبحانه :﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾[ إبراهيم : ٥٢ ] .

وأهل الكتاب من اليهود والنصارى إن لم يؤمنوا فعليهم أن يدفعوا الجزية مقابل حمايتهم ، ولا يكرهون على اعتناق الإسلام ، فإن أبوا دفع الجزية وجب قتالهم، كما قال سبحانه :﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾[ التوبة : ٢٩ ] .

فهم الذين لا يؤمنون بالله ، ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق ، واليهود منهم قالوا عزير ابن الله ، والنصارى قالوا المسيح ابن الله ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، كما اتخذ النصارى المسيح رباً من دون الله :﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[التوبة:٣١] .

وكثير من أحبارهم ورهبانهم يأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله ، ولم يؤمن منهم بما جاء به محمد ﷺ إلا القليل خاصة النصارى كما قال سبحانه :﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ ﴾[ آل عمران : ١٩٩] .

ولكن موقف هؤلاء الأفراد لا يمثل الغالبية من أهل الكتاب ، خاصة اليهود الذين شنوا على الإسلام حربًا خبيثة ، استخدموا فيها ألوان المكر والخديعة والوحشية ، كما أنهم في الوقت ذاته أعرضوا عن الدخول في الإسلام : كما قال سبحانه :﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا

وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾[البقرة:٩١] .

**فقه عداوة أهل الكتاب :**

بين الله في القرآن حقيقة ما عليه أهل الكتاب ، كما حكى عنهم أشنع الوسائل ، وأبشع الطرق ، في حرب هذا الدين وأهله ، وكشف للمسلمين أحوالهم ، ليحذروهم ويتقوهم ، فقال سبحانه : ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾[البقرة:٧٥-٧٦] .

وقال سبحانه : ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾[البقرة:٨٩] .

فهذه أحوال اليهود والنصارى كشفها الله للمسلمين من أول يوم ، وبيَّن ما هم عليه من فساد العقيدة ، ومن الشرك بالله ، ومن الكفر بآيات الله ورسله ، وهذا لم يتغير ، وهم باقون عليه إلى الآن .

أما الذي وقع فيه التعديل ، فهو أحكام التعامل مع أهل الكتاب ، مرحلةً بعد مرحلة ، حسب المصلحة .

فقد جاء زمان يقال فيه للمسلمين : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾[البقرة:١٠٩].

ويقال لهم :﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[آل عمران: ٦٤] .

ويقال لنا : ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [العنكبوت:٤٦] .

ثم أتى الله بأمره الذي نصر المؤمنين بالله ، فوقعت أحداث عظام ، وتعدلت أحكام ، وجاءت مرحلة نزول الأحكام النهائية الأخيرة كما قال سبحانه : ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾[التوبة:٢٩] .

وموقف أهل الكتاب من المسلمين موقف العداوة والبغضاء ، فأهل الكتاب والمشركون كلهم اجتمعوا على حرب الإسلام والمسلمين من أول يوم .

وقد ذكر الله سبحانه مواقف أهل الكتاب العدائية صريحة ؛ لئلا يغتر بهم المسلمون ، أو يطمئنوا إليهم ، فقال سبحانه : ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ﴾[البقرة:١٠٥] .

وقال سبحانه : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾[البقرة:١٠٩].

وقال سبحانه : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى

ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [البقرة:١٢٠] .

وقال سبحانه : ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ۚ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [آل عمران:٦٩] .

وقال سبحانه : ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [آل عمران:٧٢] .

وقال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [آل عمران:١٠٠] .

وقال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النساء:٤٤] .

هذه هي الأهداف النهائية لأهل الكتاب تجاه الإسلام والمسلمين ، في كل مكان وزمان ، فهل يحذر المسلمون من بطشهم وكيدهم ، وتضليلهم وخداعهم ؟

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [المائدة:٥٧] .

وقال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [المائدة:٥١] .

وقد حارب اليهود الإسلام من أول يوم بالكيد والمكر والأذى ، وما زالت تلك الحرب المسعورة التي شنها اليهود على الإسلام وأهله قائمةٌ ومشتعلةٌ حتى الآن .

لقد استقبل اليهود رسول الله ﷺ ودينه في المدينة ، شر ما يستقبل أهل دين سماوي رسولًا يعرفون صدقه، ويعرفون دينًا يعلمون أنه الحق .

استقبلوه بالدسائس ، والأكاذيب، والشبهات ، والفتن ، يلقونها في الصف المسلم في المدينة بكافة الطرق الملتوية الماكرة التي يتقنها اليهود . وشككوا في الرسول ﷺ وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم كما قال سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦ ﴾[البقرة:١٤٦].

واحتضنوا المنافقين ، وأمدوهم بالشبهات التي ينشرونها في جو المسلمين ، وزودوهم بالتهم الباطلة ، والأكاذيب المفتراة : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨ ﴾[ الصف : ٨ ] .

وما فعلوه في حادث تحويل القبلة ، وما فعلوه في حادث الإفك ، وما فعلوه من الغدر برسول الله ، وما فعلوه من الغدر في كل مناسبة ، ليس إلا صورة من هذا الكيد اللئيم .

فماذا قالوا في تحويل القبلة ؟ : ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢ ﴾[البقرة:١٤٢].

وماذا قالوا في رسول الله ﷺ : ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١ ﴾[البقرة:١٠١] .

وما موقفهم من كتاب الله ؟ : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١ ﴾[آل عمران:٧٠-٧١ ] .

وماذا فعلوا في صفوف المسلمين لتشكيكهم في دينهم ؟ : ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [آل عمران:٧٢] .

وماذا فعلوا من الكذب لتحريف كتاب الله ، وصد المسلمين عنه ؟ : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [آل عمران:٧٨ ] .

وقد طلبوا من النبي ﷺ أن ينزل عليهم كتابًا من السماء كما قال سبحانه : ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ ﴾ [النساء:١٥٣] .

وقد تحرشوا بالمسلمين في المدينة ، ونقضوا عهودهم مرة بعد مرة ، مما أدى إلى وقائع بني قينقاع ، وبني النضير ، وبني قريظة ، وخيبر ، وألَّبوا المشركين على المسلمين في الأحزاب ، وكانوا أساس الفتنة الكبرى التي قتل فيها الخليفة الراشد عثمان ﷺ ، وتفرق بعدها شمل المسلمين إلى حد كبير ، وكانوا أساس الفتنة فيما وقع بين علي ومعاوية رضي الله عنهما . وقادوا حملة الوضع والدس في كتب التفسير والحديث والسيرة . وكانوا من الممهدين لحملة الطغاة التتار على بغداد ، وتقويض الخلافة الإسلامية .

وقادوا حملة القضاء على الخلافة الإسلامية في تركيا بتدبير ماكر خبيث .
وهم وراء كل كارثة تحل بالمسلمين في كل مكانٍ على وجه الأرض .
وهم وراء كل حملة لسحق قادة الفكر الإسلامي ، وطلائع البعث والنمو الإسلامي : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾[ التوبة:٣٢-٣٣ ] .
وهم حماة الأوضاع والأوطان التي تتولى إبادة المسلمين في كل مكان والذى نراه فى عصرنا هذا شاهدًا جليًا بينًا لا يخفى على أحد ، ذلك شأن اليهود الذي غضب الله عليهم ولعنهم : ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾[المائدة:٤١] .
فهل يستحقون بعد هذا الظلم والطغيان ، أن يكونوا قدوة للبشرية ، وأئمةً لبنى آدم ؟ .
هذا جزءٌ من صفات اليهود وجزءٌ من حربهم على الإسلام والمسلمين : ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ۖ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾[آل عمران:٧٠-٧١ ] .

# ١٠- الخزانة العاشرة

- **فقه عداوة أهل الكتاب :**

تقدم شأن اليهود في عداوة المسلمين ، وأما شأن الفريق الآخر من أهل الكتاب ، وهم النصارى ، فلا يقل إصرارًا على العداوة والحرب عن شأن اليهود ، فحين أحست الكنيسة بخطورة الإسلام على ما صنعت هي بأيديها وسَمَّته المسيحية ، وهو مُركّب من الوثنيات والأضاليل الممزوجة ببقايا مخرفة من كلمات المسيح ، إلا وقامت في مواجهة هذا الدين الجديد .

فتجمعوا لحرب الإسلام في مؤتة ، ثم تجمعوا لضرب الإسلام مرة أخرى فكانت من أجل ذلك غزوة تبوك ، ثم كان جيش أسامة بن زيد ﷺ إلى أطراف الشام ، لمواجهة تجمعاتهم التي تستهدف القضاء على الإسلام .

ثم اشتعل مِرْجل الحقد الصليبي ، منذ انتصار المسلمين في موقعة اليرموك الظافرة ، والتي أعقبها انتشار الإسلام في الشام والعراق ، ومصر وأفريقيا ، ثم دخول الإسلام في الأندلس .

ثم تجلت عداوتهم ووحشيتهم في الأندلس ، عندما زحفت الصليبية الحاقدة على المسلمين في أسبانيا ، وارتكبت من الوحشية في تعذيب المسلمين بما لم يُعرف من قبل، ولا يتصوره ذو عقل، ثم كشرت عن أنيابها، وبلغت ضراوتها ووحشيتها ، حينما هجم الصليبيون على الشرق الإسلامي ، وأبادوا المسلمين في بيت المقدس في وحشية لا تعرف الرحمة .

ولا تزال هذه الحرب الصليبية المسعورة ، تستخدم كافة الأسلحة ، وكافة الطاقات ، لضرب الإسلام والمسلمين في كل مكان ، تسفك الدماء ، وتقتل

الأبرياء ، وتطارد الأتقياء : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾ [البقرة:٢١٧] .

فالكفار والمشركون ، واليهود والنصارى . كل هؤلاء مجمعون على حرب الإسلام والمسلمين : ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ ﴾ [ البروج : ٨-٩ ] .

وما يشعل هؤلاء حربًا على الإسلام والمسلمين ، إلا ويعقبها حرب أخرى من أولئك ، وما وقعت معركة مع المشركين ، إلا وأعقبها معركة مع اليهود في عهد النبي ﷺ .

فغزوة بدر كانت في السنة الثانية من الهجرة مع المشركين ، ثم أعقبها مباشرة غزوة بني قينقاع من اليهود ، ثم كانت غزوة أحد مع المشركين في السنة الثالثة من الهجرة ، ثم أعقبها غزوة بني النضير من اليهود ، ثم كانت غزوة الأحزاب في السنة الخامسة ، ثم أعقبها مباشرة غزوة بني قريظة من اليهود وهكذا يتبادلون الأدوار في حرب الإسلام وأهله .

فأهل الكتاب لم يعودوا على دين الله بشهادة واقعهم ، وشهادة اعتقادهم ، فقد أمروا أن يعبدوا إلهًا واحدًا ، فاتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله ، كما اتخذ النصارى المسيح ابن مريم ربًا وإلهًا ، وعبدوا الصليب . وهذا منهم شرك ، فهم إذن ليسوا مؤمنين بالله اعتقاداً ، كما أنهم لا يدينون دين الحق واقعًا وعملًا : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن

دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [ التوبة : ٣١ ] .

وكثيرٌ من المسلمين اليوم ، انتهوا إلى ما انتهى إليه الكفار وأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ولم يبق معهم من الدين إلا اسمه ، وهذا ما يريده أعداؤهم ، فقد هانوا على الله ، وهانوا على أعدائهم ، ونزلت بهم النكبات والكوارث ، والمصائب والفتن ، وصاروا محط الشفقة ، ومهبط الإغاثة ، وذلك كله بسبب إعراضهم عن موائد القرآن ، وقعودهم على موائد الشيطان : ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴿٧٠﴾ ﴾ [ النساء : ٦٦ – ٧٠ ] .

إن أهل الكتاب لا يقفون عند حد الانحراف عن دين الحق ، وعبادة أرباب من دون الله ، وعدم الإيمان بالله ، واليوم الآخر .

إنما هم كذلك يعلنون الحرب على الدين الحق ، ويسعون لإطفاء نور الله في الأرض ، المتمثل في هذا الدين عقيدة وعبادة وشريعة ، وفي الدعوة التي تنطلق به في الأرض .

فهم محاربون لنور الله ، سواء بما يطلقونه من أكاذيب ودسائس وفتن ، أو بما يحرضون به أتباعهم وأشياعهم على حرب هذا الدين وأهله ، والوقوف سداً في وجهه : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ

﴿ ٨ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٩ ﴾ [ الصف : ٨- ٩ ] .

ولكن وعد الله حقٌ في إتمام نوره ، بإظهار دينه ولو كره الكافرون ، وهو وعد تطمئن به قلوب الذين آمنوا ، فيدفعهم إلى العمل ، والمضي في الطريق ، والصبر على الكيد والحرب من الأعداء ، كما يتضمن الوعيد لهؤلاء الكافرين وأمثالهم على مدار الزمان .

فليطمئن المؤمنون لوعد الله بإظهار دينه ، وليعلم الكفار أن الله حافظ لدينه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣ ﴾[التوبة:٣٣] .

- **فقه أعداء الإسلام :**

دين الحق الذي أرسل الله به رسله ، هو الدينونة لله وحده في كل شيء ، في الاعتقاد ، والشعائر ، والشرائع ، فأيما شخص أو قوم ، لم يدينوا لله وحده فى الاعتقاد ، والشعائر ، والشرائع ، انطبق عليهم أنهم لا يدينون دين الحق : ﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣ ﴾[ الأنعام : ١٦١ – ١٦٣ ] .

فدين الله الذي قرر سبحانه أن يتمه ، هو دين الحق الذي أرسل به رسوله محمدًا ﷺ ، ليظهره على الدين كله، وهو متمثل في كل دين سماوي، جاء به رسول الله ، من عند الله ، من قبل : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾[ آل عمران : ١٩ ] .

ولقد تحقق الدين الحق على يد رسوله ﷺ فترةً طويلةً من الزمان ، وكان دين الحق أظهر وأغلب ، وأظهره الله على الدين كله ، وكانت الأديان التي لا تخلص فيها الدينونة لله ، تخاف منه وترجف .

ثم تخلى أصحاب دين الحق عنه خطوة خطوة ، بما أهملوه من أوامره ، وبفعل ما نهى الله عنه ، وبفعل الحرب الطويلة المدى ، المنوعة الأساليب ، التي يشنها عليه أعداؤه ، من الكفار وأهل الكتاب سواء ، ولكن هذه ليست نهاية المطاف ، ووعد الله قائم ينتظر العصبة المسلمة التي تحمل راية الإسلام ، وتمضي مبتدئة بما بدأ منه رسول الله ﷺ وأصحابه كما قال ﷺ : « بَدَأَ الإِسْلامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ ».أخرجه مسلم[1].

وقال النبي ﷺ : « لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ الله ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ ، حَتَّى يَأْتِيَهمْ أَمْرُ الله وَهُمْ عَلَى ذلِك » . متفقٌ عليه[2] .

والقرآن في جداله مع أهل الكتاب ، يبين أن ما بأيديهم من الكتب لم يكن هو الكتاب الذى أنزله الله على أنبيائهم .

فمرة قال عنهم : ﴿ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾[المائدة:١٤] .

والذين لم ينسوه كتموه كما قال سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [البقرة:١٤٦].

والذي لم يكتموه حرفوه كما قال سبحانه : ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾[المائدة:١٣] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٢٣٢/ ١٤٥).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٧٣١٢)، مسلم برقم: (١٧٤/ ١٠٣٧)، واللفظ له.

ثم جاءوا بأشياء من عندهم افتراءً وكذبًا كما قال الله عنهم : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [البقرة:٧٩] .

وقد حذرنا الله ورسوله من طاعة أهل الكتاب ، وبين أنهم يريدون رد المؤمنين إلى الكفر ، وأن من تولاهم فهو منهم كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [آل عمران:١٠٠-١٠١] .

ومن عصى الله ، وأطاع أهل الكتاب ، أضلوه ، فخسر الدنيا والآخرة .

قال النبي ﷺ : « لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْراً شِبْراً ، وَذِرَاعاً ذِرَاعاً ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ » . قُلْنَا : يَا رَسُولَ الله الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ؟ قَالَ : فمَنْ ؟ ». متفقٌ عليه[1] .

وأهل الكتاب من اليهود والنصارى بعدما كفروا بربهم ، وكذبوا رسله ، وقتلوا أنبياء الله ، وصدوا عن سبيل الله ، وحرفوا كتاب الله ، ونبذوه وراء ظهورهم ، وكتموا الحق ، ونقضوا العهد ، وأكلوا أموال الناس بالباطل ، ووصفوا الله بما لا يليق به ، هل يصلحون بعد هذا لقيادة البشرية ودعوتها إلى ربها ؟ .

وماذا بقي عندهم من الدين الحق الذي يدعون الناس إليه ؟ .

وهل يستحقون بعد هذا كله إلا اللعنة والعذاب الموجع ؟

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٧٣٢٠)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٦/ ٢٦٦٩).

وهذا ما فعل الله بهم جزاء كفرهم وبغيهم : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾[المائدة:٧٨-٨٠] .

وليس من حكمة الله أن يستعمل من كفر به وعصاه ، في حمل أمانة الدعوة إلى الله ، وأن يحملها لعباده أمة ظالمة ملعونة ، أو أمة تائهة ضالة .

فكانت رحمة الله للبشرية ، أن بعث إليها محمدًا ﷺ بالدين الحق إلى يوم القيامة : ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾ ﴾[ المائدة :١٥- ١٦ ] .

وكل من رغب عن ملة إبراهيم ، فهو سفيهٌ لا يصح للقيادة كما قال سبحانه : ﴿ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾[البقرة:١٣٠] .

وقد رغبت اليهود والنصارى عن ملة إبراهيم ، وابتدعوا اليهودية والنصرانية ، وتركوا دين إبراهيم ، وبدلوا دين الأنبياء ، كما قال الله عنهم : ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾[البقرة:١٣٥ ] .

واليهود والنصارى ليسوا على ملة إبراهيم التي هي عبادة الله وحده ، فهم إنما يعبدون الشيطان ، ويزعمون أنهم على ملة إبراهيم ، فكذبهم الله بقوله سبحانه : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[آل عمران:٦٧] .

فاليهود مغضوب عليهم ؛ لأنهم عرفوا الحق ، ولم يعملوا به ، بل عملوا بضده ، والنصارى ضالون عن الحق ، مشركون ، يعبدون الله ، ويشركون به غيره .

وأما اليهود فلا يعبدون الله ، بل هم معطلون لعبادة الله ، مستكبرون عنها ، كما قال الله عنهم : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾[ البقرة :٨٧- ٨٨ ] .

والنصارى مع شركهم بالله ، لهم عبادات كثيرة مبتدعة .

واليهود من أقل الأمم عبادة ، وأبعدهم عن عبادة الله وحده ؛ لأنهم متبعون أهواءهم ، عابدون للشيطان : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[ القصص : ٤٨ ] .

فلما اتبعوا أهوائهم تركوا عبادة ربهم : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [ القصص : ٥٠ ] .

وجميع أعمال اليهود والنصارى بعد بعثة الرسول ﷺ حابطة باطلة ، ولو عبدوا الله وحده لم تحبط أعمالهم ، وقبل بعثة النبي ﷺ إنما كان يعبد الله من عبده منهم بما أمره الله به ، فله أجره عند ربه ، وأما من ترك عبادة الله ، واتبع هواه من أهل الكتاب فهو كافر ، وأما موسى وعيسى وأتباعهما على الحق ، فهم على ملة إبراهيم ، وهو إمامهم كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [آل عمران:٦٨] .

واليهود مغضوبٌ عليهم ، والنصارى ضالون ، ولكن بعد بعثة النبي ﷺ ، وإعراضهم عنه ، أصبحوا جميعًا مغضوبًا عليهم ، لكفرهم وشركهم ، وكفرهم بمحمد ﷺ .

فاللهم : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ [ الفاتحة : ٦ - ٧ ] .

- **فقه جهاد الأعداء :**

**أعداء الإنسان ستة :**

**ثلاثة في الداخل وهم :**

١- النفس

٢- والشيطان .

٣- وحب الدنيا .

**وثلاثة في الخارج وهم :**

١- الكفار والمشركون .

٢- والمنافقون .

٣- وأهل الكتاب .

وإذا انتصر الإنسان على الأعداء في الداخل ، مكنه الله من الانتصار على الأعداء فى الخارج ، وإذا انهزم أمام أعدائه فى الداخل ، سهل لأعدائه في الخارج السيطرة عليه ، والتحكم بحياته كما قال سبحانه : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج:٤٠-٤١] .

وجهاد هؤلاء الأعداء يكون بتحقيق الإيمان في النفوس ، لتذوق طعمه ، وتتلذذ بحلاوته ، فتنشط لطاعة الله ، ويسهل عليها اقتحام المشاق ، وبذل المحبوب للنفس ، وحملها على ما يحب الله وإن كرهته النفس . ويتم ذلك بحمل النفس على أن تعرف الله ربها بأسمائه وصفاته وأفعاله ، وتعرف ما يحبه الله من الإيمان ، والعبادات ، والآداب ، والأخلاق ، وتعرف ما يكرهه من الكفر ، والشرك ، والبدع والأخلاق السيئة ، فإذا عرف العبد ما يحب الله فعله ، وإذا عرف ما يكره اجتنبه ، ففاز برحمة الله ورضوانه وجنته : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ

حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٤﴾ ﴾

[النساء:١٣-١٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال:٢- ٤ ].

وأما جهاد الشيطان فيكون بالاستعاذة بالله من شره ، ومعرفة أنواع أسلحته التي يستخدمها في إغواء الناس وإفسادهم ، وتنحصر في ثلاثة أنواع : الشبهات .. والشهوات .. والتزيين .

فهو يقذف بالشهوات في نفس العبد ، فيفجر كل طاقات غرائز الإنسان ، ويشعل نار الفتنة التي لا سبيل إلى إخمادها إلا بالاتصال الفوري بالله وذكره : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾[الأعراف:٢٠١] .

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴿٤٣﴾ ﴾[ الأحزاب :٤١ – ٤٣ ] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾[ الأعراف : ٢٠٥ ] .

وكما يرمي الشيطان بالشبهة في القلب ، فيثير الشكوك ، ويحرك الخواطر السيئة ، فيصيب الإنسان بالحيرة والتردد ، فيفتر العزم ، ويقل العمل .

وعلاجه بالاستعاذة بالله من شره : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ [فصلت: ٣٦] .

أما سلاح التزيين فهو أقوى أسلحته ، وأشد أنواعه ، وأكثرها فتكاً بالإنسان، فلدى الشيطان من القدرة ما يقلب به العجوز من النساء في عين ناظرها وكأنها حوراء حسناء، وتزيين الحرام من المآكل والمشارب والأقوال والأفعال ، ما يجعل الإنسان يقدم عليه، ويفرح به، ويؤثره على الحلال .

وحرب الشيطان تكون بردِّ كل شبهة يثيرها ، وإبعاد كل شهوة يلقيها ، وفعل كل طاعة يثقلها ، وينفر عنها ، واجتناب كل معصية يدعو إليها : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ [البقرة:٢٠٨] .

والتفطن لكل طلاء وتزيين يحاول به الإيقاع في شراكه وحبائله .

وذلك كله بعد الاحتماء والالتجاء إلى الله بالاستعاذة بالله من شره ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾ [ الناس :١ – ٦] .

أما جهاد حب الدنيا وشهواتها ، فالشيطان يستخدمها ليخدع الإنسان ، ويجره إلى المعاصي عن طريق الشهوات ، ثم يسوقه عن طريق الشهوات إلى المحرمات ، ثم يوقعه في الكبائر ، لتكميل شهواته ، ثم يشغله بالشهوات ، والمحرمات ، والكبائر ، عن أوامر الله ، ثم يخرجه من الدين ، فتنزل به عقوبة رب العالمين : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ

كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾[الأنعام:٤٤-٤٥] .

ولا ينجو من كيد الشيطان إلا من إعتصم بالرحمان : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾ ﴾[ النور :٢١ ] .

فالمسلم يأخذ من الشهوات المباحة حسب أمر الشرع ، ويستخدمها في طاعة الله ، وينفقها فى مرضاة الله ، ويجتنب الشهوات المحرمة مطلقاً ، ويُقبل على طاعة الله ، ويجعل الدنيا وسيلة للآخرة : ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾[القصص:٧٧] .

وبهذا يتكون المجتمع الإسلامي ، القادر على تحمل أعباء جهاد الكفار ، والمشركين ، والمنافقين ، وأهل الكتاب ، فإن من لا يجاهد نفسه ، ولا ينتصر عليها ، لا يقدر على جهاد غيرها : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾[العنكبوت:٦٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١٢﴾ ﴾[هود:١١٢] .

فيجاهد المسلم هؤلاء الأعداء فى سبيل الله ، حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله، كما قال سبحانه : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣٩﴾

وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾[الأنفال:٣٩-٤٠].

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾[التوبة:٧٣] .

والجهاد للأعداء يكون بالدعوة إلى الله أولًا ، فإن لم يؤمنوا فعلى أهل الكتاب أن يدفعوا الجزية ، فإن أبوا فعلى المسلمين قتالهم : ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾[ التوبة : ٢٩ ] .

أما الكفار والمنافقون ، فلا يُقبل منهم إلا الإسلام، فإن أبوا فعلى المسلمين قتالهم: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[ التوبة : ٣٦ ] .

فسبيل الله هي الجهاد ، وطلب العلم ، ودعوة الخلق به إلى الله : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾[ النحل :١٢٥ ].

واليهود والنصارى يعرفون أن هذا القرآن حقٌ من عند الله ، ويعرفون من ثم ما فيه من سلطانٍ وقوة ، وما فيه من خيرٍ وصلاح ، وما فيه من طاقةٍ دافعة للأمة التى تدين به ، وبالأخلاق التى جاء بها ، وبالشرائع التي سنها ، ويحسبون كل حساب لهذا الكتاب وأهله : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾[ البقرة : ١٤٦ ].

ويعرفون حق المعرفة أن الأرض لا تسعهم ، وتسع أهل هذا الدين ، إنهم يعرفون ما فيه من حق ، ويعرفون ما هم فيه من باطل ، ويعرفون أن هذا الدين لا يمكن أن يهادن الجاهلية التي صاروا إليها .

ويعرفون جيداً أن هذا الدين لا يمكن أن يستعلي إلا على أنقاض الجاهلية التي هم عليها ، ولا يمكن أن يكون الدين كله لله ، حتى تجلو الجاهلية عن هذه الأرض : ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء:٨١] .

وهم يعلمون كل ذلك ، ويدرسون هذا الدين دراسة دقيقة عميقة ، وينقِّبون عن أسرار قوته ، وعن مداخله إلى النفوس ، ويبحثون بجد كيف يستطيعون أن يفسدوا القوة الموجهة في هذا الدين؟

قال الله تعالى :: ﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [ المنافقون :٤ ] .

وكيف يلقون بالريب والشبه والشكوك في قلوب أهله ؟ وكيف يحرفون الكلم عن مواضعه ؟ وكيف يصدون أهله عن العلم الحقيقي به ؟ وكيف يحولونه من حركة دافعة تحطم الباطل ، وتكسر الجاهلية ، وتسترد سلطان الله في الأرض ، وتطارد أعداءه ، وتجعل الدين كله لله ، إلى حركة ثقافية باردة ، وإلى بحوث نظرية ميتة ، وإلى جدل فقهي ، أو طائفي فارغ ، وإلى مسابقات وألغاز ؟ .

وكيف يفرغون مفهوماته وقواعده وأصوله في أنظمة وتصورات غريبة عنه ، مدمرةً له ، مع إيهام أهله أن عقيدتهم محترمة مصونة ؟

إنهم يدرسون هذا الدين دراسة عميقة فاحصة ، لا لأنهم يبحثون عن الحقيقة ، ولا لينصفوا هذا الدين كلاّ .

إنهم يقومون بهذه الدراسة العميقة ، لأنهم يبحثون عن مقتل لهذا الدين ، ويبحثون عن منافذه ومساربه إلى الفطرة ليسدوها ، ويبحثون عن أسرار قوته ليقاوموه منها ، مستخدمين المنافقين والمغفلين في ذبحه .

ولو تمكنوا من الإجهاز عليه بالحديد والنار لفعلوا ، ولكنهم عجزوا فحاربوه بإثارة الشبهات حوله ، والتشكيك به ؛ لينفروا المسلمين منه ، ويصدوا الناس عنه : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [ الصف :٨- ٩ ] .

وأهل الكتاب يعرفون كل صغيرةً وكبيرةً في هذا الدين ، فهم يعرفونه كما يعرفون أبنائهم ، وهم يعلمون أن الهجوم الصريح على هذا الدين يثير حماسة الدفاع والمقاومة عند كافة المسلمين ؛ لذلك يلجأ معظمهم إلى إزجاء الثناء الكاذبة لهذا الدين ، حتى ينوِّم المشاعر المتيقظة ، ويخدِّر الحماسة المتحفزة ، وينال ثقة القارئ واطمئنانه ، ثم يضع السم في الكأس ، ويقدمها للجهال والمغفلين : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾ [ البقرة :٢١٧ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [آل عمران:٩٩ ] .

أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، يعلمون أن هذا القرآن منزل من الله بالحق ، وما يزالون يعلمون أن قوة هذا الدين ، وقوة أهله ، إنما تنبثق عن

هذا الحق الذي جاء به محمد ﷺ : ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾[ المائدة :١٥- ١٦ ] .

ولا يزالون من أجل علمهم بهذا كله ، يحاربون هذا الدين ، ويحاربون هذا الكتاب حرباً لا تهدأ ، وأشد هذه الحروب التي يقوم بها أهل الكتاب وأشرسها ، هي تحويل الحاكمية عن شريعة هذا الكتاب ، إلى شرائع كتب أخرى من صنع البشر ، وأن جعلوا غير الله حكماً ، حتى لا تقوم لكتاب الله قائمة ، ولا يصبح لدين الله وجود : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[المائدة:٤٩-٥٠] .

وإقامة ألوهياتٍ أخرى في البلاد التي كانت الإلوهية فيها لله وحده ، يوم كانت تحكمها شريعة الله التي في كتابه ، ولا تشاركها شريعة أخرى ، ولا يوجد إلى جوار كتاب الله كتب أخرى تستمد منها القوانين والأنظمة ، ويرجع إليها ، ويستشهد بفقراتها وموادها ، كما يستشهد المسلم بكتاب الله وآياته ، وقد صار ذلك الآن ، وأصبح واقعاً لا يحتاج إلى دليل ، وأهل الكتاب من يهود ونصارى من وراء هذا كله ، وبقي للمسلمين بعض الأحكام الخاصة الفرضية من صلاةٍو صيامٍ وزكاةٍ ونحو ذلك من الشعائر: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾[البقرة:٨٥] .

وقال الله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾[الأنعام:١١٤] .

ألا ما أخطر عداوة اليهود ، إنهم الذين يقبعون وراء بيوت الأزياء ، ووراء دكاكين التجميل ، ووراء سعار العرى والتكشف ، ووراء الأفلام والصور التي تقود هذه الحملة المسعورة .

إن هذه الأرباب تصدر أوامرها ، فتطيعها القطعان والبهائم الضالة في أرجاء الأرض طاعة مزرية ، إنهم يهود يقومون بإصدار أوامرهم على البهائم المغلوبة على أمرها ، لتكون عاريةً ضالةً مسرفةً كافرة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾[آل عمران:١٠٠-١٠١] .

إنهم بلا شك يبلغون أهدافهم كلها من وراء إطلاق هذه الموجات المسعورة في كل مكان ، أهدافهم من تلهية العالم كله بهذا السعار ، وإشاعة الانحلال الجسدى والخلقى من ورائه ، وإفساد الفطرة البشرية ، وجعلها ألعوبة في أيدي مصممي الأزياء والتجميل : ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾[ المائدة :٦٤ ] .

هذا فضلاً عما تحققه هذه الألعوبة من تحقيق الأهداف الاقتصادية ، وسحب أموال البشرية إلى جيوبهم من وراء الإسراف في استهلاك الأقمشة وأدوات الزينة والتجميل ، وسائر الصناعات التي تقوم على هذا السعار وتغذيه ، فَوَاهٍ لهذه الأمة التي يعبث اليهود بأجسادها ، وأخلاقها ، وأبنائها ،

وبناتها ، وينهبون أموالها ، وهي غافلة لاهية؟: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [ الحديد :١٦- ١٧ ] .

أخرجها اليهود من المساجد ، وساحات الجهاد ، وميادين الدعوة ، ومنابر التعليم ، إلى الأسواق ، وأماكن اللهو واللعب ، وأسواق الرذيلة ، وقاعات الرياضة والفن ، وأغرقتهم في الأموال والشهوات : ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [آل عمران:٩٩ ] .

وقد أكثر الله من ذكر أحوال بني إسرائيل مع أنبيائهم ، فهي أكثر القصص ورودًا في القرآن كله ، وما ذلك إلا لتعتبر بهم هذه الأمة ، ولا تقع فيما وقعوا فيه من الأخطاء الجسام ، ومحاربة دين الله ، وقتل رسله ، فبنو إسرائيل هم أول من واجه الدعوة الإسلامية بالعداء والكيد والحرب في المدينة وما حولها ، فقد كانوا حرباً على المسلمين منذ اليوم الأول لوصول الإسلام إليها .

وهم الذين احتضنوا النفاق والمنافقين في المدينة ، وأمدوهم بوسائل الكيد للمسلمين ، وهم الذين حرضوا المشركين وواعدوهم وتآمروا معهم على حرب النبي ﷺ وأصحابه ، وهم الذين تولوا حرب الإشاعات والدس والكيد في الصف المسلم ، كما تولوا بث الشبهات والشكوك والتحريفات حول العقيدة ، وحول النبي ﷺ كما قال الله عنهم : ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ

ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [آل عمران:٧٢] .

وذلك كله قبل أن يسفروا بوجوههم في الحرب المعلنة الصريحة .

فلم يكن بدّ من كشفهم للمسلمين ، ليتقوهم ويحذروهم ، وقد علم الله أنهم سيكونون أعداء هذه الأمة في تاريخها كله ، كما كانوا أعداء هدى الله في ماضيهم كله .

فعرض الله ﷻ لهذه الأمة أمرهم كله مكشوفًا ، ووسائلهم كلها مكشوفة .

وبنو إسرائيل هم أصحاب آخر دينٍ قبل بعثة النبي ﷺ ، وقد امتد تاريخهم قبل الإسلام فترة طويلة ، ووقعت الانحرافات في عقيدتهم ، ووقع منهم النقض المتكرر لميثاق الله معهم ، ووقع في حياتهم آثار هذا النقض ، وهذا الانحراف : ﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [ البقرة :١٠٠ ] .

فاقتضى هذا أن تُلم الأمة المسلمة ، وهي وارثة الرسالات كلها ، بتاريخ القوم ، لتتقي مزالق الطريق ، ومداخل الشيطان ، وبوادر الانحراف .

وقد علم الله أن الأمد حين يطول على الأمم تقسو قلوبها ، وتنحرف أجيال منها ، وهذه الأمة سيمتد تاريخها إلى أن تقوم الساعة ، فجعل سبحانه أمام أئمة هذه الأمة نماذج من العقابيل التي تُلم بالأمم ، يعرفون منها كيف يعالجون الداء بعد معرفة طبيعته .

وقد أنعم الله على أهل الكتاب بنعم كثيرة ، واختارهم على العالمين في زمانهم ، وأفاء عليهم من عطاياه ، ولكنهم لم يشكروا هذا كما قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ

فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [ المائدة :٢٠ ] .

ولكن أهل الكتاب لم يشكروا النعمة ، فنقضوا الميثاق ، ونسوا الكتاب ، وحرفوا الكتاب ، وحرفوا الكلم عن مواضعه ، ولجوا في المعاصي ، فاستحقوا غضب الله ولعنته ، وحق عليهم القول بسبب ما اقترفوا ، وباءوا بغضب على غضب كما قال سبحانه : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [المائدة:٧٨] .

ثم كانت اللعنة الأبدية على جميع بنى إسرائيل إلا الذين يؤمنون بالنبي ﷺ ، ويتبعون ما جاء به ، وهذا حكم لا راد له ، ولا معقب عليه : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [الأعراف:١٦٧] .

ونحن علينا القيام بطاعة الله ورسوله ، وإبلاغ الدين للبشرية ، والجهاد لإعلاء كلمة الله ، والله ينصر من ينصر دينه كما قال سبحانه : ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الحج:٧٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [ التوبة :٧١ ] .

**أما مراتب جهاد المنافقين فكما يلي :**

**الأولى** : وعظهم وتخويفهم بالله ﷻ ، وبما أعد لهم من العذاب الأليم كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [ الأنفال :٢- ٤ ] .

وقال سبحانه : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [ النحل : ١٢٥ ] .

**الثانية** : البراءة منهم ، وهجرهم ، وعدم موالاتهم ، ومقاطعة مجالسهم إن لم يتوبوا كما قال سبحانه : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾ [النساء:١٤٠] .

**الثالثة** : عدم الرضا عنهم ، أو قبول اعتذار من ثبت كذبه منهم ، كما قال سبحانه : ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [التوبة:٩٦ ] .

**الرابعة** : عدم قبولهم في الأعمال والمناصب الدينية الهامة ، لشدة خطرهم على الأمة كما قال سبحانه : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [التوبة:٨٣] .

**الخامسة** : جهادهم كسائر الكفار باليد واللسان كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [التوبة:٧٣] .

**السادسة** : تهديدهم بفضح خباياهم ، ونفيهم وقتلهم كما قال سبحانه : ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ ﴾ [الأحزاب:٦٠-٦١] .

**السابعة** : عدم الصلاة عليهم ، أو الاستغفار لهم ، أو الترحم عليهم كما قال سبحانه : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [التوبة:٨٤] .

وقال سبحانه : ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [التوبة:٨٠] .

**الثامنة** : قتل المنافق الذي ثبت نفاقه بالبينة الواضحة إن لم يتب كما قال سبحانه : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [التوبة:٥٢] .

اللهم اهدنا ، وأهد بنا ، واجعلنا سبباً لمن اهتدى ، يار رب العالمين .

# موسوعة خزائن العلوم الإسلامية

## ٦٠- خزائن الجهاد في سبيل الله

## وتشتمل على ما يلي:

**أولًا** : فقه الجهاد في سبيل الله .

**ثانيًا** : فضائل الجهاد في سبيل الله .

**ثالثًا** : أقسام الجهاد في سبيل الله .

**رابعًا** : أحكام الجهاد في سبيل الله .

**خامسًا** : أحكام المجاهدين في سبيل الله.

**سادسًا** : آداب الجهاد في سبيل الله .

**سابعًا** : أحكام القتال في سبيل الله .

**ثامنًا** : أحكام الشهداء في سبيل الله .

**تاسعًا** : أحكام الأسرى والسبي .

**عاشرًا** : أحكام الغنائم والأنفال .

**الحادي عشر**: انتهاء الحرب في الإسلام والمعاهدات.

**الثاني عشر** : أحكام غير المسلمين ويشمل:

١- أهل الذمة .

٢- أهل الهدنة .

٣- أهل الأمان .

**الثالث عشر** : أحكام الرجوع من الجهاد .

# موسوعة خزائن العلوم الإسلامية

## ٦٠- خزائن الجهاد في سبيل الله

### القسم الأول

وتشتمل على ما يلي:

١- الخزانة الأولى
٢- الخزانة الثانية
٣- الخزانة الثالثة
٤- الخزانة الرابعة
٥- الخزانة الخامسة
٦- الخزانة السادسة
٧- الخزانة السابعة
٨- الخزانة الثامنة
٩- الخزانة التاسعة
١٠- الخزانة العاشرة

# ٦٠- خزائن الجهاد في سبيل الله

# القسم الأول

## ١- الخزانة الأولى

- **فقه الجهاد في سبيل الله :**

**الجهاد في سبيل الله** : هو بذل الطاقة والوسْع في قتال الكفار ، ابتغاء وجه الله عز وجل .

**وهو المراد في هذا الباب، كما قال سبحانه** : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾[النساء:٧٦] .

- **حقيقة الجهاد في سبيل الله :**

الجهاد لا يسمى جهادًا حقيقيًا إلا إذا قُصد به وجه الله ، وأريد به إعلاء كلمة الله ، وبذل النفس في مرضاة الله ، ورفع راية الحق ، ومطاردة الباطل .

فإذا أراد به الإنسان شيئًا من حظوظ الدنيا ، فإنه لا يسمى جهادًا شرعيًا ينال به الأجر ، فمن قاتل ليظفر بمغنم ، أو يُظهر شجاعة ، أو ينال شهرة ، أو يحظى بمنصب ، فإنه لا نصيب له في الأجر ، ولا حظ له في الثواب :﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾[البينة: ٥] .

وَعَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ قال :« جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ : فَقال : الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ، فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ قال:مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ ». متفق عليه(١).

• **منزلة الجهاد في سبيل الله :**

الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام ؛ لما فيه من المصالح العظيمة في حفظ الإسلام وأهله ، ودفع عدوان المعتدين ، وحماية بيضة المسلمين ، ولمكانة الجهاد ، وعظيم منزلته ، تمنى أفضل المجاهدين في سبيل الله محمد ﷺ أن يحوز درجة الشهداء في سبيل الله .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺقالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : « وَالَّذِي نَفْسِي ، بِيَدِهِ لَوْلا أَنَّ رِجَالاً مِنَ المُؤْمِنِينَ ، لا تَطِيبُ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي ، وَلا أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ ، مَا تَخَلَّفْتُ عَنْ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ أَحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أَحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أَحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَلُ » . متفق عليه(٢) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ مَا يَعْدِلُ الجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ ؟ قَالَ : لاَ تَسْتَطِيعُونَهُ قَالَ : فَأَعَادُوا عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثاً ، كُلّ ذَلِكَ يَقُولُ : لاَ تَسْتَطِيعُونَهُ ، وَقَالَ فِي الثّالِثَةِ : مَثَلُ المُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ الصّائِمِ القَائِمِ القَانِتِ بِآيَاتِ اللهِ لاَ يَفْتُرُ مِنْ صِيَامٍ وَلاَ صَلاَةٍ ، حَتّى يَرْجِعَ المُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَىَ » . متفق عليه(٣) .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ١٢٣ )، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٤٩/ ١٩٠٤ ).

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٢٧٩٧ )، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٨٧٦ ).

(٣)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٢٧٨٧)، واللفظ له، ومسلم برقم: (١١٠/ ١٨٧٨).

• **مراحل تشريع الجهاد في سبيل الله :**

**مر تشريع الجهاد في سبيل الله بأربع مراحل :**

**المرحلة الأولى** : لما قام النبي ﷺ بالدعوة إلى الله في مكة ، ظهر له أعداء عادوه وآذوه ، وكان توجيه الله له بالصبر ، والعفو ، والصفح ، وجهادهم بالدعوة ، والقرآن ، والحجة : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [ آل عمران : ١٥٩ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[الجاثية: ١٤] .

قال الله تعالى :﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الروم:٦٠]

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ ﴾[الحجر:٨٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾[الفرقان:٥١-٥٢] .

**المرحلة الثانية** : لما اشتد الأذى على الرسول ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم ، أذن الله له أن يهاجر من مكة إلى المدينة ، ويأمر أصحابه بالهجرة إليها ، وذلك بعد ثلاث عشرة سنة من البعثة:﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال:٣٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[التوبة:٤٠] .

**المرحلة الثالثة** : ثم أذن الله عز وجل للرسول ﷺ والمؤمنين بالقتال في المدينة بعد الهجرة ، حين أطبق عليهم الأعداء ، وظلموا المؤمنين بالاعتداء عليهم ، وإخراجهم من ديارهم بغير حق .

وأذن الله لهم بالقتال دفاعًا عن النفس ، وتأمينًا للدين ، ودفعًا للظلم والعدوان من المشركين المعتدين : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[الحج:٣٩-٤٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾[البقرة: ١٩٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾[البقرة:١٩٠] .

**الرابعة** : ثم أمر الله رسوله ﷺ والمؤمنين بقتال الكفار كافة ؛ ليكون الدين كله لله ، ولتفتح الأبواب لكل من رغب في الإسلام : ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[التوبة:٣٦] .

وَعَنِ ابْنِ عُمَر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله ، وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلا بِحَقِّ الإِسْلام ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ » . متفق عليه[1] .

- **حكم الجهاد في سبيل الله :**

فرض الله ﷻ القتال في سبيل الله في السنة الثانية من الهجرة .

والجهاد في سبيل الله فرض كفاية ، إذا قام به من يكفي سقط الإثم عن الباقين ، بشرط أن يكون عند المسلمين قوة وقدرة يستطيعون بها القتال: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾[البقرة:٢١٦] .

قال الله تعالى :﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾[التوبة:١٢٢].

وقال الله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[التوبة:٣٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾[البقرة: ١٩٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾[التوبة:٧٣] .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٢٩٤٦)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٣٢/ ٢٠).

وقال الله تعالى : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [التغابن:١٦] .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ بَعْثاً إِلَى بَنِي لِحْيَانَ، مِنْ هُذَيْلٍ، فَقَالَ : « لِيَنْبَعِثْ مِنْ كُلِّ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا، وَالأَجْرُ بَيْنَهُمَا». أخرجه مسلم[1].

- **الأحوال التي يكون فيها الجهاد فرض عين :**

يكون الجهاد في سبيل الله فرض عين على كل مستطيع في الأحوال الآتية :

**أولًا : إذا حضر المسلم صف القتال :**

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[الأنفال:٤٥ ] .

**ثانيًا : إذا حصر بلده عدو :**

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾[التوبة:١٢٣ ] .

**ثالثًا : اذا استنفر الإمام الناس ، أو أحدًا بعينه :**

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾[التوبة:٣٨-٣٩] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ( ١٣٧/ ١٨٩٦).

عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « لا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا » . متفق عليه[1] .

**رابعًا** : إذا دعت الحاجة إليه نفسه في القتال كطبيب وطيار ورام ونحوهم : قال الله تعالى : ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [التوبة:٤١] .

- **حكمة مشروعية الجهاد في سبيل الله**

**أولاً :** شرع الله ﷻ الجهاد في سبيل الله لحكم عظيمة منها :

١- لتكون كلمة الله هي العليا ، ويكون الدين كله لله .

٢- وإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن .

٣- وفتح أبواب الدعوة إلى الله في جميع الأرض .

٤- وإقامة العدل ، ومنع الظلم .

٥- وحماية المسلمين ، ورد كيد الأعداء والمفسدين .

**ثانيًا** : شرع الله الجهاد ابتلاءً واختبارًا لعباده ، ليتبين الصادق من الكاذب ، والمؤمن من المنافق ، وليعلم المجاهد والصابر .

قال الله تعالى : ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [العنكبوت:٢-٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴿٣١﴾ ﴾ [ محمد : ٣١ ] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٢٧٨٣ )، واللفظ له، ومسلم برقم: (٨٦/ ١٨٦٤).

**ثالثًا** : ليس قتال الكفار لإلزامهم بالإسلام ، بل لإلزامهم بالخضوع لأحكام الإسلام ، حتى يكون الدين كله لله ، لأن الحياة لا تصلح أبدًا إلا بالحق ، والحق كله هو الإسلام : ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩ ﴾[ التوبة : ٢٩ ] .

فلا إكراه لفرد على الدين : ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ٢٩ ﴾[الكهف:٢٩] .

**رابعًا** : الجهاد في سبيل الله باب من أبواب الجنة ، يُذهب الله به الهم والغم ، وتُنال به الدرجات العلى من الجنة ، وتُغفر به الذنوب والآثام ، وتحصل به محبة الله للعبد :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ٤ ﴾[الصف:٤] .

- **شروط وجوب الجهاد في سبيل الله :**

**يشترط لوجوب الجهاد على المسلم ما يلي :**

الإسلام ، والعقل ، والبلوغ ، والذكورية ، والصحة ، ووجود النفقة .

فلا يجب الجهاد على غير المسلم ، ولا على الصبي ، ولا على المجنون ، ولا على المريض ، ولا على المرأة ، ولا على العاجز عن النفقة .

فلا حرج على واحد من هؤلاء في التخلف عن الجهاد ؛ لعذره .

قال الله تعالى : ﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩١ ﴾[التوبة:٩١ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الفتح:١٧] .

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ عرضه يوم أحد ، وهو أبن أربع عشرة سنة فلم يجزني ، وَعَرَضَنِي يَوْمَ الخَنْدَقِ ، وَأَنَا ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً ، فَأَجَازَنِي » . متفق عليه[1] .

وَعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنَّهَا قالتْ : يَا رَسُولَ الله ، نَرَى الجِهَادَ أفْضَلَ العَمَلِ ، أفَلا نُجَاهِدُ ؟ قال : « لا ، لَكِنَّ أفْضَلَ الجِهَادِ حَجٌّ مَبْرُورٌ » . أخرجه البخاري[2] .

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٤٠٩٧ ) ، ومسلم برقم: ( ٩١/ ١٨٦٨ ). واللفظ له.
(٢) أخرجه البخاري برقم: ( ١٥٢٠ ).

# ٢- الخزانة الثانية

- **فضائل الجهاد في سبيل الله :**

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة:١١١ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾[النساء:٧٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [التوبة:٢٠-٢٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الصف:٤] .

وَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « مَثَلُ المُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ الله ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يجُاهِدُ فِي سَبِيلِهِ ، كَمَثَلِ الصَّائِمِ القَائِمِ ، وَتَوَكَّلَ اللهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ بِأَنْ تَوَفَّاهُ : أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ ، أَوْ يَرْجِعَهُ سَالِماً مَعَ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ » . متفق عليه[1] .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٢٧٨٧)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١١٠/ ١٨٧٨ ).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ « أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ سُئِلَ : أَيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ ؟ فَقَالَ : إِيمَانٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، قِيلَ : ثُمَّ مَاذَا ؟ قال : « الجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله قِيلَ : ثُمَّ مَاذَا ؟ قال : « حَجٌّ مَبْرُورٌ » . متفق عليه[1] .

- **فضل الغدوة والروحة في سبيل الله :**

عَنْ أَنَسٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « لَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ الله أَوْ رَوْحَةٌ ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » . متفق عليه[2] .

وَعَنْ أَبِي أَيُّوبَ ﷺ قالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « غَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ الله أَوْ رَوْحَةٌ ، خَيْرٌ مِمّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشّمْسُ وَغَرَبَتْ » . أخرجه مسلم[3] .

- **فضل من أراد الجهاد فحبسه مرض أو عذر :**

عَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ فِي غَزَاة ، فَقَالَ : « انَّ أَقْوَاماً بالمَدِينَة خَلْفَنَا ، مَا سَلَكْنَا شِعْباً وَلا وَادِياً إِلاَّ وَهُمْ مَعَنَا فِيهِ، حَبَسَهُمُ العُذْرُ » . أخرجه البخاري[4] .

- **فضل من جهز غازيًا في سبيل الله :**

عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « مَنْ جَهَّزَ غَازِياً فِي سَبِيلِ الله فَقَدْ غَزَا ، وَمَنْ خَلَفَ غَازِياً فِي سَبِيلِ الله بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا » . متفق عليه[5] .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٢٦)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٣٥/ ٨٣ ).

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٢٧٩٢)، واللفظ له، ومسلم برقم: (١١٢/ ١٨٨٠).

(٣) أخرجه مسلم برقم: ( ١١٥/ ١٨٨٣ ).

(٤) أخرجه البخاري برقم: ( ٢٨٣٩ ).

(٥)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٢٨٤٣)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٣٥/ ١٨٩٥).

• **فضل من بذل نفسه وماله في سبيل الله :**

قال الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾[التوبة:١٢٠-١٢١] .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللهِ حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ » . أخرجه البخاري[1] .

• **فضل النفقة في سبيل الله :**

قال الله تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾[البقرة:٢٦١-٢٦٢] .

وَعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيّ رضي الله عنه قَالَ : « جَاءَ رَجُلٌ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ ، فَقَالَ : هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : لَكَ بِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ سَبْعُمِائَةِ نَاقَةٍ ، كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ » . أخرجه مسلم[2] .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللهِ دَعَاهُ خَزَنَةُ الجَنَّةِ ، كُلُّ خَزَنَةِ بابٍ : أَيْ فُلُ هَلُمَّ » . متفق عليه[1] .

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ( ٩٠٧).

(٢) أخرجه مسلم برقم: ( ١٣٢/ ١٨٩٢ ).

• **فضل من خرج إلى الجهاد في سبيل الله ثم مات أو قُتل :**

قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾[النساء:١٠٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٥٧-١٥٨] .

• **فضل من قُتل في سبيل الله :**

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾[آل عمران:١٦٩ -١٧١] .

وَعَنْ أَبِي قَتَادَةَ ﷺأَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَامَ فِيهِمْ فَذَكَرَ لهُمْ : أَنّ الجِهَادَ فِي سَبِيل الله وَالإِيمَانَ بِالله أَفْضَلُ الأَعْمَالِ فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله أَرَأَيْتَ إنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيل الله تُكَفّرُ عَنّي خَطَايَايَ ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ : « نَعَمْ ، إنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيل الله ، وَأَنْتَ صَابِرٌ محْتَسِبٌ ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ ، ثُمّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: كَيْفَ قُلْتَ ؟ قَالَ : أَرَأَيْتَ إنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيل الله أَتُكَفّرُ عَنّي خَطَايَايَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : نَعَمْ ، وَأَنْتَ صَابِرٌ محْتَسِبٌ ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ ، إلاّ الدّيْنَ ، فَإنّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السّلاَمُ قَالَ لي ذَلِكَ » . أخرجه مسلم(٢) .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ١٨٩٧ )، واللفظ له، ومسلم برقم: (٨٥/ ١٠٢٧).
(٢) أخرجه مسلم برقم: ( ١١٧/ ١٨٨٥).

• **فضل الصيام في سبيل الله :**

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ صَامَ يَوْماً فِي سَبِيلِ الله ، بَعَّدَ اللهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفاً » . متفق عليه[1] .

• **فضل من احتبس فرسًا في سبيل الله :**

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « مَنِ احْتَبَسَ فَرَساً فِي سَبِيلِ الله ، إِيمَاناً بِاللهِ وَتَصْدِيقاً بِوَعْدِهِ ، فَإِنَّ شِبَعَهُ وَرِيَّهُ وَرَوْثَهُ وَبَوْلَهُ فِي مِيزَانِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ » . أخرجه البخاري[2] .

• **فضل الغزو في البحر :**

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ : كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَدْخُلُ عَلَى أُمِّ حَرَام بِنْتِ مِلْحَانَ فَتُطْعِمُهُ، وَكَانَتْ أُمُّ حَرَام تَحْتَ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا رَسُولُ الله ﷺ فَأَطْعَمَتْهُ، وَجَعَلَتْ تَفْلِي رَأْسَهُ، فَنَامَ رَسُولُ الله ﷺ ثُمَّ اسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ، قالتْ: فَقُلْتُ: وَمَا يُضْحِكُكَ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ: « أُنَاسٌ مِنْ أُمَّتِي، عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً فِي سَبِيلِ الله، يَرْكَبُونَ ثَبَجَ هَذَا البَحْرِ مُلُوكاً عَلَى الأَسِرَّةِ، أَوْ: مِثْلَ المُلُوكِ عَلَى الأَسِرَّةِ، قالتْ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ الله، ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَدَعَا لَهَا رَسُولُ الله ﷺ ، ثُمَّ وَضَعَ رَأْسَهُ ثُمَّ اسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقُلْتُ: وَمَا يُضْحِكُكَ يَا رَسُولَ الله ؟ قال: نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي، عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً فِي سَبِيلِ الله. كَمَا قال فِي الأَوَّلِ ، قالتْ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ الله، ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قالَ: أَنْتِ مِنَ الأَوَّلِينَ، فَرَكِبَتِ البَحْرَ فِي زَمَانِ مُعَاوِيَةَ

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٢٨٤٠)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٦٨/ ١١٥٣).
(٢) أخرجه البخاري برقم: ( ٢٨٥٣).

بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، فَصُرِعَتْ عَنْ دَابَّتِهَا حِينَ خَرَجَتْ مِنَ البَحْرِ، فَهَلَكَتْ » . متفق عليه[1].

- **فضل الحراسة في سبيل الله :**

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ ، وَإِذَا شِيكَ فَلا انْتَقَشَ ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ الله ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ ، إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ » . أخرجه البخاري[2] .

- **فضل الخدمة في سبيل الله :**

عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ : « كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي السَّفَرِ ، فَمِنَّا الصَّائِمُ وَمِنَّا المُفْطِرُ ، قَالَ : فَنَزَلْنَا مَنْزِلاً فِي يَوْم حَارٍّ ، أَكْثَرُنَا ظِلاً صَاحِبُ الكِسَاءِ ، وَمِنَّا مَنْ يَتَّقِي الشَّمْسَ بِيَدِهِ ، قَالَ : فَسَقَطَ الصُّوَّامُ، وَقَامَ المُفْطِرُونَ ، فَضَرَبُوا الأَبْنِيَةَ وَسَقَوُا الرِّكَابَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: ذَهَبَ المُفْطِرُونَ اليَوْمَ بِالأَجْرِ» . متفق عليه[3] .

- **أقسام الجهاد في سبيل الله :**

**ينقسم الجهاد في سبيل الله إلى قسمين :**

**الأول** : الجهاد بالنفس والمال واللسان ، وهو جهاد الدعوة إلى الله بين الناس ، حتى يكون الدين كله لله .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٢٨٢)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٦٠/ ١٩١٢ ).

(٢) أخرجه البخاري برقم: ( ٦٤٣٥).

(٣)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٢٨٩٠ )، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٠٠/ ١١١٩ ).

وهذا أعظم أنواع الجهاد ، وأعظم من قام به الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، وهو جهاد حسن لذاته ، وهو مقصد بعثة الأنبياء والرسل ، وبسببه يؤمن الناس ، ويعبدون ربهم وحده لا شريك له : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الفرقان:٥١-٥٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الحج:٧٨] .

**الثاني** : القتال في سبيل الله ، وهو بذل النفس والمال من أجل إعلاء كلمة الله ، حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله .

ولم يُفرض هذا الجهاد على جميع الأنبياء والرسل ، وإنما فُرض على بعضهم كداود وسليمان وموسى عليهم الصلاة والسلام .

وأفضل من جاهد هذا الجهاد سيد الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ، وهو المقصود هنا .

وهذا الجهاد حسن لغيره ؛ لأنه يفتح أبواب الدعوة إلى الله ، والدعوة تفتح أبواب الهداية ، وكلاهما يفتح أبواب الجنة :﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٩٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [البقرة:١٩٠] .

وقال الله تعالى :﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [التوبة:٣٦] .

• **أحوال الجهاد في سبيل الله :**

**للجهاد في سبيل الله أربع حالات :**

**الأولى** : جهاد النفس :

وهو جهاد النفس على تعلم الدين ، والعمل به ، والدعوة إليه ، والصبر على الأذى فيه: ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣ ﴾[العصر:١-٣].

وقال الله تعالى :﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩ ﴾[العنكبوت:٦٩] .

**الثانية** : جهاد الشيطان :

وهو جهاد الشيطان على دفع ما يلقي إلى العبد من الشبهات والشهوات:﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦ ﴾[فاطر:٦].

**الحالة الثالثة** : جهاد أصحاب الظلم والبدع والمنكرات :

ويكون باليد إذا قدر ، فإن عجز فباللسان ، فإن عجز فبالقلب ، ويكون بالحكمة حسب الحال والمصلحة ، حتى لا تحصل فتنة: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝١٢٥ ﴾[النحل:١٢٥] .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ عَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِه ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ » . أخرجه مسلم[1] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ( ٧٨/ ٤٩).

**الرابعة** : جهاد الكفار ، والمنافقين :

ويكون بالقلب واللسان ، والنفس والمال ، وهو المقصود هنا :﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[الحجرات:١٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ﴾[التحريم:٩] .

- **أنواع الجهاد في سبيل الله :**

**الجهاد في سبيل الله أربعة أنواع :**

**الأول** : جهاد ضد الكفار والمشركين :

وهو أمر لازم لحفظ المسلمين من شرهم ، ولازم لنشر الإسلام بينهم ، ويخيرون فيه على الترتيب بين الإسلام ، أو دفع الجزية ، أو القتال :﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾[التوبة:٢٩] .

وعَنْ بُرَيْدَةَ ﷺ قَالَ : « كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إذَا أَمَّرَ أَمِيراً عَلَى جَيْشٍ أو سَرِّيَةٍ أَوْصَاهُ في خَاصَّتِهِ بِتَقَوَى الله وَمَنْ مَعَهُ مِنَ المُسْلِمِينَ خَيْراً ، ثُمَّ قَالَ : اغْزُوا باسْم الله في سَبيل الله ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِالله ، اغْزُوا وَلاَ تَغُلُّوا وَلاَ تَغْدِرُوا وَلاَ تمَثِّلُوا وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيداً وإذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ المُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إلَى ثَلاثِ خِصَالٍ (أَوْ خِلالٍ) ، فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إلى الإسْلامِ ، فإنْ أَجَابُوكَ فاقْبَلْ مِنْهُمْ وكُفَّ عَنْهُمْ .

ثُمَّ ادْعُهُمْ إلى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إلى دَارِ المُهَاجِرِينَ ، وأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهُمْ مَا عَلَى المُهَاجِرِين ، فَإنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ المُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذي يَجْرِي عَلَى المُؤْمِنِينَ ، وَلاَ يَكُونُ لَهُمْ في الغَنِيمَةِ وَالفَيْءِ شَيءٌ ، إلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ المُسْلِمِينَ ، فَإنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الجِزْيَةَ ، فَإنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ، فَإنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ » . أخرجه مسلم[1] .

**النوع الثاني** : جهاد ضد المرتدين عن الإسلام :

ويخيرون على الترتيب بين العودة إلى الإسلام ، أو القتال .

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ » . أخرجه البخاري[2] .

**الثالث** : جهاد ضد البغاة :

وهم الذين يخرجون على إمام المسلمين ، ويثيرون الفتنة ، فإن رجعوا وإلا قاتلهم ، لتخمد فتنتهم ، ويسلم المسلمون من شرهم .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ ﴾[الحجرات:٩] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ( ٣/ ١٧٣١).

(٢)أخرجه البخاري برقم: ( ٣٠١٧).

**الرابع** : جهاد ضد قطاع الطريق :

وهم المفسدون في الأرض .

وعقوبتهم حسب جريمتهم بما يراه الإمام من قَتْل ، أو صلب ، أو قَطْع أيديهم وأرجلهم من خِلاف ، أو نفيهم من الأرض .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤ ﴾ [المائدة:٣٣-٣٤] .

# ٣- الخزانة الثالثة

• **الجهاد أفضل أنواع التطوع :**

الجهاد في سبيل الله أفضل أنواع التطوع ، فهو أفضل من تطوع الحج والعمرة ، ومن تطوع الصلاة والصيام ؛ لما فيه من إعلاء كلمة الله ، وحفظ الإسلام والمسلمين ، وقمع المعتدين الظالمين ، وإزالة الفتن والفوضى .

وهو من أفضل العبادات ؛ لمِا فيه من رفعة الدرجات ، ولمِا فيه من الزهد في الدنيا ، وهجر الرغبات ، ومفارقة الأهل والدار ، والتضحية بالنفس والمال .

قال الله تعالى : ﴿ لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾ [النساء:٩٥-٩٦] .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيّ ﷺ « أَنّ رَجُلاً أَتَى النّبِيّ ﷺ فَقَالَ : أَيّ النّاسِ أَفْضَلُ ؟ فَقَالَ : رَجُلٌ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ الله بِمَالِه وَنَفْسِه » . قَالَ : ثُمّ مَنْ ؟ قَالَ : « مُؤْمِنٌ فِي شِعْبٍ مِنَ الشّعَابِ ، يَعْبُد الله رَبّهُ ، وَيَدَعُ النّاسَ مِنْ شَرّهِ » . متفق عليه[١] .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : « قِيلَ لِلنّبِيّ ﷺ : مَا يَعْدِلُ الجِهَادَ فِي سَبِيلِ الله ﷻ ؟ قَالَ : لاَ تَسْتَطِيعُونَهُ قَالَ : فَأَعَادُوا عَلَيْهِ مَرّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثاً ، كُلّ ذَلِكَ يَقُولُ : لاَ تَسْتَطِيعُونَه » . ، وَقَالَ فِي الثّالِثَةِ : مَثَلُ المُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ الصّائِمِ القَائِمِ القَانِتِ بِآيَاتِ الله ، لاَ يَفْتُرُ مِنْ صِيَامٍ وَلاَ صَلاَةٍ ، حَتّى يَرْجِعَ المُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ الله تَعَالَى » . متفق عليه[٢] .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٢٧٨٦ )، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٢٢/ ١٨٨٨).

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٢٧٨٧)، ومسلم برقم: ( ١١٠/ ١٨٧٨). واللفظ له.

• **حكم الدعوة قبل القتال :**

تجب الدعوة إلى الإسلام قبل القتال ، لمن لم تبلغهم الدعوة ، فإن انتشر الإسلام ، وعرفه الناس ، فالدعوة مستحبة ؛ تأكيدًا للإعلام والإنذار ، وليست بواجبة : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [ البقرة : ١٩٠ ] .

**ولا يجوز قتال الكفار إلا بشرطين :**

**الأول** : إبلاغهم الدعوة إلى الإسلام إذا كانت لم تبلغهم .

**الثاني** : أن يكونوا حربيين غير مستأمنين ، ولا معاهدين ، ولا أهل ذمة ؛ لأن دماء هؤلاء مصونة معصومة .

فإذا توفر هذان الشرطان جاز قتالهم من دون إنذار سابق .

عَنْ بُرَيْدَةَ ﷺقَالَ : « كَانَ رَسُولُ الله ﷺإِذَا أَمَّرَ أَمِيراً عَلَى جَيْشٍ أو سَرِّيَةٍ أَوْصَاهُ في خَاصَّتِهِ بِتَقَوَى الله وَمَنْ مَعَهُ مِنَ المُسْلِمِينَ خَيْراً ، ثُمَّ قَالَ : اغْزُوا باسْم الله في سَبيل الله ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِالله ، اغْزُوا وَلاَ تَغُلُّوا وَلاَ تَغْدِرُوا وَلاَ تمَثِّلُوا وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيداً ، وإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ المُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلاثِ خِصَالٍ (أَوْ خِلالٍ) ، فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلى الإِسْلام ، فإِنْ أَجَابُوكَ فاقْبَلْ مِنْهُمْ وكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلىّ التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلى دَارِ المُهَاجِرِينَ ، وأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهُمْ مَا عَلَى المُهَاجِرِين ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ المُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذي يَجْرِي عَلَى المُؤْمِنِينَ ، وَلاَ يَكُونُ لَهُمْ في الغَنِيمَةِ وَالفَيْءِ شَيءٌ ،

إِلَّا أَنْ يُقَاتِلُوا وَيَبْدَءُوا بِالْقِتَالِ ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَأَبَوْا الْجِزْيَةَ ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ ».أخرجه مسلم[1] .

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا « أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَغَارَ عَلَى بَنِي المُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ » . متفق عليه[2] .

- **حكم القتال قبل الدعوة :**

لا يجوز قتال من لم تبلغهم الدعوة إلى الله إلا بعد دعوتهم إلى الإسلام ، فإن أبوا يطالَبون بدفع الجزية ، فإن أبوا جاز قتالهم ، ويجوز قتال من بلغتهم الدعوة بدون سابق إنذار ، فإن مقصد الجهاد في الإسلام إزالة الكفر والشرك ، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، ونشر العدل ، ورفع الظلم ، وإزالة الفتن ، وإزاحة من يقوم في وجه من يبلغ الإسلام وينشره .

فاذا حصلت هذه المقاصد العظمة بدون قتال لم يُحتج إلى القتال ، فالله خلق بني آدم لعبادته وحده لا شريك له كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾[الذاريات:٥٦-٥٨] .

فلا يجوز قتل أحد منهم إلا من آذى وعاند ، وأصر على الكفر ، أو ارتد ، أو ظلم الناس ، أو منع الناس من الدخول في الإسلام ، أو منع الدعاة من الدعوة إلى الله في أرض الله .

وما قاتل رسول الله ﷺ قوماً قط إلا دعاهم إلى الإسلام .

---

(١)أخرجه مسلم برقم: ( ٣/ ١٧٣١ ).

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٢٥٤١)، واللفظ له، ومسلم برقم: (١/ ١٧٣٠ ).

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ : « مَا قَاتَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَوْماً قَطُّ إِلاَّ دَعَاهُمْ » . أخرجه أحمد والدارمي بسند صحيح[1] .

- **حكم حفظ حدود البلاد :**

يجب على إمام المسلمين حفظ حدود بلاد المسلمين من الكفار ، إما بعهد وأمان ، وإما بسلاح ورجال ، حسب ما تقتضيه المصلحة والحال .

قال الله تعالى : ﴿ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٠٢﴾ ﴾[النساء:١٠٢] .

- **فضل الرباط في سبيل الله :**

توجد على حدود بلاد الإسلام منافذ قد يتسلل منها العدو إلى داخل البلاد .

وقد رغَّب الإسلام في حفظ هذه الثغور بإعداد الجنود الذين يحرسون هذه الثغور، ويرابطون فيها، وأفضل الرباط ما كان بأشد الثغور خوفًا، وأعظمها منفعة.

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾[آل عمران:٢٠٠] .

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا ، وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ

(١)صحيح/ أخرجه أحمد برقم: ( ٢١٠٥)، و أخرجه الدارمي برقم: ( ٢٤٨٨) .

الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا ، وَالرَّوْحَةُ يَرُوحُهَا العَبْدُ فِي سَبِيلِ اللهِ ، أَوِ الغَدْوَةُ ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا » . متفق عليه[1] .

وَعَنْ سَلْمَانَ ﷺ قَالَ : « سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ [illegible] عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ، وَأَمِنَ الفَتَّانَ » . أخرجه مسلم[2] .

- **فقه الإسلام :**

الإسلام كله أمن وسلام ومحاسن ، والتكليف من الله ﷻ إسعاد للإنسان الذي آمن به ، فالإسلام فيه سلام مع الرب ، وسلام مع النفس ، وسلام مع الناس ، وسلام مع الكون ، ليكتنف السلام الإنسان من كل جهة .

فالمسلم في سلام مع خالق الكون سبحانه، يؤمن به، ويمتثل أمره : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ٢٩ ﴾ [ الرعد: ٢٨ – ٢٩ ] .

وفي سلام مع النفس ، يحملها على ما يسعدها في الدنيا والآخرة ﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ١١ ﴾ [الشمس:٧-١١] .

والمسلم في سلام مع الكون المسخر لله من سماء وأرض وغيرهما من المخلوقات التي سخرها الله له ، وكل ذرة في الكون تسر بطاعة الله ، وتلعن من عصى الله ، وكل عضو في الإنسان خاضع لإرادة الإنسان ، فإن أطاع الله به سره ذلك وحمده ، وإن عصيت الله به أطاعك ولعنك ، لأنه خاضع

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٢٨٩٢)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١١٢/ ١٨٨٠) .

(٢)أخرجه مسلم برقم: ( ١٦٣/ ١٩١٣ ).

لأمرك في الدنيا : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [ الإسراء :٤٣- ٤٤ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾[البقرة:٢٠٨] .

والمسلم في سلام مع الناس ، يحب لهم الخير ، ويدفع عنهم الشر : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾[النحل:٩٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤].

- **فقه السلم والحرب :**

السلم ضد الحرب ، ومقصود الله من عباده الإيمان والإسلام ، وهذه نعمه من الله من بها على من يشاء من عباده :﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[الحجرات:١٧] .

والحرب إنما تنشأ من تعاند القوى في النفس البشرية والكون ، تعاند قوى النفس ، حرب مع النفس ، وتعاند قوى البشر ، حرب مع البشر ، وتعاند قوى البشر حرب البشر مع البشر ، وتعاند النفس مع أوامر الرب .

والحرب لا تنشأ إلا إذا اختلفت الأهواء ، وأهواء البشر مختلفة لا يمكن أن تتحد إلا إذا كانت محروسة بقيم ممن لا هوى له ، وهو الله الحق سبحانه ،

وإلا لفسد الكون :﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [المؤمنون:٧١] .

فكل تابع من الناس ، يؤمن بأن المتبوع فوقه في الصفات ، وليس في الكون إلا واحد فقط فيه كمال الصفات من العظمة والقوة والغنى ، وهو الله سبحانه ، وكل ما سواه تابع له ، مطيع لأمره الكوني ، مؤمن بأنه فوقه ، وهذا الإله الحق غني عن كل ما هو سواه :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾[فاطر:١٥] .

وكل ما سواه محتاج إليه ، وهذا الإله غني لا مصلحة له فيما يشرع لعباده ، أما المشرعون من البشر ، فلهم مصلحة فيما يشرعون ، ولهذا يظلمون غيرهم ليستفيدوا ، ويقدمون حقوقهم على حقوق غيرهم .

والله ﷻ رءوف بالعباد ، أمرهم أن يدخلوا جميعًا في الإسلام ، وأن يأخذوا جميع أحكام الإسلام بقوله سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[البقرة:٢١-٢٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ ﴾[البقرة:٢٠٨] .

فإذا دخلنا في الإسلام كلنا صلحت أحوالنا جميعًا ، وإذا دخل بعضنا دون بعض ، يشقى الذين يسلمون بالذين لا يُسلمون ؛ لأن الذي يسلم سيهذب سلوكه بالنسبة للآخرين ، ولأن نفع المسلم يكون لسواه ، ويشقى هو بشر من لم يسلم بالكيد له ، والمكر به ، وحربه ، والتسلط عليه .

ومن أخذ جميع أحكام الإسلام صلحت أحواله ، ومن أخذ البعض ، وترك البعض ، سيتعب ويشقى ، لأنه لفق حياته بحق وباطل ، ومن فعل ذلك فلا يفلح في الدنيا ولا في الآخرة :﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾[البقرة:٨٥] .

- **فقه الجهاد في سبيل الله :**

الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام ، ولا يتم الإيمان إلا بالجهاد في سبيل الله كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجرات:١٥] .

والجهاد في سبيل الله يكون بالنفس والمال كما قال سبحانه : ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[التوبة:٤١] .

ويكون الجهاد وهو أعلاه بالدعوة إلى الله ، وبيان الحق للناس، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾[الفرقان:٥١-٥٢] .

ويكون الجهاد كذلك من جهز الغازي أو خلفه في أهله ، فمن جهز غازياً فقد غزى ، ومن خلفه في أهله فقد غزى .

ويكون الجهاد باليد والقلب واللسان .

ويكون بالسعي على المحتاجين ، ويكون بمجاهدة النفس على طاعة الله: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٩] .

فأبواب الجهاد بفضل الله كثيرة ، وجهاد المجاهد ونفعه وثوابه لنفسه:﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦] .

- جهاد هذه الأمة :

الله ﷻ أمر بني إسرائيل أن يقتل بعضهم بعضًا فألقى عليهم ظلمة ، حتى جعل الذين لم يعبدوا العجل يقتلون الذين عبدوه ، فتاب الله عليهم كما قال سبحانه : ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [البقرة: ٥٤] .

فهذا الذي كان في شرع من قبلنا من الأمم السابقة من عقوبة العصاة ، عوضنا الله بخيرٍ منه وأنفع ، وهو جهاد المؤمنين عدوهم ، وتعريضهم أنفسهم بأن يقتلوا في سبيله بأيدي عدوهم لا بأيدي بعضهم بعضًا ، وذلك أعظم درجةً ، وأكثر أجرًا ، وأقل حرجًا كما قال سبحانه : ﴿ وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴿٧٠﴾ ﴾ [النساء:٦٦-٧٠] .

فالجهاد في سبيل الله من أعظم أوامر الله التي تحفظ الأمة من التهلكة ، وتحفظها من أعدائها .

والإلقاء بالأيدي إلى التهلكة ، هو الإقامة في الأموال وإصلاحها ، وترك الجهاد في سبيل الله ، فإمساك المال والبخل عن إنفاقه في سبيل الله ، والاشتغال به هو التهلكة التي هي ترك ما أمر الله به ، أو فعل ما نهى الله عنه ، فترك الجهاد في سبيل الله يوجب الذلة في الدنيا ، بتسليط العدو ، والاستيلاء على ديار المسلمين ، وصدهم عن دينهم ، كما يوجب العذاب الأليم في الآخرة ، وليس من انغمس في صفوف العدو ملقيًا بيده إلى التهلكة ، بل هو من شرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ، وجاهد في سبيل الله، كما قال سبحانه : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾[البقرة:٢٠٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾[البقرة: ١٩٣] .

والجهاد في سبيل الله يحفظ الأمة من أن يسفك بعضها دماء بعض .

والله سبحانه معبود في السماء والأرض ، فالصوامع مكان عبادة خواص النصارى البعيدة عن الناس ، وهي الدير، والبيع مكان عبادة عامة النصارى ، وهي الكنائس .

والصلوات مكان عبادة اليهود ، والمساجد مكان عبادة المسلمين : ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾[الجن:١٨] .

وهذه الأماكن لو هدمت، لزالت علاقة المخلوق بخالقه، ثم فسدت الأرض: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ

عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج:٤٠-٤١] .

فإذا هدمت أماكن العبادة لفسدت الأرض ، لأنها تُتلقى فيها فيوضات الحق على خلقه ، والناس منهم من يريد الخير ، ومنهم من يريد الشر ، فمن يريد ، الشر ، يدفع بمن يريد الخير ، ثم ينصر الله أهل الخير على أهل الشر فورًا .

والحرب ضرورة اجتماعية ، يدفع الله بها الشر والفساد عن الأمة ، والله يدفع أحيانًا بقدرته ، وأحيانًا بيد خلقه ، فيدفع بقدرته جل جلاله، كما قال سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [هود:١٠٢] .

وقال الله تعالى عن المكذبين للرسل : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت:٤٠] .

وأحيانًا يدفع الشر بيد خلقه بما شرعة من الجهاد في سبيل الله، كما قال سبحانه : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٩٣] .

والحروب لا تقوم بين حقين أبدًا ، لأنه لا يكون في الكون إلا حق واحد ، والحق منصور أبداً على الباطل : ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء:٨١] .

وإنما تقوم الحرب بين حق وباطل ، أو بين باطلين ، فالمعركة بين حق وباطل لا تطول ، لأن الباطل زهوق كما قال سبحانه: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء:٨١] .

والذي يطول فيه المعركة بين باطل وباطل ، لأن أحدهما ليس أولى بأن ينصره الله على الآخر ، لأن كلاهما عاصٍ لله ، فيفني بعضهم بعضًا بحسب قدرته وقوته وكثرته ، ومن رحمة الله ﷻ أن يدك هذا الفساد ، بذلك الفساد ليرفع الفساد عن الأمة ، ليأتي بعدهم من لا فساد عنده : ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الرعد:٣١] .

وسيظل الباطل في كل مكان ، وفي كل زمان ، في خيبة بعد خيبة ، وتدمير بعد تدمير ، وذل بعد ذل ، ما دام الحق الذي يدمغه مفقودًا ، فإذا جاء الحق زهق الباطل مباشرة : ﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه:١٢٣-١٢٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [ الحج :٤٠- ٤١ ] .

# ٤ - الخزانة الرابعة

- **أنواع الجهاد في سبيل الله :**

**الجهاد هو** : بذل الجهد لإعلاء كلمة الله .

**وينقسم الجهاد في سبيل الله إلى ثلاثة أقسام :**

جهاد النفس ، وجهاد المنافقين ، وجهاد الكفار المحاربين .

- **فالأول : جهاد النفس :**

وهو إرغام النفس على طاعة الله ، ومخالفتها في الدعوة إلى معصية الله :﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣ ﴾ [يوسف:٥٣] .

وقال الله تعالى ﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ١١ ﴾[الشمس:٧-١١].

وهذا أشد أنواع الجهاد ، لأن النفس والشيطان عدوان مستمران في إغواء الإنسان ، وأمره بكل شر وفساد :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٣٣ ﴾ [ لقمان :٣٣ ] .

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦ ﴾ [ فاطر:٥-٦ ] .

فإن كان الإنسان في بيئة فاسدة فهو أشد ؛ لأن البيئة الفاسدة تعصف به حتى ينتهك حرمة الله ، ويدع ما أوجب الله عليه :﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا

فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: ٦٨].

- **الثاني: جهاد المنافقين.**

ويكون بالعلم الشرعي لا بالسلاح، لأن المنافقين لا يقاتلون، وإنما يشككون في الدين، ويثيرون الشبهات ليصدوا عن سبيل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة:٧٣].

- **الثالث: جهاد الكفار المحاربين.**

ويكون بالسلاح والمال، كما قال سبحانه: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال: ٦٠].

وهذا الجهاد فرض كفاية، إذا قام به من يكفي به سقط الإثم عن الباقين، وصار في حقهم سنة، وهو ذروة سنام الإسلام.

فالجهاد في سبيل الله في قتال الأعداء فرض كفاية، لكن لابد فيه من تحقق شروطه؛ وهو أن يكون عند المسلمين قوة وقدرة يستطيعون بها القتال، وإن لم يكن لديهم قدرة ولا قوة فإن إقحام أنفسهم في القتال إلقاء بأنفسهم إلى التهلكة، وتعريض للمسلمين للهلكة والإبادة، ولهذا لم يوجب الله ﷻ على المسلمين القتال في مكة، لأنهم عاجزون ضعفاء، فلما هاجروا وصار لهم شوكة، أمروا بالقتال في سبيل الله، فإن لم يتوفر للجهاد شروطه، سقط عن المسلمين الجهاد كسائر الواجبات؛ لأن جميع

الواجبات يشترط فيها العلم بها ، والقدرة على فعلها كما قال سبحانه : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن:١٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾[البقرة: ٢٨٦] .

ويكون الجهاد في سبيل الله فرض عين على كل أحد في أربع حالات :

١- إذا حضر المسلم صف القتال .

٢- وإذا حاصر بلده العدو .

٣- وإذا استنفره الإمام .

٤- وإذا احتاج المسلمون إليه بنفسه كطبيب وطيار ونحوهما كما قال سبحانه : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾[البقرة:١٩٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[التوبة:٣٦] .

- **أقسام الجهاد في سبيل الله :**

**الجهاد نوعان :**

جهاد طلب .

وجهاد دفاع .

فجهاد الدفاع يجب من كل حال ، وأما جهاد الطلب والهجوم فلا يجب إلا إذا غلب على الظن أننا سننتصر على العدو ، وأما إذا غلب على الظن الهزيمة ، فلا يجوز أن يُغرر بالمسلمين ، فيساقون إلى المصارع لما فيه من المخاطرة والذل المسلمين ، لكن لو اضطر الإمام لذلك جاز ، لما فيه من

المصلحة واجتماع الكلمة : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾[ البقرة :١٩٠ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾ [المائدة:٢]

**والحروب التي تقع بين الناس ثلاث :**

حرب لا تكون ، وحرب لا تطول ، وحرب لا تنتهي .

فالحرب بين حقين لا تكون ، لأن الحق واحد ، والحرب بين حق وباطل لا تطول ، لأن الله مع الحق ، والله ينصر أهل الحق . ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[الروم:٤٧] .

وقال الله تعالى :﴿ وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾[الصافات: ١٧١ – ١٧٣] .

والحرب بين باطلين لا تنتهي ، فمن كان أقوى وأذكى وأكثر في الغالب ينتصر .

- **حكم قصد المشقة في العمل :**

السنة للمسلم أن يقصد العمل الذي يعظم أجره ، لعظم مشقته من حيث هو عمل كالجهاد والحج مثلًا ، فإن قصد نفس المشقة ، فقد خالف الشرع؛ لأن الله لا يقصد بالتكليف نفس المشقة، ولا يجوز التقرب إلى الله بالمشاق ، لأن القرب كلها تعظيم للرب سبحانه ، وليس عين المشقة تعظيمًا ولا توقيرًا له ، والأجر على قدر منفعة العمل ، لا على قدر المشقة والتعب وكثرة الثواب مع المشقة ، لا لأن المشقة مقصودة بذاتها ، بل لأن العمل مستلزمٌ للمشقة ، كالجهاد والحج مثلًا :﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ

وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ [ الحج : ٧٨ ] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : « يا رسول الله يَصْدُرُ النَّاسُ بِنُسُكَيْنِ وَأَصْدُرُ بِنُسُكٍ فقال لها : انْتَظِرِي ، فَإِذَا طَهَرْتِ فَاخْرُجِي إِلَى التَّنْعِيمِ فَأَهِلِّي مِنْهُ ثُمَّ الْقَيْنَا بمكان كذا، وَلَكِنَّهَا عَلَى قَدْرِ نفَقَتِكِ أو نَصَبِك ». متفق عليه[1] .

- **وقت الخروج للجهاد في سبيل الله :**

السنة أن يخرج الأمام بالجيش يوم الخميس ، فإن كانت مصلحة أو حاجة أو عذر ، خرج بهم بحسبها في أي يوم .

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، « أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ يَوْمَ الخَمِيسِ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ وَكَانَ يُحِبُّ أَنْ يَخْرُجَ يَوْمَ الخَمِيسِ » . أخرجه البخاري[2] .

- **حكم توديع المجاهدين في سبيل الله :**

من السنة توديع المسافرين والمجاهدين في سبيل الله .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، أَنَّهُ قَالَ : « بَعَثنا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَعْثٍ ، فَقَالَ لَنَا : إِنْ لَقِيتُمْ فُلانًا وَفُلانًا ، لِرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ سَمَّاهُمَا ، فَحَرِّقُوهُمَا بِالنَّارِ ، قَالَ : ثُمَّ أَتَيْنَاهُ نُوَدِّعُهُ حِينَ أَرَدْنَا الْخُرُوجَ ، فَقَالَ : إِنِّي كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ أَنْ تحرِّقُوا فُلانًا وَفُلانًا بِالنَّارِ ، وَإِنَّ النَّارَ لا يُعَذِّبُ بِهَا إِلا اللهُ ، فَإِنْ أَخَذْتمُوهُمَا فَاقْتُلُوهُمَا » . أخرجه البخاري[3] .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ١٧٨٧)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٢٦/ ١٢١١).

(٢)أخرجه البخاري برقم: ( ٢٩٥٠).

(٣)أخرجه البخاري برقم: ( ٢٩٥٤).

• **حكم من حبسه العذر عن الغزو :**

عَنْ أَنَسٍ ﷺ ، أَنّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ فِي غَزَاةٍ ، فَقَالَ : « إِنَّ أَقْوَامًا بِالمَدِينَةِ خَلْفَنَا مَا سَلَكْنَا شِعْبًا، وَلَا وَادِيًا إِلَّا وَهُمْ مَعَنَا فِيهِ حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ » . أخرجه البخاري[1] .

وعن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ أن النبي ﷺ قال : « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى » . متفق عليه[2] .

• **أحوال المجاهدين في سبيل الله :**

**المجاهد في سبيل الله له أربع حالات :**

**الأولى** : المسلم القادر ماليًا وبدنيًا ، فهذا يجب عليه الجهاد بنفسه وماله .

**الثاني** : القادر بدنيًا ، العاجز ماليًا ، فهذا يجب عليه الجهاد بنفسه فقط .

**الثالث** : القادر ماليًا ، العاجز بدنيًا ، هذا يجب عليه الجهاد بماله دون نفسه.

**الرابع** : العاجز بدنيًا وماليًا ، فهذا لا يجب عليه الجهاد ، فعليه بالدعاء للمسلمين المجاهدين .

قال الله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾[البقرة: ١٩٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾[ التوبة :٩١- ٩٢ ] .

---

(١)أخرجه البخاري برقم: ( ٢٨٣٩).

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (١ )، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٥٥/ ١٩٠٧ ).

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ ، أَنّ النَّبِيَّ ﷺ قال : « جَاهِدُوا المُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ » . أخرجه أبو داود والنسائي بسند صحيح[1] .

- **درجات المجاهدين في سبيل الله :**

قال الله تعالى : ﴿ لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾ [النساء:٩٥-٩٦] .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، جاهد فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا ، فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا نُبشر النَّاسَ ؟ قَالَ : إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ الله ما بين الدَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ ».أخرجه البخاري[2].

وعَنْ عثمان ﷺ ، قال : قال النبي ﷺ : « رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي ، فَصَعِدَا بِي الشَّجَرَةَ فَأَدْخَلاَنِي دَارًا هِيَ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ ، لَمْ أَرَ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا ، قَالاَ : أَمَّا هَذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ ». متفق عليه[3].

---

(١)صحيح/ أخرجه أبو داود برقم: (٢٥٠٤)، وأخرجه والنسائي برقم: (٣٠٩٦).

(٢)أخرجه البخاري برقم(٧٤٢٣) .

(٣) متفق عليه ، أخرجه البخاري برقم(٢٧٩١) ، ومسلم برقم (٢٢٧٥).

• **حكم جهاد النساء :**

القتال في سبيل الله ، والإغارة ، والكر والفر ، والضرب بالسيوف والبنادق ونحوها من وسائل الجهاد ، من خصائص الرجال .

ويجوز عند الحاجة خروج النساء مع الرجال لخدمة المجاهدين في سبيل الله ، ومداواة الجرحى ، وسقي الماء ونحو ذلك مع الاحتشام ، وعدم الخلوة :﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ ﴾[النساء:٣٤] .

قال الله تعالى : ﴿ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ ﴾[النور:٣٠- ٣١] .

وعَنْ أَنَسٍ بن مالك ﷺ ، قَالَ : « كَانَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَغْزُو بِأُمِّ سُلَيْم ، وَنِسْوَةٍ مِنَ الأَنْصَارِ مَعَهُ إِذَا غَزَا ، فَيَسْقِينَ المَاءَ ، وَيُدَاوِينَ الجَرْحَى » . أخرجه مسلم(١) .

• **حكم استئذان الوالدين في الجهاد في سبيل الله :**

**أولاً** : لا يجاهد المسلم تطوعًا إلا بإذن والديه ؛ لأن الجهاد فرض كفاية ، وبر الوالدين فرض عين ، في كل حال : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤ ﴾[ الإسراء :٢٣- ٢٤ ] .

أما إذا وجب الجهاد كما سبق فيجاهد بلا إذنهما .

---

(١)أخرجه مسلم برقم: ( ١٣٥/ ١٨١٠ ).

**ثانيًا** : إذا كان التطوع فيه منفعة للإنسان ، ولا ضرر على والديه فيه ، فلا يحتاج إلى إذنهما فيه كقيام الليل ، وصيام التطوع ونحوهما ، فإن كان فيه ضرر على الوالدين أو أحدهما كجهاد التطوع فلهما منعه ، وعليه أن يمتنع ، لأن طاعة الوالدين في غير معصية الله واجبة ، والتطوع ليس بواجب .

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : « سألت النبي ﷺ أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللهَّ ؟ قَالَ : الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا ، قَالَ : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ ، قَالَ : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : الجِْهَادُ فِي سَبِيلِ اللهَّ » . متفق عليه[1] .

وعَنْ عَبْدِ اللهَّ بْنِ عَمْرٍو ﷺ قال : « جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَاسْتَأْذَنَهُ فِي الجِْهَادِ فَقَالَ : أَحَيٌّ وَالِدَاكَ ؟ قَالَ: نَعَمْ . قَالَ: « فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ ». متفق عليه[2] .

- **حكم استئذان صاحب الدين عند الجهاد في سبيل الله :**

لا يتطوع بالجهاد مدين لا وفاء له إلا أن يستأذن من صاحب الدين ، أما إذا وجب الجهاد فيخرج بلا إذنه .

عَنْ أَبِيْ قَتَادة ﷺ أن رَسُولِ اللهَّ ﷺ « قَامَ فِيهِمْ فَذَكَرَ لهَُمْ أَنَّ الجِْهَادَ فِي سَبِيلِ اللهَّ وَالإِيمَانَ بِاللهَّ أَفْضَلُ الأَعْمَالِ ، فَقَامَ رَجُلٌ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهَّ ، أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللهَّ تُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ ؟ فَقَالَ له الرسول ﷺ : نَعَمْ ، إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ اللهَّ ، وَأَنْتَ صَابِرٌ محُْتَسِبٌ مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ ، ثُمَّ قَالَ الرسول ﷺ : كَيْفَ قُلْتُ ؟ قال : أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللهَّ تُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ : نَعَمْ ، وَأَنْتَ صَابِرٌ محُْتَسِبٌ مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ إِلا الدَّيْنَ ، فَإِنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام قَالَ لِي ذَلِك ». أخرجه مسلم[3] .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٥٢٧)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٣٩/ ٨٥).

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٣٠٠٤ )، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٥/ ٢٥٤٩).

(٣)أخرجه مسلم برقم: ( ١١٧/ ١٨٨٥).

• **حكم الكافر إذا قتل مسلماً ثم أسلم وقتل :**

عن أبي هريرةﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « يَضْحَكُ اللهُ إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ ، يَدْخُلَانِ الجَنَّةَ ، يُقَاتِلُ هَذَا فِي سَبِيلِ اللهِ ، فَيُقْتَلُ ، ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ عَلَى الْقَاتِلِ فيستشهد » . متفق عليه[1] .

• **عقوبة ترك الجهاد في سبيل الله :**

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [التوبة:٣٨-٣٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [البقرة:١٩٥] .

وعن عمر ﷺ أن الرسول ﷺ يقول : « إذا ضَنَّ الناس بِالدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ ، وَتَبَايَعُوا بِالْعَيْنِ وَاتَّبَعُوا أَذْنَابَ الْبَقَرِ ، وَتَرَكُوا الجِهَادَ في سَبِيلِ اللهِ انزل الله بِهِمْ بَلاَءً فلم يَرْفَعْهُ عَنْهُمْ حتى يُرَاجِعُوا دِينَهُمْ ». أخرجه أحمد وأبو داود[2] .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول ﷺ : « مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ ، وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ » . أخرجه مسلم[3] .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ٢٨٢٦، واللفظ له، ومسلم برقم: ١٢٨/ ١٨٩٠.

(٢) صحيح/ أخرجه أحمد برقم( ٤٨٢٥ ) ، وأبو داود برقم ( ٣٤٦٢ ) .

(٣)أخرجه مسلم برقم( ١٥٨/ ١٩١٠ ).

• **حكم الاستعانة بالكفار والمشركين في الجهاد :**

الجهاد في سبيل الله عبادة من العبادات فلا يصح إلا من مسلم ، وتجوز الاستعانة بالمنافقين والفساق على قتال الكفار.

وقد كان عبد الله بن أبي ومن معه من المنافقين يخرجون للقتال مع رسول الله ﷺ ، وأما قتال الكفار مع المسلمين ضد أعدائهم **فلا يجوز إلا بثلاثة شروط :**

**الأول** : أن تدعوا الحاجة إلى ذلك كقلة المسلمين أو كثرة الفجار .

**الثاني** : أن يعلم من الكفار حسن الرأي في الإسلام ، وميلهم إليه .

**الثالث** : أن يكون الأمر والتدبير بيد المسلمين ، ومتى استعان بهم إمام المسلمين أسهم لمن شارك معهم من الغنيمة كالمسلم ، لأن النبي ﷺ استعان بصفوان بن أميه وهو مشرك ، وأعطاه من الغنيمة وأكثر ، فكان ذلك سببًا في إسلامه :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ ﴾[المائدة :٥١ ] .

وعن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنها قالت : « خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ قِبَلَ بَدْرٍ ، فَلَمَّا كَانَ بِحَرَّةِ الْوَبَرَةِ أَدْرَكَهُ رَجُلٌ قَدْ كَانَ يُذْكَرُ مِنْهُ جُرْأَةٌ وَنَجْدَةٌ ، فَفَرِحَ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ حِينَ رَأَوْهُ ، فَلَمَّا أَدْرَكَهُ قَالَ لِرَسُولِ الله ﷺ: جِئْتُ لِأَتَّبِعَكَ ، وَأُصِيبَ مَعَكَ ، قَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: تُؤْمِنُ بِالله وَرَسُولِهِ ؟ . قَالَ : لَا ، قَالَ : فَارْجِعْ ، فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ . ، قَالَتْ : ثُمَّ مَضَى حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالشَّجَرَةِ أَدْرَكَهُ الرَّجُلُ ، فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، قَالَ : فَارْجِعْ ، فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ . ، قَالَ : ثُمَّ رَجَعَ

فَأَدْرَكَهُ بِالْبَيْدَاءِ ، فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ : تُؤْمِنُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ؟. قَالَ : نَعَمْ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَانْطَلِقْ » . أخرجه مسلم[1].

- **ما يجب على قائد جيش المسلمين :**

**يجب على إمام المسلمين أو من ينوب عنه ما يلي :**

**أولًا** : أن يتفقد الجيش والأسلحة عند المسير إلى العدو .

**ثانيًا** : أن يرغب الناس في الجهاد ، ويمنع المخذل والمرجف ، وكل من لا يصلح للجهاد في سبيل الله ، ولا يستعين بكافر إلا لضرورة كما سبق .

**ثالثًا** : أن يعد الزاد ، وما يحتاجه في الجهاد ، وأن يسير بالجيش برفق ، ويطلب لهم أحسن الطرق والمنازل .

**رابعًا** : أن يمنع الجنود من الفساد والمعاصي، ويحدثهم بما يقوي نفوسهم ، ويرغبهم في الشهادة في سبيل الله ، ويأمرهم بالصبر ، والاحتساب ، والمحافظة على الطاعات .

**خامسًا** : أن يقسم الجيش ، ويعين عليهم العرفاء والحراس ، ويعقد الألوية والرايات ، ويسبقهم إلى العدو عند الفزع .

**سادسًا** : أن يشاور في الجهاد أهل الدين والرأي والخبرة

**سابعًا** : أن يبث العيون على الأعداء ، ليعرف عددهم وأخبارهم .

**ثامنًا** : أن يوصي جنوده بالتوكل على الله ، وكثرة ذكره والثناء عليه ، ولزوم الاستغفار ، والرحمة فيما بينهم ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ولزوم تقوى الله ﷻ .

---

(١)أخرجه مسلم برقم: ١٥٠/ ١٨١٧ .

**تاسعًا** : أن يكون قدوه حسنة للمجاهدين ومن معه ، وينزلهم منازلهم ، ولا يستأثر عليهم بشيء ، ولا يأمرهم بمعصية الله .

**عاشرًا** : أن يزور مرضاهم ، ويواسي مصابهم ، ويجازي المحسن ، ويعاقب المسيء ، ويحسن إلى الضعيف: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١ ﴾[الصف:١٠-١١] .

وقال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢ ﴾ [المائدة:٢] .

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ۝٥٩ ﴾[النساء:٥٩].

وعن معقل بن يسار المزني ﷺ قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : مَا مِنْ عَبْدٍ يَ ْ تَ ْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً ، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ » . متفق عليه[1] .

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، قَالَ : « كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ ، وَأَجْوَدَ النَّاسِ ، وَلَقَدْ فُزِّعَ أَهْلُ المَدِينَةِ فكان رسول الله ﷺ سبقهم على فَرَسٍ وقال : وجدناه بحرًا » . متفق عليه[2] .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٧١٥٠)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٢١/ ١٤٢ ).

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٢٨٢٠)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٤٨/ ٢٣٠٧).

# ٥- الخزانة الخامسة

- **ما يجب على المجاهدين في سبيل الله :**

**يجب على المسلمين المجاهدين في سبيل الله ما يلي :**

**أولًا** : طاعة الإمام أو نائبه في غير معصية الله .

**ثانيًا** : الصبر على تحمل المشاق في سبيل الله ، وعدم الفرار من الزحف ، والثبات أمام العدو .

**ثالثًا** : الإخلاص في العمل ، ولزوم التقوى في كل حال .

**رابعًا** : التعاون على البر والتقوى ، وإظهار القوة والجَلَد أمام الأعداء ، والتراحم فيما بينهم .

**خامسًا** : اجتناب المعاصي ، فإنما يُنصر المسلمون بمعصية عدوهم لله .

**سادسًا** : الاستعانة بالله وحده في جميع الأمور، مع الأخذ بالأسباب المشروعة.

**سابعًا** : الاستعداد لامتثال جميع أوامر قائد الجيش المشروعة ، ليحصل له جزيل ثوابها .

**ثامنًا** : عدم الحمل على العدو إلا بإذن القائد ، وإن فاجأ المسلمين عدو يخافون شره ، فلهم أن يدافعوا عن أنفسهم .

**تاسعًا** : الاشتغال بالطاعات من ذكر وصلاة وتلاوة قرآن ، وخدمة المجاهدين ، والنصح لهم .

**عاشرًا** : اجتناب الغيبة والنميمة ، والقيل والقال ، والإشاعات والإرجاف ، وإساءة الظن ونحو ذلك مما يقلب الأمور ، ويغرق الجنود :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ

وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء:٥٩].

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنفال:٤٥ - ٤٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ﴾ [الفتح:٢٩] .

عَنْ أَبِي [illegible] أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ [illegible] إِلَى [illegible] قَالَ : « يَسِّرَا وَلا تُعَسِّرَا ، وَبَشِّرَا وَلا تُنَفِّرَا ، وَتَطَاوَعَا وَلا تَخْتَلِفَا » . متفق عليه[1] .

- **حكم من هاجم العدو وحده :**

من ألقى نفسه في أرض العدو ، أو اقتحم في جيوش الكفار المعتدين ، بقصد التنكيل بالأعداء ، وزَرْع الرعب في قلوبهم ، خاصة مع اليهود المعتدين ، ثم قُتل ، فقد نال أجر الشهداء الصادقين ، والمجاهدين الصابرين .

وهذا أقل خسارة ، وأكثر نكاية بالأعداء .

ومن خشي الأسر من المسلمين ، ولا طاقة له بعدوه ، فله أن يُسلِّم نفسه ، ويجعل الله له فرجًا ، وله أن يقاتل حتى يُقتل أو يغلب ، وذلك يختلف

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٣٠٣٨)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٧/ ١٧٣٣ ).

باختلاف الإيمان والقدرة في كل إنسان :﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾[النساء:٧٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾ [النساء:٨٤] .

- **نوم المجاهد بجوار سلاحه :**

عَنْ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا « أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ قِبَلَ نَجْدٍ ، فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ الله ﷺ قَفَلَ مَعَهُ ، فَأَدْرَكَتْهُمُ القَائِلَةُ فِي وَادٍ كَثِيرِ العِضَاهِ ، فَنَزَلَ رَسُولُ الله ﷺ وَتَفَرَّقَ النَّاسُ يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ ، فَنَزَلَ رَسُولُ الله ﷺ تَحْتَ سَمُرَةٍ وَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ ، وَنِمْنَا نَوْمَةً ، فَإِذَا رَسُولُ الله ﷺ يَدْعُونَا ، وَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ ، فَقال : إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ عَلَيَّ سَيْفِي وَأَنَا نَائِمٌ ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِ ِ يَده صَلْتاً ، فَقال: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ فَقُلْتُ : اللهُ ثَلاثاً وَلَمْ يُعَاقِبْهُ وَجَلَسَ » . متفق عليه[1] .

- **آداب الجهاد في سبيل الله :**

**أهم آداب المجاهد في سبيل الله ما يلي :**

**أولًا** : التوكل على الله ، وحسن تقواه ، وطلب النصر منه وحده: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[التغابن:١٣] .

**ثانيًا** : الدعاء والصبر والإخلاص لله في العمل ، وذكر الله وتكبيره .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٢٩١٠)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٣/ ٨٤٣) .

**ثالثًا** : اجتناب المعاصي ، فهي أعظم سبب لتسلط الكفار على المسلمين .

**رابعًا** : عرض الإسلام على الكفار الذين لم تبلغهم الدعوة ، فإن أبوا فالجزية ، فإن أبوا حل قتالهم كما سبق .

**خامسًا** : البعد عن الفخر والعجب والرياء .

**سادسًا** : سؤال الله العافية ، وعدم تمني لقاء العدو ، والصدق في القتال .

**سابعًا** : عدم تحريق الآدمي والحيوان بالنار .

**ثامنًا** : عدم الغدر ، وعدم قتل النساء والأطفال والشيوخ الكبار والرهبان إذا لم يقاتلوا ، وكل من اجتنب الحرب لا يحل قتله ، فإن قاتلوا ، أو حرَّضوا ، أو كان لهم رأي وتدبير في الحرب قُتلوا: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال:٩-١٠] .

وقال الله تعالى : ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران: ١٦٠ ] .

وقال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنفال:٤٥ - ٤٧] .

وَعَنْ بُرَيْدَةَ رضي الله عنه قَالَ : « كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيراً عَلَى جَيْشٍ أو سَرِّيَةٍ أَوْصَاهُ في خَاصَّتِهِ بِتَقَوَى الله وَمَنْ مَعَهُ مِنَ المُسْلِمِينَ خَيْراً ، ثُمَّ قَالَ : اغْزُوا باسْمِ اللهِ في سَبيلِ اللهِ ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ ، اغْزُوا وَلاَ تَغُلُّوا وَلاَ

تَغْدِرُوا وَلاَ تمثُلُوا وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيداً ، وإذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ المُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلاثِ خِصَالٍ (أوْ خِلالٍ) ، فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إلى الإسْلام ، فإنْ أَجَابُوكَ فاقْبَلْ مِنْهُمْ وكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إلى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إلى دَارِ المُهَاجِرِينَ ، وأخْبِرْهُمْ أنَّهُمْ إنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهُمْ مَا عَلَى المُهَاجِرين ، فَإنْ أَبَوْا أنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأخْبِرْهُمْ أنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ المُسْلِمينَ يجْري عَلَيْهِمْ حُكْمُ الله الَّذي يجْرِي عَلَى المُؤْمِنِينَ ، وَلاَ يَكُونُ لهُمْ في الغَنِيمَةِ وَالفَيْءِ شَيءٌ ، إلَّا أنْ يُجَاهِدُوا مَعَ المُسْلِمِينَ ، فَإنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الجِزْيَةَ ، فَإنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ، فَإنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِالله وَقَاتِلْهُمْ » . أخرجه مسلم[1] .

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قَالَ :« وُجِدَتِ امْرَأةٌ مَقْتُولَةٌ في بَعْضِ مَغَازِي رَسُولِ الله ﷺ فَنَهَى رَسُولُ الله ﷺ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ » . متفق عليه[2] .

وَعَنْ أبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أنَّهُ قَالَ : « بَعَثَنَا رَسُولُ الله ﷺ فِي بَعْثٍ فَقالَ : إنْ وَجَدْتُمْ فُلاناً وَفُلاناً فَأَحْرِقُوهُمَا بِالنَّارِ . ثُمَّ قال رَسُولُ الله ﷺ حِينَ أَرَدْنَا الخُرُوجَ : إنِّي أَمَرْتُكُمْ أنْ تحْرِقُوا فُلاناً وَفُلاناً ، وَإنَّ النَّارَ لا يُعَذِّبُ بِهَا إلاَّ اللهُ ، فَإنْ وَجَدْتمُوهُمَا فَاقْتُلُوهُمَا » . أخرجه البخاري[3] .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ : قالَ رَسُولُ الله ﷺ : لمُعَاذِ بْنِ جَبَل حِينَ بَعَثَهُ إلَى اليَمَنِ : « إنَّكَ سَتَأتِي قَوْماً أهْلَ كِتَابٍ ، فَإذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إلَى : أنْ يَشْهَدُوا أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ ، وَأنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله ، فَإنْ هُمْ أطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأخْبِرْهُمْ أنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ

---

(١)أخرجه مسلم برقم: ( ٣/ ١٧٣١).

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٣٠١٥)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٢٥/ ١٧٤٤ ).

(٣)أخرجه البخاري برقم: ( ٣٠١٦).

وَلَيْلَةٍ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً ، تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ » . متفق عليه[1] .

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ : « حَرَّقَ النَّبِيُّ ﷺ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ » . متفق عليه[2] .

- **ما يقوله المسلم إذا خاف العدو :**

يقول : « اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ » . أخرجه مسلم[3] .

وَعَنْ أَبِي بُرْدَةَ أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذا خَافَ قَوْماً قَالَ : « اللَّهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ وَنَعُوذ بكَ مِنْ شُرُورِهِمْ ». أخرجه أحمد وأبو داود بسند صحيح[4] .

- **الاستنصار بالضعفاء**

عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : رَأَى سَعْدٌ أَنَّ لَهُ فَضْلاً عَلَى مَنْ دُونَهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلاَّ بِضُعَفَائِكُمْ » . أخرجه البخاري[5] .

وَفِي لفظ : « انَّمَا يَنْصُرُ اللهُ هَذِهِ الأُمَّةَ بِضَعِيفِهَا بِدَعْوَتِهِمْ وَصَلاَتِهِمْ وَإِخْلاَصِهِمْ » . أخرجه النسائي بسند صحيح[6] .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ١٤٩٦)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٢٩/ ١٩).

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٢٣٢٦)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٢٩/ ١٧٤٦ ).

(٣)أخرجه مسلم برقم: ( ٧٣/ ٣٠٠٥).

(٤)صحيح/ أخرجه أبو داود برقم: ( ١٥٣٧)، وأخرجه أحمد برقم: ( ١٩٧٢٠).

(٥)أخرجه البخاري برقم: ( ٢٨٩٦).

(٦) صحيح/ أخرجه النسائي برقم: (٣١٧٨).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ » . أخرجه مسلم[1] .

- **حكم الخدعة والكذب في الحرب :**

يجوز في الحرب الخداع والكذب من أجل تضليل العدو ، بشرط ألا يشتمل ذلك على نقض عهد ، أو إخلال بأمان .

ومن الخداع أن يوهم العدو بأن جنود المسلمين كثرة كاثرة ، وأسلحته قوة لا تقهر .

ومن الخداع أن الإمام إذا أراد غزو بلد في الشمال مثلًا ، أظهر أنه يريد الجنوب ، فالحرب خدعة .

**وفي هذا الفعل فائدتان :**

**الأولى** : أن خسائر الأموال والأرواح تقل بين الطرفين ، فتحل الرحمة محل القسوة .

**الثانية** : توفير طاقة جيش المسلمين لمعركة لا تجدي فيها الخدعة .

عَنْ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ قالَ : كَانَ رَسُولُ الله ﷺ: « قَلَّمَا يُرِيدُ غَزْوَةً يَغْزُوهَا إِلاَّ وَرَّى بِغَيْرِهَا، حَتَّى كَانَتْ غَزْوَةُ تَبُوكَ، فَغَزَاهَا رَسُولُ الله ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَراً بَعِيداً وَمَفَازاً، وَاسْتَقْبَلَ غَزْوَ عَدُوٍّ كَثِيرٍ، فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ، لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ عَدُوِّهِمْ، وَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ». متفق عليه[2].

---

(١)أخرجه مسلم برقم: (١٣٨/ ٢٦٢٢ ).

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٢٩٤٨ )، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٥٣/ ٢٧٦٩).

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « الحَرْبُ خَدْعَةٌ » . متفق عليه[1] .

وَعَنْ أُمِّ كُلْثُوم بِنْت عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَكَانَتْ مِنَ المُهَاجِرَاتِ الأُوَلِ ، اللاَّتِي بَايَعْنَ النَّبِيَّ ﷺ أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ يَقُولُ : « لَيْسَ الكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ ، وَيَقُولُ خَيْراً وَيَنْمِي خَيْراً . قَالَ ابْنُ شِهَابٍ : وَلَمْ أَسْمَعْ يُرَخَّصُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ كَذِبٌ إِلاَّ فِي ثَلاَثٍ ، الإِصْلاَحُ بَيْنَ النَّاسِ ، وَحَدِيثُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ وَحَدِيثُ المَرْأَةِ زَوْجَهَا ». متفق عليه[2].

- **ترغيب المجاهدين في قتال العدو :**

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾[الأنفال:٦٥].

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قالَ : « خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الخَنْدَقِ ، فَإِذَا المُهَاجِرُونَ وَالأنصار يحْفِرُونَ فِي غَدَاةٍ بَارِدَةٍ ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ ، عَبِيدٌ يَعْمَلُونَ ذَلِكَ لَهُمْ ، فَلَمَّا رَأى مَا بِهِمْ مِنَ النَّصَبِ وَالجُوعِ ، قَالَ : اللَّهُمَّ إِنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخِرَهْ فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالمُهَاجِرَهْ فَقَالُوا مُجِيبِينَ لَهُ : نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا عَلَى الجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا » . متفق عليه[3] .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٣٠٢٩، واللفظ له، ومسلم برقم: ١٥٤/ ١٠٦٦ .

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٢٦٩٢)، ومسلم برقم: ( ١٠١/ ٢٦٠٥)، واللفظ له.

(٣)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٣٧٩٦)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٣٠/ ١٨٠٥).

• **فضل الطليعة في الحرب :**

عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ : قالَ النَّبِيُّ ﷺ : « مَنْ يَأْتِينِي بِخَبَرِ القَوْم » . يَوْمَ الأَحْزَابِ ، قال الزُّبَيْرُ : أَنَا ، ثُمَّ قالَ : مَنْ يَأْتِينِي بِخَبَرِ القَوْم . قال الزُّبَيْرُ : أَنَا ، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ : إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيّاً ، وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ » . متفق عليه(١) .

• **فضل الجهاد على الخيل :**

عَنْ عُرْوَةَ البَارِقِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « الخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الخَيْرُ إِلَى يَوْم القِيَامَةِ الأَجْرَ وَالمَغْنَمَ » . متفق عليه(٢) .

• **حكم البيعة عند القتال :**

من السنة أن يبايع الإمام المجاهدين على الصبر أو الموت ؛ تشجيعًا لهم ، وتقوية لمعنوياتهم : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الفتح:١٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الفتح:١٨] .

عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ ﷺ قَالَ : « قُلْتُ لِأَبِي عُبَيْدٍ : عَلَامَ أَيِّ شَيْءٍ بَايَعْتُمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ ؟ قَالَ : عَلَى المَوْتِ » . متفق عليه(٣) .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٢٨٤٦)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٤٨/ ٢٤١٥ ).

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٤١٦٩ )، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٨٠/ ١٨٦٠).

(٣)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٢٨٥٠)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٩٧/ ١٨٧٢).

• **ما يقوله إذا رأى ملامح النصر :**

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [الصافات: ١٧١– ١٧٧].

وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ « أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ إِلَى خَيْبَرَ ، فَجَاءَهَا لَيْلاً ، وَكَانَ إِذَا جَاءَ قَوْماً بِلَيْلٍ لا يُغِيرُ عَلَيْهِمْ حَتَّى يُصْبِحَ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ خَرَجَتْ يَهُودُ بِمَسَاحِيهِمْ وَمَكَاتِلِهِمْ ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا : مُحَمَّدٌ وَاللهِ ، مُحَمَّدٌ وَالْخَمِيسُ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : اللهُ أَكْبَرُ ، خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ». متفق عليه(١).

• **أثر اليقين والصبر في النصر :**

بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين ، كما قال سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة:٢٤] .

فإذا قام المسلم بالحق ، وكان قيامه بالله ، ولله ، لم يقم له شيء ، ولو كادته السماوات والأرض وما فيهن لكفاه الله مؤنتها : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [ التغابن :١٣ ].

وإنما يؤتى العبد من تفريطه أو تقصيره في هذه الأمور الثلاثة أو في بعضها . فمن قام في باطل لم يُنصر ، وإن نُصر فلا عاقبة له ، فهو مذموم لا حامد له ، مخذول لا ناصر له كما قال سبحانه : ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الإسراء:٢٢] .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٢٩٤٥ ) ، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٨٧/ ١٣٦٥).

وإن قام في حق ، لكن لم يقم لله ، وإنما قام لطلب الجاه والحمد من الناس ، فهذا لا يُنصر ؛ لأن النصر لمن جاهد ، لتكون كلمة الله هي العليا .
والله يقول : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾[الروم:٤٧] .
وإن نُصر فبحسب ما معه من الحق والصبر ، فالصبر منصور أبدًا ؛ فإن كان الصابر محقًا كانت له العاقبة الحسنة ، وإن كان مبطلًا لم تكن له عاقبة .
وإن قام بالحق معتمداً على غير الله من الأسباب لم يُنصر :﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾[التوبة:٢٥] .
وقال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾[التغابن:١٣] .

- **أقسام القتال :**

**ينقسم القتال بين الناس إلى ثلاثة أقسام :**
**الأول** : قتال بين المسلمين والكفار .
**الثاني** : قتال بين المسلمين مع بعضهم .
الثالث: قتال بين الكفار مع بعضهم .
فإذا كان القتال بين المسلمين والكفار ، نَصَر الله المسلمين على الكفار بعد استكمال ما ستطيعون من قوة مقرونة بالإخلاص ، والتوكل على الله وحده لا شريك له : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [محمد:٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [ غافر :٥١- ٥٢ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾[الحج:٤٠-٤١] .

أما قتال المؤمنين مع بعضهم ، فيجب الإصلاح بينهم ، فإن لم يمكن الصلح قاتلْنا الفئة الباغية لتعود إلى الحق الذي عليه الأمة : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾[الحجرات:٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٠٣] .

أما قتال الكفار مع بعضهم ، فهؤلاء يهلك الله الظالم بالظالم ، ويَكِلهم إلى أسبابهم ، وينصر الدولة الكافرة العادلة على الظالمة ، ويسلط بعضهم على بعض ، وقتلاهم جميعًا في النار : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾[النساء:٧٦] .

• **وقت القتال في سبيل الله :**

أفضل أوقات القتال في سبيل الله أول النهار ، فإن لم يكن فبعد زوال الشمس ، أما إذا فاجأ العدو المسلمين ، وأغار عليهم ، فيجب رده وصده في أي وقت أغار فيه .

عَنْ النُّعْمَان بن مُقَرِّنٍ ﷺ قَالَ : « شَهِدْتُ رَسُولَ الله ﷺ إِذا لَمْ يُقَاتِلْ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ أَخَّرَ القِتَالَ حَتَّى تَزُولَ الشَّمْسُ وَتَهُبَّ الرِّيَاحُ وَيَنْزِلَ النَّصْرُ » . أخرجه أبو داود والترمذي[1] .

• **حكم الإغارة ليلًا :**

تجوز الإغارة على الكفار ليلًا ، ويجوز قتل الكفار مع صبيانهم ونسائهم في حال البَيَات ، ولا يجوز قتل النساء والصبيان حال التميُّز ، أما النساء فلضعفهن ، وأما الصبيان فلقصورهم عن فعل الكفر ، ولما في استبقائهم جميعًا من الانتفاع بهم إما بالرق، أو بالفداء فيمن يجوز أن يفادى به الأسرى.

عَنِ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ ﷺ قَالَ : « سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الذَّرَارِيِّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يُبَيَّتُونَ فَيُصِيبُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ . فَقَالَ : هُمْ مِنْهُمْ » . متفق عليه[2]

• **حكم القتال في الأشهر الحُرم ، وعند المسجد الحرام :**

لا يجوز أن نبدأ الكفار بالقتال في الأشهر الحرم ، ولا عند المسجد الحرام ، إلا عند الحاجة ، فإن قاتلونا فيهما قاتلناهم .

---

(١) صحيح/ أخرجه أبو داود برقم: ( ٢٦٥٥ ) ، وأخرجه الترمذي برقم: ( ١٦١٣ ) .

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٣٠١٢ )، ومسلم برقم: ( ٢٦/ ١٧٤٥ )، واللفظ له.

**والأشهر الحرم أربعة ؛ ثلاثة سرد ، وواحد فرط وهي** : ذو القعدة ، وذو الحجة ، ومحرم ، ورجب: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[التوبة:٣٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ ﴾[البقرة:٢١٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ ﴾[البقرة:١٩١] .

# ٦- الخزانة السادسة

• **حكم الدعاء عند القتال :**

السنة أن يستغيث المجاهدون بربهم ، ويسألونه النصر ، لأنه الناصر الذي يملك النصر وحده لا شريك له : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ [ الفرقان :٣١ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنفال:٩-١٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة:١٨٦] .

وَعَنْ عَبْد الله بْن أَبِي أَوْفَى ﷺ « أَنّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ فِي بَعْضِ أَيّامِهِ الّتِي لَقِيَ فِيهَا العَدُوّ ، يَنْتَظِرُ حَتّى إِذَا مَالَتِ الشّمْسُ قَامَ فِيهِمْ فَقَالَ : يَا أَيّهَا النّاسُ لاَ تَتَمَنّوْا لِقَاءَ العَدُوّ وَاسْأَلُوا اللهَ العَافِيَةَ ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنّ الجَنّةَ تَحْتَ ظِلاَلِ السّيُوف . ثُمّ قَامَ النّبِيّ ﷺ وَقَالَ : اللّهُمّ مُنْزِلَ الكِتَابِ ، وَمجْرِيَ السّحَابِ ، وَهَازِمَ الأَحْزَابِ ، اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ ». متفق عليه(١).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالك ﷺ قَالَ : كَانَ رَسُولُ الله ﷺ اذا غَزَا قَالَ : « اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضُدِي وَنَصِيرِي بكَ أَحُولُ وَبكَ أَصُولُ وَبكَ أُقَاتِلُ ».أخرجه أبو داود والترمذي(٢).

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٣٠٢٤)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٢٠/ ١٧٤٢).

(٢)صحيح/ أخرجه أبو داود برقم: ( ٢٦٣٢ )، وأخرجه الترمذي برقم: ( ٣٥٨٤ ).

• **فضل الرمي في سبيل الله :**

عَنْ سَلَمَةَ بن الأكْوَع ﷺقَالَ : « مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَسْلَمَ يَنْتَضِلُونَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ ، فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِياً ، ارْمُوا وَأَنَا مَعَ بَنِي فُلانٍ . قالَ : فَأَمْسَكَ أَحَدُ الفَرِيقَيْنِ بِأَيْدِيهِمْ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : مَا لَكُمْ لا تَرْمُونَ . قالوا : كَيْفَ نَرْمِي وَأَنْتَ مَعَهُمْ ، قالَ النَّبِيُّ ﷺ : ارْمُوا فَأَنَا مَعَكُمْ كُلِّكُمْ » . أخرجه البخاري(١) .

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ ﷺ قالَ : « سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ عَلَى المِنْبَرِ ، يَقُولُ : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن﴾[الأنفال:٦٠] أَلاَ إِنّ القُوّةَ الرّمْيُ ، أَلاَ إِنّ القُوّةَ الرّمْيُ ، أَلاَ إِنّ القُوّةَ الرّمْيُ » . أخرجه مسلم(٢) .

وَعَن أَبِي نَجِيح السُّلَمِيِّ ﷺ قَالَ : « حَاصَرْنَا مَعَ نَبِيِّ الله ﷺ حِصْنَ الطَّائِفِ ، فَسَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : مَنْ بَلَغَ بِسَهْم فَلَهُ دَرَجَةٌ فِي الجَنَّة ، قَالَ : فَبَلَغْتُ يَوْمَئِذ ستَّةَ عَشَرَ سَهْماً ، فَسَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : مَنْ رَمَى بِسَهْم فِي سَبِيل الله ﷻ فَهُوَ عِدْلُ مُحَرَّرٍ » . أخرجه أحمد وأبو داود(٣) .

• **أسباب النصر على الأعداء :**

**كتب الله على نفسه النصر لأوليائه ، ولكنه ربط هذا النصر بأمور :**

**الأول** : كمال حقيقة الإيمان بالله في قلوب المجاهدين في سبيل الله .

قال الله تعالى : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾[الروم:٤٧] .

---

(١)أخرجه البخاري برقم: ( ٣٣٧٣ ).

(٢)أخرجه مسلم برقم: ( ١٦٧/ ١٩١٧ ).

(٣)صحيح/ أخرجه أبو داود برقم: ( ١٢٥٠ )، وأخرجه أحمد برقم: ( ١٩٤٢٩ ).

**الثاني** : استيفاء مقتضيات الإيمان في حياتهم ، وهي الأعمال الصالحة .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج:٤٠-٤١] .

**الثالث** : استكمال عدة الجهاد التي يستطيعونها .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٠] .

**الرابع** : بذل الجهد الذي في وسعهم ، وبحسب كمال الإيمان يكون كمال الجهد ، وكمال النصر .

قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٩] .

وقال الله تعالى :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل:١٢٨] .

**الخامس** : الثبات ، وكثرة ذكر الله ، وطاعة الله ورسوله ، وعدم التنازع ، ولزوم الصبر في كل حال .

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأنفال:٤٥ -٤٦] .

**السادس** : اجتناب المعاصي ، وعدم العجب والبطر والرياء ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾[الأنفال: ٤٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾[آل عمران:١٥٢].

**السابع** : كمال اليقين على أن النصر بيد الله وحده لا شريك له .

قال الله تعالى : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾[آل عمران:١٦٠ ] .

وقال الله تعالى : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾[الأنفال:٩-١٠] .

**الثامن** : كمال اليقين على أن الله لا ينصر الكفار على المسلمين أبدًا ، ولا يخذل المؤمنين به أبداً .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾ [النساء:١٤١] .

وقال الله تعالى : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[الروم:٤٧] .

• **أسباب إبطاء النصر** :

قد يؤخر الله ﷻ النصر للمؤمنين لأسباب لابد من توفرها ، منها :

**أولًا** : أن تكون بُنْية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد ، ولم تحشد بعد طاقتها اللازمة .

**ثانياً** : قد يبطئ النصر ، حتى يبذل المؤمنون آخر ما في وسعهم من طاقة وقوة ، فلا يبقى عزيز ولا غالٍ إلا بَذَلته نفوسهم رخيصًا في سبيل الله .

**ثالثًا** : وقد يتأخر النصر ، حتى تجرب الأمة آخر ما في طوقها من قوة ، لتدرك أن قوتها وحدها لا تكفل النصر بدون سند من الله .

**رابعًا** : وقد يبطئ النصر ، لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله . ﷻ

**خامسًا** : وقد يبطئ النصر لأن في الشر الذي يكافحه المؤمنون بقية من خير ، يريد الله أن يجرد الشر منها ثم يهلكه .

**سادسًا** : وقد يبطئ النصر ، لأن المؤمنين لم يتجردوا بإخلاص في بذلهم وتضحياتهم لله ولدعوته .

**سابعًا** : وقد يبطئ النصر ، لأن الباطل الذي يحاربه المؤمنون لم ينكشف زيفه للناس ، ولم يقتنعوا بعد بفساده .

**ثامنًا** : وقد يبطئ النصر لأن البيئة لا تصلح بعدُ لاستقبال الحق والخير ، فيبقى الصراع قائمًا، حتى تتهيأ النفوس لاستقباله ونحو ذلك من الأسباب .

والله حكيم عليم ، لا يفعل إلا ما هو عدلٌ وإحسان ، وحكمةٌ ورحمة :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾[البقرة:١٤٣] .

• **روح القتال في سبيل الله :**

القتال تكرهه النفوس ، ولكن النفوس المؤمنة تستلذه إذا كان في سبيل الله ؛ لما فيه من إحقاق الحق ، ودفع الباطل ، ورفع الظلم ، وحفظ الأمة ، وإقامة العدل، ولما فيه من الثواب العظيم ، ورضوان الله ، ومحبة الله : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ [ البقرة : ٢١٦ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾[النساء:٧٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾[التوبة:١١١ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾[آل عمران:١٦٩ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾[الصف:٤] .

• **حكم الفرار من الزحف :**

يجب على المسلم الثبات أمام الكفار عند القتال .

**وإذا التقى الجيشان فيحرم الفرار من الزحف إلا في حالتين :**

التحرف للقتال

والتحيز إلى فئة

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾[الأنفال:١٥-١٦] .

- **حكم التدمير والتخريب لممتلكات الأعداء :**

يجوز عند الضرورة أو الحاجة أو المصلحة إحراق حصون الأعداء بالنار ، وتخريب بيوتهم ، وهدمها عليهم ، وقطع أشجارهم ، وإفساد زروعهم ؛ لما في ذلك من كسر شوكتهم ، وتوهين عزيمتهم ، وتفريق جمعهم .

ويجوز ضرب الكفار بالسلاح ولو تترسوا بالمسلمين ؛ للضرورة ، وسدًا لذريعة الفساد التي قد تترتب على ترك قتلهم: ﴿ مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾[الحشر: ٥ ] .

قال الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٢﴾ ﴾[ الحشر : ٢ ] .

- **الاستعداد لمواصلة الغزو :**

ينبغي للمسلم أن يكون مستعدًا للقتال كل وقت ، ولو كان حديث عهد به .

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا « أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ لمَّا رَجَعَ يَوْمَ الخَنْدَقِ ، وَوَضَعَ السِّلاحَ وَاغْتَسَلَ ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ وَقَدْ عَصَبَ رَأْسَهُ فِي الغُبَارُ ، فَقال : وَضَعْتَ

الِّ لاَ ... فَوَاللهِ مَا بَرِحْتُهُ ... فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : فَأَيْنَ ؟ قَالَ : هَا هُنَا ، وَأَوْمَأَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ . قالتْ : فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ الله ﷺ » . متفق عليه[1] .

- **قتال اليهود في آخر الزمان :**

سيقاتل المسلمون اليهود ، ويهزمونهم كما هزمهم النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ : « لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا الْيَهُودَ ... حَتَّى ... الْحَجَرُ وَرَاءَهُ الْيَهُودِيُّ : يَا مُسْلِمُ ، هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَائِي فَاقْتُلْهُ » . متفق عليه[2] .

- **حكم الجهاد في سبيل الله ﷻ :**

الجهاد في سبيل الله إذا وجب ، حق واجب على كل مسلم قادر بنفسِه وماله، ومن لم يقدر على الجهاد بنفسه ، فعليه أن يجاهد بماله : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [ الحجرات :١٥ ] .

ومن كنز الأموال عند الحاجة إلى إنفاقها في سبيل الله ، أو قعد عن الجهاد وهو قادر عليه عذبه الله عذابًا أليمًا في الدنيا والآخرة .

في الدنيا بالذل وغيره ، ونزع الأمر منه ، وإعطاؤه لغيره ، فإن هذا الدين لمن ذبَّ عنه ، وفي الآخرة يُعذب في جهنم .

وإذا جاهدت الأمة عدوها ، ألَّف بين قلوبها ، وجمع كلمتها ، وإن تركت الجهاد في سبيل الله ، شغل الشيطان بعضها ببعض .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٢٨١٣ )، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٢١٣/ ٧٨١).

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٢٩٢٦ )، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٨٢/ ٢٩٢٢).

وليس من شريعة الإسلام انتظار العدو حتى يدخل البلاد ، فما غُزِيَ قوم في عُقر دارهم إلا ذَلُّوا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [التوبة:٣٨-٣٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [التوبة:٤١] .

وقال الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ ﴾ [التوبة:٣٤- ٣٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التوبة:٢٤] .

- **المعذورون في الجهاد في سبيل الله :**

الجهاد في سبيل الله واجب بشروطه المعتبرة السابقة

**والمعذورون في التخلف عن الجهاد في سبيل الله ثلاثة أصناف :**

**الصنف الأول** : الضعفاء ، وأولوا الضرر ، والمرضى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء:٩٥-٩٦] .

وقال الله تعالى : ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١] .

**الصنف الثاني** : الذين لا يجدون مالًا، ولا يجدون ما يركبون عليه للجهاد في سبيل الله، كما قال سبحانه : ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [ التوبة :٩١- ٩٢ ] .

**الصف الثالث** : من قعدوا ليتفقهوا في الدين لحاجة الأمة لهم ولعلمهم ، كما قال سبحانه : ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة:١٢٢].

فهؤلاء هم المعذورون عن الجهاد والقتال في سبيل الله .

- **حكم القتال في الفتنة :**

يجوز للإنسان أن يدافع عن نفسه ممن يريد قتله ، أو أخذ ماله ، وهذا إذا لم تكن فتنة بين المسلمين ، كقتال على مُلك ، أو رئاسة ، أو إتباع أهواء ، أو عصبية ، لما يفضي إليه ذلك من الشرور ، وسفك الدماء ، فلا يجوز ذلك.

عن أبي بكرة ﷺ قال سمعت الرسول ﷺ يقول : « إذا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ " فقلت يا رسول اللهَّ هذا الْقَاتِلُ فما بَالُ الْمَقْتُولِ ؟ قال : إنه كان حَرِيصًا على قَتْلِ صَاحِبِهِ » . متفقَ عليه[1] .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « سَتَكُونُ فِتَنٌ ، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ الْقَائِمِ ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ الْمَاشِي ، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنْ السَّاعِي ، وَمَنْ يُشْرِفْ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ ، وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ ». متفق عليه[2].

وعن جابر بن عبد الله قال : « كُنَّا فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنْ المُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ ! وَقَالَ المُهَاجِرِيُّ : يَا لَلْمُهَاجِرِينَ ! فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ ؟ قَالُوا لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ كَسَعَ رَجُلٌ مِنْ المُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ . فَقَالَ : دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ ». متفق عليه[3].

- **فقه نصر المؤمنين :**

الله ﷻ قوي عزيز ، قوي الجانب ، غالب قاهر ، هو القوي المنيع الذي لا يضام من توكل عليه: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٣ ﴾ [التغابن:١٣] .

هو الحكيم الذي له الحكمة البالغة ، ولا يضع الأمر إلا في موضعه ، ولا يوقعه إلا في موقعه ، هو العالم بخفايا الأمور ، وما تؤول إليه ، الذي لا يخفى عليه مثقال ذرة في ملكه العظيم .

فاقتضت عزته وقهره وسلطانه ألا يضام وليه المؤمن ، المتوكل عليه ، وألا يهان ويقهر مادام منتسبًا إليه: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧ ﴾ [ الروم : ٤٧ ].

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٦٨٧٥ )، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٥/ ٢٨٨٨).

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٣٦٠١ )، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٠/ ٢٨٨٦ ).

(٣)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٤٩٠٥ )، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٦٣/ ٢٥٨٤ ).

واقتضت حكمته البالغة ألا يجعل وليه كعدوه ، وألا يسوي بينهما ، بل ينصر وليه على عدوه كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾[غافر:٥١] .

والحكمة لا تتم إلا بالعلم بكل شيء : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴿٣﴾ ﴾[الطلاق:٢-٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٩] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾[الأنفال:٣٩-٤٠].

والله ﷻ هو المؤمن الذي يؤمِّن أولياءه المؤمنين من الخوف ، والناصر النصير الذي ينصر المؤمنين على الكافرين :﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج:٤٠-٤١] .

ومن سنة الله أن ينصر الكثير على القليل ، وينصر الفئة القليلة ، ولو كانت على باطل ، على الفئة الكثيرة ولو كانت على حق ، إذا أصابهم العجب ، وتغير يقينهم كما حصل للمسلمين في غزوة حنين في بداية المعركة ، فهُزم المسلمون في بداية الغزوة مع كثرتهم ، بسبب عجبهم وكثرتهم ، وافتخارهم بكثرتهم ، وولوا مدبرين ، ولكن الله جعل العاقبة لهم ، لما تابوا وأنابوا ، فناداهم النبي ﷺ ، فأقبلوا إليه ، وقاتلوا الكفار ، فهزموهم وغنموا

منهم غنائم كثيرة ، فكما أن الرزق من الرزاق وحده ، فكذلك النصر ينزل من الناصر وحده :﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾[التوبة:٢٥- ٢٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾[الأنفال: ٤٧] .

- **أركان نصرة الدين :**

**أركان نصرة الدين ثلاثة :**

**الأول** : الدعاء كما قال سبحانه : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾[غافر:٦٠ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾[البقرة:١٨٦] .

**الثاني** : الدعوة إلى الله كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الصف: ١٤] .

**الثالث** : الجهاد في سبيل الله، كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[ التحريم : ٩ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات: ١٧١ – ١٧٣] .

والدعوة إلى الله هي وظيفة الأنبياء والرسل ، وهذه الأمة ، وهي أم الأعمال كلها ، ولها كل الوقت كما قال سبحانه : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف:١٠٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فصلت:٣٣].

وإذا قامت الدعوة إلى الله ، جاءت أوامر الله في حياة الأمة ، وهذا هو مقصود الله من خلقه ، وجامع أبواب الخير في شرعه ، أن تعبد الأمة الرب الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له ، وتمتثل أوامره ، وتجتنب نواهيه .

فالدعوة إلى الله لها كل الأوقات ، فالصلاة لها وقت محدود ، والزكاة لها وقت محدود ، والصيام له وقت معلوم ، والحج له وقت معلوم ، وهكذا سائر العبادات لها أوقات محدودة .

أما الدعوة إلى الله فلها كل الأوقات ، لأنها مقصد بعثة الأنبياء والرسل ، وهذه الأمة ، كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأحزاب:٤٥ -٤٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [ آل عمران : ١٠٤ ] .

• **عدد الشهداء في سبيل الله :**

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قالَ : « الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ : المَطْعُونُ ، وَالمَبْطُونُ، وَالغَرِقُ، وَصَاحِبُ الهَدْمِ، وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ الله » . متفق عليه[1] .

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال : « الطَّاعُونُ شَهَادَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ » . متفق عليه[2] .

وَعَنْ جابر بن عَتِيكٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « الشَّهَادَةُ سَبْعٌ سِوَى القَتْلِ فِي سَبِيلِ الله ﷻ ، المَطْعُونُ شَهِيدٌ وَالمَبْطُونُ شَهِيدٌ وَالغَرِيقُ شَهِيدٌ وَصَاحِبُ الهَدَمِ شَهِيدٌ وَصَاحِبُ ذَاتِ الجَنْبِ شَهِيدٌ وَصَاحِبُ الحَرْقِ شَهِيدٌ وَالمَرْأَةُ تَمُوتُ بِجُمْعٍ شَهِيدَةٌ ».أخرجه أبو داود والنسائي بسند صحيح[3].

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِه فَهُوَ شَهِيدٌ وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِه فَهُوَ شَهِيدٌ وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيد » . أخرجه أبو داود والترمذي بسند صحيح[4] .

• **فضل الشهادة في سبيل الله :**

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [آل عمران:١٦٩ -١٧١] .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٦٥٣)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٦٤/ ١٩١٤) .

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٢٨٣٠ )، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٦٦/ ١٩١٦).

(٣)صحيح/ أخرجه أبو داود برقم: (٣١١١)، و النسائي برقم: ( ١٨٤٦ ).

(٤)صحيح/ أخرجه أبو داود برقم: ( ٤٧٧٢)، وأخرجه الترمذي برقم: (١٤١٨ ).

وقال الله تعالى : ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [النساء:٧٤] .

وَعَنْ أَنس بن مَالِكٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : قَالَ : « مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الجَنَّةَ ، يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا ، وَلَهُ مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ الشَّهِيدُ ، يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ ، لِمَا يَرَى مِنَ الكَرَامَةِ ».متفق عليه(١) .

وَعَنْ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : قَالَ : « مَا مِنْ عَبْدٍ يَمُوتُ ، لَهُ عِنْدَ الله خَيْرٌ ، يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا ، وَأَنَّ لَهُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، إِلاَّ الشَّهِيدَ ، لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ، فَإِنَّهُ يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا، فَيُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَى». متفق عليه(٢) .

- **كرامات الشهيد في سبيل الله ﷻ :**

عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ : « سَأَلْنَا عَبْد الله ابْنُ مَسْعُودٍ عَنْ هَذِه الآيةِ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٦٩]. ، قَالَ : أَمَا إِنّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ : أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلّقَةٌ بِالعَرْشِ تَسْرَحُ مِنَ الجَنّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ، ثُمّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ القَنَادِيلِ ، فَاطّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبّهُمُ اطّلاَعَةً ، فَقَالَ : هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئاً ؟ قَالُوا : أَيّ شَيْءٍ نَشْتَهِي ؟ وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الجَنّةِ حَيْثُ شِئْنَا ، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلاَثَ مَرّاتٍ ، فَلَمّا رَأَوْا أَنّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا ، قَالُوا : يَا رَبّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرّةً أُخْرَى ، فَلَمّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا » . أخرجه مسلم(٣) .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٢٨١٧)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٠٩/ ١٨٧٧).

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٢٧٩٥)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٠٨/ ١٨٧٧ ).

(٣)أخرجه مسلم برقم: (١٢١/ ١٨٨٧).

وَعَنْ أَنَس بن مَالِكٍ ﷺ « أَنَّ أُمَّ الرُّبَيِّعِ بِنْتَ البَرَاءِ ، وَهِيَ أُمُّ حَارِثَةَ بْنِ سُرَاقَةَ ، أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقالتْ : يَا نَبِيَّ الله ، ألا تحُدِّثُنِي عَنْ حَارِثَةَ وَكَانَ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ ، أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ فَإِنْ كَانَ فِي الجَنَّةِ صَبَرْتُ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ ، اجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ فِي الْبُكَاءِ ؟ قال : يَا أُمَّ حَارِثَةَ ، إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الجَنَّةِ ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الفِرْدَوْسَ الأَعْلَى » . أخرجه البخاري[1].

وَعَنِ المِقْدَام بْنِ مَعْدِي كَرِبَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « إِنَّ لِلشَّهِيدِ عِنْدَ الله ﷻ خِصَالاً : يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دُفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ ، وَيُرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ ، وَيحُلَّى حُلَّةَ الإِيْمَانِ ، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الحُورِ العِينِ ، وَيجُارُ مِنْ عَذاب القَبْرِ ، وَيَأْمَنُ يَوْمَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الوَقَارِ ؛ الوَاقُوتَةُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ إِنْسَاناً مِنْ أَقَارِبِه » .

أخرجه سعيد بن منصور والبيهقي في شعب الإيمان بسند صحيح[2].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « يُغْفَرُ لِلشّهِيدِ كُلّ ذَنْبٍ ، إلاّ الدّيْنَ » . أخرجه مسلم[3] .

وَعَنْ جَابِر بن عَبْدِالله رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا قَالَ : لمَّا قُتِلَ أَبِي ، جَعَلْتُ أَكْشِفُ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِهِ ، أَبْكِي وَيَنْهَوْنِي عَنْهُ ، وَالنَّبِيُّ ﷺ لاَ يَنْهَانِي ، فَجَعَلَتْ عَمَّتِي فَاطِمَةُ تَبْكِي ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « تَبْكِينَ أَوْ لاَ تَبْكِينَ ، مَا زَالَتِ المَلاَئِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رَفَعْتُمُوهُ » . متفق عليه[4] .

---

(١)أخرجه البخاري برقم: ( ٢٨٠٩).

(٢) صحيح/ أخرجه سعيد بن منصور برقم: ( ٢٥٦٢ )، وأخرجه البيهقي برقم: ( ٣٩٤٩ ).

(٣)أخرجه مسلم برقم: ( ١١٩/ ١٨٨٦ ).

(٤)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ١٢٤٤)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٢٩/ ٢٤٧١) .

# ٧- الخزانة السابعة

- **أحكام الشهداء في سبيل الله :**

**الشهداء في سبيل الله قسمان :**

**الأول** : من قُتِل في سبيل الله أمام العدو ، فهذا لا يغسل ، ويكفن في ثيابه التي استُشهد فيها ، ويستحب تكفينه بثوب أو أكثر فوق ثيابه .

وشهداء المعركة في سبيل الله الإمام مخير فيهم :

إن شاء صلى عليهم صلاة الجنازة ، وإن شاء ترك ، والصلاة أفضل ، والسنة دفنهم في مصارعهم ، كما فعل رسول الله ﷺ في شهداء بدر وأحد .

**الثاني** : كل ما سوى الشهيد في المعركة في سبيل الله كالغريق، ومن مات دفاعًا عن ماله ونحوهم من الشهداء في ثواب الآخرة، فهؤلاء الشهيد منهم يغسل، ويكفن، ويصلى عليه، ويدفن في مقابر المسلمين كغيره من الأموات.

والشهيد هو المقتول في سبيل الله ، ويسمى شهيدًا ، ولكنه في الحقيقة حيٌّ لا ميت ، لأنه أشهد الله وعباده على صدق إيمانه ، وأشهد الأعداء أن هذا الدين حق ، وأنه عرَّض نفسه للهلاك ، ليبقى الدين حيًا في الأمة .

وقد نهى الله المؤمنين أن يقولوا للشهيد أنه ميت ؛ لئلا يظن الإنسان أن الشهيد يموت ، فينفر من الجهاد خوفًا من الموت ، ولئلا ينكل الناس عن الجهاد ، لفرار الناس من الموت طبيعة .

وقد نهى الله ﷻ عن تسمية الشهيد ميتًا ، أو اعتقاده ميتًا ، لئلا يكون ذلك منفرًا عن الجهاد في سبيل الله :﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٦٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾[البقرة:١٥٤] .

والشهيد الذي قتل في سبيل الله صابرًا محتسبًا ، مقبلًا غير مدبر ، وقتاله لتكون كلمة الله هي العليا ، فهذا الشهيد ثبت أنه يشفع في اثنين وسبعين من أهل بيته .

أما بقية الشهداء كالمبطون ، والغريق ، والمطعون ، والحريق ، ومن مات بالهدم ، وصاحب ذات الجنب ، والمرأة تموت بالطلق ، ومن مات دون ماله ، ودون دينه ، ونحو ذلك ، فهؤلاء إن كان أحدهم مذنبًا ، فيرجى أن الشهادة يُغفر له بها ذنبه ، أما حقوق الآدميين فلابد من استيفائها : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾[ الزمر : ٥٣ ] .

- **فضل الجرح في سبيل الله :**

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لا يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ الله، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ، إِلاَّ جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَاللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ، وَالرِّيحُ رِيحُ المِسْكِ ». متفق عليه[1].

والشهيد في سبيل الله هو الذي يتقرب إلى الله بفعل ما أمر الله ، لا بفعل ما نهى الله عنه ، ويقتل في سبيل الله صابرًا محتسبًا ، مقبلًا غير مدبر ، راجيًا بذلك أن تكون كلمة الله هي العليا .

ومن الناس من يحزم على نفسه قنابل أو متفجرات ، ثم يذهب إلى فئة من العدو فيطلقها ، فيكون هو أول من يموت ، فهذا يعتبر قاتلًا لنفسه ،

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٥٥٣٣)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٠٥/ ١٨٧٦).

ويُعذب بما قتل به نفسه في جهنم ، وليس بشهيد ، لأنه فعل فعلًا محرمًا ، وهو قتل نفسه قبل غيره ، لكن إن كان جاهلًا فقد لا يعذب ، ولا أجر له ، وليس بشهيد ، لأنه فعل ما نهى الله ورسوله عنه:﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾[ النساء : ٢٩ ].

وقال الله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِۛ وَأَحْسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [البقرة:١٩٥] .

وما فعله الصحابة رضي الله عنهم من المغامرة ، ودخول صف العدو ، فليس بقتل للنفس ، وإنما هو مخاطرة فيها احتمال النجاة ، كما فعل البراء بن مالك في اقتحام حصن مسيلمة الكذاب ، ثم فتحه ، ونجا بنفسه .

ومن قتل نفسه بالحزام الناسف ومثله ، فإنه يدخل النار ، ويعذب بمثل ما قتل به نفسه ، ولكنه ليس بكافر ، فيغسل ويكفن ويصلى عليه لأنه معذور بجهله ، لأن النبي ﷺ أمر الصحابة رضي الله عنهم أن يصلوا على من قتل نفسه بمشاقص ، ولعله فعل بهذا التفجير والأحزمة الناسفة يريد الحق ، وفعله متأولًا ، فنسأل الله أن يرحمه .

- **حكم من هاجم العدو وحده :**

من ألقى نفسه في أرض العدو ، أو اقتحم في جيوش الكفار المعتدين ، بقصد التنكيل بالأعداء ، وزَرْع الرعب في قلوبهم ، ثم قاتلهم وقتل ، فقد نال أجر الشهداء في سبيل الله تعالى :﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾[النساء:٧٤] .

- **حكم المقتول في سبيل الله :**

من قتل في سبيل الله فهو شهيد ، والله أعلم بمن يقتل في سبيل الله . ولا يطلق اسم شهيد على أحد بعينه ، لكن يقال نسأل الله أن يجعله شهيدًا ، لأن الشهادة أمر غيبي لا يعلمه إلا الله ﷻ .

وسُمي الشهيد شهيدًا ، لأنه أشهد الله والناس على صدق إيمانه ، وأثبت باستشهاده أن هذا الدين حق ، ومحيى حياته ، ليحيا الدين ، فأكرمه الله بالحياة الأبدية .

والشهيد في الحقيقة حي لا ميت ، وقد نهى الله المؤمنين أن يقولوا للشهيد أنه ميت ؛ لئلا يظن الإنسان أن الشهيد يموت ، فينفر من الجهاد خوفًا من الموت: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [ آل عمران : ١٦٩ ] .

- **حكم نقل الدم من إنسان لآخر :**

يشرع للمسلم بذل الدم لأخيه المسلم المحتاج إليه بدون عوض ، وفي ذلك أجر وثواب ، لما فيه من نفع المحتاج إليه ، والإحسان إليه ، والله يقول : ﴿ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [ البقرة : ١٩٥ ] .

وقد يكون في نقل الدم إنقاذ لحياة مسلم من موت محقق كما يحصل في الحروب من نزيف الدماء بسبب الجراح ، وعند ولادة النساء ونحو ذلك .

وقد يكون في خروجه من جسمه عافية حميدة له .

فبيع الدم وأخذ ثمنه حرام ، فإن أُعطي المتبرع هدية مجازاة على معروفه وإحسانه ، فلا بأس بأخذها .

ﷺ « مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُوهُ فَادْعُوا لَهُ » .أخرجه أبو داوود[1] .

- **حكم نقل الأعضاء :**

**زراعة الأعضاء ونقلها لها أربع حالات ، وهي :**

**الأولى** : نقلها من الإنسان نفسه إلى بدنه ، كنقل عظم أو جلد من مكان إلى آخر ، فهذا جائز .

**الثانية** : نقل الأعضاء من آدمي لآدمي آخر ، سواء كان المنقول منه مسلمًا أو كافرًا ، حيًا أو ميتًا ، **فله حالتان** :

**الأولى** : إن كان النقل يؤدي إلى ضرر بالغ بتفويت أصل الانتفاع أو جله ، كقطع يد أو رجل أو كلية ، فهذا محرم ، لأنه تهديد لحياة متيقنة بعملية ظنية موهومة .

وإن كان النقل يؤدي إلى الموت ، كنزع القلب أو الرئة ، فهذا قتل للنفس وهو من أشد المحرمات ،كما قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾[النساء:٢٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾[المائدة:٨٧].

**الثانية** : نقل عضو أو جزء من إنسان ميت إلى حي ، فإن كانت مصلحة الحي ضرورية تتوقف حياته عليها ، كنقل القلب أو الرئة أو الكلية ، فهذا يجوز عند الضرورة ، إذا كان الميت قبل وفاته قد أذن بذلك ، ورضي المنقول إليه ، وتعذر التداوي إلا به ، وقام بذلك طبيب ماهر .

---

(١) صحيح/ أخرجه أبو داود برقم: ( ١٦٧٢).

**الثالثة** : نقل من حيوان طاهر إلى آدمي ، فهذا جائز .

**الرابعة** : نقل من حيوان نجس ككلب أو خنزير ، فهذا لا يجوز .

وفي الجهاد في سبيل الله بين المسلمين والكفار تكثر الجراحات ، ويكثر الأموات ، ويكثر الجـ[illegible] .

والنبي ﷺ يقول : « إن المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا ».متفق عليه[1] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾ [المائدة:٢]

- **أحكام الغنائم والأنفال** :

**الغنيمة** : هي المال المأخوذ من الكفار عن طريق الحرب والقتال .

- **أنواع الغنائم** :

**الغنائم التي يأخذها المسلمون من الكفار ثلاثة أنواع** :

**الأول** : الأموال المنقولة كالنقود والطعام والحيوان .

**الثاني** : الأسرى والسبايا كالنساء والأطفال .

**الثالث** : الأرض ، وتسمى الأنفال ، لأنها زيادة في أموال المسلمين .

- **حكم الغنائم** :

أحل الله ﷻ الغنائم لهذه الأمة ، ولم يحلها للأمم السابقة ، لأن الله ﷻ علم ضعفنا وعجزنا فطيبها لنا :﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾[ الأنفال : ٦٩] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم ( ٦٠٢٦ ) ، ومسلم برقم ( ٢٥٨٥ ) .

وعن جابر بن عبد الله ﷺ أن النبي ﷺ قال : « أعطيتُ خمسًا لم يُعطَهنَّ أحدٌ قبلي : كان كلُّ نبيٍّ يُبعَثُ إلى قومه خاصَّة ، وبُعثتُ إلى كلِّ أحمرَ وأسودَ ، وأُحلَّت لي الغنائِمُ ، ولم تحِلَّ لأحدٍ قبلي ، وجُعِلَت لي الأرضُ مسجداً وطهورًا ، فأيُّما رجلٍ أدركتْه الصَّلاةُ ، صلَّى حيث كان ، ونُصِرتُ بالرُّعب مسيرةِ شهرٍ ، وأُعطيتُ الشَّفاعةَ » . متفق عليه[1].

- **من يُعطى من الغنيمة :**

الغنيمة لمن شهد الواقعة سواء قاتل أو لم يقاتل ، ولا يسهم من الغنيمة إلا لمن توفرت فيه خمسة شروط :

الإسلام ، والبلوغ، والعقل ، والحرية ، والذكورية ، فإذا اختل شرط رُضخ له ولم يقسم له ، لأنه ليس من أهل الجهاد .

سأل نجدة بن عباس هل كان رسولُ الله ﷺ يغزو بالنساءِ ؟ وهل كان يضرب لهنَّ بسهمٍ ؟ فكتب إليه العباسُ : كتبتَ تسألُني هل كان رسولُ الله ﷺ يغزو بالنساءِ ؟ وقد كان يغزو بهن فيداوينَ الجَرْحى ويحُذَين من الغنيمةِ . وأما بسهمٍ ، فلم يَضرِبْ لهنَّ » . أخرجه مسلم[2] .

- **كيفية قسمة الغنائم :**

الغنيمة لمن شهد الوقعة من أهل القتال ، وكيفية قسمة الغنائم كما يلي :

**أولًا** : يُخرج الإمام خمس الغنيمة ويقسمه على خمسة : سهم لله ولرسوله يُصرف في مصالح المسلمين العامة ، وسهم لذوي القربة ، وهم بنو هاشم

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٣٣٥)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٣/ ٥٢١).

(٢)أخرجه مسلم برقم: ( ١٣٧/ ١٨١٢ ).

وبنو المطلب ، الذين آزروا النبي ﷺ وناصروه ، وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين ، وسهم لأبناء السبيل .

**ثانيًا** : الباقي من الغنيمة ، وهو أربعة أخماس ، يقسم بين الغانمين ، للراجل سهم ، وللفارس ثلاثة أسهم ، سهم له وسهمان لفرسه :﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾[الأنفال: ٤١] .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : « أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قسم في النَّفلِ : للفرسِ سهمَينِ وللرجلِ سهمًا » . متفق عليه[1] .

- **حكم تنفيل بعض المجاهدين** :

النفل ما يُعطاه المجاهد زيادة على سهمه تشجيعًا له ، كأن يقول الإمام من قتل قتيلاً فله سلبه ، أو من أصاب شيئًا فله ربعه ، أو يقول للسرية ما أصبتم فهو لكم ، وذلك كله جائز ، لما فيه من التحريض على القتال وتشجيع النفوس على الإقدام .:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾[الأنفال:٦٥].

- **أنواع التنفيل** :

يكون التنفيل للمجاهدين بحسب المصلحة كما يلي :

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٢٨٦٣ )، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٥٧/ ١٧٦٢ ).

**أولًا** : ما يعطيه الإمام لبعض الجيش كالربع بعد إخراج خمس الغنيمة في بداية الغزو ، وفي الرجوع من الغزو الثلث بعد الخمس ، لأن هؤلاء رجع عنهم الجيش ، بخلاف البداية ، لأن الجيش يعاونهم .

عن حبيب بن مسلمة ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهَّ ﷺ كَانَ يُنَفِّلُ الرُّبْعَ بَعْدَ الْخُمُسِ ، وَالثُّلُثَ بَعْدَ الْخُمُسِ إِذَا قَفَلَ » . أخرجه أبو داود وابن ماجة بسند صحيح(١) .

**ثانيًا** : ما يعطيه الإمام لمن هو أشد نكاية في العدو ، أو حصل له بلاء في القتال ، من زيادة على سهمه بعد إخراج الخمس .

عن بن عمر رضي الله عنهما : « أَنَّ رَسُولَ اللهَّ ﷺ بَعَثَ سَرِيَّةً فِيهَا عَبْدُ اللهَّ بْنُ عُمَرَ قِبَلَ نَجْدٍ ، فَغَنِمُوا إِبِلًا كَثِيرَةً ، فَكَانَتْ سِهَامُهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ بَعِيرًا ، أَوْ أَحَدَ عَشَرَ بَعِيرًا وَنُفِّلُوا بَعِيرًا بَعِيرًا » . متفق عليه(٢) .

**ثالثًا** : الجعل كان يقول الإمام من قتل فلانًا فله سلبه ونحو ذلك .

عن سلمة ﷺ قال : « أتى النبي ﷺ عَيْنٌ منَ المُشركينَ وهو في سفرٍ ، فجلسَ عِندَ أصحابهِ يَتَحَدَّثُ ثم انْفَتَلَ ، فقال النبيُّ ﷺ : « اطْلُبوهُ واقْتُلوهُ » . فقَتَلَه فَنَفَّلَهُ سَلَبَهُ » . أخرجه البخاري(٣) .

- **حكم السلب** :

السلب هو ما وُجد على المقتول من لباسه ، وسلاحه ، وعدة حرب ، ويستحق القاتل سلب المقتول الكافر بدون تخميس ، إذا قتله وحده بمبارزة أو طلب ونحوهما .

---

(١)صحيح/ أخرجه أبو داود برقم: ( ٢٧٤٩)، وأخرجه ابن ماجة برقم: ( ٢٨٥١).

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٣١٣٤)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٣٥/ ١٧٤٩).

(٣)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٣٠٥١).

عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ ، قَالَ : قَتَلَ رَجُلٌ مِنْ حِمْيَرَ رَجُلًا مِنَ الْعَدُوِّ ، فَأَرَادَ سَلَبَهُ ، فَمَنَعَهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ، وَكَانَ وَالِيًا عَلَيْهِمْ ، فَأَتَى رَسُولَ الله ﷺ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ ، فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ لِخَالِدٍ : « مَا مَنَعَكَ أَنْ تُعْطِيَهُ سَلَبَهُ ؟ » . قَالَ : اسْتَكْثَرْتُهُ يَا رَسُولَ الله ، قَالَ : « ادْفَعْهُ إِلَيْهِ » . ، فَمَرَّ خَالِدٌ بِعَوْفٍ ، فَجَرَّه بِرِدَائِهِ ، ثُمَّ قَالَ : هَلْ أَنْجَزْتُ لَكَ مَا ذَكَرْتُ لَكَ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ ، فَسَمِعَهُ رَسُولُ الله ﷺ فَاسْتُغْضِبَ ، فَقَالَ : « لَا تُعْطِهِ يَا خَالِدُ ، لَا تُعْطِهِ يَا خَالِدُ ، هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي أُمَرَائِي ؟ إِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُهُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتُرْعِيَ إِبِلًا ، أَوْ غَنَمًا ، فَرَعَاهَا ، ثُمَّ تحَيَّنَ سَقْيَهَا ، فَأَوْرَدَهَا حَوْضًا ، فَشَرَعَتْ فِيهِ فَشَرِبَتْ صَفْوَهُ ، وَتَرَكَتْ كَدْرَهُ ، فَصَفْوُهُ لَكُمْ ، وَكَدْرُهُ عَلَيْهِمْ » . أخرجه مسلم[1].

وعن عوف بن مالك الأشجعي وخادم الوليد رضي الله عنهما : « أن النبي ﷺ قضى بالسلبِ للقاتلِ ولم يخمس » . أخرجه أبو داود بسند صحيح[2] .

- **حكم الانتفاع بالطعام قبل قسمة الغنائم :**

يجوز للمجاهدين في سبيل الله أن يأكلوا من الطعام ، ويعلفوا دوابهم قبل الخمس والقسمة ، ما داموا في أرض العدو .

عن عبد الله بن المغفل رضي الله عنه قال : « أَصَبْتُ جِرَابًا مِنْ شَحْمٍ ، يَوْمَ خَيْبَرَ ، قَالَ : فَالْتَزَمْتُهُ ، فَقُلْتُ : لَا أُعْطِي الْيَوْمَ أَحَدًا مِنْ هَذَا شَيْئًا ، قَالَ : « فَالْتَفَتُّ ، فَإِذَا رَسُولُ الله ﷺ مُتَبَسِّمًا » . أخرجه مسلم[3] .

وعن إبن عمر رضي الله عنهما قال : « كُنَّا نُصيبُ في مغازينا العسلَ والعنبَ ، فنأكلُهُ ولا نرفعُهُ » . أخرجه البخاري[1] .

---

(١)أخرجه مسلم برقم : ( ٤٣/ ١٧٥٣).

(٢)صحيح/ أخرجه أبو داود برقم: ( ١٢٢٣).

(٣)أخرجه مسلم برقم: ( ٧٢/ ١٧٧٢).

• **حكم الغلول من الغنائم :**

الغلول هو السرقة من الغنائم ، والغلول محرم ، وهو من كبائر الإثم قل أو كثر ، لأنه أكل لأموال الناس بالباطل ، وإشغال للمقاتلين بالانتهاب عن القتال ، وذلك يُفضي إلى اختلاف الكلمة ثم الهزيمة ، ومن غل من الغنيمة فللإمام أن يؤدبه بما يرى فيه المصلحة له ولغيره ، من ضرب أو تحريق ما غل ونحو ذلك .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ ﴾[آل عمران:١٦١-١٦٢ ] .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : كَانَ عَلَى ثَقَلِ النَّبِيِّ ﷺ ، رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ كِرْكِرَةُ ، فَمَاتَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « هُوَ فِي النَّارِ ». ، فَذَهَبُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ ، فَوَجَدُوا عَبَاءَةً قَدْ غَلَّهَا ، قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ : " قَالَ ابْنُ سَلاَمٍ : كَرْكَرَةُ يَعْنِي بِفَتْحِ الكَافِ : وَهُوَ مَضْبُوطٌ كَذَا » . أخرجه البخاري(٢).

• **مكان قسمة الغنائم :**

يقسم الإمام الغنائم حسب المصلحة ، فله أن يقسمها بين المسلمين المقاتلين في دار الحرب بعد انهزام العدو ، كما قسم النبي ﷺ غنائم بني المصطلق في بلادهم ، وكما قسم غنائم خيبر فيها .

وله أن يقسم الغنائم في طريقه إلى بلده كما قسم النبي ﷺ غنائم حنين في الجعرانة، وهي قرب مكة ، وكما قسم ﷺ الغنائم بذي الحليفة قرب المدينة.

---

(١)أخرجه البخاري برقم: ( ٣١٥٤).

(٢)أخرجه البخاري برقم: ( ٣٠٧٤ ).

• **حكم مال المسلم إذا وجده عند العدو :**

إذا استرد المسلمون أموالًا لهم بأيدي الأعداء ، فأربابها أحق بها ، وليس للمقاتلين منها شيء ، لأنها ليست من المغانم ، وإذا أسلم الحربي وبيده مال مسلم رده إلى صاحبه ، لأن صاحبه أحق به .

وإذا أسلم الحربي ، وهاجر إلى دار الإسلام ، واستولى المسلمون على زوجته وذريته وأمواله ، فليس للمسلمين قسمة ذلك مع الغنائم ، لأن للمسلم حرمة نفسه وماله وأهله .

عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « أُمرتُ أنْ أقاتِلَ النَّاسَ حتى يقولوا : لا إلهَ إلا اللهُ ، فمن قال : لا إلهَ إلا اللهُ ، عصَم منِّي نفسَه ومالَه إلَّا بحقِّه ، وحسابُه على الله » . متفق عليه[1].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ دمائكم وأموالَكُم وأحسبُهُ قالَ : وأعراضَكُم علَيكم حرامٌ كحُرمةِ يومِكُم هذا في شَهْرِكُم هذا في بلَدِكُم هذا » . متفق عليه[2].

• **حكم استيلاء الكفار على أموال المسلمين :**

يملك الكفار أموال المسلمين إذا استولوا عليها بطريق القتال والقهر والغلبة، لأنه زال ملك المسلم عنها باستيلاء العدو عليها ، ولا يثبت تملكهم لها إلا بإحرازها في دار الحرب ، فإذا تمكن المسلمون من هزيمتهم ، وأخذوا ما في أيديهم ، فإنه يرد إلى صاحبه، لأن صاحبه أحق به.

• **حكم وطء المسبيات :**

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٦٩٢٤)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٣٢/ ٢٠).

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم ( ٤٤٠٦ )، ومسلم برقم ( ٣٠/ ١٦٧٩ ).

النساء المسبيات ينفسخ نكاحهن بمجرد السبي ، ولا يجوز وطؤهن إلا بعد قسمتهن ، ثم تستبرأ الحامل بوضع الحمل ، وغير ذات الحمل بحيضة واحدة ، وذلك لتُعلم براءة رحمها .

عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال في سبايا « لا تُوطَأُ حاملٌ حتى تضعَ ، ولا غيرُ ذاتِ حملٍ حتى تحَيضَ حَيْضَةً » . أخرجه أبو داود وأحمد[1].

- **حكم الأرض المغنومة :**

إذا كانت الغنيمة أرضًا فتحها المسلمون عنوة، فيُخير الإمام فيها بين أمرين :

**الأول** : قسمها بين الغانمين .

عن سعد بن أبي حثمة ﷺ قال : « قسم رسول الله ﷺ خيبر قسمين : نصفًا لنوائبه وحاجته، ونصفًا بين المسلمين قسمها بينهم على ثمانية عشر سهمًا ». أخرجه أبو داود بسند صحيح[2] .

**الثاني** : أن يقفها على المسلمين ، فيقرها بحالها ، ويضرب عليها خرجًا مستمرًا يدوم نفع المسلمين به ، يُؤخذ ممن هي بيده ، يكون أجرة لها كل عام ، كما فعل عمر ﷺ بما فتحه من أرض الشام ومصر العراق .

عن عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ : « أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلاَ أَنْ أَتْرُكَ آخِرَ النَّاسِ بَبَّانًا لَيْسَ لهُمْ شَيْءٌ ، مَا فُتِحَتْ عَلَيَّ قَرْيَةٌ إِلَّا قَسَمْتُهَا كَمَا قَسَمَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْبَرَ وَلَكِنِّي أَتْرُكُهَا خِزَانَةً لهُمْ يَقْتَسِمُونهَا » . أخرجه البخاري[3] .

- **حكم الفيء :**

---

(١)صحيح/ أخرجه أبو داود برقم ( ٢١٥٧ ) ، وأحمد برقم ( ١١٢٢٨ ) .

(٢)صحيح/ أخرجه أبو داود برقم ( ٣٠١٠ ) .

(٣)أخرجه البخاري برقم: ( ٤٢٣٥).

الفيء هو ما أخذ من الكفار بلا قتال ، كالجزية ، والخراج ، والعشر ، وما تركوه فزعًا ونحو ذلك مما لم يتعب المسلمون في تحصيله .

ومصرف الفيء مصرف خُمس الغنيمة ، فيصرف في مصالح المسلمين العامة ، حسب المصلحة والحاجة ، لأن نفعه عام للمسلمين .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر: ٦-٧] .

- **أحكام الأسرى والسبي :**

الأسرى هم الرجال المقاتلون من الكفار ، إذا ظفر المسلمون بأسرهم أحياء ، والسبي هم نساء وصبيان الكفار إذا ظفر بهم المسلمون أحياء .

- **أقسام الأسرى :**

أسرى الحرب من الكفار من جملة الغنائم ، وهم على قسمين :

**القسم الأول** : النساء والصبيان ، وهؤلاء يُسترقون بمجرد السبي ، ويقسمون مع الغنائم كما يقسم المال .

**القسم الثاني** : الرجال المقاتلون ، وهؤلاء يخير فيهم الإمام بين أربعة أمور : المن عليهم ، أو الفداء بمال أو بأسرى ، أو بقتلهم ، أو استرقاقهم .

يفصل الإمام بما هو الأصلح والأنفع للإسلام والمسلمين ، وتقدير المصلحة يتم حسبما يُرى في الأسير من قوة بأس ، وشدة نكاية ، أو أنه مرجو إسلامه ، أو مأمون الخيانة ، أو مطاع في قومه ، أو أن المسلمين في

حاجة إلى المال أو المهنة ونحو ذلك : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧ ﴾ [الأنفال:٦٧].

وقال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٤ ﴾ [محمد:٤] .

- **هدي النبي ﷺ في الأسرى :**

فعل النبي ﷺ بالأسرى حسب المصلحة كما يلي :

**أولاً** : قتل النبي ﷺ رجال بني قريظة ، وقتل بعض أسرى بدر ، النظر بن الحارث ، وعقبة بن أبي معيب ، وقتل في أحد أبا عزة الجمحي ، وذلك لشدة أذاهم وخطرهم على الإسلام وأهله .

**ثانيًا** : استرق النبي ﷺ بني المصطلق ، واسترق هوازن ، واسترق بعض أسرى بدر وخيبر وقريظة وحنين ، وكل ذلك تمت به مصالح عظيمة .

**ثالثًا** : فدى النبي ﷺ رجلين من أصحابه برجلين من المشركين من بني عقيل، وفدى مسلمين بمكة بامرأة من فزارة ، وفدى بعض أسرى بدر بمال .

**رابعاً** : منَّ ﷺ على أهل مكة عام الفتح ، ومنَّ على ثمامة بن آثال الحنفي سيد أهل اليمامة فأسلم ، ومنَّ على بعض أسرى بدر ، وهو أبو العاص بن الربيع ، والمطلب بن حنطب .

عن جبير بن مطعم ﷺ أن النبي ﷺ قال في أسارى بدر : « لَوْ كَانَ المُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا ، ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلاَءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ » . أخرجه البخاري(١).

• **صفة معاملة الأسرى والأرقاء :**

الإسلام دين العدل والرحمة والإحسان مع المسلم والكافر ، فيجب الإحسان للأسير ، وإكرامه ، والعناية به ، وإطعامه ، وعدم إهانته ، أو إذلاله ، أو الإساءة إليه : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [ النحل : ٩٠ ] .

قال الله تعالى عن المؤمنين : ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ٧ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ٨﴾ [الإنسان:٨-٩] .

وعن أبي موسى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « فُكُّوا العَانِيَ ، يعني الأسير وَأَجِيبُوا الدَّاعِيَ ، وَعُودُوا المَرِيضَ ». أخرجه البخاري(٢).

وعن المعرور بن سويد ﷺ قال : « لقيت أبا ذرٍّ بالرَّبذة وعليه حلَّة ، وعلى غلامه حلَّة ، فسألته عن ذلك فقال : إنِّي سببت رجلًا فعيَّرته بأمِّه ، فقال لي النَّبي ﷺ : يا أبا ذر أعيَّرته بأمِّه ؟ إنَّك امرؤ فيك جاهليَّة ، إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه ممَّا يأكل ، وليلبسه ممَّا يلبس ، ولا تكلِّفوهم ما يغلبهم ، فإن كلَّفتموهم فأعينوهم ». متفق عليه(٣).

• **حكم الرق :**

جاء الإسلام وأبواب الرق مفتوحة فأغلقها إلا باب الأسر في الحرب ، وفتح الإسلام أبواب العتق للتخلص من الرق في كفارة الظهار ، واليمين ، والفطر

---

(١)أخرجه البخاري برقم: ( ٣١٣٩).

(٢)أخرجه البخاري برقم: ( ٣٠٤٦).

(٣)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٣٠) ، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٤٠/ ١٦٦١).

في رمضان بالجماع وغيرها من الكفارات: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[المجادلة:٣-٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْۚ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾[المائدة:٨٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [البلد:١١-١٣] .

وعن أبي مسعود الأنصاري ﷺ قال : « كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي ، فَسَمِعْتُ مِنْ خَلْفِي صَوْتًا : « اعْلَمْ ، أَبَا مَسْعُودٍ ، للهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ ».، فَالْتَفَتُّ فَإِذَا هُوَ رَسُولُ الله ﷺ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ الله ، فَقَالَ : « أَمَا لَوْ لمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ » . ، أَوْ « لمَسَّتْكَ النَّارُ » . أخرجه مسلم(١).

- **ما يُفعل بجيف الكفار :**

عن عبد الله ﷺ قال : « بَيْنَمَا رَسُولُ الله ﷺ سَاجِدٌ وَحَوْلَهُ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ ، إِذْ جَاءَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ بِسَلَا جَزُورٍ ، فَقَذَفَهُ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ الله ﷺ ، فَلَمْ يَرْفَعْ رَأْسَهُ ، فَجَاءَتْ فَاطِمَةُ فَأَخَذَتْهُ عَنْ ظَهْرِهِ ، وَدَعَتْ عَلَى مَنْ صَنَعَ ذَلِكَ ، فَقَالَ : " اللهُمَّ ، عَلَيْكَ بالمَلَأَ مِنْ قُرَيْشٍ : أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ ، وَعُتْبَةَ بْنَ

(١)أخرجه مسلم برقم: ( ٣٥/ ١٦٥٩ ).

رَبِيعَةَ ، وَعُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ ، وَشَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ ، وَأُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ - أَوْ أُبَيَّ بْنَ خَلَفٍ شُعْبَةُ الشَّاكُّ - " ، قَالَ : فَلَقَدْ رَأَيْتُهُمْ قُتِلُوا يَوْمَ بَدْرٍ ، فَأُلْقُوا فِي بِئْرٍ ، غَيْرَ أَنَّ أُمَيَّةَ - أَوْ أُبَيًّا - تَقَطَّعَتْ أَوْصَالُهُ فَلَمْ يُلْقَ فِي الْبِئْرِ » . متفق عليه[1].

ومن كرامة الله ﷻ للمؤمن أنه يُغسل إذا مات ، ويُصلى عليه ، ويُدفن كما ورد في السنة ، أما الكافر ، فلئلا ينتن، وتؤذي رائحته الناس يوارى بالتراب.

- **انتهاء الحرب بالإسلام أو المعاهدات** :

ينتهي القتال بين المسلمين والكفار بطرق متعددة :

منها : الدخول في الإسلام ، أو عقد الأمان ، أو عقد الهدنة ، أو عقد الذمة .

**أولًا** : انتهاء القتال بالإسلام ، إذا دخل الكفار في الإسلام عصمت دماؤهم وأموالهم ، وصار لهم حكم المسلمين في كل شيء .

وإعلان الإسلام يكون بنطق الشهادتين بأن يقول الكافر : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا رسول الله .

عن عبد الله بن عمر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أُمرتُ أنْ أقاتِلَ النَّاسَ حتى يقولوا : لا إلهَ إلا اللهُ ، فمن قال : لا إلهَ إلا اللهُ ، فقدْ عصَم منِّي نفسَه ومالَه إلَّا بحقِّه ، وحسابُه على اللهِ ». متفق عليه[2].

**الثاني** : انتهاء القتال بالأمان .

والأمان عقد يفيد ترك القتال بين الحربيين ، وفائدته ثبوت الأمن والطمأنينة للمستأمنين ، فيحرم قتال رجالهم ، وسبي نسائهم ، ويحصل من كل مسلم بالغ عاقل مختار ، وفي الحرب لا يعقده إلا الإمام أو نائبه .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٣١٨٥ )، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٠٨/ ١٧٩٤).

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٢٥)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٣٢/ ٢٠).

قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التوبة:٦] .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال في خطبته وهو مسندٌ ظهره إلى الكعبة : « المسلمونَ تتكافأُ دماؤهم ، ويسعى بذمَّتِهم أدناهم ». أخرجه أحمد وأبو داود بسند صحيح(١).

**ثالثًا** : انتهاء الحرب بالهدنة :

والهدنة هي مصالحة أهل الحرب على ترك القتال مدة معينة بعوض أو بدون عوض ، وتسمى الصلح أو الموادعة ويعقدها إما الإمام أو نائبه ، يعقدها مع الكفار حسب المصلحة أو الحاجة ، والأمان والهدنة عقود أمان يترتب عليها انتهاء الحرب ، وحصول الأمن والطمأنينة بين الطرفين ، وقد رغب فيها الإسلام لما فيها من المصالح .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنفال:٦١] .

**رابعاً** : انتهاء القتال بعقد الذمة .

وعقد الذمة التزام إقرار الكفار في ديار المسلمين ، وحمايتهم ، والدفاع عنهم ، مقابل الجزية التي تؤخذ منهم ، ولا يعقدها إلا الإمام أو نائبه ، ويحرم قتال أهل الذمة وقتلهم ، ما داموا ملتزمين بالعهد : ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [التوبة:٢٩] .

---

(١)صحيح/ أخرجه أبو داود برقم: ( ٢٧٥١)، وأخرجه أحمد برقم: ( ٦٧٩٧ ).

وعن فُريضة ﷺ قال : « كان رسول الله ﷺ إذا أَمَّرَ أميرًا على جيشٍ أو سَرِيَّةٍ ، أوصاه في خاصَّتِه بتقوَى الله ، ومن معه من المسلمين خيرًا ، ثم قال : اغْزُوا باسمِ الله في سبيلِ الله ، قاتِلوا مَن كفَر بالله ، اغزوا ، ولا تَغُلُّوا ، ولا تغدِروا ، ولا تمُثِّلوا ، ولا تقتُلوا وليدًا ، وإذا لقِيتَ عدوَّك مِن المشركين فادعُهم إلى ثلاثِ خِصالٍ- أو خِلالٍ- ، فأيَّتهنَّ ما أجابوك ، فاقبَلْ منهم ، وكُفَّ عنهم ». أخرجه مسلم[1].

(١)أخرجه مسلم برقم: (٣/ ١٧٣١).

# ٨- الخزانة الثامنة

• **حكم الهجرة من بلاد الكفر :**

المسلم المقيم في بلاد الكفر له ثلاث حالات :

**الأولى** : من لا يمكنه إظهار دينه ، ولا أداء واجباته ، وهو قادر على الهجرة ، فهذا تجب عليه الهجرة إلى بلاد المسلمين . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾[التوبة:١١٩] .

**الثانية** : من يمكنه إظهار دينه ، وأداء واجباته ، وهو قادر على الهجرة ، فهذا تستحب له الهجرة لتكثير سواد المسلمين ، والأمن من غدر الكفار ، والسلامة من رؤية المنكرات .

**الثالثة** : عاجز معذور بأسر أو مرض أو غيره ، فهذا تجوز له الإقامة ، ومتى تيسرت له الهجرة هاجر : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾[التوبة:١١٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾[الأنفال:٧٤].

• **الأنفس المعصومة :**

الأنفس التي حرم الله قتلها أربع ، وهي نفس المسلم ، والذمي ، والمعاهد ، والمستأمن ، فالمسلم هو الذى أقر بلا إله إلا الله ، وعمل بموجبها .

والذمي هو الكافر الذي يقيم بيننا ، ويدفع الجزية ، مقابل حمايته .

والمعاهد ، المعاهدون هم الكفار الذين بيننا وبينهم عهد ، سواء كانوا في بلادنا أو بلادهم ، فأنفسهم معصومة .

والمستأمن الكافر الذي يدخل بلادنا بأمان لتجارة أو للتعرف على الإسلام، فهذا نفسه معصومة .

أما الكافر الحربي الذي بيننا وبينه حرب ، فهذا يحل قتله ، لأنه محارب لنا .

والنفوس المحترمة قد يكون من الحق أن تقتل وهى محترمة ، إذا ارتكبت جرمًا يوجب القتل كالثيب الزاني ، وقتل النفس بغير حق ، والتارك لدينه ونحوهم .

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : قال الرسول ﷺ : « لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ ، يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلاَثٍ : النَّفْسُ بِالنَّفْسِ ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي ، وَالمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ ». متفق عليه[1].

- **أقسام الكفار** :

الكفار ينقسمون إلى قسمين ؛ أهل حرب ، وأهل عهد ، وأهل العهد ثلاثة أصناف ؛ أهل ذمة ، وأهل أمان ، وأهل هدنة .

**الأول** : أهل الذمة هم الكفار المقيمون في دار الإسلام ، ويقرون في دار الإسلام ، إذا دفعوا الجزية ، والتزموا أحكام الإسلام .

**الثاني** : أهل الأمان ، وهم الكفار الذين يقدمون إلى بلاد المسلمين من غير استيطان لها بقصد التجارة أو الزيارة ونحو ذلك ، فهؤلاء وأمثالهم يعرض عليهم الإسلام فإن أجابوا وإلا وجب ردهم إلى مأمنهم .

**الثالث** : أهل الهدنة ، وهم الكفار الذين في دارهم ، وقد عاهدوا المسلمين وصالحوهم على ترك القتال مدة معلومة .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٦٨٧٨)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٢٥/ ١٦٧٦).

**وهذه أقسام الناس من غير المسلمين وأحكامهم :**

## الأول : أهل الذمة

عقد الذمة هو إقرار الكفار على كفرهم بشرط بذل الجزية ، والتزام أحكام الإسلام .

- **حكم عقد الذمة :**

عقد الذمة لا يعقده إلا الإمام أو نائبه ، ويجوز عقد الذمة لليهود والنصارى والمجوس وكل كافر أو مشرك : ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩ ﴾ [التوبة:٢٩] .

وعن المغيرة بن الشعبة ﷺ أنه قال لعامل كسرى : « فَأَمَرَنَا نَبِيُّنَا رَسُولُ رَبِّنَا ﷺ « أَنْ نُقَاتِلَكُمْ حَتَّى تَعْبُدُوا اللهَّ وَحْدَهُ ، أَوْ تُؤَدُّوا الجِزْيَةَ » . أخرجه البخاري[1] .

- **شروط عقد الذمة :**

يشترط لصحة عقد الذمة ما يلي :

**أولًا** : أن يكون المعقود لهم من الكفار .

**ثانيًا** : يكون العقد من الإمام الأعظم أو نائبه .

**ثالثًا** : أن يدفع الكفار الجزية .

**رابعًا** : أن يلتزموا أحكام الإسلام .

---

(١)أخرجه البخاري برقم: ( ٣١٥٩).

فإذا توفرت هذه الشروط أعطاهم الإمام عهدًا مستمرًا للبقاء في دار الإسلام أو البقاء في ديارهم كما عاهد النبي ﷺ نصارى نجران في بلادهم .

- **كيفية التزام أهل الذمة بأحكام الإسلام :**

يتضمن هذا الالتزام خمسة أمور هي :

**أولا** : الخضوع لولاية القضاء الإسلامي ، والتحاكم إليه في أمورهم .

**ثانيا** : التميز عن المسلمين بما يدل عليهم ، لئلا يغتر بهم الناس ، وللإمام الإلزام به أو تركه ، حسب المصلحة .

**ثالثاً** : اجتناب ما فيه غضاضة على المسلمين في دينهم ، كالتعرض لأحكام الإسلام والقرآن بالنقد والسخرية أو الاستهزاء ونحو ذلك .

**رابعاً** : اجتناب ما فيه ضرر على المسلمين، كالاجتماع على قتال المسلمين، أو التجسس عليهم ، أو الزنا أو شرب الخمور ونحو ذلك .

**خامسا** : عدم إظهار المنكرات كأحداث البيع والكنائس ، وإظهار الخمر والخنزير ، والضرب بالناقوس ، وتعلية البنيان على المسلم ، والتعري وعدم الحشمة ونحو ذلك .

- **حكم أخذ الجزية من الكفار :**

**الجزية** : هي المال المأخوذ من الكفار ، مقابل الكف عن قتالهم ، وإسكانهم دار الإسلام ، فالذمي يتمتع بحماية الدولة الإسلامية له ، ويعفى من الخدمة العسكرية ، وينعم بأمن البلاد وخيراتها ، مقابل استقراره في دار الإسلام ، وحقن دمه والكف عن قتاله .

وسر أخذ الجزية من الكفار ، وإقامتهم مع المسلمين ، تهيئة الجو الإسلامي لهم ، لعلهم يسلمون باختيارهم ، ولهذا أوجب الإسلام حسن معاملتهم ، والإحسان إليهم ، وعدم الإساءة إليهم: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي

ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة:٨] .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « من قتل مُعاهَدًا لم يَرَحْ رائحةَ الجنَّةِ ، وإنَّ ريحَها توجدُ من مَسيرةِ أربعينَ عامًا ». أخرجه البخاري(١).

- **مقدار الجزية التي تؤخذ من أهل الذمة :**

مقدار الجزية يفرضه الإمام أو نائبه حسب العسر واليسر ، وحسب اختلاف الزمان والمكان والبلاد ، وتؤخذ من الذهب أو الفضة ، أو الأشياء المباحة كالثياب والطعام والحيوان وغيرها مما ينتفع به الإنسان في حياته مما أحله الله ، وما بذلوه وجب قبوله ، وتؤخذ من الذمي في نهاية العام .

- **من تجب عليه الجزية :**

تجب الجزية على كل من يجب قتله ، مقابل الكف عنه ، وهو كل كافر بالغ عاقل ذكر حر صحيح قادر ، وتسقط الجزية عن الكافر بإسلامه .

- **من لا تؤخذ منه الجزية :**

لا تؤخذ الجزية من الصبي والمجنون ، والمرأة والرقيق، والمريض والفقير، والأعمى والهرم والراهب ونحوهم مما لا قدرة لهم على العمل .

- **أحكام أهل الذمة :**

**أولاً** : إذا أدى أهل الذمة الجزية ، وجب قبولها منهم ، وحرم قتالهم أو إهانتهم ، أو الإساءة إليهم .

**ثانيًا** : تظهر لهم عند استلام الجزية القوة والعزة ونستلمها من أيديهم وهم صاغرون .

---

(١)أخرجه البخاري برقم: ( ٣١٦٦).

**ثالثًا** : نحترمهم كلٌ بحسبه تأليفًا لقلوبهم على الإسلام .

**رابعًا** : تجوز عيادتهم وتعزيتهم والإحسان إليهم ، تأليفًا لقلوبهم ، وطمعًا في إسلامهم .

**خامسًا** : لا يجوز تصدير أهل الذمة في المجالس ، ولا القيام لهم ، ولا بدأهم بالسلام ، فإن سلموا علينا وجب الرد عيهم بقولنا وعليكم .

**سادسًا** : لا تجوز تهنئة أهل الذمة بأعيادهم ولا حضور حفلاتهم .

**سابعًا** : إجراء أحكام الإسلام عليهم في المعاملات والعقوبات الجنائية : ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩ ﴾[التوبة:٢٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨ ﴾[الممتحنة:٨] .

وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ : « لا تبدَؤوا اليهودَ ولا النصارى بالسلامِ . فإذا لقِيتُم أحدَهم في طريقٍ فاضطَرُّوه إلى أضيَقِهِ » . أخرجه مسلم[1] .

وعن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال : « إذا سَلَّم عليكم أهلُ الكتاب فقُولُوا وعليكم » . متفق عليه[2] .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : « أنَّ اليهودَ جاؤوا إلى النَّبيِّ ﷺ بِرَجُلٍ منْهُمْ وامْرَأةٍ قد زَنَيا ، فَأَمَرَ بهِما فَرُجِما ، قريبًا من موضعِ الجنائزِ عندَ المْسجِدِ » . متفق عليه[3] .

---

(١)أخرجه مسلم برقم: ( ١٣/ ٢١٦٧ ).

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٦٢٥٧)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٦/ ٢١٦٣ ).

(٣)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٤٥٥٦ )، واللفظ له، ومسلم برقم: (١٦٩٩).

وعن أنس ﷺ قال : كان غلامٌ يهوديٌّ يخْدُمُ النبيَّ ﷺ ، فمَرِض ، فأتاه النبيُّ ﷺ يعودُه ، فقعد عند رأْسِه ، فقال له : أَسْلِمْ ، فنظَرَ إلى أبيه وهو عِندَه ، فقال له : أطِعْ أبا القاسِمِ ﷺ ، فأسْلَمَ ، فخرج النبيُّ ﷺ وهو يقول : الحَمْدُ لله الذي أنقَذَه مِنَ النَّارِ » . أخرجه البخاري[1] .

• **فضل من أسلم من أهل الكتاب وغيرهم .**

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلًا ١٠٨ ﴾ [الكهف:١٠٧-١٠٨] .

وعن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثةٌ لهم أجرانِ : رجلٌ من أهلِ الكتابِ ، آمن بنبيهِ وآمن بمحمدٍ ﷺ ، والعبدُ المملوكُ إذا أدَّى حقَّ الله وحقَّ مواليهِ ، ورجلٌ كانت عِندَهُ أمةٌ يطؤها ، فأدَّبها فأحسنَ أدبها ، وعلمها فأحسن تعليمها ، ثم أعتقها فتزوجها ، فلهُ أجرانِ » . متفق عليه[2] .

• **حكم بقاء الكفار في جزيرة العرب :**

لا يجوز إقرار اليهود والنصارى وسائر الكفار في جزيرة العرب للسكنى ، لئلا يجتمع في جزيرة العرب دينان ، أما استخدامهم للعمل فيجوز عند الضرورة والحاجة، بشرط أن نأمن شرهم، وإذا زالت الحاجة أُخرجوا منها.

عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لأُخرِجَنَّ اليهودَ والنَّصارى مِن جزيرةِ العربِ حتى لا أدع إلا مسلمًا » . أخرجه مسلم[3] .

• **حكم دخول الكافر المسجد :**

لا يجوز لكافر دخول المسجد الحرام بمكة ، وهو الحرم كله .

---

(١)أخرجه البخاري برقم: ١٣٥٦ ) .

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ٩٧، واللفظ له، ومسلم برقم: ٢٤١/ ١٥٤ .

(٣)أخرجه مسلم برقم: ٦٣/ ١٧٦٧.

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٨ ﴾[التوبة:٢٨] .

**ثانيًا** : لا يجوز للكفار دخول بقية المساجد إلا بإذن مسلم لحاجة أو مصلحة تُرجى كإسلامه .

عن أبي هريرة ﷺ قال : « بعث رسولُ الله ﷺ خيلًا قبل نجدٍ ، فجاءت برجلٍ من بني حنيفةَ يقال له ثمامةُ بن أثالٍ ، سيدُ أهلِ اليمامةِ ، فربطوه بسارية من سواري المسجدِ ، فخرج إليه رسولُ الله ﷺ ، قال : ما عندك يا ثمامةُ . قال : عندي يا محمدٌ خيرٌ ، فذكر الحديث . قال : أطلِقوا ثُمامة فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله » . متفق عليه[1] .

• **حكم بناء الكنائس والبيع** :

المساجد بيوت الإيمان والتوحيد والتقوى ، والكنائس والبيع بيوت الشرك ، والمساجد بيوت عبادة الله للمسلمين ، والكنائس والبيع معابد اليهود والنصارى ، يعبدون فيها غير الله ، والأرض لله ﷻ ، وقد أمر ببناء المساجد ، وإقامة العبادة فيها لله وحده لا شريك له ، ونهى سبحانه عن كل ما يُعبد فيه غير الله ، لما فيه من إقرار الباطل ، وتهيئة الفرصة للقيام به ، وغش الناس بوضعه بينهم: ﴿ وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨ ﴾ [الجن:١٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥ ﴾[آل عمران:٨٥] .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٤٦٢)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٥٩/ ١٧٦٤).

• **الأشياء التي ينتقض بها عهد الذمي :**

ينتقض عهد الذمي بواحد مما يلي :

**أولاً** : الامتناع من بذل الجزية .

**ثانيًا** : عدم التزام أحكام الإسلام .

**ثالثًا** : أن يقاتل المسلمين سواء كان منفردًا أو مع أهل الحرب .

**رابعًا** : أن يلتحق الذمي بدار الحرب مقيمًا بها .

**خامسًا** : أن يتجسس على المسلمين ، وينقل أخبارهم إلى الأعداء .

**سادسًا** : الزنا بالمرأة المسلمة .

**سابعًا** : أن يذكر الله تعالى أو كتابه أو رسوله بسوء .

وإذا انتقض عهد الذمي حلَّ دمه وماله ، وصار حربيًا يخير فيه الإمام بين الأمور الآتية :

القتل ، أو الاسترقاق ، أو المنَّ بلا فدية ، أو الفداء ، يفعل الإمام ما فيه المصلحة حسب حجم الجريمة .

عن أبي سعيد الخدري ﷺ أنَّ بني قُرَيظةَ نزَلوا على حُكْمِ سعدِ بنِ مُعاذٍ فأرسَل رسولُ الله ﷺ إلى سعدٍ فجاء على حمارٍ فقال رسولُ الله ﷺ : « قوموا إلى خيرِكم أوَ إلى سيِّدِكم ، قال : إنَّ هؤلاءِ قد نزَلوا على حُكْمِكَ ، قال : فإنِّي أحكُمُ فيهم أنْ تُقتَلَ مُقاتِلَتُهم ، وتُسبَى ذرِّيَّتُهم فقال رسولُ الله ﷺ : لقد حكَمْتَ فيهم بحُكْمِ اللهِ ، وقال مرَّةً : لقد حكَمْتَ بحُكْمِ المَلِكِ ».متفق عليه[1].

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٦٢٦٢ )، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٦٤/ ١٧٦٨ ).

## الثاني : أهل العهد

- **أهل العهد ثلاثة أصناف :**

أهل الذمة ، وأهل الهدنة ، وأهل الأمان .

عقد الهدنة هو عقد الإمام أو نائبه على ترك قتال العدو مدة معلومة .

- **حكم عقد الهدنة :**

عقد الهدنة يجوز بعوض أو بدون عوض، يعقده الإمام أو نائبه عند الحاجة ، حيث جاز تأخير الجهاد لعذر كضعف المسلمين ، وعقد الهدنة عقد لازم بين الطرفين ، ويُسن هذا العقد عند المصلحة أو الحاجة ، ولا يعقده إلا الإمام أو نائبه ، وتجوز الهدنة عند تكالب الأعداء ونحو ذلك من الأعذار .

- **الأحوال التي يجب فيها عقد الهدنة :**

يجب عقد الهدنة في حالتين :

**الأولى** : إذا طلب العدو عقد الهدنة أجبناه ، حقنًا للدماء ، ورغبة في السلم ، كما هادن النبي ﷺ مشركي قريش ، ووأدعهم في صلح الحديبية على ترك القتال عشر سنين :﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦١ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢ ﴾[الأنفال:٦١-٦٢] .

**الثانية** : البدء بالقتال في الأشهر الحرم ، ذو القعدة ، وذو الحجة ، ومحرم ورجب ، فنعاهد العدو على ترك القتال في هذه الأشهر ، فإن بدأ العدو بالقتال قاتلناه دفاعًا عن أنفسنا وديارنا ، وكذا لو دخلت الأشهر الحرام والحرب قائمة ولم يستجب العدو للموادعة نقاتله: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ

مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[التوبة:٣٦] .

والعرب قبل الإسلام كان يقاتل بعضهم بعضا في أي وقت ، ولهذا جعل الله الأشهر الحرم من بين الأشهر ، تطمينًا للنفوس ، وإغلاقًا لباب سفك الدماء مدة معلومة في تلك الأشهر المعلومة .

- **ما يترتب علي عقد الهدنة :**

يترتب على عقد الهدنة ما يلي :

إنهاء الحرب بين الطرفين المتحاربين ، أمن الناس على أنفسهم، وأموالهم ، وأهلهم ، وكف الأذى عنهم .

- **شروط صحة الهدنة :**

**يشترط لصحة الهدنة ما يلي :**

**أولاً** : أن يعقدها مع الأعداء الإمام أو نائبه .

**ثانيًا** : أن تعقد لمصلحة إسلامية كرجاء الإسلام للعدو .

**ثالثًا** : أن تكون مؤقتة لمدة معينة .

وتنتقض الهدنة إذا نقضها العدو بقتال أو بمناصرة عدو آخر ، وبما ينتقض به عقد الذمة كما سبق:﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾[الأنفال:٥٨].

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[التوبة:١٢] .

• **ما يفعله الإمام إذا علم بغدر المعاهدين :**

إذا علم إمام المسلمين خيانة أو غدراً ممن عاهدهم ، فلا يحل له محاربتهم إلا بعد إعلامهم بنبذ العهد حتى لا يؤخذوا على غرة :﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾[الأنفال:٥٨].

• **حكم الوفاء بالعهد :**

يجب الوفاء بالعهد مع العدو ، ولا يجوز نقضه إلا إذا نقض العدو العهد أو لم يستقيم لنا ، أو خفنا منه خيانة ، فهنا انتقض العهد ، ولا يلزمنا البقاء عليه ، ولنا إذا خفنا منهم خيانة أن نقاتلهم بعد إعلامهم بنبذ العهد: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾[ الإسراء : ٣٤ ].

وقال الله تعالى : ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾[التوبة:٣-٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ ﴾[التوبة:٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾[الأنفال:٥٨].

# الثالث : أهل الأمان

- **أهل العهد ثلاثة أصناف :**

أهل الذمة ، وأهل الهدنة ، وأهل الأمان .

الأمان هو تأمين الكافر في دار الإسلام مدة محدودة، وهذا الأمان ليس عقدًا، فالأمان فقط حتى يبيع المستأمن تجارته في بلاد المسلمين ويرجع ، أو حتى يشاهد الكافر بلاد المسلمين ويرجع ، أو حتى يسمع كلام الله ويرجع .

فعقد الأمان هو تأمين الكفار الذين يقدمون إلى بلاد المسلمين لمدة محدودة من غير استيطان لها بقصد التجارة ونحوها حتى يرجعون إلى بلادهم .

- **حكم عقد الأمان :**

يجوز تأمين الكافر لمدة محدودة ، حتى يبيع تجارته ، أو يسمع كلام الله ويرجع ونحو ذلك ، من كل مسلم بالغ عاقل مختار ، ما لم يُخشى ضرره .

ويصح عقد الأمان من الإمام لجميع المشركين ، فإذا أُعطي الكافر العهد ، حرم قتله و أسره وأذيته :﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾[التوبة:٦] .

- **حكم بقاء الكفار في جزيرة العرب :**

**أولاً** : حدود جزيرة العرب غربًا البحر الأحمر ، وشرقًا الخليج العربي ، وشمالًا نهاية البحر الأحمر من الشمال ، وما يساوي نهايته شرقًا من مشارف الشام والعراق ، أما العراق وسوريا والأردن فليست منها ، وجنوبًا بحر العرب .

**ثانيًا** : لا يجوز إقرار اليهود والنصارى وسائر الكفار في جزيرة العرب للسكنى ، أما على وجه العمل فيجوز للضرورة بشرط أن نأمن شرهم ، ولا يوجد غيرهم من المسلمين .

عن ابن عباس ﷺ قال : قال الرسول ﷺ : « أخرِجوا المشركينَ من جزيرةِ العربِ » . متفق عليه[1] .

وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لأُخْرِجَنَّ اليَهودَ والنَّصارَى من جزيرةِ العربِ ، حتَّى لا أدَعَ إلَّا مسلمًا » . أخرجه مسلم[2] .

• **حكم دخول الكافر المسجد :**

**أولاً** : لا يجوز للكفار دخول حرم مكة ، كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [التوبة:٢٨] .

**ثانيًا** : لا يجوز للكفار دخول مساجد الحل إلا بإذن مسلم لحاجة أو مصلحة دينية أو دنيوية .

عن أبي هريرة ﷺ قال : بعث النبي ﷺ خيلًا قبل نجدٍ ، فجاءت برجلٍ من بني حنيفةَ يقال له ثمامةُ بن آثالٍ ، فربطوه بسارية من سواري المسجدِ ، فخرج إليه رسولُ الله ﷺ ، قال : أطلِقوا ثُمامة ، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ، ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله » . متفق عليه[3] .

• **إثم من قتل معاهدًا بغير جرم :**

يحرم على المسلم أن يقتل معاهدًا بغير جرم .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٣٠٥٣)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٢٠/ ١٦٣٧ ).

(٢)أخرجه مسلم برقم: ( ٦٣/ ١٧٦٧ ).

(٣)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٤٦٢)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٥٩/ ١٧٦٤).

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « من قتل مُعاهَدًا لم يَرَحْ رائحةَ الجنَّةِ ، وإنَّ ريحَها توجدُ من مَسيرةِ أربعينَ عامًا » . أخرجه البخاري[1] .

• **حكم الأمان :**

يجوز الأمان من كل مسلم ، سواء كان الإمام ، أو أحد المسلمين ، فيصح من الإمام لعموم الكفار ، ويصح من المسلم للكافر فيقول له : أنت آمن ، أو لا بأس عليك ، أو قد أجرناك ونحو ذلك .

قال الله تعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ [التوبة:٦] .

وعن أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنها قالت : ذهبتُ إلى رسول الله ﷺ عامَ الفتحِ ، فوجَدْتُهُ يغتَسِلُ ، وفاطمَةُ ابنَتُهُ تَستُرُهُ ، قالت : فسلَّمتُ عليه ، فقال : من هذه ؟ . فقُلْت : أنا أُمُّ هانئٍ بنتُ أبي طالِبٍ ، فقال : مَرحبًا بأُمِّ هانئٍ . فلما فَرَغ من غُسلِهِ قام فصلَّى ثَمانيَ ركعاتٍ ، مُلتَحِفًا في ثوبٍ واحدٍ ، فقُلتُ : يا رسولَ اللهَّ ، زَعَم ابنُ أُمِّي ، أنه قاتِلٌ رجلًا قد أَجَرْتُهُ ، فُلانَ ابنَ هُبَيْرَةَ ، . فقال رسولُ الله ﷺ : قدْ أَجَرْنا من أَجَرْتِ يا أُمَّ هانئٍ ، قالت أم هانئ : وذلك ضحى » . متفَق عليه[2] .

• **حقوق المستأمن :**

المستأمن هو الحربي الذي دخل دار الإسلام بأمان دون نية الاستيطان ، فهذا له حق الأمان بالمحافظة على نفسه وماله وسائر حقوقه ومصالحه ما دام مستمسكًا بحكم الأمان ، وعليه الالتزام بأحكام الإسلام في المعاملات

(١)أخرجه البخاري برقم: ( ٣١٦٦ ).

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٣١٧١)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٧٠/ ٣٣٦ ).

والخضوع لأحكام الإسلام في الجنايات والعقوبات ، ويحرم على الناس أذاه وسبه أو الإساءة إليه أو قتله .

عن علي ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « ذِمَّةُ المُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ ، يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ ، فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، لاَ يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلاَ عَدْلًا » . متفق عليه(١) .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « من قتل مُعاهَدًا لم يَرَحْ رائحةَ الجنَّةِ ، وإنَّ ريحَها توجدُ من مَسيرةِ أربعينَ عامًا » . أخرجه البخاري(٢) .

- **حكم الوفاء بالعهود والعقود :**

يجب الوفاء بالعهود والعقود ، وعدم الوفاء بها يستوجب مقت الله وغضبه ، والوفاء بها خلق الأنبياء والمرسلين ، سواء كانت مع مسلم أو كافر: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾ [المائدة:١] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤ ﴾[الإسراء :٣٤].

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣ ﴾[الصف:٢-٣] .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا : إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ ». متفق عليه(٣).

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٧٣٠٠ )، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٤٦٨/ ١٣٧٠ ).

(٢)أخرجه البخاري برقم: ( ٣١٦٦ ).

(٣)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٣٤ )، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٠٦/ ٥٨ ).

# ٩- الخزانة التاسعة

• **شروط العهود والعقود :**

**يشترط في العهود والعقود التي يجب احترامها والوفاء بها ما يلي :**

**أولًا** : ألا تخالف القرآن والسنة .

**ثانيًا** : أن تكون عن رضا واختيار بين الطرفين .

**ثالثًا** : أن تكون بينة واضحة ، لا لبس فيها ولا غموض .

قال الله تعالى : ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ [ الإسراء : ٣٤ ] .

• **حكم نقض العهود والعقود :**

لا يجوز نقض العهد إلا في إحدى الأحوال الآتية :

**أولاً** : إن كانت مؤقتة بوقت ، وانتهت مدتها .

قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾[التوبة: ٤].

**ثانيًا** : إذا أخل العدو بالعهد .

قال الله تعالى : ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾ [التوبة:٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾[التوبة: ١٣] .

**ثالثا** : إذا ظهرت من العدو بوادر الغدر ، ودلائل الخيانة .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾[الأنفال:٥٨].

# أحكام الرجوع من الجهاد في سبيل الله

- **ما يقوله المجاهد إذا قفل من الغزو في سبيل الله .**

عَنْ عَبْدِ اللهَّ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُّ عَنْهُمَا « أَنَّ رَسُولَ اللهَّ ﷺ كَانَ إِذَا قَفَلَ مِنْ غَزْوٍ أَوْ حَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ ، يُكَبِّرُ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ مِنَ الأَرْضِ ثَلاَثَ تَكْبِيرَاتٍ ، ثُمَّ يَقُولُ: « لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُّ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ سَاجِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ، صَدَقَ اللهُّ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ ».متفق عليه[1] .

وعن أنس بن مالك ﷺ قال : « كنا مع النبيِّ ﷺ مَقْفَلَهُ من عُسْفَانَ ، ورسولُ الله ﷺ على راحلتِهِ ، وقد أردفَ صفيةَ بنتَ حُيَيٍّ، فعثرتْ ناقتُهُ فصُرِعَا جميعًا، فاقتحمَ أبو طلحةُ فقال : يا رسولَ الله جعلني اللهُ فداءكَ، قال : عليكَ المرأةَ . فقلب ثوبًا على وجهِهِ وأتاها فألقاهُ عليها ، وأصلحَ لهما مركبهما فركبا، واكتنفنا رسولُ الله ﷺ ، فلمَّا أشرفنا على المدينةِ، قال : آيبونَ تائبونَ ، عابدونَ، لربنا حامدونَ. فلم يزل يقولُ ذلك ، حتى دخل المدينةَ » . متفق عليه[2] .

- **ما يفعله المسلم عند القدوم من السفر :**

عن كعب مالك ﷺ : « أن الرسول ﷺ كان لا يقدمُ من سفرٍ إلا نهارًا ، في الضحى . فإذا قدم ، بدأ بالمسجدِ . فصلى فيهِ ركعتينِ . ثم جلس فيهِ » . متفق عليه[3].

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ١٧٩٧ ) ، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٤٢٨/ ١٣٤٤ ).

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٣٠٨٥ )، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٤٢٩/ ١٣٤٥ ).

(٣)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٤٦٧٧ )، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٧٤/ ٧١٦ ).

وعن أنس ﷺ قال : « كانَ النبي ﷺ لا يطرقُ أهله ، كان لا يدخلُ إلا غدوةٌ أو عشية » . متفق عليه[١].

- **البشارة بالفتوح :**

عن جرير بن عبد الله ﷺ قال : قال لي رسول الله ﷺ : « ألا تُريحُني من ذي الخَلَصَةِ ، وكان بيتًا لخَثْعَمُ ، يسمى الكعبةَ اليمانيةَ ، فانطلقتُ في خمسينَ ومائةٍ من أحْمَسَ ، وكانوا أصحابَ خيلٍ ، فأخبرتُ النبيَّ ﷺ أني لا أثْبُتُ على الخيلِ ، فضرب في صدري حتى رأيتُ أثرَ أصابعِه في صدري ، فقال : اللهم ثَبِّتْه ، واجعله هاديًا مهديًا . فانطلق إليها فكسرها وحرَّقها ، فأرسل إلى النبيِّ ﷺ يُبشِّرُه ، فقال رسولُ جَريرٍ : يا رسولَ الله ، والذي بعثك بالحقِ ، ما جئتُك حتى تركتُها كأنها جملٌ أجربُ ، فبارَكَ على خَيلِ أحمَسَ ورجالها خمسَ مراتٍ » . متفق عليه[٢].

- **استقبال الغزاة :**

عن السائب بن يزيد ﷺ قال : « ذهبنا نَتَلقى رسول الله ﷺ مع الصبيان إلى ثنياتِ الوداعِ ». أخرجه البخاري[٣].

وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال : « كانَ الرسول ﷺ إذا قدم من سفرٍ تلقى بصبيانِ أهلِ بيتِه . قال ، وإنه قدم من سفرٍ فسبقَ بي إليه ، فحملني بين يديه ، ثم جئَ بأحدِ ابنيْ فاطمةَ . فأردفَه خلفَه . قال ، فأدخلنا المدينةَ ، ثلاثةً على دابةٍ » . أخرجه مسلم[٤].

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ١٨٠٠ )، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٨٠/ ١٩٢٨ ).
(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٤٣٥٥)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٣٧/ ٢٤٧٦).
(٣)أخرجه البخاري برقم: ( ٣٠٨٣).
(٤)أخرجه مسلم برقم: ( ٦٦/ ٢٤٢٨ ).

• **صنع الطعام عند القدوم :**

عن جرير بن عبد الله رضي الله عنهما : « لمَّا قدِمَ النَّبيُ ﷺ المدينةَ : نَحر جَزورًا ، أو بقَرةً ». متفق عليه[1].

فالحمدُ لله ربِ العالمين على ظهورِ الإسلامِ ، وعلى عزِ الإسلامِ ، وعلى بقاءِ الإسلامِ ، وعلى نعمِ الله التي لا تُعد ولا تُحصى: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾[ الجاثية :٣٦-٣٧ ] .

« اللَّهمَّ لَكَ الحمدُ أنتَ قيَّامُ السَّمواتِ والأرضِ ومن فيهنَّ ولَكَ الحمدُ أنتَ نور السَّمواتِ والأرضِ ومن فيهنَّ ولَكَ الحمدُ أنتَ مالِكُ السَّمواتِ والأرضِ ومن فيهنَّ ولَكَ الحمدُ أنتَ الحقُّ ووعدُكَ حقٌّ وقولُكَ حقٌّ ولقاؤُكَ حقٌّ والجنَّةُ حقٌّ والنَّارُ حقٌّ والسَّاعةُ حقٌّ والنَّبيُّونَ حقٌّ ومحمَّدٌ حقٌّ ، اللَّهمَّ لَكَ أسلمتُ وبِكَ آمنتُ وعليْكَ توَكَّلتُ وإليْكَ أنبتُ وبِكَ خاصمتُ وإليْكَ حاكمتُ فاغفر لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ وما أسررتُ وما أعلنتُ أنتَ المقدِّمُ وأنتَ المؤخِّرُ لا إلَهَ إلَّا أنتَ ولا إلَهَ غيرُكَ » . متفق عليه[2] .

« ربَّنا لك الحمدُ ملءَ السماواتِ و الأرضِ ، وملءَ ما شئتَ من شيءٍ بعدُ أهل السناء والمجد حق ما قال العبد وكلُّ لك عبد ، اللهمَّ لا مانعَ لمِا أعطَيْتَ ، ولا مُعْطيَ لمِا منَعْتَ ، ولا ينفَعُ ذا الجَدِّ منك الجَدُّ ». أخرجه مسلم[3].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٣٠٨٩)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٧١٥) .

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٦٣١٧)، واللفظ له، ومسلم برقم: (١٩٩/ ٧٦٩) .

(٣)أخرجه مسلم برقم: ( ١٩٤/ ٤٧١).

• **فقه الجهاد في سبيل الله :**

**الجهاد في سبيل الله له معنيان :**

**أحدهما** : بمعنى بذل الجهد لإعلاء كلمة الله ، ونشر دينه بالدعوة إلى الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة كما قال سبحانه في الآيات المكية : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الفرقان:٥١-٥٢] .

فهذا كله وما في معناه بمعنى الدعوة إلى الله ، وبذل الجهد في نشر دينه .

**الثاني** : الجهاد بمعنى القتال كما هو غالب الآيات المدنية كقوله سبحانه : ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [التوبة:٤١] .

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢١٨﴾ ﴾ [البقرة:٢١٨] .

فالجهاد بمعنى الدعوة حسن لذاته ، لما يفضي إليه من هداية الناس ، والجهاد بمعنى القتال حسن لغيره ، لما يفضي إليه من حفظ الأمن ، وصد عدوان المعتدين ، فالله خلق الخلق لعبادته وطاعته ، وأرسل الرسل لإبلاغ شرعه إلى عباده ، وأنزل كتبه ، ليهتدي بها الناس إلي ربهم ، فمن استجاب وآمن بالله وعمل بشرعه ، فهو من المؤمنين ، ومن أبى الإسلام فعليه أن يدفع الجزية مقابل رعايته في المجتمع الإسلامي ، فإن أبى الإسلام ، وأبى دفع الجزية ، فهذا مستكبر معاند ، وظالم ، وكافر غير شاكر ، وعاصٍ غير مطيع ، يجب قتله حتى يكون الدين كله لله .

فالقتال في سبيل الله له أسباب ، وله أوامر ، وله أوقات ، وله أحوال .

والدعوة إلى الله مشروعة ومفتوحة كل وقت ، لكل مسلم ومسلمة ، والإسلام جاء لهداية الناس ، ورحمتهم ، ودعوتهم لعبادة الله وحده لا شريك له كما قال سبحانه : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[يوسف:١٠٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨] .

فالدعوة إلى الله واجبة على جميع المسلمين في جميع الأوقات والأحوال ، ليلًا ونهارًا ، سرًا وجهارًا ، حال الأمن وحال الخوف ، حال الإقامة وحال السفر ، وهي واجبة على الرجال والنساء على حد سواء : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [التوبة:٧١ ] .

والنبي ﷺ أعطى الدعوة أكثر الوقت ، وهي مسئولية الأمة بعده ، أما الجهاد في سبيل الله فيشرع عند اللزوم ، بل هو واجب لدفع عدوان من اعتدى على المسلمين ، وقتل معاند ، ونصر مظلوم ، وحماية المسلمين ، ورفع الظلم عنهم ، حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾[البقرة: ١٩٣] .

وقال الله تعالى:﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾[الأنفال:٣٩-٤٠].

فالدعوة إلى الله لها كل الأوقات، أما القتال في سبيل الله فيجب عند الحاجة فقط.
فنوح ﷺ دعا إلى الله ولم يقاتل ، وهود وصالح ، وإبراهيم ولوط ، وإسماعيل وإسحاق ، وموسى وعيسى ، جميع هؤلاء الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام دعوا إلى الله ولم يؤمروا بقتال ، وقاتل داود من بني إسرائيل .

ثم من الله على هذه الأمة بخاتم الأنبياء والمرسلين فدعا إلى الله ﷻ ، ولما أوذي والمؤمنون معه أذن الله لهم بالقتال بعد الهجرة للمدينة كما قال سبحانه : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾[الحج:٣٩-٤٠] .

ولما أظهر الله دينه ، وأعز أهله ، وصارت لهم دار في المدينة ، وقويت شوكتهم ، عظم ذلك على الكفار ، فزاد شرهم وظلمهم ، وعظم كيدهم وطغيانهم ، فحملوا سيوفهم ، وركبوا خيلهم ، للقضاء على الإسلام وأهله والدعاة إليه ، واجتمع المشركون كافة لإبادة المسلمين كافة ، فحينئذٍ شرع الله للمسلمين قتالهم ، كما قال سبحانه : ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾[ التوبة : ٣٦ ] .

وكلما احتاج المسلمون إلى القتال ، بسبب ظلم الكفار لهم ، وصدهم عن سبيل الله ، شرعه الله لهم ، وأمرهم به ، ورغبهم فيه ، لإعلاء كلمة الله، كما قال سبحانه : ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾[النساء:٧٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [ الحج : ٣٩ – ٤٠ ] .

وقد جاهد المسلمون مع النبي ﷺ لرد كيد الكفار ، وصد عدوانهم ، ومنعهم من الصد عن سبيل الله ، كما حصل في غزوة بدر وأحد ، والأحزاب والحديبية ، وخيبر ، وفتح مكة والطائف وغيرها، كما قال سبحانه : ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾ [التوبة:٨٨-٨٩] .

وقد فرض الله الجهاد في سبيل الله على المسلمين كافة ، كما فرض عليهم الصلاة والزكاة ، فلا يحل لأحد أن يتخلف عنه إلا من عذر، كما قال سبحانه : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [البقرة:١٩٠] .

وقال سبحانه : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ [البقرة:٢١٦] .

ولا يستثنى من ذلك إلا أهل الأعذار من المسلمين كما قال سبحانه : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾

وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [ التوبة :٩١- ٩٢ ].

والدعوة إلى الله كالمطر للنبات ، فإذا لم يوجد مطرٌ لا يوجد نبات ولا حيوان ، وكذلك إذا لم توجد دعوة لا يعرف الناس الإيمان والعبادات كالصلاة والصيام والزكاة والحج وغيرها ، ولا يعرفون المعاملات والآداب والأخلاق والسنن والأحكام ، لذلك كانت الدعوة أحسن الأعمال بعد الإيمان، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [ فصلت : ٣٣ ] .

فالصلاة لها وقت ، والصيام له وقت ، والحج له وقت ، والجهاد له وقت ، والدعوة إلى الله لها كل الوقت ؛ لأنها أم الأعمال ، وهي وظيفة كل فردٍ من الأمة كما قال سبحانه : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف:١٠٨] .

**والجهاد نوعان :**

جهادٌ داخلي .. وجهادٌ خارجي .

فالجهاد الداخلي ، جهاد النفس ، وجهاد الهوى ، وجهاد الشيطان ، وجهاد الدنيا .

أما الجهاد الخارجي ، فهو جهاد الأعداء والكفار من شياطين الإنس والجن باللسان والسيف ، والجهاد الداخلي مقدمٌ عن الجهاد الخارجي .

فإذا انتصر المسلم على عدوه الداخلي ، نصره الله على عدوه الخارجي ، وإذا انتصر عليه عدوه الداخلي ، انتصر عليه عدوه الخارجي : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [ الحج :٤٠- ٤١ ] .

فيجب علينا الاعتماد على الله ، والتوكل عليه ، والتوجه إليه في جميع الأمور ، وامتثال أوامره ، وفعل ما يرضيه ويحبه ، واجتناب ما يكره ، كما يجب علينا ألا نتأثر من الأشكال والأموال ، والأشياء ، والقوات وغيرها من المخلوقات والأسباب ، فالكل في قبضة الله ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾ [هود:٥٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [آل عمران:١٧٥] .

وإنما نتفكر ماذا يريد الله ورسوله ﷺ ؟ وماذا يحب الله ورسوله ﷺ ؟ .

وماذا فعل رسول الله ﷺ عند لقاء أعدائه فنفعله ليرضى الله عنا ، وينصرنا على أعدائنا ؛ لأنه تكفل بنصر رسله وأتباعهم، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر:٥١] .

والجهاد ذروة سنام الإسلام ، ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة كما قال النبي ﷺ : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ ، أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ الله ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ ». أخرجه البخاري[1].

(١)أخرجه البخاري برقم: ( ٧٤٢٣ ).

وأهل الجهاد في سبيل الله هم الأعلون في الدنيا والآخرة ، والرسول ﷺ في الذروة العليا منه ، واستولى ﷺ على أنواعه كلها ، فجاهد في الله حق جهاده بالقلب ، والجنان ، والدعوة ، والبيان ، والسيف ، والسنان ، فلهذا كان أرفع العالمين ذكرًا ، وأعظمهم عند الله قدرًا ، وأمره الله ﷻ بالجهاد من حين بعثه فقال : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾[الفرقان:٥١-٥٢] .

فهذه آية مكية أمره الله فيها بجهاد الكفار بالحجة والبيان ، وإبلاغ القرآن .

ثم لما استمر في الدعوة إلى الله ، وآذاه الكفار، وظلموه وسبوه ، وأرادوا قتله ، وكفروا به، وصدوا عن سبيل الله، وصدوه عن المسجد الحرام، وبالغوا في ظلمهم وطغيانهم ، وأصروا على كفرهم وشركهم ، وأذوا رسو ل الله وأصحابه، أذن الله له بالقتال بعد أن مُنع منه ثلاثة عشر عاماً في مكة، فلما بلغ الأذى والظلم أشده نزل قوله سبحانه : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾[الحج:٣٩] .

فجاهد عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة إلى المدينة ، حتى لا تكون فتنة ، ويكو ن الدين كله لله ، ويعبد الله وحده لا شريك له ، امتثالًا لأمر ربه الذي قال له : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ﴾[التحريم:٩] .

والجهاد بالقلب واللسان ، وبالسيف والسنان ، كله لإعلاء كلمة الله ، ونشر دين الله ، ليحصل الخير لجميع البشرية ، ويكف عنهم الشر ، وذلك يتطلب بذل النفس ، والمال ، والوقت ، والتضحية بكل شيء من أجل إعلاء كلمة الله : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[ الحجرات : ١٥ ] .

**وحقيقة المجاهدة تكون بثلاثة أشياء :**

**الأول** : أن نكمل العمل من أوله إلى آخره ، عبادةً أو دعوةً ، وشرطه أن يكون خالصًا لله ، موافقًا لسنة رسول الله ﷺ، كما قال سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف: ١١٠] .

**الثاني** : التضحية بالبذل والترك من أجل الدين ، فنقدم حاجات الدين على حاجات النفس ، ومحبوبات الرب على محبوبات النفس ، والدعوة على جميع الأعمال ، والأهم على المهم ، وبذلك نفوز في الدنيا والآخرة : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [ التوبة : ١٠٠ ] .

**الثالث** : الاستقامة على هذا العمل ، والاستمرار فيه ، وإقامة الناس عليه ، وبذلك تحصل لنا السعادة في الدنيا والآخرة كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فصلت:٣٠-٣٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [ يوسف : ١٠٨ ] .

وبهذه المجاهدة الله يرزقنا الإخلاص ، وحسن العمل ، وتحصل الهداية لنا ولجميع الناس كما قال سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٩] .

والنبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم حين واجهوا الكفار في بدر لم يتفكروا من سيكون معهم الفرس أو الروم ؟ .

بل هم اجتهدوا كيف يكون الله معنا ، وما زالوا يدعون الله ويبكون حتى نزلت عليهم نصرة الله مع قلتهم وقلة ما معهم ، وكثرة عددهم كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [ آل عمران : ١٢٣- ١٢٦ ] .

فالإيمان والدعاء والأعمال الصالحة عدة المجاهدين في سبيل الله ، وهي سبب نصرهم ، سواء كان جهادهم بالسيف وهو القتال ، أو باللسان وهو الدعوة إلى الله كما قال سبحانه : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الروم:٤٧] .

وقد أمر الله عباده المجاهدين في سبيله بالشجاعة الإيمانية ، وإعداد القوة ، والسعي في جلب الأسباب المقوية للقلوب والأبدان ، والتخلص من قيد الشهوات ، وسيئ الأخلاق ، والثبات والصبر ، ليواجهوا الأعداء بكمال الإيمان ، وكمال التقوى ، وكمال الصبر ، فيحصل لهم النصر كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأنفال:٤٥ -٤٦] .

وفي ذلك كله نصرة لدين الله ، وقوة لقلوب المؤمنين ، وإرهاب للكافرين ، وإعلاء لكلمة الله ، وإظهار لدينه : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [ الأنفال : ٦٠ ] .

فمن اتصف بتلك الصفات العظيمة حق له النصر من الله عز وجل : ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج:٤٠-٤١] .

# ١٠- الخزانة العاشرة

- **فقه الجهاد في سبيل الله :**

بين الله في القرآن الكريم أن المجاهدين في سبيل الله إذا تخلصوا من ثلاث آفات ، حصلوا على كمال الإيمان والتقوى ، فحصل لهم النصر من الله ، وقهر بهم الأعداء ، وهدى بهم من شاء من عباده .

**وهذه الآفات التي يجب التخلص منها هي :**

- آفة الأخلاق السيئة
- وآفة الشهوات
- وآفة اليقين على المشاهدات .

فلا بدَّ أن ينقوا ويهذبوا وينخلوا ، لتخرج منهم هذه الآفات ، ويحصلوا على كمال الإيمان والتقوى الذي يحصل به النصر .

فإذا تمت التنقية ، بقي ما يحب الله وينصر به من الإيمان التقوى ، وخرج ما يبغض الله ويخذل به من الشرك والمعاصي .

**فالأول : منخل الصفات**

فلا بدَّ من التحلي بالأخلاق الحسنة من الإيمان والتقوى ، والتخلص من الأخلاق السيئة كالكفر والكبر ، والحسد والعجب والغرور .

فطالوت كان فقيرًا يسقي الماء بالقِرَب ، فاختاره الله ، وبعثه ملكًا على قومه من بني إسرائيل ، ولكنهم لم يقبلوه بسبب كبرهم وحسدهم :﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ

عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٧﴾ ﴾[البقرة:٢٤٧] .

فأنى يُنصر هؤلاء وقد ردوا بسبب أخلاقهم السيئة ما اختار الله لهم ، واصطفاه عليهم ؟ .

فلا بدَّ أن يتخلقوا بالأخلاق الطيبة التي يحبها الله ، ويتخلصوا من الأخلاق ا لسيئة التي يبغضها الله ، ولكن هذا لا يكفي ، فلا بدَّ أن يمروا بمنخل آخر وهو :

**الثاني : منخل الشهوات**

فالله له محبوبات وأوامر ، والنفس لها محبوبات وأوامر ، فلا بد من تقديم ما يحبه الله على ما تحبه النفس ، فالنصر ينزل ، والهداية تحصل ، بامتثال أوامر الله ، فمن قدم أوامر الله على شهواته ، فاز ونُصر ، ومن قدم شهواته على أوامر الله ، خسر وحُرِم ، كما شرب أكثر جيش طالوت من النهر الشرب المنهي عنه فحُرموا الخير ، ورجعوا على أعقابهم ، ونكصوا عن قتال عدوهم ، وكان في عدم صبرهم عن الماء ساعة واحدة ، أكبر دليل على عدم صبرهم على القتال الذي سيتطاول ، وتحصل به المشقة الكبيرة ، وكان في رجوعهم عن باقي العسكر ما يزداد به الثابتون توكلاً على الله وثباتاً وتضرعاً إليه ، فقعد من شرب كثيراً ، وسار مع طالوت من اغترف غرفة بيده، كما قال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ ﴾[البقرة:٢٤٩] .

وحسن الأخلاق ، وتقديم ما يحبه الله على ما تحبه النفس لا يكفي ، فلا بدَّ من منخلٍ آخر وهو :

**الثالث : منخل المشاهدات**

فالله سبحانه بيده كل شيء ، وغيره ليس بيده شيء ، فمن كان يقينه على الله نصره ، وجعله سببًا لهداية الناس ، ومن كان يقينه على المشاهدات والمصنوعات والأعداد أذله الله بها وهزم بسببها .

كما قال سبحانه عن طالوت وجيشه : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾ [البقرة:٢٤٩ ] .

فالمؤمنون الذين أطاعوا أمر الله ، ولم يشربوا من النهر الشرب المنهي عنه ، وساروا مع طالوت لحرب عدوه صاروا فريقين :

فريق لما رأوا قلتهم ، وكثرة عدوهم قالوا : لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ؛ لأنهم تأثروا بالمشاهدات من كثرة العدو ، وكثرة عددهم وسلاحهم .

أما الفريق الآخر ، فهم أهل الإيمان الثابت ، واليقين الراسخ ، فقالوا مثبتين لباقيهم ، ومطمئنين لقلوبهم ، وآمرين لهم بالصبر : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ

مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾[البقرة:٢٤٩- ٢٥١] .

**فلابد من التخلية قبل التحلية .**

**فالتصفية الأولى** : للتحلي بالأخلاق الحسنة، والتخلي عن الصفات السيئة .

**والتصفية الثانية** : لتقديم أوامر الله ، على شهوات النفس .

**والتصفية الثالثة** : لتحصيل اليقين على الله ، والتوكل عليه وحده في جميع الأمور ، وعدم الالتفات مطلقاً إلى الأشياء والمشاهدات:﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[التغابن:١٣] .

فمن نجح في هذه الابتلاءات الثلاثة ، نصره الله ﷻ ، وجعله سبباً لهداية الناس : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[ الروم : ٤٧ ] .

والتقوى والصبر سبب لحفظ المؤمنين من كيد الأعداء ، وإذا كادنا الأعداء وغلبونا ، علمنا أن حقيقة التقوى والصبر لم تكن في قلوبنا، كما قال سبحانه : ﴿ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [آل عمران:١٢٠] .

وإذا تقابلت طائفتان من الناس في ميدان الجهاد في سبيل الله ، فإن كان يقينهما معاً على الأسلحة والرجال ، غلبت الطائفة التي معها الأشياء الأكثر ، والرأي الأصوب ، والصبر الأدوم .

وإن كان يقين إحداهما على الله ، ويقين الأخرى على الأسباب والأشياء ، نزلت نصر ة الله على من توجه إليه ، وهلكت الأخرى ودمرت كما حصل في بدر كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٢٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٠-٥١] .

- **أنواع الجهاد في سبيل الله :**

**الجهاد في سبيل الله نوعان :**

**الأول** : جهاد باليد والسنان ، وهذا المشارك فيه كثير .

**الثاني** : جهاد بالحجة والبيان ، وهذا جهاد الخاصة من أتباع الرسل ، وهو جهاد الأئمة ، وهو أفضل الجهادين ، لعظم منفعته ، وشدة مؤنته ، وكثرة أعدائه ، وطول مدته .

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف:١٠٨] .

وقال الله ﷻ : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الفرقان:٥١-٥٢] .

وفى ميدان الجهاد فى سبيل الله كلما تركزت الأنظار على الأسباب ، رفع الله النصرة كما حصل للمؤمنين في بداية غزوة حنين كما قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم

مُّدۡبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[التوبة:٢٥-٢٦] .

ومقدار النصرة تكون على مقدار الاعتماد على الله ، وحسن التوجه إليه في جميع الأمور ، والتفويض إليه ، والتسليم له ، وعدم الالتفات إلى ما سواه .

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴿٣﴾ ﴾[الطلاق:٢-٣] .

**وتواجه المسلم في حياته قوتان :**

قوى إنسانية ، وقوى طبيعية .

وموقف المسلم من القوى الإنسانية ، أن القوى الإنسانية نوعان :

**الأولى** : قوةٌ إنسانيةٌ مهتدية :

وهذه يجب أن يؤازرها ، ويتعاون معها ، على نشر الخير ، وإقامة الحق في العالم : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾ [المائدة:٢]

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٧١﴾ ﴾[ التوبة : ٧١ ] .

**الثانية** : قوة إنسانية ضالة :

وهذه يجب عليه دعوتها إلى الإسلام ، فإن أبت ألزمت بدفع الجزية ، فإن استكبرت ولم تذعن ولم تستجب ، فعليه أن يكافحها ويحاربها ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ

كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [ الأنفال : ٣٩ – ٤٠ ].

ولا يهولن المسلم أن تكون هذه القوة الضالة ضخمة أو عاتية ، فهي بضلالها عن مصدر قوتها الأول ، قوة الله ﷻ ، تفقد قوتها الحقيقية ، كما ينفصل جزءٌ ضخمٌ من جرم ملتهب ، فما يلبث أن ينطفئ ويبرد ، ويفقد ناره ونوره ، على حين تبقى لأية ذرة متصلة بمصدرها المشع قوتها وحرارتها ونورها ، ومن كان الله معه فمعه كل شيء ، ومن لم يكن الله معه فليس معه شيء : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [ آل عمران : ١٦٠ ] .

أما القوى الطبيعية التي يرسلها الله عقوبة أحيانًا ، وابتلاء أحيانًا ، كالخسوف والزلازل والبراكين ، فموقفه منها الاتعاظ ، والاعتبار ، والتضرع إلى الله ، والتوبة إليه : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الإسراء:٥٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَـٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [ الأنعام : ٤٣ ] .

والجهاد بالمال مقدمٌ على الجهاد بالنفس ، وكلاهما مطلوب من العبد ، والجهاد باللسان مقدمٌ على الجهاد بالسيف ، وكلاهما مطلوب من العبد ولكلِ وقته .

فمن كان له مال ، وهو يقدر على الجهاد بنفسه ، وجب عليه الجميع ، وإن كان لا يقدر بنفسه وله مال ، وجب عليه الجهاد بماله .

وإن كان لا يقدر بالمال ولا بالنفس فالحرج عنه مرفوع كما قال سبحانه : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ ﴾[التوبة:٩١ ] .

والجهاد في سبيل الله فريضة من فرائض الله إذا قامت أسبابه ، فإذا تركته الأمة وأقبلت على الدنيا وهلكت كما قال سبحانه : ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [البقرة:١٩٥] .

ويجب على المسلمين أن يقوموا بما أمرهم الله به من جهاد أعدائهم بحسب استطاعتهم ، وأن يتوكلوا على الله وحده ، ولا ينظروا إلى قوتهم وكثرتهم ولا يركنوا إليها ، ولا يلتفتوا إليها ، فإن ذلك من الشرك الخفي ، ومن أسباب إدالة العدو عليهم ، ووهنهم عن لقاء العدو ؛ لأن الله أمرنا بفعل الأسباب ، ولكن لا نركن إليها ، بل نتوكل على الله بقلوبنا ، ونفعل الأسباب بجوارحنا، كما قال سبحانه : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾[المائدة:٢٣] .

وعلينا ألا نغتر بأهل الكفر ، ولا بما أعطوه من القوة والعدة ، فإن المسلمين يقاتلون بأعمالهم ، فإن أصلحوها وصلحت ، وعلم الله منهم الصدق والإخلاص ، أعانهم ونصرهم على عدوهم ، وأذل أعداءهم وخذلهم ، فالخلق كلهم عبيده ، ونواصيهم بيده ، وهو القوي الذي لا يقهر ، والعزيز الذي لا يغلب ، ينصر أولياءه ، ويخذل أعداءه : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾[آل عمران:١٦٠ ] .

ومن كفر سلط الله عليه العذاب والشقاء ، وعذبه في دنياه بالأموال والأولاد ، وفي الآخرة بالنار ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾[الإسراء:٢٢] .

وقال الله تعالى عن الكفار :﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[التوبة:٥٥ ] .

وقال سبحانه : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾[آل عمران:١٩٦-١٩٧] .

والله ﷻ أمر المؤمنين أن يجاهدوا الكفار ، لا طمعًا في أرضهم وأموالهم ، إنما يجاهدونهم لأجل إنقاذهم من النار إن أسلموا ، ولأجل كف ظلمهم ، وإراحة المسلمين من شرهم ، وتطهير الأرض من شركهم وكفرهم كما قال سبحانه : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾[الأنفال:٣٩-٤٠].

- **حكمة مشروعية القتال في الإسلام :**

شرع الله القتال في الإسلام ، وأذن به ، لتحقيق أهداف كثيرة :

**أحدها** : الدفاع عن المؤمنين ، وحفظهم من الأذى والفتنة التي كانوا يسامونها ، وليكفل لهم الأمن على أنفسهم وأموالهم ودينهم :﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾[الحج:٣٩] .

**الثاني** : تقرير حرية الدعوة بعد تقرير حرية العقيدة ، فقد جاء الإسلام بهذا الخير ليهديه للبشرية كلها ، ويبلغه إلى أسماعها وقلوبها ، ثم من شاء بعد البيان أن يؤمن أو يكفر: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾[الكهف:٢٩] .

فمن وقف في وجه من يقوم بالدعوة إلى الله ، ومنع الناس من الاستماع للدين والحق ، أو صدهم عنه ، فهذا يجب قتاله ، لأنه منع الناس من قول الحق ، وسماع الحق ، والعمل بالحق : ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[ التوبة : ٣٦ ] .

**الثالث** : إقامة خلافة الله فى أرضه ، ليعبد الله وحده لا شريك له ، وتمتثل أوامره وحده ، وتقرير ذلك وحمايته : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾[ البقرة : ١٩٣ ] .

فالإسلام هو نظام الحياة المنزل من عند الله ، وهو الذي يقرر حرية الإنسان تجاه أخيه الإنسان ، فيقرر عبودية الله ، ويلغي من الأرض عبودية البشر للبشر :﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[الزمر:٦٤-٦٦] .

وهذا الدين لا يقوم إلا بجهدٍ وجهاد ، فلا بدَّ له من أهلٍ يبذلون جهدهم لتعريف الناس به ، وتعليمهم إياه ، وردهم إليه كما قال سبحانه :﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾[آل عمران:١٠٤] .

ولا بدَّ من جهدٍ بالحسنى ، حين يكون الضالون أفراداً ضالين ، يحتاجون إلى الإرشاد والإنارة : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾[ النحل : ١٢٥ ] .

وبالقوة ، حين تكون القوة الباغية فى طريق الناس هى التى تصدهم عن الهدى ، وتعطيل دين الله إن وجد ، وتعوق شريعة الله أن تقوم :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنفال:٣٦] .

وقال الله تعالى : ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[ التوبة : ٣٦ ] .

وعدة الإنسان في الحياة والجهاد والقتال هي الإيمان ، فالإيمان زاده ، وهو الذى يحركه ، وهو الذى يحفظه ، وبه يحصل له النصر والأمن ، سواء كانت معه الأسباب أو لم تكن ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[الأنعام:٨٢].

فالأنبياء والمؤمنون معهم قوة الله ، فهم أقوى الخلق ؛ لأن الله معهم يحفظهم وينصرهم كما قال النبي ﷺ لأبي بكر في الغار .﴿ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ ﴾[التوبة:٤٠] .

والطواغيت والكفار أضعف خلق الله وأخوفهم ؛ لأن الله ليس معهم ، فهم كالفأرة أمام الأسد ، بل كالحشرات ، بل هم صمٌ بكمٌ عميٌ ، بل هم أمواتٌ أمام الأحياء وأنى يفعل الميت بالحي شيئاً .﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[الأنعام:١٢٢] .

فلما خاف أكثر المسلمين من الكفار ، ولم يخافوا الله ، أذلهم الله بهم ، وخوفنا الشيطان منهم : ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾[آل عمران:١٧٥] .

وكيف يخاف المؤمن ، وهو عبد المؤمن الذي يملك الأمن في الدنيا والآخرة :﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [قريش:١-٤].

فالمؤمنون لقوتهم كالأسود ، والكفار بسبب كفرهم كالفأر والحشرات . ففرعون أمام موسى كالفأرة أمام الأسد ، ونمرود أمام إبراهيم ﷺ كالفأرة أمام الأسد ، وأبو جهل وجيشه أمام محمد ﷺ وجيشه كالفأرة أمام الأسد ، واليهود في المدينة وخيبر أمام الرسول ﷺ وأصحابه كالفأرة أمام الأسد . وكسرى وجيشه ، وقيصر وجيشه ، أمام المسلمين كالفأرة أمام الأسد ، فآلاف من الفئران لا تقف لأسدٍ واحدٍ حي ، فكيف إذا كانت الأرض مملوءة بالأسود ؟ .

قال الله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح:٢٩] .

ونحن اليوم فأرةٌ مسنةٌ معتلة ، تتحكم في مليار ونصف أسد ، فما السبب ؟.

السبب : أن أسود اليوم صور ، وأسود الأمس حقائق ، وإذا كان الأسد صورة جاءت إليه الحشرات والفئران ، وأكلت أنفه ، ومزقت بدنه ، وركبت عليه ، ثم بالت عليه ؛ لأنه صورة لا يخاف منه .

ويوم كانت الأسود حقائق كما فى عهد النبوة والصحابة ، فصيحةٌ واحدة من أسد حي ، يفزع لها جميع من في الغابة :﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون:٨] .

وقال الله تعالى:﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال:٢- ٤ ].

ولا بدَّ للإسلام من قوة ينطلق بها في الأرض ، وأهم ما تصنعه هذه القوة ، أن تؤمن الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم في اختيارها ، فلا يصدون عنها ، ولا يفتنون بعد اعتناقها .

وأن ترهب أعداء هذا الدين ، فلا يفكرون في الاعتداء على دار الإسلام .

وأن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الإلوهية ، وتظلم العباد ، وتحكم الناس بغير ما أنزل الله ، وتصد عن سبيل الله : ﴿

وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾

﴿[البقرة: ١٩٣] .

أما الكفار الذين لم يقاتلوا المسلمين ، ولم يخرجوهم من ديارهم ، ولم يؤذوهم ، فالله ﷻ لا ينهى عن برهم وصلتهم والإحسان إليهم من أقاربهم .

كما قال سبحانه : ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾[الممتحنة:٨-٩] .

# موسوعة خزائن العلوم الإسلامية

## ٦٠- خزائن الجهاد في سبيل الله

## القسم الثاني

ويشتمل على ما يلي:

١- الخزانة الأولى
٢- الخزانة الثانية
٣- الخزانة الثالثة
٤- الخزانة الرابعة
٥- الخزانة الخامسة
٦- الخزانة السادسة
٧- الخزانة السابعة
٨- الخزانة الثامنة
٩- الخزانة التاسعة
١٠- الخزانة العاشرة

# ٦٠- خزائن الجهاد في سبيل الله

# القسم الثاني

## ١- الخزانة الأولى

- **فقه الجهاد في سبيل الله :**

بسبب ترك الدعوة إلى الله ، والجهاد في سبيل الله ، تسلط الأعداء على المسلمين ، وأهانوهم وأذلوهم في ديارهم ، فإلى الله المشتكى من عَالَمَ القوي فيه متحكم بهواه ، والضعيف فيه لاهٍ عن خالقه ، والمصلح غافل عن وظيفته .

والمسلمون الذين لم يقوموا بالدعوة إلى الله ظالمون ؛ لأنهم لم يؤدوا الحق الذى للبشرية عليهم ، وهو دعوتهم إلى الله ، وإبلاغ دين الله لكل العالم .

كما قال سبحانه : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٢ ﴾[إبراهيم:٥٢] .

والكفار ظالمون ؛ لأنهم لم يقبلوا الحق الذي أرسل الله به رسوله ﷺ . فكانت النتيجة انتشار الباطل مكان الحق ، والظلم مكان العدل ، فلا الدعاء يستجاب من ظالم ، ولا الهداية تنزل ، والظلم يزداد ، والدماء تسفك ، والديار تستباح ، والعقوبات تنزل ، وهذا كله من فعل البشر ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٤ ﴾[ يونس:٤٤] .

وقال الله تعالى عن الكفار الذين لم يقبلوا ما جاءت به الرسل : ﴿ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ

خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾[العنكبوت:٤٠] .

وما هو جزاء الظالمين ؟ وما هي عقوبتهم ؟ .

**أما في الدنيا فجزاؤهم :**

عدم الهداية كما قال سبحانه : ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [التوبة:١٩] .

وعدم الفلاح كما قال سبحانه : ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾[الأنعام:٢١] .

والهلاك كما قال سبحانه : ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾[القصص:٥٩] .

والأخذ بالعذاب كما قال سبحانه : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾[هود:١٠٢] .

وعدم محبة الله لهم كما قال سبحانه : ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [آل عمران:١٤٠] .

ولعنة الله لهم كما قال سبحانه : ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ [هود:١٨] .

وأما في الآخرة فلهم عذاب جهنم كما قال سبحانه : ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾[الكهف:٢٩] .

وعليهم غضب الله ولعنته : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾[ البقرة :١٦١- ١٦٢ ] .

**والعالم الإنساني ينقسم إلى قسمين :**

أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، وأنصار الحق ، وأنصار الباطل .

والجهاد في الإسلام رحمةٌ من الله لعباده ، فلم يشرع الله جهاداً ولا قتالاً إلا ضد أولياء الشيطان ، وأنصار الباطل ، أينما كانوا ، ومن كانوا ؟ .

فغزوات النبي ﷺ كانت مصدر سعادة البشرية ، ورحمة للإنسانية إلى يوم القيامة ؛ لأنها إما في نشر حق ، أو دفع صائل ، أو قمع معتد ، أو صد ظالم ، أو حماية آمن : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ [البقرة:٢١٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [ الحج : ٣٩ ] .

غزوات محدودة ، بنفقات محدودة ، أعز الله بها الإسلام وأهله ، ورد الله بها كيد الظالمين ، وحصل بها من المنافع ما سعدت به البشرية إلى يوم القيامة : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [ البقرة : ١٩٣] .

أما الحروب المدمرة التي يشنها الكفار المتسلطون ، فهي حروب إبادة وإهانة ، وظلم وإذلالٍ ، للضعفاء والفقراء ، يأكل فيها القوي الضعيف ظلمًا وعدوانًا .

ولذلك تأكل الأخضر واليابس ، ووقودها دماء البشر وأموالهم ، وعاقبتها الهلاك والدمار ، والرعب والخوف ، وهذه الحروب عقوبات للكفار ، وابتلاء للمسلمين :﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ ﴾ [محمد:٤] .

والعدو إنما يدال على المسلمين بسبب ذنوبهم ، والشيطان يستزلهم ويهزمهم بها ، وهي نوعان : تقصير في حق ، أو تجاوز لحد : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ الشورى : ٣٠ ].

والنصر منوطٌ بالطاعة ، والتوكل على الله ، وطلب النصر ممن يملكه ، وهو الله ﷻ وحده ، فالنصر من الناصر وحده ، كما أن الرزق من الرزاق وحده .

فلذلك بين الله صفة أوليائه بقوله: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٤٧-١٤٨] .

فبسبب الذنوب والمعاصي يحصل التولي ، وتقع العقوبة ، وترتفع النصرة ، وتحصل الهزيمة ، فالذنوب أشد على المسلمين من أعدائهم ، فتكون تلك الذنوب جنداً على المسلمين يزداد بها عدوهم قوة عليهم .

كما قال سبحانه للمؤمنين في أحد : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [آل عمران:١٥٢].

فإن أعمال العبد جندٌ له ، أو جندٌ عليه .

فالطاعة معها النصر ، والمعصية معها الخذلان ، ولا بدَّ للعبد في كل وقت من سَرِيَّة من نفسه تهزمه أو تنصره ، فهو يمد عدوه بأعماله من حيث يظن أنه يقاتله بها ، ويبعث إليه سَرِيةً تغزوه مع عدوه من حيث يظن أنه يغزو عدوه ، ولو فهم الناس هذا ما أقدموا على المعاصي ، فهي تهلكهم في

الدنيا قبل الآخرة : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ ﴾ [ النساء : ١٢٣ ] .

فأعمال العبد تسوقه قسرًا إلى مقتضاها من الخير والشر ، والعبد لا يشعر أو يشعر ويتعامى .

ففرار الإنسان من عدوه وهو يطيقه ، إنما هو بجند من عمله ، بعثه له الشيطان ، واستزله به كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [آل عمران:١٥٥].

والله سبحانه سنته جارية بنصر المؤمنين ، وخذلان الكافرين ، لكن الله أحيانًا يبتلي المؤمنين بغلبة عدوهم عليهم ، وقهره لهم ، وفي ذلك منافع ومصالح ، وحكم وأسرار منها :

استخراج عبوديتهم لله ، وذلهم له ، وانكسارهم له ، واستغاثتهم به وسؤالهم له النصر على عدوهم ، وعدم الالتفات إلى ما سواه .

ولو كان المسلمون منصورين دائمًا ، قاهرين غالبين ، لبطروا وأشروا ، ولو كانوا دائماً مقهورين مغلوبين ، لما قامت للدين قائمة ، ولا كانت للحق دولة : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [ آل عمران : ١٤٠ ] .

فاقتضت حكمة العزيز الحكيم الرحيم أن صرفهم بين غلبهم تارة ، وكونهم مغلوبين تارة ، فإذا غلبوا عدوهم أقاموا دين ربهم وشعائره ، وإذا غلبهم عدوهم تضرعوا إلى ربهم ، وأنابوا إليه ، واستغفروه ، وتابوا إليه .

وكذلك لو كانوا منصورين دائمًا لدخل معهم من ليس مقصده الدين ، ولو كانوا مقهورين مغلوبين دائمًا لم يدخل معهم أحد .

فاقتضت حكمته سبحانه أن تكون لهم الدولة تارة ، وعليهم تارة ، ليتميز بذلك من يريد الله ورسوله ، ومن ليس له مرادٌ إلا الدنيا والجاه والمال .

وكذلك الله ﷻ يحب من عباده تكميل عبوديتهم على السراء والضراء ، وفي حال العافية والبلاء ، فلا يستقيم القلب بدونهما ، كما لا تستقيم الأبدان ولا تصح إلا بالحر والبرد ، والراحة والتعب ، والجوع والعطش .

وكذلك الله ﷻ يمحصهم بذلك ، ويطهرهم من الذنوب ، ويرفع درجاتهم كما قال سبحانه : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [آل عمران:١٤٠-١٤١] .

وجهاد النفس أفضل من جهاد الغير ، وجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار ، وهو جهاد خواص الأمة ، وورثة الرسل ، والقائمون به وإن كانوا الأقلين عددًا فهم الأعظمون عند الله قدرًا ، وأعظم الجهاد كلمة حق عند من تخاف سطوته وأذاه كالسلطان الجائر .

ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعًا على جهاد العبد نفسه في ذات الله ، كان جهاد النفس مقدمًا على جهاد العدو في الخارج ، وأصلًا له : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٩] .

فإن العبد ما لم يجاهد نفسه أولًا ، لتفعل ما أمرت به ، وتترك ما نهيت عنه ، ويجاهدها في الله ، لتستقيم على أوامر الله ، لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج ، إذ كيف يمكنه جهاد عدوه ، والانتصاف منه ، وعدوه الذي بين

جنبيه قاهرٌ له : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣ ﴾[يوسف:٥٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠ ﴾[ الشمس : ٧ – ١٠ ] .

فهذا العدو الذي هو بين الجنبين قاهرٌ للإنسان ، مسلطٌ عليه ، فإذا لم يجاهده ولم يحاربه في الله ، فلا يمكنه الخروج إلى عدوه حتى يجاهد نفسه على الخروج ، فهذان عدوان قد امتحن العبد بجهادهما ، وبينهما عدو ثالث ، لا يمكنه جهادهما إلا بجهاده ، وهو واقف بينهما ، يثبط العبد عن جهادهما ، ويخذله ويرجف به وهو الشيطان ، ولا يزال يخيل له ما في جهادهما من المشاق ، وترك الحظوظ ، وفوات اللذات والمشتهيات ، حتى يقعده عن الجهاد في سبيل الله ، ثم يشغله بالمباحات والشهوات ، ثم يوقعه في الكبائر والمحرمات ألا وهو الشيطان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦ ﴾[فاطر:٥-٦] .

والذين يخرجون في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ، ويضحون بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، هم عادةً أكرم الناس قلوبًا ، وأزكاهم أرواحًا ، وأطهرهم نفوسًا ، وأحسنهم طاعةً واستقامة ، وهم وإن ماتوا أو قتلوا في سبيل الله فهم أحياءٌ عند ربهم يرزقون كما قال سبحانه :﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٧١ ﴾[آل عمران:١٦٩ -١٧١] .

والإسلام هو الدين الكامل ، العظيم الشامل الذي جاء به محمد ﷺ من ربه إلى كافة العالمين ، ولا يقبل الله من أحد دينًا سواه بعد نزوله كما قال سبحانه : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[آل عمران:٨٥] .

وقد شرع الله هذا الدين العظيم ، ليكون قاعدة للحياة الإنسانية في الأرض كلها ، وليكون منهجًا عامًا للبشرية بأجمعها ، ولتقوم الأمة المسلمة بدعوة البشرية وقيادتها إلى ربها وفق النهج الإلهي الذي فيه كل خير ، ورفعها إلى هذا المستوى العالي من الحياة الذى لا تبلغه إلا في ظل هذا الدين ، وتمتيعها بهذه النعمة التي لا تعدلها نعمة : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[ المائدة : ٣ ] .

والتي تفقد البشرية كل فلاح ونجاح حين تحرم منها ، ولا يعتدي عليها معتدٍ بأكثر من حرمانها من هذا الخير ، والحيلولة بينها وبين ما أراد الله لها خالقها من الرفعة والسعادة في الدنيا والآخرة .

ومن ثم كان من حق البشرية جمعاء أن تُبَلَّغ إليها الدعوة إلى هذا الدين الإلهي الشامل ، وأن لا تقف عقبةً أو سلطة في وجه تبليغ هذا الدين الشامل لكافة الناس إلا حطمت ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾[إبراهيم:٥٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾[ الأنفال : ٣٩- ٤٠ ] .

وأيضًا من حق البشرية أن يُترك الناس بعد وصول الدعوة إليهم أحرارًا في اعتناق هذا الدين ، لا تصدهم عن اعتناقه عقبةٌ أو سلطةٌ جائرة ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾[التغابن:٢] .

فإذا أبى فريق منهم أن يعتنقه بعد الدعوة والبيان لم يكن له أن يصد الدعوة عن المضي في طريقها إلى الناس .

فإذا اعتنقها من هداهم الله إليها ، كان من حقهم ألا يفتنوا عنها بأي وسيلة من وسائل الفتنة ، لا بالأذى ، ولا بالإغراء ، ولا بصد الناس عن الهدى .

وعلى إمام المسلمين أن يدفع عنهم بالقوة كل من يتعرض لهم بالأذى والفتنة ، ضمانًا لحرية العقيدة ، وكفالةً لأمن الذين هداهم الله ، وإقرارًا لمنهج الله في الحياة ، وحمايةً للبشرية من الحرمان من ذلك الخير العام : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾[ إبراهيم : ٥٢ ] .

وعلى المسلمين تحطيم كل قوة تعترض سبيل الدعوة إلى الله ، وإبلاغها للناس في حرية ، أو تهدد حرية اعتناق العقيدة ، وتفتن الناس عنها ، وأن يستمروا في الجهاد ، حتى تصبح الفتنة للمؤمنين غير ممكنة لقوةٍ في الأرض ، ويكون الدين كله لله ، لا بمعنى إكراه الناس على الإيمان ، ولكن بمعنى استعلاء دين الله في الأرض ، بحيث لا يخشى أن يدخل فيه من يريد الدخول ، ولا يخاف قوةً في الأرض تصده عن دين الله أن يدين به أو يبلغه ، وبحيث لا يكون في الأرض وضعٌ أو نظامٌ يحجب نور الله وهداه عن أهله ، ويضلهم عن سبيل الله ، ويفتنهم عنه بكل باطل كما قال سبحانه : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾[البقرة: ١٩٣] .

والله ﷻ يريد لعباده أن يعيشوا في ظل الإسلام في أمنٍ وسلام : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢ ﴾[البقرة:٢١-٢٢] .

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ ﴾[البقرة:٢٠٨] .

الله سبحانه يريد لعباده أن يعيشوا في ظل الإسلام في أمنٍ وسلام : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢ ﴾ [الأنعام:٨٢].

فقد جعل الله البيت الحرام واحة للأمن والسلام في المكان ، وجعل الأشهر الحرم واحة للأمن والسلام في الزمان ، تصان فيها الدماء والحرمات والأموال ، ولا يمس فيها حيٌ بسوء ، ومن أبى أن يستظل بهذه الخيمة ، وينعم بتلك الواحة ، وأراد أن يحرم المسلمين منها ، فجزاؤه أن يحرم هو منها ، ويكف شره عن البشرية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٣ ﴾[التوبة:٧٣] .

والجهاد في سبيل الله فريضةٌ شاقة ، ولكنها فريضة واجبة الأداء ؛ لأن فيها خيرًا كثيرًا للمسلمين كافة ، بل للبشرية كلها : ﴿ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٥١ ﴾[ البقرة :٢٥١ ] .

والفرائض والأوامر منها ما هو سهل محبوب للنفس كالنكاح وأكل الطيبات والصيد ، ومنها ما هو شاق مبغوض للنفس ، وكريه المذاق ، كالقتال في

سبيل الله ، ولكن وراءه حكم ومصالح تهون مشقته ، وتسيغ مرارته ، وتحقق به خيرًا مخبوءاً قد لا يراه النظر الإنساني القصير .

فمن يدري فلعل وراء المكروه خيرًا ، ووراء المحبوب شرًا ، وهذا يفتح لقلب الإنسان عالمًا آخر غير العالم المحدود المشهود الذي تبصره عيناه ، تترتب العواقب فيه على غير ما كان يظنه ويتمناه ويراه .

فما تستشعر النفس حقيقة السلام إلا حين تستيقن أن الخيرة فيما اختاره الله ، وأن الخير في طاعة الله ، فالقتال ليس إلا مثلًا لما تكرهه النفس ، ويكون من ورائه الخير الكثير ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ [البقرة:٢١٦] .

فالإنسان ضعيف ، محدود العلم ، والقدرة ، والرؤية ، لا يدري أين يكون الخير ، وأين يكون الشر ؟ .

لقد كان المؤمنون الذين خرجوا في بدر يطلبون عير قريش وتجارتها ، ولا يودون ذات الشوكة والقتال ، ولكن الله جعل القافلة تفلت ، ولقاهم بلا استعداد وجهًا لوجه بالمقاتلين من قريش ، فكان النصر الذي دوى بالجزيرة العربية ، ورفع راية الإسلام والمسلمين ، وهشم رأس الباطل الذي حاد الله ورسوله ، وفرح المؤمنون بنصر الله ، ونزول الملائكة ، وهلاك أهل الباطل ، وزاد إيمانهم بربهم الذي مكنهم من القتل والأسر والظفر بالغنائم: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الأنفال:٧] .

فأين تكون القافلة من هذه الخيرات والبركات التي حققها الله في بدر ، وأكرم بها المسلمين ؟ .

وأين يكون اختيار المسلمين لأنفسهم من اختيار الله لهم ؟ ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾[البقرة:٢١٦] .

**والكافرون هم الظالمون حقًا :**

ظلموا الحق ، فأنكروه ، وظلموا أنفسهم ، فأوردوها موارد الهلاك ، وظلموا الناس فصدوهم عن الهدى ، وفتنوهم عن الإيمان ، وموهوا عليهم الطريق ، وخدعوهم بالباطل ، وحرموهم الخير الذي لا خير مثله ، خير الإيمان والسلم ، والرحمة والطمأنينة : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾[النحل:٨٨] .

فما أشد ظلمهم ، وما أعظم كيدهم وماذا ينتظرهم من عذاب الله الأليم :﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ ﴾[فاطر:٣٦] .

إن الذين يحاربون حقيقة الإيمان أن تستقر في القلوب ، ويحاربون منهج الله أن يستقر في الحياة ، ويحاربون شريعة الإيمان أن تستقر في المجتمع ، وتظهر على الجوارح ، هؤلاء هم أعدى أعداء البشرية ، وأظلم الظالمين لها ، وأخطر المفسدين لحياتها ، لسعيهم في غش الخلق ، وإفساد حياتهم ، وإبعادهم من رحمة الله ، وكفرهم بالله ورسوله .

فهؤلاء من آمن منهم وتاب وأصلح فالله يتوب عليه ، ومن استمر منهم على كفره ومات ولم يرجع إلى ربه ولم يؤمن به ، فهو جدير بلعنة الله ولعنة خلقه وجديرٌ بعذابه العظيم كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ

عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾[البقرة:١٦١- ١٦٢] .

ومن واجب البشرية لو رشدت أن تطاردهم ، حتى يصبحوا عاجزين عن هذا الظلم الذى يزاولونه ، وأن ترصد لحربهم كل ما تملك من الأنفس والأموال ليستريح الناس من شرهم وطغيانهم : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾[ التوبة : ١٢٣].

وهذا هو واجب الأمة المسلمة الذي يندبها إليه ربها ، ويأمرها به ، لرفع ظلمهم للبشرية ، وصد عدوانهم على المسلمين ، والله ناصرهم عليهم .

كما قال سبحانه : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾[التوبة:١٢٣ ] .

وقال الله تعالى : ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾[ الحج :٤٠ – ٤١ ] .

وإلى أن ترشد البشرية وتعقل ، يجب على أهل الإيمان الذين اختارهم الله وحباهم بنعمة الإيمان ، أن يطاردوا الباطل في كل مكان ، ليحل الحق مكان الباطل ، والإيمان مكان الكفر ، والعدل مكان الظلم ، والسنة مكان البدعة.

فلا بدَّ من الجهاد لكسر شوكة الباطل المعتدي ، فلم يجن أحد على البشرية جناية أعظم ممن يحرمها من هذا الدين الذي فيه كل خير ، ويحول بينها وبينه : ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾[التوبة:١٢] .

والجهاد في الإسلام شريعةٌ لازمة ، به يدفع الله عن المؤمنين الأذى والفتنة والظلم ، وبه يتم تقرير حرية الدعوة :﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾[الحج:٣٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾[الأنفال:٣٩-٤٠].

اللهم انصر دينك ، وكتابك ، وسنن نبيك ، وعبادك المؤمنين .

# ٢- الخزانة الثانية

- **فقه الجهاد في سبيل الله :**

الإسلام أعظم نعمةً أكرم الله بها عباده ، والإسلام شريعةٌ كاملة تسعد البشرية في الدنيا والآخرة ، وهي شريعة الله إلى يوم القيامة : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[المائدة:٣] .

فقد جاء الإسلام بهذا الدين العظيم وهذا الخير ، ليهديه إلى البشرية كلها ، ويبلغه إلى أسماعها وقلوبها ، ويزين به حياتها وأخلاقها :﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾[البقرة:١٣٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾[المائدة:١٥-١٦] .

فمن شاء بعد البيان والبلاغ فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، ويدفع الجزية ، ولا إكراه في الدين كما قال سبحانه : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٦] .

لكن يجب أن تزول العقبات من طريق إبلاغ هذا الخير للناس كافة ، كما جاء من عند الله للناس كافة ، وأن تزول الحواجز التي تمنع الناس أن يسمعوا ويقتنعوا ، وأن ينضموا إلى موكب الهدى إذا أرادوا .

وجاء الإسلام كذلك ليقيم في الأرض نظامه الخاص ، ويقرره ويحميه ، وفوق هذا يقوم نظام أخلاقيٌ كريم ، تكفل فيه الحرية لكل إنسان ، حتى لمن لا يعتنق عقيدة الإسلام ، وتُصان فيه حرمات كل أحد ، حتى الذين لا يعتنقون الإسلام ، وتحفظ فيه حقوق كل إنسان من مسلم وغيره ، ولا يكره فيه أحد على الإسلام ، إنما هو البلاغ والبيان :﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾[إبراهيم:٥٢] .

وبعد البلاغ يختار الإنسان ما يريد : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [ الكهف : ٢٩ ] .

فهذا الدين العظيم الذي أكرم الله به خلقه ، وأنزله عليهم ، وبعث به رسوله إليهم ، وارتضاه للبشرية جمعاء ، من حقه أن يجاهد ليحطم قوة الباطل التي تناصبه العداء ، وتكيد له بغير حق ، وتحرم الناس منه ، وتصد الناس عنه ، وتنفرهم منه: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [ الصف : ٨] .

فليسحقها الإسلام سحقاً ، ويبيد هذه الحشرة السامة ، ليعلن نظامه الإلهي الرفيع في الأرض ، ويدعو الناس إليه ، ثم يدع الناس في ظله أحرارًا ، لا يلزم أحدًا إلا بالطاعة لشرائعه الاجتماعية ، والأخلاقية ، والمالية ، والسياسية ، التي تتضمن العدل والإحسان لكل البشر :﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾[ النحل : ٩٠ ] .

أما عقيدة القلب فهم فيها أحرار ، فهو وإن كان يحب لهم الإيمان ، فهو لا يلزمهم به ولا يُكرههم عليه، وأما أحوالهم الشخصية فهم فيها أحرار ، يزاولونها وفق عقائدهم، والإسلام يكفل لهم حقوقهم، ويصون لهم

حرماتهم .

والمجاهدون في سبيل الله كثير ، وليس كل مجاهد في سبيل الله يرزق الشهادة ، فالشهداء مختارون ، يختارهم الله من بين المجاهدين ، ويتخذهم لنفسه سبحانه .

فليست رزية ولا هوان أن يستشهد المسلم ، إنما هو اصطفاء وانتقاءٌ ، وتشريفٌ وتكريمٌ من الرب لعبده : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [آل عمران:١٤٠-١٤١] .

وهؤلاء شهداء يتخذهم الله ، فيؤدون الشهادة بجهادهم حتى الموت في سبيل إعلاء كلمة الله ، وإحقاق الحق وتقريره في حياة البشرية بهؤلاء الذين تجردوا للحق ، وبذلوا أموالهم وأنفسهم من أجله ، وأعزوه حتى أرخصوا كل شيء من أجله ، لعلمهم أن حياة الناس لا تصلح ولا تستقيم إلا بهذا الحق والنور .

يستشهدهم الله على هذا كله فيشهدون ، وتكون شهادتهم هي هذا الجهاد حتى الموت :﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجرات:١٥] .

والمجاهدون في سبيل الله ليس لهم هَمٌ إلا إعلاء كلمة الله في الأرض كلها، وهم يشعرون بمعية الله معهم ، وهدايته لهم ، ونصرهم على عدوهم .

فلا تضعف نفوسهم حينما يصيبهم البلاء والكرب ، والشدة والجراح ، ولا تضعف قواهم عن الاستمرار في الكفاح : ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ

ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ [ آل عمران :١٧٢- ١٧٤ ] .

وهم حين يواجهون الأعداء ، ويواجهون الهول الذي يُذهل النفوس ، يتوجهون إلى الله لا لطلب النصر أول ما تطلب ، ولكن لتطلب العفو والمغفرة عن التقصير ، ولتعترف بالذنب والخطيئة ، قبل أن تطلب الثبات والنصر على الأعداء .

فما لها من نفوس مطمئنةٌ الى وعدها ، واثقة بنصره ، عارفةٌ بحقه ، متوكلةٌ عليه وحده ، وذلك لكمال الإيمان والتقوى في قلوبهم : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [آل عمران:١٤٦-١٤٧] .

إنهم لم يطلبوا نعمة ولا ثراء ، بل لم يطلبوا جزاء ولا ثوابًا ، لم يطلبوا ثواب الدنيا ، ولا ثواب الآخرة .

فما أجمل هذا الأدب مع ربهم ، وما أزكى تلك النفوس والقلوب التي آمنت بالله ، بينما هم يقاتلون في سبيله ، لم يطلبوا منه سبحانه إلا غفران الذنوب ، وتثبيت الأقدام ، والنصر على الكفار .

ولما لم يطلبوا لأنفسهم شيئًا ، أعطاهم الله كل شيء يتمناه طلاب الدنيا ، وطلاب الآخرة ، وشهد لهم بالإحسان ، فقد أحسنوا الأدب ، وأحسنوا العمل ، وأحسنوا الجهاد ، وأعلن حبه لهم ، وهو أكبر من النعمة ، وأكبر

من الثواب كما قال سبحانه : ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٨] .

فهل فوق هذا الأدب من المجاهدين في سبيل الله شيء ؟ .

وهل فوق هذا الإكرام لهم من رب العالمين شيء ؟ .

فما أعظم إكرام الله لهؤلاء : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [ الجاثية : ٣٦ – ٣٧ ] .

إن المسلم حين يخرج للجهاد في سبيل الله ، إنما يقاتل في سبيل الله لإعلاء كلمة الله في الأرض ، ولتمكين منهجه من تصريف الحياة البشرية ، ولتمتيع البشرية بخيرات هذا المنهج العظيم ، وعرضه عليهم ، وصد عدوان المعتدين ، فالإسلام لا يعرف قتالًا إلا في هذا السبيل فقط .

ليس في الإسلام قتال من أجل الغنيمة ، ولا يعرف الإسلام القتال للمجد والفخر ، ولا يعرف القتال للسيطرة والقهر .

إن المسلم في الإسلام لا يقاتل للاستيلاء على الأرض ، ولا للاستيلاء على السكان ، ولا للاستيلاء على الثروات ، ولا يقاتل لمجد شخص ، ولا لمجد بيت ، ولا لمجد طبقة ، ولا لمجد جنس ، ولا لمجد دولة ، إنما يقاتل في سبيل الله ، لإعلاء كلمة الله ، وتمكين منهجه في الحياة ، وحماية المؤمنين ، وصد عدوان الظالمين ، فمن قتل في هذا السبيل فهو شهيدٌ في سبيل الله ، ينال بذلك مقام الشهداء عند الله : ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [ الحجرات : ١٥ ] .

فليقاتل في سبيل الله من يريد أن يبيع الدنيا ، ويشتري بها الآخرة ، ولهم على ذلك فضلٌ وأجرٌ من الله عظيم ، سواءً من يقتل في سبيل الله ، ومن

يغلب في سبيل الله كما قال سبحانه : ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾[النساء:٧٤] .

فأين الدنيا من الآخرة ؟ وأين غنيمة المال من فضل الله ، الذي يحوي المال وما سواه ؟ : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [ يونس : ٥٨ ] .

إن راية المسلم التي يحامي عنها هي عقيدته ودينه ووطنه الذي يجاهد من أجله ، هو البلد الذي تقام فيه شريعة الله ، وأرضه التي يدافع عنها هي دار الإسلام التي تتخذ الإسلام منهجًا للحياة ، وكل تصورٍ آخر للوطن غير هذا هو تصورٌ غير إسلامي تنضح به الجاهليات ، ولا يعرفه الإسلام .

والمقاتلون في ساحات القتال فريقان ، يقاتلون تحت رايتين مختلفتين : الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ، لتحقيق منهجه ، وإقرار شريعته في الأرض ، وإقامة العدل بين الناس .

والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ، لتحقيق مناهج شتى غير منهج الله ، وإقرار شرائع شتى غير شريعة الله : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾[النساء:٧٦] .

ويقف الذين آمنوا مستندين إلى ولاية الله وحمايته ورعايته : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[ التغابن : ١٣ ] .

ويقف الذين كفروا مستندين إلى ولاية الشيطان بشتى راياتهم ، وشتى مناهجهم : ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ

حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾[ المجادلة :١٩- ٢١].

فعلينا مقاتلة أولياء الشيطان ، متوكلين على الله الذي تكفل بنصر من ينصر دينه ، ويقيم شرعه كما قال سبحانه : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾[الحج:٤٠-٤١] .

**فالجهاد في سبيل الله رحمة للبشرية كلها :**

فبه يتم إقرار منهج الله في الأرض ، وإقامة نظامه العادل في ربوع العالم ، وإنشاء قوة عليا في هذه الأرض ذات سلطان ، تمنع أن تُغلق الحدود دون دعوة الله ، وتمنع أن يحال بين الناس وبين الاستماع للدعوة في أي مكان على سطح الأرض ، وتمنع أن يفتن أحد عن دينه ، والكف عن مطاردته في رزقه أو نشاطه حيث هو .

وحرب الله ورسوله التي يقوم بها أعداء الدين ، متحققةً بالحرب لشريعة الله ورسوله ، وللجماعة التي ارتضت شريعة الله ورسوله ، وللدار التي تنفذ فيها شريعة الله ورسوله : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾[ النساء :٧٦ ].

والإسلام دين العدل والرحمة ، لا يعاقب العاصي والمجرم بالسيف وحده ، إنما يرفع سيف العقوبة ويسلطه ، ليرتدع من لا يردعه إلا السيف .

فأما اعتماده الأول فعلى دعوة الناس إلى الخير ، وتربية القلوب وتزكيتها ، فإذا ردع بالعقوبة التي تزجر عن الفساد ، أخذ طريقه إلى القلوب يستجيش فيها مشاعر التقوى ، ويحثها على الإيمان والجهاد في سبيله كما قال

سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣٥ ﴾[المائدة:٣٥] .

والإسلام لا بدَّ له أن ينطلق في الأرض ، لإزالة الواقع المخالف لمنهج الله بالبيان والجهاد مجتمعين :

جهادٌ باللسان لتقرير منهج الله في الأرض ، وتنفيذ شرعه في عباده .

وجهادٌ بالسيف لإزالة حكم الطواغيت ، الذين يحكمون الناس بغير شريعة الله ، والتي تحول بينهم وبين الاستماع إلى البيان واعتناق الدين الحق الذي مَنَّ الله به على عباده ، وإقامة منهج الله في الأرض كلها : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨ ﴾[ الحج :٧٧- ٧٨ ] .

وإذا كان البيان باللسان يواجه العقائد والتصورات والمذاهب الضالة ، فإن الجهاد بالسيف كذلك يواجه القوى المادية الشرسة ، وهما معًا يواجهان الواقع البشري بجملته ، لرده إلى ربه ، وانتزاعه من العبودية لغيره : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٣٩ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٤٠ ﴾[ الأنفال :٣٩- ٤٠ ] .

# ٣- الخزانة الثالثة

- **أبواب الجهاد في سبيل الله :**

**الجهاد في الإسلام له بابان :**

**الأول** : بابٌ يخرج منه ، ليدفع المهاجمين له ؛ لأن مجرد وجود الدين كمجتمع إسلامي مستقل ، الحاكمية فيه لله وحده ، لا بد أن يدفع المجتمعات الجاهلية من حوله لسحقه ، دفاعًا عن وجودها ذاته ، وهنا لا بد له أن يدافع عن نفسه ، إذ لا يمكن التعايش بين الحق والباطل ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء:٨١] .

**الثاني** : أن الإسلام ذاته ، لا بدَّ أن يتحرك إلى الأمام ابتداءً ، لنشر الدين في العالم، ولإنقاذ الإنسان في العالم من العبودية لغير الله، ومن نار جهنم يوم القيامة، ولا يترك البشرية في الأرض للشر والفساد والعبودية لغير الله : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [إبراهيم:٥٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [التوبة:٣٦] .

إن الإسلام جاء ليقرر إلوهية الله في الأرض، وعبودية البشر جميعًا لإلهٍ واحد ، فمن حقه أن يزيل العقبات كلها من طريقه، ليخاطب وجدان الأفراد وعقولهم، دون حواجز ولا موانع مصطنعة .

إن من حق الإسلام أن يتحرك ابتداءً في كل اتجاه ، فالإسلام ليس نحلة قوم ، ولا نظام وطن ، ولكنه منهج إله، ونظام للعالم كله يحقق لهم الأمن والسعادة والطمأنينة ، ويقضي على منابع الشر والعدوان ، ويقطع دابر

الجور والفساد في الأرض ، والاستغلال الممقوت ، ويقوم بذلك رجالٌ يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [إبراهيم:٥٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [ القصص :٨٣- ٨٤ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم:٣٠] .

وبالجهاد في سبيل الله يُحق الله الحق ويثبته ، ويُبطل الباطل ويزهقه ، ويقطع دابر الكافرين ، ويحصد شوكتهم ، وتعلو راية الإسلام ، وتعلو معها كلمة الله ، وتظهر قوة الأمة الإسلامية ، وتقيس قوتها الحقيقية إلى قوة أعدائها ، وتعلم أن النصر ليس بالعدد ، وليس بالعدة ، إنما هو بقدر اتصال القلوب بالله ، وبقوته التي لا يقف لها قوةٌ في الأرض وأن يكون هذا كله عن تجربةٍ واقعيةٍ لا عن مجرد تصورٍ واعتقادٍ قلبي : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [ الأنفال : ٧ – ٨ ] .

لتوقن كل عصبةٍ مؤمنة أن الله معها ، وأنها تملك في كل زمان ، وفي كل مكان ، أن تغلب خصومها وأعداءها ، مهما تكن هي من القلة ، ومهما يكن أعدوها من الكثرة وقوة البطش ، ومهما تكن هي من ضعف العدة ، ومهما

يكن عدوها من كثرة العدة ؛ لأن النصر من عند الله وحده ، وهم مؤمنون يجاهدون في سبيل الله : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [ التوبة :٤٠ ] .

ولا تستقر هذه الحقيقة في القلوب ، كما تستقر بالمعركة العملية المرئية الفاصلة بين قوة الإيمان ، وقوة الطغيان ، كما تجلى ذلك كله في غزوة بدر، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [ آل عمران :١٢٣- ١٢٦ ] .

إن غزوة بدر لتمضي مثلًا للأمة ، تتمثل فيها أصول النصر والهزيمة ، وتكشف عن أسباب النصر والهزيمة ، الأسباب الحقيقية لا الأسباب الظاهرية المادية .

غزوة بدر ظهرت فيها قوة لا إله إلا الله ، كما ظهرت في أُحد قوة محمدٍ رسول الله ﷺ ، وفي بدر أظهر الله قدرته ، وفي أحد أظهر الله سنته ، فلما عصى الرماة أمر الرسول ﷺ في أحد رفع الله النصر ، فالمعاصي سبب كل هزيمة :﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ

لِيَبْتَلِيَكُمْۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [آل عمران:١٥٢].

إن غزوات رسول الله ﷺ كتابٌ مفتوح تقرؤه الأجيال في كل زمان ومكان ، فهي آيةٌ من آيات الله ، وسنةٌ من سننه الجارية في خلقه ما دامت السموات والأرض : ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [ الأحزاب : ٦٢ ] .

وحسب المسلمين أن يبذلوا ما في طوقهم ، فلا يستبقوا منه بقية ، وأن يمضوا في طاعة أمر الله واثقين بنصر الله في أي معركةٍ مع الباطل ، حسبهم هذا لينتهي دورهم ، ويجيء دور القدرة التي تصرفهم وتدبرهم وتملك الكون كله : ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾[هود:٥٦] .

وحسب العصبة المؤمنة أن تشعر أن جند الله معها لتطمئن قلوبها ، وتثبت في المعركة ، ثم يجيء النصر كما يجيء المطر من الله وحده ، حيث لا يملك النصر غيره: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾[الأنفال:٩-١٠] .

إن خروج العصبة المؤمنة لإعلاء كلمة الله أمرٌ هائلٌ عظيم ، أمرٌ يستحق معية الله لملائكته والمؤمنين في المعركة ، ليحق الحق ويبطل الباطل ، وينصر أولياءه ، ويخذل أعداءه : ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ﴾[الأنفال:١٢-١٣] .

إنها سنة الله ليست فلتةٌ عارضة ، ولا مصادفة عابرة أن ينصر الله المؤمنين ، وأن يسلط على أعدائهم الرعب والملائكة وعباده المؤمنين : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[الروم:٤٧] .

إنما ذلك لأن الكفار شاقوا الله ورسوله ، يصدون عن سبيل الله ، ويحولون دون منهج الله للحياة ، فلهم في الدنيا الرعب والهزيمة ، وفي الآخرة عذاب الله في النار: ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[الأنفال:١٤] .

وقد وعد الله المؤمنين بالنصر على أعدائهم، ومن يكن الله معه فمن ذا يقف له؟

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾[المجادلة:٢٠-٢١ ] .

والذي وقع بالفعل أن الإيمان والتوحيد قد غلبا على الكفر والشرك ، واستقرت هذه العقيدة في الأرض ، ودانت لها البشرية في كثير من أنحاء الأرض ، بعد كل ما وقف في طريقها من عقبات الشرك والوثنية ، وبعد الصراع الطويل مع الكفر والشرك ، والإلحاد والملحدين : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾[ غافر :٥١- ٥٢ ] .

وإذا كانت هناك فترات عاد فيها الشرك والإلحاد في بعض بقاع الأرض ، فإن العقيدة في الله ظلت هي المسيطرة ، فضلًا على أن فترات الإلحاد إلى زوال مؤكد ؛ لأنها غير صالحةٍ للبقاء : ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾[ الإسراء : ٨١ ] .

ولله الأمر من قبل ومن بعد ، فليست الغلبة والنصر بمجرد وجود الأسباب ، بل لا بد أن يقترن بها القضاء والقدر .

قال الله تعالى : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾[البقرة:٢٤٩ ] .

والله تبارك وتعالى مالك الملك ، خالق كل شيء ، ومالك كل شيء ، ولكن من فضله وجوده ، وإحسانه وحبه لعباده ، اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، فاستخلص سبحانه لنفسه أنفس المؤمنين وأموالهم فلم يعد لهم منها شيء .

لم يعد لهم خيارٌ أن يستبقوا منها بقية لا ينفقونها في سبيل الله .

لم يعد لهم خيار أن يبذلوا أو يمسكوا ، إنها صفقة مشتراة ، ولمشتريها أن يتصرف بها كما يشاء ، وليس للبائع فيها من شيء ، سوى أن يمضي في الطريق المرسوم له ، لا يلتفت ولا يتخر ولا يجادل ، فهو عبد مملوك ، وليس للعبد إلا الطاعة والعمل ، والاستسلام والانقياد : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾[التوبة:١١١ ] .

فالثمن هو الجنة ، والطريق هو الجهاد والقتل والقتال ، لإعلاء كلمة الله ، وكف العدوان ، وإزالة الفساد ، والنهاية هي النصر أو الشهادة التي بعدها جنة الخلود والمؤمنون هم الذين اشترى الله منهم فباعوا ، فمن بايع هذه البيعة ، ووفى بها ، فهو المؤمن الحق ، والله لا يشتري إلا السلعة الغالية ، ذات الصفات العالية، وهم : ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّآئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾[ التوبة : ١١٢ ] .

ومن رحمة الله أن جعل للصفقة ثمنًا ، وإلا فهو واهب الأنفس والأموال ، وهو مالك الأنفس والأموال ، وكل ما في الكون : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦ ﴾[آل عمران:٢٦] .

وهي بيعةٌ رهيبةٌ لازمة في عنق كل مؤمن ، لا تسقط عنه إلا بسقوط إيمانه ، وقد جعل الله مناط الحساب والجزاء هو النقض أو الوفاء بهذه البيعة كما قال سبحانه : ﴿ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤ ﴾[الإسراء:٣٤] .

وقد تحولت هذه البيعة من فورها في القلوب المؤمنة إلى واقع مشهود ، وقد قبلها أصحاب النبي ﷺ ، وتلقوها بالعمل المباشر بها، وحولوها إلى صورةٍ منظورةٍ عجيبة، لا إلى صورةٍ متأملة تحكي ولا ترى ، حتى قال فيهم : ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١١٠ ﴾[ آل عمران :١١٠ ] .

فكم بذل أصحاب الرسول ﷺ من أجلها من نفس ؟ وكم أنفقوا من مال ؟ وكم هجروا من أجلها من دار ؟ وكم تركوا من شهوات ؟ وكم تركوا من أهل وأولاد ؟ وكم بذلوا من أوقات ؟ وكم جاعوا وأوذوا في سبيل الله ؟ . وكم قاتلوا وقتلوا ؟

فلله درهم ، لقد وفّوا وصدقوا : ﴿ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ٢٣ ﴾[الأحزاب:٢٣] .

خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الخَنْدَقِ ، فَإِذَا المُهَاجِرُونَ وَالأنصار يَحْفِرُونَ فِي غَدَاةٍ بَارِدَةٍ ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَبِيدٌ يَعْمَلُونَ ذَلِكَ لَهُمْ ، فَلَمَّا رَأى مَا بِهِمْ مِنَ النَّصَبِ وَالجُوعِ ، قال : « اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الآخِرَهْ ، فَاغْفِرْ لِلأنْصَارِ

قَالَ فَجَاءَ مَعْقِلُ بْنُ مُقَرِّنٍ فَقَالَ : مُغِيرَةُ يُبَيِّنُ لَهُ : نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدًا ، عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدًا ». متفق عليه(١).

فالجهاد في سبيل الله بيعةٌ معقودة في عنق كل مؤمن ، منذ كان دين الله ، فهي سنة جارية لا تستقيم الحياة بدونها كما قال سبحانه : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾[البقرة: ٢٥١] .

وهذه السلعة التي اشتراها الله ﷻ تجملت بأحسن الصفات ، وصدقت فبرت بما وعدت ، وصفاتهم هي : ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّآئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾[التوبة:١١٢] .

إن الحق الذي أرسل الله به رسوله محمدًا ﷺ لا بدَّ أن ينطلق في طريقه في جميع الأرض ، لتحرير البشر من العبودية للعباد ، وردهم إلى العبودية لله وحده : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾[ إبراهيم : ٥٢ ] .

والحق إذا سار في الأرض ، فلا بدَّ أن يقف له الباطل في الطريق ، بل لا بدَّ أن يقطع عليه الطريق ، بل لا بدَّ أن يهاجمه في عقر داره كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾[ الأنفال :٣٦- ٣٧ ] .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٢٨٣٤)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٢٨/ ١٨٠٥) .

فأهل الباطل يقاتلون أهل الحق حسدًا وبغيًا من عند أنفسهم ، ليردوهم إلى الكفر والضلال، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾[البقرة:٢١٧] .

فما دام في الأرض كفرٌ ، وما دام في الأرض باطل ، وما دام في الأرض عبودية لغير الله تذل كرامة الإنسان ، وتصرفه عن ربه ، فالجهاد في سبيل الله ماضٍ ، والبيعة في عنق كل مؤمن تطالبه بالوفاء وإلا فأين الإيمان والوفاء والبيعة ؟ .

قال رسول الله ﷺ « مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ ، وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاق ». أخرجه مسلم[1].

فليبشر من بذل نفسه وماله في سبيل الله ، وأخذ الجنة عوضًا وثمنًا كما وعد الله في كتابه العظيم : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجرات:١٥] .

وما الذي فات المؤمن الذي يسلم لله نفسه وماله ، ويستعيض الجنة ؟ .

والله ما فاته شيء ، بل ربح كل شيء ، فالنفس إلى موت ، والمال إلى فوت ، والغبن يوم القيامة ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ ﴾ :[المائدة:٩-١٠] .

---

(١)أخرجه مسلم برقم: ( ١٥٨/ ١٩١٠).

# ٤ - الخزانة الرابعة

- **فقه الجهاد في سبيل الله ﷻ :**

ألا ما أعظم هذا الإنسان المؤمن ، وهو يعيش لله ، حسب أمر الله ، وفق سنة رسول الله ﷺ : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [ الأنعام :١٦٢- ١٦٣ ] .

يجاهد في سبيل الله ، وينتصر إذا انتصر لإعلاء كلمة الله ، وتقرير دينه ، وتحرير عباده من العبودية لسواه : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [ فصلت : ٣٣ ] .

ويستشهد إذا استُشهد في سبيله ، ليؤدي لدينه شهادة بأنه خيرٌ عنده من الحياة ، وجميع ما فيها : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [ آل عمران : ١٦٩ ] .

فإذا أضيف إلى ذلك كله الدرجات العالية في الجنة ، ورضوان ربه عليه ، فهو بيع يدعو إلى الاستبشار ، وفوز لا ريب فيه ولا جدال : ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة:١١١ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [التوبة:١٠٠ ] .

إن الجهاد في سبيل الله بيعةٌ معقودةٌ بعنق كل مؤمن ، ولكن الجهاد في سبيل الله ليس مجرد اندفاعة إلى القتال ، إنما هو قمةٌ تقوم على قاعدة من الإيمان المتمثل في مشاعر قلبية وشعائر بدنية ، وأخلاق عالية ، وأعمال صالحة: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ

إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال:٢- ٤].

والمؤمنون الذين عقد الله معهم البيعة ، والذين تتمثل فيهم حقيقة الإيمان ، هم قومٌ يحملون أفضل الصفات الإيمانية ، وأحسنها ، وأعلاها ، وهؤلاء المؤمنون هم : ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّآئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة:١١٢] .

إن أهل هذه البيعة عليهم أن يفوا بها ، ليدخلوا الجنة ، وعليهم أن يتقوا الله فيما عاهدوا الله عليه ، ولا يتخلفوا عن الجهاد مع المجاهدين الصادقين:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة:١١٩] .

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [ التوبة : ٣٨- ٣٩ ] .

ولا يليق بأهل هذه البيعة ، وحماة هذا الدين ، وهم في عهده ﷺ أهل المدينة الذين آووا ونصروا ، وبايعوا واستعدوا ، ومن حولهم من القبائل التي أسلمت .

لا يليق بهؤلاء وهؤلاء أن يتخلفوا عن رسول الله ، وليس لهم أن يؤثروا أنفسهم على نفسه ، كما قال سبحانه : ﴿ مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ

لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾[ التوبة :١٢٠ ] .

فالخروج في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ، ونشر دين الله ، ورد كيد الأعداء ، في الحر أو البرد ، وفي الشدة أو الرخاء ، وفي العسر أو اليسر ، أمرٌ مطلوبٌ من كل مسلم ، ولا يحل لأحد التأخر عنه في كل زمان أو مكان ، لمن يريد التأسي برسول الله ﷺ في نيته وفكره وفي توحيده وإيمانه ، وفي أقواله ، وأعماله ، وأخلاقه وجهاده :﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[الأحزاب:٢١] .

وهو واجبٌ يوجبه الحياء من رسول الله والمؤمنين المجاهدين ، فضلًا عن الأمر الصادر من الله بقوله :﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[التوبة:٤١] .

ومع ذلك فالجزاء على هذا الخروج في سبيل الله ما أسخاه وما أعظمه .

قال الله تعالى:﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾[التوبة:١٢٠ -١٢١] .

إن الله ﷻ كريمٌ ، يعطي المجاهدين على الظمأ جزاء ، وعلى النصب جزاء ، وعلى الجوع جزاء ، وعلى الخطى جزاء ، وعلى كل نيل من العدو جزاء ، يُكتب به للمجاهد عملٌ صالح ويحسب به من المحسنين .

وكذلك على النفقة الصغيرة والكبيرة أجر ، وعلى الخطوات لقطع الوديان أجر ، أجرٌ كأحسن ما يعمل المجاهد في الحياة .

ألا ما أجزل هذا العطاء من رب العالمين وما أوسع رحمته لعباده ، وما أعظم فضله عليهم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾ [ البقرة : ٢٤٣ ] .

خلقنا الله سبحانه ، ورزقنا ، وهدانا ، واشترانا ، ووفقنا للعمل الصالح ، ويسره لنا ، وأعاننا عليه ، وحببه إلينا ، وأكرمنا بالإسلام ، وشرفنا بالدعوة إليه وضاعف لنا الأجر ، ووعدنا على ذلك الجنة : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [ النحل : ٥٣ ] .

ومن صدق أعطاه الله ما طلب : ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾ [الجمعة:٤] .

إن العبادة أمانة ، وإن دعوة الناس إلى الله أمانة ، وإن تعليم الناس دين ربهم في أعناقنا أمانة ، وإن الجهاد في سبيل الله أمانة ، ونحن فيها خلفاء ، وعليها بعد النبي ﷺ أمناء ، ونحن مسئولون عنها : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الحجر:٩٢-٩٣] .

فعلينا جميعاً أن نقوم بأداء هذه الأمانات ، حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله ، ويسعد الناس في الدنيا والآخرة : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾[ التوبة :٧١- ٧٢ ] .

وإذا اتسعت رقعة الأرض الإسلامية ، وكثر عدد الرجال المستعدين للجهاد في سبيل الله ، فقد آن أن توزع الجهود في الجهاد ، وعمارة الأرض ، والتجارة ، وغيرها مما يحتاجه المجتمع المسلم ، فهذه مرحلةٌ أخرى ، يصار إليها إذا صار الواقع كذلك كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾[التوبة:١٢٢].

فالمؤمنون لا ينفرون كافة ، ولكن ينفر من كل فرقة منهم طائفة على التناوب ، لتتفقه هذه الطائفة في الدين بالنفير والخروج في سبيل الله ، والجهاد والحركة بهذه العقيدة ، وتنذر الباقين من قومها إذا رجعت إليهم بما رأته وما فقهته من هذا الدين في أثناء الخروج ، والجهاد من ثمرات الإيمان ، كنصر الله لأوليائه ، وخذلانه لأعدائه ، ونزول الهداية على الخلق ، وظهور الآيات ، وتسخير المخلوقات ، كنزول الملائكة في بدر ، وانفلاق البحر لموسى ﷺ ، وانبجاس الحجر بالماء لموسى ﷺ ، والتقاء ماء الأرض والسماء لنصرة نوح ﷺ ، وإهلاك أعدائه ، وغير ذلك من الآيات : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾[ الحجر : ٧٥ ] .

فهذا الدين كله جهدٌ وعمل ، لا يفقهه إلا من يتحرك به ، فالذين يخرجون للجهاد في سبيل الله ، وإعلاء كلمة الله ، هم أولى الناس بفقهه ، بما يتكشف لهم من أسراره ومعانيه ، وبما يتجلى لهم به من آياته وتطبيقاته العملية في

أثناء الحركة به : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [ العنكبوت : ٢٠ ] .

فهذه الأمة خير أمة أخرجت للناس ، وعملها عمل الأنبياء والرسل ، لها عملٌ وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، ولها أخلاقٌ وأوامر تتزين بها بين الناس ، وهي أوامر الدين ، وعليها مسئوليةٌ ، وهي الدعوة إلى الله ، وإعلاء كلمة الله في الأرض ، وتعليم شرع الله : ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[يوسف:١٠٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[آل عمران:٧٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [ الحج : ٧٧- ٧٨ ] .

لذلك وصف الله المؤمنين بأعمالهم، وأثنى عليهم بأفعالهم المطلوبة منهم .

كما قال سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ ﴾[الأنفال:٧٤-٧٥] .

**فالمؤمنون صنفان :**

مهاجرون يجاهدون بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، ويدعون إلى الله في أرضه بين خلقه إلى يوم القيامة .

وأنصارٌ يؤوون ويناصرون المهاجرين والخارجين في سبيل الله ، لإعلاء كلمة الله : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [ الحشر: ٨ – ١٠ ] .

فاللهم اجعلنا من هؤلاء ، وهؤلاء ، إلى أن نلقاك يا رب العالمين .

وبهذين الصنفين من المؤمنين أظهر الله دينه ، وأعلى كلمته ، حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [ التوبة : ١٠٠] .

وهذا عمل الأمة إلى يوم القيامة ، لمن كان يرجو رحمة الله ، دعوةً وجهادً ، وهجرةً ونصرةً ، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾ [البقرة:٢١٨] .

وقال الله تعالى عن المؤمنين : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [آل عمران:١٩٥] .

وبالهجرة والنصرة من أجل إعلاء كلمة الله ، ونشر دينه ، تنتشر الهداية في العالم ، وتنتشر الصفات التي يحبها الله في العالم ، ويزول الباطل من الأرض ، وتنزل رحمة الله على عباده، ويحصل لهم رضوانه، والفوز بجنته.

كما قال سبحانه : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾[التوبة:١٠٠ ] .

أما الذين يقعدون عن الجهاد في سبيل الله ، فهم الذين يحتاجون أن يتلقوا ممن خرجوا في سبيل الله ؛ لأنهم لم يشاهدوا ما شاهد الذين خرجوا في سبيل الله ، ولا فقهوا فقههم ، ولا وصلوا من أسرار هذا الدين إلى ما وصل إليه هؤلاء الخارجون من أجله ، ولهذا المهاجرون أفضل من الأنصار ، وفي كل خير .

ولعله يتبادر إلى الذهن أن الذين يتخلفون عن الغزو والجهاد والدعوة والحركة هم الذين يتفرغون للتفقه في الدين ، ولكن هذا وهم ، فإن الجهد والجهاد والمجاهدة قوام هذا الدين : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾[العنكبوت:٦٩] .

ومن ثم لا يفقهه إلا الذين يتحركون به ، ويضحون من أجله بكل شيء ، ويجاهدون لتقريره في حياة الناس في كل مكان ، وفي كل زمان : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[ الحجرات : ١٥ ] .

والجهاد في سبيل الله ماض إلى يوم القيامة ، وخطة الجهاد ومداه بينها الله ورسوله ، وخلفاؤه من بعده ، وقد سارت عليها الفتوحات الإسلامية ، بالدعوة إلى الله، وقتال الظالمين من المستكبرين والمعاندين والطغاة، بدايةً

بمن يلون دار الإسلام ويجاورونها مرحلة مرحلة كما أمر الله المؤمنين بذلك بقوله :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣ ﴾[التوبة:١٢٣ ] .

فلما أسلمت الجزيرة العربية أو كادت ، كانت غزوة تبوك على أطراف الروم ، ثم كان انسياح الجيوش الإسلامية في بلاد الروم ، وفي بلاد الفرس، فاتسعت رقعة الإسلام ، فإذا هي كتلةٌ ضخمةٌ شاسعة الأرجاء ، متماسكة الأطراف ، ترفع راية التوحيد لا إله إلا الله ، محمدٌ رسول الله .

ثم كان فتح مصر وشمال أفريقية ، وبلاد ما وراء النهر ، ثم فتح الأندلس وما جاورها .

وهكذا صارت دولة الإسلام بهذا الحجم الكبير ، تحت رايةٍ واحدة ، وقيادةٍ واحدة ، تقول كلمة التوحيد ، وتعمل بها ، وتدعو إليها : ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١١٠ ﴾[ آل عمران :١١٠ ] .

فلما ضعف الإيمان ، ضعف الهم والعمل ، وأعرض كثير من الناس عن الدعوة إلى الله ، والجهاد في سبيل الله ، واشتغلوا بحاجات دنياهم عن حاجات دينهم وقدموا شهوات النفس على أوامر الرب ، فهانوا على الله ، وعلى خلقه، ونزلت بهم العقوبات جزاء مخالفتهم لأوامر الله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا

غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [ التوبة : ٣٨ – ٣٩ ] .

وعمل الأعداء بتدبيرٍ خبيثٍ ماكر ، على تمزيق وحدتهم ، وتقويض هذا البنيان الكبير وتمزيقه ، ففرقوا أهل التوحيد ، وأقاموا الحدود المصطنعة فيما بينهم ، على أساس تلك البيوت ، أو على أساس القوميات ، أو على أساس بيع الحكم ، مقابل ضرب الإسلام وأهله : ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [ التوبة : ١٠ ] .

وستظل هذه الشعوب التي جعل منها الإسلام أمةً واحدةً في دار الإسلام وراء فواصل الأجناس ، واللغات ، والأنساب ، والألوان ، ستظل ضعيفةً مهينةً مقهورة إلا أن تثوب إلى دينها ، وتعمل بشرع خالقها ، وتتبع خطى رسول الله في حياتها ، وبذلك يحصل لها العز والنصر والتمكين : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج:٤٠-٤١] .

# ٥- الخزانة الخامسة

- **فقه الجهاد في سبيل الله :**

إن الأمر بقتال الذين يلون المسلمين من الكفار ، هو الأمر الأخير الذي يجعل الانطلاق بهذا الدين ، ليشمل الأرض كلها ، هو الأصل الذي ينبثق منه الجهاد في سبيل الله ، وليس هو مجرد الدفاع كما كانت الأحكام المرحلية أول العهد .

فالجهاد في الإسلام جهاد لتقرير إلوهية الله في الأرض ، وطرد الطواغيت المغتصبة لسلطان الله في الأرض ، جهادٌ لتحرير الإنسان من العبودية لغير الله ، ومن فتنته بالقوة عن أن يدين بالتوحيد لله وحده ، وجهادٌ لتغليب منهج الله الهادى ، على مناهج العبيد الظالمة ، وإخراج البشرية من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، كما قال سبحانه : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾[البقرة:٢٥٧ ] .

ومن ثم ينبغي له أن ينطلق في الأرض كلها ، لتحرير البشرية كلها من عبادة العبيد إلى عبادة الله وحده لا شريك له :﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل:٣٦ ] .

والجهاد في سبيل الله ليس لإكراه الناس على العقيدة ، بل لضمان حرية الاعتقاد التي انتهكها أعداء هذا الدين ، وفرضوا على الناس من العقائد

والمذاهب ما لا يقبله عقل ، وفتنوهم بشتى الوسائل عن سماع الحق ، وعن العمل به ، وعن تعليمه ، وعن الدعوة إليه .

فالجهاد في سبيل الله شرعه الله ﷻ لفتح أبواب الدعوة إلى الله ﷻ ، ليُسمع الداعي هذا الدين لكل البشرية ، ويسمع المدعو هذا الحق الذي أنزله الله ﷻ هدايةً لعباده ، وبعد ذلك من شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[ الكهف : ٢٩ ] .

ومن هنا ينطلق الإسلام بالسيف ، ليحطم هذه الأنظمة التي قهرت العباد ، وأضلتهم ، وأفسدت حياتهم ، ويدمر هذه القوى التي تحميها ثم ماذا ؟.

ثم يترك الناس بعد ذلك أحرارًا حقًا في اختيار العقيدة التي يريدونها إذا كانوا أهل كتاب ، إن شاءوا دخلوا في الإسلام ، ولهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم ، وإن شاءوا بقوا على عقائدهم ، وأدوا الجزية ، مقابل حمايتهم ، وكفالة عاجزهم ومريضهم في حضن الإسلام ، ولا إكراه في الدين :﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾[ التوبة : ٢٩ ] .

إن المسلمين اليوم هم هذا الغثاء الذي تتقاسمه المذاهب ، والأهواء ، وتحكمه الرايات القومية ، والجنسية ، والعنصرية ، وإن المسلمين لن يستطيعوا أن يفقهوا أحكام هذا الدين ، وهم في مثل ما هم فيه من الهزال والضياع والضلال : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟

ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [ الحديد : ١٦ – ١٧ ] .

إنه لا يفقه أحكام هذا الدين العظيم إلا الذين يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم من أجله ، ليُعبد الله وحده لا شريك له في الأرض . وحفظ ما في بطون الكتب ، والتعامل مع النصوص في غير حركةٍ تغير طريقة الحياة ، لا يؤهل لفقه هذا الدين ، والتضحية من أجله .

وهذا ما خدع به الكفار كثيرًا من المسلمين ، فشغلوهم به عن الخروج إلى ساحات الجهاد ، وميادين الدعوة ، في العالم ، فأثمر ذلك ذل المسلمين وهوانهم ، وزيادة الظلم والجهل والضلال في العالم ، وردة كثيرٍ من المسلمين عن دينهم .

وهذا ما هو حاصلٌ في زماننا ، وقبل زماننا : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجرات:١٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ ﴾ [الحج:٧٨] .

وقال اله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٩] .

فلله كم خسر العالم ؟ وكم ضل في العالم ؟

وذلك بسبب ترك المسلمين للدعوة ، والجهاد في سبيل الله :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا

غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾[التوبة:٣٨-٣٩] .

فهل يكفي أن تُسكب العبرات على هذه الجراحات الدامية الأليمة التي لا تسكن أبدًا ولا تقف أبدًا ؟

أم لا بد من حركة قوية لإنقاذ البشرية من هذا الدمار الشامل الذي يأكل الأخضر واليابس في كل حين من المسلمين والكافرين ؟ .

قال الله تعالى : ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[التوبة:٤١] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾[الأنفال:٣٩-٤٠].

إن الغلظة التي أمر الله بها المجاهدين في سبيله تكون على الذين من شأنهم أن يصروا على كفرهم ، ويصدوا عن سبيل الله ، وفي حدود الآداب العامة لهذا الدين .

إن الجهاد في الإسلام قتالٌ يسبقه إعلانٌ وتخيير بين قبول الإسلام ، أو دفع الجزية ، أو القتال ، ويسبقه نبذ العهد إن كان هناك عهد في حالة الخوف من الخيانة ، فمن أبى أن يجيب دعوة الله، وينقاد لحكمه فهذا يجاهد ويغلظ له، كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ﴾[التحريم:٩] .

وعن بريدة رضي الله عنه قال : « كَانَ رَسُولُ الله ﷺ ، إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ ، أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى الله وَمَنْ مَعَهُ مِنَ المُسْلِمِينَ خَيْرًا ، ثُمَّ قال : اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ ، فِي سَبِيلِ اللهِ ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ ، اغْزُوا وَلا تَغُلُّوا

وَلا تَغْدِرُوا وَلا تمَثِّلُوا وَلا تَقْتُلُوا وَلِيدًا ، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلاثِ خِصَالٍ أَوْ خِلالٍ ، فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ ، وَكُفَّ عَنْهُمْ ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلام ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ المُهَاجِرِينَ ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى المُهَاجِرِينَ ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ المُسْلِمِينَ ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ الله الَّذِي يَجْرِي عَلَى المُؤْمِنِينَ ، وَلا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ ، إِلا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ المُسْلِمِينَ ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَأَلُوكَ الْجِزْيَةَ ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِالله وَقَاتِلْهُمْ ». أخرجه مسلم(١).

إن العبادات والشعائر والشرائع الإلهية التي تنظم حياة البشرية ، لا بدَّ لها من حمايةٍ تدفع عنها الذين يصدون عن سبيل الله ، وتمنعهم من الاعتداء على حرية العقيدة ، وحرية العبادة ، وأماكن العبادة ، وحرمة الشعائر ، وتمكن المؤمنين العابدين العاملين من تحقيق منهاج الحياة القائمة على العقيدة ، المتصل بالله ، الكفيل بتحقيق الخير للبشرية كافة في الدنيا والآخرة: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:١٥٣] .

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت:٣٠-٣٢] .

---

(١)أخرجه مسلم برقم: ( ٣/ ١٧٣١ ).

ومن ثم أذن الله للمسلمين بعد الهجرة في قتال المشركين ، ليدفعوا عن أنفسهم ، وعن عقيدتهم ، اعتداء المعتدين ، بعد أن بلغ أقصاه ، وليحققوا لأنفسهم ولغيرهم حرية العقيدة ، وحرية العبادة ، وحرية الدعوة في ظل دين الله، كما قال سبحانه : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج:٣٩] .

إن قوى الشر والباطل والضلال تعمل في هذه الأرض في كل زمانٍ ومكان ، لأن الحق لا يعيش مع الباطل أبدًا: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء:٨١] .

والمعركة مستمرة بين الخير والشر، والهدى والضلال، والصراع قائمٌ بين قوى الإيمان ، وقوى الطغيان ، منذ خلق الله الإنسان .

والشر جامح، والباطل مسلح، وهو يبطش غير متحرج، ويضرب غير متورع، ويملك أن يفتن الناس عن الخير إن اهتدوا إليه، وعن الحق إن تفتحت له قلوبهم : ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [ البقرة : ٢١٧ ] .

فلا بدَّ للإيمان والخير والحق من قوةٍ تحميه من البطش ، وتقيه من الفتن ، وتحرسه من الأشرار والبغاة والطغاة، وقد أمرنا الله بذلك في قوله : ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال: ٦٠] .

ولم يشأ الله ﷻ أن يترك أهل الإيمان والخير والحق عزلًا ، تكافح قوى الطغيان والباطل والشر ، اعتمادًا على قوة الإيمان في النفوس ، وتغلغل الحق في الفطر ، وعمق الخير في القلوب ، بل نقاتل العدو بمثل سلاحه كما قال سبحانه : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [ البقرة :١٩٤ ] .

فالقوة المادية التي يملكها الباطل ، قد تزلزل القلوب ، وتفتن النفوس ، وتزيغ الفطر ، وللصبر حد ، وللطاقة البشرية مدى تنتهي إليه ، والله أعلم بقلوب الناس ونفوسهم .

ومن ثم لم يشأ الله أن يترك المؤمنين للفتنة إلا ريثما يستعدون للمقاومة ، ويتهيأون للدفاع ، ويتمكنون من وسائل الجهاد ، وعندئذ أذن لهم في القتال لرد العدوان ، والله سيتولى الدفاع عنهم ، فهم في حمايته وحده : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ ﴾[الحج:٣٨] .

والله سبحانه يكره أعداء المؤمنين ، لكفرهم ، فهم مخذولون حتمًا ، والمؤمنون مظلومون غير معتدين ، فليطمئنوا على حماية الله لهم ، ونصره إياهم كما قال سبحانه : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾[الحج:٣٩] .

فلا بدَّ للمسلمين من الجهاد في سبيل الله ، لحماية العقيدة ، وأماكن العبادة ، والدفاع عنها ؛ لئلا تنتهك حرماتها ، فما أرحم الله بعباده إذ شرع لهم الجهاد في سبيل الله : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ

﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾ [الحج:٤٠-٤١] .

فالصوامع أماكن العبادة المنعزلة للرهبان ، والبِيَع للنصارى عامة ، والصلوات أماكن العبادة لليهود ، والمساجد أماكن العبادة للمسلمين .

وهذه الأماكن كلها معرضةٌ للهدم ، لا يشفع لها في نظر الباطل أن اسم الله يذكر فيها ، ولا يحميها إلا دفع الله الناس بعضهم ببعض ، أي دفع حماة العقيدة لأعدائها الذين ينتهكون حرماتها ، ويعتدون على أهلها .

فالباطل متبجحٌ لا يكف ، ولا يقف عن العدوان ما وجد حق ، إلا أن يدفعه الحق بمثل القوة التي يصول بها ويجول ، ولا يكفي الحق أنه الحق ليقف عدوان الباطل عليه ، بل لا بدَّ له من قوة تحميه ، وتدافع عنه ، وترهب أعداءه ، وهي سنةٌ شرعيةٌ مأمورٌ بها، كما قال سبحانه : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٦٠﴾ [الأنفال: ٦٠] .

إن هذا الدين لا يقوم بغير حراسة ، ولا يتحقق في الأرض بغير جهاد ، ولا ينتشر بغير دعوة ، ولا يبقى عزيزًا منيعًا بغير جهاد .

جهادٌ لتأمين العقيدة ، وتأمين الدعوة ، وحماية أهله من الفتنة ، وحماية شريعته من الفساد : ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ [ الحج : ٧٨ ] .

ومن ثم كان للشهداء في سبيل الله مقامهم ، وكان لهم قربهم من ربهم ﷻ .
كما قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٦٩ ] .
وقال النبي ﷺ عن الشهداء في سبيل الله : « أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ ، لهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ ، تَسْرَحُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُم اطِّلاعَةً ، فَقَالَ : هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا ؟ قَالُوا : أيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي ؟ وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا ، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ ، فَلَمَّا رَأوْا أنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أنْ يُسْأَلُوا ، قَالُوا : يَا رَبِّ ! نُرِيدُ أنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أخْرَى ، فَلَمَّا رَأى أنْ لَيْسَ لهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا ». أخرجه مسلم[1].

(١)أخرجه مسلم برقم: ( ١٢١/ ١٨٨٧).

# ٦- الخزانة السادسة

- **فقه الجهاد في سبيل الله :**

**أصناف الخلق خمسة :**

المتصدقون ، والصديقون ، والشهداء ، والمقتصدون ، والكفار .

فالمتصدقون ، هم المؤمنون الذين أكثروا من الصدقات الشرعية ، وبذلوا أموالهم في طرق الخيرات ، وجلّ عملهم الإحسان إلى الخلق ، وبذل النفع لهم بغاية ما يمكنهم ، خاصة بذل المال في سبيل الله .

فهؤلاء يضاعف لهم الأجر ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، ولهم الجنة يوم القيامة، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾[الحديد: ١٨] .

وقال الله تعالى:﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾ [البقرة:٢٦١] .

أما الصديقون ، فهم الذين كملوا مراتب الإيمان ، والعمل الصالح ، والعلم النافع ، واليقين الصادق ، فمرتبتهم دون مرتبة الأنبياء ، وفوق مرتبة عموم المؤمنين : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾[ الحشر : ٨ ] .

والشهداء ، هم الذين قاتلوا في سبيل الله ، لإعلاء كلمة الله ، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، فاستشهدوا في سبيل الله ﷻ ، فهم أحياء عند ربهم يرزقون : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[الحجرات:١٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [ آل عمران : ١٦٩ ] .

والمقتصدون ، هم الذين أدوا الواجبات ، وتركوا المحرمات ، إلا أنه حصل منهم تقصيرٌ ببعض حقوق الله ، وحقوق عباده ، فهؤلاء مآلهم إلى الجنة ، وإن حصل لهم عقوبة على التقصير : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ [ فاطر :٣٢- ٣٣ ] .

والكفار : هم الذين كفروا بالله ، وكذبوا برسله وآياته ، ومآلهم إلى النار: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ﴾ [ الحديد : ١٩ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [ النساء : ٦٩ ] .

- **بداية الجهاد في سبيل الله :**

الجهاد في أول الإسلام كان للدعوة إلى الله حيث لا قتال ، بل دعوة إلى الله كما قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [ الفرقان :٥١- ٥٢ ] .

وهذا هو الجهاد الأكبر المراد من كل مسلم ومسلمة إلى يوم القيامة ، وهو جهاد الدعوة إلى الله ، ففي مكة قيل للمسلمين في أول الإسلام كفوا أيديكم ، كما قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [النساء:٧٧] .

وفي المدينة بعد الهجرة كان جهاد المنافقين باللسان، كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ﴾[التحريم:٩] .

ثم كان الجهاد بالسيف لما عز الإسلام ، وأوذي المسلمون في دينهم، كما قال سبحانه : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾[الحج:٣٩] .

وكان الإذن بالقتال أولاً لمن آذى المسلمين وقاتلهم، كما قال سبحانه : ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾[البقرة:١٩٠] .

ثم أذن الله للمسلمين بقتال المشركين كافة كما يقاتلونهم كافة ، حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله، كما قال سبحانه : ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[التوبة:٣٦] .

وقال سبحانه : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾[الأنفال:٣٩-٤٠].

**والسلام الذي يدعو إليه الإسلام يقوم على أمرين :**

**الأول** : أن تنقطع الفتن التي تلاحق المسلمين في كل أرض .

**الثاني** : أن يكون الدين كله لله .

وإذا قوي الإيمان سهل على العبد امتثال أوامر الله كلها ، وتلذذ بمباشرتها . فإذا اجتمع للعبد قوة الإيمان ، مع قوة البدن ، فذلك الذي يحبه الله في ميدان الجهاد .

فالمؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير . والرجل الشجاع يفتك بالعدو ، ويمزق صفوفه ، فإن جُرح فإنه لا يقوم له شيء ، فتراه بعدها هائجًا مقدامًا كالأسد إذا جرح فإنه لا يطاق ، ولا يقف له شيء: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾[الفتح:٢٩] .

أما الرجل الضعيف في إيمانه وبدنه فلا إقدام له ، فإن جُرح ولى هاربًا والجراحات في أكتافه ، فلا هو في الصف مستقيمًا ، ولا عند الجراحة صابرًا ، وذلك ما لا يحبه الله بل يبغضه ويسخطه، كما قال سبحانه : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾[الأنفال:١٥-١٦] .

**والمجاهد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله له ثلاث حالات :**

فإما أن يقصد دفع العدو ، وذلك إذا كان المجاهد مطلوبًا ، والعدو طالبًا ، وقد يقصد الظفر بالعدو ابتداء ، إذا كان طالبًا ، والعدو مطلوبًا ، وقد يقصد كلا الأمرين .

والأقسام الثلاثة المؤمن مأمورٌ فيها بالجهاد في سبيل الله : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾[ الحجرات : ١٥ ] .

وجهاد الدفع أشد وأصعب من جهاد الطلب ، فإن جهاد الدفع يشبه دفع الصائل ، ولهذا أبيح للمظلوم أن يدافع عن نفسه ، لكن دفاع الصائل على الدين جهادًا وقربة ، ودفع الصائل على النفس والمال مباحٌ ورخصة ، فإن قتل فيه فهو شهيد .

فقتال الدفع أوسع من قتال الطلب وأعم وجوبًا، ولهذا يتعين على كل أحد ، فلا يرغب عنه إلا الجبان المذموم شرعًا وعقلًا .

وجهاد الطلب الخالص لله يقصده سادات المؤمنين الذين يقاتلون ، لتكون كلمة الله هي العليا .

وأما الجهاد الذي يكون فيه المسلم طالبًا مطلوبًا ، فهذا يقصده خيار الناس ، لإعلاء كلمة الله ودينه ، ويقصده أواسطهم للدفع ، ومحبة الظفر .

وقد بعث الله ﷻ رسوله محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق فدعا إلى الله ، وأمره الله سبحانه بجدال الكفار بالتي هي أحسن ، وأمره أن يدعوهم بعد ظهور الحجة إلى المباهلة ، وبهذا قام الدين ، وإنما جعل السيف ناصراً للحجة .

وأعدل السيوف سيف ينصر حجج الله وبيناته ، وهو سيف رسوله وأتباع رسوله ﷺ ، ولم يزل رسول الله ﷺ في جدال الكفار على اختلاف مللهم إلى أن توفي، وأصحابه قاموا بذلك من بعده ، وكل ذلك من أجل إعلاء كلمة الله، كما قال سبحانه : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥ ﴾[النحل:١٢٥] .

وقد أقام الله سبحانه سوق الجهاد في هذه الدار بين أولياء الرحمان ، وأولياء الشيطان ، واشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، فيقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون ، وأخبر أن ذلك وعدٌ مؤكدٌ عليه في أشرف كتبه وهي التوراة والإنجيل والقرآن، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ

أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾[التوبة:١١١ ] .

ولم يسلط الله ﷻ هذا العدو وهو الشيطان على عبده المؤمن الذي هو أحب المخلوقات إليه ، إلا لأن الجهاد أحب شيء إليه ، وأهله أرفع الخلق عنده درجات ، وأقربهم إليه وسيلة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾[فاطر:٥-٦] .

الجهاد في سبيل الله بذل الجهد في قتال الكفار ، والدعوة إلى الدين الحق ، ومجاهدة النفس والشيطان والفساق .

فأما مجاهدة النفس ، فعلى تعلم أمور الدين، ثم على العمل بها ، ثم على تعليمها ، ثم الصبر على ذلك : ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴿٣﴾﴾[ العصر : ١ – ٣ ].

وأما مجاهدة الشيطان ، فعلى دفع ما يأتي به من الشبهات ، وما يزينه من الشهوات : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾[ فاطر : ٦ ] .

وأما مجاهدة الكفار ، فتقع باليد والمال ، واللسان والقلب .

وأما مجاهدة الفساق فباليد ، ثم اللسان ، ثم القلب .

**وحق الجهاد** : هو استفراغ الطاقة فيه ، وألا يخاف في الله لومة لائم .

• **أقسام الجهاد :**

**أقسام الجهاد أربعة :**

جهاد النفس ، وجهاد الشيطان ، وجهاد الكفار ، وجهاد المنافقين .

وعدو الإنسان الداخلي هو النفس، وعدو الإنسان الخارجي الكفار والمنافقون، ولا يمكن جهادهما إلا بجهاد الشيطان ، والتصدي له، وذلك بدفع ما يأتي به من الشبهات ، وما يزينه من الشهوات : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١ ﴾ [النور: ٢١] .

**وجهاد الكفار والمنافقين مراتبه أربع :**

بالقلب ، واللسان ، والمال ، والنفس : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٩ ﴾ [ التحريم : ٩ ] .

وجهاد الكفار أخص باليد ، وجهاد المنافقين أخص باللسان .

وجهاد أرباب الظلم والبدع والمنكرات على ثلاث مراتب :

جهادٌ باليد إذا قدر ، فإن عجز انتقل إلى اللسان ، فإن عجز جاهد بقلبه .

كما قال النبي ﷺ : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ » . أخرجه مسلم [1] .

ومن جاهد نفسه ، وشيطانه ، وعدوه الكافر ، والمنافق ، فإنما يجاهد نفسه ؛ لأن نفعه راجع إليه ، وثمرته عائدة إليه ، والله غني عن العالمين، كما قال

---

(١)أخرجه مسلم برقم: ( ٧٨/ ٤٩ ).

سبحانه : ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦] .

وقال الله تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ ﴾ [الإسراء:٧] .

وجميع الأوامر والنواهي يحتاج فيها العبد إلى جهاد ؛ لأن نفسه تتثاقل بطبعها عن الخير ، وشيطانه ينهاه عنه ، وعدوه الكافر يمنعه من إقامة دينه كما ينبغي ، فمن جاهد أولئك فليبشر بالهداية : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٩] .

فعلى المسلمين أن يتقوا الله ، ويحذروا من سخطه وغضبه ، ويبتغوا إليه الوسيلة بطاعته ، وحسن عبادته ، والتقرب إليه ، ويجاهدوا في سبيله لنصرة دينه، وإعلاء كلمته، وابتغاء مرضاته ، لتحصل لهم السعادة في الدنيا والآخرة.

كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [المائدة:٣٥] .

وللمجاهدين في سبيل الله أجر عظيم ، ودرجات كثيرة ، ومنازل رفيعة .

قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ ، أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ الله ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْض ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ » . أخرجه البخاري[1] .

(١)أخرجه البخاري برقم: ( ٢٧٩٠ ).

وقال النبي ﷺ : « رِبَاطُ يَوْم فِي سَبِيلِ الله خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا ، وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا ، وَالرَّوْحَةُ يَرُوحُهَا الْعَبْدُ فِي سَبِيلِ الله ، أَوِ الْغَدْوَةُ ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا ». أخرجه البخاري(١) .

فالجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام ، ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة ، وهم الأعلون في الدنيا والآخرة .

وجهاد أعداء الله في الخارج ، فرع على جهاد العبد نفسه في ذات الله ، فجهاد النفس مقدمٌ على جهاد العدو في الخارج ، وأصل له .

فما لم يجاهد العبد نفسه أولاً ، لتفعل ما أُمرت به ، وتترك ما نهيت عنه ، ويحاربها في الله ، لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج :﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾ [الشمس:٧-١٠] .

إذ كيف يمكنه جهاد عدوه وكسره ، وعدوه الذي بين جنبيه قاهرٌ له ، متسلطٌ عليه .

فالنفس والكفار عدوان امتحن الله العبد بجهادهما ، وبينهما عدوٌ ثالث لا يمكنه جهادهما إلا بجهاده ، وهو الشيطان ، فهو واقفٌ بينهما يثبط العبد عن جهادهما ويخذل ويرجف به، ولا يزال يخيل له ما في جهادهما من المشاق، وترك الحظوظ ، وفوت اللذات والمشتهيات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦ ﴾ [فاطر:٥-٦] .

---

(١)أخرجه البخاري برقم: ( ٢٨٩٢ ).

• **حكم الجهاد في سبيل الله :**

**جنس الجهاد فرض عين ويكون :**

إما بالقلب ، وإما باللسان ، وإما بالمال ، وإما باليد : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [ الحجرات : ١٥ ] .

فعلى كل مسلم أن يجاهد بنوع من هذه الأنواع ، كل أحدٍ بحسبه، كما قال سبحانه : ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الفرقان: ٥٢] .

فهذا أعظم الجهاد ، وهو جهاد الدعوة ، وتبليغ الدين إلى الناس .

وقد أمرنا الله ﷻ بأن نجاهد في الله حق جهاده، كما قال سبحانه : ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [الحج:٧٨] .

وأمرنا كذلك أن نتقيه حق تقاته كما قال سبحانه : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران:١٠٢] .

وحق تقاته ، وحق جهاده ، هو ما يطيقه كل عبدٍ في نفسه .

وذلك يختلف باختلاف أحوال المكلفين في القدرة والعجز ، والعلم والجهل ، والغنى والفقر : ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [ العنكبوت : ٦ ] .

فحق التقوى ، وحق الجهاد بالنسبة إلى القادر المتمكن العالم شيء ، وبالنسبة إلى العاجز الجاهل الضعيف شيءٌ آخر .

فما جعل الله على أحد في الدين من حرج ، بل جعله واسعًا يسع كل أحد ، كما جعل رزقه يسع كل حي ، فكلف العبد بما يسعه ، ورزقه ما يحتاجه ، وأغناه من فضله ، وما جعل على عبده في الدين من حرج بوجه ما، كما قال سبحانه : ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ ﴾ [ الحج : ٧٨ ] .

فاتقوا الله حق تقاته ، وجاهدوا في الله حق جهاده : ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨ ﴾ [الحج:٧٨] .

وإذا ترك المسلمون الجهاد في سبيل الله ، ابتلاهم الله بأن يوقع بينهم العداوة، حتى تقع بينهم الفتنة كما هو واقع ، فإن الناس إذا اشتغلوا بالجهاد في سبيل الله جمع الله قلوبهم ، وألَّف بينهم ، وجعل بأسهم على عدو الله وعدوهم .

واذا لم ينفروا في سبيل الله عذبهم الله بأن يلبسهم شيعًا ، ويذيق بعضهم بأس بعض، كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩ ﴾ [التوبة:٣٨-٣٩] .

والعذاب قد يكون من عند الله مباشرة ، وقد يكون بأيدي العباد ،كما قال سبحانه : ﴿ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ٦٥ ﴾ [الأنعام:٦٥] .

**وأعظم ميادين الإصلاح والتوجيه في هذه الحياة ثلاثة :**

ميدان الدعوة إلى الله ، وميدان تعليم شرع الله ، وميدان الجهاد في سبيل الله. والكفار والشياطين والطغاة أشد ما تكون عليهم إذا كنت فيها ، أو في واحدٍ منها ؛ لأنه بالدعوة تنزل الهداية ، وبالعلم يزول الجهل، وبالجهاد يزول الباطل . و بهذه الثلاثة يكون الدين كله لله ، ويُعبد الله الذي يستحق العبادة ، ويزول حكم أهل الباطل من الأرض :﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء:٨١] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [النساء:٧٤] .

وقال الله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف:١٠٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [آل عمران:٧٩ ] .

# ٧- الخزانة السابعة

- **فقه حصول النصر :**

الله ﷻ من سنته الجارية أن من آمن به ، وامتثل أوامره ، حسب ما جاء به رسوله ﷺ ، فإنه ينصره ويؤيده ، ويعزه ويسعده في الدنيا ، ويرزقه الجنة في الآخرة :﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر:٥١] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون:٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾ [ التوبة : ٧١ – ٧٢ ] .

ومن كفر به ، ولم يستجب له ، وكذب رسله ، فإن الله يخذله ويشقيه في الدنيا ، وينساه كما نسيه ، ويجعل معيشته ضنكًا ، وله في الآخرة عذاب النار، كما قال سبحانه : ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه:١٢٣-١٢٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الإسراء:٢٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾ [آل عمران:٥٦-٥٨ ] .

فالحق منصورٌ أبدًا ، فإن قيل : إذا كان الحق يعلو فلم ينتصر الكفار على المسلمين ، وتغلب القوة الحق ؟ .

**فيقال** :

**أولاً** : إنه لا يلزم أن تكون كل وسيلة من وسائل كل حق حقًا ، كما لا يلزم أن تكون كل وسيلةٍ من وسائل كل باطل باطلًا ، فكل حق مغلوب لباطل ، مغلوبٌ بوسيلته الباطلة ، لا مغلوبٌ بذاته .

**وثانيًا** : يجب أن تكون كل صفة من صفات المسلم مسلمةٌ مثله ، إلا أن هذا ليس أمرًا واقعًا ولا دائمًا ، وكذا الكافر أو الفاسق لا يشترط أن تكون جميع صفاته كافرة أو فاسقة .

وصفة مسلم يتصف بها كافر تتغلب على صفة غير مشروعةٍ لدى المسلم ، وبهذه الوسيلة يتغلب الكافر على المسلم الذي يحمل صفةً غير مشروعة .

**وثالثًا** : أن مطيع الأوامر الشرعية والعاصي لها يرى ثوابه وعقابه غالبًا في الدار الآخرة ، ومطيع السنن الكونية والعاصي لها غالبًا ما يرى ثوابه وعقابه في دار الدنيا .

فكما أن ثواب الصبر النصر ، فكذلك ثواب السعي الغنى ، وكل حق أصبح وسيلة لباطل ، فسينتصر على باطل أصبح وسيلةً لحق .

**ورابعًا** : أن الحق إذا كان مشوبًا بشيء آخر أو مغشوشًا ، فإن الله يسلط عليه الباطل مؤقتًا ، حتى يصفو الحق نتيجة التدافع ، ولتظهر مدى قيمة سبيكة الحق الثمينة جدًا .

والله ﷻ يبتلي عباده المؤمنين أحيانًا بغلبة عدوهم عليهم ، وفي ذلك منافع وحكم عظيمة :

**منها** : استخراج عبوديتهم لله ، وذلهم له ، فلو كانوا منصورين دائماً لبطروا وأشروا ، ولو كانوا مغلوبين دائمًا لما قامت للدين قائمة .

فاقتضت حكمة الله أن صرفهم بين الغلبة لهم وعليهم ، فإذا غلب عليهم عدوهم تضرعوا إلى ربهم واستغفروه ، وإذا غلبوه أقاموا شعائره ودينه ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر .

**ومنها** : أنهم لو كانوا منصورين دائمًا ، لدخل معهم من ليس قصده الدين ، ولو كانوا مغلوبين دائمًا لم يدخل معهم أحد .

فاقتضت حكمة العليم الخبر ، أن تكو ن لهم الدولة تارة ، وعليهم تارة ؛ ليتميز بذلك من يريد الله ورسوله ، ومن يريد الدنيا والجاه : ﴿**وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾**﴾ [آل عمران:١٤٠] .

**ومنها** : أن الله سبحانه يحب من عباده تكميل عبوديتهم على السراء والضراء ، وفي حال العافية والبلاء ، ولكل حالةٍ عبودية ، فكما لا تستقيم الأبدان إلا بالحر والبرد ، فكذلك لا تستقيم القلوب إلا بالسراء والضراء .

والله بذلك يمحصهم ، ويخلصهم ، ويهذبهم ، ويتخذ منهم شهداء ، ويعلم المؤمنين من الكافرين ، والصادقين من الكاذبين :﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٠-١٤٢] .

وبمقدار التضحية للدين تكون نصرة الله ، فلو كان لدينا ماء في مكان عال وفتحناه على الآخر ، فإنه يملأ الخزان السفلي في ساعة ، أما لو فتحناه قليلًا فيعبئ الخزان في يومين ، فليس الخلل في حجم الخزان ، إنما في مقدار الفتحة .

وهكذا ولله المثل الأعلى ، نصرة الله تنزل بمقدار التضحية ، فالنبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ضحوا بخمسة أشياء من أجل إعلاء كلمة الله :

ضحوا بأموالهم وأنفسهم وأوقاتهم وشهواتهم وديارهم وضحوا كذلك بترك أهلهم .

ومع ذلك لم تنزل عليهم نصرة الله إلا بعد خمس عشرة سنة ، ونحن الآن نضحي قليلًا ، ونطلب النصرة كالصحابة ، بل نطلبها فورًا .

فإذا أردنا الخزان يمتلئ نزيد الفتحة قليلًا .

وهكذا إذا أردنا الإسلام ينتشر ، نضحي قليلًا بالنفس ، والمال ، والوقت .

وإذا أردنا أعمال الرسول ﷺ تظهر في العالم ، نضحي بكل ما نملك.

وإذا أردنا الصفات والأخلاق العالية تنتشر ، نضحي كما ضحى الأنبياء والصحابة من أجل إعلاء كلمة الله : ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [ الأحزاب : ٦٢ ] .

عبادةٌ بإخلاص ، ودعوةٌ باللسان ، وجهادٌ بالسنان ، ورحمةٌ وشفقةٌ على الخلق ، واستغفارٌ ، وبكاءٌ ، وتضحيةٌ بالأنفس ، والأموال ، والأوقات ، والشهوات ، والمناصب ، والديار ، والأهل ، مع الاستقامة على أوامر الله ، والدعاء والبكاء :﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال:٢- ٤ ].

وقال الله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [محمد:٧] .

- **فقه نزول النصر :**

إصلاح النفس يجب أن يسبق إصلاح الغير ، ليحصل النصر .

فموسى ﷺ لما رأى أحوال فرعون ، وشدة بطشه وإسرافه ، وشدة أذاه لبني إسرائيل ، أمره الله أن يصلح نفسه ، ومن معه ، بامتثال أوامر الله ، والاستقامة عليها ، ثم تأتي النصرة من الله بعد ذلك كما قال سبحانه :﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾[يونس:٨٧].

فلما رأى موسى ﷺ القسوة والإعراض من فرعون وملئه ، دعا عليهم ، وأمَّن هارون على دعائه قال الله تعالى:﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [يونس:٨٨].

فأجاب الله دعوتهما ، وأمرهما بالاستقامة على الدين ، والاستمرار في الدعوة إلى الله، كما قال سبحانه : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾[يونس:٨٩].

وإذا اجتمع في المؤمنين المجاهدين في سبيل الله سبع صفات ، حصل لهم النصر ، وإن قلوا ، وكثر عدوهم ، وهذه الصفات هي :

الثبات ، وذكر الله ﷻ ، وطاعة الله ورسوله ، وعدم الاختلاف والتنازع ، والصبر والتواضع ، والإخلاص ، ودعوة الناس إلى سبيل الله ، وإعلاء كلمة الله، كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنفال:٤٥ : ٤٧] .

فهذه سبع صفات يحصل بها النصر ، ومتى فُقدت أو فُقد بعضها زال من النصر بحسب ما نقص منها .

وإذا اجتمعت قَوَّى بعضها بعضًا ، وصار لها أثر عظيم في النصر ، كما حصل في غزوة بدرٍ وغيرها من غزوات الرسول ﷺ .

ولما اجتمعت هذه الصفات في الصحابة رضي الله عنهم لم تقم لهم أمة من الأمم ، وفتحوا الدنيا ، ودانت لهم البلاد والعباد .

ولما تفرقت فيمن بعدهم وضعفت ، وضعف الإيمان ، آل الأمر إلى ما آل من الذلة والهوان ، فنسأل الله المغفرة ، والله المستعان ، وعليه التكلان .

فهذه عوامل النصر على الأعداء إلى يوم القيامة .

فأما الثبات عند لقاء العدو ، فهو بدء الطريق إلى النصر ، فأثبت الفريقين أغلبهما ، وما يدري الذين آمنوا أن عدوهم يعاني أشد مما يعانون ، فلا مدد له من رجاء في الله يثبت أقدامه وقلبه ، وأنهم لو ثبتوا لحظة أخرى فسينخذل عدوهم وينهار : ﴿ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٦٠ ﴾ [ آل عمران : ١٦٠ ] .

فلا يليق بالمؤمنين أن يفروا ، وقد وعدهم الله إحدى الحسنيين :

النصر أو الشهادة، كما قال سبحانه : ﴿ قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ٥٢ ﴾ [التوبة:٥٢ ]

فالثبات في ميدان القتال أمام الكفار فيه نصرةٌ لدين الله ، وقوةُ لقلوب المؤمنين ، وإرهابٌ للكافرين ، والفرار من غير عذر من أكبر الكبائر ، يوجب غضب الله ، ودخول النار ، لما فيه من خذلان الدين ، وتقوية قلوب الكافرين ، وإحباط نفوس المؤمنين ، ولهذا حذر الله منه بقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦ ﴾ [الأنفال:١٥-١٦] .

وأما ذكر الله كثيرًا عند لقاء الأعداء، فهو التوجيه الدائم للمؤمن، وهو يؤدي وظائف شتى في ميدان الجهاد، إنه الاتصال بالقوي القادر القاهر الذي لا يُغلب، والقدير الذي لا يعجزه شيء، والثقة بالناصر الذي ينصر أولياءه .

وهو في الوقت ذاته استحضارٌ لحقيقة المعركة وبواعثها ، فهي معركةٌ لله لتقرير ألوهية الله ، وتحطيم الطواغيت المغتصبة لهذه الألوهية ، فهي معركةٌ لتكون كلمة الله هي العليا ، لا للسيطرة ، ولا للمغنم ، ولا للاستعلاء الشخصي أو القومي .

وأما طاعة الله ورسوله ، فلكي يدخل المؤمنون المعركة مستسلمين لله ابتداءً ، فتبطل أسباب النزاع التي أعقبت الأمر بالطاعة : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [ الأحزاب : ٧١ ] .

فما يتنازع الناس إلا حين تتعدد جهات القيادة والتوجيه ، وإلا حين يكون الهوى هو الذي يوجه الآراء والأفكار .

فإذا استسلم الناس لله ورسوله ، سلموا من أعداء الله ورسوله ، وإذا عصى الناس الله ورسوله ﷺ نزلت بهم الهزيمة ، وحلت بهم العقوبة : ﴿ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٢٣﴾ ﴾ [ النساء : ١٢٣ ] .

فالطاعة من أقوى أسلحة النصر على الأعداء ، وهي طاعةٌ قلبيةٌ عميقة سببها الإيمان بالله ، والغيرة لدينه ، لا مجرد الطاعة القسرية في الجيوش التي لا تجاهد لله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء:٥٩].

ولما كانت الطاعة لله ورسوله تامة في بدر ، نصر الله المؤمنين ، وخذل أعداءهم ، ولما نقصت الطاعة في أُحد ، وعصى الرماة أمر الرسول ﷺ ارتفعت النصرة ، ونزل بالمسلمين ما نزل ، فالنصر نزل في أول القتال ، ثم لما حصل من بعض المسلمين ما حصل ، ارتفعت النصرة بنزولهم لجمع الغنائم من الجبل، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ

تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [آل عمران:١٥٢].

وأما الصبر فهو الصفة التي لا بدَّ منها لخوض المعركة مع العدو الداخلي ، والعدو الخارجي ، في ميدان النفس ، وفي ميدان القتال، كما قال سبحانه : ﴿ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأنفال:٤٦] .

وهذه المعية من الله ، هي الضمان للصابرين بالفوز والفلاح والنجاة .

أما الخروج للقتال بطرًا ورئاء الناس ، فقد خرجت به قريش ، بفخرها وكبريائها تحاد الله ورسوله في بدر ، فعادت في آخر اليوم بالذل والخيبة ، والانكسار والهزيمة .

فنهى الله المؤمنين أن يخرجوا كذلك بقوله : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٧] .

أما المؤمنون فيخرجون للجهاد في سبيل الله متواضعين لله ، مخلصين أعمالهم له وحده ، متوكلين عليه وحده ، لتقرير ألوهية الله سبحانه في حياة البشر ، وتقرير عبودية العباد لله وحده ، وتحطيم الطواغيت التي تغتصب حق الله ، وتستعبد الناس ، وتحرير كل إنسانٍ من العبودية لغير الله ، وحماية حرمات الناس ، وكراماتهم ، وحرياتهم .

فهذه مقاصد الإسلام من خروج المسلمين للجهاد في سبيل الله ، لا يخرجون للاستعلاء على العباد ، واستعبادهم ، والتبطر بنعمة القوة ، باستخدامها هذا الاستخدام المنكر ، والفخر والكبر والخيلاء .

فليس للإسلام هدفٌ من النصر إلا تحقيق طاعة الله ورسوله ، وإقامة منهج الله في الحياة ، وإعلاء كلمته في الأرض ، ورفع الظلم عن الخلق ، واقتلاع جذور الفساد في الأرض، كما قال سبحانه : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾[البقرة: ١٩٣] .

إن بروز قوة الإسلام ليستهوي قلوبًا كثيرة تصد عن الإسلام الضعيف ، أو الإسلام المجهول القوة والنفوذ .

وإن الدعوة إلى الإسلام لتسير بقوةٍ في الأرض ، حين تكون الأمة المسلمة بادية القوة ، مرهوبة الجانب ، عزيزة الجناب .

على أن الله سبحانه وهو يرى الجماعة المسلمة لم يكن يعدها وهي في مكة قلةً قليلةً مستضعفةً مطاردة ، إلا وعدًا واحدًا وهو الجنة ، ولم يكن يأمرها إلا أمراً واحداً وهو الصبر:﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[الروم:٦٠] .

فلما أن صبرت ، وطلبت الجنة وحدها دون الغلب ، آتاها الله النصر والعزة ، والغلب والتمكين في الدنيا مع الجنة في الآخرة كما قال سبحانه : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾[الفتح:٢٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[آل عمران:١٠٣] .

وقد وعد الله ﷻ عباده المؤمنين أنه متى استقرت حقيقة الإيمان في نفوسهم ، وتمثلت في واقع حياتهم ، عبادة لله في جميع أحوالهم ، منهجاً للحياة ، ونظامًا للحكم ، وتجردًا لله في كل خاطرة وحركة ، فسيجعل الله لهم العز والنصر والتمكين ، ويدفع عنهم تسلط الكفار ، فسنته سبحانه نصر

أوليائه ، وخذلان أعدائه ، ودفع الباطل بالحق فإذا هو زاهق: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء:١٤١] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء:٨١] .

وقال النبي ﷺ : « مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللهُ يُعْطِي ، وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللهِ ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ » . متفق عليه[1] .

ولا تلحق الهزيمة بالمؤمنين إلا وهناك ثغرةٌ في حقيقة الإيمان ، إما في الشعور ، وإما في العمل ، ومن الإيمان أخذ العدة ، وإعداد القوة في كل حين ، بنية الجهاد في سبيل الله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال: ٦٠] .

ومن حقيقة الإيمان ألا نركن إلى الأعداء ، وألا نطلب العزة إلا من الله ، فالإيمان صلةٌ بالله القوي العزيز ، والكفر انقطاع عن تلك القوة ، وانعزالٌ عنها ، والتصاقٌ بالضعيف الدليل .

ولن تستطيع قوة محدودة مقطوعة أن تغلب قوة موصولة بمن يملك بقوته هذا الكون جميعًا : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة:١٢٠] .

---

(١)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: ( ٣١١٦)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ١٠٠/ ١٠٣٧ ).

**والفرق بين حقيقة الإيمان ومظهر الإيمان :**

أن حقيقة الإيمان قوةٌ حقيقيةٌ ثابتة ، ذات أثر في النفس ، وفيما يصدر عنها من القول والعمل ، وهي كفيلةٌ حين تواجه حقيقة الكفر المقطوعة عن الله أن تقهرها ، ولكن حين يتحول الإيمان إلى مظهر ، فإن حقيقة الكفر تغلبه إذا هي صدقت مع طبيعتها ، وعملت في مجالها ؛ لأن حقيقة أي شيء أقوى من مظهر وصورة أي شيء:﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال:٢- ٤ ].

# ٣- الخزانة الثامنة

• **فقه النصر :**

إن انتصار المسلمين قد يرد بعض المشركين إلى الإيمان ، ويفتح بصيرتهم على الهدى ، حين يرون المسلمين ينصرون ، ويرون أن قوةً غير قوة البشر تؤيدهم ، ويرون آثار الإيمان في مواقفهم ، وهذا ما حصل ويحصل فعلًا . وعندئذ ينال المجاهدون أجر جهادهم ، وأجر هداية الضالين بأيديهم ، وينال الإسلام قوةً جديدة تضاف إلى قوته ، بهؤلاء المهتدين التائبين الذين انقلبوا من أعداء إلى موالين : ﴿ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥ ﴾[التوبة:١٤-١٥ ] .

والله جلَّ جلاله كتب النصر لأوليائه ، إذا توفرت فيهم شروط النصر ، ولكن قد يبتلى أهل الحق ، وينجو أهل الباطل ، وقد تكون للباطل صولةٌ تكون فتنةً لقلوب المؤمنين ، وهزة لمعرفة مقدار إيمانهم .

وقد وقع بالفعل في غزوة أُحد ، حتى قال المسلمون : أنى هذا ؟ أي فما وجه هذا ؟

فقال سبحانه : ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥ وَمَآ أَصَابَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧ ﴾

[آل عمران:١٦٥-١٦٧] .

إن ذهاب الباطل ناجيًا منتصرًا في معركةٍ من المعارك ، أو غزوةٍ من الغزوات ، وبقاءه منتفشًا فترة من الزمان ، ليس معناه أن الله تاركه ، أو أنه من القوة بحيث لا يغلب ، أو بحيث يضر الحق ضررًا باقيًا قاضيًا .

وإن ذهاب الحق مبتلى في معركة من المعارك ، وبقاءه ضعيف الحول فترة من الزمان ، ليس معناه أن الله مجافيه ، أو ناسيه ، أو أنه متروكٌ للباطل يقتله ويمزقه ويرديه قتيلًا كلا .

إنما هي حكمةٌ وتدبير من العزيز الحكيم ، العالم بالظواهر والبواطن ، والمصالح والمفاسد ، يملي للباطل ، ليمضي إلى نهاية الطريق ، وليرتكب أبشع الآثام ، وليحمل أثقل الأوزار ، ولينال أشد العذاب باستحقاق .

قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾[النحل:٨٨] .

ويبتلي الحق ، ليميز الخبيث من الطيب ، ويعظم الأجر لمن يمضي مع الابتلاء ، ويثبت وينقي الصف من المنافقين المندسين : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[ الأنفال :٣٦- ٣٧ ] .

وهؤلاء الكفار كان الإيمان في متناول أيديهم ، وكان مبذولًا لهم ، فباعوه واشتروا به الكفر على علمٍ ، وعن بينة : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾[البقرة:١٦ ] .

ومن هنا استحقوا أن يتركهم الله يسارعون في الكفر ، ليستنفدوا رصيدهم كله ، ولا يستبقوا لهم حظاً من ثواب الآخرة .

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ ﴾ آل [آل عمران:١٧٦] .

فالله ﷻ ناصرٌ دينه ، ومؤيد أهله ، ومنفذ أمره من دونهم ، فلا تبال بهم ، ولا تحفل بهم ، وهم إنما يضرون أنفسهم بفوات الإيمان في الدنيا ، وحصول العذاب الأليم في الآخرة ، ومن هوانهم على الله ، وسقوطهم من عينه ، لم يجعل لهم حظًا في الدنيا بالإيمان ، ولا حظًا في الآخرة بالثواب ، فخذلهم ولم يو فقهم لمَا وفق إليه أولياءه ؛ لعلمه بأنهم غير زاكين على الهدى ، ولا قابلين للر شاد :﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [ الأنعام : ٥٣ ] .

والذين اختاروا الكفر على الإيمان لن يضروا الله شيئًا ، وإنما يضرون أنفسهم ، والله غنيٌ عنهم ، وقد قيض لدينه من عباده الأبرار الأزكياء سواهم ، وأعد له ممن ارتضاه لنصرته من الرجال الصادقين : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [ المائدة :٥٤ ] .

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [آل عمران:١٧٧] .

إن العيون والأبصار قد ترى أعداء الله ، وأعداء الحق ، وأعداء الدين ، متروكين لا يأخذهم العذاب ، ممتعين في ظاهر الأمر بالقوة والسلطة ، والمال والجاه ، مما يوقع الفتنة في قلوب هؤلاء ، وقلوب الناس من حولهم ، مما يجعل ضعاف الإيمان يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يحسبون أن الله سبحانه يرضى عن الشر والباطل ، فيملي له ، ويرخي له العنان ، أو يحسبون أن الباطل حق ، وإلا فلم تركه الله ينموا ويكبر ويغلب ؟ ، أو يحسبون أن من شأن الباطل أن يغلب على الحق في هذه الأرض بقوته وليس هناك من قوة تغلبه : ﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [ آل عمران : ١٥٤ ] .

وهذا وهم باطل ، وضلال مبين ، وظن بالله غير الحق ، والأمر ليس كذلك قطعًا ، فإنه إذا كان الله ﷻ لا يأخذهم بكفرهم الذي يسارعون فيه ، وإذا كان الله يعطيهم حظًا في الدنيا يستمتعون به ، ويلهون فيه ، إذا كان الله يأخذهم بهذا الابتلاء فإنما هي الفتنة ، وإنما هو الكيد المتين وإنما هو الاستدراج البعيد .

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ آل [آل عمران:١٧٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [التوبة:٥٥ ] .

ولو كانوا يستحقون أن يخرجهم الله من أثرة النعمة بالابتلاء الموقظ لأخرجهم ، ولكن لا يريد بهم خيرًا ، لخبث نفوسهم ، فاشتروا الكفر بالإيمان ، وسارعوا في الكفر ، واجتهدوا فيه ، وقدموا بأعمالهم السيئة إلى مساكنهم في النار ، ولقد نصر الله رسله وأتباعهم ، وخذل أعداءهم ، واستقرت جذور العقيدة في الأرض ، وقام بناء الإيمان ، وظهر النور في العالم على الرغم من جميع العوائق ، وعلى الرغم من تكذيب المكذبين ، وكيد الكائدين ، وعلى الرغم من التنكيل بالدعاة والمجاهدين .

قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة:٣٣] .

ولقد ذهبت عقائد الكفار والمشركين ، وذهبت سطوتهم ودولتهم ، وبقيت العقيدة التي جاء بها الرسل تسيطر على قلوب الناس وعقولهم ، ذهبت مملكة فارس ، ومملكة الروم ، ومملكة القبط ، وجميع الممالك التي عارضت حكم الله ، وما تزال على الرغم من كل شيء قوة هذا الدين هي أظهر وأبقى ، وأحسن وأنقى ، ما يسيطر على البشر في أنحاء الأرض ، فلله الحمد على هذه النعمة قال الله تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [ الحجرات : ١٧ ] .

وكل المحاولات التي بذلت لمحو الإسلام الذي جاء به الرسل ، وتغليب فكر غيره عليه ، وكل كيد ، وكل مكر ، قد باء كل ذلك بالفشل ، سواء في دار الإسلام ، أو في الأرض التي نبع منها ، وحقت كلمة الله لعباده المؤمنين بالنصر والتمكين ، ولدينه بالبقاء: ﴿ وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات: ١٧١ – ١٧٣] .

هذا بصفة عامة ، وهي كذلك متحققة في كل دعوة يخلص فيها الجند ، ويتجرد لها الدعاة إلى الله ، إن هذه العقيدة غالبة منصورة مهما وضعت في سبيلها العوائق ، ومهما قامت في طريقها العراقيل ، ومهما رصد لها الباطل من قوى الحديد والنار ، وقوى الدعاية والافتراء والإعلام ، وقوى الحرب والمقاومة : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [ الصف : ٩]

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [ الأنفال : ٣٦ – ٣٧ ] .

وإن هي إلا معارك تختلف نتائجها ، ثم تنتهي بالوعد الذي وعد الله رسله ، والذي لا يخلف ولو قامت قوى الأرض كلها في طريقة: ﴿ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾ [ النساء : ١٤١ ] .

إنه الوعد بالنصر والغلبة والتمكين للمؤمنين ، هذا الوعد سنة من سنن الله الكونية ، سنة ماضية كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دروبها المنتظمة ، وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان ، وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة التي ينزل عليها الماء ، ولكنها مرهونة بتقدير الله يحققها حين يشاء ، وقد تبطئ ولكنها لا تخلف أبدًا ، وقد تتحقق في صورة لا يدركها البشر : ﴿ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [ الروم : ٦ – ٧ ] .

وقال الله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾[الروم:٤٧] .

وقد يهزم جند الله في معركة من المعارك ، وتدور عليهم الدائرة لأن الله يعدهم لنصر في معركة أكبر ، ليؤدي النصر ثماره في مجال أوسع والله حكيم عليم .

إن الإيمان كنز عظيم ، وجوهر ثمين ، إذا استقر في القلوب ، واستنارت به ، نشطت للعبادة ، وهانت عليها التضحية ، وإذا اكتملت حقيقة الإيمان في نفوس الذين لا يملكون قوة سواها ، فإن الإيمان يستعلن في وجه الطغيان ، لا يخشاه ولا يرجوه ، ولا يرهب وعيده ، ولا يرغب في شيء مما في يده .

فإذا قال الطغيان كما قال فرعون : ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾[طه:٧١] .

قال الإيمان: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾[طه:٧٢-٧٣] .

والله مع المؤمنين ضد أعدائهم ، فهو الناصر وهو الحفيظ .

فالكفار لما : ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾[ الأنبياء : ٦٨ ] .

فماذا فعل الله به وبهم وبالنار ؟

﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء:٦٩ -٧٠] .

فسبحان القادر على كل شيء ، الذي لا يعجزه شيء .

وما ذنب الرسل والدعاة إلى الله ، حتى يخرجهم الكفار من ديارهم ، أو يكرهوهم على إتباع ملتهم ؟

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [إبراهيم:١٣-١٦] .

فماذا قال الله لرسله ؟

قال الله تعالى :﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾[إبراهيم:١٣-١٤] .

وعندما بلغت المعركة بين الإيمان والطغيان في عالم القلب إلى هذا الحد العلي تولت يد القدرة راية الحق لترفعها عاليه ، وتنكس راية الباطل بلا جهد من أهل الإيمان ، فلم يتكلف أهل الإيمان سوى إتباع الحق والسير ليلًا : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ ﴾[طه:٧٧-٧٩] .

ذلك أن القوتين لم تكونا متكافئتين ولا متقاربتين في عالم الواقع ، موسى وقومه ضعاف مجردون من القوة ، وفرعون وجنوده يملكون القوة المادية كلها ، فلا سبيل لخوض معركة مادية أصلًا ، هنا تولت يد القدرة الإلهية إدارة المعركة ، فأنجى الله موسى وقومه ، وأغرق فرعون وجنوده ، بأمر واحد ، وبماء واحد ، في آن واحد ، لكن تم ذلك بعد كمال الإيمان بالله في قلوب المؤمنين :﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ

وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأنفال:١٧] .

وحين كان بنو إسرائيل يؤدون ضريبة الذل لفرعون ، وهو يقتل أبناءهم ، ويستحي نساءهم ، لم تنزل عليهم نصرة الله ، لنقدهم عهد الله ، ولكن لما استعلن الإيمان في قلوب الذين آمنوا ، واستعدوا لاحتمال التعذيب ، جهروا بكلمة الإيمان في وجه فرعون دون تحرج ، ودون اتقاء للتعذيب ، أيدهم الله بنصره ، وأعلن النصر الذي تم قبل ذلك في الأرواح والقلوب كما قال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الشعراء:٦١-٦٨] .

- **أسباب تأخر النصر :**

إنه بكمال الإيمان والتقوى ، يكون كمال النصر ، فليرتقب الدعاة النصر من الله بهذا الإيمان ، ولو كانوا مجردين من عدة الأرض ، والطغاة يملكون المال والجند والسلاح ، فجند الله كل من في السماوات والأرض ، يغلب جند المخلوق :﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الروم:٤٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾ [ الفتح : ٧ ] .

النصر من الله ﷻ قد يبطئ على المؤمنين أحيانًا ، لأن بنيه الأمة المؤمنة بعد لم تنضج بعد نضجها المطلوب ، ولم يتم بعد تمامها وكمالها ، ولم تحشد بعد طاقتها ، فلو نالت النصر حينئذ لفقدته سريعاً ، لعدم قدرتها على حمايته طويلًا.

وقد يبطئ النصر، حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة، وآخر ما تملكه من رصيد، فلا تستبقي عزيزًا ولا غاليًا لا تبذله هينًا رخيصًا في سبيل الله.

وقد يبطئ النصر ، حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها ، فتدرك أن هذه القوة وحدها بدون عون من الله لا تكفل النصر ، بل إنما ينزل النصر بعد بذل كل الطاقة ، وتفويض الأمر كله لله .

وقد يبطئ النصر ، لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله .

وقد يبطئ النصر ، لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحيتها لله ولدعوته ودينه ، فهي تقاتل لمغنم تحققه ، أو حمية لذاتها ، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها ، والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله.

وقد يبطئ النصر ، لأن في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من الخير ، يريد الله أن يجرد الشر منها ، ليتمحض خالصًا ، ويذهب وحده هالكًا .

وقد يبطئ النصر ، لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيغه للناس تمامًا ، ولم يقتنع بعد بفساده ، وضرورة زواله ، فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة ، فيشاء الله أن يبقي الباطل حتى ينكشف عاريًا للناس ، ويذهب غير مأسوف عليه من أحد .

وقد يبطئ النصر ، لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة ، فلو انتصرت للقيت معارضة من البيئة لا يستقر لها معها قرار ، فيظل الصراع قائماً ، حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر ، ولاستبقائه .

من أجل هذا كله ، ومن أجل غيره ، مما يعلمه الله ، قد يبطئ النصر ، فتتضاعف التضحيات ، وتتضاعف الآلام ، مع دفاع الله عن الذين أمنوا ، وتحقيق النصر لهم في النهاية، فهم أهل دينه ، وحماة شريعته ، والمجاهدون لإعلاء كلمته: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾[الحج:٤٠-٤١] .

وقد دعا نوح ﷺ قومه للإسلام ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا ، فكذبوه ، وما آمن معه إلا قليل ، ولما لم يجد منفذاً إلى تلك القلوب الجامدة المتحجرة ، وسخروا منه وأذوه ، وأوحي إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، عندئذٍ توجه بالدعاء إلى ربه وحده ، يشكوا إليه ما لقيه من تكذيبٍ من قومه :﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [القمر:٩-١٤] .

إنه عندما يتجمد الأحياء على هذا النحو ، وتقسوا قلوبهم إلى هذا الحد ، وتهم الحياة بالحركة إلى الأمام في طريق الكمال المرسوم ، فتجدهم عقبه في الطريق ، عندئذ إما أن تتحطم هذه المتحجرات ، وإما أن تدعها الحياة في مكانها وتمضى ، والأمر الأول هو الذي حدث لقوم نوح ، ذلك أنهم كانوا في فجر البشرية ، وفي أول الطريق ، فشاءت إرادة الله أن تطيح بهم من أول الطر: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ

ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۖ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٧﴾ [المؤمنون:٢٧] .

وهكذا كان قدر الله ، ومضت سنة الله في تطهير الطريق من العقبات المتحجرة ، لتمضى الحياة في الطريق المرسوم وأراد الله أن يكون علاج الطوفان الذي يجتث كل شيء ، ويجرف كل شيء ويغسل التربة ، لتعاد بذرة الحياة السليمة من جديد ، وجعل الله الفلك وسيلة لنجاته من الطوفان ، وحفظ بذور الحياة السليمة ، كي ما يعاد بذرها من جديد .

وقد شاء الله ﷻ أن يصنع نوح الفلك بيده ، لأنه لابد للإنسان من الأخذ بالأسباب والوسائل ، وبذل ما في طوقه ، ليستحق المدد من ربه ، فالمدد والنصر لا يأتي القاعدين المسترخيين ، الذين ينتظرون ، ولا يزيدون على الانتظار والأماني .

وجعل الله ﷻ لنوح ﷺ علامة للبدء بعملية التطهير الشاملة لوجه الأرض من هؤلاء ، وهي خروج الماء من التنور ، ليسارع نوح فيحمل في السفينة بذور الحياة من كل زوجين اثنين ، منها أنواع الحيوان ، والطيور ، والنبات وأهله ، إلا من سبق عليه القول منهم ، وهم الذين كفروا وكذبوا فاستحقوا كلمة الله وسنته النافذة ، وهي إهلاك المكذبين بآيات الله بالغرق الذي ابتلعهم ، وأمر الله نوحاً أن لا يجادل في أمر واحد ، ولا يحاول إنقاذ أحد ، فسنة الله ماضية لا تحابي أحداً ، ولا تنحرف عن طريقها من أجل خاطر ولي ولا قريب .

وتنفيذًا لما طلبه نوح ﷺ من ربه جاء أمر الله بإغراق المكذبين ، ونجاة المؤمنين : ﴿ وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ

ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنبياء:٧٦-٧٧] .

وإنها لنعمة كبرى أن ينصر الله أولياءه ، ويخذل أعداءه فأمر الله نوح ﷺ أن يشكر ربه على هذه النعمة وأن يستهديه لسلوك الصراط المستقيم كما قال سبحانه : ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المؤمنون:٢٨] .

ثم كانت العاقبة لنوح ﷺ ومن آمن معه ، فأنجاهم الله ، وأغرق من سواهم : ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [ هود:٤١-٤٤] .

وقال الله تعالى: ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود:٤٨] .

وهذه سنة الله ، نصر أوليائه ، وخذلان أعدائه ، في كل زمان ومكان : ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [ الأحزاب : ٦٢ ] .

# ٩- الخزانة التاسعة

- **فقه النصر :**

ابتلاء الله ﷻ لعباده أنواع وألوان على مختلف العصور والأزمان .

ابتلاء للصبر ، وابتلاء للشكر ، وابتلاء للأجر ، وابتلاء للتوجيه ، وابتلاء للتأديب ، وابتلاء للتمحيص وابتلاء للتقويم ، وابتلاء للتوبة .

وفي قصة نوح ﷺ ألوان من الابتلاء له ، ولقومه ، ولأبنائه القادمين ، وسنة الله أن الشر حين يتمحض يحمل سبب هلاكه في ذاته ، والبغي حين يتمرد لا يحتاج إلى ما يدفعه من البشر .

فالله له بالمرصاد : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [هود:١٠٢] .

فحين بغى فرعون على بني إسرائيل ، واستطال بجبروت الحكم والسلطان ، وحين بغى قارون عليهم ، واستطال بجبروت العلم والمال ، فكانت النهاية واحدة ، هذا خسف الله به وبداره الأرض ، وذلك أخذه ألله وجنوده : ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [ الزخرف : ٥٥ ] .

فلما لم تكن هناك قوة تقابلها من قوى الأرض الظاهرة فحين ذلك نصر الله أولياءه مباشرة ، فوضع حدًا للبغي والفساد حيثما عجز الناس عن الوقوف للبغي والفساد ، فدل هذا على أنه حين يتمحض الشر ، ويسفر الفساد ، ويقف الخير عاجزاً حسيرًا ، ويخشى من الفتنة بالبأس ، والفتنة بالمال ، عندئذٍ تنزل نصرة الله صريحة متحدية بلا ستار من الخلق ، ولا سبب من قوى أهل الأرض ، لتضع حداً للشر والفساد ، وتضرب الظلم والطغيان

والبغي ضربة مباشرة ، عندما يعجز عن ضربها البشر ، وتنصر المستضعفين الذين لا حول لهم ولا قوة ، وتمكن للمعذبين الذين لا حيلة لهم ولا وقاية :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾[الحج:٣٨-٣٩] .

وقال الله تعالى عن الأمم المكذبة للرسل :﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[العنكبوت:٤٠] .

إن هذا ما يجب أن يعلمه كل مجاهد في سبيل الله ، وكل داع إليه ، وهو ما تجهله الكثرة المشركة الباغية الطاغية ، ففرعون طاغ من الطغاة ، فماذا فعل الله به ؟ .

قال الله تعالى عنه :﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾[القصص:٣٩-٤٠] .

أما قارون فقد جاء أمر الله مباشرة بإهلاكه ، فخسف الله به وبداره الأرض ولم يغن عنه ماله ولا علمه ، كما أغرق الله فرعون فألقاه في اليم هو وجنوده فماذا فعل الله بقارون ؟ :﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾[القصص:٨١] .

وهكذا انتهى سلطان العلم والمال مع البغي والاستكبار بالبوار ، وكما انتهى سلطان الحكم والجبروت والعلو في الأرض ، هذا ابتلعه الماء ، وذلك ابتلعته الأرض .

قال الله تعالى عن فرعون : ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [ القصص : ٣٩- ٤٢ ] .

فأخذ الله ﷻ كل أمه من الأمم المكذبة بذنبها وعاقبها على قدر جرمها.

كما قال سبحان : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت:٤٠] .

وما كان ، وما ينبغي ، وما يليق بالله تعالى أن يظلم أحدًا من خلقه .

قال الله تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [النساء:٤٠] .

فالله لا يظلم أحداً لكمال عدله ، وكمال رحمته ، وغناه التام عن جميع الخلق ، ولكن كل هؤلاء ظلموا أنفسهم ، فمنعوها حقها التي خلقها الله من أجله ، فهي مخلوقة لعبادة الله وحده ، وهؤلاء وضعوها في غير موضعها ، وشغلوها بالشهوات والمعاصي عن الإيمان والطاعات ، فضروها أعظم الضرر من حيث ظنوا أنهم ينفعونها .

فهذه نصرة الله لأوليائه ، حين يتمحض الشر ، ويقف الخير عاجزًا .

أما حين يقف الإيمان القوي في وجه الطغيان الباغي ، فإن الله جل جلاله ينصر أهل الأيمان ، ويخذل أهل الطغيان ويظهر قدرته ، ولكن تحت ستار من الخلق .

كما قال سبحانه : ﴿ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ ﴾[التوبة:١٤] .

وقال الله تعالى: ﴿ فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٧ ﴾[الأنفال:١٧] .

إن في هذا الكون العظيم إله واحد لا شريك له ، وهو الله وحده في قوة واحدة هي قوة الله وحده ، وفي قيمة واحدة للإنسان هي قيمة الإيمان بالله ، فمن كان الله وحده هو إلهه ومعبوده ، فهو أسعد الناس في الدنيا والآخرة ، ومن كانت قوة الله معه ، فلا خوف عليه ، وإن كان مجردًا من مظاهر القوة ، ومن كانت قوة الله عليه ، فلا أمن له ، ولا طمأنينة ، ولو سندته جميع القوى في الكون كله :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨ ﴾ [النحل:١٢٨] .

ومن كانت له قيمة الإيمان ، فله الخير كله ، ومن فقد هذه القيمة فليس بنافعة شيء أصلًا ، ومن هنا تقعد قيمة الحكم والسلطان ، عن قيمة الإيمان والأعمال الصالحة ، كما تقعد قيمة العلم والمال ، عن قيمة الإيمان والأعمال الصالحة : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ١٨ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٩ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٠ ﴾ [السجدة/ ١٨-٢٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٦٢-١٦٣]

والله ﷻ جعل انتصار الحق سنة كونية كخلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، سنةٌ لا تتخلف ، قد تبطل خطة يعلمها الله ، وقد تأتي في موعدها حسب سنة الله : ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النور:٤٤] .

والله تبارك وتعالى هو القوي العزيز وحده لا شريك له ، وقوة الرب هي القوة ، وما عداها من قوة الخلق فهو هزيلٌ واهن ، من تعلق به أو احتمى به خذله الله به ، فهو كالعنكبوت الضعيفة تحتمي ببيت من خيوط واهنة واهية ، فهي ، وما تحتمي به سواء كما قال سبحانه : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤١] .

إنه لا بدَّ للبشر من معرفة حقيقة القوى في هذا الوجود ، ليعرف الناس أين يتوجهون ؟ ، وعلى من يتوكلون ؟ ، ومن يعبدون ؟ .

قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق:١٢ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ [محمد: ١٩ ] .

فلا تخدع الناس قوة الحكم والسلطان ، ويحسبونها القوة القادرة التي تعمل في هذه الأرض ، فيتوجهون إليها ، ويخشونها ، ويفزعون منها ،

ويترضونها ليكفوا عن أنفسهم أذاها ، أو يضمنوا لأنفسهم حماها : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٣ ﴾[التغابن:١٣] .

ولا تخدعهم قوة المال ، فيحسبونها القوة المسيطرة على أقدار الناس ، وأقدار الحياة ، فيسعون للحصول عليها ، ليستطيلوا بها ، ويتسلطوا على الرقاب كما يحسبون .

ولا تخدعهم قوة العلم الإنساني ، فيحسبونها أصل القوة ، وأصل سائر القوى التي يصول ويجول بها من يملكها : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٦ ﴾[ هود : ٦٦ ] .

فلا تخدع الناس هذه القوى الظاهرة ، سواء كانت في أيدي الأفراد أو الجماعات أو الدول ، فيدورون حولها ، ويتهافتون عليها ، كما يتهافت الفراش على النار فتحرقه .

إن المؤمن لا بدَّ أن يعلم أن القوة الوحيدة التي تخلق سائر القوى الصغيرة والكبرة ، وتملكها وتوجهها ، وتسخرها ، حيثما تريد كما تريد إنما هي قوة الله وحده : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٦ ﴾[هود:٦٦] .

وقال الله تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥١ ﴾[الذاريات: ٥٠-٥١] .

ولا بدَّ كذلك أن يتيقن المؤمن أن الالتجاء إلى تلك القوى مهما كانت كالتجاء العنكبوت إلى بيت العنكبوت .

فالعنكبوت حشرةٌ ضعيفةٌ رخوةٌ واهنة ، لا حماية لها من تكوينها الرخو ، ولا وقاية لها من بيتها الواهن ، وليس هناك إلا حماية الله ، وإلا ركنه القوي ، فهو سبحانه القوي ، وكل قوةٍ في العالم العلوي والعالم السفلي من قوته: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ﴾[الحج:٤٠] .

وبهذه الحقيقة الإيمانية العظمى ، والتي رسخت في قلب النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ، كانت بها أقوى من جميع القوى التي وقفت في طريقها ، وداست بها على كبرياء الجبابرة والطغاة في الأرض ، ودكت بها المعاقل والحصون التي عارضت الإسلام: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء:٨١] .

فلا إله إلا الله ، ما أعظم قوته وقدرته : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [ الزمر : ٦٧ ] .

لقد استقرت هذه الحقيقة في كل نفسٍ ، وعمرت كل قلبٍ مؤمن ، قوة الله وحدها هي القوة ، وولاية الله وحدها هي الولاية ، وما عداها فهو واهنٌ ضئيلٌ هزيلٌ مهما علا واستطال ، ومهما تجبر وطغى ، ومهما ملك من وسائل البطش والطغيان ، والتنكيل والإرهاب ، إنها أضعف من العنكبوت وبيتها الواهن :﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤١] .

وإن المؤمنين عامة، والعلماء والدعاة والمجاهدين خاصة، الذين يتعرضون في كل وقت للفتنة والأذى ، وللإغراء والإغواء ، لجديرون أن يقفوا أمام هذه الحقيقة الضخمة ، ولا ينسوها لحظة ، وهم يواجهون القوى المختلفة من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ ﴾ [هود:٦٦] .

هذه القوة تضربهم ، وتحاول أن تسحقهم ، وهذه تستهويهم ، وتحاول أن تشتريهم ، وكلها خيوط العنكبوت في حساب الله ، والقوة كلها لله جميعًا .

قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [البقرة:١٦٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾ [ المائدة : ٩٨ ] .

والمؤمن دائمًا يسأل ربه ألا يجعله فتنةً للكفار ، ويسأله مغفرة ذنوبه كما قال خليل الرحمن : ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ ﴾[الممتحنة:٥] .

أي لا تسلط الكفار علينا ، فيكون في ذلك فتنةٌ لهم ، إذ يقولون لو كان الإيمان يحمي أهله ما سلطنا عليهم وقهرناهم ، وفتنةٌ لنا بتسليطهم علينا .

وهي شبهة كثيرًا ما تحيك في الصدور ، حين يتمكن الباطل من الحق ، ويتسلط الطغاة على أهل الإيمان ، لحكمةٍ يعلمها الله في فترة من الفترات ، يربي فيها الله ﷻ أولياءه ، ويتوب عليهم ، ويجعل العاقبة لهم .

والمؤمن يصبر للابتلاء ، ولكن هذا لا يمنعه أن يدعو الله ألا يصيبه البلاء الذي يجعله فتنةً وشبهة تحيك في الصدور .

ثم يقول إبراهيم ﷺ : واغفر لنا ، إدراكًا منه لمستوى العبادة التي يستحقها منه ربه ، وعجزه ببشريته عن بلوغ المستوى الذي يكافئ به نعم الله وآلاءه ، ويمجد جلاله وكرياءه ، فيطلب المغفرة من ربه ، ليكون في شعوره ، وفي طلبه أسوةٌ لمن معه ، ولمن يأتي بعده، كما قال سبحانه : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾[الممتحنة:٤] .

والله سبحانه يطمئن رسله وأولياءه أنه سبحانه سيتولى حرب هؤلاء الكفار ، ويحذر أعداءه ، وهم كالهباءة المنثورة التي لا تعني شيئًا أمام جبروت الجبار العظيم القهار قائلًا : ﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ ﴾[القلم:٤٤-٤٥] .

وقال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾[الأنعام:٤٤-٤٥] .

فما أعظم قدرة الله ، وما أهون الخلق على الله جل جلاله .

إن الجبار القهار يكشف عن خطة الحرب مع هذا المخلوق المعاند الهزيل ، الضعيف الصغير .

فالله سبحانه يملي لهؤلاء المغترين بالمال ، والبنين ، والجاه ، والسلطان ، ويجعل هذه النعم فخهم : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[ التوبة : ٥٥ ] .

فهذه سنة الله في الحرب بينه وبين أعدائه المخدوعين ، فهو سبحانه يستدرجهم إلى العقوبة ، ويمهلهم ويكيد لهم بما شاء: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ ﴾[الحج:٣٨] .

وبهذا وذلك يخلي الله النبي ﷺ وأصحابه وأتباعه من المعركة بين الإيمان والكفر ، وبين الحق والباطل ، فهي معركته سبحانه، وهي حربه مع أعدائه ، التي يتولاها بذاته وتدبيره : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾[الحج:٤٠-٤١] .

# ١٠- الخزانة العاشرة

• **فقه النصر :**

المعركة بين الإيمان والكفر ، وبين الحق والباطل ، هي معركته سبحانه ، وهي حربه مع أعدائه التي يتولاها بذاته وتدبيره : ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال:١٧] .

والأمر كذلك في حقيقته ، مهما بدا أن للنبي ﷺ وللمؤمنين دورًا في هذه الحرب أصلًا ، إن دورهم حين ييسره الله لهم ، هو طرفٌ من قدر الله في حربه مع أعدائه .

فهم أداة يفعل الله بها ، أو لا يفعل ، وهو في الحالين فعال لما يريد ، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو في الحالين يتولى المعركة بذاته وفق سنته التي يريد ، فنعم المولى ، ونعم النصير .

وهذا النص نزل والنبي ﷺ في مكة ، والمؤمنون معه قلةٌ لا تقدر على شيء ، فكانت فيه الطمأنينة للمستضعفين ، والفزع والخوف للمغترين بالقوة والجاه ، والمال والبنين .

ثم تغيرت الأحوال والأوضاع في المدينة ، وشاء الله أن يكون للرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين دور في ظاهرٌ في المعركة .

ولكنه سبحانه هنالك أكد لهم كذلك ذلك القول الذي قاله لهم ، وهم في مكة قلة مستضعفون .

فقال لهم ، وهم منتصرون في بدر : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأنفال:١٧] .

وقال بعد أن أمدهم بالملائكة في بدر : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٦] .

وذلك كله ليقر في قلوب المؤمنين هذه الحقيقة ، حقيقة أن المعركة معركته سبحانه ، وأنه حين يجعل للمؤمنين فيها دورًا ، فإنما ذلك ليبليهم منه بلاء حسنًا ، وليكتب لهم بهذا البلاء أجرًا : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾ [ محمد :٤- ٦ ] .

أما حقيقة الحرب ، فهو سبحانه الذي يتولاها ، وأما حقيقة النصر ، فهو الذي يكتبه ، فلا نصر إلا من الناصر جل جلاله ، وهو سبحانه يجريها بهم وبدونهم ، وهم حين يخوضونها أداة لقدرته ، ليست هي الأداة الوحيدة في يده : ﴿ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [ آل عمران :١٢٥- ١٢٦ ] .

وهذه حقيقةٌ تسكب الطمأنينة في قلب المؤمن ، في حالتي قوته وضعفه ، على السواء ، ما دام يخلص قلبه لله ، ويتوكل في جهاده على الله .

فقوته ليست هي التي تنصره في معركة الإيمان والكفر ، والحق والباطل ، إنما هو الله الذي يكفل له النصر ، بعد قيام العبد بأسبابه التي أمره الله بها

تنفيذًا وتطبيقًا لأمر الله في كل حال : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [ الروم : ٤٧ ] .

وضعف العبد لا يهزمه كذلك؛ لأن قوة الله من ورائه، ومن توكل على قوي فهو قوي ، وقوة الله هي التي تتولى المعركة، وتكفل له النصر، ولكن الله يملي ، ويستدرج ، ويقدر الأمور في مواقيتها ، وفق مشيئته وحكمته ، ووفق عدله ورحمته : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾ [ فاطر : ٣١ ] .

كما أنها حقيقةٌ تفزع قلب العبد الكافر وتخيفه ، سواء كان المؤمن أمامه في حالة ضعف أم في حالة قوة ، فليس المؤمن هو الذي ينازله ويحاربه ، إنما هو الله الذي يتولى المعركة بقوته وجبروته : ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [ البقرة : ٢٧٩ ] .

فما هذا البائس المتعوس ، وما هذه الهباءة الضعيفة أمام قدرة الله وجبروته ، وعظمة ملكه وسلطانه ؟ : ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [ الزمر : ٦٧ ] .

إن الله يملي للكافر ، ويستدرجه من حيث لا يعلم ، فهو في الفخ الرهيب المفزع المخيف ، ولو كان في أوج قوته وعدته ، فهذه القوة هي ذاتها الفخ ، وهذه العدة هي ذاتها المصيدة: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم:٤٤-٤٥] .

وقال الله تعالى : ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة:٥٥ ] .

أما متى يكون النصر ؟ ومتى تتوفر أسبابه ؟

فذلك في علم الله المكنون .

فعلينا الدعاء ، وعلى الله الإجابة ، وعلينا الجهاد ، وعلى الله النصر ، وعلينا العمل ، وعلى الله الأجر ، وعلينا الدعوة ، وعلى الله الهداية : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [ غافر :٦٠ ] .

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال:٢٤] .

وأمام هذه الحقيقة ، يوجهنا الله إلى الصبر والتقوى ، الصبر على الدعوة إلى الله ، والصبر على الجهاد في سبيل الله ، والصبر على أوامر الله ، والصبر على أقدار الله ، والصبر عن معاصي الله ، والصبر على التواءات النفوس ، والصبر على الأذى والتكذيب والصبر على السخرية والاستهزاء: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الروم:٦٠]

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَاۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾ [ الطور : ٤٨- ٤٩ ] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل:١٢٧-١٢٨] .

الصبر في هذا كله ، حتى يحكم الله في الوقت المقدر كما يريد ، فيحصل للمؤمنين الفوز والفلاح :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران:٢٠٠] .

وقد وعد الله المؤمنين إذا نصروا الله بالقيام بدينه ، والدعوة إليه ، وجهاد أعدائه ، أن ينصرهم على عدوهم ، ويثبت أقدامهم، كما قال سبحانه : ﴿

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٩ ﴾ [محمد:٧-٩] .

فعلى المؤمنين بالله أن يقوموا بنصرة دين الله ، وإعلاء كلمته ، والاستقامة عليه ، والدعوة إليه ، وجهاد من عانده ونابذه بالأنفس والأموال، كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤ ﴾ [الصف: ١٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥ ﴾ [ الحجرات :١٥ ] .

فيا أمة محمد ﷺ كونوا أنصار الله ، ودعاة دينه ، ينصركم الله على عدوكم كما نصر من قبلكم ، ويظهركم على عدوكم كما أظهر من كان قبلكم على عدوهم : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٥٢ ﴾ [ غافر : ٥١ – ٥٢ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١ ﴾ [المجادلة: ٢١ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣ ﴾ [الصافات: ١٧١ – ١٧٣] .

**إن جميع الأنبياء والرسل دعوا أممهم إلى ثلاثة أشياء :**

التوحيد ، والإخلاص لله في العمل ، والنصيحة .

وضحوا بكل ما يملكون من أجل الدين تضحية كاملة، فالاستقامة الكاملة ، والتضحية الكاملة ، معها نصرةٌ كاملةٌ من الله، وذلك خاصٌ بالأنبياء وأتباعهم من المؤمنين ، وهي سنة جارية لا تتبدل : ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾[ الأحزاب : ٦٢ ] .

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾[غافر:٥١] .

فنصرة الله دائماً إلى يوم القيامة لأهل الإيمان والتقوى ، سواءً كان نبيًا ، أو خليفةً ، أو من سائر الناس ، فردًا أو جماعة أو أمة : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج:٤٠-٤١] .

وبعد بذل كل شيء ، وكمال الاستقامة ، وكمال التضحية ، الله يفصل بأمرين :

نصر أوليائه المؤمنين ، وخذلان أعدائه الكافرين .

قال الله تعالى: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾[آل عمران:١٦٠ ] .

فنوح ﷺ دعا قومه إلى التوحيد ، وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ، ونصحهم بطاعة الله ورسوله ، فلما لم يستجيبوا ولم يؤمنوا ، جاء أمر الله بنجاة المؤمنين ، وإهلاك الكافرين، كما قال سبحانه : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا

وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [هود:٤٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [ هود :٣٦- ٣٧ ] .

وهود ﷺ دعا قومه عادًا كذلك ، ولما لم يستجيبوا له، جاء أمر الله بإهلاكهم، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾ [هود:٥٨-٦٠] .

وصالح ﷺ دعا قومه إلى الله ، ولما لم يستجيبوا له أهلكهم الله كما قال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [هود:٦٦-٦٧] .

وإبراهيم ﷺ دعا قومه إلى الله ، فأبوا وأشعلوا النار لإحراقه فأنجاه الله من النار ، وجعلها بردًا وسلاماً عليه ، وجنديًا من جنوده تحرسه ولا تحرقه، كما قال سبحانه : ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [ الأنبياء : ٦٨-٧١ ] .

ولوطٌ ﷺ دعا قومه إلى الله ، ولما لم يستجيبوا رفع الله ديارهم إلى السماء وقلبها عليهم لانقلاب فطرتهم بفعل الفاحشة التي لم يأتها من قبلهم من أحدٍ من العالمين: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا

حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾[هود:٨٢-٨٣] .

وشعيب ﷺ قال لقومه كما قال سبحانه : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ ﴾ [هود:٨٤] .

ولما لم يستجيبوا له وسخروا منه نزل بهم أمر الله كما قال سبحانه : ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾ [هود:٩٤-٩٥] .

وموسى ﷺ دعا فرعون وملأه إلى الله ، ولما لم يستجب أغرقه الله وقومه في البحر، كما قال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾[الشعراء:٦١-٦٨] .

وعيسى ﷺ دعا بني إسرائيل إلى الله ، والاستقامة على الدين ، فلما لم يستجيبوا له أظهر الله من آمن به على من خالفه كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[الصف: ١٤] .

ومحمد ﷺ دعا قومه قريشًا إلى الله ، فلم يؤمن منهم إلا القليل ، ولما أعرضوا عنه وسبوه ، ثم آذوه وأرادوا قتله ، حفظه الله ، وهاجر إلى المدينة ، فأعز الله دينه ورسوله والمؤمنين ، ثم أظهره الله على جميع أعدائه ، ودخل مكة فاتحًا معه المهاجرون والأنصار ، ودخل الناس في دين الله أفواجًا كما قال سبحانه : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾ [النصر:١-٣] .

ولما مات النبي ﷺ ، وانشغل الناس بموته ، ومن يكون خليفة بعده ، وقف جهد الدعوة ، فنقص الدين ، وحصلت في الإسلام خمس مصائب :

اشرأب النفاق ، ومنع قومٌ الزكاة ، وترك قومٌ الصلاة ، وارتد كثيرٌ من قبائل العرب ، واجتمع الأعداء لغزو المدينة .

ونزل بأبي بكر الصديق رضي الله عنه ما لو نزل بالجبال الراسيات .

ولكن لكمال إيمانه ويقينه على ربه رضي الله عنه ، وكمال تضحيته ثبته الله ، فوقف لهذه الفتن العظام موقف المؤمن الواثق من نصر الله .

فأمر الخليفة أبو بكر رضي الله عنه بإنفاذ جيش أسامة رضي الله عنه ، على الرغم من مخالفته الأحوال الظاهرة .

وأمر أبو بكر الصديق رضي الله عنه جميع الصحابة رضي الله عنهم أن يخرجوا لحرب المرتدين ، ومانعي الزكاة ، وإقناعهم بالرجوع إلى دينهم ، فخرجوا جميعًا ، ولم يبق في المدينة إلا الأطفال ، والنساء ، وأمهات المؤمنين .

إن حراسة أمهات المؤمنين مهمة، لكن حفظ الدين من النقصان أهم وأعظم .

وشرح الله صدر أبي بكر رضي الله عنه لجهاد المرتدين ، فعقد الألوية ، وجهز الجيوش إلى كل ناحية ، وخرج الصحابة رضي الله عنهم لإكمال ما نقص

من الدين بسبب الردة ، وبعد ثلاثة أشهر تم القضاء على هذه الفتن التي انتشرت ، ورجع الناس إلى الدين عابدين لله ، ممتثلين لأوامره ، مجاهدين في سبيل الله ، وبعد توبتهم ورجوعهم إلى حظيرة الإسلام ، جاءت في نفوسهم الرغبة في الجهاد في سبيل الله ، وتحركت قلوبهم للدفاع عن هذا الدين الذي آبوا ورجعوا إليه ؛ تكفيرًا لما سلف منهم من المعاصي ، فأرسلهم أبو بكر ﷺ فورًا لفتح العراق والشام ، فسارعوا لامتثال أمره ، وكانت في صحائفهم مع بقية الصحابة جميع فتوحات العراق والشام ، وخراسان والسند وغيرها من بلاد ما وراء النهر: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ [البقرة:٢١٦] .

فبسبب تضحية أبي بكر الصديق ﷺ ، وكمال إيمانه ، أكمل الله به ما نقص من الدين ، ورد به المرتدين إلى المؤمنين ، وجعلهم من المجاهدين في سبيل الله ، فرضي الله عنه وأرضاه .

وهكذا عمر بن الخطاب ﷺ لكمال إيمانه وتقواه ، وكمال تضحيته ، فتح الله به الفتوح ، ومَصَّر الأمصار ، وجعله سببًا للهداية، وإقامة العدل في الأرض.

وهكذا عمر بن عبد العزيز رحمه الله بسبب استقامته ، وصدق تضحيته ، ورغبته في أن يطاع الله ، أصلح الله به أحوال الأمة ، فعم الأمن في البلاد ، واستقام الناس ، واستغنى الفقراء والأغنياء ، وامتلأت الخزائن بالأموال من صدقةٍ وزكاة حتى لم يجد من يأخذها منه .

بل أصلح الله به ما بين السباع والبهائم ، وتمت النصرة الكاملة ، مع التضحية الكاملة ، مع أن حكمه كان سنتين تقريبًا ، فلما مات تغيرت أحوال

الأمة ، وعدت السباع على البهائم ، فلا إله إلا الله ، كل رجلٍ ذو همة يحيي الله به أمة .

والإمام أحمد بن حنبل رحمه الله ضحى بنفسه من أجل الدين ، وإحياء السنة ، فحفظه الله من أعدائه ، ونشر به السنة ، وقمع البدعة .

وهكذا الغلام الذي تعلم الإيمان على يد الراهب ، ثم ضحى بنفسه من أجل الدين تضحيةً كاملة ، فجعله الله سببًا لهداية الناس ، وترك دين الملك الظالم ، وكل التضحيات من أجل الله لإحلال الحق

حيث قال الناس « آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَام ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَام ». أخرجه مسلم[1].

فحتى تحصل الأمة على النصرة والعزة ، لا بد من التضحية الكاملة لتحصل النصرة للأمة ، والهداية للبشرية : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[ الحج :٤٠ ] .

والشيء الذي لا يكمل لا يثمر ، والذي لا يثمر لا خير فيه ، فالشجرة لا تثمر إلا بعد كمالها ، والبنت لا تنكح وهي بنت سنتين .

وإذا كمل إيمان العبد كانت معه نصرة الله : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾[ غافر :٥١ ] .

والعابد والقاعد قد يُقتل من قِبَل الكفار ، ولكن الداعي لا يُقتل حتى يجُري الله على يديه شيئًا يبقى بعده ، كما آمن الناس بعد مقتل الغلام ، فهو وإن مات فصحائفه تملأ بحسنات هؤلاء .

ونصرة الله تكون لمن نصر الله ،كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾[محمد:٧] .

---

(١)أخرجه مسلم برقم: ٧٣/ ٣٠٠٥ .

**والمؤمنون ينصرون الله بأمرين :**

**الأول** : أن تتجرد نفوسهم لله وحده ، فلا تشرك به شيئًا ظاهرًا أو خفيًا ، وأن يكون الله أحب إليها من ذاتها ، ومن كل ما تحب وتهوى ، وأن تحكمه في رغباتها وشهواتها ، وحركاتها وسكناتها ، وسرها وعلانيتها فهذا نصر الله في ذوات النفوس .

قال الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ ﴾[الأعلى:١٤-١٥] .

**الثاني** : أن لله ﷻ شريعة ومنهاجًا للحياة ، ونصر الله يتحقق بنصر شريعته ومنهاجه ، وتحكيم أمره في كل شيء ، فهذا نصر الله في واقع الحياة .

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾[الأنعام:١٦٢-١٦٣] .

وغزوة أحد لم تكن معركة في الميدان وحده ، وإنما كانت كذلك معركةً في ميدان النفس البشرية .

والمعارك الحربية في الإسلام ، ليست معركة أسلحة وخيل ورجال فحسب ، فتلك معركة جزئية ، إنما المعركة الكبرى في عالم القلب ، عالم الإيمان ، عالم السلوك ، عالم الأخلاق ، لتتعلق القلوب والنفوس بالله وحده ، وتتلقى منه ومن رسوله ﷺ ، وتُؤْثر طاعة الله ورسوله ﷺ ، وما يحبه الله ورسوله ﷺ على كل شيءٍ مهما كان : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[ الأنفال :٢- ٤ ] .

والنفوس لا تنتصر في المعارك الحربية إلا حين تنتصر في المعارك الشعورية والأخلاقية ، وتُؤْثر طاعة ربها على كل ما سواه : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [ الأحزاب :٧١ ] .

والذين تولوا يوم التقى الجمعان في أُحد ، إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا من الذنوب ، والذين انتصروا في معارك العقيدة مع الأنبياء هم الذين بدؤوا المعركة بالدعاء والاستغفار من الذنوب ، وصدق اللجوء إلى الله وطاعته فتلك عُدَّة النصر : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞۚ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [ آل عمران :١٤٦- ١٤٨ ] .

وقدر الله وراء أفعال البشر ، ففي غزوة أحد نصر الله المؤمنين في البداية ، وما أن ضعف المسلمون ، وتنازعوا ، وعصوا ، وانصرفوا لجمع الغنائم ، إلا وصرف الله قوتهم وبأسهم وانتباههم عن المشركين ، وصرف الرماة عن ثغرة الجبل ، وصرف المقاتلين عن الميدان ، فلاذوا بالفرار ، ووقع كل هذا مرتبًا على ما صدر منهم ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [آل عمران:١٥٢].

وما حدث لهم مدبَّر من الله ليبتليهم ، لتمحيص النفوس ، وتمييز الصفوف ، فصرفهم عنهم ليبتليهم ، ولقد عفا الله عن المؤمنين ، لضعفهم ، وعدم

إصرارهم على الخطيئة ، وحسن نيتهم ، وثباتهم على دينهم ، والله ذو فضلٍ على المؤمنين : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [ البقرة : ١٤٣ ] .

والصحابة رضي الله عنهم وإن كانوا خير أمةٍ أخرجت للناس ، إلا أنهم بشرُ فيهم الضعف والنقص ، ولذلك حصل منهم ما حصل في أُحد ؛ لأنهم في دور التربية والتكوين ، وفي أوائل الطريق ، ولكنهم جادون في أخذ هذا الأمر ، مسلمون أمرهم لله مولاهم :﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [ لقمان : ٢٢ ] .

ومن ثم رحمهم الله ، وعفا عنهم ، ولم يطردهم ، وأمر نبيه ﷺ أن يعفو عنهم ويستغفر لهم ، ويشاورهم في الأمر ؛ تربيةً لهم : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٥٩] .

فعاد إليهم الإيمان في اليوم الثاني ، وخرجوا مع رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد ، متعقبين كفار مكة فزادهم إيمانًا، كما قال سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٧٢-١٧٤] .

ولما كبروا ، واكتملت تربيتهم ، تغيرت معاملتهم ، وحوسبوا كما يحاسب الرجال الكبار ، كما في مؤاخذة الله ورسوله ﷺ للنفر الثلاثة المتخلفين عن غزوة تبوك ، فالقوم في أُحد ، غير القوم في تبوك ، حيث بلغت فيهم التربية شأوًا بعيدًا .

وهم مع ذلك فيهم الضعف والنقص ، والخطأ والنسيان ، ولكن كان فيهم دائمًا الاستغفار والتوبة والرجوع إلى الله : ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [ التوبة : ١١٨ ].

والله ﷻ في مواطن التربية والابتلاء لا يعد المؤمنين بالنصر في الدنيا ، ولا يعدهم بقهر الأعداء ، ولا يعدهم بالتمكين في الأرض ، ولا يعدهم بشيءٍ من الأشياء في هذه الحياة ، إنما يعدهم شيئًا واحدًا هو الجنة، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة:١١١ ] .

وهذا هو الأصل في الدعوة ، التجرد المطلق من كل هدف، ومن كل غاية، ومن كل مطمع، فهذه العقيدة عطاءٌ ، ووفاءٌ ، وأداءٌ فقط، وبلا مقابل من أعراض هذه الأرض.

ثم يقع النصر والتمكين ، والعزة والغنائم ، ولكن كل هذا ليس داخلًا في البيعة ، ليس في الصفقة مقابل في هذه الدنيا، ليس فيها إلا الأداء والوفاء ، والعطاء والابتلاء .

على هذا كانت البيعة ، والدعوة مطاردةً في مكة ، وعلى هذا كان البيع والشراء ، وعلى هذا يسير الدعاة إلى الله إلى يوم القيامة .

فإذا كانت قلوب المؤمنين متوجهةٌ إلى الله ، وأجسادهم مزينةٌ بسنن رسول الله ﷺ وفعلوا ما أمروا به من الأسباب جاءتهم نصرة الله الغيبية : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي

ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [ الحج :٤٠- ٤١ ] .

فالصحابة رضي الله عنهم في بدر نصرهم الله مع أنهم قلةً أذلة ، لا أسباب معهم تذكر ؛ لأن قلوبهم متوجهةٌ إلى الله بكمال الإيمان والتقوى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾[آل عمران:١٢٣] .

وفي حنين مع كثرتهم هزمهم الله ، وسلط عليهم الأعداء ؛ لأن قلوب بعضهم متوجهةٌ إلى الأسباب ، حين أُعجبوا بكثرتهم .

ففي بدر اتباعٌ كامل للدين ، فجاء النصر كاملًا ، وفي حنين إتباع ناقص ، وبسببه ارتفعت النصرة ، ثم جاء الإتباع ، ثم جاء النصر كاملًا ، كما قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾[التوبة:٢٥- ٢٦] .

والنصر له أسباب ، والهزيمة لها أسباب ، والعزة لها أسباب ، والذلة لها أسباب والنجاة لها أسباب ، والهلاك له أسباب ، والجنة لها أسباب ، والنار لها أسباب .

فالنصر الكامل ، والعزة الكاملة ، والنجاة الكاملة ، تكون بالإيمان الكامل ، والإتباع الكامل ، والتضحية الكاملة، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج:٤٠-٤١] .

ومدار ذلك كله على الصبر واليقين، كما قال سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة:٢٤] .

والصبر منصورٌ أبدًا ، فإن كان صاحبه محقًا ، كان منصورًا له العاقبة ، وإن كان مبطلًا لم يكن له عاقبة .

وإذا قام العبد في الحق لله ، ولكن قام بنفسه وقوته ، ولم يقم بالله ، مستعينًا به ، متوكلًا عليه ، مفوضًا أمره إليه ، بريئًا من الحول والقوة إلا به ، فله من الخذلان ، وضعف النصرة بحسب ما قام به من ذلك .

فتجريد التوحيد ، وصدق اليقين ، وكمال الصبر ، إذا مَنَّ الله بها على عبده ، فلا يقوم له شيء البتة ، وهو مؤيد منصور ولو توالت عليه زمر الأعداء ؛ لأن الله معه ، وقد تكفل بنصره ، والتمكين له .

ومن قام لله ، حتى أوذي في الله ، فعليه الصبر ، ولا ينبغي له الانتقام كما قال لقمان لابنه : ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان:١٧] .

اللهم انصر دينك ، وكتابك ، وسنة نبيك ، وعبادك المؤمنين: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٧] .

# موسوعة خزائن العلوم الإسلامية

## ٦١-خزائن الخوف والرجاء

وتشتمل على ما يلي:

١- الخزانة الأولى

٢- الخزانة الثانية

٣- الخزانة الثالثة

٤- الخزانة الرابعة

٥- الخزانة الخامسة

٦- الخزانة السادسة

٧- الخزانة السابعة

٨- الخزانة الثامنة

٩- الخزانة التاسعة

١٠- الخزانة العاشرة

# ٦١-خزائن الخوف والرجاء

## ١ - الخزانة الأولى

- **فقه الخوف :**

**الخوف** : هو تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في المستقبل ، واضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف منه .

وأعظم ما يجب أن يخاف منه هو الله ﷻ : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [آل عمران:١٧٥] .

وعلى قدر العلم بالله يكون الخوف ، وتكون الخشية : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر:٦٧].

وقال الله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر:٩].

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر: ٢٨] .

وما فارق الخوف قلبًا إلا خرب ، واشتغل بالشهوات والمعاصي ، عن الأوامر والطاعات : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾ [مريم: ٥٩ ]

وإذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها ، وطرد الدنيا عنها ، وأزعج النفوس للآخرة : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال:٢- ٤ ].

والناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف ، فإذا زال عنهم الخوف ضلوا الطريق، وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله ﷻ، فإنك إذا خفته فررت إليه، والتجأت إليه ، فلا ملجأ منه إلا إليه : ﴿ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾[الذاريات:٥٠- ٥١] .

وخوف الله ﷻ ورجاؤه ومحبته متوقف على معرفته سبحانه : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾[محمد:١٩] .

فمن عرف الله ﷻ بأسمائه الحسنى ، وصفاته العلا ، وأفعاله الحميدة ، وعرف عظمة ملكه وسلطانه ، وعرف عظمة نعمه وإحسانه ، وعرف عظمة دينه وشرعه ، وعرف عظمة وعده ووعيده ، وعرف عظمة ثوابه وعقابه ، عظم الله وكبره ، وحمده وشكره وخاف منه ورجاه ، وتوكل عليه ، واستعان به ، وأحبه وعبده ، وسأله ودعاه : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾[الحجر:٤٩-٥٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾ ﴾[الطلاق:١٢].

وقال الله تعالى : ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾[نوح:١٣ -٢٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال:٢- ٤ ].

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[النحل:٥٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[إبراهيم:٣٤]

وقال الله تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾[الجاثية:٣٦-٣٧] .

وقال الله تعالى عن الأنبياء والرسل : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[الأنبياء:٩٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[التغابن:١٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾[الطلاق:٢-٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر:٦٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِي وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة:١٨٦] .

- **أقسام الخوف :**

**الخوف ينقسم إلى قسمين :**

**الأول** : خوف العقاب ، وهذا مقام المبتدئين ، فإن كل إنسان إذا عصى من يعلم أنه أعظم منه ، وأكبر منه ، وأقدر عليه ، فإنه يخاف من عقابه كما قال سبحانه : ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ [ الإنسان : ٧ ] .

**الثاني** : خوف الجلال ؛ وهذا مقام العارفين ، وكل من كان أعرف بجلال الله وعظمته ، كان هذا الخوف في قلبه أكمل ، ولابد في مقام الذكر والدعاء من رؤية صفات الجلال ، ورؤية صفات الجمال ، لتعظم مهابة الرب في القلب ويزداد حب العبد لمولاه : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنبياء:٩٠] .

**وما يخافه العبد يقع على وجوه :**

**أحدها** : خوف التقصير في الأعمال الصالحة : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [المؤمنون :٦٠ – ٦١ ] .

**الثاني** : خوف السابقة ، فلا يعلم أحد بما سبق بشأنه في علم الله ، فالله علم أهل الجنة ، وأهل النار : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [ الأنفال : ٧٥ ] .

**الثالث** : خوف الخاتمة فلا يدري إنسان بما يختم له ؟ بخير و شر .

**الرابع** : خوف أني كيف أقابل نعم الله التي لا حصر لها بطاعتي الناقصة؟!

قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [ المؤمنون :٦٠- ٦١ ] .

وإخفاء العمل مطلوب شرعًا ؛ صونًا للطاعات عن شوائب الرياء والسمعة : ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأعراف:٥٥ ] .

والخوف من أعظم مقامات العبودية بين يدي الرب ، وثوابه من الله عظيم ، فمن خاف الله أطاعه ، وامتثل أمره ، واجتنب نهيه : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن:٤٦] .

ومن كان بالله أعرف كان منه أخوف ، وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله ﷻ ، فإنك إذا خفته فررت إليه : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [الذاريات:٥٠-٥١] .

والخوف المحمود ما حال بين العبد وبين محارم الله ﷻ

**والخوف المحمود على ثلاث درجات** :

**الدرجة الأولى** : الخوف من العقوبة ، وله متعلقان .

**أحدهما** : نفس المكروه المحذور وقوعه .

**الثاني** : السبب والطريق المفضي إليه .

فإذا عرف الإنسان قدر الخوف ، وتيقن إفضاء السبب إليه ، حصل له الخوف : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن:٤٦] .

**الثانية** : خوف المكر ، فمن حصلت له اليقظة بلا غفلة ، واستغرقت أنفاسه فيها ، استحلى ذلك .

فإنه ينبغي لكل عبد أن يخاف المكر ، ويخالف أن يُسلب هذا اليقين والحضور ، واليقظة والحلاوة ، فكم من مغبوط بحاله ، انعكس عليه الحال ، ورجع من أحسن الأعمال إلى أقبح الأعمال ، واستبدل بالأنس وحشة ، وبالحضور غيبة ، وبالقرب بعدًا : ﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾[الأعراف:٩٩] .

**الثالثة** : هيبة الجلال لذي الجلال سبحانه ، فإن وحشة الخوف تكون مع الانقطاع والإساءة ؟ .

أما هيبة الجلال ، فإنها متعلقة بذات الله ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، وكلما كان العبد بربه أعرف ، وإليه أقرب ، كانت هيبته وإجلاله في قلبه أعظم ، وهي أعلى درجات الخوف : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن:٤٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النازعات:٣٤ - ٤١] .

وأكثر ما تكون الهيبة أوقات المناجاة ، وهو وقت تعلق العبد بربه ، وتملقه بين يديه ، وتضرعه بين يديه ، وهي مخاطبة القلب للرب خطاب المحب لمحبوبه مع هيبة جلاله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[الأنبياء:٩٠] .

وأكمل الأحوال اعتدال الخوف والرجاء في القلب مع غلبة الحب لله .

**فالخوف أحد أركان الإيمان والإحسان الثلاثة ، والتي عليها مدار مقامات السالكين إلى الله وهي :**

الخوف .. والرجاء .. والمحبة .

والخوف من لوازم الإيمان وموجباته ، فلا يتخلف عنه .

وقد أثنى الله ﷻ على أقرب عباده إليه بالخوف منه فقال عن أنبيائه ورسله بعد أن أثنى عليهم ومدحهم : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[الأنبياء:٩٠] .

وقال الله ﷻ : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[السجدة:١٥-١٧ ] .

وجميع المخلوقات تتعبد لله بصفة الخوف كما قال سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[ النحل :٤٩- ٥٠ ] .

وكلما كان العبد بالله أعرف كان له أخوف ، ونقصان الخوف من الله إنما هو لنقصان معرفة العبد بربه : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾[محمد:١٩] .

فأعرف الناس بالله أخشاهم لله كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾[فاطر: ٢٨] .

ومن عرف الله جل جلاله اشتد حياؤه منه ، وخوفه له ، وحبه له ، وإجلاله له : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [ الأنفال :٢- ٤ ] .

فخوف الله جلَّ جلاله من أجلِّ منازل الطريق إلى الله فإن العبد له حالتان :

إما أن يكون مستقيمًا ، أو مائلًا عن الاستقامة .

فإن كان مائلًا عن الاستقامة ، فخوفه من العقوبة على ميله ، ولا يصح الإيمان إلا بهذا الخوف .

**وهذا الخوف ينشأ من ثلاثة أمور :**

**أحدها** : معرفة العبد بالجناية وقبحها .

**الثاني** : تصديق الوعيد ، وأن الله رتب على المعصية عقوبتها : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء:١٢٣] .

وقال الله تعالى : ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾[النساء:١٤].

**الثالث** : أنه لا يعلم لعله يمنع من التوبة، ويحال بينه وبينها إذا ارتكب الذنب .

فبهذه الأمور الثلاثة يتم له الخوف ، وبحسب قوتها وضعفها ، تكون قوة الخوف من الله وضعفه ، فإن الحامل على الذنب :

إما أن يكون عدم علم العبد بقبحه ، وإما عدم علمه بسوء عاقبته ، وإما أن يجتمع له الأمران ، لكن يحمله عليه اتكاله على التوبة ، وهو الغالب على ذنوب أهل الإيمان : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾[الحجر:٤٩-٥٠] .

فإذا علم العبد قبح الذنب ، وعلم سوء مغبته ، وخاف أن لا يفتح له باب التوبة ، اشتد خوفه فابتعد عنه .

وهذا قبل الذنب ، فإذا عمله كان خوفه أشد ، وكل ذنب مؤلم كما أن كل جرح مؤلم .

وأما إن كان المسلم مستقيمًا مع الله ، فخوفه يكون مع جريان الأنفاس ، لعلمه بأن الله مقلب القلوب ، وأن قلوب العباد بين إصبعين من أصابعه ، فإن شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء أن يزيغه أزاغه كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[الأنفال:٢٤] .

# ٢- الخزانة الثانية

- **فقه الخوف :**

خوف العبد المسيء الهارب من الله ، خوف مقرون بوحشة ونفرة ، فهو مشفق من عمله ، لعلمه بأنه صائر إلى العقوبة كما قال سبحانه : ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمْ ﴾[الشورى:٢٢ ] .

وأما خوف المسيء الهارب إلى الله ، الفار إليه ، فهو خوف محشو بالحلاوة والسكينة والأنس ، لا وحشة معه ، وإنما يجد العبد الوحشة من نفسه ، فله نظران :

نظر إلى نفسه وجنايته ، فيوجب له وحشة من ربه .

ونظر إلى ربه ، وقدرته عليه ، وعزه وجلاله ، فيوجب له خوفًا مقرونًا بأنس وحلاوة وطمأنينة : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ الرعد: ٢٨ – ٢٩ ] .

ولهذا يزول الخوف وسائر الآلام والأحزان عن المؤمنين في الجنة، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾[فصلت:٣٠-٣٢ ] .

والخوف متعلق بالذنب ، ولا يخرج عن كون سببه جناية العبد ، فهي سبب المخافة : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [آل عمران:١٧٥] .

فإن قيل : ما وجه خوف الملائكة وهم معصومون من الذنوب التي هي سبب المخافة ؟ كما قال الله عنهم وعن غيرهم : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النحل:٥٠] .

وشدة خوف النبي ﷺ مع علمه بأن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

قيل : إن هذا الخوف على حسب القرب من الله ، والمنزلة عنده ، وكلما كان العبد أقرب إلى الله كان خوفه منه أشد ؛ لأنه يطالب بما لا يطالب به غيره ، ويجب عليه ما لا يجب على غيره لكمال معرفته بربه الذي يجب حمده على نعمه التي لا تعد ولا تحصى ، وحسن عبادته ، لما له من صفات الجلال والجمال : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النحل:٤٩-٥٠] .

وقال النبي ﷺ : « أَمَا والله إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لله وَأَتْقَاكُمْ لَهُ ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي » . متفق عليه[1].

وأيضًا فإن العبد إذا علم أن الله سبحانه وتعالى هو مقلب القلوب ، وأنه يحول بين المرء وقلبه ، وأنه يفعل ما يشاء في ملكه ، ويحكم ما يريد ، وأنه يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، فما يؤمنه أن يقلب الله قلبه ، ويحول بينه وبينه ، ولولا خوف الإزاغة لما سأل المؤمنون ربهم بقولهم : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ [آل عمران:٨] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٥٠٦٣)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٥/ ١٤٠١).

وكذلك الله ﷻ خالق العباد وأفعالهم الظاهرة والباطنة ، فهو الذي يجعل الإيمان والهدى في القلوب ، ويجعل فيها التوبة والإنابة ، وأضدادها ، وكل عبد مفتقر في كل لحظة إلى هداية يجعلها الله في قلبه ، وحركات يحركه بها في طاعته ، وهذا إلى الله سبحانه ، فهو خلقه وقدره : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[ النحل : ٥٣ ] .

فمن هداه وصلاحه ونجاته بيد غيره ، من أحق بالخوف منه ؟ ومن هنا كان خوف أولياء الله من فوات الإيمان : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[ المؤمنون : ٦٠- ٦١ ] .

والعلماء هم الذين يخشون الله ويخافونه كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾[فاطر: ٢٨] .

**والعلم بالذات لا يكفي في الخوف ، بل لا بدَّ من العلم بأمور ثلاثة :**

**الأول** : العلم بقدرة الله ، فإن الملك مثلًا عالم باطلاع رعيته على سوء أفعاله ، لكنه لا يخافهم ، لعلمه بأنهم لا يقدرون على دفعها .

**الثاني** : العلم بكونه عالمًا بكل شيء ، فالسارق من مال السلطان يعلم قدرته ، ولكنه يعلم أنه غير عالم بسرقته فلا يخافه .

**الثالث** : العلم بكونه حكيمًا ، فالعامل عند السلطان عالم بكونه قادرًا على منعه ، وعالم بفعله للقبائح ، لكنه يعلم أنه قد رضي بما لا ينبغي ، فلا يحصل الخوف .

فثبت أن خوف العبد من الله لا يحصل إلا إذا علم بكونه تعالى عالمًا بجميع المعلومات ، قادرًا على جميع الكائنات ، غير راضٍ بالفواحش والمنكرات : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾[ محمد : ١٩ ] .

ولا حرج على العبد أن يخاف من المؤذيات طبعًا كالسباع والحيات ونحو ذلك ، فيتحرز منها بالأسباب الواقية : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾ ﴾[الطلاق:١٢ ] .

كما أنه لا حرج على المسلمين في الخوف من عدوهم ، حتى يعدوا له العدة المادية مع الاعتماد على الله ، فنأخذ بالأسباب ، ولا نعتمد إلا على الله وحده : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [التغابن:١٣] .

والخوف الذي نهى الله عنه بقوله : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [آل عمران:١٧٥] .

هو الخوف من المخلوق على وجه يحمل صاحبه على ترك الواجب ، أو فعل المحرم ، خوفًا منه ، وهكذا الخوف من غير الله على وجه العبادة لغره ، واعتقاد أنه يعلم الغيب ، أو يتصرف في الكون ، أو ينفع أو يضر بغير مشيئة الله ، كما يفعل المشركون مع آلهتهم : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾[آل عمران:١٧٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ ﴾[فاطر :١٣] .

**والخوف ينقسم إلى قسمين :**

**الأول** : خوف العقاب ، وهذا مقام المبتدئين ، فينزجر العبد عن الظلم ، لما يعلم بسوء عاقبته كما قال سبحانه : ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾[الفرقان:١٩] .

وهكذا سائر المعاصي .

**الثاني** : خوف الجلال ؛ وهذا مقام العارفين ، والأول مقام المبتدئين ، وكل من كان أعرف بجلال الله وعظمته كان هذا الخوف في قلبه أكمل ، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله ، وعرف عظمة ملكه وسلطانه ، وعرف عظمة خزائنه وإنعامه وإحسانه ، وعرف عظمة وعده ووعيده ، خافه وأقبل على طاعته ، وابتعد عن معصيته : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١ ﴾[يونس:١٠١ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ ﴾ [آل عمران:١٩٠ -١٩١ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ٦ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٨ ﴾ [ق:٦ -٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤ ﴾[الأعراف:٥٤ ] .

ولابد للعبد في مقام الذكر والدعاء ، من رؤية صفات الجلال ، ورؤية صفات الجمال ، لتعظم مهابة الرب في القلب ، ويزداد حبه لمولاه : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ

مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحشر:٢٢-٢٤] .

وقال سبحانه عن أنبيائه ورسله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنبياء:٩٠] .

**وخوف العبد المؤمن من ربه يقع على وجوه :**

**أحدها** : خوف التقصير في الأعمال ، فكل إنسان لديه طاقة ، ولكن عمله ناقص لم يبذل فيه ما ينبغي من الطاقة ، والله يقول : ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ ﴾ [الحج:٧٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [البقرة:٦٣] .

ولهذا أمرنا الله ﷻ بالاستغفار بعد العبادات الكبار كالصوم ، والصلاة ، والحج ، لحصول التقصير من العبد تجاه ربه .

**الثاني** : خوف السابقة ، فالله يعلم ما كان وما يكون وما سيكون ، ولا يدري العبد بما في غيب الله وقدره ، فيخاف من ربه لهذا الشأن .

**الثالث** : خوف الخاتمة فلا أحد يعلم بما سيختم له عمره إلا الله ﷻ ، فهو يخاف من الخاتمة أن تكون سيئة .

**الرابع** : خوف أني كيف أقابل نعم الله التي لا حصر لها بطاعتي الناقصة ؟ ! فيستحي العبد من ربه ، ويخاف منه ، لعظيم حقه على عبده : ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [ إبراهيم : ٣٤ ] .

**الخامس** : خوف المقام ؛ فإن العبد إذا عرف ربه بأسمائه الحسنى ، وصفاته العلى ، وأفعاله الحميدة ، خافه واستغفره لما يرى من شدة تقصيره : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن:٤٦] .

# ٣- الخزانة الثالثة

- **فقه عبادة الخوف من الله ﷻ :**

**الله ﷻ خلق في كل إنسان ثلاث أواني :**

آنية الطعام والشراب ؛ وهى المعدة ، ويشترك فيها مع البهائم .

وآنية المعلومات ؛ وهي الدماغ ، ويشترك فيها مع الكفار .

وآنية الإيمان والتوحيد ؛ وهي القلوب ، ويشترك فيها مع الملائكة .

ومن لم يعرف الله حقًا لم يعبده حقًا ، ومن لم يعرف الله كما أمره ، لم يعبده كما أمره : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ [محمد:١٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾ [المائدة:٩٨] .

والله سبحانه عظيم في ذاته ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، وعظمته جل جلاله لا بداية لها ولا نهاية ولا أول لها ولا آخر : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٥ ] .

والله سبحانه عظيم ، وكتابه عظيم ، وثوابه عظيم ، وعقابه عظيم ، وملكه عظيم ، وخلقه عظيم ، وأمره عظيم : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٢-١٠٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحشر:٢٢-٢٤] .

هو سبحانه العظيم المحمود بكل لسان ، الذي يسبح بحمده المكان والزمان ، وما فيهما من المخلوقات والذرات : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٤] .

هو سبحانه العظيم الذي له الأسماء الحسنى ، والصفات العلى ، والأفعال الحميدة ، والمثل الأعلى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [طه: ٨].

وهو سبحانه المحيط بكل محيط ، القاهر لكل قاهر ، العليم بكل شيء ، القادر على كل شيء ، الذي وسعت رحمته كل شيء : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾ [غافر:٧] .

وسع ملكه كل شيء ، وأحاطت قدرته بكل شيء : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ [الملك:١] .

وهو سبحانه الواحد الأحد، القادر على كل أحد، الغني عن كل أحد ، الذي يحتاج إليه كل أحد: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص :١-٤] .

فلا إله إلا الله ، ما أعظم قدرته ، وما أوسع علمه : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾ ﴾[الطلاق:١٢] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾[الأنعام:١٨ ] .

هو سبحانه الملك الحق ، الذي يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾[ آل عمران : ٢٦-٢٧] .

هو سبحانه العظيم الذي كل شيء خلقُه ، وكل شيء مُلكه ، وكل شيء عبده : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾[ الزمر : ٦٢ – ٦٣ ] .

هو سبحانه الخالق الذي كل شيء خاضع لأمره ، وشاهد بوحدانيته ، ومسبح بحمده ، ومستجيب لمشيئته ، ومسرعُ إلى إرادته ، ومتصاغر لكبريائه : ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾[هود:٥٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾[الجمعة: ١]

وقال الله تعالى : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾[مريم:٩٣-٩٥] .

هو سبحانه العظيم الذي في قبضته الملك والملكوت ، وفي قبضته الخلق والتدبير والتصريف ، وفي قبضته العطاء والمنع ، وفي قبضته الحياة

والموت : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٧ ﴾ [الزمر:٦٧].

وقال الله تعالى : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ٢ ﴾ [الملك:١-٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٦٨ ﴾ [غافر:٦٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٩ ﴾ [الحديد: ٩] .

هو سبحانه عليم بكل شيء ، بصير بكل شيء ، لا يغيب عنه شيء ، قد أحصى كل شيء : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦١ ﴾ [ يونس : ٦١ ] .

ومن هذه أسماؤه وصفاته وأفعاله ، فهو الذي يستحق العبادة وحده دون سواه : ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣١ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٣٢ ﴾ [يونس:٣١-٣٢].

فإذا امتلأ القلب بمعرفة الله بأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، أحب ربه ، وخاف منه ، ورجاه ، واستعان به ، واستغفروه ، وتوكل عليه : ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩ ﴾ [محمد:١٩] .

- **أقسام الخوف :**

**الخوف ينقسم إلى قسمين :**

**القسم الأول** : خوف عبادة وتعظيم ، وهذا لا يكون إلا لله ، لما له من الأسماء الحسنى ، والصفات العلى ، والأفعال الكبرى ، والمثل الأعلى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾[طه:٨] .

فمن عرف الله حقا عبده حقا ، ومن عرف الله ﷻ بأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، وإنعامه ، وإحسانه ، كبره ، وعظمه ، وحمده ، وشكره ، وأحبه ، وعبده ، وخافه ، ورجاه ، ثم اتقاه .

**وتقوى الله ﷻ على ثلاث درجات :**

**الأولى** : أن يفعل العبد الواجبات من فرائض وحقوق ، وفي هذه حياة القلب وفلاحه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾[الحج:٧٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال:٢- ٤ ] .

**الثانية** : ترك المحرمات والمكروهات ، وفي هذه دواء القلب : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾

[الزمر:١٧-١٨].

وقال الله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر:٩].

**الثالثة** : ترك الفضول من الطعام ، والشراب ، والنوم ، والكلام ، والنظر ، وفي هذا أُنس القلب وسروره بمولاه : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ الرعد: ٢٨ – ٢٩ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس:٥٨] .

وحياة القلب بالإيمان والتقوى كما قال سبحانه : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٢٢] .

**القسم الثاني** : خوف فطري ، كالخوف من الأسد ، والخوف من النار ، والخوف من حامل السلاح ، وهذا لا يضر التوحيد ، والإخلاص ، لأنه خوف فطري جبلي والفرق بين الخوفين :

**أن الخوف الأول** : خوف مع الحب .

**والثاني** : خوف مع الكراهية .

**فالأول** : يخاف من ربه ويحبه ، فيطيعه ويعبده .

**والثاني** : يخاف من الأسد ويكرهه .

فمن نظر لغير الله كقبر ولي معتقدًا أنه لم يوفي بنذره ، ويذبح له ذبيحته ، فسيضره الولي ، فهذا قد صرف الخوف لغير الله ، وأشرك بالله : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [آل عمران:١٧٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف:١١٠] .

ومن عرف الله ﷻ بأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، أمن به ، وأطاعه ، وأحبه ، وخافه ، ورجاه ، واستعان به ، وتوكل عليه ، وفوض الأمر إليه ، ثقة به ، وتسليمًا لقضائه ، ورضًا بحكمه ، مع مباشرة الأسباب المشروعة التي تُنال بها المطالب ، وتُدرأ بها المفاسد ، ومن توكل على الله كفاه : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ [الطلاق:٢-٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الفاتحة : ٢-٧] .

وقال الله تعالى في صفات الأنبياء والمرسلين : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [ الأنبياء : ٩٠ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الملك:١٢] .

# ٤ - الخزانة الرابعة

- **فقه الخوف :**

الخوف ذُعر يحصل بسبب توقع مكروه من هلاك أو ضرر ، وخوف الله ﷻ من أعظم عبوديات القلب .

- **أقسام الخوف :**

**الخوف ثلاثة أقسام :**

**الأول** : خوف الخالق سبحانه ، وهو خوف العبادة ، وهو خوف مقرون بتعظيم الله وإجلاله وتكبيره ، وهو الذي أمر الله المسلم به كما قال سبحانه : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾[آل عمران:١٧٥] .

فمن عرف الله بأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، وعرف دينه ، وشرعه ، ووعده ، ووعيده ، وثوابه ، وعقابه أحبه ، وخافه ، ورجاه : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾[محمد:١٩] .

**الثاني** : خوف طبيعي ، كخوف الإنسان من السبع ، أو النار ، أو العدو ، ونحو ذلك مما قام سببه ، وهذا الخوف جائز بل لازم ، لأنه جِبِلِي ، وهذا الخوف لا يلام عليه العبد ، ما لم يحمل على ترك واجب ، أو فعل محرم ، من غير إكراه ملجئ ، ومن خاف من هذه المكروهات والمخوفات ، فيجب أن يكون خوفه من ربه العظيم أعظم ، وأكبر ، وأدوم : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾[ آل عمران : ١٧٥ ] .

فهذا الخوف إن حمل على شيء من ذلك من غير إكراه كان من الشرك الأصغر.

**الثالث** : خوف السر ، كأن يخاف من ميت ، أو غائب حي لا سبب له ، أو حي حاضر ، في أمر لا يقدر عليه إلا الله تعالى ، فهذا شرك أكبر ، مخرجُ من الملة ، لأنه شرك في الربوبية ، وشرك في الإلهية ، والعبادة ، لأنه سوى غير الله بالله فيما هو من خصائص الله جل جلاله : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الزمر:٦٥-٦٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٢] .

وأسباب الخوف من الله ﷻ كثيرة : فقد يكون الخوف بسبب جناية قارفها الخائف من قتل ، أو زنا ، أو شرب خمر ، ونحوها من المعاصي .

وقد يكون عن صفة في المخوف كمن وقع في مخالب سبع ، فالله ﷻ إذا أخذ فأخذه أليم شديد : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾ [المائدة:٩٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الفرقان:١٩] .

وقد يكون الخوف من صفة جِبلية للمخوف منه ، كخوف من وقع في مجرى سيل ، أو جوار حريق ، فالماء من طبيعته الأغراق ، والنار من طبيعتها الإحراق ، والله ﷻ جبل القلوب على الخوف منه ، والحب له : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم:٣٠] .

وكذلك الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ، ومعرفة أسمائه وصفاته ، ومعرفة أفعاله ، وأنه لو أهلك العالمين لم يبالي ، ولم يمنعه مانع ، فالملك ملكه ، والخلق خلقه ، والأمر كله بيده : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف:٥٤ ] .

وتارة يكون الخوف من الله لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي : ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [ آل عمران : ١٣٤ - ١٣٦ ] .

فإذا كملت معرفة العبد بربه ، أورثت جلال الخوف ، واحتراق القلب ، ثم يفيض أثر الحرقة من القلب على البدن ، وعلى الجوارح ، وعلى الصفات .

واقل درجات الخوف ما يكون أثره على الأعمال ، بأن يمنع عن المحظورات ، والمحرمات ، والشبهات .

ولا سعادة للعبد إلا في لقاء مولاه ، والقرب منه ولا وصول إلى ذلك في الآخرة إلا بمحبته والأنس به في الدنيا ، ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة ، ولا تتم المعرفة إلا بالعمل ، ودوام الفكر ، وانقطاع حب الدنيا من القلب ، ولا ينقطع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها ، ولا يمكن ترك ذلك إلا بقمع الشهوات ، ولا تنقمع الشهوة بشيء كما تنقمع بنار الخوف من الله ، ومن عقابه الذي يحُرق كل شهوة .

فالخوف والنار محرق للشهوات ، وفضيلته بقدر ما يحرق من الشبهات ، وبقدر ما يكف عن المعاصي ، ويحث على الطاعات ، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف ، وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة ، وبه تحصل العفة ، والورع ، والتقوى ، والمجاهدة ، وهي الأعمال الفاضلة المحمودة التي تقرب إلى الله .

وليس الخوف بكثرة الذنوب ، بل بصفاء القلوب ، وكمال المعرفة بالله ، فما أخطر الجهل ، وما أعظم الغفلة ، فلا قرب الرحيل ينبهنا ، ولا كثرة الذنوب تزعجنا ، ولا رؤية الخائفين تخوفنا ، ولا سوء الخاتمة يزعجنا ، ولا عظمة الجبار وقوة بطشه تزجرنا : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾[ الرحمن : ٤٦ ].

ونحن نخاف من يوم القيامة ، لأننا لا ندري هل يعاملنا الله بعدله ، أم يعاملنا بفضله ، فنسأل الله أن يعاملنا بفضله لا بعدله .

ولا ندري هل تكون أعمالنا مقبولة أو مردودة ، ولا ندري بما تواجهنا ملائكة الله ﷻ ، فأهل الإيمان : ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ ﴾[الإنسان : ٧].

**و الخوف من الله تعالى على مقامين :**

**أحدهما** : الخوف من عذابه سبحانه ، وهذا خوف عامة الخلق ، وهو حاصل بالإيمان بالجنة والنار ، ومعرفة الوعد والوعيد ، ومعرفة الثواب والعقاب ، ويضعف هذا الخوف بسبب ضعف الإيمان ، أو قوة الغفلة : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف:٢٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) ﴾ [ النور :٣٦- ٣٨ ] .

**الثاني** : الخوف من الله تعالى ، وهو خوف العلماء ، فإن معرفة عظمة الله ، وجلاله ، ومعرفة أسمائه الحسنى ، وصفاته العلى ، وأفعاله الحميدة ، تقتضي الهيبة والخوف ، فهم يخافون البعد والحجاب ، ويخافون من العذاب : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) ﴾ [فاطر: ٢٨] .

وقال الله تعالى عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠) ﴾ [الأنبياء:٩٠] .

ولولا أن الله لطف بعارفيه ، وروح قلوبهم بالرجاء ، لاحترقت من نار الخوف . وأقرب الخلق إلى الله ، وأعلمهم به ، أشدهم له خشية ، كالملائكة ، والأنبياء ، والعلماء ، والأولياء ، والعبَّاد ، ونحن أجدر بالخوف منهم ، لكثرة معاصينا ، وجهلنا بربنا ، وإنما آمنا لغلبة الجهل علينا ، وشدة غفلتنا : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٨) ﴾ [المائدة:٩٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠) ﴾ [الحجر:٤٩-٥٠] .

والصفات السيئة كالكبر والعُجب والحسد ، سباع وهوام مشحونة في باطن الإنسان ، فمن قهرها وقتلها قبل الموت نجا ، وإلا فليوطن نفسه على لدغها لصميم قلبه ، وظاهر بشرته يوم القيامة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ

نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾[النساء:٥٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾[غافر:٦٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾[الأعراف:٤٠-٤١] .

والله ﷻ هو الذي بيده الملك كله ، وبيده الحول كله ، وبيده الخلق كله ، وبيده الأمر كله ، وبيده القوة كلها ، فالخوف والقوة التي يُرجى لأجلهما المخلوق ويخاف ، إنما هما لله ، وبيد الله وحده ، فكيف يخاف ويُرجى من لا حول له ولا قوة : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾[الحج : ٤٦].

فالخوف من المخلوق هو أحد أسباب الحرمان ، ونزول المكروه بمن يرجوه ويخافه ، فعلى قدر خوف العبد من غير الله ، يسلط عليه ، وعلى قدر رجائه لغيره ، يكون الحرمان ، وما شاء الله كان ، وما لم يشأ لا يكون ، ولو اجتمعت لتكوينه الخليقة ، ومن خاف الله أمن من كل شيء : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[الأنعام:٨٢].

ومن خاف غير الله أخافه الله من كل شيء ، وما خاف أحد غير الله إلا لنقص خوفه من الله ، وجهله بالله جل جلاله : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾[محمد:١٩] .

ووجل القلب يحصل للعبد بمعرفة عظمة الله ، وجلاله ، وكبريائه ، ثم معرفة عظمة أسماء الله ، وصفاته ، وأفعاله ، ثم معرفة عظمة كلام الله ، ثم معرفة عظمة أوامر الله ، ثم معرفة عظمة ثوابه وعقابه ، فإذا عرف العبد ذلك

سارع إلى طاعة ربه ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾[فاطر: ٢٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال:٢- ٤ ].

فسبحان ربنا من إله ما أعظمه ، وما أعظم أسماءه ، وصفاته ، وأفعاله ، وما أعظم كلامه ، وما أعظم دينه ، وشرعه : ﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ﴾[يونس:٦٨ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾[غافر:٦٥ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾[هود:١٢٣ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾[مريم:٦٥] .

- **أقسام الخوف :**

**خوف الناس ينقسم إلى قسمين :**

**أحدهما** : خوف عبادة وتذلل وتعظيم .

وهذا لا يصلح إلا لله سبحانه ، فمن خاف من الأصنام ، أو الأموات ، أو الأولياء ، أو مخلوق ، مثل هذا الخوف ، فهو مشرك شركاً أكبر : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾[آل عمران:١٧٥] .

**الثاني** : الخوف الطبيعي والجِبلي

فهذا إن حمل على ترك واجب ، أو فعل محرم ، فهو محرم ، وإن أدى إلى شيء مباح فهو مباح .

والخشية نوع من الخوف ، لكنها أخص منه ، والفرق بينهما أن الخشية تكون مع العلم بالمخشي منه وحاله كقوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر: ٢٨] .

والخوف قد يكون من الجاهل ، وأيضًا الخشية تكون بسبب عظمة المخشي ، بخلاف الخوف ، فقد يكون من ضعف الخائف ، لا من قوة المخوف .

وكلما قوى إيمان العبد زاد خوفه ، وزال من قلبه خوف أولياء الشيطان ، وكلما ضعف إيمانه قوى خوفه منهم ، والشيطان يكيد إبن أدم بذلك كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [آل عمران:١٧٥] .

والله ﷻ عليم بعباده ، هو الذي يقرب من شاء ، ويبعد من شاء ، بعلمه وحكمته ، فليحذر القريب من الإبعاد ، والمتصل من الانفصال .

هو سبحانه يعلم من يصلح للقرب منه ، ومن لا يصلح كما قال سبحانه : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٣٥] .

والله ﷻ غيور ، لا يرضى ممن عرفه ، ووجد حلاوة معرفته ، واتصل قلبه بمحبته ، والأنس به ، أن يكون له التفات إلى غيره البتة : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [الذاريات:٥٠-٥١] .

ومن غيرته سبحانه حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والله سبحانه يغار أشد الغيرة على عبده أن يلتفت إلى غيره ، فإذا أذاق عبده حلاوة محبته ، والأنس به ، ثم أنغشل بغيره باعده من قربه ، وقطعه من وصله ، وأوحش سره ، وألبسه رداء الذل والصغار والهوان ، وضرب هذا القلب بسوط البعد والحجاب ، وسلط عليه من يسومه سوء العذاب ، ومُليء من الهموم والغموم والأحزان ، وصار محلًا للجيف والأقذار ، وبُدل بالأنس وحشة ، وبالعز ذلة ، وبالقرب بعدًا وكان هذا بعض جزائه فحينئذ تطرقه الطوارق ، والمؤلمات ، وتحل به وفود الأحزان والهموم ، بعد وفود المسرات ، ومن رحمة الله ﷻ أن من أعرض عنه تنكدت حياته ، وضاقت عليه أموره ، ليعود إلى ربه : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾[الشعراء:٢١٣] .

ومن عرف ربه ، وذاق حلاوة قربه ومحبته ، ثم رجع عنه إلى مساكنة غيره ، ثبط جوارحه عن طاعته ، وعقل قلبه عن إرادته ومحبته ، وآخره عن محل قربه ، وولاه ما اختاره لنفسه .

وإذا أراد المرء أن يعرف ما حل به من بلاء الانفصال والبعد، وذل الحجاب، فلينظر من استعبد قلبه ، واستخدم جوارحه ، وشغل سره ، وينظر أين يبيت قلبه إذا خلا في مضجعه ، وأين يطير قلبه إذا استيقظ من منامه ، فذلك هو معبوده وإلهه ، فإذا سمع النداء يوم القيامة لينطلق كل واحد مع من كان يعبده ، انطلق معه كائنًا ما كان : ﴿ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾[الزمر:١٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾[الرحمن:٤٦] .

**من خاف المقام بين يدي ربه ، فله جنتان يوم القيامة ، ومن دونهما جنتان ، ولا يستحق ذلك إلا من اجتمعت فيه صفتان :**

**الأولى** : الإيمان بالله ﷻ .

**والثانية** : اجتناب محارم الله ، والقيام بما أوجبه الله ، خوفًا من عقاب الله ، فهذه أربعُ جنان : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الرحمن:٤٦-٧٨] .

وعن عبد الله بن قيس عن النبي ﷺ قال : « جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَمَا بَيْنَ القَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الكِبْرِياء عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ » .متفق عليه[1] .

ولكل مسلم جنتان ، فالمؤمن له جنة بعمله ، وجنة ورثها مكان الكافر ، الذي ورث مكانه في النار .

ولكل مؤمن جنتان ، في الدنيا له جنة المعرفة الموصلة إلى جنة الآخرة ، وفي الآخرة له الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ الرعد: ٢٨ – ٢٩ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗاۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٥ ] .

فالمؤمن يجب أن يخاف الله وحده لا شريك له ، ولا يجوز له أن يخاف أولياء الشيطان ، لأن الله أمره بالخوف منه ، ونهاه عن الخوف ممن سواه ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [آل عمران:١٧٥] .

فإن قال أولياء الشيطان قد يؤذونني ، قيل إنما يؤذونك بتسليط الله لهم عليك ، بسبب ذنوبك ، وخوفك منهم ، فإذا خفت الله ، وتبت من ذنوبك ، لم يسلطهم الله عليك ، وكفاك ربك شرهم كما قال سبحانه : ﴿ وَمَن يَتَّقِ

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٧٤٤٤)، ومسلم برقم: ( ٢٩٦/ ١٨٠)، واللفظ له.

ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣ ﴾[الطلاق:٢-٣] .

وقال سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝٣٣ ﴾[الأنفال:٣٣] .

فيجب على المؤمن أن يخاف من القوي القادر سبحانه ، ولا يخاف مما سواه ، ومن خاف ربه أمنه في الدنيا والأخرة : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ۝٨٢ ﴾[الأنعام:٨٢].

فيجب أن يخاف العبد من المؤمن عز وجل ، لأن المؤمن سبحانه هو الذي يملك الأمن في الدنيا والآخرة ، والذي يملك الأمن ، يجب أن يطلب منه الأمن وأن لا يخاف من سواه : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ۝١٠٢ ﴾[الأنعام:١٠٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥١ ﴾[الذاريات:٥٠-٥١] .

والمؤمن يخاف من الله إذا عصاه ، ولا يخاف من غير الله أبداً ، ومن دخل خوف الله في قلبه ، أخاف الله منه المخلوقات ، ومن دخل خوف المخلوق في قلبه أخافه الله من كل شيء ، وسلط عليه من يذله ، رحمة من ربه ، ليعود إلى ربه ، ويتوب إليه : ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝١١٠ ﴾[النساء:١١٠ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦ ﴾[طه:١٢٣-١٢٦] .

وللحصول على كمال الخوف من الله وحده ، لا بد من إخراج الخوف من غيره من القلوب ، فالتخلية تكون قبل التحلية : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [ البقرة : ٢٥٦ ] .

وكما حصل لأم موسى ﷺ حين خافت عليه من فرعون ، أوحى الله إليها أن تلقيه في البحر ، ثم يصل إلى فرعون ، ثم يريد قتله ، فلما بلغ منها الخوف أشده ، أراد الله أن يبين لها أن من تخاف منه بيده ، مملوك له ، ثم رده إليها ، وأعزه ، وأهلك فرعون بسببه : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ ﴾ [القصص: ٧-٨] .

والله حكيم عليم يربي أولياءه في قصور أعدائه ، ربى موسى ﷺ في قصر فرعون ، ودمر فرعون وجنوده بالماء ، فاغرقه ولعنه في الدنيا والأخرة كما قال سبحانه : ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [القصص: ٤٠-٤٢] .

ومحمد ﷺ خرج من مكة خائفًا من كفار مكة ، فارًا بدينه، وتوكل على ربه ، ثم رجع من المدينة إلى مكة يوزع الأمن كما قال ﷺ : « من دخل المسجد الحرام فهو آمن ، ومن دخل داره فهو آمن » . أخرجه أبو داود [1] .

---

(١) أخرجه أبو داود برقم: (٣٠٢٢).

فلما خاف رسول الله ﷺ من أجل الله ، وأوذي في سبيل الله ، نصره الله بالرعب مسيرة شهر كما قال : ﷺ « نُصِرتُ بالرُّعب مَسِيرةَ شهر ».متفق عليه[1].

وعصمه الله من أعدائه كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧ ﴾[المائدة:٦٧] .

وخرج ﷺ من مكة فقيرًا ، ورجع إلى مكة يوزع وديان الغنائم ، من الأموال والأنفس ، كما في غنائم حنين .

وكل هذه الفضائل والصفات إنما تحصل بسبب المجاهدة والتضحية من أجل إعلاء كلمة الله ، ومن ترك الدعوة إلى الله زالت منه تلك الصفات ، وفقد الحكمة والرحمة للخلق ، فمن حقق الإيمان والتقوى ، حقق الله له ما يريد من النصر ، والعزة ، والكرامة ، والأمن ، والهداية ، عطاءً عاجلًا هو سنة الله ، والأعداء الذين أذوه بيد الله ، فإما أن يدمروا ، أو يصغروا أو يهتدوا كما حصل في غزوة بدر : ﴿ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢٣ ﴾[آل عمران:١٢٣] .

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري برقم: (٣٣٥)، ومسلم برقم: (٣/ ٥٢١).

# ٥- الخزانة الخامسة

- **فقه الخوف من الله جل جلاله :**

الخوف من الله ﷻ من أعظم مقامات العبودية، والخوف يكون قبل العمل ، ويكون بعد العمل ، فالخوف قبل العمل خوف الاختلال ، لعدم كمال العبادة ، والخوف بعد العمل خوف الإخلال ، لأن هذه العبادة لا تليق بجناب الله ، ولهذا قدم الله الخوف منه في قوله سبحانه : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن:٤٦] .

وأخر الخوف من التقصير في قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [البينة: ٧ – ٨]

والخوف هو فقد الأمن ، وهو أعظم من الجوع ، وأخوف ما نخاف منه ذنوبنا ، لأن الذنوب سبب للويلات ، والمخاوف ، والعقوبات الدينية ، والعقوبات الدنيوية كما قال سبحانه : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النساء:١٢٣] .

وقال ﷻ عن الأمم المكذبة للرسل : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت:٤٠] .

**والخوف ضد الأمن ، ولا يحصل الأمن للأمة إلا بأمرين :**

**الأول** : الإيمان بالله .

**والثاني** : عدم الظلم، كما قال سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[الأنعام:٨٢].

ولا يزول الظلم إلا بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وتحقيق التوحيد : ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٠٤] .

ولا يحصل الإيمان إلا بالدعوة إلى الله ، فالدعوة إلى الله من أعظم أسباب الهداية : ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[يوسف:١٠٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٩] .

فالأمن كل الأمن لا يحصل بكثرة الجنود ، ولا بكثرة السلاح ، ولا بأنواع السلاح ، ولا بقوة الملاحظة والمراقبة ، وإنما يحصل الأمن التام الكامل بهذين الأمرين فقط : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[الأنعام:٨٢].

فالأمن كله بيد المؤمن سبحانه ، يمن به على من آمن به : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[الحجرات:١٧] .

فالأمن كله بيد الله وحده : ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ﴿٢﴾ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴿٤﴾ ﴾[قريش:١-٤].

فالرزق من الرزاق ، والعلم من العليم ، والأمن من المؤمن ، فلا يملك الأمن إلا المؤمن سبحانه : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[الحشر:٢٣] .

والمؤمن حقا لا يخاف من الناس والأعداء ، بل يخاف من رب الناس ، ويخاف على الناس من عذاب النار : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾[آل عمران:١٧٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾[هود:٥٦] .

وإذا خاف المؤمن من عدوه ، أصابه الوهن ، وسلط الله عدوه عليه ، حتى يعود إلى الخوف من الله وحده ، وذلك من رحمة الله به : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾[الحج:٦٥ ] .

وإذا خاف المؤمن من ربه ، وخاف على الكفار من النار ، مكنه الله من قلوب الكفار ، فدخلوا في الإسلام ، وكفانا الله شرهم ، وفتح الله علينا ما يكون سببًا في هدايتهم ، فإذا رأى الكفار جمال الإسلام في حياتنا ، ولم يرغبوا في الإسلام ، فتكون الحرب بينهم وبين الله سبحانه ، ونحن سبب : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾[الحج:٤٠-٤١] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[الروم:٤٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾[ غافر :٥١- ٥٢ ] .

والآن الحرب بيننا وبين الكفار قائمة ، ولن ننتصر عليهم ، لأنهم أقوى منا سلاحاً ، ولن ننتصر عليهم إلا إذا نقلنا الحرب بينهم وبين الله ، ولن يكون ذلك إلا إذا رأوا الحق فينا ، وعرضناه عليهم بلسان الحال والمقال ، ثم إذا عاندوا وتكبروا وحاربونا ، فعند ذلك ينصرنا الله عليهم ، لأن الحرب صارت بينه وبينهم ، فكفى الله المسلمين شرهم : ﴿ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾[آل عمران:١٢٣] .

والمسلمون اليوم أكثرهم صار سداً أمام إسلام الكفار ، لسوء أخلاق أكثر المسلمين ، ولو استقاموا على الدين ، لأعطوا سورة حسنة عن الإسلام أمام الكفار ، فرغبوا في الإسلام ، ولهذا الله ﷻ أمرنا بالدخول في السلم كافة كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ ﴾[البقرة:٢٠٨] .

فالله ؟؟؟؟؟ الإيمان الكامل : ﴿ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾[البقرة:٨٤-٨٥] .

فمن خاف الله خوف الله منه كل شيء ، ومن خاف غير الله خوفه الشيطان من كل شيء : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [آل عمران:١٧٥] .

# فقه الرجاء

**الرجاء**: هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب .

والرجاء ضد اليأس، لأن الرجاء يبعث على العمل، واليأس يمنع من العمل، والرجاء محمود ، لأنه باعث ، واليأس مذموم ، لأنه صارف عن العمل : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾[الكهف:١١٠] .

والخوف ليس ضد الرجاء ، بل الرجاء رفيق له ، بل هو باعث آخر بطريق الرغبة كما أن الخوف باعث بطريق الرهبة ، فالرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال ، والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال .

ومن آثار الرجاء التلذذ بدوام الإقبال على الله تعالى ، والتنعم بمناجاته والتلطف في التملق له ، والانكسار بين يديه : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾[الزمر:٩].

والدواء يحتاج إليه أحد رجلين :

إما رجل غلب عليه الخوف فأسرف في المواظبة على العبادة ، حتى أضر بنفسه وأهله .

وإما رجل غلب عليه اليأس ، فترك العبادة ، وانقطع عن العمل ، وهذان رجلان مائلان عن الاعتدال ، فيحتاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال ، فأما العاصي المغرور المتمني على الله ، مع الإعراض عن العبادة وقت فعل المعاصي ، فأدوية الرجاء تنقلب سموماً مهلكة في حقه ، فمثل هذا المغرور لا يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف ، والأسباب المهيجة له، كما قال

سبحانه : ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾[النساء:١٤].

فلهذا يجب أن يكون واعظ الخلق متلطفًا ناظرًا إلى مواقع العلل ، معالجًا لكل علة بما يضادها ويزيلها ، والمطلوب هو العدل، وخير الأمور أوسطها، فإذا جاوز الوسط إلى أحد الطرفين عولج بما يرد إلى الوسط ، لا بما يزيد في ميله عن الوسط .

وأسباب الرجاء تستعمل في حق الآيس ، أو فيمن غلب عليه الخوف .

والخوف والرجاء جامعان لأسباب الشفاء في حق أصناف المرضى ، وذلك موجود في القرآن والسنة ، ليستعمله العلماء الذين هم ورثة الأنبياء حسب الحاجة والحالة ، كاستعمال الطبيب الحادق ، لا إستعمال الأخرق الذي يظن أن كل شيء من الأدوية صالح لكل مريض .

وحال الرجاء يطلب بالاعتبار ، وتدبر القرآن ، والآثار ، أما الاعتبار ، فيتأمل العبد أصناف النعم التي أنعم الله بها على عباده ، ويعرف لطائف نعم الله على عباده ، وعجائب حكمه في خلق الإنسان ، وما أعد له من أرزاق في الدنيا والآخرة مما هو ضروري أو جمالي ، فمن أعطى عباده هذا ، كيف يرضي بسوقهم إلى الهلاك المؤبد : ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾[ لقمان : ٢٠ ] .

وقال الله تعالى : ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾[ إبراهيم : ٣٤ ] .

ولكن الناس يظلمون أنفسهم تارة باليأس ، وتارة بالتقصير ، وتارة بالاستهانة بأوامر الله ، بل إذا نظر الإنسان نظرًا شافيًا ، علم أن أكثر الخلق قد

هُيئ له أسباب السعادة في الدنيا ، حتى إنه يكره الانتقام من الدنيا بالموت ، لأن أسباب النعم أغلب لا محالة ، وإنما الذي يتمنى الموت نادر ، فإذا كان أغلب الخلق في الدنيا الغالب عليهم الخير والسلامة ، فالغالب أن أمر الآخرة يكون كذلك إلا من مات كافرًا ، أو مشركًا ، أو منافقًا ، ومدبر الدنيا والآخرة واحد ، وهو الغفور ، الرحيم ، الكريم ، اللطيف بعباده ، فهذا إذا تدبره الإنسان قوى بأسباب الرجاء كما قال الرسول الله ﷺ : « يقول الله ﷻ : مَن جَاء بِالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وأزيدُ . ومن جاءَ بالسَّيِّئَةِ ، فجزاؤهُ سيِّئَةٌ مثلُها . أو أغفِرُ . ومن تقرَّبَ منِّي شبرًا ، تقرَّبتُ منه ذراعًا . ومن تقرَّبَ منِّي ذراعًا ، تقرَّبتُ منه باعًا . ومن أتاني يمشي ، أتيتُهُ هرولةً . ومن لَقيَني بقُرابِ الأرضِ خطيئةٍ لا يشركُ بي شيئًا ، لقِيتُهُ بمثلِها مغفرةً » . أخرجه مسلم(١) .

وكذلك النظر إلى حكمة الشريعة وسنتها في مصالح الدنيا ، ووجه الرحمة للعباد بها في الدنيا والآخرة :﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾[الحج:٦٥ ].

وأما تقرير الآيات فكقوله سبحانه : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر:٥٣] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾[الضحى: ٥] .

وقوله ﷺ : « إن الله أَشَدُّ فرَحًا بِتوبةِ عبدِهِ حِينَ يَتوبُ إليه ؛ من أحدِكمْ كان على راحلَتِه ، بأرضِ فلاةٍ ، فانْفلَتَتْ مِنهُ ، وعليْها طعامُهُ وشَرابُهُ ، فأيِسَ مِنْها ، فأتَى شجرَةً ، فاضْطجعَ في ظِلِّها ، قدْ أيِسَ من راحلَتِه ، فبيْنما هوَ

(١) أخرجه مسلم برقم: (٢٢/ ٢٦٨٧).

كذلِكَ ، إذْ هوَ بِها قائمةٌ عِندَهُ ، فأخَذَ بِخطامِها ، ثمَّ قال – من شِدَّةِ الفرَحِ – : اللهُمَّ أنتَ عبدِي ، وأنا ربُّكَ ! أخْطَأَ من شِدَّةِ الفرَحِ » . أخرجه مسلم[1].

والرجاء هو النظر إلى سعة رحمة الله ، والاستشعار بجوده ، وفضله ، وإحسانه ، والثقة بجوده ، وكرمه ، وهو حادٍ يحمل القلوب إلى بلاد المحبوب ، وهو الله والدار الآخرة ، ويطيب لها السير إلى ربها ومرضاته ، والفرق بين الرجاء والتمني :

أن التمني يكون مع الكسل والقعود ، والرجاء يكون مع بذل الجهود ، وحسن التوكل ، فعلامة صحة الرجاء حسن الطاعة : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة:١٥-١٧ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [ الأنفال :٢ -٤ ] .

(١) أخرجه مسلم برقم: (٧/ ٢٧٤٧).

# ٦- الخزانة السادسة

- **أقسام الرجاء :**

**الرجاء ثلاثة أنواع :**

**الأول** : رجاء من عمل بطاعة الله ، على نور من الله ، فهو راجٍ لثوابه .

**الثاني** : رجاء رجل أذنب ذنوباً ، ثم تاب منها ، فهو راجٍ لمغفرة الله ، وعفوه ، وإحسانه ، وهذان محمودان .

**والثالث** : رجل متمادٍ في التفريط والخطايا ، يرجو رحمة الله بلا عمل ، فهذا هو الغرور ، والتمني ، والرجاء الكاذب .

والخوف والرجاء بالنسبة للعبد كجناحي الطائر ، إذا استويا استوى الطير ، وتم طيرانه بسلام ، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص ، وإذا ذهب صار الطائر إلى حد الموت : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [ الزمر : ٩ ] .

وفي كلا الرجاءين كمال ، رجاء المحسن ثواب إحسانه وطاعته ، لقوة أسباب الرجاء معه ، ورجاء المذنب المسيء التائب مغفرة ربه وعفوه ، لأن رجاءه مجرد من علة رؤية العمل ، مقرون بذلة رؤية الذنب ، والانكسار بين يدي الخالق : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر:٥٣] .

والرجاء من أجل المنازل وأعلاها وأشرفها ، وعليه وعلى الحب والخوف مدار السير إلى الله ﷻ .

وقوة الرجاء على حسب قوة المعرفة بالله، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، ومعرفة غلبة رحمته على غضبه ، ولولا الرجاء لعطلت عبودية القلب والجوارح ، ولولا روح الرجاء ، لما تحركت الجوارح بالطاعة ، ولولا روح الرجاء ، وريحه الطيبة ، لما جرت سفن الأعمال الصالحة في بحر الإرادات البشرية .

وعلى حسب محبة الله وقوتها يكون الرجاء والخوف ، فكل محبة فهي مصحوبة بالخوف والرجاء ، وعلى قدر تمكنها من قلب المحب يشتد خوفه ورجاؤه ، لكن خوف المطيع المحب لا يصحبه وحشة ، بخلاف خوف المسيء الذي عصى الله : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾[النساء:١١٠ ] .

وقال الله تعالى عن الأنبياء والرسل : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[الأنبياء:٩٠] .

ورجاء المطيع المحب لا يصحبه علة ، بخلاف رجاء المذنب المسيء ، والرجاء ضروري ولازم لكل عبد ، لو فارقه لحظة لتلف أو كاد ، فإنه دائر بين ذنب يرجو غفرانه ، وعيب يرجو إصلاحه ، وعمل صالح يرجو قبوله ، واستقامة يرجو حصولها ودوامها ، وقرب من الله ، ومنزلة عنده يرجو وصوله إليها ولا ينفك أحد عن هذه الأمور أو بعضها : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾[الأنفال:٢- ٤ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾[ فاطر :٢٩- ٣٠ ] .

والرجاء من الأسباب التي ينال بها العبد ما يرجوه من ربه ، بل هو من أقوى الأسباب ، فالراجي راغب وراهب ، ومؤمن لفضل ربه ، وحسن الظن به ، متعلق الأمل ببره ، وجوده ، وإحسانه ، عابد له بأسمائه الحسنى كالبر ، والكريم ، والمحسن ، والوهاب ، والمعطي ، والرزاق ، والحليم، والعفو ، والغفور .

والله سبحانه يحب من عبده أن يرجوه ، ولذلك كان عند رجاء العبد له ، وظنه به، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾[البقرة:٢١٨] .

وليس في الرجاء ، ولا في الدعاء ، معارضة لتصرف الملك سبحانه في ملكه ، فإن الراجي إنما يرجو تصرفه في ملكه بما هو أولى وأحب الأمرين إليه ، فإن الفضل والإحسان أحب إليه جل جلاله من العدل ، والعفو أحب إليه من الانتقام ، والمسامحة أحب إليه من الاستقصاء ، والترك أحب إليه من الاستيفاء ورحمته سبقت غضبه ، فالراجي ربه علق رجاءه بتصرفه المحبوب له ، المرضي له .

وإذا تعلق الراجي بمراده ، دون مراد سيده ، فهو إنما علقه بمراده المحبوب له ، هاربًا من مراده المكروه له ، وعلى تقدير كل محبوب له إذا كان انتقام ، فالعفو والفضل أحب إليه منه ، فهو إنما علق رجاءه بأحب المرادين إليه ، وليس الدعاء والرجاء اعتراضًا على ما سبق به القدر ، بل تعلق بما سبق به الحكم ، فإنه إنما يرجو فضله وإحسانه ، ورحمة سبق بها القضاء والقدر ،

وجعل الرجاء أحد أسباب حصولها للعبد : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف:١١٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[الأحزاب:٢١] .

- **فضائل الرجاء :**

الرجاء يبرد حرارة الخوف التي قد تصل بصاحبها إلى اليأس ، وفيه إظهار العبودية والفاقة والحاجة إلى ما يرجوه من ربه بسؤاله إياه : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾[البقرة:١٨٦] .

وهو سبحانه يحب من عباده أن يرجوه ويسألوه من فضله ، لأنه الملك الكريم ، هو أجود من سئل وأحب شيء للجواد أن يرجى ويأمل ويسأل : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾[فاطر:٢٩-٣٠] .

والرجاء يحدو العبد في سيره إلى الله ، ويطيب له المسير ، فلولا الرجاء لما سار أحد ، فإن الخوف وحده لا يحرك العبد ، وإنما يحركه الحب ، ويزعجه الخوف ، ويحدوه الرجاء ، وبالرجاء يزداد العبد حبًا لله ، فإنه كلما اشتد رجاؤه وحصل له ما يرجوه ، ازداد حبًا لله وشكرًا له ، ورضى به وعنه : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾[التوبة:١٠٠ ] .

وبالرجاء يزداد العبد من معرفة الله ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، ومعانيها ، والتعلق بها ، والتعبد لله بها : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾[الأعراف:١٨٠] .

وفي الرجاء تكميل مراتب العبودية من الذل ، والانكسار ، والتوكل ، والاستعانة ، والخوف ، والرجاء ، والصبر ، والشكر ، والرضا ، والإنابة : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾[الزمر:٩].

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾[السجدة:١٥-١٧ ] .

ومن عرف ربه بأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، رجاه ، وخاف منه ، وأحبه ، وتوكل عليه ، وعبده ، وأطاعه .

فمن عرف ربه باسمه الكريم رجا كرمه ، ومن عرف ربه باسمه الغفور رجا مغفرته ، ومن عرف ربه باسمه الرحمن رجا رحمته وهكذى في بقية الأسماء : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾[الأعراف:١٨٠] .

ولهذا قدر الله على العبد الذنب ، وابتلاه به ، لتكميل مراتب العبودية له بالتوبة إلى الله ، التي هي أحب شيء إليه فكذلك تكميلها بالرجاء والخوف من أعظم العبوديات لله عز وجل : ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾[المائدة:٣٩] .

- **درجات الرجاء :**

**درجات الرجاء ثلاث :**

**الدرجة الأولى** : رجاء يبعث العامل لبذل جهده لما يرجوه من ثواب ربه ، ويولد عنده اللذة حين الطاعة والعبادة ، فإنه كلما رأى قلب العبد ثمرة الطاعة ، وحسن عاقبتها ، إلتذ بها ، وهذا كحال من يرجو الأرباح العظيمة في سفره وكذا المحب الصادق الساعي في مراضي محبوبه الشاقة عليه ، كلما تذكر الرضاء عنه ، وقبوله في سعيه ، وقربه منه ، تلذذ بتلك المساعي والأعمال كالأنبياء : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾[الأنبياء:٩٠] .

وكذلك الطباع لها معلوم ورسوم تتقاضاها من العبد ، ولا تسمح له بتركها إلا بعوض هو أحب إليها من رسومها ، فإذا قوى تعلق الرجاء بهذا العوض الأشرف ، سمحت الطباع بترك تلك الرسوم ، فإن النفس لا تترك محبوبًا إلا لمحبوب هو أحب إليها منه ، أو حذراً من مخوف هو أعظم مفسدة لها من حصول مصلحتها بذلك المحبوب .

**الدرجة الثانية** : رجاء يبعث النفس لترك مألوفاتها ، والاستبدال بها مألوفات أخرى ، هي خير منها وأكمل ، فرجاء هؤلاء أن يبلغوا مقصودهم بصفاء الوقت ، ولزوم الشرع ، والوقوف عند حدوده : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾[الحشر: ٧ ] .

**الدرجة الثالثة** : رجاء أرباب القلوب ، وهو رجاء لقاء الخالق ، الباعث على الاشتياق للخالق ، المبغض المزهد في الخلق ، وهذا الرجاء أفضل أنواع الرجاء ، وأعلاها .

والاشتياق هو سفر القلب في طلب محبوبه ، وعيشه منغص حتى يلقى محبوبه ، فهناك تقر عيناه ، ويزول عن عيشه تمغيصه ، ويزهد في الخلق وما يملكون ، لأن صاحبه طالب للأنس بالله ، والقرب منه ، فهو أزهد شيء في الخلق إلا من أعانه على هذا المطلوب منهم ، ووصله إليه ، فهو أحب خلق الله إليه ولا يأنس من الخلق بغيره ، ولا يسكن إلى سواه : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ ﴾ [ آل عمران : ١٣٣-١٣٤].

فعليك بطلب هذا الرفيق جهدك ، وإذا لم تظفر به ، فاتخذ الله رفيقًا ، ودع الناس كلهم جانبًا : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥١ ﴾ [الذاريات:٥٠-٥١] .

وعلامة صحة الرجاء حسن الطاعة ، ولزوم العبادة .

والخوف والرجاء جناحان يطير بهما المقربون إلى كل مقام عالٍ ، ومنزل محمود ، ورسول الله ﷺ أسوة لكل من أراد الله والدار الآخرة : ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١ ﴾ [الأحزاب:٢١] .

والله رؤوف بالعباد ، رحيم بهم ، ومن رحمته أن خلقهم في أحسن تقويم ، وهداهم إلى الإيمان ، وأعانهم على الطاعة ، وسخر لهم ما في السموات وما في الأرض ، وأسكنهم في أرضه ، وأطعمهم من رزقه ، وسقاهم من مائه ، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة.

ومظاهر رحمته يوم القيامة أعظم وأكبر كما قال النبي ﷺ : « إنَّ لله مِئةَ رحمةٍ ، أنزَلَ منها رحمةً واحدةً بين الجنِّ والإنسِ ، والبهائمِ والهَوامِّ ؛ فبها يتعاطَفون ، وبها يتراحَمون ، وبها تَعطِفُ الوَحْشُ على ولدِها ، وأخَّرَ اللهُ تسعًا وتسعين رحمةً ، يرحَمُ بها عبادَه يومَ القيامةِ » . متفق عليه[1] .

● **ثمرات الخوف والرجاء :**

من عرف ربه سبحانه بأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، وعرف عظمة ملكه وسلطانه ، وعرف عظمة نعمه وجزيل إحسانه ، وعرف حسن دينه وشرعه ، وعرف عظمة وعده ووعيده ، أحب ربه ، ومجده ، وعظمه ، وكبره ، وحمده ، وشكره ، وخاف منه ، ورجاه ، وتوكل عليه ، واستعان به ، وأطاعه ، وعبده ، وسأله ، ودعاه : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾[محمد:١٩] .

وأعرف الخلق بربهم هم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، لهذا وصفهم الله بكمال العبودية بقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[الأنبياء:٩٠] .

فالله ﷻ هو الملك الحق ، الذي له الأسماء الحسنى ، والصفات العلى، والأفعال الكبرى، والمثل الأعلى، ومن عرف ربه بذلك تواضع له، وذل بين يديه .

والتواضع أن يخضع العبد للحق الذي آمن به ، وينقاد له ، ويقبله ممن قاله ، ويتلقى سلطان الحق بالخضوع له ، والانقياد له ، والدخول تحت رقه ، بحيث يكون الحق متصرفًا فيه تصرف المالك في مملوكه ، وبهذا يحصل

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٠٠٠)، ومسلم برقم: (١٩/ ٢٧٥٢)، واللفظ له.

للعبد خُلق التواضع : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ٦٤ ﴾ [ الفرقان :٦٣- ٦٤ ] .

وقال النبي ﷺ : « إنَّ اللهَ أَوْحى إليَّ أنْ تواضَعوا ؛ حتى لا يَفخرَ أحدٌ على أحدٍ ، ولا يَبغيَ أحدٌ على أحدٍ » .أخرجه مسلم[1] .

وحقيقة التواضع خضوع العبد لأوامر الحق ، وانقياده لها ، وخفض الجناح ، ولين الجانب ، والتواضع خلق جميل ينشأ من معرفة جلال الرب وعظمته ، ومعرفة نعمه وإحسانه وجماله ، ومعرفة نقص الإنسان ، فيتولد التواضع من الإنسان الضعيف الناقص للرب ذي الجلال والإكرام : ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩ ﴾ [الزمر:٩].

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤ ﴾ [الأنفال:٢- ٤ ].

**والتواضع على ثلاث درجات :**

**الدرجة الأولى** : التواضع للدين ، وهو الانقياد ، والتسليم ، والإذعان لكل ما جاء به الرسول ﷺ ، فلا يعارض شيئًا مما جاء به ، ولا يتهم دليلاً من أدلة الدين ، بحيث يظنه ناقص الدلالة ، أو غيره كان أولى منه : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا

(١) أخرجه مسلم برقم: (٦٤/ ٢٨٦٥).

يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[النساء:٦٥] .

ومن عرض له شيء من ذلك ، فليتهم نفسه ، وليعلم أن الآفة منه لا من الدليل ، وإذا رأى العبد من أدلة الدين ما يشكل عليه ، فليعلم أنه لعظمته وشرفه لم يدرك معناه ، وأن تحته كنز من كنوز العلم لم يؤت مفتاحه : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾[الإسراء:٨٥] .

ويقدم نصوص الكتاب والسنة على آراء الرجال ، ولا يجد إلى خلاف النص الشرعي سبيلاً البته ، لا بباطنه ، ولا بلسانه ، ولا بفعله ، ولا بحاله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [الأعراف:١٧٠] .

وقال الله تعالى : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾[ الحشر : ٧ ] .

**الثانية** : أن ترضى بما رضى الحق به لنفسه عبدًا من المسلمين أخًا ، وألا ترد عن عدوك حقا ، وأن تقبل من المعتذر معاذيره ، فإذا كان الله رضي أخاك المسلم لنفسه عبدا ، أفلا ترضى أنت به أخا : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾[الحجرات:١٠ ] .

وقال النبي ﷺ : « وكونوا عبادَ الله إخوانا ». متفق عليه[1].

فإن عدم رضاك به ، وقد رضيه سيدك الذي أنت عبده ، هو عين الكبر ، وأي قبيح أقبح من تكبر العبد على عبد مثله ، لا يرضى بأخوته ، وسيده راضٍ

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم( ٦٠٥٦ )، ومسلم برقم ( ٢٥٥٩ ) .

بعبوديته : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾ [لقمان:١٨] .

وقال النبي ﷺ : « ألا أخبركم بأهل الجنَّة كلُّ ضعيف متضعِّف ، لو أقسم على الله لأبرَّه ، ألا أخبركم بأهل النَّار كلُّ عتلٍّ جوَّاظٍ مستكبر ». متفق عليه[1] .

وكذلك تقبل الحق ممن تحب وممن لا تحب ، فتقبله من عدوك كما تقبله من وليك ، فلا تمنعك عداوته من قبول حقه ، ولا من إيتائه إياه ، ومن أساء إليك ، ثم جاء ليعتذر من إساءته ، فإن التواضع يوجب عليك قبول معذرته ، وأمره إلى الله تعالى .

وعلامة الكريم أنه إذا رأى الخلل في عذره لا يوقفه عليه ، ولا يحاجه ، بل يصفح عن المعتذر فورًا ويقول يمكن أن يكون الأمر كما تقول ، ولو قُضي شيء لكان ، والمقدر لا بد واقع ونحو ذلك .

**الثالثة** : أن تتواضع للحق سبحانه ، وتعبده بما أمرك به ، على مقتضى أمره ، لا على ما تراه من رأيك : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود:١١٢] .

ولا يكون الباعث لك على عبادته داعي العادة ، كما هو باعث من لا بصيرة له ، بل يكون باعثه على العبودية لربه مجرد الأمر ، ولا ترى لنفسك حقًا على الله ، لأجل عملك ، بل تكون مع الله بالعبودية، والفقر والعجز، والذل، والانكسار ، فإن كل نعمة منه ، وكل إساءة منك : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النحل:٥٣] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم ( ٤٩١٨ )، واللفظ له، ومسلم برقم ( ٤٦/ ٢٨٥٣ ) .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ [ فاطر: ١٥ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [النساء:٧٩] .

فمن رأى لنفسه على ربه حقًا ، صارت نفسه معلولة ، وخيف عليها المقت ، وخُشي عليها الطرد والإبعاد ، ولا ينافي هذا ما أحقه الله وأوجبه على نفسه من إثابة عباده المؤمنين وإكرامهم ، فإن الله يقول : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الكهف:١٠٧-١٠٨] .

فإن ذلك حق أحقه الله على نفسه ، بمحض كرمه وبره ، وجوده وإحسانه ، لا باستحقاق العبيد له ، فلا يدخل أحد الجنة بعمله أبدًا ، ولا ينجيه من النار ، كما قال الرسول ﷺ : « لن يُدخِلُ أحدًا منكُم عملُهُ الجنَّةَ ، ولا يجُيرُهُ منَ النَّارِ ، ولا أَنا ، إلَّا برحمةٍ منَ اللهِ » .متفق عليه[1].

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري برقم ( ٥٦٧٣ )، ومسلم برقم ( ٧٥/ ٢٨١٦ ) .

# ٨- الخزانة السابعة

- **فقه التعظيم :**

من عرف الله ﷻ بأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، أَحَبَّهُ ، وخَافَهُ ، ورَجَاه ، وعَظَّمَهُ وكَبَّرَهُ ، وأطاعه وعبده : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾[ محمد : ١٩ ] .

والتعظيم هو معرفة عظمة الرَّب ، وتعظيمه ، وإجلاله مع التذلل له ، وعلى قدر المعرفة يكون تعظيم الرَّب تعالى في القلب ، والذل له .

وأعرف الناس بالله ، أشدهم تعظيمًا له ، وإجلالاً له ، وذُلًا له ، ومحبةً له ، وطاعةً له ، و عبادةً له ، وفي مقدمتهم الأنبياء والرسل : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

[ الأنبياء : ٩٠ ] .

- **درجات التعظيم :**

**التعظيم على ثلاث درجات :**

**الأولى** : تعظيم الأمر والنهي ، بأن يُعَظِّم العبد كل ما أمر الله ورسوله به ، وكل ما نهى الله ورسوله عنه : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾[الحج:٣٢] .

**الثانية** : تعظيم الحكم الكوني القدري .

فالأولى تتضمن تعظيم الحكم الديني الشرعي ، وهذه تتضمن تعظيم الحكم الكوني القدري ، فكما يجب على العبد أن يراعي حكم الله الديني بالتعظيم ، فيصدق الأخبار ، ويطبق الأحكام ، ويمتثل الأوامر ، ويجتب النواهي ، فكذلك يجب عليه أن يراعي حكم الله الكوني بالتعظيم ، فإن الله

ﷻ لا يقضي شيئًا إلا وفق الحكمة ، والرحمة ، والعدل ، والإحسان : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [ الأنعام :١٠٢- ١٠٣ ] .

وتعظيمه بأن لا يرى فيه عوجًا ، ولا يطلب له عوجًا ، بل يراه كله مستقيمًا ، لأنه صادرٌ عن من له الأسماء الحسنى ، والصفات العلى ، والأفعال الحميدة ، صادرٌ عن عين الحكمة ، فلا عوج فيه أبدًا : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ الأنعام : ٨٣ ] .

فكل ما يجري في الكون من الحركات والسكنات، والطاعات والمعاصي، والخير والشر، كله بقضاء الله وقدره، وقضاؤه سبحانه كله عدلٌ، والمَقضي منه عدل ، ومنه جور، وقضاؤه كله مَرْضِي ، والمَقضي منه مَرْضِي ، ومنه مسخوط، وقضاء الله وقدره ، وحُكمه الكوني ، لا يناقض دينه وشرعه ، وحُكمه الديني ، بحيث تقع المُدَافعة بينهما ، لأن هذا مشيئته الكونية ، وهذا إرادته الدينية ، ومن تعظيمهما الانقياد لهما ، فهما وصفان للرَّبِّ سبحانه : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [التغابن:١١]

**الثالثة** : تعظيم الرَّبِّ سبحانه ، فالله هو الحق الذي له الخلق والأمر؛ والتي قبلها تتضمن تعظيم قضائه لا مقضيه، والأولى تتضمن تعظيم أمره الشرعي.

وتعظيم الحق سبحانه ألا تجعل دونه سببًا، فهو الذي يُوَصَّل عبده إليه ، فلا يُوَصَّل إلى الله إلا الله، ولا يُقَرِّب إليه سواه ، ولا يُدْني إليه غيره ، ولا يُتَوَصَّل إلى رضاه إلا به ، ولا هادَى إليه سواه : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [ الحجرات : ١٧ ] .

وكذلك لا ترى لأحدٍ من الخلق حقًا على الله ، بل الحق لله على خلقه ، فهو الذي خلقهم ، ورزقهم ، وهداهم ، وأبقاهم ، وأنعم عليهم بنعمة الخَلْقِ والإيجاد ، ونعمة الأقوات ، والإمداد ، ونعمة الهداية ، والإسعاد : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النحل:٥٣] .

وأما حقوق العباد على الله تعالى من إثابته لمطيعيهم ، وتوبته على تائبهم ، وإجابته لسائلهم ، فتلك حقوقٌ أحقها الله سبحانه على نفسه بحكم وعده الكريم ، وإحسانه إلى خلقه ، وحُبِّهِ لرحمتهم ، لأنها حقوقٌ أحقها الله عليه ، فالحق في الحقيقة لله على عبده ، وحق العبد عليه هو ما اقتضاه جوده ، وبِرُّه ، وإحسانه إليه ، بمحض جوده وكرمه سبحانه .

ومن تعظيمه ﷻ ألا ينازع العبد له اختيارًا ، فإذا اختار لك أو لغيرك شيئًا ، إما بأمره ودينه ، وأما بقضائه وقدره ، فلا تنازع اختياره ، بل ارضَ باختيار ما اختار لك ، فإن ذلك من تعظيمه وإجلاله جل جلاله ، ولا ترد عليه قدرًا من المعاصي ، فإنه سبحانه وإن قدرها ، لكنه لم يخترها له ، فمنازعتها غير اختياره من عبده ، وذلك من تمام تعظيم العبد له سبحانه .

ومن تعظيمه ﷻ تعظيم حرماته : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ [الحج:٣٠] .

وحرمات الله هي ما يجب احترامه وحفظه ، من الحقوق ، والعهود ، والأشخاص ، والأزمنة ، والأمكنة ، والأوامر ، والنواهي ، فتعظيم الآمر ، وتعظيم أمره ونهيه ، وتعظيم حرماته ، وتعظيم قضائه وقدره ، هو الواجب على كل مسلم ، فيُعَظِّم ربه تعظيمًا لذاته ، وخوفًا من عقابه ، وطلبًا لثوابه ، فهو سبحانه أهل لأن يُعبَد ، وأن يحُب ، وأن يُعَظَّم ، وهو الذي يستحق العبادة والتعظيم والإجلال لذاته ، فمنه كل شيء ، وبيده كل شيء ، وهو

القادر على كل شيء : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[الأنعام:١٠٢] .

والله ﷻ يحُبُّ من عبده أن يُعَظِّمَه ، وأن يُكَبِّرَهُ ، وأن يَذِلَ له ، وأن يُكَمِل مقام الذُل له ، وهذه هي حقيقة العبودية : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾ ﴾[الأعراف: ٢٠٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾[غافر:٦٠ ] .

- **أنواع الذل :**

**الذل أنواعٌ ودرجات :**

**النوع الأول** : ذُل المحبوب لمحبوبه ، وهو أكملها وأعلاها ، فإذا رأى الإنسان عظيم نعم الله ، وإحسانه إلى خلقه ، ذَلَّ لربه ، لما يراه من عظيم نعمه ، وإحسانه : ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[إبراهيم:٣٤]

**الثاني** : ذل المملوك لمالكه ، فالإنسان وجميع المخلوقات عبيدٌ مماليك لملك الملوك جل جلاله : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾[مريم:٩٣- ٩٤] .

وليس للعبد وظيفة إلا أن يشتغل بتنفيذ أوامر مالكه ، بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه .

**الثالث** : ذل الجاني بين يدي المُنعم عليه ، المحسن إليه ، المالك له .

**الرابع** : ذل العاجز عن مصالحه وحاجاته ، بين يدي القادر عليها ، التي هي في يده وبأمره : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [ فاطر : ١٥ ] .

**وتحت هذا قسمان :**

أحدهما ذُلٌّ لله في أن يجلب له ما ينفعه .

والثاني : ذُلٌّ لله في أن يدفع ما يضره على الدوام ، فيدخل في ذلك ذُل المصائب كالفقر والمرض ، وأنواع البلاء والمحن .

فهذه خمسة أنواع من الذل ، إذا وَفَّاها العبد حقها ، وشهدها كما ينبغي ، وعَرَف ما يُرَاد به منها ، وقام بين يدي ربه مُستصحبًا لها ، شاهدًا لذله من كل وجه ، ولعزة ربه وعظمته وجلاله من كل وجه ، كان قليل أعماله قائمًا مقام الكثير من أعمال غيره : ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك:١-٢] .

فالعبودية حقًا كمال الحب لله ، مع كمال التعظيم له ، مع كمال الذل له : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة:٥٤].

وقال الله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [ السجدة :١٥- ١٧ ] .

# ٨- الخزانة الثامنة

- **فقه المراقبة :**

من عرف رَبَّه بأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، أَحَبَّهُ ، وخَافَهُ ، ورَجَاه ، وراقبه في جميع حركاته وسكناته ، وفي أقواله ، وأفعاله : ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾ ﴾ [محمد:١٩].

**والمراقبة** : هي دوام علم العبد و تيقنه باطلاع الحق سبحانه على ظاهره وباطنه ، وسره وعلانيته ، وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيبٌ عليه ، ناظرٌ إليه ، سامعٌ لقوله ، مُطلعٌ على عمله ، كل وقت ، وكل لحظة ، وكل نَفَس ، وكل طرفة عين : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ ﴾ [ النساء : ١ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿٢٣٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٣٥] .

ومن راقب الله ﷻ في خواطره ، عصمه في حركات جوارحه .

**وعلامة المراقبة :**

إيثار ما أنزل الله ، وتعظيم ما عَظَّمَ الله ، وتصغير ما صَغَّرَ الله ، وتكبير ما كَبَّرَ الله ، والرجاء يحُرك إلى الطاعات ، والخوف يبعد عن المعاصي ، والمراقبة تهديك إلى الطريق الحق .

- **درجات المراقبة :**

**المراقبة على ثلاث درجات :**

**الأولى** : مراقبة الحق تعالى في السير إليه على الدوام ، بين تعظيم لربه يذهله عن تعظيم غيره ، وعن الالتفات إليه ، وامتلاء قلبه بذلك .

فالحضور مع الله يوجب له أُنساً ومحبة ، إن لم يقارنهما تعظيمٌ أو خروج عن حدود العبودية ، ورعونةً ، ودنوًا ، وقُربًا من ربه يحمله على التعظيم الذي يذهله عن نفسه وعن غيره : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [ الرعد: ٢٨ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأحزاب:٤١-٤٣ ] .

فللمراقب لربه حضورٌ مع الله ، يوجب له أُنسًا ومحبة ، وسروراً يبعث على الفرحة والتعظيم واللذة ، في ذلك القرب ، فإن سرور القلب له فرحه به ، وقرة العين به ، لا يشبهه شيءٌ من نعيم الدنيا البتة ، وهذا السرور يبعث على دوام السير إلى الله ﷻ ، وبذل الجهد في طلبه ، وابتغاء مرضاته ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، والتعبد له في كل حال : ﴿ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس:٥٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٦١-١٦٣ ] .

ومن لم يجد هذا السرور ، والطعم ، والحلاوة ، فليتهم إيمانه وأعماله ، فإن للإيمان حلاوة من لم يذوقها فليرجع وليقتبس نورًا ليجذب به حلاوة الإيمان ولذته : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [ الأنفال :٢- ٤ ] .

**الدرجة الثانية** : مراقبة العبد لمراقبة الله له ، وهي توجب صيانة الباطن والظاهر ، فصيانة الظاهر بحفظ الحركات الظاهرة ، وصيانة الباطن بحفظ الخواطر والإرادات الباطنة ، التي منها رفض معارضة أمره وخبره ، ورفض كل محبة تزاحم محبته ، وهذه حقيقة القلب السليم ، الذي لا ينجو إلا من أتى الله به يوم القيامة : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [ الشعراء :٨٨- ٨٩ ] .

وتوجب الإعراض عن اعتراض على أسمائه وصفاته وأفعاله بالشبه الباطلة والاعتراض على شرعه وأمره ، بالآراء والأقيسة ، المتضمنة تحليل ما حرم الله ، وتحريم ما أحل الله .

والاعتراض على حقائق الشرع والإيمان ، بالأوراد والكشوفات الباطلة ، المتضمنة شرع دين لم يأذن به الله ، وإبطال دينه الذي شرعه ، فاغتالوا القلوب ، واقتطعوها عن طريق الله ، فتولد من ذلك خراب العالم ، وهدم كثير من قواعد الدين ، والاعتراض على الدين بالسياسات الجائرة ، التي قدموها على حكم الله ورسوله ﷺ ، وحكموا بها بين عباده ، وعطَّلوا بها ولها شرعه وعدله وحدوده : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟

﴿ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥٣] .

وقال الله تعالى : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ [ النساء:١١٥ ] .

والعاصم من كل ذلك التسليم المحض للوحي ، وكذلك الإعراض عن الاعتراض على أفعال الله وقضائه وقدره ، وهذا اعتراض الجهال ، وهو سائرٌ في النفوس سريان الحمى في بدن المحموم .

وكل نفس معترضة على قدر الله ، وقسمته ، وأفعاله ، فهي هالكة ، إلا نفسًا قد اطمأنت إلى الله ، وعرفته حق المعرفة ، فتلك حظها التسليم والانقياد والرضا كل الرضا : ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾ [الفجر:٢٧ -٣٠] .

وقال الله تعالى : ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾ [يوسف:٥٣] .

**الثالثة** : شهود سبق الحق تعالى لكل ما سواه ، وأنه كان ولم يكن شيء غيره البتة ، وكل ما سواه كائن بتكوينه ، مخلوق بخلقه ، وكل ما يظهر في الأبد هو عين ما كان معلومًا في الأزل ، وإنما تجددت أوقات ظهوره : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ٤٩ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠﴾ [ القمر:٤٩- ٥٠ ] .

ومراقبة الإخلاص في كل حال ، ومراقبة مواقع رضا الرب ومساخطه في كل حركة ، والفناء عما يسخطه ، بما يُحب سبحانه ، فيفنى عن مراده من ربه ، مهما علا ، بمراد ربه منه : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٧٧﴾ [الحج:٧٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[البقرة:٢١-٢٢] .

ومن حُسن المراقبة :

أن يكون العبد قيمًا على إيمانه حتى لا ينقص ، وعلى جوارحه حتى لا تَكِل ، وعلى لسانه حتى لا يسكت عن ذكر الله وحمده ، وتسبيحه واستغفاره ، والدعوة إليه ، وتعليم شرعه ، فإذا وَفَّى الإنسان هذه الحظوظ ، فاستوفي من نفسه الحقوق ؛ حق الله ، وحق رسوله ﷺ ، وحق كتابه الكريم ، وحق دينه العظيم ، وحق الأهل ، وحق الأرحام ، وحق الجيران ، وحق المؤمنين ، فذلك العبد حقاً : ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾ ﴾[ الأنفال :٢- ٤ ] .

ومن حسن المراقبة إذا كنت عاملًا بالجوارح ، فاذكر نظر الله إليك ، وإن كنت قائلًا باللسان فاذكر سمع الله إليك ، وإذا كنت ساكتًا أو مُستخفيًا فاذكر علم الله بك ، ونظره إليك ، فهو الذي لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾[يونس:٦١ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك:١٣-١٤] .

وحقيقة المراقبة ملاحظة الرقيب ، وانصراف الهمم إليه ، وهي حالة للقلب تُثمرها معرفة الله ، وتُثمر تلك الحالة أعمالًا بالقلب والجوارح : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤].

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الأنفال:٢- ٤ ].

أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب ، واشتغاله به ، والتفاته إليه ، وملاحظته إياه ، وانصرافه إليه ، والانكسار بين يديه ، والسجود بين يديه : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [ السجدة : ١٥-١٧ ] .

وأما المعرفة التي ثمرتها هذه الحالة ، فهي العلم بأن الله مُطلعٌ على الضمائر ، عالمٌ بالسرائر ، رقيبٌ على أعمال العباد ، قائمٌ على كل نفس بما كسبت ، وأن سر القلب في حقه مكشوف ، كما أن ظاهر البشر مكشوف للخالق ، بل أعظم من ذلك : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [ الملك :١٣- ١٤ ] .

فإذا استولت هذه المعرفة على القلب ، استجرت في القلب مراعاة جانب الرقيب سبحانه ، و صرفت همه إليه ، فتولد من ذلك قوة الإيمان واليقين ، والرغبة في الطاعات ، وكراهية المعاصي والسيئات ، والاستقامة على أوامر الله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت:٣٠-٣٢] .

ولُبُّ المراقبة أن تكون أبدًا كأنك ترى الله ﷻ ، ومن راقب الله في خواطره عصمه الله في حركات جوارحه ، فتعبد الله بمقام الإحسان ، والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك : ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [لقمان: ٢٢] .

وهذا الدين العظيم مبنيٌ على أصلين عظيمين ، مراقبة الله في كل عمل ، وأن يكون العمل على ظاهرك قائمًا : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠] .

وقال الله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٨] .

وقال الله تعالى عن الأنبياء : ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٩٠] .

وقال الله تعالى عن المؤمنين الذين اشتراهم الله : ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّآئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ

وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [التوبة:١١٢ ] .

ولا يغرنك أيها العبد اجتماع الناس عليك ، فإنهم يراقبون ظاهرك ، والله يراقب باطنك : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٣٥] .

وأفضل الطاعات : مراقبة الحق سبحانه على دوام الأوقات ، عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية ، وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء ، وعليك بالخوف ممن يملك الملكوت ، ويملك الأرض والسماء : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٢-١٠٣] .

# ٩- الخزانة التاسعة

## فقه الجد والاجتهاد في الأعمال الصالحة

من خاف الله ورجاه ، اجتهد في تحقيق ما يُحبه الله ويرضاه ، واجتناب ما يسخطه الله ويكرهه .

والجدية هي الاجتهاد في الأمر الذي أمر الله ورسوله به ، والاهتمام به ، والمبالغة في تحقيقه ، حتى نصل إلى الهدف من ورائه ، وهو الهداية والأمن في الدنيا ، ورضوان الله والجنة في الآخرة : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ فاطر :٢٩ – ٣٠ ] .

فالاجتهاد في الأمر الشرعي ، يتضمن بذل الطاقة والوسع في فعل كل ما يقرب إلى ربنا ﷻ ، واجتناب كل ما يُبَعِّدَ عنه ، والاهتمام به يتضمن الحرص عليه ، ومراقبة العمل وتصويبه ، والمبالغة في تحقيقه ، تتضمن نفي التردد والقعود في وسط الطريق ، أو التواني عنه ، والتكاسل فيه .

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾ [ الحج :٧٧- ٧٨ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾[العنكبوت:٦٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾[الحشر: ٧ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾[آل عمران:١٣٣-١٣٥] .

ولماذا الجدية والمسابقة والمسارعة إلى الأعمال الصالحة ؟ .

**أولًا** : لأن العمر قصير ، وحق الله عظيم واللُّبث يسير ، فيحتاج المرء والحالة هذه إلى الجد والاجتهاد ، بامتثال أوامر الله ، واجتناب نواهيه ، والمبادرة إلى الأعمال الصالحة : ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [ إبراهيم : ٣١ ] .

ولهذا أمرنا رسول الله ﷺ بالمبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تَعَذُّرها ، والانشغال عنها بما يحدث من الفتن المشغلة المتكاثرة ، المتراكمة كتراكم ظلام الليل المظلم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [ المنافقون :٩- ١١ ] .

وعَنْ أبى هُرَيْرَةَ ﷺ أَنّ رَسُولَ ﷺ قَالَ : « بَادِرُوا بالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ ، يُصْبحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِى كَافِرًا ، أَوْ يُمْسِى مُؤْمِنًا وَيُصْبحُ كَافِرًا ، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا ». أخرجه مسلم(١).

**ثانيًا** : لأن الجد والاجتهاد صفةٌ من صفات أهل الإيمان ، من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم ، وخلةٌ لأولياء الرحمن ، الذين وصفهم وليهم ﷻ فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[ المؤمنون :٥٧-٦١ ] .

وقال ﷻ عن أنبيائه ورسله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَـٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[الأنبياء:٩٠] .

وأمرنا الله ﷻ بالجد ، والاجتهاد ، والمسابقة إلى الخيرات ، فقال : ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾[الحديد:٢١].

وقال الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[الصف:١٠-١٣] .

**ثالثًا** : أن الواجبات أكثر من الأوقات ، ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ، لهذا لابد لكل عبد من الجد في استثمار أوقاته ، لكي يؤدي الأمانة التي تحملها ، ويقوم بمسئوليته ، ويصل إلى غايته : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (١٢٨/ ٢٩٤٧).

وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [ السجدة :١٥- ١٧ ] .

**رابعًا** : أن كثيرًا من المسلمين أكثروا من الهزل والضحك ، واستعذبوا القعود ، وأطالوا النوم ، وتوسعوا في المباحات ، حتى أشغلتهم عن الواجبات ، فضلًا عن المندوبات ، ونحن في زمنٍ قد تغلب فيه الأعداء ، وطفح فيه فساد أهل الأهواء : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [ الروم : ٤١ ] .

وقال رسول الله : ﷺ « يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ، وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا ». متفق عليه[1] .

فمهلًا يا أمة محمد ﷺ ، مهلًا يا ورثة الأنبياء والرسل ، مهلًا إنكم أئمةٌ يُقتدى بكم ، وتنظر الناس إليكم ، وتنتظركم : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران:١١٠ ] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٥٢٢١)، واللفظ له، ومسلم برقم: (١١٢/ ٤٢٦).

**خامسًا** : الجدية تتأكد على كل مسلمٍ ومسلمة ، خاصةً الشباب ، حيث القوة والعافية والفراغ ، فلابد من استغلالها في مرضاة الله ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، والدعوة إلى دينه ، وتعليم شرعه ، والإحسان إلى خلقه : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [ آل عمران :١٠٤- ١٠٥ ] .

قال رسول الله : ﷺ « نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ : الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ » .متفق عليه[1] .

**سادسًا** : أن القرب من الله ﷻ يكون بحسب جد العبد في التقرب إليه بأنواع الطاعات والعبادات ، كما قال الله تعالى في الحديث القدسي : « مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا ، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ ». متفق عليه[2] .

فقرب الله ﷻ من عبده ، بقدر جده في التقرب إليه ، فالجزاء من جنس العمل : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ يونس : ٢٦ ] .

وهل يستوي من جد وعمل ، مع من قعد وكسل من غير عذر : ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [ النساء : ٩٥ ] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم( ٦٤١٢ )، واللفظ له، ومسلم برقم( ١٨٠٢ ).

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم( ٧٤٠٥ )، ومسلم برقم( ٢/ ٢٦٧٥ ) .

**سابعًا** : أن الدين هذا كله قيامٌ لا قعود فيه ؛ قيام بين يدي الله بالعبادة ، وقيام بين الناس بالدعوة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [المائدة:٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ الروم :٣٠ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ ﴾ [ المدثر :١- ٥ ] .

والجادون هم الأكفاء الذين يحملون الدعوة إلى الله على أكتافهم ، يبلغونها ويسعون في حمايتها ، ونشرها ، بأموالهم وأنفسهم ، و وقفوا أعمارهم عليها ، وبذلوا مهجهم في سبيلها : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [إبراهيم:٥٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٠٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجرات:١٥] .

- **فقه الجد والاجتهاد في الأعمال الكبرى :**

**الأول** : حَثَّ القرآن على الجد والاجتهاد في العبادة ، والدعوة ، والتعليم ، والإحسان إلى الخلق .

**أولًا** : الجد والاجتهاد في التمسك بالكتاب ، دراسةً ، وعملًا ، وتخلُّقًا ، وإبلاغاً كما قال سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾[الأعراف:١٧٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾[آل عمران:١٣٣-١٣٤].

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾[الحج:٧٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [البقرة:٦٣] .

وقال الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾[المؤمنون:٥١] .

ونهى الله ﷻ في كتابه العظيم عن الأقوال التي لا رصيد لها من الأفعال ، فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾[الصف:٣-٢ ] .

وأمر سبحانه بالمسارعة والمسابقة إلى الخيرات ، لما فيها من تكفير السيئات ، والفوز بالجنات ، ورفعة الدرجات فقال سبحانه : ﴿ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحديد:٢١].

وقال سبحانه : ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ

ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾ [ الحج : ٧٨ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [ الأنفال :٢- ٤ ] .

وحَذَّرَ الله ﷻ من التفريط والإهمال ، وبَيَّنَ سوء حال أهله عند الموت ، فقال سبحانه : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [ المنافقون : ٩ – ١١ ] .

**الثاني** : أما الدعوة إلى الجد والاجتهاد في السُّنَّة النبوية :

فالله سبحانه إذا كان قد أمر بالعمل الصالح في كتابه ، وحث على الجد والاجتهاد ، ورفع منزلة أهله ، فقد جاءت السُّنَّة الشريفة تؤكد معاني القرآن ، وتأمر بالجد والاجتهاد في الأعمال الصالحة .

**أولًا** : الأمر بالجد ، وترك العجز ، كما قال النبي ﷺ : « المُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهَّ مِنْ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهَّ وَلَا تَعْجَزْ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهَّ وَمَا شَاءَ فَعَلَ ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ » . أخرجه مسلم[1] .

وكما أن المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، فكذلك المؤمن ذو العمر الطويل مع الطاعة ، خير من المؤمن ذي العمر القصير .

عَنْ أَبِي بَكْرَةَ ﷺ أَنَّ رَجُلًا قَالَ : « يَا رَسُولَ اللهَّ أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ ؟ قَالَ : مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ ، قَالَ : يَا رَسُولَ اللهَّ فَأَيُّ النَّاسِ شَرٌّ ؟ قَالَ : مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ » . أخرجه أحمد والترمذي[2] .

**ثانيًا** : فتح أبواب العمل الصالح ، لكل راغبٍ من المسلمين ، فقد فتح الرسول ﷺ أبواب العمل الصالح على مصراعيها ، حتى لم يدع لعاجز أو متكاسل عذرًا يقعد به ، ويتكاسل عن الجد في فعل الخيرات ، والاستكثار من الطاعات .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولَ الله ﷺ : « مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ صَائِمًا؟. قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ : أَنَا ، قَالَ : فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ جَنَازَةً ؟ . قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ : أَنَا ، قَالَ : فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ مِسْكِينًا ؟ . قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ : أَنَا ، قَالَ : فَمَنْ عَادَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ مَرِيضًا ؟ . قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ : أَنَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ : مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلاَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ » .أخرجه مسلم[3] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٣٤/ ٢٦٦٤).

(٢) أخرجه أحمد برقم: (٢٠٥١٨)، والترمذي برقم: (٢٣٣٠).

(٣) أخرجه مسلم برقم:٨٧/ ١٠٢٨.

وقال رسول الله ﷺ : « أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ . ، فَسَأَلَهُ سَائِلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ كَيْفَ يَكْسِبُ أَحَدُنَا أَلْفَ حَسَنَةٍ ؟ ، قَالَ : يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ فَيُكْتَبُ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ أَوْ يحُطُّ عَنْهُ أَلْفُ خَطِيئَةٍ ». أخرجه مسلم(١).

وقال رسول الله ﷺ : « لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَتَقَلَّبُ فِي الجَنَّةِ فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ ، كَانَتْ تُؤْذِي النَّاسَ » . أخرجه مسلم(٢) .

**ثالثًا** : الحث على الأعمال ، ولو كانت يسيرة ، فبعض الناس قد يقعد عن العمل الصالح ، ويتكاسل عنه ، ولا يجِدُّ في طلبه ، لأن الشيطان يُسَوَّل له أنه قليل الفائدة ، أو عديم الجدوى ، مثل : السلام ، الكلمة طيبة ، الابتسامة في وجوه الناس ونحو ذلك .

قال رسول الله ﷺ : « لَا تحْقِرَنَّ مِنْ المَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ » . أخرجه مسلم(٣) .

وقال ﷺ : « اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تمَرَةٍ ، فَمَنْ لمَ يجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ ». متفق عليه(٤) .

**رابعًا** : الدعوة إلى استغلال الطاقات ، وعمارة الأرض بالجد والاجتهاد ، فقد حَثَّ الرسول ﷺ على الجد في عمارة الأرض ، واستغلال كنوزها ، واستثمار الطاقات البشرية .

قال رسول الله ﷺ: « مَنْ أَعْمَرَ أَرْضًا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا » .أخرجه البخاري(٥) .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٣٧/ ٢٦٩٨ ).

(٢) أخرجه مسلم برقم: (١٢٩/ ١٩١٤).

(٣) أخرجه مسلم برقم: (١٤٤/ ٢٦٢٦).

(٤) متفق عليه ، أخرجه البخاري برقم: (٦٥٤٠ )، ومسلم برقم: (١٠١٦).

(٥) أخرجه البخاري برقم: (٢٣٣٥).

# ١٠- الخزانة العاشرة

- **مظاهر الجد والاجتهاد في حياة المسلم :**

**أولاً** : حياة المسلم كلها جد واجتهاد ، مملوءة بالأقوال الحسنة ، والأعمال الصالحة ، والأخلاق الكريمة ، فالجد والاجتهاد صفةٌ بارزة في حياة المسلم كلها ، تعمر أوقاته ، وتحكم تحركاته ، ومن ذلك الجدية في التمسك بالإسلام في كل حال ، عقيدةً ، وشريعةً ، ومنهجًا للحياة : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣] .

**ثانيًا** : الجدية في الدعوة إلى الله ، فمقصود حياة النبي ﷺ هو الدعوة إلى الله ، ليُعبَد الله وحده لا شريك له ، كما قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف:١٠٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فصلت:٣٣].

وقال الله تعالى : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٠٤] .

**ثالثًا** : الجدية ، وبذل الجهد في طلب العلم وتعليمه ، كما قال سبحانه : ﴿ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [آل عمران:٧٩ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [التوبة:١٢٢].

فجعل الإنذار من مهام طلبة العلم ، وهذا لا يكون مع العزلة عن الناس ، وعدم الاختلاط بهم .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر: ٢٨] .

**رابعًا** : الجد ، والاجتهاد في تربية الأهل ، والأولاد ، كما قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم/ ٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [ التغابن : ١٤ ] .

**خامسًا** : الجد ، والاجتهاد في الصحبة والأخوة ، فالاستفادة من الأخوة والصحبة الصالحة ، في التعاون على البر والتقوى ، والتناصح في الخير ، عبادة من العبادات العظيمة .

قال الله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾ [المائدة:٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف:٢٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [التوبة:٧١] .

**سادسًا** : الجد ، والاجتهاد في الإحسان إلى الخلق .

قال الله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤].

وقال الله تعالى : ﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة:٨٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [ البقرة : ١٩٥ ] .

- **مظاهر الجد والاجتهاد :**

المؤمن الذي عرف ربه ، وعرف نفسه ، يجتهد في كل أوقاته ، في كل ما يقربه إلى الله ، من الأعمال الصالحة .

وللمسلم صفات تميزه عن غيره ، ومن ذلك :

**الصفة الأولى** : الحرص على اغتنام الأوقات في الأعمال الصالحة ، فالمؤمن يعرف قيمة وقته ، ويدرك أهمية عمره ، لذا تراه مجدًا في المحافظة عليه ، والاستفادة منه ، وعمارته بالعمل الصالح ، كما أخبر الله ﷻ عن نبيه ﷺ فقال : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣ ] .

فتراه يحفظ أوقاته إما في عبادة بينه وبين ربه ، و إما في دعوة بين خلقه ، و إما في تعليم لشرعه ، و إما في إحسانًا إلى خلقه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾ [ الحج :٧٧- ٧٨ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ﴿٨﴾ ﴾[الشرح:٧-٨] .

**الثانية** : تنظيم الواجبات ، والاهتمام بالمسئوليات ، فلكل وقتٍ واجباته ، كما أن لكل واجبٍ حقه من الوقت ، فهو يُعطي كل ذي حقٍ حقه ، ولا يمكن تحقيق ذلك بعد توفيق الله ﷻ إلا بتنظيم المسلم للواجبات ، وترتيب الأولويات .

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ مُعَاذًا ﷺ قال : بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِّ ﷺ فَقَالَ : « إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُّ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِّ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَّ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَّ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهَّ حِجَابٌ » .متفق عليه[1] .

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (١٣٩٥) ، ومسلم برقم: (٢٩/ ١٩)،واللفظ له.

وقال الصديق ﷺ يوصي عمر بن الخطاب : اعْلَمَ أَنَّ للهَّ ﷻ فِي النَّهَارِ حَقًّا لَا يَقْبَلُهُ فِي اللَّيْلِ ، وَاعْلَمَ أَنَّ للهَّ ﷻ فِي اللَّيْلِ حَقًّا لَا يَقْبَلُهُ فِي النَّهَارِ ، وَاعْلَمَ أَنَّهُ لَا تُقْبَلُ نَافِلَةً حَتَّى تُؤَدَّى الْفَرِيضَةُ .

**الثالثة** : ومن مظاهر الجد والاجتهاد أن المؤمن له من كل غنيمة سهم ، فالمؤمن حريصٌ على اغتنام الفرص ، يستغل الشباب قبل الهرم ، والصحة قبل السقم ، والفراغ قبل الشغل ، والحياة قبل الموت ، فلا تراه إلا عاملًا في طاعة الله ، مسارعًا إليها ، لهذا كثرت غنائمه ، وازدادت أسهمه ، ومن كان هذا ديدنه فالجنة مآله وعاقبته : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلًا ١٠٨ ﴾ [ الكهف :١٠٧- ١٠٨ ] .

وقَالَ رَسُولَ الله ﷺ : « مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ صَائِمًا ؟ » . قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ : أَنَا ، قَالَ : « فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ جَنَازَةً ؟ » . قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ : أَنَا ، قَالَ : « فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ مِسْكِينًا ؟ » . قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ : أَنَا ، قَالَ : « فَمَنْ عَادَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ مَرِيضًا ؟ » . قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ : أَنَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ : « مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلاَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ » . أخرجه مسلم[1] .

**الرابعة** : المؤمن الجاد يُؤْثِر العمل على الكلام ، وتسبق أفعاله أقواله .

قال الله تعالى : ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٤٤ ﴾ [البقرة:٤٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣ ﴾ [الصف:٣-٢ ] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٨٧/ ١٠٢٨).

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ ﴾[هود:٨٨] .

- **الأسباب المعينة على الجد والاجتهاد :**

**أولًا**: الإقلاع عن الذنوب ، والمبادرة إلى التوبة، فالذنوب حُجبٌ تحجب صاحبها عن الهدى، وتثبطه عن أعمال الخير والتقى، وتقعد به عن المنازل العلى : ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾[ المائدة : ٣٩ ] .

وأول صفة من صفات المؤمنين الذين اشتراهم الله ، هي التوبة إلى الله ، كما قال سبحانه : ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾[التوبة:١١٢ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[النور:٣١] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾[آل عمران:١٥٥].

**ثانيًا** : ذكر الله تعالى ، فللذكر أثرٌ عجيبٌ في تقوية العبد ، وتنشيطه للمسارعة إلى الطاعات ، والمسابقة في الخيرات : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأحزاب:٤١-٤٣ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[الأنفال:٤٥] .

والذكر سبب لزوال عُقَدِ الكسل الشيطانية ، كما قال النبي ﷺ : « يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلاَثَ عُقَدٍ ، يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ ، فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهَّ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ ، وَإِلاَّ أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلاَنَ » .متفق عليه[1] .

والذكر والاستغفار يزيد الإنسان قوة ، كما قال سبحانه عن هود ﷺ أنه قال لقومه : ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارًا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾[هود:٥٢] .

فالذكر لله ﷻ يُعطي الذاكر قوة ، حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لم يفعله بدونه.

**ثالثًا** : مصاحبة الأخيار ، كما قال سبحانه : ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف:٢٨]

وقال الله ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة:١١٩] .

وقال النبي ﷺ : « المَرْءُ عَلى دِينِ خَلِيلِه ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ » .أخرجه أحمد والترمذي[2] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٣٢٦٩)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٢٠٧/ ٧٧٦).

(٢) أخرجه أحمد برقم: (٨٣٩٨)، والترمذي برقم: (٢٣٧٨).

**رابعًا** : فقه السعادة ، فالنفوس الصغيرة هي التي ترى السعادة في الدعة والكسل ، والخلود إلى الجمود ، وقلة العمل ، والإكثار من المطاعم والمشارب ، ولبس أجمل الثياب ، وركوب أفخر المراكب : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا ٥٩ ﴾ [ مريم : ٥٩ ] .

ولكن النفوس العظيمة تأبى حياة البهائم ، وترى سعادتها في ركوب المصاعب ، والمنافسة في الخيرات والطاعات ، لنيل أعلى الدرجات ، وتقديم المكاره ابتغاء المكارم كما قال النبي ﷺ : « حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ ». أخرجه مسلم[1] .

فالمكارم منوطةٌ بالمكاره ، والسعادة لا يُعبَر إليها إلا على جسر المشقة : ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨ ﴾ [ الحج : ٧٨ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩ ﴾ [العنكبوت:٦٩] .

ومن طلب الراحة ، ترك الراحة كالأنبياء وأهل التقوى : ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠ ﴾[الأنبياء:٩٠].

وقال الله تعالى : ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩ ﴾ [الزمر:٩].

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (١/ ٢٨٢٢).

وقال الله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٧٧﴾[الحج:٧٧] .

**خامسًا** : تذكر الأجر ، فإذا تذكر المسلم ما وعده الله به من الأجر ، وما أعده له من المثوبة ، جزاء سعيه ونصبه ، وجده واجتهاده ، ومسارعته إلى الخيرات ، فإن ذلك من أكبر الدوافع له على اندفاعه ، وحماسه ، ومسارعته للأعمال الصالحة .

قال الله تعالى : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢﴾[التوبة:٧٢ ] .

وقال رسول الله ﷺ في غزوة أحد ، عندما دنا المشركون ، قال لأصحابه: « قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ » . فَقَالَ عُمَيْرُ بْنُ الْحَمَامِ الْأَنْصَارِيُّ : يَا رَسُولَ اللهَّ ، عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ؟ ، قَالَ : « نَعَمْ » . ، قَالَ : بَخٍ بَخٍ . فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ : « مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ : بَخٍ بَخٍ » . ؟ قَالَ : لاَ وَاللهَّ يَا رَسُولَ اللهَّ ، إِلَا رَجَاءَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا ، قَالَ ﷺ : « فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا » . ، فَأَخْرَجَ تمَرَاتٍ مِنْ قَرْنِهِ فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ ، ثُمَّ قَالَ : أَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ ، قَالَ : فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ » .أخرجه مسلم(١) .

**سادسًا** : محاسبة النفس ، فلابد من محاسبة النفس على تقصيرها ، ومعاتبتها على تفريطها ، وحثها على ما فيه نجاتها وفلاحها في كل يوم : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ

(١) أخرجه مسلم برقم: (١٤٥/ ١٩٠١).

بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾[الحشر:١٨-١٩] .

وَقَالَ عَمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ « حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا ، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا ، فَإِنَّهُ أَهْوَنُ عَلَيْكُمْ فِي الْحِسَابِ غَدًا أَنْ تُحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ ، وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ ؛ ﴿ يَوْمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة:١٣ -١٨] . أخرجه الترمذي [(١)] .

**سابعًا** : الدعاء ، فالجد والاجتهاد في العمل الصالح فضلٌ من الله ﷻ يؤتيه من يشاء ، وعلى المسلم أن يرفع يديه متضرعًا إلى ربه ، شكرًا له على هذه النعمة ، ويضع جبهته متذللًا لربه ، ليسأله من فضله ، فيسأل ربه الثبات في الأمر ، والعزيمة على الرشد ، والعون على الطاعة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر:٦٠ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة:١٨٦] .

**ثامنًا** : ذكر الموت ، وسرعة انقضاء الدنيا ، فمن أكثر من ذكر الموت ازداد سعيه في الاستعداد له ، ومن عَلِمَ طول السفر ، وقُرْبَ الرحيل ، استكثر من الزاد ، وقد أمرنا النبي ﷺ بزيارة القبور ، لتَذَكُّرِ الموت ، والأموات ، والدار الآخرة ، كما قال ﷺ « كُنْتُ قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ ، أَلَا فَزُورُوهَا » .أخرجه أحمد والحاكم [(٢)] .

---

(١) أخرجه الترمذي برقم: (٢٤٥٩).

(٢) صحيح/ أخرجه أحمد برقم: (٢٣٠٥٣ )، والحاكم برقم: ( ١٣٩٣).

فزيارة القبور تُرق القلب ، وتُدمع العين ، وتُذَكَّر بالآخرة ، وتدعو النفس إلى المبادرة إلى الأعمال الصالحة ، والمسارعة في الخيرات .

- **صفات أهل الجد والاجتهاد :**

لأهل الجد والاجتهاد صفاتٌ بَيَّنَهَا الله ﷻ في كتابه ، فقال : ﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [التوبة:١١٢ ] .

ومن صفاتهم : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ وَٱلْخَـٰشِعِينَ وَٱلْخَـٰشِعَـٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَـٰتِ وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ وَٱلذَّـٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّـٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحزاب:٣٥] .

ومن صفاتهم ، كما قال سبحانه : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الفرقان:٦٣-٦٥] .

ومن صفاتهم : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والدعوة إلى الله ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٠٤] .

وقال سبحانه : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ ﴾ [آل عمران:١١٠ ] .

**وأهل الجد والاجتهاد يسيرون على أصولٍ عظيمة ، منها :**

**أولًا** : تقوى الله ﷻ ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران:١٠٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ [الطلاق:٢-٣] .

**ثانيًا** : عدم تأجيل عمل اليوم إلى غدٍ ، كما قال سبحانه : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [ المنافقون :٩- ١١ ] .

وقال الله تعالى عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنبياء:٩٠] .

**ثالثًا** : أن يُعطي العبد كل ذي حقٍ حقه ، كما قال النبي ﷺ : « إنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وإنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وإنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍ حَقَّهُ » .أخرجه البخاري[1] .

---

(١) أخرجه البخاري برقم: (٦١٣٩).

**رابعًا** : العمل ، فإن لم يستطع فليُعِن غيره ، فإن لم يستطع فليَكُفَّ شره عن الناس ، كما قال النبي ﷺ : « عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ » . ، قِيلَ : يَا رَسُولَ اللهَّ أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِدْ ؟ قَالَ : « يَعْتَمِلُ بِيَدِهِ ، فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ ، وَيَتَصَدَّقُ » . ، قِيلَ : يَا رَسُولَ اللهَّ : فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ ، أَوْ لَمْ يَفْعَلْ ؟ قَالَ : « يُعِينُ ذَا الحَاجَةِ المَلْهُوفَ » . ، قِيلَ : فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَوْ لَمْ يَفْعَلْ ؟ قَالَ : « يَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ » . ، قَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ ؟ قَالَ : « يَمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ ، فَإِنَّهُ لَهُ صَدَقَةٌ » .أخرجه مسلم[1] .

**خامسًا** : استحضار النية والهدف في كل عمل ، كما قال النبي ﷺ : « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ».متفق عليه[2].

وقال الله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف:١١٠] .

وقال الله تعالى ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾[البينة: ٥] .

**سادسًا**: البدءُ بالأهم ثم المهم ، وبالفرض قبل النفل ، وبالواجب قبل المستحب.

قال رسول الله ﷺ قال الله تعالى في الحديث القدسي : « وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ». أخرجه البخاري[3].

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٥٥/ ١٠٠٨).

(٢) متفق عليه ، أخرجه البخاري برقم: (٥٤ )، ومسلم برقم: ( ١٩٠٧).

(٣) أخرجه البخاري برقم: (٦٥٠٢ ).

فلابد لأهل الجد والاجتهاد أن يعلموا ويفقهوا دينهم ، فالفرائض مقدمة على النوافل ، والواجبات مقدمة على المستحبات ، فضلًا عن المباحات ، والفرض العيني مقدمٌ على الكفائي ، والواجب المُضَيَق مقدمٌ على الواجب المُوَسَّع .

قال النبي ﷺ : « مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ » .متفق عليه[1] .

وهل اللهو يتناقض مع الجد والاجتهاد في عبادة الله ﷻ ؟

النفوس ضعيفةٌ تَكَلُّ وتمَلُّ ، فلابد أن يكون للمرء وقتٌ يُرَوِّح فيه عن نفسه ، وأهله ، ورفقائه باللهو المباح ، لأن النفوس تمل وتكل ، والقلب إذا أُكره ومَلَّ عَمِيَ .

وقد سابق رسول الله ﷺ عائشة رضي الله عنها في السفر مرتين ، وأَذِنَ لها أن تنظر إلى الحبشة ، وهم يلعبون بحرابهم في المسجد ، وكان ﷺ يمازح أصحابه ولا يقول إلا حقًا .

وإنما يتناقض اللهو مع جد المسلم واجتهاده ، عندما يتعدَّى المسلم بلهوه على الحقوق المُناطة به ، فيُقصر في حق ربه ، أو في رعاية أهله ، أو في تربية نفسه و تهذيبها ونحو ذلك ، أو يغلب عليه ذلك ، فيلهو في مواضع الجد ، وقد نهى الله عن ذلك بقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ ﴾ [ المنافقون : ٩ ] .

ولا يعني الجد والاجتهاد أن يكون المسلم عابس الوجه ، مُقَطِّب الجبين ، فالعبوس ليس من سُنَّة سيد المرسلين ﷺ فقد كان البِشْرِ يعلو محُيَاَّه الشريف.

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٧٣١٢)، ومسلم برقم: (١٠٠/ ١٠٣٧)، واللفظ له.

وقال جرير ﷺ « مَا رَآنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ قَطُّ ، إِلا تَبَسَّمَ فِي وَجْهِي » . أخرجه البخاري[1] .

فالجاد والمجتهد ودودٌ ، لطيفٌ ، رحيم ، هينٌ ، لينٌ ، لأنه قدوة للناس في جديته ، وفي أقواله ، وفي أعماله ، وفي أخلاقه ، وحُسن عُشرَته .

وخير المجتهدين هو النبي ﷺ ولنا به أسوة .

قال الله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[الأحزاب:٢١] .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾[الأعراف:١٥٨] .

(١) أخرجه البخاري برقم: (٦٠٨٩)، ورقم: (٣٠٣٥).

# موسوعة خزائن العلوم الإسلامية

## ٦٢-خزائن التوبة والاستغفار

وتشتمل على ما يلي:

١- الخزانة الأولى

٢- الخزانة الثانية

٣- الخزانة الثالثة

٤- الخزانة الرابعة

٥- الخزانة الخامسة

٦- الخزانة السادسة

٧- الخزانة السابعة

٨- الخزانة الثامنة

٩- الخزانة التاسعة

١٠- الخزانة العاشرة

# ٦٢-خزائن التوبة والاستغفار

## ١- الخزانة الأولى

- **فقه الجزاء من جنس العمل :**

الثواب والعقاب يكونان من جنس العمل في قدر الله وشرعه، كما قال سبحانه : ﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ ﴾[النساء:١٤٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾[الأنعام:١٦٠]

وقال النبي ﷺ : « مَنْ لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ » . متفق عليه [(١)] .

وهذا هو العدل الذى قامت به السموات والأرض ، وبه تصلح الدنيا والآخرة ، ويصلح به الدين والدنيا : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾[ النحل :٩٠ ] .

ولهذا أمر الله ﷻ بقطع يد السارق ، وشرع قطع يد المحارب ورجله ، وشرع القصاص في الدماء والأموال والأبدان : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾[ المائدة : ٣٨ ].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٥٩٩٧)،واللفظ له،وأخرجه مسلم برقم: ( ٦٥/ ٢٣١٨).

والجزاء مماثل للعمل من جنسه في الخير والشر ؛ فمن ستر مسلمًا ستره الله ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا ، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة . ومن أقال نادمًا أقال الله عثرته يوم القيامة ، ومن أحسن إلى عباد الله أحسن الله إليه ، ومن تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ، ومن ضار مسلمًا ضار الله به ، ومن شاق مسلمًا شاق الله عليه ، ومن خذل مسلمًا في موضع يجب نصرته فيه خذله الله في موضع يحب نصرته فيه ، ومن أَنفق أُنفق عليه ، ومن أَوعى أُوعي عليه ، ومن يسر يسر الله عليه ، ومن عفا عن حقه عفا الله له عن حقه ، ومن تجاوز عن غيره ، تجاوز الله عنه ، ومن استقصى استقصى الله عليه : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ ﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤].

ومن سمح سمح الله عنه ، ومن رحم خلق الله رحمه الله ، ومن عفا عنهم عفا الله عنه ، ومن ظلمهم سلط الله عليه من يظلمه .

ﷺ : « رَحِمَ اللهُ امرئ سَمْحًا إِذَا بَاعَ سَمْحًا إِذَا اشْتَرَى سَمْحًا إِذَا اقْتَضَى » . أخرجه البخاري [1] .

والراحمون يرحمهم الرحمن ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء ، والله سبحانه أتقن كل شيء صنعه ، وأحسن كل شيء خلقه ، فهو عند مبدأ خلقه بريء من الآفات والعلل ، تام المنفعة لما هيئ وخُلق له ، وإنما تعرض له

(١) أخرجه البخاري برقم: (١٩٧٠).

الآفات غالبًا بعد ذلك بأمور أخر تقتضي فساده ، ولو تُرك على خلقته الأصلية لم يفسد : ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [ النمل : ٨٨ ] .

ومن له معرفة بأحوال العالم ومبدئه يعرف ، أن جميع الفساد في جوه ونباته وحيوانه ، وأحوال أهله ، حادث بعد خلقه ، بأسباب اقتضت حدوثه .

ولم تزل أعمال بني آدم ومخالفتهم للرسل ، تحدث لهم من الفساد العام والخاص ، ما يجلب عليهم من الآلام والأمراض ، والأسقام والطواعين ، والقحط والجدب، وسلب بركات الأرض وثمارها ونباتها ، وسلب منافعها أو نقصانها ، ونحو ذلك من حصول الخوف والجوع وتسلط الأعداء كما قال سبحانه : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم:٤١] .

وكلما أحدث الناس ظلمًا وفجورًا ، أحدث لهم ربهم تبارك وتعالى من الآفات والعلل في أغذيتهم وفواكههم ، وهوائهم ، ومياههم ، وأبدانهم ، وصورهم ، وصفاتهم ، وأخلاقهم ، من النقص والآفات ، ما هو من موجب أعمالهم وظلمهم وفجورهم : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأعراف:٩٦] .

وأكثر هذه الأمراض والآفات بقية عذاب عذبت به الأمم السابقة، ثم بقيت منها بقية أُرصدت لمن بقيت عليه بقية من أعمالهم، حكمًا قسطًا ، وقضاءً عدلًا : ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [ الأحزاب : ٦٢ ] .

والله ﷻ بحكمته ورحمته جعل أعمال البر والفاجر مقتضية لآثارها في هذا العالم اقتضاء لا بدَّ منه، فجعل منع الإحسان والزكاة والصدقة سببًا لحصول القحط والجدب ، ومنع نزول الغيث ، وجعل ظلم المساكين ، والبخس في الموازين ، وتعدى القوى على الضعيف سببًا لجور الملوك والولاة الذين لا يرحمون إذا استرحموا : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾[ الشورى :٣٠ ] .

وهم في الحقيقة أعمال الرعايا ظهرت في صورة ولاتهم ، فإن الله سبحانه بحكمته يظهر للناس أعمالهم في صور تناسبها .

تارة بالقحط، وتارة بالجدب، وتارة بأمراض عامة، وتارة بهموم وآلام، وتارة بولاة جائرين وتارة بعدو، وتارة بمنع بركات السماء والأرض، وتارة بتسلط الشياطين عليهم تؤزهم إلى أسباب العذاب أزًا ، لتحق عليهم كلمة الله ، وليصير كل منهم إلى ما خلق له كما قال سبحانه : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ ﴾[النساء:١٢٣] .

فكل صلاح في العالم سببه توحيد الله ، وعبادته ، وطاعة رسوله ﷺ ، وكل شر وبلاء في العالم فسببه الكفر ، ومخالفة أوامر الله .

ومن رحمة الله ﷻ أن شرع العقوبات في الجنايات الواقعة بين الناس في النفوس والأبدان والأعراض والأموال كالقتل والجراح ، والقذف والسرقة ونحوها : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ

ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص:٢٦] .

فأحكم سبحانه وجوه الزجر الرادعة عن هذه الجنايات غاية الإحكام ، مع عدم المجاوزة لما يستحقه الجاني من الردع .

فلم يشرع الله في الكذب قطع اللسان ولا القتل ، ولا في الزنا الخصا ، ولا في السرقة قتل النفس ، ولا في القذف إزهاق الروح .

وإنما شرع سبحانه ما هو موجب أسمائه وصفاته من رحمته وحكمته وعدله وإحسانه ولطفه ، لتزول النوائب ، وتنقطع الأطماع عن العدوان ، ويقتنع كل إنسان بما آتاه خالقه ومالكه ، فلا يطمع في استلاب حق غيره ظلمًا وعدوانًا .

ولهذه الجنايات مراتب مختلفة في القلة والكثرة ، ودرجات متفاوتة في شدة الضرر وخفته ، كتفاوت سائر المعاصي في الكبر والصغر ، والقلة والكثرة .

ومعلوم أن الضربة بالعود لا يصح إلحاقها في العقوبة بالضربة بالسيف ، ولا النظرة المحرمة بعقوبة مرتكب الفاحشة ، ولا الشتم الخفيف بالقذف بالزنا، ولا سرقة اللقمة والفلس بسرقة المال الكثير ، فلما تفاوتت مراتب الجنايات ، لم يكن بد من تفاوت مراتب العقوبات ، ومعلوم أن الناس لو وكلوا إلى عقولهم في معرفة ذلك ، وترتيب كل عقوبة على ما يناسبها من الجناية جنسًا ووصفًا وقدرًا ، لذهبت بهم الآراء كل مذهب ، ولعظم الاختلاف ، واشتد الخطب ، لقصور علمهم ، وضعف رؤيتهم ، واختلاف مداركهم وعقولهم .

فكفاهم أرحم الراحمين مؤنة ذلك ، وأزال عنهم كلفته ، وتولى بحكمته وعلمه ورحمته تقديره نوعًا وقدرًا ، ورتب على كل جناية ما يناسبها من

العقوبة وما يليق بها من النكال ، فكانت عدلًا ورحمة : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل:٨٩ ] .

ثم بلغ من سعة رحمته وجوده سبحانه أن جعل تلك العقوبات كفارات لأهلها ، وطهرة تزيل عنهم المؤاخذة بالجنايات إذا قدموا عليه ، لاسيما مع التوبة منها، فرحمهم الله سبحانه بهذه العقوبات أنواعًا من الرحمة في الدنيا والآخرة : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾[الإسراء:٨٢] .

- **فقه العقوبات الشرعية :**

**جعل الله سبحانه هذه العقوبات دائرة على ستة أصول :**

١- القتل .
٢- والقطع .
٣- والجلد .
٤- والنفي .
٥- وتغريم المال .
٦- والتعزير

فالقتل جعله الله عقوبة على أعظم الجنايات كالجناية على النفس ، وكالجناية على الدين بالطعن فيه ، والارتداد عنه ، فهذه الجناية أولى بالقتل وكف عدوان الجاني من كل عقوبة ، إذ بقاء هذا الجاني بين أظهر العباد مفسد لهم ، ولا خير يرجى في بقائه ولا مصلحة ، فهو كالعضو الفاسد فناسب بتره وقطع دابره ؛ صيانة للدين وأهله من شره .

وجعله كذلك عقوبة القتل على الجناية على الفروج المحرمة كالزاني المحصن ؛ لما في جنايته من المفاسد العظيمة ، واختلاط الأنساب .

وأما القطع ، فجعل عقوبة مثله عدلًا ، وعقوبة السارق الذي اقتطع مال غيره ، فكان أليق العقوبات به ، إبانة العضو الذي جعله وسيلة إلى أذى الناس ، وأخذ أموالهم : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾: [المائدة:٣٨].

ولما كان ضرر المحارب أشد من ضرر السارق ، وعدوانه أعظم ، ضم إلى قطع يده قطع رجله ، ليكف عدوانه عن الناس ، ورحمه بأن جعل القطع من خلاف فأبقى له يدًا من شق ، ورجلًا من شق : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾[ المائدة : ٣٣ ] .

وأما الجلد فجعله سبحانه عقوبة على الجناية على الأعراض ، وعلى العقول وعلى الأبضاع ، ولم تبلغ هذه الجنايات مبلغًا يوجب القتل ، ولا إبانة الطرف .

فسبحان الحكيم العليم بخلقه ، جعل إتلاف النفوس في مقابلة أكبر الكبائر وأعظمها ضررًا ، وأشدها فسادًافي العالم وهي :

الكفر الأصلي والطارئ ، والقتل ، والزنا من المحصن .

وإذا تأمل العاقل فساد الحياة رآها من هذه الجهات الثلاث .

وقد سأل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم ؟ فقال : « أنْ تجْعَلَ لله نِدّاً وَهُوَ خَلَقَكَ قُلْتُ : إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ ، قُلْتُ : ثُمَّ أيٌّ ؟ قَالَ :

أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ » . قُلْتُ : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : « أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ » . متفق عليه[1] .

فأنزل الله تصديق ذلك بقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [ الفرقان : ٦٨- ٧٠ ] .

ثم لما كانت سرقة الأموال تلي ذلك في الضرر ، وهو دونه ، جعل عقوبته قطع اليد ، ثم لما كان القذف دون سرقة المال في المفسدة ، جعل عقوبته دون ذلك وهو الجلد : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [ النور : ٤ ] .

ثم لما كان شرب المسكر أقل مفسدة من ذلك جعل حده دون حد هذه الجنايات كلها .

ثم لما كانت مفاسد الجرائم بعد متفاوتة غير منضبطة في الشدة والضعف ، والقلة والكثرة ، وهي ما بين النظرة ، والخلوة ، والمعانقة ، جعلت عقوباتها راجعة إلى اجتهاد الإمام وولاة الأمور بالتعزير بحسب المصلحة ، في كل زمان ومكان ، وبحسب أرباب الجرائم أنفسهم بمعاقبتهم بما يردعهم ، ويكف شرهم ، ويصلح أحوالهم ، وحال الأمة : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [ النحل : ٨٩ ] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٧٥٢٠)، واللفظ له، ومسلم برقم: (١٤١/ ٨٦).

والحسنات والسيئات ، يراد بها أعمال الخير ، وأعمال الشر ، كما يراد بها النعم والمصائب ، والجزاء ، من جنس العمل :

فمن عمل خيرًا وحسنات لقي خيرًا وحسنات ، ومن عمل شرًا وسيئات لقي شرًا وسيئات .

وقصد الخير في الدنيا جزاؤه الهدى إلى طريق الجنة كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ ﴾ [يونس:٩] .

وقصد الشر في الدنيا جزاؤه الهدى إلى طريق النار كما قال سبحانه : ﴿ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الصافات:٢٢ -٢٣] .

والراحمون يرحمهم الرحمن، ومن رحم من في الأرض رحمه من في السماء، فالجزاء أبدًا من جنس العمل ، وكما تدين تدان .

قال النبي ﷺ : « مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا ، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا ، سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا ، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ ». أخرجه مسلم[1] .

ومن سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٣٨/ ٢٦٩٩).

ومن ثواب الحسنة الحسنة بعدها كما قال سبحانه : ﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ٦٦ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٦٧ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٦٨﴾[النساء:٦٦ -٦٨] .

ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها كما قال سبحانه : ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ﴾[المائدة:١٣] .

والله ﷻ على صراط مستقيم في قضائه وقدره ، وفي أمره ونهيه ، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم بفضله ورحمته ، ويصرف من يشاء عن صراطه المستقيم بعدله وحكمته لعدم صلاحية المحل ، فهو سبحانه على صراط مستقيم كما قال سبحانه : ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۡۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦﴾[هود:٥٦] .

ونصب الله لعباده من أمره صراطًا مستقيمًا دعاهم جميعًا إليه كما قال سبحانه : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾[الأنعام: ١٥٣] .

فإذا كان يوم لقائه نصب لخلقه صراطًا مستقيمًا يوصلهم إلى الجنة ، ثم صرف عنه من انصرف عنه في الدنيا ، وأقام عليه من اتبع صراطه المستقيم في الدنيا .

وجعل نور المؤمنين به الذي كان في قلوبهم في الدنيا نورًا ظاهرًا يسعى بين أيديهم وبأيمانهم في ظلمة الحشر والموقف ، وحفظ عليهم نورهم حتى قطعوه كما حفظ عليهم الإيمان حتى لقوه .

وأطفأ نور المنافقين أحوج ما كانوا إليه كما أطفأه من قلوبهم في الدنيا :﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾[الحديد:١٢] .

فمن لم يقبل نور الإيمان في الدنيا ، فلا حظَّ له في النور يوم القيامة ، فهو أعمى وفي الظلمات فأنى يهتدي وينجو كما قال سبحانه : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾[الحديد:١٣] .

وأقام سبحانه أعمال العصاة على جنبتي الصراط كلاليب وحسكًا تخطفهم إلى النار ، كما خطفتهم شياطين الدنيا عن الاستقامة على الصراط المستقيم .

وجعل سبحانه قوة سير الناس على الصراط على قدر قوة سيرهم في الدين ، وسرعتهم إليه في الدنيا .

ونصب للمؤمنين حوضًا يشربون منه بإزاء شربهم من شرعه في الدنيا ، وحَرَمَ من الشرب منه هناك من حَرَمَ نفسه من الشرب من شرعه ودينه في الدنيا ، فالدنيا مزرعة الآخرة : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾[الزلزلة: ٦-٨] .

# ٢- الخزانة الثانية

- **فقه الجزاء من جنس العمل :**

من هداه الله في هذه الدنيا إلى صراطه المستقيم ، الذي أرسل به رسله ، وأنزل به كتبه ، هداه هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنته ، ودار ثوابه : ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة:١٥-١٦] .

وعلى قدر سيره على هذا الصراط في الدنيا ، سيكون سيره على ذاك الصراط المنصوب على متن جهنم : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾ [ هود :١١٢ ] .

فمن الناس من يمر كالبرق ، ومنهم من يمر كالطرف ، ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم كالطير ، ومنهم كأجاود الخيل .

وقد سئل النبي ﷺ عن الجسر فقال : « دَحْضٌ مَزِلَّةٌ ، فِيهِ خَطَاطِيفُ وَكَلالِيبُ وَحَسَكٌ ، تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لهَا السَّعْدَانُ ، فَيَمُرُّ المُؤْمِنُونَ ، كَطَرْفِ الْعَيْنِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالرِّيحِ وَكَالطَّيْرِ وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَاب ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ ، وَمخْدُوشٌ مُرْسَلٌ ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ » . متفق عليه[1] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٧٤٣٩)، ومسلم برقم:٣٠٢/ ١٨٣، واللفظ له.

فلينظر العبد إلى الشبهات والشهوات والمظالم التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم ، فإنها الكلاليب التي بجنبتي الصراط تخطفه وتعوقه عن المرور عليه ، فإن كثرت ها هنا وقويت فكذلك هي هناك : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾[فصلت:٤٦] .

والله عليم خبير ، يجزي الإنسان بجنس عمله ، فمن خالف الرسل عوقب بمثل ذنبه ، فإن قدح فيهم ونسب ما يقولون إلى أنه جهل ، وخروج عن العلم والعقل ، ابتلي في عقله وعلمه ، وظهر من جهله ما عوقب به . ومن قال عنهم : إنهم تعمدوا الكذب أظهر الله كذبه ، ومن قال : أنهم جهال أظهر الله جهله بين خلقه وخذله .

ففرعون وهامان وقارون لما قالوا عن موسى ﷺ إنه ساحر كذاب ، أهلك الله فرعون ، وأظهر كذبه وافتراءه على الله وعلى رسله ، وأذله غاية الإذلال، وأعجزه عن الكلام النافع ، فلم يبين حجة ، وكذلك خسف الله بقارون وماله : ﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[الذاريات:٣٨ - ٤٠] .

وقال الله عن قارون : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾[ القصص :٨١ ] .

وفرعون هذه الأمة أبو جهل ، أهلك بجهله نفسه وأتباعه في الدنيا والآخرة ، والذين قالوا عن رسول الله ﷺ إنه أبتر عوقبوا بانبتارهم ، فلا يوجد من شنأ الرسول ﷺ إلا بتره الله ، حتى أهل البدع المخالفون لسنته كما قال

سبحانه : ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾[الكوثر:١-٣] .

ومن احتال على إباحة ما حرمه الله بالحيل ، عاقبه الله بنقيض قصده ، كما احتال أصحاب السبت فلعنهم الله ، ومسخهم قردة وخنازير ، جزاء احتيالهم على فعل ما حرمه الله عليهم كما قال سبحانه : ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ٦٥﴾[البقرة:٦٥] .

فهؤلاء احتالوا على وقوع الحيتان يوم السبت ، وأخذوها يوم الأحد ، فلما مسخ أولئك المعتدون دين الله ، بحيث لم يتمسكوا إلا بظاهره دون حقيقته ، مسخهم الله قردة تشبه الإنسان في بعض ظاهره دون الحقيقة ، جزاءً وفاقًا .

وحياة القلب بالإيمان ، فإذا أمد الله عبده بهذه الحياة أثمرت له محبة الله ، وإجلاله ، وتعظيمه ، والحياء منه ، ومراقبته ، وحسن التوكل عليه ، وحياة النفس وسعادتها بهذه الحياة : ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٢﴾[الأنعام:١٢٢] .

ومتى فقدت هذه الحياة ، عاش الإنسان في الدنيا ليس بحي الحياة النافعة التي خلق من أجلها ، بل كانت حياته من جنس حياة البهائم ، ولم يكن ميتًا عديم الإحساس كان في الآخرة كذلك : ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾[ الأعراف : ١٧٩ ] .

فحياة البدن بالطعام ، وحياة القلب بالإيمان ، وحياة الإنسان بدون الإيمان حياة ضالة معذبة شقية ، لم تسترح راحة الأموات ، ولم تعش عيشة الأحياء السعداء ، وفي الآخرة كذلك ، كما قال سبحانه : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ [الأعلى:٩-١٣] .

ومن أعرض عن الذكر الذي بعث الله به رسوله ﷺ ، وعميت عنه بصيرته ، أعمى الله بصره يوم القيامة ، وتركه في العذاب كما ترك الذكر في الدنيا كما قال سبحانه : ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [الإسراء:٩٧] .

والإنسان الطَّيِّب يتفجر الطِّيْب من قلبه على لسانه وجوارحه ، والخبيث يتفجر من قلبه الخبث على لسانه وجوارحه ، وقد يكون في الإنسان مادتان : طيْب وخبيث ، فأيهما غلب عليه كان من أهلها : ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [ الأعراف : ٥٨ ] .

فإذا أراد الله بعبده خيرًا طهره من المادة الخبيثة قبل الموت، فيوافيه يوم القيامة مطهرًا من الذنوب بما يوفقه له من التوبة النصوح، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة، فلا يحتاج إلى تطهيرٍ بالنار يوم القيامة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى

﴿ مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾ ﴾ [ محمد : ١٢ ] .

ويمسك سبحانه عن الآخر مواد التطهير ، فيلقاه يوم القيامة بمادة خبيثة ومادة طيبة ، وحكمة الله تأبى أن يجاوره أحد في داره الطيبة بخبائثه ، فيدخله النار طهرة له وتصفيه ، فإذا خلص من الخبث صلح حينئذ لجوار ربه ومساكنة الطيبين من عباده : ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ﴿٥٤﴾ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۢ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القمر:٥٤-٥٥] .

وإقامة هذا النوع من الناس في نار جهنم يوم القيامة على حسب سرعة زوال تلك الخبائث منهم وبطئها ، وأكثر المسلمين لا بدَّ له من التطهير ، فإن الجهل والغفلة والحرص ، يولد كثرة المعاصي والذنوب لا محالة .

ولهذا قال سبحانه : ﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ﴿٧٢﴾ ﴾ [مريم:٧١-٧٢] .

ولما كان المشرك نجس خبيث العنصر ، خبيث الذات ، لم تطهر النار خبثه ، بل لو خرج منها لعاد خبثًا كما كان ، كالكلب إذا دخل البحر ثم خرج منه ، فلذلك حَرَّم الله على المشرك الجنة كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾ ﴾ [المائدة:٧٢] .

ولما كان المؤمن الطيب مبرءًا من الخبائث كانت النار حرامًا عليه ، إذ ليس فيه ما يقتضي تطهيره بها ، فيحفظه ويوصله إيمانه إلى محبته وجنته كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الكهف:١٠٧-١٠٨] .

فسبحان من بهرت حكمته العقول والألباب ، رب العالمين ، وأحكم الحاكمين .

والجزاء من جنس العمل كما قال النبي ﷺ : « يَقُولُ الله تَعَالَى : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعاً ، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً ». متفق عليه[1] .

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٧٤٠٥)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٢/ ٢٦٧٥).

- **فقه التخلص من المعاصي :**

العارف بالله حقًا ، من يعظم ربه أمام الناس ليعظموه ، ويكبره أمامهم ليكبروه ، فإذا عظموه عظموا كلامه ، وعظموا أوامره ، فأطاعوه ، وتجنبوا معاصيه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ ﴾ [ المدثر : ١ - ٧ ] .

وكذلك يحبب الله لخلقه بذكر آلائه وإنعامه وإحسانه ، وصفات كماله ، ونعوت جلاله ، فالقلوب مفطورة على حب من أحسن إليها ، فإذا ذكرت آلاء الله وإنعامه تعلقت بحبه النفوس ، وهان عليها ترك الذنوب ، وترك الإصرار عليها ، ونشطت وتلذذت بطاعته : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾[لقمان:٢٠] .

وقال الله تعالى:﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[النحل:٥٣] .

وقال الله تعالى:﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[إبراهيم:٣٤] .

فالعارف لا يأمر الناس بترك الدنيا ، فإنهم لا يقدرون على تركها لأول وهلة ، ولكن يأمرهم بترك الذنوب مع إقامتهم على دنياهم ؛ لأن ترك الدنيا فضيلة ، وترك الذنوب فريضة ، فلا يؤمر بالفضيلة من لم يقم بالفريضة . وترك الدنيا التي تشغل العبد عن الله صعب على النفوس ، فإن الفطام عن الثدي الذي ما عقل الإنسان نفسه إلا وهو يرتضع منه شديد : ﴿ فَأَقِمْ

وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[الروم:٣٠] .

وليس المراد ترك أسباب الكسب ، فإن الدنيا دار الأسباب الدنيوية والأخروية ، وإنما المراد التقلل منها ، والأخذ منها بقدر الحاجة ، وإنفاق ما سوى ذلك في مرضاة الله : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾[القصص: ٧٧] .

وقال الله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ ﴾[فاطر:٥].

فمن قوى على مرارة الفطام فذلك خير ، وإلا فليرتضع بقدر ، حتى يأذن الله له بمعرفة الباقي من الفاني فيؤثره : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾[ النازعات : ٣٧ -٤١ ] .

ويهون على العبد ترك الذنوب والمعاصي ، إذا علم أن في تركها مرضاة الرب ، ومحبة الرب ، ومحبة الخلق ، وصلاح المعاش ، وراحة البدن ، وقوة القلب ، وانشراح الصدر ، ونعيم القلب وحصول المروءة ، وصون العرض ، وقلة الهمّ والغمّ والحزن ، وعز النفس عن احتمال الذل ، وصون نور القلب أن تطفئه ظلمة المعاصي : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[الأعراف:٩٦] .

ويسهل على الإنسان ترك المعاصي ، إذا عرف عظمة ربه وجلاله ، وغزارة نعمه عليه وعلى غيره ، ولاحظ عفوه وإحسانه ، فلا يليق بمن هذه عظمته ، وهذه نعمه ، أن يعصيه ، بل الواجب طاعته ، وشكر نعمه ، والتسبيح بحمده سرًا وجهرًا ، ليلًا ونهارًا : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾[الزمر:٩].

وقال الله تعالى:﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الرعد:١٩] .

ويسهل عليه كذلك ترك الذنوب والمعاصي ، إذا علم أن في تركها تيسير الرزق عليه ، ووصوله إليه من حيث لا يحتسب ، وحصول البركة فيه ، وتيسير ما عسر على أرباب الفسوق والمعاصي ، وتسهيل الطاعات عليه ، وكثرة الدعاء له والحلاوة التي يكتسبها في وجهه ، والمهابة التي تلقى له في قلوب الناس وانتصارهم له إذا أوذي أو ظلم : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾[الطلاق:٢-٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾[مريم:٩٦] .

**ومما يسهل على المسلم ترك الذنوب والمعاصي :**

زوال الوحشة التي بينه وبين الله ، وقرب الملائكة منه ، وبعد الشياطين عنه ، وسرعة إجابة دعائه ، وتنافس الناس على خدمته وقضاء حوائجه ، ورغبتهم

في صحبته ، وعدم خوفه من الموت وصغر الدنيا في قلبه ، وكبر الآخرة عنده ، وذوق حلاوة الطاعات ، ووجدان حلاوة الإيمان في قلبه ، ودعاء حملة العرش ومن حوله من الملائكة له كما قال سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ ﴾ [ غافر : ٧ ] .

فهذه بعض آثار ومنافع وثمرات ترك المعاصي في الدنيا .

أما في الآخرة فإذا كان يوم القيامة كان الناس في الحر والعرق ، وهو في ظل عرش الرحمن ، فإذا انصرفوا بعد الحساب من بين يدي الله ، أخذت به الملائكة ذات اليمين ، إلى جنات النعيم ، مع أوليائه المتقين ، وحزبه المفلحين ، حيث النعيم المقيم ، يتجول بين القصور ، ويتلذذ بالنساء والحور ، ويتنعم بالأكل من ألوان الأطعمة والفواكه ، ويشرب من أنهار اللبن والماء والعسل والخمر ، وغير ذلك من أنواع النعيم الذي لم يخطر بباله : ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧ ﴾ [السجدة: ١٧ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ١٥ ﴾ [ محمد : ١٥ ] .

وفوق ذلك كله تمتع برؤية ربه ، وفوزه برضوانه كما قال سبحانه : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ

طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾[التوبة:٧٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾[ القيامة :٢٢- ٢٣ ] .

فهل يزهد في هذا النعيم من له أدنى مسكة من عقل ؟ وهل يحرم نفسه منه بمعصية من يملكه إلا مارج العقل والدين ؟ .

إنه ليس في الآخرة إلا نعيم أو عذاب ، وإكرام أو إهانة ، وسعادة أو شقاوة ، مع الخلود والتأبيد ، ولكل دار عمل وعمال : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[الروم:١٤-١٦] .

والعاقل إنما يقدم طاعة الله على طاعة النفس ، ومحبوبات الله على محبوبات النفس ، وطاعة الرحمن على طاعة الشيطان ، ويقدم الدار الباقية على الدار الفانية : ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾ [الجمعة:٤] .

**المعاصي والذنوب ضربان :**

كبائر .. وصغائر .

فالكبائر تكفرها التوبة النصوح ، كما قال سبحانه : ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾[المائدة:٣٩] .

وقال ﷻ : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾[النساء:١١٠ ] .

أما تكفير الصغائر فيقع بشيئين :

**أحدهما** : فعل الحسنات الماحية كما قال سبحانه : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [هود:١١٤] .

**الثاني** : اجتناب الكبائر كما قال سبحانه : ﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ ﴾[النساء:٣١] .

وقال النبي ﷺ : « الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ ، وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ ، كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ ، مَا لَمْ تُغْشَ الْكَبَائِرُ » . أخرجه مسلم[1].

**وقد خلق الله الإنسان ضعيفًا من جميع الوجوه :**

فهو ضعيف البنية ، ضعيف الإرادة ، ضعيف القوة ، ضعيف العلم ، ضعيف الصبر ، فلا بدَّ له من حافظ معين يقويه ويعينه وينصره وإلا هلك .

وخلقه على هذه الصفة من الأمور التي يحمد عليها الله سبحانه ، وهو بالنسبة إلى الخالق خير وعدل ، وحكمة ورحمة وإحسان : ﴿ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾ ﴾[النساء: ٢٨] .

والله رءوف بالعباد ؛ خلقهم في أحسن تقويم ، وأنزل عليهم صراطه المستقيم ، وهو الدين الحق الذي إذا ساروا عليه ، أسعدهم الله في الدنيا والآخرة : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (١٤/ ٢٣٣).

ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾[النساء:٢٦-٢٨] .

فخلق الإنسان على هذه الصفة من الأمور التي يحمد عليها الله سبحانه ، وهو بالنسبة للخالق كله خير وعدل وحكمة ، وبالنسبة إلى العبد ينقسم إلى خير وشر ، وطاعة ومعصية ، فالإنسان ضعيف ، تارة يتبع الشهوات ، وتارة ينفذ أوامر الرب ، حسب قوة الإيمان وضعفه .

وشهوة الطعام والشراب ، وشهوة الفرج ، من أعظم الشهوات ، فلهذا أباح الله لنا جميع الطيبات ، وحرم علينا الخبائث ، وأباح لنا أن ننكح ما طاب لنا من النساء مثنى وثلاث ورباع ، وأن نتسرى من الإماء بما شئنا : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾[البقرة:٢٩] .

وقال الله تعالى:﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [البقرة:١٧٣] .

فنأخذ من الدنيا بقدر الحاجة ، ونعطي للدين بقدر الطاقة : ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ ﴾[الحج:٧٨] .

وقال الله تعالى:﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [البقرة:٦٣] .

**والعبد له في باب الشهوات ثلاثة أحوال :**

١ - حالة جهل بما يحل له ، ويحرم عليه .

٢- وحالة تقصير وتفريط .

٣- وحالة ضعف وقلة صبر .

فقابل سبحانه جهل العبد بالبيان والهدى ، وقابل تقصيره وتفريطه بالتوبة ، وضعفه وقلة صبره بالتخفيف، كما قال سبحانه : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء:٢٦-٢٨] .

ويهوَّن على العاصي ترك الذنوب ، إذا علم أنه سوف يحاسب عليها ، وأنه سوف يمكث في النار بحسب قلتها أو كثرتها ، وأنه في الدنيا لا يطيق حرارة الشمس ، ولا شدة البرد ، فكيف يطيق عذاب جهنم يوم القيامة ؟ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء:٥٦] .

وعذاب الدنيا الذي يحصل للعصاة بسبب معاصيهم شديد ، وعذاب الآخرة أشد وأبقى وأخزى ، وذلك بسبب قوته وشدته ، وبسبب دوامه وعدم انقطاعه ، وبسبب كثرة أنواعه ، وبسبب اليأس من زواله ، وبسبب أنه لا يختلط به شيء من موجبات الراحة كما قال سبحانه عن الكفار والعصاة : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الرعد:٣٤] .

اللهم إنا نسألك الجنة ، وما قرب إليها من قول أو عمل ، ونعوذ بك من النار ، وما قرب إليها من قول أو عمل .

# ٣- الخزانة الثالثة

- **فقه التخلص من المعاصي والذنوب :**

من كان بالله أعرف كان منه أخوف ، وكل من كملت عظمة الخالق في قلبه ، عظمت عنده مخالفته : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾[محمد:١٩] .

ومن عرف قدر نفسه ، وفقرها الذاتي إلى مولاها ، وشدة حاجتها إليه ، عظمت عنده الجناية ، ومخالفة من هو شديد الضرورة إليه في كل لحظة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾[فاطر:١٥] .

ومن عرف حقارة الجناية ، مع عظم قدر من خالفه ، عظمت عنده الجناية ، فشمر في التخلص منها .

وبحسب تصديق الإنسان بالوعيد ، ويقينه به ، يكون تشميره في التخلص من الجناية التي تسبب عقوبته وهلاكه كما قال سبحانه : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾[إبراهيم:١٤] .

**والمعاصي والبدع ضربان :**

صغائر .. وكبائر .

والكبائر : كل ما اقترن بالنهي عنه وعيد من لعن، أو غضب ، أو عقوبة، وكل ما لم يقترن بالنهي عنه شيء من ذلك فهو صغيرة .

ومن اجتنب الكبائر ، كفر الله عنه الصغائر : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾[ النساء :٣١ ].

**والمعصية لا تكون صغيرة إلا بشروط :**

**الأول** : أن لا يداوم عليها ، فإن داوم عليها ، فهو مصر عليها ، والإصرار على الصغيرة يصيرها كبيرة .

**الثاني** : أن لا يدعو الناس إليها ، فما كان بين العبد وربه ترجى معه التوبة والمغفرة ، فإن دعا إليها فعليه وزرها ، ووزر من عمل بها .

**الثالث** : أن لا يفعلها في مجامع الناس كالمساجد والأسواق ، وأماكن إقامة السنن ، فهذا من أضر الأشياء على الناس ، لكثرة من يقتدي به فيما يعمل في تلك الأماكن .

**الرابع**: أن لا يستصغرها ولا يحتقرها ، فالاستهانة بالذنب أعظم من الذنب . والذنوب كلها بالنسبة إلى الجرأة على الله سبحانه ، ومخالفة أمره ، كبائر ، وذلك بالنظر إلى من عصيت أمره ، وانتهكت محارمه ، ومن تأكل من رزقه ، وتسكن في ملكه ، فكيف تعصيه : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف:١٧٩] .

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [ محمد : ١٢] .

والمعصية تتضمن الاستهانة بالآمر ، والاستهانة بأمره ، والتوثب على حق الرب جل جلاله ، وذلك كله يحتاج من العبد إلى التوبة والاستغفار : ﴿

وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [النساء:١١٠ ] .

إن أول ما يفسد من الشجرة الجذور ، ثم ينتشر الفساد على باقي الشجرة ، ثم تتعفن الثمرة ، وكذلك الإنسان أول ما يفسد قلبه ، ثم تفسد معاملاته ، ومعاشراته ، وأخلاقه ، ثم تفسد عباداته ، ثم يتحول من جند الرحمن إلى جند الشيطان .

قال ال[illegible] ﷺ : « أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً ، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ ، فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ ». متفق عليه[1].

وإذا تذكر العبد أن الذي خلقه هو الله ، وأن الذي يرزقه هو الله ، وأن الذي أعطاه العقل والسمع والبصر هو الله ، وأن الذي أسكنه في الأرض هو الله ، وأن الذي هداه هو الله ، إذا ذكر هذا علم أن من هذه صفاته ، وهذه أفعاله ، وهذا إكرامه ، لا يليق به إلا الطاعة التامة ، والمحبة التامة ، والتعظيم الكامل ، وأن معصيته لا تليق بالإنسان فكيف بالعاقل ، فكيف بالمسلم : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة:١٥-١٧ ].

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [ الزمر : ٦٧ ] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٥٢)، واللفظ له، ومسلم برقم: (١٠٧/ ١٥٩٩).

وهل يليق بالرب المحسن إلى العبد من جميع الوجوه ، أن يقابل العبد ذلك بالمعاصي والسيئات التي أول ما تضر نفسه : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [ يونس :٣١- ٣٢ ] .

**والناس إثنان :**

منهم من يجمع الطيبات والحسنات والأعمال الصالحة التي ترضي الرب .

ومنهم من يجمع الخبائث والسيئات والأعمال السيئة التي تسخط الرب :

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ ﴾ [البقرة:١٤٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٦٢-١٦٣]

وقال الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج:٤٦]

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأحقاف:٥-٦] .

فإن غاب المذّكِّر ، والداعي إلى الله ، وقعت الأمة في الشهوات والسيئات : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا ﴿٥٩﴾ ﴾ [مريم: ٥٩].

وإن قام المذّكِّر تحولت الأمة من الشهوات والسيئات ، إلى الطاعات والحسنات ، واكتفت من الشهوات بما أحل الله لها : ﴿ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ [الأعلى:٩-١٣] .

وقال الله تعالى: ﴿ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴿٢١﴾ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾ [الغاشية:٢١-٢٦] .

ولعافية الجسد ، لا بد من الأغسال المتكررة ، وتناول الأغذية الطيبة ، واستفراغ المواد الفاسدة ، وهذه أصول الطب .

ولعافية القلب ، لا بدَّ من التوبة المتكررة ، وفعل الأعمال الصالحة ، واجتناب الأعمال السيئة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [البقرة:٢٢٢] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النور:٣١] .

فما أحسن الاستغفار والتوبة من العبد الظالم الغافل الجاهل : ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١١٠﴾ ﴾ [النساء:١١٠ ].

وما أحسن الاستغفار والتوبة من كل مسلم ومسلمة بعد امتثال أوامر ربه ، واجتناب نواهيه ، فإنه لابد من التقصير ، والجهل ، والكسل ، والغفلة : ﴿ إِذَا

جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴿٢﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾ ﴾ [ النصر : ١-٣ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحجرات:١١] .

وقال الله في صفات المؤمنين الذين اشتراهم : ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّآئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [التوبة:١١٢ ] .

فبدأ بأول صفة يحبها الله ﷻ وهي التوبة من الكفر والشرك ، والذنوب والمعاصي .

**والطهر طهران :**

طهر بالماء من الأحداث والأنجاس .

وطهر بالتوبة من الشرك والمعاصي .

وهذا الطهور أصل لطهور الماء ، وطهور الماء لا ينفع بدونه ، ولهذا قدمه الله في الذكر كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [البقرة:٢٢٢] .

اللهم طهر قلوبنا من النفاق ، وأعمالنا من الرياء ، وألسنتنا من الكذب ، وأعيننا من الخيانة ، وجوارحنا من البدع والمعاصي ، يا ذا الجلال والإكرام.

- **فقه التوبة من المعاصي :**

المعاصي جمع معصية ، والذنوب جمع ذنب ، والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لأوامر الله ورسوله كترك الواجبات ، أو فعل المحرمات .

ويطلق أحدهما على الآخر ، وكلاهما إسم لفعل محرم .

**والذنوب قسمان :**

صغائر .. وكبائر .

فالكبائر : ما توعد الله عليه بلعنة ، أو غضب ، أو طرد كالكفر والشرك ، وقتل النفس المعصومة ، والزنا والربا ، والسرقة ، وقول الزور ونحو ذلك .

والصغيرة : ما دون ذلك من الذنوب .

وبعض الكبائر قد يقترن بها من الحياء والخوف والاستعظام لها ما يلحقها بالصغائر .

وجميع الصغائر قد تكون كبيرة ، بحسب نية فاعلها ، وتكرارها ، وسروره بها، وقد يقترن بها من قلة الحياء، وعدم المبالاة، وعدم الخوف، والاستهانة بها ، ما يلحقها بالكبائر، بل يجعلها في أعلى مراتبها : ﴿ **فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ** ﴿٣٩﴾ ﴾[المائدة:٣٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ **قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ** ﴿٥٣﴾ ﴾[الزمر:٥٣] .

**وأصل الذنوب تنبعث من أربع صفات في القلب :**

صفات ربوبية : كالكبر والعجب ، وحب المدح والثناء ، والعز والغنى وطلب البقاء والاستعلاء .

وصفات شيطانية : كالحسد والبغي ، والحيل والنفاق ، والمكر والكيد ، والأمر بالفساد والمنكر ، والغش والخداع ، والدعوة إلى البدع والضلال ، ونحو ذلك .

وصفات بهيمية : كالحرص والشهوة والشره ، ومن ذلك يتشعب الزنا والسرقة ، وأكل الأموال بالباطل ، وجمع الحطام لأجل الشهوات .

وصفات سبعية : ومنها يتشعب الغضب والانتقام ، والتهجم على الناس بالضرب ، والشتم ، والقتل ، وأكل أموال الناس بالباطل : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣ ﴾ [ يوسف : ٥٣ ].

قال النبي ﷺ : « أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً ، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ ، فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ ». متفق عليه[1] .

فجميع الذنوب والمعاصي تنبعث من هذه الذنوب الأربعة :

- **أقسام الذنوب والمعاصي :**

**الذنوب والمعاصي نوعان :**

**أحدها** : ذنوب بين العبد وربه ، كترك الصلاة والصوم ، والواجبات الخاصة به من فعل محذور ، وترك مأمور ونحو ذلك .

**الثاني** : ذنوب بين العبد والخلق ، كمنع الزكاة ، وقتل النفس المعصومة ، وغصب الأموال ، وشتم الأعراض ، وكل متناول من حق الغير .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٥٢)، واللفظ له، ومسلم برقم: (١٠٧/ ١٥٩٩).

وجميع الذنوب والمعاصي التي اقترفها الإنسان تحتاج إلى توبة ، والتوبة لازمة لكل أحد وإلا هلك كما قال سبحانه : ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحجرات:١١] .

وقال الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف:٢٣] .

ومن أضل غيره ثم تاب ، فإن الله يقبل توبته ، ويمحو وزره ، ووزر من أضله ، لكن عليه أن يدعو الى الهدى كما دعا إلى الضلالة ، فإن الحسنات يذهبن السيئات كما قال سبحانه : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [ هود : ١١٤ ] .

**وعلامة التوبة :**

الإقلاع عن الذنب ، ورقة القلب ، وغزارة الدمع حياءً ، وأن يشعر بمرارة تلك الذنوب في قلبه بدلًا من حلاوتها ، فيستبدل بالميل إليها كراهة ، وبالرغبة لها نفرة ، وبالمعصية طاعة : ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [ المائدة : ٣٩ ] .

**وشروط صحتها :**

فيما يتعلق بالماضي ، أن يرد فكره إلى أول يوم بلغ ، ويفتش عما مضى من عمره ، وينظر إلى الطاعات ما الذي قصر فيه منها فيكمله ، وينظر إلى المعاصي ما الذي قارفه منها فيتوب منه إلى ربه .

وأما المعاصي فيجب أن يفتش من أول بلوغه عن سمعه وبصره ، وعن بطنه وفرجه ، وعن لسانه ويده ورجله ، وسائر جوارحه : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [ الإسراء : ٣٦ ] .

ثم ينظر في جميع أيامه ولياليه ، ويفصل ويعرض ديوان معاصيه أمام نفسه ، حتى يطلع على جميعها ، صغائرها وكبائرها ، ثم ينظر فيها : فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى كالتقصير في العبادات ونحوها مما لا يتعلق بمظالم العباد ، فالتوبة عنها بالندم ، والتحسر عليها ، وبأن يحسب مقدارها من حيث الكم والعدد ، ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها . فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات التي أسلف : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [هود:١١٤] .

وسئل النبي ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال : « تَقْوَى الله وَحُسْنُ الْخُلُقِ ». وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ فَقَالَ: « الْفَمُ وَالْفَرْجُ » . أخرجه الترمذي وابن ماجه بسند حسن[1] .

وأما مظالم العباد ففيها أيضًا معصية وجناية على حق الله تعالى ، فإن الله ﷻ نهى عن ظلم العباد ، فما يتعلق بحق الله تعالى منه تداركه بالندم والتوبة ، وترك مثله في المستقبل ، والإتيان بالحسنات التي هي أضدادها .

فيقابل مثلًا إيذاء الناس بالإحسان إليهم ، ويكفر غصب أموالهم إن لم يجدهم بالصدقة بها عنهم ، ويكفر عن غيبتهم بالثناء عليهم ونحو ذلك .

---

(١) حسن/ أخرجه الترمذي برقم: (٢٠٠٤)، وابن ماجة برقم: (٤٢٤٦).

وأما الجناية على القلوب بمشافهة الناس بما يسوؤهم أو يعيبهم في الغيبة ، فيطلب كل من تعرض له بلسانه ، أو آذى قلبه ، بفعل من أفعاله ، ويستحلهم واحدًا واحدًا .

ومن مات منهم أو غاب فقد فات أمره ، فيتدارك ذلك بتكثير الحسنات ، والدعاء له ، والتضرع إلى ربه ، ليكف عقوبتها عنه بما شاء .

وأما العزم المرتبط بالمستقبل ، فهو أن يعقد مع الله عقدًا مؤكدًا ، ويعاهده بعهد وثيق أن لا يعود إلى تلك الذنوب وأمثالها .

و شفاء التو بة لا يحصا ل للعبد الا بالدوا اء ، ولا يقف على الدواء من لا يقف على الداء ، ولا يبطل الشيء إلا بضده : ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾[هود:١١٤] .

# ٤ - الخزانة الرابعة

- **فقه التوبة إلى الله عز وجل :**

سبب الإصرار على الذنوب هو الغفلة والشهوة ، ولا يضاد الغفلة إلا العلم والذكر ، ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة : ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾[الكهف:٢٨]

وقال الله تعالى : ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾[العصر:١-٣].

ولا يحمل الإنسان على ترك المعاصي والذنوب إلا قوة الإيمان التي يحب بسببها الطاعات والحسنات ، ويبغض المعاصي والسيئات ، ومعرفة الآيات والأحاديث المخوفة للمذنبين والعاصين ، ومعرفة الآيات والأحاديث في مدح التائبين ، وذم العاصين ، ومعرفة أحوال الأنبياء والصالحين ، وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم ، مثل أحوال آدم ﷺ ، وخروجه من الجنة بسبب معصيته كما قال سبحانه : ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ١٢٢﴾[طه:١٢١-١٢٢] .

وقال الله تعالى:﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ [البقرة:٣٧].

ويعرف العبد أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنوب ، وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جنايته : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النساء:١٢٣] .

وقال الله تعالى:﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ [المائدة:١٣] .

والذنوب كلها يتعجل في الدنيا شؤمها في غالب الأمر كما قال سبحانه : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النساء:١٢٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ الشورى :٣٠ ] .

ويذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب كالجلد على شرب الخمر ، والرجم والجلد على الزنا ، وقطع اليد في السرقة ، والقصاص على القاتل عمدًا وكذا الكبر والنفاق ، والحسد والغيبة ، وغير ذلك مما لا يمكن حصره : ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [ النساء : ١٤] .

ومن ذكر الله ﷻ ، وذكر اطلاعه عليه ، ونظره إليه ، أطاعه ولم يعصه ، وتاب إليه ، واستحيا منه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الملك:١٢] .

- **أركان التوبة إلى الله :**

**التوبة إلى الله من الذنب مركبة من ثلاثة أمور :**

علم .. وحال .. وفعل .

أما العلم فهو معرفة ضرر الذنوب ، وكونها حجابًا بين العبد وبين كل محبوب ، ومعرفة عظمة من عصيته ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾[ فاطر : ٢٨ ] .

فإذا عرف العبد ذلك بيقين ، وغلب ذلك على قلبه ، ظهر من هذه المعرفة تألم القلب بسبب فوات المحبوب : ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾[النساء:١٤].

فإن كان حصل فواته ، تأسف على الفعل الممقوت ، وأعقب الندم .

وإذا غلب هذا الألم على القلب ، انبعث من القلب حالة أخرى ، تسمى إرادة وقصدًا إلى فعل له تعلق بالحال ، والماضي ، والمستقبل :

أما تعلقه بالحال فبترك الذنب الذي كان ملابسًا له فوراً .

وأما في المستقبل ، فبالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب إلى آخر العمر .

وأما في الماضي ، فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلًا للجبر والقضاء ، والإكثار من الاستغفار : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾[ النساء :١١٠ ] .

**والناس قسمان :**

تائب .. وظالم .

كما قال سبحانه : ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾[ الحجرات : ١١] .

والتوبة معناها الرجوع، فالتائب هو الراجع إلى الله تعالى من المعصية إلى الطاعة، ومما نهى الله عنه إلى ما أمر الله به : ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [ الحجرات : ١١ ] .

فمن رجع عن المعاصي خوفًا من عذاب الله فهو تائب ، ومن رجع عنها حياءً من الله فهو منيب ، ومن رجع عنها تعظيمًا لجلال الله سبحانه فهو أواب كما وصف الله خليله ﷺ بقوله : ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود:٧٥] .

فعلينا أن نطهر ظواهرنا وبواطننا من الذنوب والمعاصي ، فإن ذنوبنا من أكبر عيوبنا ، وهي أوساخ تدنس قلوبنا وجوارحنا ، فنبدأ بتطهير قلوبنا من الشك والشرك والشبهات ، ثم التطهر من المحرمات كما قال سبحانه : ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأنعام:١٢٠] .

ثم التطهر من المكروهات ، ثم من المشتبهات ، ثم من فضول المباحات ، ثم من كل شاغل يشغل عن رب الأرض والسموات : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢٢] .

وقال الله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال:٢- ٤ ].

وقال الله تعالى : ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور:٣١] .

**والعبد في الذنب ينظر إلى أربعة أمور :**

**الأول** : نظر إلى الأمر والنهى ، فهو لم يخلق إلا لعبادة الله وطاعته : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨] .

وقال الله تعالى : ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران:١٣٢] .

**الثاني** : نظر إلى الحكم والقضاء ، فالله له الخلق والأمر وحده ، يفعل ما يشاء بحكمته : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة:٢١٦] .

**الثالث** : نظر إلى محل الجناية ، وهي النفس الأمارة بالسوء ، فيعرف أنها جاهلة ظالمة ، وعنها يصدر كل عمل قبيح ، فيوجب له ذلك بذل الجهد في العلم النافع : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس:٧-١٠] .

وقال الله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت:٦٩] .

فيعرف أنها جاهلة ظالمة ، وعن النفس يصدر كل عمل قبيح ، فيوجب له ذلك بذل الجهد في العلم النافع الذي يخرجها من الجهل ، والعمل الصالح

الذي يخرجها من الظلم : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ [محمد:١٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحج:٧٧-٧٨] .

**الرابع** : نظرٌ إلى الآمر له بالمعصية ، المزين له فعلها ، وهو الشيطان الموكل به ، فيفيده ذلك ملاحظته ، واتخاذه عدوًا ، وكمال الاحتراز منه ، وعدم طاعته : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [ يس :٦٠- ٦٢ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ [فاطر:٦].

وعلى المسلم أن يتوب إلى الله من جميع الذنوب والمعاصي ، ويهجر ما نهى الله عنه من الأقوال والأعمال ، والمعاصي والسيئات : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر : ٧ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ [النساء:٣١] .

- **أقسام الهجرة :**

**الهجرة ثلاثة أقسام :**

هجرة المكان .. وهجرة العمل .. وهجرة العامل .

فهجرة المكان : هي الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام ، رغبة فيما عند الله ، وأن يعيش بين إخوانه المؤمنين الذين يذكرونه إذا نسي ، ويعلمونه إذا جهل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة:١١٩] .

وهجرة العمل : هو أن يهجر الإنسان ما نهاه الله عنه من المعاصي ، والفواحش ، والفسوق ، وسائر الذنوب : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [ النحل :٩٠ ] .

وفي الحديث : « ... ﷺ ... الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ ». متفق عليه[1] .

وهجرة العامل : معناها هجر الرجل المجاهر بالمعصية ، الذي لا يبالي بها ، كمن عُرف بالغش في البيع والشراء ، فيُهجر ، لعله يتوب ويعود إلى الصواب ، وهجر من يقارف المحرمات كالزنا والربا ونحوهما ، لعله يتوب من ذنبه .

- **فقه التوبة :**

التوبة أحب الأعمال إلى الله ، ولذلك ابتلى الله بالذنب أكرم المخلوقات عليه ، وهو آدم ﷺ وذريته .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٤٨٤)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٦٥/ ٤١).

فالتوبة هي غاية كمال الآدمي ، فكمال الآدمي في هذه الدنيا بالتوبة النصوح ، وفي الآخرة بالنجاة من النار ، ودخول الجنة :﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾[الحجرات:١١] .

والله ﷻ يحب التوابين ، ويفرح بتوبة عبده ، ولفرحه بها يقضي على عبده بالذنب ، فإن كان ممن سبقت له الحسنى ، قضى له بالتوبة ، وإن كان ممن غلبت عليه شقاوته ، أقام عليه حجة عدله ، وعاقبه بذنبه، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾[البقرة:٢٢٢] .

وقال النبي ﷺ : « للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ ، حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلاةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ ، فَأَيِسَ مِنْهَا ، فَأَتَى شَجَرَةً ، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا ، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ : اللَّهُمَّ ! أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ » . متفق عليه[1].

والله جل جلاله له الأسماء الحسنى ، والصفات العلا ، ولكل اسم من أسمائه أثر من الآثار في الخلق والأمر .

فالخالق يقتضي مخلوقًا ، والرازق يقتضي مرزوقًا ، والغفار يقتضي مغفورًا له والتواب يقتضي مذنبًا يتوب عليه ، والحليم يقتضي سفيهًا يحلم عليه ، وهكذا : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾[الأعراف: ١٨٠] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٣٠٩)، ومسلم برقم: (٧/ ٢٧٤٧)، واللفظ له.

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [النساء:١١٠ ] .

وليس في الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها ، فإذا عوفي العبد من الذنوب عوفي من موجباتها : ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾ [ الجمعة :٤ ] .

اللهم آتِ نفوسنا تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها .

وعلامة سعادة العبد أن يعكس فكره ونظره على نفسه ، وذنوبه ، وعيوبه ، فيشتغل بها وبإصلاحها ، وبالتوبة منها ، والله يتولى حفظه ونصرته والدفع عنه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [ الحشر: ١٨- ١٩ ] .

وليس للعبد إذا بغي عليه ، وأوذي ، وتسلط عليه خصومه ، شيء أنفع له من التوبة النصوح .

وما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه مما لا يعلمه أضعاف أضعاف ما يعلمه ، فما سلط عليه مؤذ إلا بذنب منه ، وعلاجه الذي هو أنفع له ، هو التوبة النصوح، كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [ التحريم : ٨ ] .

ومن دعاء النبي ﷺ : « اللَّهُمَّ ! اغْفِرْ لي خَطِيئَتِي ، وَجَهْلِي ، وَإِسْرَافِي ، فِي أَمْرِي ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي ، اللَّهُمَّ ! اغْفِرْ لِي جِدِّي وَهَزْلِي ، وَخَطَئِي وَعَمْدِي ، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي » . متفق عليه[1] .

والتوبة من الذنوب واجبة على كل مسلم ومسلمة كما قال سبحانه : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[النور:٣١] .

ومن تاب إلى الله توبة نصوحًا فإن الله يتوب عليه ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، وكل من كان غير آثم ، فهو غير معاقب لا في القبر ، ولا في الآخرة : ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾[ المائدة : ٣٩ ] .

وأما في الدنيا فالتوبة لا تكون مسقطة للعقوبات الواجبة لحق الله تعالى من حد سرقة أو زنا أو شرب مسكر بعد ثبوتها .

وكذا ما وجب لحق آدمي من قصاص أو مال أو حد قذف ، أو تعزير .

كما لا تسقط بها الكفارات وسائر الواجبات التي أثم بسبب تركها من صلاة أو صيام أو زكاة أو غيرها ، فلا بدَّ من الإتيان بها ؛ لأنها حقوق لا ذنوب ، وإنما الذنب في تأخرها ، فيسقط بالتوبة إثم المخالفة بالتأخير ، لا نفس الحق المؤخر من صلاة وزكاة ونحوها: ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾[ المائدة : ٣٩ ] .

وكل إنسان على خطر عظيم ، فهو مع كونه ظلومًا جهولًا ، يؤساً قنوطاً ، كفورًا قتورًا ، ضعيفًا عجولًا ، تصيبه آفات أخرى كالعجز والكسل ،

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٣٩٩)، واللفظ له، ومسلم برقم: ( ٧٠/ ٢٧١٩).

والغفلة والنسيان ، والإسراف والتبذير ، والحرص والشره : ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [ النساء : ٢٧ ] .

فعليه أن يستدرك ما فرط فيه بالعلم والعمل ، وما سلف منه من الإساءة بالإحسان ، وأن يتخلص من رق الجناية بالاستغفار والندم ، ويخلص إيمانه وأعماله من خبث الجناية ، فالجنة طيبة لا يدخلها إلا طيب القلب والبدن والعمل.

فلا يمكن للعبد من دخول الجنة إلا بعد هذا التمحيص ، وهذا التطهير .

ولهذا تقول الملائكة لأهل الجنة : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزمر: ٧٣]

**وتمحيص العبد من الذنوب في الدنيا بأربعة أشياء :**

١-بالتوبة النصوح .

٢- والاستغفار .

٣- والحسنات الماحية .

٤- والمصائب المكفرة .

فإن محصته هذه الأربعة كان من الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ، ومن الذين تتنزل عليهم الملائكة عند الموت كما قال سبحانه : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ

وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت:٣٠-٣٢] .

**وإن لم تف هذه الأربعة بتمحيصه وتخليصه وتطهيره ، محص في البرزخ بثلاثة أشياء :**

**أحدها** : صلاة المؤمنين الجنازة عليه ، واستغفارهم له ، وشفاعتهم فيه .

**الثاني** : تمحيصه بفتنة القبر ، وروعة الفتَّان ، والعصرة والانتهار .

**الثالث** : ما يهدي إليه إخوانه المسلمون من هدايا الأعمال من الصدقة عنه ، والدعاء له ، وقضاء الصيام الواجب عنه ، والحج عنه ، وجعل ثواب ذلك له.

**فإن لم تف هذه الثلاثة بتمحيصه وتطهيره ، محص بين يدي ربه في الموقف بأربعة أشياء :**

أهوال القيامة ، وشدة الموقف ، وشفاعة الشفعاء ، وعفو الله ﷻ عنه .

فإن لم تف هذه الأربعة بتمحيصه ، فلا بدَّ له من دخول الكير رحمة في حقه ، ليتخلص ويتمحص ويتطهر في النار ، ويكون مكثه فيها ، على حسب كثرة الخبث وقلته ، وشدته وضعفه وتراكمه .

فإذا خرج خبثه ، وصفا ذهبه ، وصار طيبًا خالصًا ، أخرج من النار ، وأدخل الجنة دار الطيبين والطاهرين : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم:٧١-٧٢] .

# ٥- الخزانة الخامسة

- **فقه التوبة إلى الله عز وجل :**

**تمحيص العبد من الذنوب في الدنيا بأربعة أشياء :**

بالتوبة النصوح ، والاستغفار ، والحسنات الماحية ، والمصائب المكفرة .

**فالاستغفار نوعان :**

مفرد .. ومقرون بالتوبة .

فالمفرد كقوله سبحانه : ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [نوح:١٠-١٢] .

والمقرون بالتوبة كقوله سبحانه : ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ ﴾ [هود:٣] .

فالاستغفار يتضمن التوبة ، والتوبة تتضمن الاستغفار ، وكل منهما يتضمن الآخر عند الإطلاق .

**وأما عند الاقتران** : فالاستغفار طلب وقاية شر ما مضى ، والتوبة الرجوع ، وطلب وقاية شر ما يخافه العبد في المستقبل من سيئات أعماله .

فالاستغفار من باب إزالة الضرر ، والتوبة طلب جلب المنفعة .

والله سبحانه لم يجعل شيئًا يحبط جميع الحسنات إلا الكفر والشرك، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [ المائدة : ٥ ] .

وقال ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾[الزمر:٦٥] .

وكذلك لم يجعل الله شيئًا يحبط جميع السيئات إلا التوبة إلى الله ﷻ، كما قال سبحانه : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾[الزمر:٥٣] .

وإذا خرج العبد عما خلق له من الطاعة والعبودية ، فقد خرج عن أحب الأشياء إليه سبحانه ، وعن الغاية التي خلقت من أجلها الخليقة ، وصار كأنه خلق عبثًا لغير شيء ، وقد أنكر الله على من ظن ذلك ، فقال سبحانه : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾[المؤمنون:١١٥] .

فإذا رجع العبد الى ما خلق له ، وأوحد من أجله ، فقد رجع إلى الغاية التي هي أحب الأشياء إلى خالقه وفاطره : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾[الذاريات:٥٦-٥٨] .

ورجع إلى مقتضى الحكمة التي خلق لأجلها ، وخرج عن معنى العبث والسدى والباطل ، فاشتدت محبة الله له ، فإن الله يحب التوابين ، ويحب المتطهرين ، وأوجبت هذه المحبة فرحًا عظيمًا كأعظم ما يقدر من الفرح كما قال النبي ﷺ : « للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ ، حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ ، مِنْ أَحَدِكُمْ

كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلاةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ ، فَأَيِسَ مِنْهَا ، فَأَتَى شَجَرَةً ، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا ، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ : اللَّهُمَّ ! أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ ». متفق عليه(١).

والتوحيد يكفر الذنوب ، فلو لقي العبد المسلم ربه بقراب الأرض خطايا للقيه بقرابها مغفرة : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾[النساء:١١٠ ] .

فالمسلمون ذنوبهم ذنوب موحد ، إن قوي التوحيد على محو آثارها بالكلية ، وإلا فما معهم من التوحيد يخرجهم من النار إذا نقوا من ذنوبهم .

عن أبي ذر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أَتَانِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلام ، فَبَشَّرَنِي أَنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ ، قُلْتُ : وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ ؟ قَالَ : وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ » . متفق عليه(٢) .

وأما الكفار والمشركون ، فإن كفرهم وشركهم يحبط حسناتهم ، فلا يلقون ربهم بحسنة يرجون بها النجاة ، ولا يغفر لهم شيء من ذنوبهم ، ويعطون مقابل حسناتهم في الدنيا ، صحة في الأبدان ، ووفرة في الأموال ، وكثرة في الأولاد ، ثم يلقون الله وليس معهم حسنة واحدة يدخلون بها الجنة كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾[النساء:١١٦] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٣٠٩ )، ومسلم برقم: (٧/ ٢٧٤٧)، واللفظ له.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٤٤٤ )، ومسلم برقم: (١٥٣/ ٩٤)، واللفظ له.

وقال سبحانه في أعمال الكفار والمشركين ، وأنها لا تنفعهم في الآخرة ، لفقدها الإيمان : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٣] .

وقال الله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور:٣٩] .

وقال الله تعالى:﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾ [إبراهيم: ١٨] .

فالذنوب والمعاصي تزول آثارها بالتوبة النصوح، والتوحيد الخالص، والحسنات الماحية، والاستغفار، والمصائب المكفرة لها ، وشفاعة الشافعين الموحدين، ورحمة أرحم الراحمين ، فما أرحم الله بخلقه : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [ الحجر : ٤٩-٥٠ ] .

**والتوبة لها مبدأ ومنتهى :**

**فمبدؤها** : الرجوع إلى الله ، بسلوك صراطه المستقيم الذى نصبه لعباده ، موصلًا إلى رضوانه والجنة ، وأمرهم بسلوكه بقوله سبحانه : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] .

**ونهاية التوبة** : الرجوع إلى الله في المعاد ، وسلوك صراطه الذي نصبه موصلًا إلى جنته ، فمن رجع إلى الله في هذه الدار بالتوبة ، رجع إليه في المعاد بالثواب كما قال سبحانه : ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ ﴾[الفرقان: ٧١] .

وتوبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها ، وتوبة من الله عليه بعدها ، فتوبة العبد بين توبتين من ربه ، فإنه سبحانه تاب عليه أولًا إذنًا وتوفيقًا ، فتاب العبد ، فتاب الله عليه ثانيًا : فقبلها منه ، وأثابه عليها : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾[التوبة:١١٨] .

فالله تواب ، والعبد تواب ، وتوبة العبد رجوعه إلى سيده بعد الإباق .

**وتوبة الله ﷻ نوعان** :

إذن وتوفيق .. وقبول وإمداد .

وتوبة العبد : هي رجوعه مما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبه الله ظاهرًا وباطنًا.

وسمى العبد تائبًا لرجوعه إلى أمر الله من نهيه ، وإلى طاعته من معصيته : ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾[التوبة:١١٧] .

والتوبة إلى الله واجبة من كل ذنب : ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحجرات:١١] .

- **شروط التوبة** :

**١ - إن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى ، لا تتعلق بحق آدمي ، فلها خمسة شروط :**

**أحدها** : أن تكون خالصة لله ﷻ كما قال سبحانه : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥ ﴾ [البينة: ٥] .

**الثاني** : أن تكون التوبة في وقتها كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ۝١٧ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ۝١٨ ﴾ [ النساء :١٧ - ١٨ ] .

**الثالث** : أن يقلع العبد عن المعصية .

**الرابع** : أن يندم العبد على فعلها .

**الخامس** : أن يعزم على أن لا يعود إليها أبدًا .

فإن فقد التائب أحد الخمسة لم تصح توبته .

**إن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها ستة :**

هذه الخمسة السابقة .

**والسادس** : أن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كانت مالًا أو نحوه رده إليه ، وإن كانت حد قذف ونحوه مكنه منه ، أو طلب عفوه عنه ، وإن كانت غيبة استحله منها .

والتوبة واجبة على كل مسلم ومسلمة والله يحب أهلها : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾[البقرة:٢٢٢] .

فإن تاب من بعض الذنوب دون بعض ، صحت توبته من ذلك الذنب ، وبقي عليه الباقي فليسارع إلى التوبة : ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾[النور:٣١] .

**والتوبة النصوح تتضمن ثلاثة أشياء :**

**أحدها** : التوبة من جميع الذنوب والمعاصي .

**الثاني** : إجماع العزم على التوبة ، بحيث لا يكون عنده تردد فيها .

**الثالث** : إخلاص التوبة لله ﷻ .

فالأول يتعلق بما يتوب منه ، والثاني يتعلق بذات التائب ، والثالث يتعلق بمن يتوب إليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [التحريم:٨].

والأنبياء والرسل أعظم الخلق معرفة بالله ، وأشدهم اجتهادًا في العبادة ؛ لما أعطاهم الله من فضله ، وحباهم به من نعمه ، فهم دائبون في شكره ، معترفون له بالتقصير ، لكمال معرفتهم به ، وبما يجب له سبحانه ، فهم أكثر الناس استغفارًا ، وأحسنهم عملًا ، وأكثرهم توبة : ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ

يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [ الأنبياء :٩٠ ] .

وقال ﷺ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ! تُوبُوا إِلَى اللهِ ، فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّة » . أخرجه مسلم [١] .

والتوبة التي تكرَّم الله بقبولها من عبده هي ما كان قبل معاينة الموت والعذاب المهلك كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾[النساء:١٧] .

وأما بعد حضور الموت ، فلا يقبل من الكفار رجوع ، ولا من العاصين توبة كما قال سبحانه : ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾[النساء: ١٨] .

فالتوبة في هذه الحال توبة اضطرار لا تنفع صاحبها ، إنما تنفع توبة الاختيار قبل معاينة الهلاك : ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾[الحجرات:١١] .

اللهم تب علينا ، إنك أنت التواب الرحيم ، واغفر لنا ، إنك أنت الغفور الرحيم .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٤٢/ ٢٧٠٢).

# ٦ - الخزانة السادسة

## فقه التوبة إلى الله عز وجل

هذه الأمة خير الأمم التي أخرجها الله للناس ، وذلك بتكميلهم لأنفسهم بالإيمان المستلزم للقيام بكل ما أمر الله به ، وترك كل ما نهى عنه .

وبتكميلهم لغيرهم بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، المتضمن دعوة الخلق إلى الله ، وعبادته وحده لا شريك له ، وجهادهم على ذلك ، وبذل المستطاع في ردهم عن ضلالهم وغيهم وعصيانهم .

فبهذا كانوا خير أمة أخرجت للناس كما قال سبحانه : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران:١١٠ ] .

ومن قصر في تكميل نفسه ، أو قصر في تكميل غيره ، أو قصر فيهما معًا ، فلا بدَّ له من التوبة : ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحجرات:١١] .

والنقص والتقصير من لوازم البشر ، والغفلة والنسيان من طبيعة البشر ، فالتقصير والنقص حاصل في كل عمل قطعًا .

تقصير في الاستقامة على الحق ، وتقصير في الدعوة إلى الحق ، فليس للعبد إلا الاستغفار المستمر على ما سلف من الذنوب والمعاصي ، ولهذا أمر الله نبيه ﷺ بكثرة الاستغفار في ختام دعوته كما قال سبحانه : ﴿ إِذَا

جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴿٢﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾ ﴾ [النصر:١-٣] .

والنبي ﷺ أكمل الخلق عبودية ، وأكرمهم على الله ، وأعرفهم به ، والمقدم على الخلق كلهم في جميع أنواع الطاعات ، وكان أصحابه رضي الله عنهم يعدون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم : « رَبِّ اغْفِرْ لِي ، وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الْغَفُورُ مِائَةَ مَرَّةٍ ».أخرجه أحمد والترمذي بسند صحيح[1].

فكيف بحالنا نحن المقصرون المفرطون ؟ : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [ البقرة :٢٨٦ ] .

كم نحتاج إلى الاستغفار والتوبة من الذنوب والمعاصي كل يوم ، بل كل لحظة ؟ .

تقصير في الجهل بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وتقصير في أداء العبادات ، وتقصير في تأخر العبادات ، وتقصير في الدعوة إلى الله ، وتقصير في تعليم شرع الله ، وتقصير في معاملة خلق الله : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [ الأعراف : ٢٣ ] .

والله غفور يحب كل من استغفره ، وتاب إليه : ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١١٠﴾ ﴾ [النساء:١١٠ ] .

---

(١) صحيح/ أخرجه أحمد برقم: (٢٣١٥٠)، والترمذي برقم: (٣٤٣٤).

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [البقرة:٢٢٢] .

ألا ما أجهل البشر بربهم حين يقصرون في طاعته ، ويقترفون معصيته ، وينتهكون محارمه ، ويخالفون أوامره : ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [المائدة:٧٤] .

فما أجهل الإنسان بربه ، وما أظلمه لنفسه ، حين يتأخر عن طاعة ربه ، ويقدم على معصيته ، مع تواتر إحسان ربه إليه على مدى الأنفاس .

فقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم ، وأزاح علله ، وبعث إليه رسله ، وأنزل عليه كتبه ، وساق إليه رزقه ، ومكنه من التزود إلى جنته ، وأعطاه السمع والبصر والفؤاد ، وعرَّفه الخير والشر ، وحبب إليه الطاعات ، وكرَّه إليه الكفر والفسوق والعصيان ، وأعانه الله بجند من الملائكة يحرسونه ، ويحاربون عدوه ، ويريدون منه أن لا يميل إليه ، ولا يصالحه ، وهم يكفونه مؤنته ، ويأبى إلا مظاهرته عليهم ، وموالاته دونهم : ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ ﴾ [النساء:١١٩- ١٢١] .

والله ﷻ عادى هذا الشيطان ولعنه ، وأبعده وطرده ، وهذا الإنسان الظالم لنفسه يواليه ، ويميل إليه ، ويطيع أمره : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [ يس :٦٠- ٦٢ ] .

فما أعجب حال الإنسان حين يطيع عدوه ، ويعصي ربه ومولاه الذي خلقه وصوره وأنعم عليه ورزقه، فأي حرمان فوق هذا ؟ وأي ضلال بعد هذا ؟ : قال الله تعالى :﴿ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴿٣٨﴾ ﴾[النساء:٣٨ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾ ﴾[النور:٢١] .

الله ﷻ أمر الإنسان بشكره لا لحاجته إليه ، ولكن لينال به المزيد من فضله ، فجعل كفر نعمه ، والاستعانة بها على مساخطه من أكبر أسباب صرفها عنه كما قال سبحانه : ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴿٧﴾ ﴾[ إبراهيم : ٧ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[ الأعراف : ٩٦ ] .

أمر الله هذا الإنسان بذكره ليذكِّره بإحسانه إليه ، وجعل نسيانه سببًا لنسيان الله له كما قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[الحشر:١٩] .

أمر الله الإنسان بسؤاله ليعطيه فلم يسأله ، بل أعطاه أجلّ العطايا بلا سؤال ، فلم يقبل هدى الله : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾[غافر:٦٠ ] .

فمتى يفيق هذا الإنسان ، وينجو من أسر الشيطان ، ويؤوب إلى ربه الرحمن ؟

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾[الزمر:٥٣] .

فما اجهل الإنسان بربه ، وما أجهله بعظيم نعمه وإحسانه إليه وإلى غيره ، إنه يشكو من يرحمه إلى من لا يرحمه ، ويتظلم ممن لا يظلمه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [النساء:٤٠] .

إنْ أنعم الله عليه بالصحة والعافية، والمال والجاه، استعان بها على معاصيه، وإن سُلب ذلك سخط على ربه ، وشكاه إلى خلقه، وهو الظالم لنفسه . لا يصلح له على عافية ، ولا على ابتلاء ، العافية تلقيه إلى مساخطه ، والبلاء يدفعه إلى كفرانه وجحود نعمته ، وشكايته إلى خلقه : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾[ إبراهيم : ٢٧- ٢٩ ] .

وهذه حال أكثر الخلق الذين لم يهتدوا بهدى النبوة، ولم يعرفوا ربهم ودينه وشرعه، ألم يعلموا أن الله أرحم الراحمين ، الغني عن العالمين ؟ :

قال الله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ [فاطر:١٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [ يونس:٤٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾[الحج:٦٥] .

وقال الله تعالى:﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [البقرة:١٦٣].

فمتى يصحو مثل هذا الإنسان ؟ ومتى يبصر الطريق السوي ؟

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحديد:١٦- ١٧] .

والله رءوف بالعباد ، دعا عباده إليه ، وإلى بابه ، فما وقف عليه ولا طرقه مثل هذا الغافل ، ثم فتحه له فما عرج عليه ، ولا ولجه ، وأرسل إليه رسوله بالدعوة إلى دار كرامته ، فعصى الرسول وسفهه ، وسخر منه وقاتله ، إن وافق حظه طاعة الرسول أطاعه ، لنيل حظه ، لا لرضى مرسله ، لم يزل يتمقت إليه بمعاصيه ، حتى أعرض عنه ، وأغلق الباب في وجهه : ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [آل عمران:٨٦] .

فماذا ينتظر هذا الغافل من العقاب ، جزاء ظلمه ، وكفره ، ومعاصيه وغفلته ؟ : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [التوبة: ٦٨] .

فلا إله إلا الله ، ما أعظم الغفلة عن الله ، وما أشد عقوبتها : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا

﴿ وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [ الأعراف : ١٧٩ ] .

ومع هذا كله ، فالله غفور رحيم ، دعا عباده إلى التوبة والاستغفار ، من جميع الذنوب ، ووعدهم على ذلك القبول والمغفرة، كما قال سبحانه : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾[الزمر:٥٣] .

فلا يأس من رحمة الله، فالله يقبل توبة كل مذنب كما قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الشورى:٢٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾[النساء:١١٠ ] .

وقال النبي ﷺ : « قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً » . أخرجه الترمذي بسند صحيح[1] .

**ولا يستحق العبد اسم التائب ، حتى يتخلص من أجناس المحرمات المذكورة في كتاب الله ﷻ وهي :**

١- الكفر والشرك . ٥- والفحشاء والمنكر .

---

(١) صحيح/ أخرجه الترمذي برقم: (٣٥٤٠).

٢- والرياء والنفاق . ٦- والظلم والبغي .

٣- والفسوق والعصيان . ٧- والقول على الله بلا علم .

٤- والإثم والعدوان . ٨- وإتباع غير سبيل المؤمنين ونحو ذلك مما ذكر الله ورسوله .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ ﴾ [البينة: ٦]

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف:٣٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأنعام:١٥١] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾ [البينة: ٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [التوبة: ٦٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [ النساء : ١١٥ ] .

وغير ذلك من المناهي الشرعية التي نهى الله ﷻ عنها ، وحذر عباده منها : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾[الحشر: ٧ ] .

ومن رحمة الله بعباده أن أنزل عليهم هذا القرآن الذي فيه تبيان كل شيء ، وصرَّف فيه سبحانه من الوعد والوعيد ما يُرغِّب في كل طاعة ، ويزجر عن كل معصية ، لعل العباد يتقون الله ، فيتركون من الشر والمعاصي ما يضر هم ، أو يُحْدِث لهم الوعيد ذكرًا ، فيعملون من الطاعات والخير ما ينفعهم كما قال سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾[طه:١١٣] .

**وقد نوع الله ﷻ الوعيد في كتابه أنواعًا كثيرة :**

تارة بذكر أسمائه الدالة على العدل والانتقام كالعزيز الجبار ، والقوي والقهار : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾ [المائدة:٩٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾[الحجر: ٤٩ – ٥٠]

وقال الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [ الحشر : ٢٣ ] .

وتارة بذكر المَثُلات والعقوبات التي أحلها بالأمم السابقة ، وأمرنا أن نعتبر بها كما قال سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [هود:١٠٢] .

وقال ﷻ عن الأمم السابقة التي كذبت الرسل : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت:٤٠] .

وتارة بذكر آثار الذنوب، وما تُكسبه من العيوب، كما قال سبحانه : ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٦٢-١٦٣]

وقال الله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ ﴾ [المائدة:٩-١٠] .

وتارة بذكر أهوال القيامة ، وما فيها من المزعجات والحسرة والندامة كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾ [الحج:١-٢] .

وتارة بذكر جهنم ، وما فيها من أنواع العقاب ، وأصناف العذاب : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا

وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾[النبأ:٢١-٢٨] .

كل هذا رحمة بالعباد ، لعلهم يتقون الله ، فيمتثلون أوامره ، ويحتنبون معاصيه ، ويذكرونه ولا ينسونه ، ويشكرونه ولا يكفرونه : ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾[البقرة:١٥٢] .

وقال الله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[آل عمران:١٠٢-١٠٣] .

# ٧- الخزانة السابعة

- **أنواع التوبة :**

**التوبة ثلاثة أنواع :**

**أحدها** : التوبة الصحيحة، وهي أن يقترف العبد ذنبًا ، ويتوب منه بصدق في الحال: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾[ طه : ٨٢ ] .

**الثاني** : التوبة الأصح ، وهي التوبة النصوح ، التي أمر الله ﷻ بها المؤمنين وعلامتها أن يكره العبد المعصية ، ويستقبحها فلا تخطر له على بال ، ولا ترد في خاطره أصلًا ، وهي من أعمال القلب ، وهي تعني تنزيه القلب عن الذنوب والمعاصي كما قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [التحريم:٨].

اللهم ارزقنا هذه التوبة النصوح قبل أن نلقاك ، يا أرحم الراحمين .

**الثالث** : التوبة الفاسدة ، وهي التوبة باللسان ، مع بقاء لذة المعصية في الخاطر : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾[الصف:٢-٣ ] .

وتوبة الإنابة أن تخاف من الله ، من أجل قدرته عليك .

وتوبة الاستجابة أن تستحي من الله لقربه منك .

ومن تاب من الناس توبة عامة كانت هذه التوبة مقتضية لغفران الذنوب كلها وإن لم يستحضر أعيان الذنوب : ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [ الزمر : ٥٣ – ٥٤ ] .

وكثير من الناس لا يستحضر عند التوبة إلا بعض المعاصي المتعلقة بالفاحشة أو مقدماتها ، أو بعض الظلم باللسان أو اليد ، وقد يكون ما تركه من المأمور الذي يجب عليه في باطنه وظاهره، من شعب الإيمان وحقائقه ، أعظم ضررًا عليه مما فعله من بعض الفواحش .

اللهم إنا نستغفرك ، ونتوب إليك ، مما نعلم ومما لا نعلم ، ومما أنت به أعلم .

فإن ما أمر الله به من حقائق الإيمان التي بها يصير العبد من المؤمنين حقًا ، أعظم نفعًا من نفع ترك بعض الذنوب الظاهرة كحب الله ورسوله ﷺ ، وتعليم شرعه ، والدعوة إليه والإحسان إلى خلقه : ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [ آل عمران :١٣٣- ١٣٤ ] .

فإن هذا أعظم الحسنات الفعلية ، والناس في الغالب لا يتوبون توبة عامة مع حاجتهم إلى ذلك .

فالتوبة واجبة على كل مسلم في كل حال ؛ لأنه دائمًا يظهر له ما فرط فيه من ترك مأمور ، أو ما اعتدى فيه من فعل محظور ، فعليه أن يتوب إلى الله دائمًا : ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور:٣١] .

والله يحب من عباده أن يتوبوا إليه ، وقد أخبر سبحانه أنه يريد أن يتوب على كل من تاب كما قال سبحانه : ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾ ﴾[النساء:٢٧-٢٨] .

والله ﷻ رءوف بالعباد ، واسع الرحمة لهم ، يقبل التوبة من عباده التائبين من أي ذنب ، بل يفرح تعالى بتوبة عبده إذا تاب أعظم فرح ، فمن تاب إليه تاب عليه ، ولو تكررت منه المعصية مرارًا ؛ لأنه سبحانه التواب الرحيم يتوب على العباد مهما كثرت معاصيهم ، ومهما تكررت ، فليعلم العصاة ذلك ، ليقبلوا عليه ، وينيبوا إليه : ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [التوبة:١٠٤ ] .

والله ﷻ يقبل التوبة الصادرة من عباده ، وقد دعا سبحانه عباده إلى الإنابة إليه والتوبة من التقصير ، فانقسموا إلى قسمين :

المستجيبون الذين استجابوا لربهم لِمَا دعاهم إليه ، لِمَا معهم من الإيمان والعمل الصالح ، فإذا استجابوا له شكر الله لهم فتاب عليهم : ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾[ الزمر : ٥٣ – ٥٤ ] .

وأما غير المستجيبين لله وهم المعاندون الذين كفروا به وبرسله ، فهؤلاء لهم عذاب شديد في الدنيا والآخرة كما قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ

عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الشورى:٢٥-٢٦] .

والتوبة هي حقيقة دين الإسلام ، وغاية كل مؤمن ، وهي الغاية التي وجد لأجلها الخلق ، والأمر والتوحيد جزء منها ، بل هو جزؤها الأعظم الذي عليه بناؤها .

ولهذا أمر الله بها الأنبياء ولرسل ، وأمر بها رسولنا محمدًا ﷺ كما قال سبحانه : ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴿٢﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾ ﴾ [النصر:١-٣] .

فأعظم أنواع التوبة ؛ التوبة من الكفر والشرك ، إلى التوحيد والإيمان ، والتوبة من المعاصي والمنكرات إلى الطاعات والحسنات .

ودعا جميع الأنبياء أممهم إليها كما قال هود ﷺ : ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [هود:٥٢] .

ودعا صالح ﷺ قومه إليها كما قال سبحانه : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴿٦١﴾ ﴾ [هود:٦١] .

ودعا شعيب ﷺ قومه إليها كما قال سبحانه : ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ ﴾ [هود:٩٠] .

. ﷺ . « والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » . أخرجه البخاري[1] .

. ﷺ . « إنه ليغان على قلبي ، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة » . أخرجه مسلم[2] .

- **أقسام التوبة :**

**توبة الإنسان من عمله على قسمين :**

**القسم الأول** : توبة العبد من حسناته ، وهي على ثلاثة أضرب :

**أحدها** : أن يتوب ويستغفر من تقصيره فيها .

**الثاني** : أن يتوب مما كان يظنه حسنات ولم يكن ، كحال أهل البدع .

**الثالث** : أن يتوب من إعجابه بعمله ، ورؤيته فعله بقوته .

**القسم الثاني** : توبة العبد من فعل السيئات ، وهي على ضربين :

توبة من ترك مأمور .. وتوبة من فعل محظور .

والتوبة لا بد منها لجميع الخلق ، فهي مقام لا بد أن يستصحبه العبد من أول ما يعقل إلى آخر عمره ؛ لأن النقص والتقصير ، والضعف والنسيان من لوازم البشر والله تواب يحب التوابين ويحب المتطهرين : ﴿ **وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾** ﴾ [الحجرات:١١] .

- **فقه التوبة النصوح يجمعها أربعة أشياء :**

---

(١) أخرجه البخاري برقم: (٦٣٠٧).

(٢) أخرجه مسلم برقم: (٤١/ ٢٧٠٢).

الاستغفار باللسان ، والندم بالقلب ، والترك بالجوارح ، وإضمار ألا يعود إلى المعصية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٨﴾ ﴾ [ التحريم : ٨ ] .

وكان ﷺ يختم كل عمل صالح بالاستغفار كالصلاة والصوم والحج والجهاد ، [illegible] : « سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك » .أخرجه أحمد والترمذي [1] .

وأمره ربه بالاستغفار في نهاية أحواله ، وآخر أمره ، فقد بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وجاهد في الله حق جهاده ، ولما أكمل مراتب العبودية ظاهرًا وباطنًا أمره ربه بالتسبيح والاستغفار كما قال سبحانه : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴿٢﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾ ﴾ [النصر:١-٣] .

والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، فمن تاب من الذنب قبل القدرة عليه سقطت عنه حقوق الله تعالى ، وغفر الله له بتوبته كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٤﴾ ﴾ [المائدة:٣٣-٣٤] .

---

(١) صحيح/ أخرجه أحمد برقم (١٠٤١٥)، والترمذي برقم (٣٤٣٣) .

« وجاء النبي ﷺ رجل فقال : يَا رَسُولَ الله ، إِنِّي أَصَبْتُ حَدّاً ، فَأَقِمْ فِيَّ كتاب الله ، قَالَ : « أَلَيْسَ قَدْ صَلَّيْتَ مَعَنَا ؟ » . قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : « فَإِنَّ الله قَدْ غَفَرَ لَكَ ذَنْبَكَ ، أَوْ قَالَ : حَدَّكَ » . متفق عليه[1].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه : « أَنَّ رَجُلاً أَصَابَ مِن امْرَأَةٍ قُبْلَةً ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ فَأَنْزَلَ اللهُ : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [١١٤٠٠] فَقَالَ الرَّجُلُ : يَا رَسُولَ الله ، أَلِي هَذَا ؟ قال : « لِجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ ». متفق عليه[2].

فالتوبة إلى الله من الذنوب والتقصير ، من أفضل مقامات أهل الإيمان ، ولا يفارقها العبد أبدًا ، ولا يزال فيها إلى الممات ، فكل بني آدم خطَّاء ، وخير الخطائين التوابون : ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [ المائدة : ٣٩ ] .

**وتوبة الله على عباده نوعان :**

توفيق منه للتوبة ، وقبول لها بعد وجودها من العبد ، فلله الحمد والمنة .

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النحل:٥٣] .

والتوبة المستحقة على الله ، حق أحقه على نفسه ، كرمًا منه وجودًا ، لمن عمل المعاصي بجهالة منه بعاقبتها ، وإيجابها لسخط الله وعقابه ، وجهل منه بنظر الله ومراقبته له وجهل منه بما تؤول إليه من نقص الخير أو زواله .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم( ٦٨٢٣ )، واللفظ له، ومسلم برقم(٤٤/ ٢٧٦٤ ) .

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٥٢٦)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٣٩/ ٢٧٦٣).

فهذا إذا تاب من قريب قبل معاينة الموت أو العذاب ، فإن الله يقبل توبة العبد إذا تاب قبل معاينة الموت أو العذاب قطعًا كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾[النساء:١٧] .

وأما بعد حضور الموت ، فلا يقبل من العاصين توبة ، ولا من الكفار إسلام ، وذلك لأن التوبة في هذه الحال توبة اضطرار لا تنفع صاحبها كما قال سبحانه : ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾[النساء: ١٨] .

ووقت التوبة مفتوح للعباد حتى تطلع الشمس من مغربها كما قال النبي ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا ».أخرجه مسلم[1] .

وقال ﷺ : « مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا ، تَابَ اللهُ عَلَيْهِ ». أخرجه مسلم[2] .

وقال الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾[آل عمران: ١٤٧] .

وقال الله تعالى:﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾[آل عمران:١٩٣].

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٣١/ ٢٧٥٩).

(٢) أخرجه مسلم برقم: (٤٣/ ٢٧٠٣).

وقال الله تعالى:﴿ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارٗا ٢٨ ﴾[نوح:٢٨] .

« اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا ، وَلاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي ، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ».متفق عليه(١).

ومن رحمة الله بعباده أن شرع الله التوبة والاستغفار في خواتيم الأعمال الصالحة :

فشرعها في خاتمة الحج ، وفي آخر قيام الليل في السحر : ﴿ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨ ﴾[الذاريات:١٧-١٨] .

وبعد السلام من الصلوات الخمس ، وبعد كمال الوضوء ونحو ذلك ، فالتوبة مشروعة عقيب الأعمال الصالحة، لأنها لا تخلو من نقص أو تقصير، أو تأخير أو غفلة .

وقد أمر الله ﷻ رسوله بالاستغفار بعد قيامه بما عليه من تبليغ الرسالة ، والجهاد في سبيله ، حتى دخل الناس في دين الله أفواجًا .

فكأن التبليغ لدين الله عبادة قد أكملها وأداها ، فشرع له الاستغفار عقيبها كما قال سبحانه : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣ ﴾ [النصر :١-٣] .

وكل بني آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون : ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩ ﴾[ المائدة :٣٩ ] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٧٣٨٧)، ومسلم برقم: (٤٨/ ٢٧٠٥)، واللفظ له.

فمن أذنب سرًا فليتب سرًا ، وليس عليه أن يظهر ذنبه ، ولا يجوز له أن يظهر ذنبه ، ويكشف ما ستره الله عليه .

قال النبي ﷺ : « كُلُّ أُمَّتِي مُعَافىً إِلا المُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ المُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلاً ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللهُ فَيَقُولَ يَا فُلانُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا ، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْهُ ». متفق عليه[1].

ومن أذنب جهراً فليتب جهرًا ، فمن أظهر بدعة أو فجورًا فلا بد من توبته علنًا ، ليفرح به المؤمن الصادق ، ويقتدي به من كان على مثل بدعته أو فجوره : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١ ﴾ [النور:٣١] .

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٠٦٩)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٥٢/ ٢٩٩٠).

# ٨- الخزانة الثامنة

## أعظم الأمانات

الدين هو الأمانة الكبرى التي تحملها الإنسان باختياره من بين سائر المخلوقات، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾[الأحزاب:٧٢-٧٣] .

فالدين أمانة ، والعمل به أمانة ، وتعلمه أمانة ، وتعليمه أمانة ، والدعوة إليه أمانة ، والمحافظة عليه أمانة ، وأعضاء الإنسان كلها أمانة ؛ فاللسان أمانة ، والقلب أمانة ، والعقل أمانة ، والسمع أمانة ، والبصر أمانة ، واليد أمانة ، والرجل أمانة ، والفكر أمانة ، والوقت أمانة ، والمال أمانة ، وأحكام الدين كلها أمانة ؛ فالطهارة أمانة ، والصلاة أمانة ، وفعل الواجبات أمانة ، وترك المنهيات أمانة ، والعدل أمانة ، والأخلاق أمانة .

والله سبحانه أمرنا أن نؤدي الأمانات التي تحملناها ، لنسعد وتسعد البشرية في الدنيا والآخرة .

وتحقق مراد الله من خلقه ، بعبادته وحده لا شريك له ، واجتناب عبادة ما سواه، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[النحل:٣٦ ] .

وقال الله تعالى:﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨ ﴾[النحل:٧٨] .

وقال الله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٧٧ ﴾[الحج:٧٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ ﴾ [آل عمران:١٩٠ -١٩١ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣ ﴾[الأنعام:١٦١-١٦٣ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٧١ ﴾ [ التوبة :٧١ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤ ﴾ [آل عمران:١٠٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢ ﴾ [آل عمران:١٣٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧ ﴾ [الحشر: ٧ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [ النحل:٩٠].

وقال الله تعالى : ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف:١٩٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف:١٠٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [ هود : ٥٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [آل عمران:٧٩ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤].

وقال الله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [ البقرة :١٩٥ ] .

هذه الأمانات العظيمة يجب أداؤها لله ﷻ ، وتجب التوبة من تركها : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ ﴾ [النساء:٥٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [النساء:١١٠] .

- **أحوال الإنسان في هذه الحياة الدنيا .**

**كل إنسان في هذه الحياة يتقلب بين خمسة أمور :**

نعمة من الله يجب عليه شكرها ، وأمر من الله يجب عليه فعله ، ونهي يجب عليه اجتنابه ، وذنب يجب عليه الاستغفار منه ، ومصيبة يجب عليه الصبر عليها.

فهذه أصول وواجبات الدين .

وقد ابتلى الله سبحانه كل إنسان بالغفلة والنسيان ، والنفس والشيطان ، والجهل والخطأ ، والعجز والكسل ، والأموال والشهوات : ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [ العنكبوت :٢- ٣ ] .

والله ﷻ يريد تكميل محبوباته من الإيمان والطاعات ، والنفس تريد تكميل محبوباتها من الشهوات والملذات ، والرسل وأتباعهم يدعون الناس إلى عبادة الله وحده، والشيطان يريد جر الناس إلى طاعته، ليشتغلوا بمعصية الله، ثم ينالوا عقابه وعذابه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ [ فاطر :٥- ٦ ] .

والحرب سجال ، ولا نجاة للعبد إلا بالإيمان بالله ، والتوكل عليه ، ولزوم عبادته وذكره ، ودوام التوبة والاستغفار ، والحذر من طاعة النفس والشيطان وجنوده : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [ يوسف : ٥٣ ] .

ومحبوبات الرب ، هي أوامر الله التي جاءت بها الرسل :﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّآئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [التوبة:١١٢ ] .

فمن أكمل محبوبات الرب في هذه الدنيا بالتوحيد والإيمان والتقوى ، أكمل الله محبوباته يوم القيامة كما قال سبحانه : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة: ١٧ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [ البقرة : ٢٥ ] .

والله رءوف بالعباد يحب من أطاعه ويحب من تاب إليه : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الشورى:٢٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء:٢٧-٢٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾[التوبة:١١٧] .

- **فضل التوبة والاستغفار :**

من رحمة الله ﷻ بالإنسان أن خلقه في أحسن تقويم ، وهداه إلى الدين : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[الحجرات:١٧] .

وأمره بما يسعده في الدنيا والآخرة ، ونهاه عما يضره في الدنيا والآخرة .

وشرع الله التوبة والاستغفار في كل وقت ، وأكد عليها ، ورغب في التوبة والاستغفار في خواتيم الأعمال الصالحة كالوضوء والصلاة ، وقيام الليل ، والحج ، ومجالس العلم والذكر ، وختام المجلس والجهاد والدعوة إلى الله وغير ذلك من الأحوال .

والله تواب يحب التوابين ويحب المتطهرين ، وجميع الناس محتاجون إلى التوبة والاستغفار ، الأنبياء والمرسلون ، والمؤمنون المتقون ، والفجار والفاسقون ، والله يفرح بتوبة كل تائب مهما بلغ ذنبه ، وتكررت معصيته ، ويتوب عليه كلما تاب إليه، كما قال سبحانه : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾[الزمر:٥٣] .

وقال الله تعالى:﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾[النساء:١١٠ ] .

وقال الله تعالى:﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور:٣١] .

وقال تعالى عن آدم ﷺ : ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [ البقرة : ٣٧ ] .

وقال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾ [النصر:١-٣] .

وقال آدم ﷺ وزوجه : ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف:٢٣] .

وقال نوح ﷺ : ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح:٢٨] .

وقال إبراهيم ﷺ : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة:١٢٧ -١٢٨] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « والله إنِّي لأَسْتَغْفِرُ الله وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْم أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً ».أخرجه البخاري[1].

وعن الأغر المزني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي ، وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ ، فِي الْيَوْمِ ، مِائَةَ مَرَّةٍ ». أخرجه مسلم[1] .

---

(١) أخرجه البخاري برقم: (٦٣٠٧).

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ وَقَدْ أَضَلَّهُ فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ» .متفق عليه[٢] .

ومن تاب إلى الله تاب الله عليه ، فلنبادر إلى التوبة إلى الله من كل ذنب عملناه : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨﴾ [التحريم:٨].

وقال الله تعالى:﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾ [البقرة:٢٨٦].

فلله الحمد والشكر على ما أنعم به علينا من نعمة الخلق والإيجاد ، ونعمة القوت والإمداد ، ونعمة الهداية والإسعاد : ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٦ وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٧﴾ [الجاثية:٣٦-٣٧] .

فالله وحده لا شريك له هو المستحق للحمد والشكر ، وهو المحمود على كمال أسمائه وصفاته ، وحسن أفعاله ، وهو المحمود على نعمه التي لا تعد ولا تحصى ، وهو المحمود على إكرامه لأهل الإيمان والعدل والإحسان ،

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٤١/ ٢٧٠٢).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٣٠٩ )، ومسلم برقم:٧/ ٢٧٤٧، واللفظ له.

وهو المحمود على انتقامه من أهل الكفر والظلم والإساءة ، وهو المحمود على حلمه بعد علمه ، وعلى عفوه ومغفرته : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾ [ الأنعام : ١ ] .

وهو سبحانه المحمود على قضاء الحاجات وتدبير أمور الخلق ، وإجابة دعائهم ، وقسمة أرزاقهم .

وهو سبحانه المحمود على جلاله وجماله ، وعلى نعمه وإحسانه ، وعلى قضائه وقدره ، وعلى دينه وشرعه ، وعلى جميع أفعاله : ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [ غافر : ٦٥ ].

وهو المحمود على العون على الطاعات ، وغفران السيئات : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الفاتحة : ٢-٧] .

فلله الحمد أولًا وآخرًا ، والحمد لله على كل حال ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

« اللهم لَكَ الحَمْدُ ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ الحَقُّ ، وَوَعْدُكَ حَقٌّ ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ ، وَالنَّارُ حَقٌّ ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ ، وَمحُمَّدٌ ﷺ حَقٌّ ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ ، وَبِكَ آمَنْتُ ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ ، وَبِكَ خَاصَمْتُ ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ ، فَاغْفِرْ

ا ... وَمَا قَدَّمْتُ ... وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ » . متفق عليه[1] .

«رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ ، مِلْءُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَمِلْءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلُ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ ، اللَّهُمَّ ! لاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلاَ يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ» . أخرجه مسلم[2] .

- **فقه التوبة :**

التوبة هي رجوع العبد لله ﷻ ، ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين إلى صراط المنعم عليهم من الأنبياء والمرسلين والمؤمنين كما قال سبحانه : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾[الفاتحة : ٢-٧] .

وحقيقة التوبة هي الندم على ما سلف من العبد في الماضي من المعاصي ، والإقلاع عنها في الحال ، والعزم على ألا يعود إليها في المستقبل .

والتوبة هي الرجوع عن الأفعال المذمومة إلى الأفعال الممدوحة ، والتحول عن الحركات المذمومة إلى الحركات المحمودة .

فالتوبة هي ترك الذنب لقبحه ، والندم على ما فرط منه ، والعزيمة على ترك المعاودة إليه ، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالقضاء والإعادة ،

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٣١٧)، واللفظ له، ومسلم برقم: (٧٦٩ ).

(٢) أخرجه مسلم برقم: (١٩٤/ ٤٧١).

فمتى اجتمعت هذه الأربع ، فقد كملت شروط التوبة في حق التائب : ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحجرات:١١] .

- **الألفاظ المقاربة للفظ التوبة منها :**

١- الإنابة ، والإنابة إلى الله تعالى : الرجوع إليه بالتوبة وإخلاص العمل كما قال سبحانه عن سليمان ﷺ : ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ص:٣٠] .

كما قال سبحانه عن داود ﷺ : ﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [ص:٢٤- ٢٥] .

٢- ومنها الاستغفار، كما قال سبحانه : ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [ نوح :١٠- ١٢ ] .

فالاستغفار بهذا المعنى يتضمن التوبة إلى الله ، فالاستغفار إذا ذكر مفردًا يراد به التوبة مع طلب المغفرة من الله ، وهو محو الذنب ، وإزالة أثره ، ووقاية شره ، والستر لازمٌ لهذا المعنى .

٣- ومنها الأوبة ، والأواب : كثير الرجوع إلى الله ﷻ من ذنبه ، فالأوبة هي الرجوع كالتوبة ، والأواب : التائب كما قال سبحانه : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ص:٣٠] .

فمن رجع عن المخالفات الشرعية خوفًا من الله فهو تائب ، ومن رجع حياءً من نظر الله إليه فهو منيب ، ومن رجع تعظيمًا لجلال الله فهو أواب : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [هود:٧٥] .

وشأن التوبة عظيم ، وهي من أعظم مقامات العبد بين يدي ربه ، فهو يستغفر الله دائمًا ، ويتوب إليه من تقصيره في حق ربه ، بترك بعض أوامره ، وفعل بعض ما نهى عنه ، ولهذا جعل الله ﷻ أول صفات المؤمنين الذين اشتراهم هي التوبة إلى الله ﷻ كما قال سبحانه : ﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [التوبة:١١٢ ] .

فهذه عشر صفات تحققت فيمن اشتراهم الله ﷻ كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ ﴾ [التوبة:١١١ ] .

لهذا لابد من بيان التوبة ، ووقتها ، وشروطها ، وثمراتها ، ليكون المسلم على بينة من ذلك ، وذلك لعدة أمور :

**الأول** : جهل الكثير من الناس بحقيقة التوبة وشروطها وآدابها واقتصارهم على ترديدها باللسان دون أن يكون لها أثر في الجنان والكيان .

**الثاني** : لابد للعبد من التوبة ، وإلا كان ظالمًا لنفسه ، جاهلًا بنفسه ، جاهلًا بربه ، ومن لم يتب كل صباح ومساء ، فهو من الظالمين كما قال سبحانه : ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحجرات:١١] .

**فالناس اثنان :**

تائب .. وظالم .

وأوقع إثم الظلم على من لم يتب ، ولا أظلم منه ، لجهله بربه وحقه ، وبعيب نفسه ، وآفات عمله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحجرات:١١] .

**الثالث** : أمر الله بالتوبة وكرر ذكرها في كتابه سبعة وثمانين مرة ، لعظيم شأنها ، وحب الله لها .

[illegible] ﷺ [illegible] « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ! تُوبُوا إِلَى اللهِ ، فَإِنِّي أَتُوبُ ، فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّة » . أخرجه مسلم[1] .

[illegible] ﷺ [illegible] « إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي ، وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ ، فِي الْيَوْمِ ، مِائَةَ مَرَّةٍ » . أخرجه مسلم[2] .

[illegible] ﷺ [illegible] « إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً » . أخرجه البخاري[3] .

فإذا كانت هذه حاله ﷺ وهو قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فكيف بحالنا نحن الخطائين بأقوالنا وأفعالنا وأخلاقنا : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف:٢٣] .

**الرابع** : أن التوبة إلى الله من أفضل القربات التي ينبغي الحث عليها ، والتذكير بها ، والحديث عنها ، وذلك لأن لها عند الله تعالى منزلة ليست لغيرها من الطاعات ، ولهذا يفرح سبحانه بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٤٢/ ٢٧٠٢).

(٢) أخرجه مسلم برقم: (٤١/ ٢٧٠٢).

(٣) أخرجه البخاري برقم: (٦٣٠٧).

فرح كما قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢٢] .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ وَقَدْ أَضَلَّهُ فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ » . متفق عليه[1] .

**الخامس** : ضرورة استصحاب التوبة في جميع مراحل حياة الإنسان ، وأهمية التعبد بها لله في كل الأحوال ، عند تقصير العبد ، وعند طاعته ، وعند إحسانه وعند إسائته فهي ضرورة في بداية سيره ونهايته ، ولهذا قال الله ﷻ لرسوله ﷺ في خاتمة حياته : ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾ [النصر:١-٣] .

- **حكم التوبة :**

**التوبة نوعان :**

واجبة .. ومستحبة .

**فالتوبة الواجبة** ، هي التوبة من الكفر إلى الإيمان ، ومن الشرك إلى التوحيد : ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات:١١] .

وكذا التوبة من ترك ما أمر الله ورسوله به وفعل ما نهى الله ورسوله عنه : ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور:٣١] .

وهذه واجبة على جميع المكلفين .

**أما التوبة المستحبة** ، فهي التوبة من ترك المستحبات ، وفعل المكروهات .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٣٠٩ )، ومسلم برقم: (٧/ ٢٧٤٧)، واللفظ له.

فمن اقتصر على التوبة الأولى الواجبة ، كان من الأفراد المقتصدين ، ومن تاب التوبتين الواجبة والمستحبة ، كان من السابقين المقربين ، ومن لم يأت بالأولى كان من الظالمين ، ويجب على كل مسلم ومسلمة المبادرة والمسارعة إلى التوبة ، فإن تأخيرها يدل على الإصرار المحرم : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النور:٣١] .

وقد وصف الله عباده المتقين بعدم الإصرار على المعصية كما قال سبحانه : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٦] .

والإصرار هو التسويف ، والتسويف بأن يقول : أتوب غدًا ، وهذه دعوى النفس ، كيف يتوب غدًا ، وغدًا لا يملكه ؟ ! ! فبادر أخي المسلم بالتوبة ، واحذر التسويف ، فإن الموت يأتي بغتة ، والأجل ينقضي فجأة : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ [النساء:١٧-١٨] .

والوقاية من الذنوب والمعاصي ، والسلامة من الآثام ، خير من طلب التوبة ، فإن ترك الخطيئة ، أيسر من طلب التوبة ؛ وذلك لأنه ربما لا يوفق العبد لها ، وإذا وفق وتاب ، فإنها ربما لا تقبل ، والسلامة خير مغنم : ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ [هود:١١٢] .

- **مراتب التوبة :**

لما كانت التوبة رجوعًا إلى الله من مواقع البعد عنه بسبب المعاصي والذنوب ، أو المخالفات والتقصيرات ، أو الغفلات ، وإتباع الشهوات ، واشتغال النفس والفكر والقلب بغير مراقبة الله ، والتفكر في آياته ومخلوقاته ، كانت ذات مستويات متفاوتات .

أول التوبة وأعظمها : التوبة من الكفر والشرك إلى الإيمان والتوحيد ، وهي توبة ترفع إلى مستوى الإيمان : ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤ ﴾ [ الأنفال:٢- ٤ ] .

وفوقها التوبة من الكبائر ، وهي توبة ترفع إلى بعض درجات التقوى .

وفوقها التوبة من الصغائر ، وهي توبة ترفع إلى أعلى درجات التقوى .

وفوقها التوبة من المكروهات ، وترك المندوبات ، وهي توبة ترفع إلى درجات البر .

وفوقها التوبة من التقصيرات من درجات الكمال الإنساني في السلوك ، وهي توبة ترفع إلى أعلى درجات الإحسان : ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [لقمان: ٢٢] .

وفوقها التوبة من الغفلات عن الله ، والاشتغال بغير مراقبته ، والتفكر في آياته ومخلوقاته ، وهي توبة ترفع إلى مرتبة المقربين : ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الواقعة:١ - ١٤] .

وهذه المستويات للتوبة درجات ، يرتقي فيها التائبون إلى ربهم بحسب ما يكون منهم من توبة إلى الله .

وتوبة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام من مستوى التوبة العليا ، واستغفارهم هو من شعورهم بتقصيرهم عن بلوغ أعلى الدرجات ، وكلما وجدوا من أنفسهم تقصيرًا ينزل بهم عن المرتقى الرفيع الذي ينشدونه تابوا إلى الله ، واستغفروه ، وأنابوا إليه ، ولهذا « كان رسول الله ﷺ يستغفر الله ، ويتوب إليه ، أكثر من سبعين مرة » . أخرجه البخاري[1] .

فاللهم اغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا ، وما أسررنا وما أعلنا ، وما أنت أعلم به منا ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت .

---

(١) أخرجه البخاري برقم: (٦٣٠٧).

# ٩- الخزانة التاسعة

- **فضائل التوبة إلى الله ﷻ :**

التوبة إلى الله ﷻ من أجل الطاعات ، وأفضل القربات ، وصاحبها له عند الله منزلة عظيمة ، وعطايا كريمة ، نسأل الله ﷻ أن يجعلنا وإياكم من التوابين المتطهرين ، والتوبة لها فضائل وثمرات عظيمة ومنها :

**أولًا** : التوبة طريق للفلاح ، فالله أمر المؤمنين بعد إيمانهم ، وصبرهم ، وهجرتهم ، وجهادهم ، أن يتوبوا إلى الله ، وعلق فلاحهم بالتوبة كما قال سبحانه : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النور:٣١] .

**ثانيًا** : الملائكة تدعو للتائبين كما قال سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [غافر:٧-٩] .

فسبحان الله الرحمن الرحيم الكريم ، ما أكرم المؤمن على الله ؛ هو نائم على فراشه ، والملائكة يستغفرون له ! .

**ثالثًا** : سعة الرزق ، ورغد العيش كما قال سبحانه : ﴿ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ

فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ [هود:٣-٤] .

وقال هود ﷺ لقومه : ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [هود:٥٢] .

أي استغفروه من سالف ذنوبكم ، وتوبوا إليه من المستأنف متى وقع منكم ، وقد وعد نوح ﷺ قومه بخمسة أصناف من الرزق ، إن هم تابوا واستغفروا ربهم ، فقال سبحانه عن نوح ﷺ : ﴿ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ﴿١٠﴾ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴿١١﴾ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ﴿١٢﴾ ﴾[نوح:١٠ -١٢] .

**رابعًا** : تكفير السيئات ، وغفران الخطيئات ؛ فالله ﷻ كريم يبدل سيئات من تاب إلى الله حسنات كما بشر الله ﷻ عباده بذلك فقال للمذنبين : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٧٠﴾ ﴾[ الفرقان :٦٨- ٧٠ ] .

والله ﷻ أبدل التائبين بالعمل السيئ العمل الصالح ، وأبدلهم بالشرك توحيدًا ، وأبدلهم بالفجور إحصانًا ، وبالكفر إسلامًا ، وتلك السيئات تنقلب بالتوبة النصوح نفسها حسنات ، وما ذلك إلا لأن العبد كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر ، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار ، ولا يبعد

في كرم الله تعالى إذا صحت توبة العبد ان يضع مكان كل سيئة حسنة كما قال رسول الله ﷺ : « إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الجَنَّةِ دُخُولًا الجنة و آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا ؛ رجل يُؤْتَى بِه يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُقَالُ : اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ وارفعوا عنه كبارها ، فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صغار ذنوبه ، فَيُقَالُ : عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وكَذَا ، كَذَا وكَذَا ، وعملت يَوْمَ كَذَا وكَذَا ، كَذَا وكَذَا ، فيقول : نعم ، لا يستطيع أن يُنْكِرُ ، وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنَ كبار ذنوبه أن تعرض عليه ، فَيُقَالُ له : فإن لكُ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَة حَسَنَةً ، قَالَ : فَيَقُولُ : يا رب قد عملت أشياءً لا أَرَاهَا هَاهُنَا ، فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُه ». أخرجه مسلم[1].

وقال النبي ﷺ عن ربه أنه يقول : « يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ منك وَلَا أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ أنك أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَة » . أخرجه الترمذى[2] .

**خامسًا** : من ثمرات التوبة نور البصيرة ، وانشراح الصدر : ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[الأنعام:١٢٢] .

**سادسًا** : طهارة القلب ووضاءته ؛ فالتوبة بمنزلة المنقية للقلب ، تُذهب بوسخه وسواده ، وتنظفه ، وتحافظ على بياضه ، ولهذا قال النبي ﷺ : « إِنَّ

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٣١٤/ ١٩٠).

(٢) حسن/ أخرجه الترمذي برقم: (٣٥٤٠).

العَبْدَ إِذَا أذنب ذنبًا كانت نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ في قلبه ، فَإِن تَابَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ ، وَإِنْ زاد زادت حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ ، فذلكم الرَّانُ الَّذي ذَكَرَ اللهُ : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المطففين : ١٤] .. أخرجه الترمذي بسند صحيح(١) .

والنكتة هي الأثر الذي يتركه الذنب في قلب صاحبه .

وقال ﷺ : « إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي ، وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ ، فِي الْيَوْمِ ، مِائَةَ مَرَّةٍ » . أخرجه مسلم(٢) .

**سابعًا** : محبة الله ﷻ للتائب ؛ مع فرح الله ﷻ بتوبة عبده جعل محبته له كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [البقرة:٢٢٢] .

**ثامنًا** : فرح الخالق سبحانه بالتائب ؛ فالله ﷻ يفرح بتوبة عبده فرح المستغني عنه ، المتفضل عليه ، وهي فرحة إحسان من الرب ، وبر ولطف لا فرحة محتاج إلى توبة عبده ، منتفع بها ، فهو سبحانه الغني لا يتكثر به من قلة ، ولا يتعزز به من ذلة ، ولا ينتصر به من غلبة كما قال النبي ﷺ : « للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ ، حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلاةٍ فَانْفَلَتَتْ عنْهُ ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ ، فَأَيِسَ مِنْهَا ، فَأَتَى شَجَرَةً ، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا ، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا ، قَائِمَةً

---

(١) صحيح/ أخرجه الترمذي برقم: (٣٥٢٦).

(٢) أخرجه مسلم برقم: (٤١/ ٢٧٠٢).

عِبَادِي وَأَنَا رَبُّكَ أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ : اللَّهُمَّ ! أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ » . متفق عليه[1] .

**تاسعًا** : الخيرية على عباده ؛ إن خير العباد من أسرع التوبة إلى ربه ، واستدام الأوبة كما قال النبي ﷺ : « كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ » . أخرجه الترمذي وابن ماجة بسند صحيح[2] .

**عاشرًا** : التوبة فيها حفظ الله ورعايته ؛ فعليكم بالتوبة إلى الله ﷻ ، فإنها ترد عنكم ما لا ترده السيوف .

قال النبي ﷺ لابن عباس : « يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ ، احْفَظْ اللهَّ يَحْفَظْكَ ، احْفَظْ اللهَّ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللهَّ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُّ لَكَ ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُّ عَلَيْكَ » . أخرجه الترمذي وأحمد[3] .

فعلى كل عبد ظلم نفسه ، وظلم غيره ، أن يبادر بالتوبة إلى الله ؛ ليتوب الله عليه ، ويغفر له ذنوبه : ﴿ **فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩** ﴾ [المائدة:٣٩] .

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٦٣٠٩ )، ومسلم برقم: (٧/ ٢٧٤٧)، واللفظ له.

(٢) صحيح/ أخرجه الترمذي برقم: (٢٤٩٩)، وابن ماجة برقم: (٤٢٥١).

(٣) صحيح / أخرجه الترمذي برقم: (٢٥١٦)، وأحمد برقم: (٢٦٦٩).

**الحادي عشر** : التوبة سبيل الظفر برحمة الله الواسعة ؛ فالتائبون هم أهل رحمة الله ﷻ وكرامته ، وفضله ومنته ، كما حصل لآدم وإبليس وقت الابتلاء ، فمن أراد أن يعرف هذا ، فلينظر إلى عاقبة آدم وإبليس ، ليرى مكانة التائبين عند الله ، وسعة رحمته لهم ؛ فآدم ﷺ تاب واستغفر فكانت عاقبته : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [طه:١٢١-١٢٢] .

وإبليس كفر واستكبر فكانت عاقبته : ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأعراف:١٨] .

- **علامات التوبة المقبولة :**

إذا تاب العبد إلى ربه ، وقبلها الله منه ، فلذلك علامات لهذا التائب :

**العلامة الأولى** : أنه يشكر الله ﷻ على التوفيق للتوبة.

فيحمد الله ﷻ على ما وفقه إليه للهداية ، وتيسير أسبابها بما أظهر له ربه من الآيات ، وساق إليه من التنبيهات وأطلعه عليه من التخويفات والتحذيرات ، وعرفه وبصره بغوائل الذنوب ، وعواقب مخالفة أوامر علام الغيوب ، فتاب إلى ربه الذي من عليه بالهداية : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النحل:٥٣] .

فلله الحمد على الهداية ، وغفران الذنوب : ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الجاثية:٣٦-٣٧] .

**الثانية:** المبادرة إلى الأعمال الصالحة بعد التوبة .

فقد قرن الله ﷻ العمل الصالح بالتوبة في آيات كثيرة، وهو ما يدل على أن مبادرة التائب للطاعات ، وإتباعه للسيئات بالحسنات ، من أبرز العلامات على صدق توبته ، وقبول الله لأوبته كما قال سبحانه : ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ [الفرقان: ٦٨- ٧١] .

فمن تاب وعمل صالحًا ، فحقق توبته بالأعمال الصالحة ، فهو الذي تاب إلى الله متابًا ، أي تاب حق التوبة ، وهي التوبة النصوح .

**الثالثة:** محبة الله ورسوله والمؤمنين.

فالتائب من الذنوب من أقوى علامات صدقه في التوبة هذه الخصال :

محبة الله ، ومحبة رسوله ، ومحبة المؤمنين في الله ﷻ .

قال النبي ﷺ : « لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ».متفق عليه[1].

وقال النبي ﷺ : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يحُبَّ لِأَخِيهِ مَا يحُبُّ لِنَفْسِهِ ». متفق عليه[2].

**الرابعة** : الخوف من الله ﷻ .

يخاف من سوء عاقبة ما وقع فيه ، وما بدر منه من المعاصي ، خوفًا يجعله ذليلًا خاشعًا بين يدي ربه ، كلما تذكر ذنبه انكسر قلبه ، وهملت عيناه بالدموع ، لتجدد عهدها مع ربها في الاستقامة ، والثبات على منهجه : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾ [الملك:١٢] .

**الخامسة** : السعي في الاستدراك .

فإن من صدق التائب استدراكه لما فرط فيه ، فتراه يجاهد نفسه في الإكثار مما قصر فيه ، والإحسان فيما أخل به ، ولعل هذا من ابرز ما امتاز به السلف في توبتهم : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم( ١٥ )، ومسلم برقم( ٤٤ ) .

(٢)متفق عليه، أخرجه البخاري برقم( ١٣ ) ، ومسلم برقم( ٤٥ ) .

رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

[آل عمران:١٣٣-١٣٦] .

وقال الله تعالى:﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٩﴾﴾

[الزمر:٩].

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[السجدة:١٥-١٧ ] .

# ١٠- الخزانة العاشرة

## فقه بواعث التوبة ، وأسباب استدامتها

بعض الناس يتوب من ذنبه ، ثم يرجع إليه مرة أخرى ، وبعض الناس يستقيم على توبته ، وتصلح حاله ، وآخرون يتذبذبون ، فمرة يتوبون ، وأخرى يعودون ، لهذا لابد من معرفة بواعث التوبة وأسباب استدامتها ومن ذلك :

**أولًا** : معرفة حقيقة التوبة ؛ فحتى يستقيم العبد على التوبة حقًا ، وتقوى أركانها في قلبه صدقًا عليه أن يعرف حقيقتها ، وتظهر عليه أثارها من ندم وحسرة على ما مضى ، وعزم وإرادة للاستدراك فيما بقي ، وكم من التائبين لا يعرف من التوبة إلا استغفارًا باللسان ، ينتهي أثره في قلوبهم بانتهاء استغفارهم.

فالندم نار تحرق القلب حتى يعود إلى ربه ، ويتوب من ذنبه .

كما جاءت المرأة التي زنت للنبي ﷺ قائلةً له : يَا رَسُولَ اللهِّ طَهِّرْني ، فيرجعها رسول الله ﷺ حتى تضع حملها ، ثم ترضعه حتى تفطمه ، فظلت طوال هذه السنين نادمة على فعلها ، قلقة من ذنبها ، تريد أن تضعه عن كاهلها ، وتطهر من أدرانه قلبها ، ولو أدى ذلك إلى قتلها ، فلما بلغت الأجل الذي أجلها رسول الله ﷺ جاءت فجادت بنفسها توبةً لخالقها ، وأقيم عليها حد الزنا .

فما أعظم توبة هذه المرأة من فاحشة الزنا ! وما أصدقها ، حيث قال فيها النبي ﷺ : « لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمُدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ » . أخرجه مسلم [1] .

**ثانيًا** : استشعار عواقب الذنوب ؛ فإن من أدرك ضرر الذنوب ، واستشعر سوء عاقبتها ، فر إلى التوبة ، واشتاق إليها ، فإذا ما ظفر بها تشبث بها تشبث الغريق بمنقذه ؛ ولهذا جاء ذكر عواقب الذنوب في نصوص كثيرة ، لزجر الناس عنها ، وترغيبهم في التوبة منها، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾[النساء:١٤].

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء:٥٦] .

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ ﴾ [ الفرقان : ٦٨- ٧١ ] .

---

(١) أخرجه مسلم برقم: (٢٤/ ١٦٩٦).

فلو تذكر العبد ، وقرن المعصية بعقوبتها ، وقرن الطاعة بثوابها ، لما وجدته إلا طائعًا غير عاصٍ لربه ﷻ .

**ثالثًا** : هجران سيء الأخلاق ، ومفارقة بيئة العصيان ؛ إن مفارقة الصحبة الطالحة السيئة من أكبر أسباب قوة التوبة واستدامتها ، ذلك لأنهم يحببون إليه الذنب ، ويدعونه إليه ، ويسهلونه له ، ويشجعونه عليه ، مما يضعف العزيمة على الطاعة ، ويقوي في قلبه داعي المعصية كما أن ابتعاد التائب عن مكان الفتن والشهوات ، والمعاصي والمنكرات ، مما يحصنه من الوقوع فيها ، ويبعده عنها ، فالصاحب ساحب إلى خير أو شر : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾[النساء:١٤٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنعام:٦٨] .

وعن سعيد بن مالك بن سنان الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : كان فيمن كان قبلكم رجل قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا ، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ ، فَدُلَّ عَلَى رَاهب فَأَتَاهُ ، فَقَالَ : إِنِّه قَدْ قَتَلْتُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لِه مِنْ تَوْبَةٍ ؟ . فقال : لا ، فَقَتَلَهُ فَكْمَلَ بِهِ مِائَةً ، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ ، فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عالم ، فَقَالَ : إِنِّه قتل مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لِه مِنْ تَوْبَةٍ ؟ ، فقَالَ :

نعم ، وَمَنْ يحُولُ بَيْنَه وَبَيْنَ التَّوْبَةِ انطلق إلى أرضِ كَذَا وَكَذَا فإن بها أناس يعبدون الله تعالى فَاعْبُدْ الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنما هي أرض سوء ، فانطلق حتى إذا انتصف الطريق أتاه الموت ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلائِكَةُ الْعَذَابِ ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائبًا مقبلًا بقلبه على الله تعالى ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيرًا قط ، فأتاه ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم أي حكمًا ، قال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له ، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة » . متفق عليه[1] .

**رابعًا** : الدعاء ؛ فمن أعظم أسباب التوفيق للتوبة والديمومة عليها ، سؤال الله إياها ، فإن التائب حقًا من وفقه لها وتقبلها منه ، وثبته عليها ؛ ولهذا قام أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم بسؤال الله التوبة ؛ فهذا إبراهيم عليه السلام يقول : ﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ ﴾[البقرة: ١٢٨] .

**خامسًا** : قراءة القرآن وتدبره ؛ فالباعث على التوبة ، وعدم الإصرار على الذنب ، إدامة التفكر في كتاب الله العزيز الغفار ، وما ذكره سبحانه من تفاصيل نعيم الجنة ، وما وعد به المطيعين، وما وصفه من أنواع عذاب النار، وهدد به العاصين كما قال سبحانه : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم: (٣٤٧٠)، ومسلم برقم: (٤٦/ ٢٧٦٦)، واللفظ له.

جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾[التوبة:٧٢] .

وقال الله تعالى:﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٦٨﴾ ﴾[التوبة: ٦٨] .

**سادسًا** : معرفة عظمة الخالق ؛ فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله ، وعرف قدرته ، وشدة بطشه ، وعظيم قوته وعقابه ، خاف وسارع بالتوبة إلى ربه : ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾ ﴾[ محمد : ١٩ ] .

**سابعًا** : تذكر الموت ، وفجأة نزوله ، مما يعين على انبعاث العبد للتوبة إلى خالقه ، تذكره للموت ، وسرعة أخذته ، وفجأة موعده وأخذه : ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾[آل عمران:١٨٥].

وقال الله تعالى:﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾[الجمعة:٨] .

- **فقه التوبة من الذنوب :**

إذا تاب المذنب من ذنبه ثم عاد إليه مرة أخرى ، فما حكم توبته الأولى ؟ .

١- لا يشترط في التوبة عدم العودة للذنب الذي تاب منه ، وإنما تتوقف التوبة على الإقلاع عن الذنب ، والندم عليه ، والعزم الجازم على ترك

معاودته ، فإن عاود له مع عزمه حال توبته على ألا يعاوده ، صار كمن ابتدأ المعصية من جديد ، ولم تبطل توبته المتقدمة ، ولا يعود إليه إثم الذنب الذي ارتفع بالتوبة ، وصار كأن لم يكن ، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

٢- والتوبة لا تصح من ذنبٍ مع الإصرار على آخر من نوعه .

وأما التوبة من ذنب ، مع مباشرة آخر لا تعلق له به ، ولا هو من نوعه ، فتصح كما إذا تاب الإنسان من الربا ، ولم يتب من شرب الخمر مثلًا ، فإن توبته من الربا صحيحة .

وأما إذا تاب من تناول الحشيش ، وأصر على شرب الخمر أو العكس ، فهذا لا تصح توبته ، وهو كمن يتوب عن الزنا بامرأة ، وهو مصر على الزنا بغيرها غير تائبٍ منها .

٣- وهل يشترط في التوبة من الغيبة والنميمة أو غيرها اخبار من اغتبته ؟

ذلك مترتب على جلب المصالح ، ودفع المفاسد ؛ فإن كان في إخباره مصلحة ، ولا يحصل بذلك خلاف وفرقة ، فالأولى أن يتحلل منه ويخبره بما قال فيه ، حتى يسامحه .

كما قال النبي ﷺ : « مَنْ كَانَتْ لأَخِيه عِنْدَهُ مَظْلمَةٌ ، مِنْ مال أو عِرض فَلْيَتَحَلَّلْهُ اليَوْمَ قبْلَ أنْ لاَ يَكُونَ دِينَار وَلاَ دِرْهَمٌ إلا الحسنات والسيئات » . أخرجه البخاري [1] .

(١) أخرجه البخاري برقم: (٦٥٣٤).

وقال النبي ﷺ : « مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ اليَوْمَ ، قَبْلَ أَنْ لاَ يَكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَجعلت عَلَيْهِ ». أخرجه البخاري[1] .

**فهذا الذنب يتضمن حقين :**

حقً لله ، وحقًا للآدمي .

فالتوبة منه بتحلل الآدمي ، لأجل حقه ، والندم فيما بينه وبين الله ، لأجل حقه سبحانه : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [ النساء :١١٠ ] .

وإن ترتب على إخباره عداوة وفرقة ، وحصول مضرة ، فالأولى عدم إخباره فيكفيه توبته بينه وبين الله ، وأن يذكر المغتاب والمقذوف في مواضع غيبته وقذفه بضد ما ذكره به من الغيبة ، فيبدل غيبته له بمدحه والثناء عليه وذكر محاسنه في كل مجلس : ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [ هود : ١١٤ ] .

ويستبدل قذفه بذكر عفته ، ويستغفر الله بقدر ما اغتابه ، وذلك إذا كان في إعلامه بذلك مفسدة محضة لا تضمن مصلحة ، وما كان هكذا فإن الله لا يبيحه فضلًا عن أن يوجبه أو يأمر به : ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾ [المائدة:٢]

---

(١) أخرجه البخاري برقم: (٢٤٤٩).

فعلى من يريد استدامة توبته ، والثبات عليها ، المحاسبة اليومية للنفس مع التوبة من التقصير والتفريط ، والإكثار من الاستغفار والتوبة في كل مجلس.

وليكن من الورد اليومي له الاستغفار مائة مرة كما كان يفعله النبي ﷺ .

وحفظ حديث كفارة المجلس ، وسيد الاستغفار ، مع تعهد الدعاء به في خشوع وحضور قلب ، وندمٍ على ما فعل من الذنوب .

وهجر أصحاب السوء إلا إذا كانت هناك مصلحة شرعية تقتضي الجلوس معهم أحيانًا ، لدعوتهم إلى الله ، أو الإنكار عليهم ، على أن يكون الداعي فقيهًا حكيمًا قد ثبتت على طريق الدعوة قدمه : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٠٤].

وإتباع التوبة بالصدقة ، وهي سنة سلفية ، فعلها الكثير من السلف منهم : كعب بن مالك ، وأبو لبابة حين تاب الله عليهما : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [النساء:١١٠ ] .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر:٥٣] .

اللهم تب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، واغفر لنا إنك أنت الغفور الرحيم : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف :٢٣] .

# فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

**الجزء التاسع** ..... ٥

**٥٧-خزائن انواقض الإسلام:** ..... ٧

**وتشتمل على ما يلي :** ..... ٨

١.الخزانة الأولى..... ٩

٢.الخزانة الثانية..... ١٧

٣.الخزانة الثالثة..... ٢٨

٤.الخزانة الرابعة..... ٤٠

٥.الخزانة الخامسة..... ٥١

٦.الخزانة السادسة..... ٦١

٧.الخزانة السابعة..... ٧٥

٧.الخزانة الثامنة ..... ٨٤

٧.الخزانة التاسعة..... ٩٧

١٠. الخزانة العاشرة ..... ١١١

**٥٨- خزائن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر: ..... ١٢٥**

**وتشتمل على ما يلي: ..... ١٢٥**

١.الخزانة الأولى..... ١٢٦

٢.الخزانة الثانية..... ١٣٦

٣.الخزانة الثالثة..... ١٤٧

٤.الخزانة الرابعة..... ١٥٤

٥.الخزانة الخامسة..... ١٦٤

**٥٩- خزائن أعداء الإنسان:..... ١٧١**

**القسم الأول ويشتمل على ما يلي: ..... ١٧٢**

١.الخزانة الأولى..... ١٧٣

٢.الخزانة الثانية..... ١٨٥

٣.الخزانة الثالثة..... ١٩٦

٤.الخزانة الرابعة..... ٢١٢

٥.الخزانة الخامسة..... ٢٢٧

٦.الخزانة السادسة..... ٢٣٨

٧.الخزانة السابعة ..... ٢٥١
٧.الخزانة الثامنة ..... ٢٦٣
٧.الخزانة التاسعة ..... ٢٨٠
١٠. الخزانة العاشرة ..... ٢٩٥
**القسم الثاني ويشتمل على ما يلي: ..... ٣١٥**
١.الخزانة الأولى..... ٣١٦
٢.الخزانة الثانية..... ٣٢٦
٣.الخزانة الثالثة..... ٣٤٣
٤.الخزانة الرابعة..... ٤٥٨
٥.الخزانة الخامسة..... ٣٧٤
٦.الخزانة السادسة..... ٣٩٥
٧.الخزانة السابعة..... ٤٠٥
٧.الخزانة الثامنة ..... ٤١٥
٧.الخزانة التاسعة..... ٤٢٨
١٠. الخزانة العاشرة ..... ٤٥٤

**٦٠- خزائن الجهاد في سبيل الله: ..... ٤٧٧**

**القسم الأول ويشتمل على ما يلي: ..... ٤٧٨**

١. الخزانة الأولى..... ٤٧٩

٢. الخزانة الثانية..... ٤٨٨

٣. الخزانة الثالثة..... ٤٩٩

٤. الخزانة الرابعة..... ٥١١

٥. الخزانة الخامسة..... ٥٢٤

٦. الخزانة السادسة..... ٥٣٨

٧. الخزانة السابعة..... ٥٥٥

٧. الخزانة الثامنة ..... ٥٧٥

٧. الخزانة التاسعة..... ٥٩١

١٠. الخزانة العاشرة ..... ٦٠٥

**القسم الثاني ويشتمل على ما يلي: ..... ٦١٩**

١. الخزانة الأولى..... ٦٢٠

٢. الخزانة الثانية..... ٦٣٤

٣.الخزانة الثالثة..... ٦٤٢
٤.الخزانة الرابعة..... ٦٥١
٥.الخزانة الخامسة..... ٦٦١
٦.الخزانة السادسة..... ٦٧٠
٧.الخزانة السابعة..... ٦٨٢
٧.الخزانة الثامنة ..... ٦٩٤
٧.الخزانة التاسعة..... ٧٠٧
١٠. الخزانة العاشرة ..... ٧١٦
**٦١- خزائن الخوف والرجاء ، وتشتمل على: ..... ٧٣٣**
١.الخزانة الأولى..... ٧٣٤
٢.الخزانة الثانية..... ٧٤٣
٣.الخزانة الثالثة..... ٧٥٠
٤.الخزانة الرابعة..... ٧٥٧
٥.الخزانة الخامسة..... ٧٧١
٦.الخزانة السادسة..... ٧٧٩
٧.الخزانة السابعة..... ٧٩١

٧.الخزانة الثامنة ..... ٧٩٦
٧.الخزانة التاسعة..... ٨٠٤
١٠. الخزانة العاشرة ..... ٤٣٢
**٦٢- خزائن التوبة والاستغفار ، وتشتمل على:..... ٨٢٩**
١.الخزانة الأولى..... ٨٣٠
٢.الخزانة الثانية..... ٨٤٠
٣.الخزانة الثالثة..... ٨٥٣
٤.الخزانة الرابعة..... ٨٦٣
٥.الخزانة الخامسة..... ٨٧٤
٦.الخزانة السادسة..... ٨٨٢
٧.الخزانة السابعة..... ٨٩٢
٧.الخزانة الثامنة ..... ٩٠١
٧.الخزانة التاسعة..... ٩١٧
١٠. الخزانة العاشرة ..... ٩٢٥
فهرس الموضوعات ..... ٩٤٢